الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف العلامة المفسّر

آية الله الشيخ

ناصر مكارم الشيرازي

المجلد الثاني

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

الأمثل

٤/٣

البقرة

آل عمران

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

٣ - ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الثالث

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر

١٤٣٤ هـ -٢٠١٣م

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور- ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦- فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

يطلب في العراق : كربلاء - شارع السدرة - تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

التّفسير

حرمة الزّواج أو العدّة

كان الكلام في الآيه السّابقة عن الطّلاق، وهنا تذكر الآية بعض أحكام الطّلاق وما يتعلّق به حيث ذكرت خمسة أحكام له في هذه الآية.

في البداية ذكرت الآية عدّة الطّلاق ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾.

(قروء) جمع (قُرء) تُطلق على الحيض وعلى النقاء منه، ويُمكن الاستفادة من كلا هذين المعنيين مفهوماً كليّاً يجمع بينهما، وهو الانتقال من حالة إلى حالة أُخرى، ويرى «الرّاغب» في المفردات أنّ «القرء» في الحقيقة هي كلمة يُراد منها الانتقال من حالة الحيض إلى الطّهر، وبما أنّ كلا هذين العنوانين مأخوذان في معنى الكلمة، فتُستعمل أحياناً بمعنى الحيض وأُخرى بمعنى الطّهر، ويُستفاد من بعض الرّوايات وكثير من كتب اللّغة أنّ القُرء تعني الجمع بين الحالتين، وبما أنّ حالة الطّهر تجتمع في المرأة مع وجود دم الحيض في رحمها فتطلق هذه المفردة على الطّهر(١) وعلى كلّ حال فقد ورد التّصريح في الروايات أنّ المقصود بالقروء الثلاثة في الآية أن تطهر المرأة ثلاث مرّات من دم الحيض(٢).

وبما أنّ الطّلاق يُشترط فيه أن تكون المرأة في حالة الطّهر الّذي لم يجامعها زوجها فيه فيُحسب ذلك الطّهر مرّة واحدة، وبعد أن ترى المرأة دم الحيض مرّة وتطهر منه حينئذ

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ١٨٧ و ٢٠٢.

(٢) راجع تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٢٣٠ و٢٣١.

تتم عدّتها بمجرّد أن ينتهي الطّهر الثالث وتشرع ولو للحظة في العادة، فيجوز لها حينئذ الزّواج، ومضافاً إلى الروايات في هذا المجال يُمكن استنباط هذه الحقيقة من نفس الآية مورد البحث لأنّ:

أوّلاً: (قُرء) تستبطن جمعين: قروء وأقراء، وما كان جمعه قروء فهو طُهر، وما كان جمعه أقراء فهو بمعنى الحيض(١).

ثانياً: القُرء في اللّغة بمعنى الجمع، كما تقدّم، وهي أنسب لحالة الطّهر، لأنّ الدم يتجمّع في هذه الحالة في الرّحم بينما يخرج ويتفرّق عند العادة الشهريّة(٢).

الحكم الثاني المستفاد من هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

الإسلام قرّر أن تكون المرأة بنفسها هي المرجع في معرفة بداية العدّة ونهايتها حيث إنّ المرأة نفسها أعلم بذلك من الآخرين، وفي الرّواية عن الإمام الصّادق عليه السلام في تفسير الآية محلّ البحث قال: «قد فوّض الله إلى النساء ثلاثة أشياء: الحيض والطّهر والحمل»(٣).

ويمكن أن يُستفاد من الآية هذا المعنى أيضاً، لأنّ الآية تقول: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ ويخبرن بخلاف الواقع، وهذا يعني أنّ كلامهنّ مقبول.

وجملة ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ كما ذهب إليه جماعة من المفسّرين يمكن أن يراد بها معنيان: (الجنين) و(العادة الشهريّة) لأنّ كلا هذين المعنيين قد جعلهما الله في أرحام النساء أي يجب على المرأة أن لا تكتم حملها وتدّعي العادة الشهريّة بهدف تقليل مدّة العدّة (لأنّ عدّة الحامل وضع حملها) وهكذا يجب عليها أن لا تخفي وضع حيضها وتبيّن خلاف الواقع، ولا يبعد استفادة كلا هذين المعنيين من العبارة أعلاه.

الحكم الثالث المستفاد من الآية هو أنّ للزّوج حقّ الرّجوع إلى زوجته في عدّة الطّلاق الرّجعي، فتقول الآية: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَـٰحًا﴾(٤).

وبهذا يستطيع الزّوج استئناف علاقته الزوجية بدون تشريفات خاصّة إذا كانت المرأة

(١) راجع قاموس اللّغة، مادة «قرء».

(٢) لسان العرب: مادة «قرء».

(٣) تفسير مجمع البيان: ج ١، ص ٣٢٦؛ ذيل الآية مورد البحث؛ ووسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ٢٢٢، ح ٢٨٤٤٠.

(٤) «بعولة» جمع «بعل» بمعنى الزوج ويقول الراغب في مفرداته بأنّ البعض يرى اطلاقها على الزوج والزوجة. (التفسيرالكبير، ج ٦، ص ٩٣) وقيل إنّ هذه المفردة تعطي معنى العلو والأفضلية.

في عدّة الطّلاق الرّجعي، فإذا قصد الرّجوع يتحصّل بمجرّد كلمة أو عمل يصدر منه بهذا القصد، وجملة: ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا﴾ في الحقيقة هي لبيان أنّ هدف الرّجوع يجب أن يكون بنيّة الإصلاح لا كما كان عليه الحال في العصر الجاهلي من أنّ الزّوج يستخدم هذا الحق لغرض الإضرار بالزّوجة حيث يتركها في حالة معلّقة بين الزّواج والطّلاق.

فهذا الحقّ يكون للزّوج في حالة إذا كان نادماً واقعاً وأراد أن يستأنف علاقته الزّوجيّة بجديّة، ولم يكن هدفه الإضرار بالزّوجة.

ضمناً يُستفاد ممّا ورد في ذيل الآية من مسألة الرّجوع هو أنّ حكم العدّة والاهتمام بحساب أيّامها يتعلّق بهذه الطائفة من النساء، وبعبارة أُخرى أنّ الآية تتحدّث بشكل عام عن الطّلاق الرّجعي ولهذا فلا مانع من أن تكون بعض أقسام الطّلاق بدون عدّة أصلاً.

ثمّ تبيّن الآية حكماً رابعاً وتقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

يقول الطبرسي في مجمع البيان إنّه يستفاد من هذه العبارة العجيبة والجامعة فوائد كثيرة جدّاً(١)، فهي قد جرّت البحث إلى مسائل أهم بكثير من الطّلاق والعدّة، وقرّرت مجموعة من الحقوق المتبادلة بين الرّجال والنساء فتقول: كما أنّ للرّجال حقوقاً على النساء، فكذلك للنساء حقوق على الرّجال أيضاً، فيجب عليهم مراعاتها، لأنّ الإسلام اهتمّ بالحقوق بصورة متعادلة ومتقابلة ولم يتحيّز إلى أحد الطّرفين.

وكلمة (بالمعروف) التي تأتي بمعنى الأعمال الحسنة المعقولة والمنطقيّة تكرّرت في هذه السلسلة من الآيات اثنتي عشرة مرّة (من الآية مورد البحث إلى الآية ٢٤١) كيما تحذّر النساء والرّجال من عاقبة سوء الاستفادة من حقوق الطّرف المقابل، وعليهم احترام هذه الحقوق والاستفادة منها في تحكيم العلاقة الزوجيّة وتحصيل رضا الله تعالى.

جملة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ تكمّل القاعدة السابقة في الحقوق المتقابلة بين الرّجل والمرأة، وفي الواقع أنّ مفهومها هو أنّ مسألة العدالة بين الرّجل والمرأة لا تكون بالضّرورة بمعنى التساوي في الحقوق وأن يكونا في عرض واحد، فهل يلزم أن يكون الجنسان متساويين تماماً في الواجبات والحقوق؟

لو أخذنا بنظر الاعتبار الاختلافات الكبيرة بين الجنسين على صعيد القوى الجسميّة والروحيّة لاتّضح الجواب عن السؤال.

المرأة بطبيعة مسؤوليتها الحسّاسة في إنجاب الأبناء وتربيتهم تتمتّع بمقدار أوفر من

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٣٢٧.

العواطف والمشاعر والاحساسات، في حين أنّ الرجل وطبقاً لهذا القانون أُنيطت به مسؤولية الواجبات الاجتماعيّة التي تستلزم قوّة الفكر والابتعاد عن العواطف والأحاسيس الشخصيّة أكثر، ولو أردنا إقامة العدالة فيجب أن نضع الوظائف الاجتماعيّة التي تحتاج إلى تفكّر وتحمّل أكثر بعهدة الرّجال، والوظائف والمسؤوليّات التي تحتاج إلى عواطف واحساسات أكثر بعهدة النّساء، ولهذا السبب كانت إدارة الأُسرة بعهدة الرّجل ومقام المعاونة بعهدة المرأة، وعلى أيّ حال فلا يكون هذا مانعاً من تصدّي المرأة للمسؤوليّات الاجتماعيّة المتوائمة مع قدراتها الجسميّة وملكاتها البيولوجيّة فتؤدّي تلك الوظائف والمسؤوليّات إلى جانب أداء وظيفة الأُمومة في الأُسرة.

وكذلك لا يكون هذا التفاوت مانعاً من تفوّق بعض النّساء من الجهات المعنويّة والعلميّة والتقوائيّة على كثير من الرّجال.

فما نرى من إصرار بعض المثقّفين على مقولة التساوي بين الجنسين في جميع الأُمور هو إصرار لا تؤيّده الحقائق على أرض الواقع حيث ينكرون في دعواهم هذه الثّوابت العلميّة في هذا المجال، فحتّى في المجتمعات التي تنادي بالمساواة بين الجنسين في مختلف المجالات نشاهد عملاً بوناً شاسعاً مع نداءاتهم، فمثلاً الإدارة السياسيّة والعسكريّة لجميع المجتمعات البشريّة هي في عهدة الرّجال (إلّا في موارد استثنائيّة) حيث يُرى هذا المعنى أيضاً في المجتمعات الغربيّة التي ترفع شعار المساواة دائماً.

وعلى كلّ حال، فالحقوق التي يختّص بها الرّجال مثل حقّ الطّلاق أو الرّجوع في العدّة أو القضاء (إلّا في موارد خاصّة أُعطي فيها حقّ الطّلاق للزّوجة أو حاكم الشرع) ترتكز على هذا الأساس ونتيجة مباشرة لهذه الحقائق العمليّة.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ جملة: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ناظرة إلى مسألة الرّجوع في عدّة الطّلاق فقط(١)، ولكن من الواضح أنّ هذا التفسير لا يتواءم وظاهر الآية، لأنّ الآية ذكرت قبل ذلك قانوناً كليّاً حول حقوق المرأة ووجوب رعاية العدالة بجملة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ثمّ أوردت العبارة مورد البحث بشكل قانون كلّي آخر بعد ذلك.

وأخيراً تقول الآية: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وهذا إشارة إلى ما يرد في هذا المجال من إشكالات وتساؤلات وأنّ الحكمة الإلهيّة والتدبير الرّباني يستوجبان أن يكون لكلّ شخص في المجتمع وظائف وحقوق معيّنة من قبل قانون الخلقة ويتناسب مع قدراته

(١) تفسير في ظلال القرآن: ج ١، ص ٣٦٠.

وقابليّاته الجسميّة والرّوحيّة، وبذلك فإنّ الحكمة الإلهيّة تستوجب أن تكون للمرأة في مقابل الوظائف والمسؤوليّات الملقاة على عاتقها حقوقاً مسلّمة كيما يكون هناك تعادل بين الوظيفة والحقّ.

بحوث

١ - العدّة وسيلة للعودة والصّلح

أحياناً ينشأ في مناخ الأُسرة وبسبب عوامل مختلفة بعض الاختلافات الجزئيّة وتتهيّأ الأرضيّة النفسيّة لكلٍّ من الزّوجين بشكل يشتد فيه حسّ الانتقام وتنطفي فيه أنوار العقل والوجدان. وفي الغالب تكون حالات الفرقة وتشتّت العائلة ناشئة من هذه الموارد والحالات، ولكن يُشاهد في كثير من الحالات أنّ كلّاً من الزّوجة والزّوج بعد حصول النّزاع والفُرقة بفترة قليلة من الزّمان يصيبهم النّدم وخاصّة بعد مشاهدة انهدام الأُسرة وتلاشي المحيط العائلي الدّافئ لتصبّ حياتهم في بحر المشاكل المختلفة.

وهنا تقول الآية مورد البحث: إنّ على النّساء العدّة والصبر ريثما تهدأ تلك الأمواج النفسيّة وتنقشع سحب النّزاع والعداوة عن سماء الحياة المشتركة، وخاصّة إذا أخذنا بنظر الاعتبار حكم الإسلام في وجوب بقاء المرأة وعدم خروجها من بيت زوجها طيلة مدّة العدّة حيث يبعث ذلك على حُسن التفكّر وإعادة النّظر في قرار الطّلاق ممّا يؤثّر ذلك كثيراً في رسم وصياغة علاقاتها مع زوجها، ولذلك نقرأ في سورة الطّلاق آية ١: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

وفي الغالب نلحظ أنّه يكفي لاستعادة المناخ الملائم والأجواء الدّافئة للأُسرة قبل الطّلاق قليل من تقوية المحبّة وإعادة المياه إلى مجاريها.

٢ - العدّة وسيلة لحفظ النّسل

إنّ أحد الأغراض المهمّة للعدّة هو اتّضاح حالة المرأة بالنّسبة إلى الحمل، فصحيح أنّ رؤية المرأة لدم الحيض مرّة واحدة دليل على عدم الحمل، ولكن أحياناً ترى المرأة دم العادة حين الحمل أيضاً وفي بدايته، فمن أجل رعاية هذا الموضوع والحكم بشكل كامل كان على المرأة أن تصبر لترى العدّة ثلاث مرّات وتطهر منها حتى تقطع تماماً بعدم حملها من زوجها السّابق فيمكنها بعد ذلك الزّواج المجدّد، وطبعاً هناك فوائد أُخرى للعدّة سنشير إليها في مواردها.

٣ - تلازم الحقّ والوظيفة

هنا يشير القرآن الكريم إلى أصل أساس، وهو أنه كلّما كانت هناك وظيفة ومسؤوليّة كان هناك حقّ إلى جانبها، يعني أنّ الوظيفة والحقّ لا ينفصلان أبداً، فمثلاً إنّ على الوالدين وظائف بالنّسبة للأولاد، وهذه الوظائف تسبّب إيجاد حقوق في عهدة الأولاد، أو أنّ القاضي موظّف في تحقيق العدالة في المجتمع ما أمكنه ذلك، وفي مقابل هذه الوظيفة والمسؤوليّة له حقوق كثيرة في عهدة الآخرين، وهكذا بالنّسبة إلى الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم.

وفي الآية مورد البحث إشارة إلى هذه الحقيقة حيث تقول إنّ النساء لهنّ من الحقوق بمقدار ما عليهنّ من الواجبات والوظائف، وهذا التّساوي بين الحقوق والواجبات يسهّل عمليّاً إجراء العدالة في حقّهن، وكذلك يثبت عكس هذا المطلب أيضاً فمن جُعل له حقّ ففي مقابله عليه واجبات ومسؤوليّات لا بدّ من أدائها، ولذلك لا نجد أحداً له حقّ من الحقوق في أحد الموارد وليست في ذمّته وظيفة ومسؤوليّة.

٤ - قصّة المرأة في التّاريخ وحقوقها المهدورة

عانت المرأة خلال العصور التاريخيّة المختلفة ألواناً من الظلم والاضطهاد والتعسّف، ويشكّل هذا التاريخ المؤلم المرّ جزءاً هامّاً من الدراسات الاجتماعية بشكل عامّ يمكن تقسيم تاريخ حياة المرأة إلى مرحلتين:

المرحلة الأُولى: مرحلة ما قبل التاريخ، وليس لنا معلومات صحيحة عن وضع المرأة في هذه المرحلة، ومن الممكن أن تكون قد تمتّعت آنذاك بحقوقها الإنسانية الطبيعيّة.

والمرحلة الثانية: مرحلة التاريخ، والمرأة كانت خلالها في كثير من المجتمعات شخصيّة غير مستقلة في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، واستمرّ هذا الوضع في قسم من المجتمعات حتى القرون الأخيرة.

هذا اللّون من التفكير بشأن المرأة مشهود حتى في القانون المدنيّ الفرنسيّ المشهور بتقدّميته، على سبيل المثال نشير إلى بعض فقراته المتعلّقة بالشؤون المالية للزوجين:

يستفاد من المادّتين ٢١٥ و٢١٧ أنّ المرأة المتزوجة لا تستطيع بدون إذن زوجها وتوقيعه أن تؤدّي أيّ عمل حقوقي، وتحتاج في كلّ معاملة إلى إذن الزوج، هذا إذا لم يرد الرجل أن يستغلّ قدرته وأن يمتنع عن الإذن دون مبرّر.

وحسب المادّة ١٢٤٢ يحقّ للرجل أن يتصرّف لوحده بالثروة المشتركة بين المرأة والرجل بأيّ شكل من الأشكال، ولا يلزمه استئذان المرأة بشرط أن يكون التصرّف في إطار الإدارة، وإلّا لزمت موافقة المرأة وتوقيعها.

وأكثر من ذلك ورد في المادة ١٤٢٨: إنّ حقّ إدارة جميع الأموال الخاصّة بالمرأة موكول إلى الرجل - على أنّ المعاملة الخارجة عن حدود الإدارة تتطلّب موافقة المرأة وتوقيعها -.

وفي أرض الرسالة الإسلامية - أي الحجاز - كانت المرأة تعامل معاملة الكائن غير المستقل، وكانوا يستثمرونها بشكل فظيع قريب من حالة التوحّش. وبلغ وضع المرأة من الانحطاط بحيث إنّ صاحبها كان يستفيد منها للارتزاق أحياناً، فيعرضها للإيجار.

ما كان يعانيه هؤلاء من فقر حضاري وفقر مادّي جعل منهم قساة لا يتورّعون عن ارتكاب جريمة (الوأد) بحقّ الأُنثى.

٥ - المرحلة الجديدة في حياة المرأة

مع ظهور الإسلام وانتشار تعاليمه السامية، دخلت حياة المرأة مرحلة جديدة بعيدة كلّ البعد عمّا سبقها. في هذه المرحلة أصبحت المرأة مستقلّة ومتمتّعة بكلّ حقوقها الفردية والاجتماعية والإنسانية.

تقوم تعاليم الإسلام بشأن المرأة على أساس الآيات التي ندرسها في هذا المبحث حيث يقول تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، فالمرأة بموجب هذه الآية تتمتّع بحقوق تعادل ما عليها من واجبات ثقيلة في المجتمع.

الإسلام اعتبر الرجل كالمرأة كائناً ذا روح إنسانيّة كاملة، وذا إرادة واختيار، ويطوي طريقه على طريق تكامله الذي هو هدف الخلقة، ولذلك خاطب الرجل والمرأة معاً في بيان واحد حين قال: (يا أيها النّاس... ويا أيّها الذين آمنوا). وضع لهما منهجاً تربوياً وأخلاقياً وعلمياً ووعدهما معاً بالسعادة الأبدية الكاملة في الآخرة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾(١).

وأكّد أنّ الجنسين قادران على انتهاج طريق الإسلام للوصول إلى الكمال المعنويّ والماديّ ولبلوغ الحياة الطيّبة المفعمة بالطمأنينة، نظير ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ

(١) سورة غافر، الآية: ٤٠.

عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[١].

الإسلام يرى المرأة كالرجل إنساناً مستقلاً حرّاً، وهذا المفهوم جاء في مواضع عديدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾[٢]. ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾[٣].

هذه الحريّة قرّرها الإسلام للمرأة والرجل، ولذلك فهما متساويان أمام قوانين الجزاء: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾[٤].

لمّا كان الاستقلال يستلزم الإرادة والاختيار، فقد قرّر الإسلام هذا الاستقلال في جميع الحقوق الاقتصادية، وأباح للمرأة كلّ ألوان الممارسات المالية، وجعلها مالكة عائدها وأموالها، يقول سبحانه في سورة النساء: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾[٥].

كلمة (اكتساب) - خلافاً لكلمة (كسب) - لا تستعمل إلّا فيما يعود نتيجته على الإنسان نفسه[٦].

ولو أضفنا إلى هذا المفهوم القاعدة العامّة القائلة: (الناس مسلّطون على أموالهم)[٧] لفهمنا مدى الاحترام الذي أقرّه الإسلام للمرأة بمنحها الاستقلال الاقتصادي، ومدى التساوي الذي قرّره بين الجنسين في هذا المجال.

فالمرأة - في مفهوم الإسلام - ركن المجتمع الأساسي، ولايجوز التعامل معها على أنّها موجود تابع عديم الإرادة يحتاج إلى قيّم.

٦ - المفهوم الصحيح للمساواة

وهنا ينبغي الالتفات إلى مسألة الاختلافات الروحية والجسمية بين المرأة والرجل، وهي مسألة التفت إليها الإسلام بشكل خاصّ وأنكرها بعضهم منطلقين من تطرّف في أحاسيسهم.

إن أنكرنا كلّ شيء فلا نستطيع أن ننكر الاختلافات الصارخة بين الجنسين في

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٥.
(٢) سورة المدّثر، الآية: ٢٨.
(٣) سورة فصّلت، الآية: ٤٦.
(٤) سورة النور، الآية: ٢.
(٥) سورة النساء، الآية: ٣٢.
(٦) راجع مفردات الراغب، هذا طبعاً حين تتقابل كلمتا: كسب واكتساب.
(٧) بحار الانوار، ج ٢، ص ٢٧٢، ح ٧؛ وغوالي اللآلي، ج ١، ص ٢٢٢، ح ٩٩.

الناحية الجسمية والناحية الروحية، وهذه مسألة تناولتها تأليفات مستقلّة ملخّصها:

إنّ المرأة قاعدة انبثاق الإنسان، وفي أحضانها يتربّى الجيل ويترعرع، وهي لذلك خلقت لتكون مؤهلة جسمياً لتربية الأجيال، كما أنّ لها من الناحية الروحية سهماً أوفى من العواطف والمشاعر.

وهل يمكن مع هذا الاختلاف الكبير أن ندّعي تساوي الجنسين في جميع الأعمال واشتراكهما المتساوي في كلّ الأُمور؟!

أليست العدالة أن يؤدّي كلّ كائن واجبه مستفيداً من مواهبه وكفاءاته الخاصّة؟!

أليس خلافاً للعدالة أن تقوم المرأة بأعمال لا تتناسب مع تكوينها الجسمي والروحي؟!

من هنا نرى الإسلام - مع تأكيده على العدالة - يجعل الرجل مقدّماً في بعض الأُمور مثل الإشراف على الأُسرة و. . . ويدع للمرأة مكانتها اللائقة بها.

العائلة والمجتمع يحتاج كلّ منهما إلى مدير، ومسألة الإدارة في آخر مراحلها يجب أن تنتهي بشخص واحد، وإلّا ساد الهرج والمرج.

فهل من الأفضل أن يتولّى هذه المسؤولية المرأة أم الرجل؟ كلّ المحاسبات البعيدة عن التعصّب تقول: إنّ الوضع التكويني للرجل يفرض أن تكون مسؤولية إدارة الأُسرة بيد الرجل، والمرأة تعاونه.

مع إصرار المصرّين ولجاج المتعصّبين على إنكار الواقع، فإنّ وضع الحياة الواقعية في عالمنا المعاصر وحتى في البلدان التي منحت المرأة الحرّية والمساواة بالشكل الكامل - على زعمهم - يدلّ على أنّ المسألة على الصعيد العملي هي كما ذكرناه وإن كانت المزاعم خلاف ذلك.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

سبب النّزول

جاءت امرأة إلى إحدى زوجات النبيّ وشكت لها من زوجها الّذي يطلّقها مراراً ثمّ يعود إليها للإضرار بها، وكان للزّوج في تقاليد الجاهليّة الحقّ في أن يطلّق زوجته ألف

مرّة ثمّ يعود إليها وهكذا، فلم يكن للطّلاق حدٌّ حين ذاك، وحينما اطّلع رسول الله ﷺ على شكوى هذه الامرأة نزلت الآيات أعلاه وبيّنت حدّ الطّلاق[١].

التّفسير

إمّا الحياة الزوجيّة أو الطّلاق بالمعروف

ذكرنا في تفسير الآية السابقة أنّ الإسلام قرّر قانون (العدّة) و(الرّجوع) لإصلاح وضع الأُسرة ومنع تشتّتها وتمزّقها، لكنّ بعض المسلمين الجدد استغلّوا هذا القانون كما كانوا عليه في الجاهليّة، وعمدوا إلى التضييق على الزّوجة بتطليقها المرّة بعد الأُخرى والرّجوع إليها قبل انتهاء العدّة، وبهذه الوسيلة ضيّقوا الخناق على النساء.

هذه الآية تحول بين هذا السّلوك المنحط وتقرّر أنّ الطّلاق والرّجوع مشروعان لمرّتين، أمّا إذا تكرّر الطّلاق للمرّة الثالثة فلا رجوع، والطّلاق الأخير هو الثالث، والمراد من عبارة (الطّلاق مرّتان) هو أنّ الطّلاق الّذي يُمكن معه الرّجوع مرّتان والطّلاق الثالث لا رجوع بعده، وتضيف الآية: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

فعلى هذا يكون الطّلاق الثالث هو الأخير لا رجعة فيه، وبعبارة أُخرى: إنّ المحبّة والحنان المتبادل بين الزّوجين يمكن إعادتهما في المرّتين السابقتين وتعود المياه إلى مجاريها، وفي غير هذه الصّورة إذا تكرّر منه الطّلاق في المرّة الثالثة فلا يحقّ له الرّجوع إلّا بشرائط معيّنة تأتي في الآية التالية.

ويجب الالتفات إلى أنّ (إمساك) يعني الحفظ و(تسريح) بمعنى إطلاق السّراح ومجيء جملة (تسريح بإحسان) بعد جملة (الطّلاق مرّتان) إشارة إلى أنّ الطّلاق الثالث الّذي يفصل بين الزّوجين لا بدّ أن يكون مع مراعاة موازين الحقّ والإنصاف والقيم الأخلاقيّة (جاء في أحاديث متعدّدة أنّ المراد من قوله: ﴿تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ هو الطّلاق الثالث)[٢].

فعلى هذا يكون المراد من التسريح بإحسان أن يؤدّي للمرأة حقوقها بعد الانفصال النهائي، ولا يسعى إلى الإضرار بها عملاً وقولاً بأن يعيبها في غيابها أو يتّهمها بكلمات

---

(١) مجمع البيان: ج ١ و٢، ص ٣٢٩. وورد هذا السبب في التفسير الكبير، والقرطبي وروح المعاني أيضاً في ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير العياشي: ج ١، ص ١١٦؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٢٠٥.

رخيصة ويُسقط شخصيّتها وسمعتها أمام الناس، وبذلك يحرمها من إمكانيّة الزّواج المجدّد، فكما أنّ الصّلح والرّجوع إلى الزّوجة يجب أن يكون بالمعروف والإحسان والمودّة، فكذلك الانفصال النهائي يجب أن يكون مشفوعاً بالإحسان أيضاً، ولهذا تضيف الآية الشريفة ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾.

فعلى هذا الأساس لا يستطيع الزّوج عند الانفصال النهائي أن يأخذ ممّا أعطاها من مهرها شيئاً، وهذا المعنى أحد مصاديق التسريح بإحسان.

وقد ذُكر هذا الحكم بالتفصيل في سورة النّساء الآيتين ٢٠ و٢١ حيث يأتي ذكره.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ مفهوم هذه الجملة أوسع من (المهر) وقالوا إنّه يشمل كلّ ما أعطاه الزوج من الهدايا لزوجته أيضاً[١].

وممّا يستجلب النظر في مورد الرّجوع والصّلح هو التعبير بـ (المعروف) ولكن في مورد الفرقة والانفصال ورد التعبير (بإحسان) الّذي يفهم منه ما هو أعلى وأسمى من المعروف، وذلك من أجل جبران ما يتخلّف من المرارة والكآبة لدى المرأة بسبب الانفصال والطّلاق[٢].

وتستطرق الآية إلى ذكر مسألة (طلاق الخلع) وتقرّر أنّه في حالة واحدة تجوز استعادة المهر وذلك عند رغبة المرأة نفسها بالطّلاق[٣] حيث تقول الآية: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ ثمّ تضيف ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

أي الفدية أو التعويض الّذي تدفعه المرأة للتّخلّص من الرّابطة الزّوجية، هذه الحالة تختلف عن الأُولى في أنّ الطّالب للفرقة هي المرأة نفسها ويجب عليها دفع الغرامة والتعويض للرّجل الّذي يريد ويطلب بقاء العُلقة الزوجيّة، وبذلك يتمكّن الزّوج بهذه الغرامة والفدية أن يتزوّج مرّة أُخرى ويختار له زوجة ثانية.

والجدير بالذكر أنّ الضّمير في جملة (ألّا يُقيما) الوارد بصورة التثنية إشارة إلى الزّوجين، ولكن في جملة (فإن خفتم) ورد بصيغة الجمع للمخاطب، وهذا التفاوت يمكن أن يكون إشارة إلى لزوم نظارة حكّام الشرع على هذا اللّون من الطّلاق، أو إشارة إلى أنّ تشخيص عدم إمكانيّة استمرار الحياة الزوجيّة مع رعاية الحدود الإلهيّة لايمكن أن يكون بعهدة الزّوجين، لأنّه في كثير من الحالات يظنّ الزوجان ولأسباب نفسيّة

---

(١) التفسير الكبير: ج ٩، ص ٩٩.

(٢) تفسير الميزان: ج ٢، ص ٢٣٤ ذيل الآية مورد البحث.

(٣) وهو الطلاق الخلعي المشروح في كتب الفقه.

وحالات عصبيّة عدم إمكانيّة إدامة الحياة الزّوجيّة لأسباب تافهة، ولهذا يجب أن تُطرح المسألة على العرف ومن له علاقة بهذين الزّوجين، فيثبت بهذه الصورة جواز الطّلاق الخلعي.

وفي ختام الآية تشير إلى مُجمل الأحكام الواردة فيها وتقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

مسائل مهمة

١ - لزوم تعدّد مجالس الطّلاق

يُستفاد من جملة (الطّلاق مرّتان) أنّ تعدّد الطّلاق لا يصحّ أن يكون في مجلس واحد، بل يجب أن يقع الطّلاق في مجالس متعدّدة، وخاصّةً إذا عرفنا بأنّ الغاية هو إعطاء فرصة أكثر للرّجوع واحتمال عودة المودّة بعد النّزاع الأوّل.

فإن لم يتحقق الصلح في المرحلة الأُولى فسيتحقّق في الثانية ولكنّ وقوع عدّة طلقات مرّة واحدة يوصد هذا الباب كليّاً وينفصل الزّوجان بعد ذلك نهائيّاً فلا أثر لتعدّد الطّلاق عملاً.

وهذا الحكم المذكور آنفاً مقبول لدى فقهاء الشيعة، ولكن هناك اختلاف بين أهل السّنة بالرّغم من أنّ أكثرهم يرى جواز تعدّد الطّلاق في مجلس واحد.

أمّا كاتب تفسير المنار فينقل عن مسند أحمد بن حنبل وصحيح مسلم أنّ حكم ثلاث طلقات في مجلس واحد لا يُحسب إلّا طلاقاً واحداً، وهذا ما كانت السّنة جارية عليه منذ حياة رسول الله ﷺ وحتى سنتين من خلافة عمر حيث يتّفق على ذلك جميع الصّحابة، ولكنّ الخليفة الثاني بعد ذلك حكم بأنّ الطّلاق ثلاثاً في مجلس واحد صحيح ويقع ثلاثاً[١].

٢ - شيخ الأزهر يأخذ برأي الشيعة

مع حكم الخليفة الثاني بوقوع الطّلاقات الثلاثة في مجلس واحد ذهب جماعة من أهل السّنة إلى عدم وقوعها، ومنهم شيخ الأزهر الأكبر (الشيخ محمود شلتوت) حيث كتب في مجلّة (رسالة الإسلام) وفي مقارنة بين آراء المذاهب الإسلاميّة وأخذ في كثير

(١) تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث؛ وصحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٣ و ١٨٤.

من الأحايين بآراء الشيعة، لأنّها كما يقول أقوى دليلاً ومن ذلك مسألة تعدّد الطّلاق وأفتى رَحِمَهُ اللهُ بأنّ الطلاقات الثلاثة في مجلس واحد هي بمثابة الطّلاق الواحد[١].

٣ - الحدود الإلهيّة

في هذه الآية وآيات كثيرة أُخرى عبّرت عن القوانين الإلهيّة بكلمة (حد) وبهذا فإنّ المعصية ومخالفة هذه القوانين تُعدّ تجاوزاً للحد، وفي الواقع فإنّ بين الأعمال التي يؤدّيها الإنسان توجد مجموعة مناطق ممنوعة، أي يكون الدخول فيها خطراً وترسم القوانين والأحكام الإلهيّة حدود هذه المناطق الممنوعة كالعلامات المنصوبة على تلك المناطق، ولهذا نقرأ في سورة البقرة النهي عن الاقتراب من هذه الحدود ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[٢] لأنّ الاقتراب منها يُعرّض الإنسان إلى خطر السقوط في الهاوية، وكذلك ورد النهي في روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عن مواضع الشبهة، لأنّه بحكم الاقتراب من شفا الهاوية الذي قد يستتبعه السقوط بأدنى غفلة (من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه)[٣].

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

سبب النّزول

جاءت امرأة إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقالت: كنتُ عند ابن عمّي (رفاعة) فطلّقني ثلاثاً، فتزوّجت بعده عبدالرحمن بن الزبير، ولكنّه أيضاً طلّقني قبل أن يمسّني، فهل لي أن أعود إلى زوجي الأول؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لا، حتى يذوق عسيلتك، وتذوقي عسيلته»[٤] أي حتى يتمّ النكاح مع الزوج الثاني.

---

(١) رسالة الإسلام: العدد الأول السنة ١١ ص ١٠٨، نقلاً عن هامش كنز العرفان: ج ٢، ص ٢٧١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٦١ و ١٦٧ و ١٦٩ و ١٧٥.

(٤) تفسير مجمع البيان: ج ١ و٢، ص ٣٣٠، مع التلخيص من سبب النّزول الوارد في تفسير روح المعاني، والقرطبي، والمراغي.

التفسير

جاء في الآية السابقة إجمالاً أنّ للمرأة وللرجل بعد الطلاق الثاني أحد أمرين: إمّا أن يتصالحا ويرجعا إلى الحياة الزوجية، وإمّا أن ينفصلا انفصالاً نهائياً.

هذه الآية حكمها حكم الفقرة التابعة لمادّة قانونية.

فهذه الآية تقول إن حكم الانفصال حكم دائمي، إلّا إذا اتخذت المرأة زوجاً آخر، وطلّقها بعد الدخول بها، فعندئذ لها أن ترجع إلى زوجها الأوّل إذا رأيا أنّهما قادران على أن يعيشا معاً ضمن حدود الله.

ويستفاد من الرّوايات عن أئمّة الدّين أنّ لهذا الزّواج الثاني شرطين، أوّلاً: أن يكون هذا الزّواج دائمياً[1]، والثاني: أن يتبع عقد الزّواج الاتّصال الجنسي[2]، ويمكن استفادة هذين الشرطين من مفهوم الآية أيضاً، أمّا الأوّل وهو أن يكون العقد دائمياً فلجملة ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الشاهدة على هذا المعنى، لأنّ الطّلاق لايكون إلّا في العقد الدائمي، وأمّا الوطء فيمكن أن يُستفاد من جملة ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ لأنّ المستعمل في سيرة أُدباء العرب أنّهم حينما يقولون: (نكح فلان فلانة) فيُمكن أن يراد منه مجرّد العقد، أمّا لو قيل (نكح زوجته) فهذا يدلّ على الوطء (لأنّه حسب الفرض أنّها زوجته فعندما يقال (نكح) في مورد الزوجة فلا يعني سوى العمليّة الجنسيّة)[3] مضافاً إلى أنّ المطلق ينصرف إلى الفرد الغالب، والغالب في عقد الزواج هو اقترانه بالوطء، ومضافاً إلى ما تقدّم فإنّ لهذا الحكم فلسفة خاصّة لا تتحقّق بمجرّد إجراء العقد كما سنشير إلى ذلك لاحقاً. ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

بحث

المحلّل مانع من تكرّر الطّلاق

المعمول بين الفقهاء أنّهم يطلقون على الزّوج الثاني في هذه الموارد اسم (المحلّل) لأنّه يؤدّي إلى أن تكون هذه المرأة حلالاً لزوجها السّابق (طبعاً بعد الطّلاق والعدّة) والظّاهر أنّ مراد الشارع المقدّس من ذلك هو منع تعدّد الطّلقات.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ١٣٢. (٢) المصدر نفسه.
(٣) التفسير الكبير: ج ٦، ص ١٠٤؛ ذيل الآية مورد البحث.

توضيح ذلك: كما أنّ الزّواج أمر ضروريٌّ وحياتيٌّ بالنّسبة للإنسان، فكذلك الطّلاق تحت شرائط خاصّة يكون ضروريّاً أيضاً، ولذلك نجد أنّ الإسلام (وخلافاً للمسيحيّة المحرّفة) يُبيح الطّلاق، ولكن بما أنّه يؤدّي إلى تشتيت العائلة وإلى إنزال ضربات موجعة بالفرد والمجتمع، فقد وضعت شروط متنوعة للحيلولة دون وقوع الطّلاق قدر الإمكان.

إنّ موضوع الزواج المجدّد أو (المحلّل) واحد من تلك الشروط، إذ إنّ زواج المرأة من رجل جديد بعد طلاقها من زوجها الأول ثلاثاً يعتبر عائقاً كبيراً بوجه استمرار الطلاق أو التمادي فيه، فالذي يريد أن يطلّق زوجته الطلاق الثالث، يشعر أنّه إن فعل ذلك فلن تعود إليه وتكون من نصيب غيره، وهذا الشعور يجرح كرامته، ولذلك فهو لن يقدم على هذا العمل عادةً إلّا مضطرّاً.

في الحقيقة أنّ قضية (المحلّل) أو الأصحّ زواج المرأة برجل آخر زواجاً دائمياً يعتبر مانعاً يقف بوجه الرجال من ذوي الأهواء المتقلّبة والمخادعين لكي لا يجعلوا من النساء ألاعيب بين أيديهم وغرضاً لخدمة أهوائهم، وأن لا يمارسوا - بلا حدود - قانون الطلاق والعودة.

إنّ شروط هذا الزواج (كأن يكون دائمياً) تدلّ على أنّ هذا الزواج ليس هدفه إيجاد وسيلة لإيصال الزوجة إلى زوجها الأول، لأنّه يحتمل أن لا يطلقها الزوج الثاني، لذلك فلا يمكن استغلال هذا القانون ورفع العائق عن طريق الزواج المؤقّت.

ومع الالتفات إلى ما ذُكر أعلاه يمكن القول إنّ هدف الزّواج الثاني بعد ثلاث طلقات والسّماح لكلّ من الزوجين في تشكيل حياة زوجيّة جديدة من أجل أن لا يصبح الزّواج هذا الرّباط المقدّس مدعاة للتلاعب وفق أهواء الزوج الأوّل ومشتهياته الشّيطانية، وفي نفس الوقت إذا طلّقها الزوج الثاني فإنّ طريق العودة والرّجوع سيكون مفتوحاً أمامهما فيجوز للزّوج الأوّل نكاحها من جديد، ولذلك أُطلق على الزوج الثاني (المحلّل).

ومن هنا يتّضح أنّ البحث يخص الزّواج الواقعي الجاد بالنّسبة إلى المحلّل، أمّا إذا قصد شخص منذ البداية أن يتوسّل بزواج مؤقّت، واعتبر القضية مجرّد شكليّات يحلّها (المحلّل) فإنّ زواجاً هذا شأنه لا يُؤخذ به ويكون باطلاً، كما أنّ المرأة لا تحلّ لزوجها الأوّل، ولعلّ الحديث المذكور (لعن الله المحلّل والمحلّل له)[1] يشير إلى هذا النوع من المحلّلين، وهذا الأُسلوب من الزّواج الظّاهري والشكلي.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ج ٢، ص ٣٣١، ونقل هذا الحديث تفسير القرطبي والمنار والمراغي في ذيل الآية مورد البحث.

وذهب البعض إلى أنّ الزوج الثاني إذا قصد الزّواج الدائمي الجدّي، ولكن كانت نيّته أن يفتح طريق عودة المرأة ورجوعها إلى الزّوج الأوّل، فإن هذا الزّواج يُعتبر باطلاً أيضاً، وذهب البعض أيضاً إلى أنّه في هذه الحالة يقع الزّواج صحيحاً رغم أنّ نيّته هي إرجاع المرأة إلى زوجها الأوّل، ولكنّه مكروه بشرط أن لا يُذكر هذا المعنى كالجزء من شرائط العقد.

ومن هنا تتضح أيضاً الضجّة المفتعلة للمغرضين الّذين اتّخذوا من (المحلّل) ذريعة لِشن حملاتهم الظّالمة على أحكام الإسلام ومقدّساته، فهذه الضجّة المفتعلة دليل على جهلهم وحقدهم على الإسلام، وإلّا فإنّ هذا الحكم الإلهي بالشّرائط المذكورة عامل على منع الطّلاق المتكرّر والحدّ من التصرّفات الهوجاء لبعض الأزواج، ودافعٌ على إصلاح الوضع العائلي وإصلاح الحياة الزوجيّة.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾

التّفسير

تستمرّ هذه الآية في تبيان الأحكام التي أقرّها الإسلام للطلاق، لكي لا تهمل حقوق المرأة وحرمتها.

تقول الآية: ما دامت العدّة لم تنته، وحتى في آخر يوم من أيامها، فإنّ للرجل أن يصالح زوجته ويعيدها إليه في حياة زوجية حميمة: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

وإذا لم تتحسّن الظروف بينهما فيطلق سراحها ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

ولكن كلّ رجوع أو تسريح يجب أن يكون في جوّ من الإحسان والمعروف وأن لا يخالطه شيء من روح الانتقام. ثمّ تشير الآية إلى المفهوم المقابل لذلك وتقول:

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

هذه الجملة في الحقيقة تفسير لكلمة «معروف» أي أنّ الرجوع يجب أن يكون على

أساس من الصفاء والوئام، وذلك لأنّ الجاهليّين كانوا يتّخذون من الطّلاق والرجوع وسيلة للانتقام، ولهذا يقول القرآن بلهجة قاطعة: إنّ استرجاع الزوجة يجب أن لا يكون رغبة في الإيذاء والاعتداء، إذ إنّ ذلك - فضلاً عن كونه ظلماً للزوجة - ظلم للزوج أيضاً.

والآن علينا أن نعرف لماذا يكون ظلم الزوج لزوجته ظلماً لنفسه أيضاً؟

أولاً: إنّ الرجوع المبني على غمط الحقوق لايمكن أن يمنح الهدوء والاستقرار.

ثانياً: الرجل والمرأة - بالنظرة القرآنية - جزءان من جسد واحد في نظام الخلقة، فكلّ غمط لحقوق المرأة هو ظلم وعدوان على الرجل نفسه.

ثالثاً: إنّ من يستسيغ ظلم الآخرين يكون غرضاً لنيل العقاب الإلهي، فيكون بذلك قد ظلم نفسه.

ثمّ يحذّر القرآن الجميع: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾.

هذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى بعض التقاليد الجاهلية المترسّخة في أفكار الناس، ففي الرواية أنّ بعض الرجال في العصر الجاهلي يقولون حين الطّلاق: إنّ هدفنا من الطّلاق هو اللّعب والمزاح، وكذلك الحال عندما يعتقون عبداً أو يتزّوجون من امرأة.

فنزلت الآية أعلاه لتحذّرهم بأنّ كلّ من يطلّق زوجته أو يعتق عبده أو يتزوّج من امرأة أو يزوّجها من شخص آخر، ثمّ يدّعي أنّه كان يمزح ويلعب فإنّه لا يُقبل منه، ويتحقّق ما أقدم عليه في الواقع العملي بشكل جاد[1].

ويُحتمل أيضاً أنّ الآية ناظرة إلى حال الأشخاص الّذين يستغلّون الأحكام الشرعيّة لتبرير مخالفاتهم ويتمسّكون بالظّواهر من أجل بعض الحيل الشرعيّة، فالقرآن يعتبر هذا العمل نوعاً من الاستهزاء بآيات الله، ومن ذلك نفس مسألة الزّواج والطّلاق والرّجوع في زمان العدّة بنيّة الانتقام وإلحاق الضرّر بالمرأة والتّظاهر بأنّه يستفيد من حقّه القانوني.

فعلى هذا لاينبغي الإغماض عن روح الأحكام الإلهيّة والتمسّك فقط بالظّواهر الجامدة لها، فلا ينبغي اتّخاذ آيات الله ملعبة بيد هؤلاء، فإنّه يُعتبر ذنباً عظيماً ويترتّب عليه عقوبة أليمة.

---

(١) تفسير القرطبي: ج ٢، ص ٩٦٤، ومثله في تفسير المراغي: ج ٢، ص ١٧٩.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

هذه تحذيرات من أجل أن تعلموا: أوّلاً: أنّ الله تعالى عدّ تلك التصرّفات من خرافات وتقاليد الجاهليّة الشنيعة بالنّسبة إلى الزّواج والطّلاق وغير ذلك، فأنقذكم منها وأرشدكم إلى أحكام الإسلام الحياتية، فينبغي أن تعرفوا قدر هذه النّعمة العظيمة وتؤدّوا حقّها، وثانياً: بالنسبة إلى حقوق المرأة ينبغي أن لا تسيئوا إليها بالاستفاده من موقعيّتكم، ويجب أن تعلموا أنّ الله تعالى مُطّلعٌ حتى على نيّاتكم(١).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾

سبب النّزول

كان أحد أصحاب رسول الله ﷺ وهو (معقل بن يسار) يعارض زواج أُخته (جملاء) من زوجها الأوّل (عاصم بن عدي) لأنّ عاصماً كان قد طلّقها من قبل، ولكن بعد انقضاء العدّة رغب الزوجان بالعودة بعقد نكاح جديد. فنزلت الآية ونهت الأخ عن معارضة هذا الزواج.

وقيل إنّ الآية نزلت في معارضة (جابر بن عبد الله) زواج ابنة عمّه من زوجها السابق(٢).

وربّما كان حقّ المنع هذا يعطى في الجاهلية للأقربين.

لا شكّ أنّ الأخ وابن العمّ لا ولاية لهما - في فقهنا - على الأُخت وابنة العم. إلّا أنّ هذه الآية تتحدّث عن حكم عام - كما سنرى - يشمل الأولياء وغير الأولياء، وتقول

(١) فعلى هذا تكون جملة ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ عطفاً على ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أو من قبيل عطف الخاصّ على العامّ وفي هذه الصورة يكون مفهوم «نعمة الله» واسعاً حيث يشمل جميع النعم الإلهيّة التي منها نعمة المحبّة والألفة التي جعلها الله بين الزوجين.

(٢) تفسير مجمع البيان: ج ١ و٢، ص ٣٣٢. ونقل أكثر المفسّرين مثل: القرطبي، التفسير الكبير، روح المعاني، في ظلال القرآن أحد سببي النزول أو كليهما في ذيل الآية المبحوثة.

إنّه حتى الأب والأُم وابن العم، وكذلك الغرباء لا حقّ لهم في الوقوف بوجه هذا الزواج.

التفسير

ذكرنا في البحوث السابقة كيف كانت النسوة يعشن في أسر العادات الجاهلية، وكيف كنّ تحت سيطرة الرجال دون أن يعنى أحد برغبتهنّ ورأيهنّ.

واختيار الزوج كان واحداً من قيود ذلك الأسر، إذ إنّ رغبة المرأة وإرادتها لم يكن لها أيّ تأثير في الأمر، فحتّى من كانت تتزوج زواجاً رسمياً ثمّ تطلّق لم يكن لها حقّ الرجوع ثانية بمحض إرادتها، بل كان ذلك منوطاً برغبة وليّها أو أوليائها، وكانت ثمّة حالات يرغب فيها الزوجان بالعودة إلى الحياة الزوجيّة بينهما، ولكن أولياء المرأة كانوا يحولون دون ذلك تبعاً لمصالحهم أو لتخيّلاتهم وأوهامهم.

إلّا أنّ القرآن أدان هذه العادة، ورفض أن يكون للأولياء مثل هذا الحقّ، إذ إنّ الزوجين - وهما ركنا الزواج الأصليان، إذا توصّلا إلى اتفاق على العودة بعد الانفصال - يستطيعان ذلك دون أن يكون لأحد حقّ الاعتراض عليهما. تقول الآية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ هذا إذا كان المخاطب في هذه الآية هم الأولياء من الرجال الأقارب، ولكن يحتمل أن يكون المخاطب هو الزوج الأوّل، بمعنى أنكم إذا طلقتم زوجاتكم فلا تمنعوهن من الزواج المجدّد مع رجال آخرين، حيث إنّ بعض الأشخاص المعاندين في السابق وفي الحال الحاضر يشعرون بحساسية شديدة تجاه زواج زوجاتهم السابقات من آخرين، وما ذلك سوى نزعة جاهلية فحسب[١].

في الآية السابقة (بلوغ الأجل) يعني بلوغ أواخر أيام العدّة، ولكن في هذه الآية المقصود هو انقضاء آخر يوم من العدّة، بقرينة الزواج المجدّد. فالغاية في الآية السابقة جزء من المغيّا وفي الآية محل البحث خارجة عن المغيّا.

ويتبين من هذه الآية أنّ الثيّبات - أي اللّواتي سبق لهنّ الزواج ثمّ طلّقن أو مات أزواجهنّ - إذا شئن الزّواج ثانية فلا يلزمهنّ موافقة أوليائهنّ أبداً.

---

(١) رجح البعض التفسير الثاني لأنّ المخاطب في الآيات السابقة هو الأزواج ولكنه يشكل بأن تعبير «أزواجهن» يكون تعبيراً مجازياً بالنسبة إلى الأزواج مضافاً إلى أنّه لا ينسجم مع شأن النّزول.

ثمّ تضيف الآية وتحذّر ثانية وتقول: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ثمّ من أجل التأكيد أكثر تقول: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يشير هذا المقطع من الآية إلى أنّ هذه الأحكام قد شُرّعت لمصلحتكم غاية الأمر أنّ الأشخاص الّذين ينتفعون بها هم الّذين لهم أساس عقائدي من الإيمان بالله والمعاد ولا يتبّعون أهواءهم.

وبعبارة أُخرى إنّ هذه الجملة تقول: إنّ نتيجة العلم بهذه الأحكام يصبُّ في مصلحتكم، لكنّكم قد لا تدركون الحكمة والغاية منها لجهلكم وقلّة معارفكم، والله هو العالم بكلّ الأسرار، ولذلك قرّر هذه الأحكام وشرّعها لما فيها من تزكيتكم وحفظ طهارتكم.

والجدير بالذّكر أنّ الآية تشير إلى أنّ العمل بهذه الأحكام يستوجب: (التزكية) و(الطهارة) فتقول: ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ يعني أنّ العمل بها يطهّر أفراد العائلة من مختلف الأدناس والخبائث، وكذلك يوجب لهم الخير والبركة والتكامل المعنوي، لأنّ (التّزكية) في الأصل (الزّكاة) بمعنى النمو.

وذكر بعض المفسّرين أنّ جملة (أزكى لكم) تشير إلى الثواب المترتّب على الأعمال، وجملة (أطهر) تشير إلى الطّهارة والنّقاء من الذّنوب. ومن البديهي أنّ الزّوجين بالرّغم من كلّ تلك العلاقة الوطيدة والحميمة التي تربط بينهما قد ينفصلان بسبب بعض الحوادث المؤسفة، ولكن بعد الانفصال والفرقة ومشاهدة الآثار الوخيمة المترتّبة على هذه الفرقة يندمان ويصمّمان على العودة إلى الحياة المشتركة، وهنا لا ينبغي التشدّد والتعصّب لمنع عودتهما لأنّ ذلك يخلّد آثاراً سلبيّة وخيمة في روحيّة كلٍّ منهما، وقد يؤدّي إلى انحرافهما وتلوّثهما بالرّذيلة، وإن كان لهما أبناء كما هو الغالب فإنّ مصيرهم سوف يكون تعيساً جدّاً، ومسؤوليّة هذه العواقب الأليمة والإفرازات المشؤومة تكون بعهدة من يمنع هذين الزّوجين من المصالحة.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

التّفسير

أحكام الرّضاع السّبعة

هذه الآية في الواقع استمرار للأبحاث المتعلّقة بمسائل الزّواج والحياة الزّوجيّة، وتبحث مسألة مهمّة هي مسألة (الرّضاع)، وتذكر بعبارات مقتضبة، وفي نفس الوقت ذات معنىً عميق، الجزئيات المتعلّقة بالرّضاع المختلفة، فهناك على العموم سبعة أحكام في هذا الباب:

١ - تقول الآية في أوّلها: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾. (والدات) جمع (والدة) وهي في اللّغة بمعنى الأم، ولكنّ كلمة الأم لها معنىً أوسع وهي قد تُطلق على الوالدة وعلى الجدّة أي والدة الوالدة، وقد تعني أصل الشيء وأساسه.

وفي هذا المقطع من الآية نلاحظ أنّ حقّ الإرضاع خلال سنتي الرضاعة يعود للأُم، فهي التي لها أن ترضع مولودها خلال هذه المدّة وأن تعتني به، وعلى الرغم من أنّ (الولاية) على الأطفال الصغار قد أُعطيت للأب، ولكن لمّا كانت تغذية الوليد الجسمية والروحية خلال هذه المدّة ترتبط ارتباطاً لا ينفصم بلبن الأم وعواطفها، فقد أُعطيت حقّ الاحتفاظ به، كما تجب مراعاة عواطف الأُمومة، لأنّ الأُم لا تستطيع في هذه اللحظات الحسّاسة أن ترى حضنها خالياً من وليدها وأن لا تبالي به، وعليه فإنّ تخصيصها بحقّ الحضانة والرعاية والرضاعة يعتبر حقاً ذا جانبين، فهو يرعى حال الطفل كما يرعى حال الأُم، والتعبير بـ(أولادهن) إشارة لطيفة إلى هذا المعنى. وبالرغم من أنّ الجملة مطلقة ظاهراً وتشمل النساء المطلقات وغير المطلقات، ولكن الجملة اللاحقة توضح أن الآية تقصد النساء المطلقات مع وجود هذا الحقّ لسائر الأُمهات، ولكن في صورة عدم وجود الطلاق فلا أثر عملي لهذا الحكم.

٢ - ليس من الضروري أن تكون مدّة رضاعة الطفل سنتين حتماً، إنّما السنتان لمن يريد أن يقضي دورة رضاعة كاملة ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ ولكن للأُم أن تقلل من هذه الفترة حسب مقتضيات صحّة الطفل وسلامته.

في الروايات التي وصلتنا من أهل البيت عليهم السلام أنّ دورة رضاعة الطفل الكاملة سنتان كاملتان، ودورتها غير الكاملة ٢١ شهراً[١]، ولعلّ هذا يأخذ أيضاً بنظر الاعتبار مفاد

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ١٧٧ (باب أقلّ مدّة الرضاع وأكثره، ح ٢ و ٥)، وورد في بعض الروايات إذا نقص عن ٢١ شهراً كان ظلماً للرضيع.

هذه الآية مع الآية (١٥) من سورة الأحقاف التي تقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ﴾. ولمّا كانت فترة الحمل ٩ أشهر، فتكون فترة الرضاعة الاعتيادية ٢١ شهراً.

ولمّا لم يكن في آية سورة الأحقاف ما يفيد الإلزام والوجوب، فإنّ للوالدات الحقّ في تخفيض فترة ال - ٢١ شهراً بما يتّفق وصحّة الوليد وسلامته.

٣ - نفقة الأُم في الطعام واللباس، حتى عند الطلاق أثناء فترة الرضاعة تكون على والد الطفل، لكي تتمكن الأُم من الانصراف إلى العناية بطفلها وإرضاعه مرتاحة البال وبدون قلق.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾.

هنا تعبير (المولود له) بدلاً من (الأب) يستلفت الانتباه، ولعلّه جاء لاستثارة عواطف الأُبوة فيه في سبيل حثّه على أداء واجبه. أي أنّه إذا كان قد وضع على عاتقه الإنفاق على الوليد وأُمه خلال هذه الفترة، فذلك لأنّ الطفل ابنه وثمرة فؤاده، وليس غريباً عنه.

إنّ الإتيان بقيد (المعروف) يشير إلى أنّ طعام الأُم ولباسها ينبغي أن يكونا من اللائق بها والمتعارف عليه، فلا يجوز التقتير ولا الإسراف.

ولرفع كلّ غموض محتمل تشير الآية إلى أنّ على كلّ أب أن يؤدّي واجبه على قدر طاقته ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾. ويرى البعض أنّ هذه الجملة بمثابة العلّة لأصل الحكم. والبعض الآخر بعنوان تفسير الحكم السابق (والنتيجة واحدة).

٤ - لا يحقّ لأيّ من الوالدين أن يجعلا من مستقبل وليدهما ومصيره أمراً مرتبطاً بما قد يكون بينهما من اختلافات، حيث لا يؤمن معه أن تتعرض روحية الوليد لضربة لا يمكن تفادي آثارها.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾.

على الأب أن يحذر انتزاع الوليد من أحضان أُمه خلال فترة الرضاعة فيعتدي بذلك على حقّ الأُم في حضانة وليدها، كما أنّ على الأُم التي أُعطيت هذا الحقّ أن لا تستغله وأن لا تتذرّع بمختلف الأعذار الموهومة للتنصّل من إرضاع وليدها، أو أن تحرم الأب من رؤية طفله.

وذكر احتمال آخر في تفسير الآية وهو أنّ المراد أنّ الأب ليس له أن يسلب الزّوجة حقّها في المقاربة الجنسيّة بسبب الخوف من الحمل وفي النتيجة الإضرار بالمُرضع، ولا الأُم بإمكانها منع زوجها من هذا الحقّ لهذا السبب، ولكنّ التفسير الأوّل أكثر

انسجاماً مع ظاهر الآية[١].

التعبير بـ(ولدِها) و(ولده) من أجل تشويق الآباء والأُمهّات لرعاية حال الأطفال الرُّضع، مضافاً إلى أنّه إشارة إلى أنّ الرّضيع متعلّق بكليهما خلافاً لما هو المرسوم من تقاليد الجاهليّة من أنّ الولد متعلّق بالأب خاصّة وليس للأُم سهم من الحقّ فيه.

٥ - ثمّ تبيّن الآية حكماً آخر يتعلّق بما بعد وفاة الأب فتقول: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾.

يعني أنّ الورثة يجب عليهم تأمين احتياجات الأُم في مرحلة الرّضاعة للطفل، وهناك احتمالات أُخرى في تفسير الآية الشريفة ولكنّها ضعيفة.

٦ - وتتحدّث الآية أيضاً عن مسألة فطام الطّفل عن الرّضاعة وتجعله بعهدة كلّ من الأبوين على الرّغم ممّا جاء في الآيات السابقة من تحديد فترة الرّضاعة، إلّا أنّ للأبوين أن يفطما الطّفل وقتما يشاءان حسب ما تقتضيه صحّة الطّفل وسلامته الجسميّة، وتقول الآية: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

وفي الواقع أنّ الأب والأُم يجب أن يراعيا مصالح الطّفل ويتشاورا في ذلك للوصول إلى التّوافق والتّراضي، فيضعا برنامجاً مدروساً لفطام الطّفل من الرّضاع دون أن يحدث لهما مشاجرة في هذه المسألة والتي قد تؤدّي إلى ضياع حقوق الطّفل.

٧ - أحياناً تمتنع الأُم من حضانة الطّفل وممارسة حقّها في إرضاعه ورعايته أو أنّه يوجد هناك مانع حقيقي لذلك، ففي هذه الصّورة يجب التفكير في حلّ هذه المسألة ولهذا تقول الآية: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وهناك عدّة تفاسير لجملة ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فذهب بعض المفسّرين الى أنّه لا مانع من اختيار مرضعة بدل الأُم بعد توافق الطرفين بشرط أنّ هذا الأمر لا يسبّب إهدار حقوق الأُم بالنسبة إلى المدّة الفائتة من الرّضاعة، بل يجب إعطاؤها حقّها في المدّة الفائتة التي أرضعت فيها الطّفل حسب ما تقتضيه الأعراف والعادات.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ العبارة ناظرة إلى حقّ المرضعة، فيجب أداء حقّها وفقاً لمقتضيات العرف والعادة، وذهب آخرون إلى أنّ المراد من هذه الجملة هو اتّفاق الأب والأُم في مسألة انتخاب المرضعة، فعلى هذا تكون تأكيداً للجملة السابقة، ولكنّ

---

(١) على التفسير الأوّل فعل «لا تضار» فعل معلوم، وعلى التفسير الثاني فعل مجهول وإن كان تلفظ الاثنين واحداً، تأمل جيداً.

هذا التفسير ضعيف ظاهراً، والصحيح هو التفسير الأوّل والثاني، وقد اختار المرحوم (الطبرسي) التفسير الأول[١].

وفي الختام تحذّر الآية الجميع وتقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فلا ينبغي للاختلافات التي تحصل بين الزّوجين أن تؤدّي إلى إيقاد روح الانتقام فيهما حيث يعرّض مستقبلهما ومستقبل الطّفل للخطر، فلابدّ أن يعلم الجميع بأنّ الله تعالى يراقب أعمالهم بدقّة.

هذه الأحكام المدروسة بدقّة والمشفوعة بالتّحذيرات تبيّن بوضوح درجة اهتمام الإسلام بحقوق الأطفال وكذلك الأُمّهات حيث يدعو إلى رعاية الحدّ الأكثر من العدالة في هذا المجال.

أجل، فإنّ الإسلام - وعلى خلاف ما هو السائد في العالم المادي المعاصر حيث تسحق فيه حقوق الطبقة الضعيفة - يهتم غاية الاهتمام بحفظ حقوقهم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)﴾

التّفسير

خرافات تبعث على تعاسة المرأة:

إنّ واحدة من المشاكل الرئيسية في حياة المرأة هي الزواج بعد موت زوجها. ولمّا كان بناء الأرملة بزوج جديد بعد موت زوجها السابق مباشرةً لا ينسجم مع ما تكنّه من حبّ واحترام لزوجها المتوفى، ولا مع الاطمئنان إلى عدم وجود حمل في رحمها منه،

(١) تفسير مجمع البيان: ج ١ و٢، ص ٣٣٦.

وقد يؤدّي إلى جرح مشاعر أهل زوجها الأول، فقد جاءت الآية تشترط للزواج الجديد أن يمرّ على موت زوجها السابق أربعة أشهر وعشرة أيّام.

إنّ احترام الحياة الزوجية بعد موت أحد الزوجين أمر فطري، بحيث نجد في مختلف القبائل تقاليد وطقوساً خاصّة بهذا الموضوع على الرغم من أنّ بعض هذه العادات كانت تبلغ حدّ الإفراط الذي يقيّد المرأة بقيود ثقيلة تبلغ حدّ القضاء على حياتها احتراماً لذكرى زوجها الراحل، كقيام بعض القبائل بحرق المرأة بعد موت زوجها، أو بدفنها حيّة معه في قبره، وبعض آخر كانوا يحرمون المرأة من الزواج بعد زوجها مدى الحياة، وفي بعض القبائل كان على المرأة أن تقضي بعض الوقت بجانب قبر زوجها تحت خيمة سوداء قذرة وفي ملابس رثّة بعيدة عن كلّ نظافة أو زينة أو اغتسال(١).

إلّا أنّ الآية المذكورة تلغي كلّ هذه الخرافات، ولكنّها تحافظ على احترام الحياة الزوجيّة بإقرار العدّة.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وبما أنّ أولياء وأقرباء المرأة يتدخّلون أحياناً في أمرها أو يأخذون بمصالحهم بنظر الاعتبار في زواجها المجدّد تقول الآية في ختامها: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وسيُجازي كلّ شخص بما عمله من أعمال سيئة أو حسنة.

وجملة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والتي تشير إلى أنّ المخاطب فيها هم الرّجال من أقرباء المرأة، تدلّ على أنّهم كانوا يرون في تحرّر المرأة بعد وفاة زوجها عيباً وإثماً، ويعتقدون بأنّ التضييق عليها والتشدّد في أمرها من واجباتهم، فهذه الآية تأمر بصراحة بترك هذه المرأة حرّة في اختيارها ولا إثم عليكم من ذلك (ويستفاد ضمناً من هذه العبارة سقوط ولاية الأب والجد أيضاً عليها) ولكن في نفس الوقت تتضمّن الآية تحذيراً للمرأة بأنّه لا ينبغي أن تسيء الاستفادة من هذه الحريّة، بل تتقدّم إلى اختيار الزوج الجديد بخطوات مدروسة وأُسلوب لائق ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وحسب ما وصلنا من أئمّة المسلمين فإنّ على الأرامل في هذه الفترة أن يحافظن على مظاهر الحزن، أي ليس لهنّ أن يتزينّ مطلقاً، بل ينبغي التجرّد من كلّ زينة(٢)، ولاشكّ أنّ فلسفة المحافظة على هذه العدّة توجب ذلك أيضاً.

---

(١) الإسلام وعقائد الإنسان: ص ٦١٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٢٢٢، ص ٢٣٣، (باب وجوب الحداد على المرأة... بترك الزينة والطيب ونحوهما).

لقد حرّر الإسلام المرأة من الخرافات الجاهليّة واقتصر على هذه العدّة القصيرة بحيث ظنَّ بعضهم أنّ لها أن تتزوّج حتى خلال هذه الفترة، ومن ذلك أنّ امرأة قدمت على رسول الله ﷺ تستجيزه أن تكتحل وهي في العدّة فنهاها رسول الله وذكّرها بما كان يفرض على المرأة في الجاهليّة خلال سنة كاملة بعد الوفاة من حداد شديد وإرهاق فظيع مشيراً إلى سماحة الإسلام في هذا الأمر[1] وإنّه ممّا يلفت النّظر أنّ الأحكام الإسلاميّة بشأن العدّة تأمر المرأة بالتزام العدّة حتى وإن لم يكن هناك أيّ احتمال بأن تكون حاملاً، حيث إنّ عدّتها لا تبدأ بتاريخ موت زوجها، بل بتاريخ وصول خبر موت زوجها إليها وإن يكن بعد شهور، وهذا يدلّ دلالة قاطعة على أنّ الهدف من هذا التشريع هو الحفاظ على احترام الحياة الزوجيّة وحرمتها إضافةً إلى ما لهذا التشريع من أهميّة بالنّسبة لاحتمال حمل المرأة.

الآية الثانية تشير إلى أحد الأحكام المهمّة للنّساء في العدّة (بمناسبة البحث عن عدّة الوفاة في الآيات السّابقة) فتقول: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ﴾.

فهذه الآية تبيح للرّجال أن يخطبوا النّساء اللّواتي في عدّة الوفاة بالكناية أو الإضمار في النّفس ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ﴾ وهذا الحكم في الواقع من أجل الحفاظ على حرمة الزّواج السّابق من جهة، وكذلك لايحرم الأرملة من حقّها في تعيين مصيرها من جهة أُخرى، فهذا الحكم يُراعي العدالة وكذلك حفظ احترام الطّرفين.

ومن الطّبيعي أن تفكّر المرأة في مصيرها بعد وفاة زوجها، وكذلك يفكّر بعض الرّجال بالزّواج بهنّ للشروط اليسيرة السهلة في الزّواج بالأرامل، ولكن من جهة لا بدّ من حفظ حرمة دائرة الزّوجيّة السّابقة كما ورد من الحكم آنفاً ما يدلّ بوضوح على رعاية كلّ هذه المسائل المذكورة، ونفهم من عبارة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أنّه مضافاً إلى النهي عن الخطبة العلنيّة فإنّه لا يجوز كذلك أن تصارحوهنّ بالخطبة سرّاً أيضاً إلّا إذا كان الكلام بهذا الشأن يتّفق مع الآداب الاجتماعيّة في موضوع موت الزّوج، أي أن يكون الكلام بالكناية وبشكل مبطّن.

وعبارة (عرّضتم) من مادّة (التّعريض) والتي تعني كما يقول الرّاغب في المفردات: الحديث الّذي يحتمل معنيين: الصدق والكذب، أو الظّاهر والباطن.

---

(١) تفسير المنار: ج ٢، ص ٤٢٢.

وعلى قول المفسّر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان أنّ التّعريض ضد التصريح، وهو في الأصل من مادّة (عرض) الذي هو بمعنى جانب الشيء[١].

ويضرب أئمّة الإسلام في تفسير هذه الآية بشأن الخطبة الخفيّة أو القول المعروف كما يقول القرآن أمثلة عديدة[٢]، من ذلك ما ورد عن الإمام الصادق قال: «يلقاها فيقول إنّي فيك راغب وإنّي للنّساء لمكرم فلا تسبقيني بنفسك»[٣].

وقد ورد هذا المضمون أو ما يماثله في كلام كثير من الفقهاء، والجدير بالذّكر أنّ الآية أعلاه على الرّغم من أنّها وردت بعد الآية التي تذكر عدّة الوفاة، ولكنّ الفقهاء صرّحوا بأنّ الحكم أعلاه لا يختصّ بعدّة الوفاة بل يشمل غيرها أيضاً.

يقول المرحوم الفقيه والمحدّث المعروف صاحب الحدائق: «وقد صرّح الأصحاب بأنّه لا يجوز التعريض بالخطبة لذات العدّة الرجعية لأنّها زوجة، ويجوز للمطلّقة ثلاثاً من الزوج وغيره، ولا يجوز التصريح لها منه ولا من غيره، أمّا المطلّقة تسعاً للعدّة ينكحها بينها رجلان فلا يجوز التعريض لها من الزوج ويجوز من غيره، ولا يجوز التصريح في العدّة منه ولا من غيره.

أمّا العدّة البائنة فيجوز التعريض من الزوج وغيره والتصريح من الزوج دون غيره»[٤].

وإذا أردتم التفصيل راجعوا الكتب الفقهية بالأخص كتاب الحدائق في استمرار هذا البحث.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ فمن المسلّم أنّ الشخص إذا عقد على المرأة في عدّتها يقع العقد باطلاً، بل إنّه إذا أقدم على هذا العمل عالماً بالحرمة فإنّ هذه المرأة ستحرم عليه أبداً.

وبعد ذلك تعقب الآية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وبهذا لا بدّ أن تعلموا أنّ الله تعالى مطّلع على أعمالكم ونيّاتكم وفي نفس الوقت لا يؤاخذ المذنبين بسرعة.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ج ١ و٢، ص ٣٣٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٤٩٧ - ٤٩٩.
(٣) نورالثقلين، ج ١، ص ٢٣٢، ح ٩٠٥.
(٤) الحدائق: ج ٢٤، ص ٩٠.

جملة (لاتعزموا) من مادّة (عزم) بمعنى قصد، فعندما تقول الآية: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ فهو في الواقع نهيٌ مؤكّد عن الإقدام العملي على عقد الزّواج ويعني التّحذير حتى من نيّة وقصد هذا العمل في زمان العدّة.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

التّفسير

كيفيّة أداء المهر

في هاتين الآيتين نلاحظ أحكاماً أُخرى للطّلاق استمراراً للأبحاث السّابقة.

تقول الآية في البداية: (لا جناح عليكم إن طلّقتم النساء ما لم تمسّوهنّ[1] أو تفرضوا لهنّ فريضة) وهذا يعني جواز طلاق النساء قبل المقاربة الجنسيّة وقبل تعيين المهر، وهذا في صورة ما إذا علم الرّجل أو كلا الزّوجين بعد العقد وقبل المواقعة أنّهما لا يستطيعان استمرار الحياة الزّوجيّة هذه، فمن الأفضل أن يتفارقا في هذا الوقت بالذّات، لأنّ الطّلاق في المراحل اللّاحقة سيكون أصعب.

وعلى كلّ حال فهذا التعبير في الآية جوابٌ على من يتصوّر أنّ الطّلاق قبل المواقعة أو قبل تعيين المهر لا يقع صحيحاً، فالقرآن يقول إنّ هذا الطّلاق صحيح ولا إثم عليه (وقد يمنع من كثير من المفاسد).

وذهب البعض أنّ (جناح) في هذه الآية بمعنى (المهر) الّذي يثقل على الزّوج، يعني أنّ الرّجل حين الطّلاق وقبل المقاربة الزوجيّة وتعيين المهر ليس مكلّفاً بدفع أي شيء بعنوان المهر إلى المرأة، وبالرّغم من أنّ بعض المفسّرين[2] أورد كلاماً طويلاً حول هذا التفسير، ولكن استعمال كلمة (جناح) بمعنى المهر يعتبر غريباً وغير مأنوس.

---

(١) «المسّ» في اللغة بمعنى الملامسة، وهناكناية عن الجماع و«فريضة» بمعنى الواجب، وهناجاءت بمعنى المهر.

(٢) التفسير الكبير: ج ٦، ص ١٣٧.

واحتمل آخرون أنّ معنى الجملة أعلاه هو جواز طلاق المرأة قبل المقاربة الجنسيّة في جميع الأحوال (سواء كانت في العادة الشهريّة أو لم تكن) والحال أنّ الطّلاق بعد المواقعة الجنسيّة يجب أن يكون في زمان الطّهر الّذي لم يواقعها فيه حتماً[1]، ولكن هذا التفسير بعيد جدّاً لأنّه لا ينسجم مع جملة ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

ثمّ تبيّن الآية حكماً آخر في هذا المجال وتقول: (ومتّعوهنّ) أي يجب أن تمنح المرأة هديّة تناسب شؤونها فيما لو جرى الطّلاق قبل المضاجعة وقبل تعيين المهر، ولكن يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار قدرة الزّوج الماليّة في هذه الهديّة، ولذلك تعقّب الآية الشريفة بالقول: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

(الموسع) بمعنى المقتدر والثّري و(المقتر) بمعنى الفقير (من مادّة قتر وكذلك وردت بمعنى البخل أيضاً) كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾[2].

وجملة (متاعاً بالمعروف) يمكن أن تشير إلى جميع ما ذكرناه، أي أنّ الهديّة لا بدّ أن تكون بشكل لائق وبعيدة عن الإسراف والبخل، ومناسبة لحال المُهدي والمُهدى إليه.

ولمّا كان لهذه الهديّة أثر كبير للقضاء على روح الانتقام وفي الحيلولة دون إصابة المرأة بعُقَد نفسيّة بسبب فسخ عقد الزّواج، فإنّ الآية تعتبر هذا العمل من باب الإحسان ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾[3] أي أن يكون ممزوجاً بروح الإحسان واللّطف، ولا حاجة إلى القول بأنّ تعبير (المحسنين) لم يأت ليشير إلى أنّ الحكم المذكور ليس إلزاميّاً، بل جاء لإثارة المشاعر والعواطف الخيّرة في الناس للقيام بهذا الواجب الإلزامي.

الملاحظة الأُخرى في هذه الآية هي أنّ القرآن يعبّر عن الهدية التي يجب أن يعطيها الرجل للمرأة باسم (متاع) فالمتاع في اللّغة هو كلّ ما يستمتع به المرء وينتفع به، ويطلق غالباً على غير النقود، لأنّ الأموال لا يمكن التمتّع بها مباشرةً، بل لا بدّ أوّلاً من تبديلها إلى متاع، ولهذا كان تعبير القرآن عن الهديّة بالمتاع.

ولهذا العمل أثر نفسي خاص، فكثيراً ما يحدث أن تكون الهدية من المأكل أو الملبس ونظائرهما مهما كانت زهيدة الثمن ذات أثر بالغ في نفوس المُهدى إليهم لا

(١) التفسير الكبير: ج ٦، ص ١٣٧.

(٢) سورة الاسراء، الآية: ١٠٠.

(٣) «حقّاً» يمكن أن تكون صفة لـ«متاعاً»، أو حال أو مفعول مطلق لفعل محذوف - «متاعاً» مفعول مطلق أيضاً عن جملة «ومتعوهن».

يبلغه أبداً أثر الهديّة النقديّة، لذلك نجد أنّ الروايات الواصلة إلينا عن الأئمّة الأطهار تذكر هذه الهدايا بصورة مأكل أو ملبس أو أرض زراعيّة[١].

كذلك يتّضح من هذه الآية أنّ تعيين المهر قبل إجراء العقد في النكاح الدائم ليس ضروريّاً إذ يمكن للطرفين أن يتّفقا على ذلك بعد[٢] إذ كما تفيد الآية أيضاً أنّه إذا حصل الطّلاق قبل تعيين المهر وقبل المضاجعة فلا يجب المهر، بل يُستعاض عنه بالهديّة المذكورة.

ويجب الالتفات إلى أنّ الزّمان والمكان مؤثّران في مقدار الهديّة المناسبة.

وتتحدّث الآية التالية عن حالة الطّلاق الّذي لم يسبقه المضاجعة ولكن بعد تعيين المهر فتُبيّن أنّ الحكم في هذا اللّون من الطّلاق الّذي يكون قبل المضاجعة وبعد تعيين المهر يوجب على الزّوج دفع نصف المهر المعيّن ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾.

وهذا هو الحكم القانوني لهذه المسألة، فيجب دفع نصف المهر إلى المرأة بدون أيّة نقيصة، ولكن الآية تتناول الجوانب الأخلاقيّة والعاطفيّة وتقول: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾.

والمراد من ضمير (يعفون) هم الأزواج، أمّا في قوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ هو وليّ الصغير أو السفيه، ومن الواضح أنّ الوليّ ليس له الحقّ في أن يعفو أو يتنازل عن حقّ الصغير إلّا إذا تضمّن مصلحة الصغير.

فعلى هذا يكون حكم دفع نصف المهر بغض النظر عن مسألة العفو والتنازل عن الحقّ، وممّا تقدّم يتّضح أنّ من له العفو هو الولي للصّغير أو السفيه لأنّه هو الّذي بيده أمر زواج المولّى عليه، ولكن بعض المفسّرين تصوّروا أنّ المراد هو الزّوج، بمعنى أنّ الزوج متى ما دفع تمام المهر قبلاً (كما هو المتعارف عند الكثير من العرب) فله الحقّ في أن يسترجع نصف المهر إلّا أن يعفو ويتنازل عنه.

أمّا مع الملاحظة الدقيقة في مضمون الآية فيتبيّن أنّ التفسير الأوّل هو الصحيح، وأنّ المخاطب في هذه الآية هم الأزواج حيث تقول: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ في حين أنّ الضمير

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٢٠٨، (الباب ٤٩، باب مقدار المتعة للمطلقة).

(٢) لا شكّ أنّ المهر لا يسقط إن لم يذكر في العقد الدائم بل يعبر (مهر المثل) أي المهر الذي يعادل مهور نساء مماثلات إلاّ إذا حصل الطلاق قبل الدخول عندئذ يتوجب تقديم هديّة كما ذكرنا.

في جملة ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ جاء حكايةً عن الغائب ولا يتناسب ذلك مع عوده إلى الأزواج.

أجل، فإنّ الآية في الجملة التالية تقول: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فمن الواضح أنّ المخاطب في هذه الجملة هم الأزواج، فتكون النتيجة أنّ الحديث في الجملة السّابقة كان عن عفو الأولياء، وفي هذه الجملة تتحدّث الآية عن عفو الأزواج، وجملة ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ خطاب لعموم المسلمين أن لا ينسوا المُثُل الإنسانية في العفو والصفح والإيثار في جميع الموارد.

وهذا ما ورد في الروايات التي وصلتنا من الأئمّة المعصومين عليهم السلام في تفسير هذه الآية[١]، وكذلك نرى أنّ المفسّرين الشّيعة قد اختاروا هذا الرّأي بالتّوجه إلى مضمون الآية والرّوايات الشريفة، فذهبوا إلى أنّ المقصود في هذه العبارة هم أولياء الزّوجة.

ومن الطبيعي أن تطرأ ظروف تجعل الاضطرار إلى أخذ نصف المهر حتى قبل الدّخول أمراً قد يُثير مشاعر الرّجل وأقربائه ويجرح عواطفهم وقد ينزعون إلى الانتقام، ويُحتمل أن تتعرّض سمعة المرأة وكرامتها للخطر، فهنا قد يرى الأب أنّ من مصلحة ابنته أن يتنازل عن حقّها.

جملة ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ تبيّن جانباً آخر من واجبات الزّوج الإنسانيّة، وهو أن يظهر الزّوج التنازل والكرم فلا يسترجع شيئاً من المهر إن كان قد دفعه، وإن لم يكن دفعه بعد فمن الأفضل دفعه كاملاً متنازلاً عن النصف الّذي هو من حقّه، وذلك لأنّ المرأة التي تنفصل عن زوجها بعد العقد تواجه صدمة نفسيّة شديدة، ولا شكَّ أنّ تنازل الرجل عن حقّه من المهر لها يكون بمثابة البلسم لجرحها.

ونلاحظ تأكيداً في سياق الآية الشريفة على أصل (المعروف) و(الإحسان) فحتّى بالنّسبة إلى الطّلاق والانفصال لا ينبغي أن يكون مقترناً بروح الانتقام والعداوة، بل ينبغي أن يتم على أساس السماحة والإحسان بين الرّجل والمرأة، لأنّ الزوجين إذا لم يتمكّنا من العيش سويّة وفضّلا الافتراق لأسباب مختلفة، فلا داعي حينئذ لوجود العداوة والبغضاء بينهما.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ١٦٨؛ وأصول الكافي، ج ١، ص ١٠٦.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

سبب النّزول

تذرّع جمع من المنافقين بحرارة الجو لإلقاء التفرقة في صفوف المسلمين، فلم يكونوا يشتركون في صلاة الجماعة، فتبعهم آخرون وأخذوا يتخلّفون عن صلاة الجماعة، فقلّ بذلك عدد المصلّين، فتألّم النّبي ﷺ لذلك كثيراً حتى إنّه هدّدهم بعقاب أليم، وفي حديث عن زيد بن ثابت قال: إنّ رسول الله ﷺ كان يؤدّي صلاة الظهر جماعة والحرّ على أشدّه ممّا كان يثقل على أصحابه كثيراً بحيث إنّ صلاة الجماعة أحياناً لم تتجاوز صفاً واحداً أو صفّين، فهنا هدّد النّبي ﷺ هؤلاء المنافقين ومن لم يشترك في صلاة الجماعة بإحراق منازلهم، فنزلت الآية أعلاه وبيّنت أهميّة صلاة الظهر جماعةً بصورة مؤكّدة(١).

وهذا التأكيد يدلّ على أنّ مسألة عدم المشاركة في صلاة الجماعة لم تكن بسبب حرارة الجو فقط، بل إنّ جماعة أرادوا تضعيف الإسلام بهذه الذّريعة وإيجاد الفرقة في صفوف المسلمين بحيث دعا النّبي ﷺ إلى أن يتّخذ مثل ذلك الموقف الحازم من هؤلاء.

التّفسير

أهميّة الصّلاة وخاصّةً الوسطى

بما أنّ الصلاة أفضل وسيلة مؤثرة تربط بين الإنسان وخالقه، وإذا أُقيمت على وجهها الصحيح ملأت القلب بحبّ الله واستطاع الإنسان بتأثير أنوارها أن يتجنّب الذنوب والتلوّث بالمعصية، لذلك ورد التأكيد في آيات القرآن الكريم عليها، ومن ذلك ما ورد في الآية محل البحث حيث تقول: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ج ١ و٢، ص ٣٤٢ - وبنفس المضمون في تفسير «الدّر المنثور»، ج ١، ص ٣٠١ ذيل الآية مورد البحث.

فلا ينبغي للمسلمين أن يتركوا هذا الأمر المهم بحجّة البرد والحرّ ومشكلات الحياة ودوافع الزوجة والأولاد والأموال.

أمّا ما هو المراد بقوله (الصلاة الوسطى)؟ ذكر المفسّرون معاني مختلفة للمراد من الصلاة الوسطى، وذكر صاحب تفسير مجمع البيان ستّة أقوال، والفخر الرّازي ذكر في تفسيره سبعة أقوال، وبلغ بها القرطبي في تفسيره إلى عشرة أقوال، أمّا تفسير روح المعاني فذكر لها ثلاثة عشر قولاً.

فالبعض يرى أنّها صلاة الظهر، وآخر صلاة العصر، وبعض صلاة المغرب، وبعض صلاة العشاء، وبعض صلاة الصبح، وبعض صلاة الجمعة، وبعض صلاة اللّيل أو خصوص صلاة الوتر، وذكروا لكلّ واحد من هذه الأقوال أدلّة وتوجيهات مختلفة، ولكنّ القرائن المختلفة المتوفّرة تثبت أنّها صلاة الظهر، لأنّها فضلاً عن كونها تقع في وسط النّهار، فإنّ سبب نزول هذه الآية يدلّ على أنّ المقصود بالصّلاة الوسطى هو صلاة الظهر التي كان الناس يتخلّفون عنها لحرارة الجو، كما أنّ هناك روايات كثيرة تصرّح بأنّ الصلاة الوسطى هي صلاة الظّهر(١). والتأكيد على هذه الصّلاة كان بسبب حرارة الجو في الصّيف، أو بسبب انشغال الناس بأُمور الدنيا والكسب فلذلك كانوا لا يعيرون لها أهميّة، فنزلت الآية آنفة الذكر تبيّن أهميّة الصلاة الوسطى ولزوم المحافظة عليها(٢).

(قانتين) من مادّة (قنت) وتأتي بمعنيين.

١ - الطاعة والاتّباع.

٢ - الخضوع والخشوع والتّواضع.

ولا يبعد أن يكون المعنيان مرادين في هذه الآية، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ قال: «إقبال الرّجل على صلاته ومحافظته على وقتها حتى لا يلهيه عنها ولايشغله شيء»(٣).

---

(١) انظر الكتب الفقهية للاستزادة.

(٢) المشهور بين فقهاء الشيعة أن المراد منها «صلاة الظهر» بل ادعي الإجماع على ذلك ومن عدّة روايات معتبرة وردت في كتاب وسائل الشيعة: ج ٣ ص ١٤ الباب ٥ أو هناك قول شاذ وضعيف بأنّ المراد منها صلاة العصر» وذهب أغلب فقهاء أهل السنّة إلى هذا الرأي» واستدلوا على ذلك بعدّة روايات ضعيفة السند وقد اعرض الأصحاب عنها (لمزيد الإيضاح راجع الكتب الفقهية).

(٣) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٢٣.

وفي الآية الثانية تؤكّد على أنّ المسلم لا ينبغي له ترك الصلاة حتى في أصعب الظروف والشّرائط كما في ميدان القتال، غاية الأمر أنّ الكثير من شرائط الصّلاة في هذا الحال تكون غير لازمة كالاتّجاه نحو القبلة وأداء الرّكوع والسّجود بالشكل الطبيعي، ولذا تقول الآية: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

سواءً كان الخوف في حال الحرب أو من خطر آخر، فإنّ الصّلاة يجب أداؤها بالإيماء والإشارة للرّكوع والسّجود، سواءً كنتم مشاة أو راكبين.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ ففي هذه الصّورة، أي في حالة الأمان يجب عليكم أداء الصّلاة بالصّورة الطبيعيّة مع جميع آدابها وشرائطها.

ومن الواضح أنّ أداء الشكر لهذا التعليم الإلهي هو الصّلاة في حالة الأمن والخوف والعمل على وفق هذه التعليمات.

(رجال) جمع (راجل) و(ركبان) جمع (راكب) والمقصود هو أنّكم إذا خفتم العدو في ميدان القتال لكم أن تؤدّوا الصلاة راجلين أو راكبين في حالة الحركة.

وقد ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه في بعض الحروب أمر المقاتلين أن يصلّوا بالتّسبيح والتكبير وقول (لا إله إلّا الله)(١)، وكذلك نقرأ في حديث آخر أنّ النّبي صلّى يوم الأحزاب إيماءً(٢).

وكذلك ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام جواز أداء الصلاة في حالة الخوف إلى غير جهة القبلة ويُومئ للرّكوع والسجود في حال القيام(٣).

فهذه الصلاة هي صلاة الخوف التي شرحها الفقهاء في كتبهم شرحاً مفصّلاً، وعليه فالآية توضّح أنّ إقامة الصلاة والارتباط بين العبد وخالقه يجب أن يتحقّق في جميع الظروف والحالات، وبهذا تتحصّل نقطة ارتكاز للإنسان واعتماده على الله، فتكون مبعث الأمل والرّجاء في الحياة وتعينه في التغلّب على جميع المصاعب والمشكلات.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٣٩، ح ٩٤٩.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٤٦.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٥، ص ٤٨٣ (الباب ٣، من أبواب صلاة الخوف والمطاردة، باب أنّ من خاف لصّاً سَبُعاً أو عدوّاً...) الحديث ٣ مع التلخيص ونقل الحديث بالمعنى، ووردت أحاديث أُخرى بهذا المضمون في هذا الباب.

بحث

دور الصلاة في تقوية المعنويّات

قد يحسب البعض أنّ هذا الإصرار والتوكيد على الصلاة ضرب من التعسير، ولربّما منع ذلك الإنسان من القيام بواجبه الخطير في الدّفاع عن نفسه في مثل ظروف القتال الصّعبة.

في حين أنّ هذا الكلام اشتباه كبير، فالإنسان في مثل هذه الحالات أحوج إلى تقوية معنويّاته من أي شيء آخر، لأنّه إذا ضعفت معنويّاته واستولى عليه الخوف والفزع فإنّ هزيمته تكاد تكون حتميّة، فأيّ عمل أفضل من الصّلاة والاتّصال بالله القادر على كلّ شيء وبيده كلّ شيء من أجل تقوية معنويّات المجاهدين أو من يواجه الخطر.

لو تركنا الشواهد الكثيرة في جهاد المجاهدين المسلمين في صدر الإسلام فإنّنا نقرأ عن حرب الصهاينة الرّابعة مع العرب في شهر رمضان عام ١٣٩٣هـ.ق أن توجّه الجنود المسلمين إلى الصّلاة والمبادىء الإسلامية كان له أثر فعّال في تقوية عزائمهم وبالتالي انتصارهم على عدوّهم. وعلى أي حال فإنّ أهميّة الصلاة وتأثيرها الإيجابي في الحياة أكبر من أن يستوعبها هذا المختصر، فلا شكّ في أنّ الصّلاة إذا روعيت معها آدابها الخاصّة وحضور القلب فيها فإنّ لها تأثيراً إيجابيّاً عظيماً في حياة الفرد والمجتمع، وبإمكانها أن تحل الكثير من المشاكل وتطهّر المجتمع من الكثير من المفاسد، وتكون للإنسان في الأزمات والشدائد خير معين وصديق(١).

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

---

(١) للاستزادة ومعرفة فوائد الصلاة تراجع الآية (٤٥) من سورة العنكبوت من هذا التفسير.

التّفسير

قسم آخر من أحكام الطّلاق

تعود هذه الآيات لتذكر بعض مسائل الزواج والطّلاق والأُمور المتعلّقة بها، وفي البداية تتحدّث عن الأزواج الّذين يتوسّدون فراش الاحتضار ولهم زوجات فتقول: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾.

أي أنّ الأشخاص من المسلمين إذا حانت ساعة وفاتهم وبقيت زوجاتهم على قيد الحياة فينبغي أن يوصوا بأزواجهم في النفقة والسكن في ذلك البيت لمدّة سنة كاملة، وهذا طبعاً في صورة ما إذا بقيت الزوجة في بيت زوجها ولم تخرج خارج البيت، ولهذا تضيف الآية: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ كأن يخترن زوجاً جديداً، فلا مانع من ذلك ولا إثم عليكم، ولكن يسقط حقّها في النفقة والسكنى.

وفي ختام الآية تشير إلى أنّه لا ينبغي التخوّف من عاقبة خروج النسوة، فتقول بأنّ الله قادر على فتح أبواب أُخرى أمامهنّ بعد وفاة الأزواج فلو حدثت مشكلة في البيت ولحقت بها مصيبة فإنّ ذلك سيكون لحكمة حتماً لأنّ الله تعالى عزيز حكيم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فلو أغلق باباً بحكمته فسوف يفتح آخر بلطفه، فلا محلّ للقلق والتخوّف، ويُعلم من ذلك أنّ جملة (يتوفّون) هنا لا تعني الموت، بل تعني المُشرف على الموت بقرينة ذكر الوصيّة.

وقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ تدلّ على وجوب دفع ورثة الزّوج نفقة الزوجة لمدّة سنة كاملة، وفيما إذا لم ترض هذه المرأة بالبقاء في بيت الزوج والاستفادة من النفقة، فلا مانع من ذلك، ولا مانع كذلك من أن تختار زوجاً آخر أيضاً، ولكنّ بعض المفسّرين ذكر تفسيراً آخر لهذه العبارة وهو أنّها إذا صبرت في بيت زوجها مدّة سنة كاملة ثمّ خرجت من البيت فتزوّجت فلا مانع من ذلك.

وطبقاً للتفسير الثاني يجب على المرأة العدّة لمدّة سنة كاملة، ولكن على التفسير الأوّل لا يلزم ذلك. وبعبارة أُخرى إنّ دوام العدّة لمدّة سنة كاملة على التفسير الأوّل يُعتبر حقّاً للمرأة، ولكنّه على التفسير الثاني حكم وإلزام، ولكنّ ظاهر الآية ينسجم أكثر مع التفسير الأوّل، لأنّ ظاهر الجملة الأخيرة هو أنّه استثناء من الحكم السابق.

مسألة: هل نسخت هذه الآية؟

يعتقد الكثير من المفسّرين أنّ هذه الآية قد نسخت بالآية ٢٣٤ من هذه السورة التي

سبق بيانها وفيها ورد أنّ عدّة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيّام، وعلى الرغم من أنّ تلك الآية تأتي قبل هذه الآية من حيث الترتيب ولكننا نعلم أنّ الآيات في السورة لم ترتّب بحسب نزولها، بل قد نجد آيات متأخّرة في النّزول وضعت متقدّمة في الترتيب، وقد جرى ذلك للتّناسب بين الآيات ولأمر من رسول الله ﷺ.

ويرى هؤلاء المفسّرون أيضاً أنّ حقّ النفقة لمدّة سنة كاملة كان قبل نزول آيات الإرث، ولكن بعد أن قرّرت آيات الإرث للزّوجين مقداراً من الإرث زال هذا الحقّ عنها، فعلى هذا فإنّ الآية محل البحث منسوخة من جهتين (من جهة مقدار زمان العدّة ومن جهة النفقة).

وذكر المرحوم (الطبرسي) في (مجمع البيان) أنّ جميع العلماء اتّفقوا على أنّ هذه الآية منسوخة. ثمّ يذكر حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الرجل في العصر الجاهلي إذا مات كانت زوجته تتمتّع بالنفقة لمدّة سنة كاملة ثمّ إنّها تخرج من بيت زوجها بدون ميراث، وبعد ذلك نزلت الآيات المتعلّقة بإرث الزّوجة ونسخت هذه الآية بتعيين الرُبع أو الثمن من الميراث لها[1].

وعلى هذا يجب أن تحسب نفقة المرأة في مدّة العدّة من حصّتها من الإرث، وكذلك ورد عن الإمام الصادق أيضاً أنّ الآية التي تقرّر العدّة أربعة أشهر وعشرة أيّام وكذلك آية الإرث قد نسختا هذه الآية[2].

وعلى كلّ حال، يُستفاد من كلمات العلماء أنّ عدّة الوفاة كانت في زمان الجاهليّة سنة كاملة تمرّ خلالها الأرملة بكثير من التقاليد والعادات الخرافيّة الشّاقة، فجاء الإسلام وألغى تلك العادات وأبقى مدّة العدّة سنة في بداية الأمر، ثمّ جعلها أربعة أشهر وعشرة أيّام، كما منع المرأة فقط من الزّينة خلال هذه المدّة.

ويستفاد من كلام (الفخر الرازي) أنّ الآية أعلاه نُسخت بآيات الإرث وعدّة أربعة أشهر وعشرة أيّام[3].

ولكن لولا إجماع العلماء والروايات المتعدّدة في هذا المجال لأمكن القول بعدم وجود التعارض بين هذه الآيات، فإنّ الحكم بأربعة أشهر وعشرة أيّام للعدّة هو حكم إلهي، وأمّا المحافظة على العدّة لمدّة سنة كاملة والبقاء في بيت الزوج والاستفادة من

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ٢٣٩؛ وتفسير العياشي، ج ١، ص ١٢٩.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ١ و٢، ص ٣٤٥ ذيل الآية مورد البحث؛ وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ٢٣٨.
(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج ٦، ص ١٥٨.

النفقة فإنّه حقٌّ لها، أي أنّه قد أُعطي الحقّ للمرأة في أن تبقى في بيت زوجها المتوفّى سنة كاملة إن أرادت ذلك وتستفيد من النفقة طبقاً لوصيّة زوجها في جميع هذه المدّة، وإن رفضت ذلك ولم ترغب في البقاء، فيجوز لها الخروج من البيت بعد أربعة أشهر وعشرة أيّام، ويمكنها كذلك اختيار زوج آخر، وحينئذ سوف تُقطع عنها بطبيعة الحال النفقة من مال زوجها السابق.

ولكن مع ملاحظة الروايات المتعدّدة عن أهل البيت عليهم السلام [1] وشهرة حكم النسخ أو اتفاق العلماء على ذلك، فلا يمكن قبول مثل هذا التفسير رغم أنّه موافق لظواهر الآيات الشريفة.

في **الآية الثانية** يبيّن القرآن الكريم حكماً آخر من أحكام الطّلاق ويقول: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي أنّ المتقين يجب عليهم تقديم هديّة لائقة للنساء المطلّقات.

وبالرّغم من أنّ ظاهر الآية يشمل جميع النساء المطلّقات، ولكن بقرينة الآية **٢٣٦** السابقة نفهم أنّ هذا الحكم يختص بمورد النسوة التي لم يقرّر لهنّ مهر بعد وقوع الطّلاق قبل الوطء، وفي الحقيقة فإنّ هذه الجملة تأكيد للحكم المذكور كيلا يتعرّض للإهمال، ويحتمل أيضاً أنّ الحكم المذكور يشمل جميع النّساء المطلّقات، غاية الأمر أنّ المورد أعلاه من الموارد الوجوبيّة والموارد الأُخرى لها جنبة استحبابيّة.

وعلى كلّ حال فإنّ هذا الحكم هو أحد الأحكام الإنسانيّة والأخلاقيّة في الإسلام والتي لها أثر إيجابي على إزالة الرسوبات المتخلّفة من عملية الطّلاق ومنع حالة العداوة والانتقام والكراهية الناشئة منه.

وذكر البعض أن دفع هدية لائقة للنساء المطلّقات أمر واجب وهو غير المهر، ولكنّ الظاهر بين علماء الشيعة كما يُستفاد من عبارة المرحوم الطبرسي في مجمع البيان أنّه لا قائل بهذا القول (ويصرّح المرحوم صاحب الجواهر أيضاً أنّ الهديّة المذكورة لا تجب إلّا في ذلك المورد الخاص وأنّ هذه المسألة إجماعيّة)[2].

وقد احتمل البعض أنّ المراد من المتاع هنا النفقة وهو احتمال بعيدٌ جدّاً.

وعلى كلّ حال إنّ هذه الهديّة وطبق الرّوايات الواردة من الأئمّة المعصومين تُعطى إلى المرأة بعد تمام العدّة والافتراق الكامل لا في عدّة الطّلاق الرّجعي، وبعبارة أُخرى

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ٢٣٥، وما بعد (باب أنّ عدّة الوفاة أربعة أشهرٍ وعشرة أيّامٍ).
(٢) جواهر الكلام: ج ٣١، ص ٥٨.

إنّ هذه الهديّة ليست وسيلة للعودة، بل للوداع النهائي[١].

وفي آخر آية من الآيات مورد البحث والتي هي آخر آية من الآيات المتعلّقة بالطّلاق تقول: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ومن البديهي أنّ المراد من التفكّر والتعقّل هو ما يتعقّبه التحرّك نحو العمل، وإلّا فإنّ التفكّر والتعقّل لوحده في الأحكام والآيات لا يُثمر نتيجة، ويتبيّن من دراسة الآيات والأحاديث الإسلاميّة أن لفظة (العقل) تستعمل غالباً عند ايراد التعبير عن امتزاج الإدراك والفهم مع العواطف والأحاسيس ثمّ يستتبع ذلك العمل. فعندما يتحدّث القرآن في مواضع كثيرة عن معرفة الله مثلاً يشير إلى نماذج من نظام هذا الكون العجيب، ثمّ يقول إننا نبيّن هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وهذا لا يعني أنّ القصد هو ملء الأدمغة ببعض المعلومات عن نظام الطبيعة، إذ إنّ العلوم الطبيعية إذا لم تبعث في القلب والعواطف حركة نحو معرفة الله وحبّه والانشداد به فلا ارتباط لها بقضايا التوحيد. وهكذا المعارف العلمية لا تكون تعقّلاً إلّا إذا اقترنت بالعمل.

صاحب تفسير الميزان[٢] يؤيّد هذا الاتجاه في فهم معنى التعقّل، ويرى أنّه الذي يدفع الإنسان بعد الفهم والإدراك إلى مرحلة العمل، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٣].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[٤] فالتعقّل الذي يتحدّث عنه المجرمون يوم القيامة هو ذلك الذي يرافقه العمل، وهكذا التعقّل الناتج عن السير في الأرض والتفكير في خلق الله إنّما هو المعرفة التي تحمل الإنسان على تغيير مسير حياته والاتجاه إلى الصراط المستقيم.

وبعبارة أُخرى إنّ التفكّر والتعقّل والتدبّر إذا كان متعمّقاً ومتجذّراً في روح الإنسان فلا يمكن أن يكون عديم الآثار في دائرة الواقع العملي، فكيف يمكن أن يقطع الإنسان ويعتقد جازماً بمسموميّة الغذاء ثمّ يتناوله؟! أو يعتقد جزماً بتأثير الدّواء الفلاني على معالجة أحد الأمراض الخطرة التي يعاني منها ثمّ لا يتناوله!!

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٢٤٠، ح ٩٥٦ و٩٥٧.
(٢) تفسير الميزان: ج ٢، ص ٢٥٠ - ٢٤٩.
(٣) سورة الملك، الآية: ١٠.
(٤) سورة الحج، الآية: ٤٦.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

سبب النّزول

انتشر مرض الطاعون في إحدى مدن الشام وأخذ يحصد الناس بسرعة عجيبة، فهجر المدينة جمع من الناس أملاً في النجاة من مخالب الموت، وإذ نجوا من الموت فعلاً بهروبهم من ذلك الجو الموبوء، شعروا في أنفسهم بشيء من القدرة والاستقلالية، وحسبوا أنّ نجاتهم مدينة لعوامل طبيعية غافلين عن إرادة الله ومشيئته، فأماتهم الله في تلك الصحراء بالمرض نفسه.

قيل: إنَّ نزول المرض بأهل هذه المدينة كان عقاباً لهم، لأنّ زعيمهم وقائدهم طلب منهم أن يستعدّوا للحرب وأن يخرجوا من المدينة. ولكنّهم رفضوا الخروج للحرب بحجّة أنّ مرض الطاعون متفشٍّ في ميادينها، فابتلاهم الله بما كانوا يخشونه ويفرّون منه، فانتشر بينهم مرض الطاعون، فهجروا بيوتهم وهربوا من المرض إلى خارج المدينة حيث أنشب المرض مخالبه فيهم وماتوا، ومضى زمان على هذا حتى مرّ يوماً (حزقيل)[1] أحد أنبياء بني إسرائيل بذلك المكان ودعا الله أن يحييهم، فاستجاب الله دعاءه وأحياهم[2].

التّفسير

كيف ماتوا وكيف عادوا إلى الحياة؟!

هذه الآية كما مرّ في سبب نزولها تشير إشارة عابرة - ولكنّها معبّرة - إلى قصّة أحد الأقوام السّالفة التي انتشر بين أفرادها مرض خطير وموحش بحيث هرب الآلاف منهم من ذلك المكان فتقول الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

---

(١) في بعض الروايات أنّ حزقيل هو النبيّ الثالث بعد موسى عليه السلام في بني إسرائيل (تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث).

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج ٦، ص ١٢٠ و ١٢٣.

من الأساليب الشائعة في الأدب العربي استعمال تعبير (ألم تر) في ما يطلب إلفات النظر إليه، وبالرّغم من أنّ المخاطب هو رسول الله ﷺ ولكنّ الكلام موجّه بطبيعة الحال إلى جميع الناس.

ورغم أنّ الآية أعلاه لا تشير إلى عدد خاص واكتفت بكلمة (أُلوف) ولكنّ الوارد في الروايات أنّ عددهم كان عشرة آلاف، وذكرت روايات أُخرى أنّهم كانوا سبعين ألفاً أو ثمانين ألفاً[(١)].

ثمّ إنّ الآية أشارت إلى عاقبتهم فقالت: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ﴾ لتكون قصّة موتهم وحياتهم مرّة أُخرى عبرة للآخرين. ومن الواضح أنّ المراد من (موتوا) ليس هو الأمر اللفظي بل هو أمر الله التكويني الحاكم على كلّ حيّ في عالم الوجود، أي إنّ الله تعالى أوجد أسباب هلاكهم فماتوا جميعاً في وقت قصير، وهذا أشبه بالأمر الذي ورد في الآية ٨٢ من سورة يس: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وجملة (ثمّ أحياهم) إشارة إلى عودتهم إلى الحياة بعد موتهم استجابة لدعاء حزقيل النبي عليه السلام كما ذكرنا في سبب نزول الآية، ولمّا كانت عودتهم إلى الحياة مرّة أُخرى من النعم الإلهيّة البيّنة (نعمة لهم ونعمة لبقيّة الناس للعبرة) ففي ختام الآية تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فليست نعمة الله وألطافه وعنايته تنحصر في هؤلاء، بل هي لجميع الناس.

بحوث

هنا ينبغي أن نشير إلى بعض النقاط:

١ - هل هذه الحادثة التاريخيّة حقيقيّة، أم مجرّد تمثيل؟

هذه الحكاية التي ذكرناها، أهي حدث تاريخي واقعي أشار إليه القرآن إشارة عابرة، ثمّ شرحته الروايات والأحاديث، أم أنّها أُقصوصة لتجسيد الحقائق العقلية وبيانها بلغة حسّية؟

لمّا كان لهذه الحكاية جوانب غير عادية بحيث صعب هضمها على بعض المفسّرين، فإنّهم أنكروا كونها حقيقة واقعة، وقالوا إنّ ما جاء في الآية إنّما هو من باب ضرب

(١) راجع التفاسير: مجمع البيان، القرطبي، روح البيان، في ذيل الآية المبحوثة.

المثل بقوم يضعفون عن الجهاد ضدّ العدوّ فيُهزمون ثمّ يعتبرون بما جرى فيستيقظون ويستأنفون الجهاد ومحاربة العدوّ وينتصرون.

وبموجب هذا التفسير يكون معنى (موتوا) الهزيمة في الحرب بسبب الضعف والتهاون. و(أحياهم) إشارة إلى الوعي واليقظة ومن ثمّ النصر.

هذا التفسير يرى أنّ الروايات التي تعتبر هذه الحادثة واقعة تاريخية روايات مجعولة وإسرائيلية.

وعلى الرغم من أن مسألة (الهزيمة) بعد التهاون و(الانتصار) بعد اليقظة مسألة هامّة ورائعة، ولكن لا يمكن إنكار كون ظاهر الآية يدلّ على بيان حادثة تاريخية بعينها، وليست تمثيلاً.

إنّ الآية تتحدّث عن قوم من الماضين ماتوا على أثر هروبهم من حدث مروّع ثمّ أحياهم الله. فإذا كانت غرابة الحادثة وبعدها عن المألوف هو السبب في تأويلها ذاك التأويل، فهذا إذاً ما ينبغي أن نفعله بشأن جميع معاجز الأنبياء.

ولو أنّ أمثال هذه التأويلات والتوجيهات وجدت طريقها إلى القرآن لأمكن إنكار معاجز الأنبياء، فضلاً عن إنكار معظم قصص القرآن التاريخية واعتبارها من قبيل القصص الرمزي التمثيلي، كأن نعتبر قصّة هابيل وقابيل قصّة موضوعة لتمثّل الصراع بين العدالة وطلب الحقّ من جهة، والقسوة والظلم من جهة أُخرى، وبهذا تفقد قصص القرآن قيمتها التاريخية.

وفضلاً عن ذلك فإننا لا نستطيع أن نتجاهل الروايات الواردة في تفسير هذه الآية، لأنّ بعضها قد ورد في الكتب الموثوق بها ولا يمكن أن تكون من الإسرائيليّات المجعولة.

٢ - درسٌ للعبرة

هدف الآية في الواقع كما ورد في سبب النزول هو إشارة إلى جماعة من بني إسرائيل الّذين كانوا يتذرّعون تهرّباً من الجهاد بمختلف المعاذير، فابتلاهم الله بمرض الطّاعون حيث فتك بهم سريعاً وأفناهم وأبادهم إلى درجة أنّه لا يستطيع أي عدوّ شرس أن يصنع ذلك في ميدان القتال، فبهذا تقول الآية لهم أنّه لا تتصوّروا أنّ التهرّب من المسؤوليّة والتوسّل بالأعذار الواهية يجعلكم في مأمن من الخطر، فأنتم أعجز من أن تقفوا أمام قدرة الله تعالى، فإنّه تعالى قادرٌ على أن يبتليكم بعدوٍّ صغير لا يرى بالعين وهو مكروب الطّاعون أو الوباء وأمثال ذلك فيختطف أرواحكم ويذركم كعصف مأكول.

٣ - مسألة الرّجعة

النقطة الأُخرى التي لا بدّ من الالتفات إليها هنا هي مسألة إمكان الرّجعة التي تُستفاد من الآية بوضوح.

وتوضيح ذلك: أنّ التاريخ يحدّثنا عن بعض الأقوام من السالفين ماتوا ثمّ أُعيدوا إلى هذه الدنيا، كما في حادثة طائفة من بني إسرائيل الّذين توجّهوا مع النّبي موسى عليه السلام إلى جبل طور الواردة في آية ٥٥ و٥٦ من سورة البقرة وقصّة (عزير) أو إرميا الواردة في الآية ٢٥٩ من هذه السورة، وكذلك الحادثة المذكورة في هذه الآية مورد البحث.

فلا مانع من أن تتكرّر هذه الحادثة مرّة أُخرى في المستقبل.

العالم الشيعي المعروف بـ(الصدوق) رحمه الله استدلّ بهذه الآية على القول بالرّجعة وقال: «إنّ من معتقداتنا الرّجعة» أي رجوع طائفة من الناس الّذين ماتوا في الأزمنة الغابرة إلى هذه الدّنيا مرّة أُخرى، ويمكن كذلك أن تكون هذه الآية دليلاً على المعاد وإحياء الموتى يوم القيامة.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

سبب النّزول

قيل في سبب نزول الآية الثانية إنّ رسول الله قال: من تصدّق بصدقة فله مثلاها في الجنّة. وسوف ينال ضعفه في الجنّة. فقال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله إنّ لي حديقتين إن تصدقت بإحداهما فإن لي مثليها في الجنّة؟ قال: نعم. قال: وأُم الدحداح معي؟ قال: نعم. قال: والصبية معي؟ قال: نعم. فتصدّق بأفضل حديقتيه فدفعها إلى رسول الله. فنزلت الآية فضاعف الله له صدقته ألفي ألف وذلك قوله: ﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾.

فرجع أبو الدحداح فوجد أُم الدحداح والصبية في الحديقة التي جعلها صدقة، فقام على باب الحديقة وتحرج أن يدخلها فنادى يا أُمّ الدحداح، قالت: لبيك يا أبا الدحداح، قال: إني قد جعلت حديقتي هذه صدقة واشتريت مثليها في الجنّة وأم

الدحداح معي والصبية معي. قالت: بارك الله لك فيما شريت وفيما اشتريت، فخرجوا منها وسلّموا الحديقة إلى النّبي فقال النّبي ﷺ: كم نخلة متدلّ عذوقها لأبي الدحداح في الجنّة[١].

التّفسير

الجهاد بالنّفس والمال

هذه الآيات تشرع في حديثها عن الجهاد وتعقّب بذكر قصّة في هذا الصدّد عن الأقوام السّالفة، مع الالتفات إلى الأحداث التي مرّت على جماعة من بني إسرائيل الّذين تهرّبوا من الجهاد بحجّة الإصابة بمرض الطّاعون وأخيراً ماتوا بهذا المرض، يتّضح الارتباط بين هذه الآيات والآيات السّابقة.

في البداية تقول الآية: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ يسمع أحاديثكم ويعلم نياتكم ودوافعكم النفسية في الجهاد.

ثمّ يضيف القرآن في الآية التالية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ أي ينفق من الأموال التي رزقه الله تعالى إيّاها في طريق الجهاد وحماية المستضعفين والمعوزين.

فعلى هذا يكون إقراض الله تعالى بمعنى (الإنفاق في سبيل الله)، وكما ذكر بعض المفسّرين أنّها تعني المصارف التي ينفقها الإنسان في طريق الجهاد، لأنّ تأمين احتياجات الجهاد في ذلك الوقت كان في عهدة المسلمين المجاهدين، في حين أنّ البعض يرى بأنّ الآية تشمل كلّ أنواع الإنفاق[٢].

ولكنّ التفسير الثاني أقرب وأكثر انسجاماً مع ظاهر الآية، وخاصّة أنّه شاملٌ للمعنى الأوّل أيضاً، وأساساً فإنّ الإنفاق في سبيل الله ومساعدة الفقراء والمساكين وحماية المحرومين يُعطي ثمرة الجهاد أيضاً، لأنّ كلّاً منهما يبعث على استقلال المجتمع الإسلامي وعزّته.

(أضعاف) جمع (ضعف) على وزن (عِلم). والضّعف هو أنّ تضيف إلى المقدار مثله أو أمثاله، وقد ورد هنا الجمع مؤكّداً بالكثرة (كثيرة) كما أنّ كلمة (يضاعف) فيها تأكيد

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١ و٢، ص ٣٤٩؛ ومستدرك الوسائل، ج ٧، ص ٢٦٢ و ٢٦٤و ٢٦٥.
(٢) راجع التفسير الكبير: ج ٦، ص ١٦٦.

على هذا المعنى أكثر من كلمة (يُضعّف)[١]، وكلّ ذلك يدلّ على أنّ الله تعالى يعطي كلّ من ينفق في سبيله الكثير الكثير كالبذرة التي تُبذر في أرض صالحة وتُسقى فينميها ويعيدها إلى صاحبها أضعافاً كثيرة كما سيأتي في الآية (٢٦١).

وفي ختام الآية يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

وتشير الآية إلى أنّه لا تتصوروا أن الإنفاق والبذل سوف يؤدّي إلى قلّة أموالكم، لأنّ سعة وضيق ارزاقكم بيد الله فهو القادر على أن يعوض ما انفقتموه أضعافاً مضاعفة، بملاحظة الارتباط الوثيق لأفراد المجتمع، فإن نفس تلك الأموال التي أنفقتموها سوف تعود إليكم في الواقع.

هذا من البعد الدنيوي، وأمّا البعد الأُخروي للإنفاق فلا تنسوا أنّ جميع المخلوقات سوف تعود إلى الله عزّ وجلّ وسوف يثيبكم حينذاك ويجزل لكم العطاء.

بحث

لماذا ورد التعبير بالقرض؟

لقد ورد التعبير بالقرض في مورد الإنفاق في عدّة آيات قرآنية، وهذا من جهة يحكي عظيم لطف الله بالنسبة لعباده، وأهميّة مسألة الإنفاق من جهة أُخرى، فالبرغم من أنّ المالك الحقيقي لجميع عالم الوجود هو الله تعالى وأنّ الناس يمثلون وكلاء عن الله في التصرف في جزء صغير من هذا العالم كما ورد في الآية (٧) من سورة الحديد: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾.

ولكن مع ذلك يعود سبحانه إلى العبد ليستقرض منه وأيضاً استقراض بربح وفير جدّاً (فانظر إلى كرم الله ولطفه).

يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد وإنّما أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملاً»[٢].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن

(١) قال الراغب في المفردات، في مادة «ضعف»: قال البعض: ضاعفت أبلغ من ضعّفت.

(٢) نهج البلاغة القسم الأخير من الخطبة ١٨٣.

دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ
مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ
سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ
وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ
بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن
لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ
بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ
قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا
بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ
وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ
ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

حادثة ذات عبرة

من الضروري وقبل الشروع في تفسير هذه الآيات الشريفة التعرض لجانب من تاريخ بني إسرائيل المنظور في هذه الآيات.

اليهود الذين كانوا قد استضعفوا تحت سلطة الفراعنة استطاعوا أن ينجوا من وضعهم المأساوي بقيادة موسى عليه السلام الحكيمة حتى بلغوا القوّة والعظمة.

لقد أنعم الله على اليهود ببركة نبيّهم الكثير من النِعم بما فيها (صندوق العهد)[1] الذي حمله اليهود أمام الجند فأضفى عليهم الطمأنينة والمعنوية العالية، وظلّت هذه الروحية فيهم بعد رحيل موسى عليه السلام مدّة من الزمن، إلّا أنّ تلك النِعم والانتصارات أثارت في اليهود الغرور شيئاً فشيئاً، وأخذوا بمخالفة القوانين، وأخيراً اندحروا على أيدي الفلسطينيين وخسروا قوّتهم ونفوذهم بخسارتهم صندوق العهد، فكان أن تشتّتوا وضعفوا ولم يعودوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم حتى أمام أتفه أعدائهم، بحيث إنّ هؤلاء الأعداء طردوا الكثيرين منهم من أرضهم وأسروا أبناءهم.

استمرّت حالهم على هذا سنوات طوالاً، إلى أن أرسل إليهم الله نبيّاً اسمه اشموئيل لإنقاذهم وهدايتهم، فتجمّع حوله اليهود الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالظلم وكانوا يبحثون عن ملجأ يأوون إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم قائداً وأميراً لكي يتوحّدوا تحت لوائه، ويحاربوا العدوّ متّحدين يداً ورأياً، لاستعادة عزّتهم الضائعة.

اشموئيل الذي كان يعرف ضعفهم وتهاونهم وهبوط معنويّاتهم قال لهم: أخشى إن اخترت لكم قائداً أن تخذلوه عندما يدعوكم إلى الجهاد ومحاربة العدو.

فقالوا: كيف يمكن أن نعصي أوامر أميرنا ونرفض القيام بواجبنا، مع أنّ العدوّ قد شرّدنا من أوطاننا واستولى على أرضنا وأسر أبناءنا!!

فرأى اشموئيل أنّ هؤلاء القوم قد شخّصوا داءهم وها هُم قد اتجهوا للمعالجة، ولعلّهم أدركوا سبب تخلّفهم، فتوجّه إلى الله يعرض عليه ما يطلبه القوم فأوحى إليه أن اخترنا طالوت ملكاً عليهم.

فقال اشموئيل: ربّ إنّي لا أعرف طالوت ولم أره حتى الآن، فجاءه الوحي: سنرسله إليك فأعطه قيادة الجيش ولواء الجهاد.

من هو طالوت؟

كان طالوت رجلاً طويل القامة، ضخماً، حسن التركيب، متين الأعصاب قويّاً، ذكيّاً، عالماً، مدبّراً.

ويقول بعض: إنّ اختيار اسم (طالوت) له كان لطوله، ولكنّه مع كلّ ذلك لم يكن

---

(١) سوف نتطرّق قريباً إلى تاريخ هذا الصندوق ومحتوياته.

معروفاً، حيث كان يعيش مع أبيه في قرية على أحد الأنهر، ويرعى ماشية أبيه ويشتغل بالزراعة.

أضاع يوماً بعض ماشيته في الصحراء، فراح يبحث عنها مع صاحب له بضعة أيّام حتى اقتربا من مدينة صوف.

قال له صاحبه: لقد اقتربنا من صوف مدينة النبيّ اشموئيل، فتعال نزوره لعلّه يدلّنا بما له من اتصال بالوحي وحصانة في الرأي على ضالّتنا، والتقيا باشموئيل عند دخولهما المدينة.

ما أن تبادل اشموئيل وطالوت النظرات حتى تعارف قلباهما، وعرف اشموئيل طالوت وأدرك أنّ هذا الشاب هو الذي أرسله الله ليقود الجماعة. وعندما انتهى طالوت من قصّته عن ضياع ماشيته، قال له اشموئيل: أمّا ماشيتك الضائعة فهي الآن على طريق القرية تتّجه إلى بستان أبيك فلا تقلق بشأنها، ولكني أدعوك لأمر أكبر من ذلك، إنّ الله قد اختارك لنجاة بني إسرائيل.

فأصاب العجب طالوت من هذا الأمر في البداية، ولكنّه قَبل المهمّة مسروراً فقال اشموئيل لقومه: لقد اختار الله طالوت لقيادتكم، فعليكم جميعاً أن تطيعوه، وأن تتهيّأوا للجهاد ومحاربة الأعداء.

كان بنو إسرائيل يعتقدون أنّ قائدهم يجب أن تتوفّر فيه بعض المميّزات من حيث نسبه وثروته، ممّا لم يجدوا منهما شيئاً في طالوت، فانتابتهم حيرة شديدة لهذا الاختيار، فطالوت لم يكن من أُسرة لاوي التي ظهر منها الأنبياء، ولا كان من أسرتي يوسف أو يهودا اللتين سبق لهما الحكم، بل كان من أُسرة بنيامين المغمورة الفقيرة، فاعترضوا قائلين: كيف يمكن لطالوت أن يحكمنا، ونحن أحقّ منه بالحكم!

فقال اشموئيل - الذي رآهم على خطأ كبير - إنّ الله هو الذي اختاره أميراً عليكم، والقيادة تحتاج إلى كفاءة جسمية وروحية وهي متوفّرة في طالوت، وهو يفوقكم فيها. إلّا أنّهم لم يقبلوا بهذا القول، وطلبوا دليلاً على أنّ هذا الاختيار إنّما كان من الله سبحانه.

فقال اشموئيل: الدليل هو أنّ التابوت - صندوق العهد - الذي هو أثرٌ مهمٌّ من آثار أنبياء بني إسرائيل، وكان مدعاةً لثقتكم واطمئنانكم في الحروب، سيعود إليكم يحمله جمع من الملائكة، ولم يمض وقت طويل حتى ظهر الصندوق، وعلى أثر رؤيته وافق بنو إسرائيل على قيادة طالوت لهم.

طالوت في الحكم

تسلّم طالوت قيادة الجيش، وخلال فتره قصيرة أثبت لياقته وجدارته للاضطلاع بمهامّ إدارة المُلك وقيادة الجيش، ثمّ طلب من بني إسرائيل أن يعدّوا العدّة لمحاربة عدوّ كان يهدّدهم من كلّ جانب، قال لهم مؤكّداً إنّه لا يريد أن يسير معه للقتال إلّا الّذين ينحصر كلّ تفكيرهم في الجهاد، أمّا الذين لهم عمارة لم تتم، أو معاملة لم تكمل وأمثال ذلك، فليس لهم الاشتراك في الجهاد. وسرعان ما اجتمع حوله جمع تظهر عليه الكثرة والقوّة، وتحرّكوا صوب العدو.

وفي المسيرة الطويلة وتحت أشعة الشمس المحرقة أصابهم العطش. فأراد طالوت - بأمر من الله - أن يختبرهم ويصفيهم، فقال لهم: سوف نصل قريباً إلى نهر في مسيرتنا، وإنّ الله يريد أن يمتحنكم به، فمن شرب منكم منه وارتوى فليس منّي، ومن لا يشرب إلّا قليلاً منه فهو منّي، ولكنّهم ما أن وقعت أنظارهم على النهر حتى فرحوا وهرعوا إليه وشربوا منه حتى ارتووا، إلّا نفرٌ قليلٌ منهم ظلّوا على العهد.

أدرك طالوت أنّ أكثرية جيشه يتألّف من أُناس ضعفاء الإرادة وعديمي العهد، ما خلا بعض الأفراد المؤمنين، لذلك فقد تخلّى عن تلك الأكثرية واتّجه مع النفر المؤمن القليل خارجاً من المدينة إلى ميادين الجهاد.

إلّا أنّ هذا الجيش الصغير انتابه القلق من قلّته، فقالوا لطالوت: إننا لا طاقة لنا بمقابلة جيش قويّ كثير العدد، غير أنّ الذين كان لهم إيمان راسخ بيوم القيامة، وكانت محبّة الله قد ملأت قلوبهم، لم يرهبوا كثرة العدوّ وقلّة عددهم، فخاطبوا طالوت بكلّ شجاعة قائلين: قرّر ما تراه صالحاً، فنحن معك حيثما ذهبت، ولسوف نجالدهم بهذا العدد القليل بحول الله وقوّته، ولطالما انتصر جيش صغير بعون الله على جيش كبير، والله مع الصابرين.

فاستعدّ طالوت بجماعته القليلة المؤمنة للحرب، ودعوا الله أن يمنحهم الصبر والثبات، وعند التقاء الجيشين خرج جالوت من بين صفوف عسكره وطلب المبارزة بصوت قوي أثار الرعب في القلوب، فلم يجرؤ أحد على منازلته، في تلك اللحظة خرج شابٌ اسمه داود من بين جنود طالوت، ولعلّه لصغر سنّه، لم يكن قد خاض حرباً من قبل، بل كان قد جاء إلى ميدان المعركة بأمر من أبيه ليكون بصحبة اخوته في صفوف جيش طالوت، ولكنّه كان سريع الحركة خفيفها، وبالمقلاع الذي كان بيده رمى جالوت بحجرين - بمهارة شديدة - فأصابا جبهته ورأسه، فسقط على الأرض ميّتاً وسط تعجّب

جيشه ودهشتهم، وعلى أثر ذلك استولى الرعب والهلع على جيش جالوت، ولم يلبثوا حتى ركنوا إلى الفرار من أمام جنود طالوت وانتصر بنو إسرائيل[١].

التّفسير

نعود إلى تفسير الآيات محلّ البحث في أوّل آية يخاطب الله تعالى نبيّه الكريم ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

(الملأ) هم الجماعة يجتمعون على رأي فيملأون العيون رواءً ومنظراً والنفوس بهاءً وجلالاً ولذلك يقال لأشراف كلّ قوم (الملأ) لأنّهم بما لهم من مقام ومنزلة يملأون العين.

هذه الآية - كما قلنا - تشير إلى جماعة كبيرة من بني إسرائيل طلبوا بصوت واحد من نبيّهم أن يختار لهم أميراً وقائداً ليحاربوا بقيادته (جالوت) الّذي كان يُهدّد مجتمعهم ودينهم واقتصادهم بالخطر.

وعلى الرّغم من أنّ الجماعة المذكورة كانت تريد أن تدفع العدو المعتدي الذي أخرجهم من أرضهم ويُعيدوا ما أُخذ منهم، فقد وُصفت تلك الحرب بأنّها في سبيل الله، وبهذا يتبيّن أنّ ما يُساعد على تحرّر النّاس وخلاصهم من الأسر ورفع الظّلم والعدوان يُعتبر في سبيل الله.

وقد ذكر البعض أنّ اسم ذلك النّبي هو (شمعون) وذكر آخرون بأنّه (إشموئيل) وبعضٌ (يوشع) ولكنّ المشهور بين المفسّرين أنّه (إشموئيل) أي إسماعيل بلغة العرب، وبهذا وردت رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً[٢].

ولمّا كان نبيّهم يعرف فيهم الضعف والخوف قال لهم: يمكن أن يصدر إليكم الأمر للجهاد فلا تطيعون ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

ولكنّهم قالوا: كيف يمكن أن نتملّص من محاربة العدو الذي أجلانا عن أوطاننا وفرّق بيننا وبين أبنائنا ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ وبذلك أعلنوا وفاءهم وتمسّكهم بالعهد.

---

(١) اقتباس عن مجمع البيان وتفسير الدرّ المنثور وقصص القرآن، (باختصار)؛ ولمزيد من الايضاح يراجع، بحار الانوار، ج ١٣، ص ٤٣٥، (الباب ١٩، قصة اشموئيل عليه السلام وطالوت وجالوت).

(٢) تفسير مجمع البيان: ج ١، و٢، ص ٣٥٠.

ومع ذلك فإنّ هذا الجمع من بني إسرائيل لم يمنعهم اسم الله ولا أمره ولا الحفاظ على استقلالهم والدفاع عن وجودهم ولا تحرير أبنائهم من نقض العهد، ولذلك يقول القرآن مباشرة بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

وذكر بعض المفسّرين أنّ عدّة من بقي مع طالوت (٣١٣ نفراً) بعدد جيش الإسلام يوم بدر(١).

وعلى كلّ حال فإنّ نبيّهم أجابهم إلى طلبهم التزاماً منه بواجبه وجعل عليهم طالوت ملكاً بأمر من الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

ويتّضح من هذه الآية أنّ الله هو الذي اختار طالوت ليكون ملكاً على بني إسرائيل وقائداً لعسكرهم، ولعلّ استعمال كلمة (قد بعث) يشير إلى ما ذكرنا في القصّة من الحوادث غير المتوقّعة التي جاءت بطالوت إلى مدينة ذلك النّبي والحضور في مجلسه، فكذلك يظهر من كلمة (ملكاً) أنّ طالوت لم يكن قائداً للجيش فحسب، بل كان ملكاً على ذلك المجتمع(٢).

ومن هنا بدأت المخالفات والاعتراضات وقال بعضهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾.

وهذا هو أوّل اعتراض ونقض في العهد من قِبل بني إسرائيل لنبيّهم مع أنّه قد صرّح لهم أنّ الله هو اختار طالوت، وفي الواقع أنّهم اعترضوا على الله تعالى بقولهم: إنّنا أجدر من طالوت بالحكم لأنّ الحكم لا بدّ فيه من شرطين لا يتوفّران في طالوت وهما: الحسب والنسب من جهة، والمال والثروة من جهة أُخرى، وقد ذكرنا في القصّة أنّ طالوت كان من قبيلة مغمورة من قبائل بني إسرائيل، ومن حيث الثروة لم يكن سوى مُزارع فقير.

غير أنّ القرآن الكريم يشير إلى الجواب القاطع على هذا الاعتراض إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

فأفهمهم بذلك أنّ اختيار الله طالوت ملكاً وقائداً لما يتمتّع به من علم وحكمة وعقل، ومن الناحية البدنيّة فهو قوي ومقتدر.

---

(١) تفسير روح المعاني والتفسير الكبير ذيل الآية مورد البحث.

(٢) اعتبر صاحب «الكشّاف» طالوت اسماً أعجمياً مثل: جالوت وداود، وقال الآخرون: إنّه اسم عربي مأخوذ من مادة «طول» وإشارة إلى طول القامة. (التفسير الكبير: ج ٦، ص ١٧٢).

وهذا يعني **أوّلاً**: أنّ هذا الاختيار هو اختيار الله تعالى.

وثانياً: أنّكم على خطأ كبير في تشخيص شرائط القيادة، لأنّ النسب الرّفيع والثروة الكبيرة ليسا امتيازين للقائد إطلاقاً، لأنّهما من الامتيازات الاعتبارية الخارجيّة، أمّا العلم والمعرفة وكذلك القوّة الجسميّة فهما امتيازان واقعيّان ذاتيان حيث يلعبان دوراً مهمّاً في شخصيّة القائد.

إنّ القائد العالم يعرف طريق سعادة المجتمع ويرسم الخطط للوصول إليها بعلمه وحنكته، وكذلك يرسم الأُسلوب الصحيح في مواجهة الأعداء، ثمّ يقوم بقوّته الجسمانيّة بتمثيل هذا المخطّط على أرض الواقع.

كلمة (بسطة) إشارة إلى اتساع وجود الإنسان في أنوار العلم والقوّة، أي أنّ الإنسان بالعلم والحكمة والقوّة الجسميّة الكافية يزداد سعةً في وجوده، وهنا نلحظ أنّ البسطة في العلم تقدّمت على القوّة الجسميّة، لأنّ الشرط الأوّل هو العلم والمعرفة.

ويُستفاد ضمناً من هذا التعبير أنّ مقام الإمامة والقيادة من الأحكام الإلهيّة وأنّ الله تعالى هو الذي يشخّص اللّائق لها، فلو رأى اللّياقة الكافية في أولاد الرّسول ﷺ لجعل الإمامة عندهم، ولو توفّرت عند أشخاص آخرين لجعلها فيهم، وهذا هو ما يعتقد به علماء الشيعة ويدافعون عنه.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى شرط ثالث للقائد، وهو توفير الله تعالى الإمكانيّات وآليات القيادة ووسائل الحكم، لأنّه من الممكن أن يكون قائداً كاملاً من حيث العلم والقوّة ولكنّه محاط بظروف لا تمنحه أيّ استعداد للوصل إلى أهدافه المقدّسة، ولاشكّ أنّ قائداً مع هذه الظّروف لا يمكن أن ينتصر وينجح في قيادته، ولذلك يقول القرآن هنا إنّ الله تعالى يمنح الحكومة الإلهيّة لمن يشاء، أي أنّه يهيّئ الظروف اللازمة لنجاحه.

الآية التالية تبيّن أنّ بني إسرائيل لم يكونوا قد اطمأنوا كلّ الاطمئنان إلى أنّ طالوت مبعوث من الله تعالى لقيادتهم على الرّغم من أن نبيّهم صرّح بذلك لهم، ولهذا طلبوا منه الدّليل، فكان جوابه أنّ الدليل سيكون مجيء التابوت أو صندوق العهد إليهم ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾.

فما هو تابوت بني إسرائيل أو صندوق العهد؟ ومن الذي صنعه؟ وما هي محتوياته؟ فإنّ في تفاسيرنا وأحاديثنا، وكذلك في العهد القديم - التوراة - كلاماً كثيراً عنه. إلّا أنّ

أوضحها هو ما جاءنا في أحاديث أهل البيت عليهم السلام وأقوال بعض المفسّرين من أمثال ابن عبّاس، حيث قالوا: إنّ التابوت هو الصندوق الذي وضعت فيه أُمّ موسى ابنها موسى وألقته في اليمّ، وبعد أن انتشل أتباع فرعون الصندوق من البحر وأتوا به إليه وأخرجوا موسى منه، ظلّ الصندوق في بيت فرعون ثمّ وقع في أيدي بني إسرائيل، فكانوا يحترمونه ويتبرّكون به.

موسى عليه السلام وضع فيه الألواح المقدّسة - التي تحمل على ظهرها أحكام الله - ودرعه وأشياء أُخرى تخصّه وأودع كلّ ذلك في أواخر عمره لدى وصيّه يوشع بن نون(١).

وبهذا ازدادت أهميّة هذا الصندوق عند بني إسرائيل، فكانوا يحملونه معهم كلّما نشبت حرب بينهم وبين الأعداء، ليصعّد معنوياتهم، لذلك قيل: إنّ بني إسرائيل كانوا أعزّة كرماء ما دام ذلك الصندوق بمحتوياته المقدّسة بينهم، ولكن بعد هبوط التزاماتهم الدينية وغلبة الأعداء عليهم سلب منهم الصندوق. واشموئيل - كما تذكر الآية - وعدهم بإعادة الصندوق باعتباره دليلاً على صدق قوله.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾.

هذه الفقرة من الآية تبيّن أنّ الصندوق كما قلنا كان يحتوي على أشياء تضفي السكينة على بني إسرائيل وترفع معنوياتهم في الحوادث المختلفة ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ثمّ إنّ محتويات الصندوق كانت تضمّ آثاراً ممّا خلف آل موسى وآل هارون أُضيفت إلى ما كان فيه من قبل، وممّا يجدر ذكره هو أنّ (السكينة) بمعنى الهدوء، ويقصد بها هنا هدوء النفس والقلب.

قال لهم اشموئيل: إنّ الصندوق سوف يعود إليكم لتستعيدوا الهدوء الذي فقدتموه، وفي الحقيقة أنّ هذا الصندوق بطابعه المعنويّ والتاريخيّ كان أكثر من مجرّد لواء لبني إسرائيل وشعاراً لهم، فقد كان يمثّل رمز استقلالهم ووجودهم وبرؤيته كانوا يسترجعون ذكرى عظمتهم السابقة، لذلك كان الوعد بعودته بشارة عظيمة لهم.

﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

كيف جاء الملائكة بصندوق العهد؟ في هذا أيضاً للمفسّرين كلام كثير أوضحها قولهم: جاء في التاريخ أنّه عندما وقع صندوق العهد بيد عبدة الأصنام في فلسطين وأخذوه إلى حيث يعبدون أصنامهم، أصابتهم على أثر ذلك مصائب كثيرة، فقال

---

(١) بحار الانوار، ج ١٣، ص ٤٣٨ - ٤٤٠.

بعضهم: ما هذه المصائب إلّا بسبب هذا الصندوق، فعزموا على إبعاده عن مدينتهم وديارهم، ولمّا لم يرض أحد بالقيام بالمهمّة اضطروا إلى ربط الصندوق ببقرتين وأطلقوهما في الصحراء، واتّفق هذا في الوقت الذي تمّ فيه نصب طالوت مَلكاً على بني إسرائيل. وأمر الله الملائكة أن يسوقوا الحيوانين نحو مدينة اشموئيل. وعندما رأى بنو إسرائيل الصندوق بينهم، اعتبروه إشارة من الله على اختيار طالوت مَلكاً عليهم.

وعليه نسب حمل الصندوق إلى الملائكة، لأنّهم هم الذين ساقوا البقرتين إلى بني إسرائيل.

في الحقيقة أنّ للملائكة معنىً واسعاً في القرآن والروايات، يشمل فضلاً عن الكائنات الروحية العاقلة، مجموعة من القوى الغامضة الموجودة في هذا العالم.

ويُستفاد ممّا تقدّم أنّه بالرّغم من ثبوت مسألة القيادة الإلهيّة لطالوت بالأدلّة والمعاجز الإلهيّة، فهناك بعض الأفراد لضعف إيمانهم لم يسلّموا لهذا الحقّ، وقد ظهرت هذه الحقيقة على أعمالهم العباديّة، ومن ذلك تشير الجملة الأخيرة في هذه الآية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ثمّ إنّ بني إسرائيل رضخوا لقيادة طالوت فصنع منهم جيوشاً كثيرة وساروا إلى القتال، وهنا تعرّض بنو إسرائيل لاختبار عجيب، ومن الأفضل أن نجمع تلك الأحداث ومجريات الأُمور من القرآن نفسه حيث يقول: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾(١).

ويتّضح في هذه الموارد الامتحان الكبير الذي تعرّض له بنو إسرائيل وهو المقاومة الشديدة للعطش، وكان هذا الامتحان ضرورياً لجيش طالوت وخاصّة مع السّوابق السيّئة لهذا الجيش في بعض الحروب السابقة، لأنّ الانتصار يتوقّف على مقدار الانضباط وقدرة الإيمان والاستقامة في مقابل الأعداء والطّاعة لأوامر القيادة.

وطالوت الذي كان يتّجه بجنوده للجهاد، كان لا بدّ له أن يعلم إلى أيّ مدى يمكن الاعتماد على طاعة هؤلاء الجنود، وعلى الأخصّ أُولئك الذين ارتضوه واستسلموا له على مضض متردّدين، ولكنّهم في الباطن كانت تراودهم الشكوك بالنسبة لإمرته، لذلك

---

(١) جنود جمع جند في الأصل بمعنى الأرض الكثيرة الأحجار والمتراكمة الصخور ثمّ اطلقت على كلّ شيء متراكم وعادةً تأتي بمعنى الجيش الكبير، وعبارة «لم يطعمه» جاءت بدل كلمة لم يشربه وهي إشارة إلى أنّ الجنود لا ينبغي لهم أن يشربوا منه بمقدار كف واحدة بل لا يذوقونه أيضاً.

يؤمر طالوت أمراً إلهيّاً باختبارهم، فيخبرهم أنّهم سوف يصلون عمّا قريب إلى نهر، فعليهم أن يقاوموا عطشهم، وألّا يشربوا إلّا قليلاً، وبذلك يستطيع أن يعرف إن كان هؤلاء الذين يريدون أن يواجهوا سيوف الأعداء البتّارة يتحمّلون سويعات من العطش أم لا.

وشرب الأكثرية كما قلنا في سرد الحكاية، وكما جاء بإيجاز في الآية.

وهكذا جرت التصفية الثانية في جيش طالوت. وكانت التصفية الأُولى عندما نادى المنادي للاستعداد للحرب وطلب من الجميع الاشتراك في الجهاد إلّا الذين كانت لهم التزامات تجارية أو عمرانية أو نظائرها.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

تفيد هذه الآية أنّ تلك القلّة التي نجحت في الامتحان هي وحدها التي تحرّكت معه، ولكن عندما خطر لهؤلاء القلّة أنّهم مقدمون على مواجهة جيش جرّار وقوي، ارتفعت أصواتهم بالتباكي على قلّة عددهم، وهكذا بدأت المرحلة الثالثة في التصفية.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

(الفئة) أصلاً من (الفيء) بمعنى الرجوع، ويقصد بها الجماعة الملتحمة التي يرجع بعضهم إلى بعض ليعضده، تقول الآية: إنّ الذين كانوا يؤمنون بيوم القيامة إيماناً راسخاً قالوا للآخرين: ينبغي ألّا تلتفتوا إلى (الكم) بل إلى (الكيف) إذ كثيراً ما يحدث أنّ الجماعة الصغيرة المتحلّية بالإيمان والعزم والتصميم تغلب الجماعة الكبيرة بإذن الله.

ينبغي أن ننتبه إلى أنّ (يظنّون) هنا تعني يعلمون، أي أنّهم على يقين من قيام يوم القيامة، ولا يعني الظنّ هنا الاحتمال، و(ظنّ) هذه تعني اليقين في كثير من الحالات، حتى لو اعتبرناها بمعنى الاحتمال، فإنّها هنا تناسب المقام أيضاً، إذ في هذه الحالة يكون المعنى أنّ مجرّد احتمال قيام يوم القيامة يكفي، فكيف باليقين به حيث يحمل الإنسان على اتّخاذ قرار بالنسبة للأهداف الربّانية، إنّ من يحتمل النجاح في حياته - في الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو السياسة - يمضي في مسيرته بكلّ عزم وتصميم.

أمّا لماذا يطلق على يوم القيامة يوم لقاء الله؟ فذلك ما أوضحناه في الجزء الأول من هذا التفسير.

---

(١) «فئة» من «فيء» في الأصل بمعنى الرجوع وبما أن كلّ جماعة تتعاضد فيما بينها وتعود إحداها على الأخرى بالعون والمساعدة فقد اطلقت عليها كلمة «فئة».

في الآية التالية يذكر القرآن الكريم موضوع المواجهة الحاسمة بين الجيشين ويقول: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

(برزوا) من مادّة (بروز) بمعنى الظّهور، فعندما يستعد المحارب للقتال ويتّجه إلى الميدان يقال إنّه برز للقتال، وإذا طلب القتال من الأعداء يُقال إنّه طلب مبارزاً.

تقول هذه الآية إنّه عندما وصل طالوت وجنوده إلى حيث ظهر لهم جالوت وجيشه القوي ووقفوا في صفوف أمامه رفعوا أيديهم بالدّعاء، وطلبوا من الله العليّ القدير ثلاثة أُمور:

الأوّل: الصّبر والاستقامة إلى آخر حد، ولذا جاءت الجملة تقول: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

و(الإفراغ) تعني في الأصل صبّ السائل بحيث يخلو الإناء ممّا فيه تماماً، ومجيء (صبر) بصيغة النكرة يؤكّد هذا المعنى بشكل أكبر.

الاعتماد على ربوبيّة الخالق جلّ وعلا بقولهم (ربّنا) وكذلك عبارة (أفرغ) مضافاً إلى كلمة (على) التي تبيّن أنّ النزول من الأعلى، وكذلك عبارة (صبراً) في صيغة النكرة كلّ هذه المفردات تدلُّ على نكات عميقة لمفهوم هذا الدعاء وأنّه دعاء عميق المغزى وبعيد الأُفق.

الثاني: أنّهم طلبوا من الله تعالى أن يثبّت أقدامهم ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ حتى لا يُرجّح الفرار على القرار، والواقع أنّ الدعاء الأوّل اتّخذ سمة الطلب النفسي والباطني، وهذا الدعاء له جنبة ظاهريّة وخارجيّة، ومن المسلّم به أنّ ثبات القدم هو من نتائج روح الاستقامة والصبر.

الثالث: من الأُمور التي طلبها جيش طالوت هو ﴿وَانصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾وهو في الواقع الهدف الأصلي من الجهاد ويمثّل النتيجة النهائيّة للصبر والاستقامة وثبات الأقدام.

ومن المسلّم به أنّ الله تعالى سوف لا يترك عباده هؤلاء لوحدهم أمام الأعداء مع قلّة عددهم وكثرة جيش العدو، ولذلك تقول الآية التالية: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾.

وكان داود في ذلك الوقت شابّاً صغير السن وشجاعاً في جيش طالوت. ولا تبيّن الآية كيفيّة قتل ذلك الملك الجبّار بيد داود الشاب اليافع، ولكن كما تقدّم في شرح هذه القصّة أنّ داود كان ماهراً في قذف الحجارة بالقلّاب حيث وضع في قلّابه حجراً أو

اثنين ورماه بقوّة وبمهارة نحو جالوت، فأصاب الحجر جبهته بشدّة فصرعه في الوقت، فتسرّب الخوف إلى جميع أفراد جيشه، فانهزموا بسرعة أمام جيش طالوت، وكأنّ الله تعالى أراد أن يظهر قدرته في هذا المورد وأنّ الملك العظيم والجيش الجرّار لا يستطيع الوقوف أمام شاب مراهق مسلّح بسلاح ابتدائي لا قيمة له.

تضيف الآية: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ الضّمير في هاتين الجملتين يعود على داود الفاتح في هذه الحرب، وعلى الرّغم من أنّ الآية لا تقول إنّ داود هذا هو داود النّبي والد سليمان عليه السلام ولكنّ جملة ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ تدلّ على أنه وصل إلى مقام النبوّة، لأنّ هذا ممّا يوصف به الأنبياء عادةً، ففي الآية ٢٠ من سورة ص نقرأ عن داود: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ كما أنّ الأحاديث الواردة في ذيل هذه الآية تشير إلى أنّه كان داود النّبي نفسه.

وهذه العبارة يمكن أن تكون إشارة إلى العلم الإداري وتدبير البلاد وصنع الدّروع ووسائل الحرب وأمثال ذلك حيث كان داود عليه السلام يحتاج إليها في حكومته العظيمة، لأنّ الله تعالى لا يُعطي منصباً ومقاماً لأحد العباد إلّا ويؤتيه أيضاً الاستعداد الكامل والقابليّة اللّازمة لذلك.

وفي ختام الآية إشارة إلى قانون كلّي فتقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فالله سبحانه وتعالى رحيم بالعباد ولذلك يمنع من استشراء الفساد وسرايته إلى المجتمع البشري قاطبة.

وصحيح أنّ سنّة الله تعالى في هذه الدنيا تقوم على أصل الحريّة والإرادة والاختيار وأنّ الإنسان حرٌّ في اختيار طريق الخير أو الشر، ولكن عندما يتعرّض العالم للفساد والاندثار بسبب طغيان الطّواغيت، فإنّ الله تعالى يبعث من عباده المخلصين من يقف أمام هذا الطغيان ويكسر شوكتهم، وهذا من ألطاف الله تعالى على عباده، وشبيه هذا المعنى ورد في آية ٤٠ من سورة الحج ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾.

وهذه الآيات في الحقيقة بشارة للمؤمنين الّذين يقفون في مواقع أماميّة من مواجهة الطّواغيت والجبابرة فينتظرون نصرة الله لهم.

ويرد هنا سؤال، وهو أنّ هذه الآية هل تشير إلى مسألة تنازع البقاء التي تعتبر أحد الأركان الأربعة لفرضية داروِن في مسألة تكامل الأنواع؟ تقول الفرضيّة إنّ الحرب

والنّزاع ضروريٌّ بين البشر، وإلّا فالسّكون والفساد سيعم الجميع، فتعود الأجيال البشريّة إلى حالتها الأولى، فالتّنازع والصّراع الدائمي يؤدّي إلى بقاء الأقوى وزوال الضعفاء وانقراضهم، وهكذا يتمّ البقاء للأصلح بزعمهم.

الجواب

إنّ هذا التفسير يصح فيما إذا قطعنا صلة هذه الآية بما قبلها تماماً، وكذلك الآية المشابهة لها في سورة الحجّ ولكنّنا إذا اخذنا بنظر الاعتبار هذه الآيات رأيناها تدور حول محاربة الظّالمين والطّغاة، فلولا منع الله تبارك وتعالى لملأوا الأرض ظلماً وجوراً، فعلى هذا لا تكون الحرب أصلاً كليّاً مقدّساً في حياة البشريّة.

ثمّ إنّ ما يقال عن قانون (تنازع البقاء) المبني على المبادىء الأربعة لنظريّة داروِن في (تطوّر الأنواع) ليست قانوناً علميّاً مسلّماً به، بل هو فرضيّة أبطلها العلماء، وحتى الّذين كانوا يؤيّدون نظريّة تكامل الأنواع لم يعد أيٌّ منهم يعوّل عليها ويعتبرون تطوّر الأحياء نتيجة الطفرة[1].

وإذا ما تجاوزنا عن كلّ ذلك واعتبرنا فرضيّة تنازع البقاء مبدأً علميّاً فإنّه يمكن أن يكون كذلك فيما يتعلّق بالحيوان دون الإنسان، لأنّ حياة الإنسان لا يمكن أن تتطوّر وفق هذا المبدأ أبداً، لأنّ تكامل الإنسان يتحقّق في ضوء التّعاون على البقاء لا تنازع البقاء.

ويبدو أنّ تعميم فرضيّة تنازع البقاء على عالم الإنسان إنّما هو ضربٌ من الفكر الاستعماري الّذي يؤكّده بعض علماء الاجتماع في الدول الرأسمالية لتسويغ حروب حكوماتهم الدمويّة البغيضة وإضفاء الطّابع العلمي على سلوكياتهم وجعل الحرب والنزاع ناموساً طبيعياً لتطوّر المجتمعات الإنسانية وتقدّمها، أمّا الأشخاص الّذين وقعوا دون وعي تحت تأثير أفكار هؤلاء اللّاإنسانيّة وراحوا يطبّقون هذه الآية عليها فهم بعيدون عن تعاليم القرآن، لأنّ القرآن يقول بكلّ صراحة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾[2].

ومن العجب أنّ بعض المفسّرين المسلمين مثل صاحب المنار وكذلك المراغي في تفسيره وقعوا تحت تأثير هذه الفرضيّة إلى الحدّ الذي اعتبروها إحدى السنن الإلهيّة،

---

(١) لمزيد من الاطلاع راجع كتاب «الفرضية الأخيرة في التكامل».
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

ففسّروا بها الآية محلّ البحث وتصوّروا أنّ هذه الفرضيّة من إبداعات القرآن لا من ابتكارات واكتشافات داروِن، ولكن كما قلنا إنّ الآية المذكورة ليست ناظرة إلى هذه الفرضيّة، ولا أنّ هذه الفرضيّة لها أساس علمي متين، بل إنّ الأصل الحاكم على الروابط بين البشر هو التعاون على البقاء لا تنازع البقاء.

وآخر آية في هذا البحث تقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

تشير هذه الآية إلى القصص الكثيرة التي وردت في القرآن بشأن بني إسرائيل وأنّ كلّاً منها دليل على قدرة الله وعظمته ومنزّهة عن كلّ خرافة وأسطورة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حيث نزلت على نبيّ الإسلام ﷺ وكانت إحدى دلائل صدق نبوّته وأقواله.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

التّفسير

دور الأنبياء في حياة البشر

هذه الآية تشير إلى درجات الأنبياء ومراتبهم وإلى جانب من دورهم في حياة المجتمعات البشرية، تقول الآية: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

(تلك) اسم إشارة للبعيد. والإشارة إلى البعيد - كما نعلم - تستعمل أحياناً لإضفاء الاحترام والتبجيل على مقام الشخص أو الشيء المشار إليه، هنا أيضاً أُشير إلى الرسل باسم الإشارة (تلك) لتبيان مقام الأنبياء الرفيع.

واختلف المفسّرون في المقصود بالرسل هنا، هل هم جميع الرسل والأنبياء؟ أم هم الرسل الذين وردت أسماؤهم أو ذكرت حكاياتهم في ما سبق من آيات هذه السورة فقط، مثل إبراهيم، موسى، عيسى، داود، اشموئيل عليهم السلام؟ أم هم جميع الرسل الذين ذكرهم القرآن حتى نزول هذه الآية؟

ولكن يبدو أنّ المقصود هم الأنبياء والمرسلون جميعاً، لأنّ كلمة (الرسل) جمع حُلّيَ بالألف واللام الدالّتين على الاستغراق، فتشمل الرسل كافّة.

﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

يتّضح جليّاً من هذه الآية أنّ الأنبياء - وإن كانوا من حيث النبوّة والرسالة متماثلين - لكنهم من حيث المركز والمقام ليسوا متساوين لاختلاف مهمّاتهم، وكذلك مقدار تضحياتهم كانت مختلفة أيضاً.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾.

هذه إشارة إلى بعض فضائل الأنبياء، وواضح أنّ المقصود بالآية موسى المعروف باسم (كليم الله)، كما أنّ الآية ١٦٣ من سوره النساء تقول عنه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

أمّا القول بأنّ المقصود هو نبيّ الإسلام ﷺ وأنّ التكليم المنظور هنا هو التكليم الذي كان في ليلة المعراج مع الرسول، أو أنّ المراد هو الوحي الإلهي الذي ورد في آية ٥١ من سورة الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ حيث أُطلق عليه عنوان التكلّم، فإنّه بعيد جدّاً، لأنّ الوحي كان شاملاً لجميع الأنبياء، فلا يتلاءم مع كلمة (منهم) لأنّ (من) تبعيضيّة.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

ومع الالتفات إلى أنّ الآية أشارت إلى التفاضل بين الأنبياء بالدّرجات والمراتب، فيمكن أن يكون المراد في هذا التكرار إشارة إلى أنبياء معيّنين وعلى رأسهم نبيّ الإسلام الكريم لأنّ دينه آخر الأديان وأكملها، فمن تكون رسالته إبلاغ أكمل الأديان لا بدّ أن يكون هو نفسه أرفع المرسلين، خاصّةً وأنّ القرآن يقول عنه في الآية ٤١ من سورة النّساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

والشاهد الآخر على هذا الموضوع، وهو أنّ الآية السابقة تشير إلى فضيلة موسى عليه السلام، والآية التالية تبيّن فضيلة عيسى عليه السلام، فالمقام يتطلّب الإشارة إلى فضيلة رسول الإسلام ﷺ، لأنّ كلّ واحد من هؤلاء الأنبياء الثلاثة كان صاحب أحد الأديان الثلاثة العظيمة في العالم. فإذا كان اسم نبيّ الإسلام ﷺ قد جاء بين اسميهما، فلا عجب في ذلك، أوَليس دينه الحدّ الوسط بين دينيهما وأنّ كلّ شيء قد جاء فيه بصورة معتدلة ومتعادلة؟ ألا يقول القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1]!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

ومع ذلك، فإنّ العبارات المتقدّمة في هذه الآية تدلّ على أنّ المقصود من ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ هم بعض الأنبياء السابقين، مثل إبراهيم إذ يقول سبحانه في الآية التالية: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي لو شاء الله ما أخذت أُمم هؤلاء الأنبياء تتقاتل فيما بينها بعد رحيل أنبيائها.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

أي أنّنا وهبنا عيسى عليه السلام براهين واضحة مثل شفاء المرضى المزمنين وإحياء الموتى والمعارف الدينيّة السامية.

أمّا المراد من (روح القدس) هل هو جبرائيل حامل الوحي الإلهي، أو قوى أُخرى غامضة موجودة بصورة متفاوتة لدى أولياء الله؟ فقد تقدّم البحث مشروحاً في الآية ٨٧ من سورة البقرة، وعندما تؤكّد هذه الآية على أنّ عيسى عليه السلام كان مؤيّداً بروح القدس فلأنّه كان يتمتّع بسهم أوفر من سائر الأنبياء من هذه الرّوح المقدّسة.

وتشير الآية كذلك إلى وضع الأُمم والأقوام السالفة بعد الأنبياء والاختلافات التي جرت بينهم فتقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ فمقام الأنبياء وعظمتهم لن يمنعا من حصول الاختلافات والاقتتال والحرب بين أتباعهم لأنّها سنّة إلهيّة أن جعل الله الإنسان حرّاً ولكنّه أساء الاستفادة من هذه الحريّة ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾.

ومن الواضح أنّ هذا الاختلاف بين الناس ناشيءٌ من اتّباع الأهواء والشّهوات وإلّا فليس هناك أيّ صراع واختلاف بين الأنبياء الإلهيّين حيث كانوا يتّبعون هدفاً واحداً.

ثمّ تؤكّد الآية أنّ الله تعالى قادرٌ على منع الاختلافات بين النّاس بالإرادة التكوينيّة وبالجبر، ولكنّه يفعل ما يريد وفق الحكمة المنسجمة مع تكامل الإنسان ولذلك تركه مختاراً ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

ولا شكّ في أنّ بعض الناس أساء استخدام هذه الحريّة، ولكنّ وجود الحريّة في المجتمع يُعتبر ضروريّاً لتكامل الإنسان، لأنّ التكامل الإجباري لا يُعدّ تكاملاً.

وضمناً يُستفاد من هذه الآية التي تعرّضت لمسألة الجبر مرّة أُخرى بطلان الاعتقاد بالجبر، حيث تثبت أنّ الله تعالى ترك الإنسان حرّاً فبعضٌ آمن وبعضٌ كفر.

مسألة: هل الأديان تسبّب الاختلافات؟

يتّهم بعض الكتّاب الغربيين الأديان على أنّها هي سبب التفرقة والنزاع بين أفراد البشر، وهي السبب في إراقة الكثير من الدماء، فالتاريخ شهد الكثير من الحروب

الدينية، وهكذا سعوا إلى إدانة الأديان واعتبارها من الأسباب المثيرة للحروب والمخاصمات.

وإزاء هذا القول لا بدّ من الانتباه إلى ما يلي:

أولاً: إنّ الاختلافات - كما جاء في الآية المذكورة - لا تنشأ في الحقيقة بين الأتباع الصادقين لدين من الأديان، بل هي بين أتباع الدين ومخالفيه، وإذا ما شاهدنا صراعاً بين أتباع مختلف الأديان فإنّ ذلك لم يكن بسبب التعاليم الدينية، بل بسبب تحريف التعاليم والأديان وبالتعصّب المقيت ومزج الأديان السماوية بالخرافات.

ثانياً: إنّ الدين - أو تأثيره - قد انحسر اليوم عن قسم من المجتمعات البشرية، ومع ذلك نرى أنّ الحروب قد ازدادت قسوةً واتساعاً وانتشرت في مختلف أرجاء العالم، فهل أن الدين هو السبب، أم أنّ روح الطغيان في مجموعة من البشر هي السبب الحقيقي لهذه الحروب، ولكنّها تظهر اليوم بلبوس الدين، وفي يوم آخر بلبوس المذاهب الاقتصادية والسياسية، وفي أيّام أُخرى بقوالب ومسمّيات أُخرى؟! وعليه فالدِين لا ذنب له في هذا، إنّما الطغاة هم الذين يشعلون نيران الحروب بحجج متنوّعة.

ثالثاً: إنّ الأديان السماوية - وعلى الأخصّ الإسلام - التي تكافح العنصرية والقومية، كانت سبباً في إلغاء الحدود العنصرية والجغرافية والقبلية، فقضت بذلك على الحروب التي كانت تثار باسم هذه العوامل، وعليه فإن الكثير من الحروب في التاريخ قد خمدت نيرانها بفضل الدين، كما أنّ روح السلام والصداقة والأخلاق والعواطف الإنسانية التي ترفع لواءها جميع الأديان السماوية، كان لها أثر عميق في تخفيض الخصومات والمشاكسات بين مختلف الأقوام.

رابعاً: إنّ من رسالات الأديان السماوية تحرير الطبقات المحرومة المعذّبة، وكانت هذه الرسالة هي سبب الحروب التي شنّها الأنبياء وأتباعهم على الظالمين والمستغلّين، من أمثال فرعون والنمرود، إنّ هذه الحروب التي تعتبر جهاداً في سبيل تحرير الإنسان، ليست عيوباً تلصق بالأديان، بل هي من مظاهر فخرها واعتزازها وقوّتها، إنّ حروب رسول الإسلام ﷺ مع المشركين من العرب والمرابين في مكّة من جهة، ومع قيصر وكسرى من جهة أُخرى، كانت كلّها من هذا القبيل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

التّفسير

الإنفاق من أهمّ أسباب النجاة يوم القيامة

بعد أن تحدّثت الآيات السّابقة عن الأُمم الماضية وجهاد حكوماتها الإلهيّة والاختلافات التي حدثت بعد الأنبياء عليهم السلام، تخاطب هذه الآية المسلمين وتشير إلى أحد الواجبات المهمّة عليهم التي تسبّب في تقوية بنيتهم الدّفاعيّة وتوحّد كلمتهم فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾.

جملة (ممّا رزقناكم) لها مفهوم واسع حيث يشمل الإنفاق الواجب والمستحب، وكذلك الإنفاق المعنوي كالتعليم وأمثال ذلك، ولكن مع الالتفات إلى التهديد الوارد في ذيل الآية لا يبعد أن يكون المراد به الإنفاق الواجب يعني الزكاة وأمثالها، مضافاً إلى أنّ الإنفاق الواجب هو الّذي يعزّز بيت المال ويقوّم كيان الحكومة، وبهذه المناسبة يشير تعبير (ممّا) إلى أنّ هذا الإنفاق يكون بجزء من المال الّذي يملكه الشخص لا كلّه.

وقد رجّح المرحوم (الطبرسي) في مجمع البيان شموليّة الآية للإنفاق الواجب والمستحب، وذهب إلى أنّ ذيل الآية لا يُعتبر تهديداً، بل هو إخبار عن الحوادث المخوفة يوم القيامة[١].

ولكن مع ملاحظة آخر جملة في هذه الآية التي تقول إنّ الكافرين هم الظالمون يتضح أنّ ترك الإنفاق نوع من الكفر والظلم، وهذا لا يكون إلّا في الإنفاق الواجب.

ثمّ تضيف الآية: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾[٢].

عليكم أن تنفقوا ما دمتم اليوم قادرين على ذلك، لأنّ العالم الآخر الذي هو محلّ حصاد ما زرعتموه في الدنيا لن يتسنى لكم فيه أن تفعلوا شيئاً، فلا معاملات ولا صفقات تجارية تستطيعون بها أن تشتروا السعادة والخلاص من العقاب، ولا هذه الصداقات المادّية التي تكسبونها في الدنيا بأموالكم تنفعكم في شيء هناك، لأنّ أصدقاءكم أنفسهم يعانون نتائج أعمالهم ولا يدفعون عن أنفسهم فكيف بالآخرين، ولا تنفعكم شفاعة، لأنكم بتخلّفكم حتى عن الإنفاق الواجب لم تفعلوا ما هو جدير بأن يشفع لكم، وعليه فإنّ جميع أبواب النجاة مسدودة بوجوهكم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١ و٢، ص ٣٦٠.

(٢) «خُلّة» مأخوذة من مادة «خلل» بمعنى الفاصلة بين شيئين وبما أنّ المحبّة والصداقة تحل في وجود الإنسان وروحه وتملأ الفواصل لذا أُطلقت هذه المفردة على الصداقة العميقة.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنّهم بتركهم الإنفاق والزكاة يظلمون أنفسهم ويظلمون الناس.

ويريد القرآن في هذه الآية أن يوضّح ما يلي:

أولاً: إنّ الكافرين يظلمون أنفسهم، فبتركهم الإنفاق الواجب وسائر التكاليف الدينية والإنسانية حرموا أنفسهم من أعظم السعادات، وإنّ أعمالهم هذه هي التي تثقل كواهلهم في العالم الآخر، لذلك فإنّ الله لم يظلمهم أبداً.

ثانياً: يظلم الكافرون أفراد مجتمعهم أيضاً، لأنّ الكفر منبع القسوة وتحجّر القلب والتمسّك بالمادة وعبادة الدنيا، وهذه كلّها من مصادر الظلم، لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الكفر في الآية يعني التمرّد والعصيان والتخلّف عن إطاعة أمر الله لورود الكلمة بعد الأمر بالإنفاق، واستعمال الكفر بهذا المعنى شائع في القرآن وغيره من النصوص الإسلامية.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

آية الكرسي من أهم آيات القرآن

يكفي لبيان أهميّة وفضيلة هذه الآية قول الرسول ﷺ عندما سأل أُبي بن كعب: أي آية في كتاب الله أعظم؟ فقال: الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم. قال: فضرب في صدري ثمّ قال: ليهنك العلم، والذي نفس محمّد بيده إن لهذه الآية للساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش(١).

وفي حديث آخر عن عليّ عليه السلام عن رسول الله قال: سيّد القرآن البقرة وسيّد البقرة آية الكرسي، يا علي إنّ فيها لخمسين كلمة في كلّ كلمة خمسون بركة(٢). وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: من قرأ آية الكرسي مرة صرف الله عنه ألف مكروه من

(١) مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٣٣٧؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) المصدر السابق.

مكاره الدنيا وألف مكروه من مكاره الآخرة أيسر مكروه الدنيا الفقر وأيسر مكروه الآخرة عذاب القبر(١). وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ لكلّ شيء ذروة وذروة القرآن آية الكرسي(٢).

والروايات الواردة في كتب العلماء الشيعة والسّنة في فضيلة هذه الآية الشريفة كثيرة جدّاً ونختتم كلامنا هذا بروايتين عن رسول الله قال: أُعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش ولم يؤتها نبيٌّ كان قبلي(٣).

وفي حديث آخر أنّ أخوين جاءا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالا: نريد الشام في التّجارة فعلّمنا ما نقول؟ فقال: نعم، إذا أويتما إلى منزل، فصليا العشاء الآخرة، فإذا وضع أحدكما جنبه على فراشه بعد الصلاة، فليسبّح تسبيح فاطمة، ثمّ ليقرأ آية الكرسي فإنّه محفوظ من كل شيء حتى يصبح، وجاء في ذيل الحديث أن لصوصاً تبعوهما وسعوا في سرقة ما معهما إلّا أنّهم لم يفلحوا في ذلك(٤).

ومن المعلوم أنّ كلّ هذه الأهميّة والفضيلة لآية الكرسي إنّما هي للمحتوى العميق والمغزى المهم لها والّذي سوف نلحظه ضمن تفسيرها.

التّفسير

مجموعة من صفات الجمال والجلال

تبدأ الآية بذكر الذّات المقدّسة ومسألة التوحيد في الأسماء الحسنى والصّفات العُليا لله عزّوجلّ فتقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

(الله) يعني الذّات الواحدة الجامعة لصفات الكمال، إنّه خالق عالم الوجود، لذا ليس في عالم الوجود معبود جدير بالعبادة غيره.

وبعبارة (لا إله إلّا الله) يبيّن القرآن وحدانية خالق الوجود التي هي أساس الإسلام، ولكن هذه الحقيقة - كما قلنا - موجودة في لفظة (الله).

---

(١) مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٣٣٧؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٢٦٠.

(٣) تفسير البرهان: ج ٢، ص ٢٤٥، بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٢٦٤، ج ٧ (باب فضائل سورة يذكر فيها البقرة وآية الكرسي) ولأجل الاطلاع أكثر راجع بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٢٦٢ - ٢٧٢.

(٤) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٢٦٦ باب فضائل سورة البقرة ح ١١ (بتلخيص).

لذلك فإنّ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لتلك الحقيقة نفسها.

(الحي) من كانت فيه حياة، وهذه الصفة المشبّهة، كمثيلاتها تدلّ على الدوام والاستمرار، وحياة الله حياة حقيقية، لأنّ حياته عين ذاته، وليست عارضة عليه مأخوذة من غيره، في الآية ٥٨ من سورة الفرقان يقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى تكون الحياة الكاملة حياة لا يعتريها الموت، وعليه فإنّ الحياة الحقيقية هي حياته الباقية من الأزل إلى الأبد، أمّا حياة الإنسان التي يخالطها الموت في هذه الدنيا فلا يمكن أن تكون حياة حقيقية، لذلك نقرأ في الآية ٦٤ من سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾، وعلى ذلك فإنّ الحياة الحقيقية هي التي تختصّ بالله.

ولكن ما مفهوم (اللهُ حيّ)؟

في التعبير السائد نقول للكائن إنّه حيٌّ إذا كان يتّصف بالنموّ والتغذية والتكاثر والجذب والدفع، وقد يتّصف بالحسّ والحركة. ولكن لا بدّ من الانتباه إلى أنّ بعضاً من السذّج قد يحسبون حياة الله شبيهة بهذه، مع علمنا بأنّه لا يتّصف بأيّة واحدة من هذه الصفات، هذا هو القياس الذي يوقع الإنسان في أخطاء في حقل معرفة الله، حين يقيس صفات الله بصفاته.

(الحياة) بمعناها الواسع الحقيقي هي العلم والقدرة، وعليه فإنّ من يملك العلم والقدرة اللّامتناهيتين يملك الحياة الكاملة.

حياة الله هي مجموعة علمه وقدرته، وفي الواقع بالعلم والقدرة يمكن التمييز بين الحيّ وغير الحيّ، أمّا النموّ والحركة والتغذية والتكاثر فهي صفات كائنات ناقصة ومحدودة، فهي تكمل نقصها بالتغذية والتكاثر والحركة، أمّا الذي لا نقص فيه فلا يمكن أن يتّصف بمثل هذه الصفات.

(القيوم) صيغة مبالغة من القيام. لذلك فالكلمة تدلّ على الموجود الذي قيامه بذاته، وقيام كلّ الكائنات بوجوده، وبعبارة أُخرى: جميع كائنات العالم تستند إليه.

بديهيّ أنّ القيام كما هو الشائع في الكلام اليومي هو الوقوف وبالهيئة المعروفة، ولكن بما أنّ هذا المعنى لا يتّفق مع الله المنزّه عن الصفات الجسمية، لذلك فالمقصود به هو القيام بالخلق والتدبير والتعهّد، فإنّه هو الذي خلق المخلوقات كلّها وتعهّد بتدبيرها وتربيتها وإدامتها، ولن يغفل عنها لحظة واحدة، فهو قائم دائماً وأبداً وباستمرار دون توقّف.

ويتّضح من هذا أنّ (قيّوم) هي في الواقع أساس كلّ صفات الفعل - وهي الصفات التي تبيّن علاقة الله بالموجودات مثل الخالق، الرزاق، الهادي، المحيي، وأمثالها -.

فالقيام بالخلق وتدبير أُمور العالم يشمل كلّ هذه الأُمور، فهو الذي يرزق، وهو الذي يحيي، وهو الذي يميت، وهو الذي يهدي، وعليه فإنّ صفات الخالق والرازق والهادي والمحيي وأمثالها تتجمّع كلّها في (القيّوم).

ومن هنا يتّضح أن تحديد البعض لمفهوم هذه الجملة بالقيام بأمر الخلقة أو القيام بأمر الرّزق وأمثال ذلك، هو في الواقع إشارة إلى أحد مصاديق القيام، في حين أنّ مفهومه واسع ويشمل كلّ ذلك، لأنّ مفهومه كما قلنا يُعطي معنى القائم بالذّات وغيره متقوّم به ومحتاج له.

وفي الحقيقة أنّ (الحيّ) يشمل جميع الصّفات الإلهيّة كالعلم والقدرة والسّميع والبصير وأمثال ذلك، و(القيّوم) تتحدّث عن احتياج جميع المخلوقات إليه، ولذا قيل إنّ الاسم الأعظم الإلهي هو مجموع هاتين الصّفتين.

ثمّ تضيف الآية ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

(سنةٌ) من مادّة (وَسَنَ) وتعني كما يقول كثير من المفسّرين إنّها الإغفاءة والاسترخاء الّذي يكون في بداية النوم، وبعبارة أُخرى إنّه النّوم الخفيف، و(نوم) يعني الحالة التي تركد فيها بعض حواس الإنسان المهمّة، وفي الواقع أنّ (سنة) عبارة عن النوم العارض للعين، ولكن عندما يتوغّل كثيراً في الإنسان ويتعمّق ويعرض على العقل فيقال له (نوم) وجملة ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ هي في الواقع تأكيدٌ لصفة القيّوم التي يوصف بها الله، لأنّ القيام الكامل والمطلق بتدبير عالم الوجود يتطلّب عدم إغفال ذلك حتى للحظة واحدة، أي إنّ الله لا يغفل طرفة عين عن حكمه المطلق على عالم الوجود وإدارته.

لذلك فكلّ صفة لا تتفق مع قيّومية الله تنتفي من ساحة قدس الله تلقائياً، بل إنّ ذاته منزّهة حتى عن أتفه عامل يمكن أن يؤدّي إلى أيّ تهاون في عمله، مثل (السِنَة).

أمّا سبب تقديم (السِنَة) على (النوم) في الآية مع أنّ القويّ يُذكر عادة قبل الضعيف، فيعود إلى التتالي الطبيعي في عملية النوم، إذ تنتاب المرء (السِنَة) أوّلاً ثمّ تزداد عمقاً حتى تورده في النوم العميق.

وتشير هذه الآية إلى حقيقة استمرار فيض اللطف الإلهي وديمومته وعدم انقطاعه عن وجوده لحظة واحدة، فهو ليس كعبادة الذين يغفلون عن الآخرين بسبب النوم أو أيّ عامل آخر.

يلاحظ أنّ تعبير (لا تأخذه) تعبير رائع يؤدّي الغرض بدقّة، وهو يصوّر استيلاء النوم على الإنسان تصويراً مجسّداً، وكأنّ النوم كائن قويّ ذو مخالب تمسكِ بالإنسان بقوّة وتأسره، إنّ ضعف أقوى الناس أمام سلطان النوم أمر لا اختلاف فيه[١].

مالكية الله المطلقة

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

لا يكون هناك قيام بشؤون العالم بغير ملكية السماوات والأرض وما فيها، لذلك فهذه الآية - بعد ذكر قيّومية الله - تشير إلى حقيقة كون العالم كلّه ملك خاصّ لله، وأنّ كلّ تصرّف يحدث فيه فبأمر منه.

وعليه، فإنّ الإنسان ليس المالك الحقيقي لما عنده ولما يقع تحت تصرّفه، بل إنّه يتصرّف فيه لمدّة محدودة ووفق شروط معيّنة قرّرها المالك الحقيقي، لذلك فعلى هؤلاء المالكين المؤقّتين أن يلتزموا تمام الالتزام بالشروط التي وصفها المالك الحقيقي، وإلّا فإنّ مالكيّتهم المؤقّتة هذه تصبح باطلة وتصرّفهم غير جائز.

الشروط المطلوبة للتصرّف بملك الله هي التي وردت في الشرع وأُبلغت للناس.

من الواضح أنّ التقيّد بهذا يعتبر في الواقع عاملاً مهمّاً من عوامل التربية، إذا اعتقد الإنسان أنّه ليس المالك الحقيقي لما يملك وإنّما هو يتصرّف به لفترة قصيرة من الزمن، فسيمتنع - دون شكّ - عن الاعتداء على حقوق الآخرين وعن الحرص والطمع والاحتكار والبخل وأمثالها ممّا يتولّد في الإنسان نتيجة التصاقه بالدنيا، فيكون ذلك مدعاةً لتربيته تربية تجعله قانعاً بحقوقه المشروعة.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وهذا في الواقع ردّ على ادّعاء المشركين الذين يقولون إننا نعبد الأوثان لتكون شفعاءنا عند الله كما ورد في الآية ٣ من سورة الزمر ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

وهذه الآية من نوع الاستفهام الاستنكاري، أي ما من أحد يتقدّم بشفاعة إليه إلا بإذنه، هذه الآية تكمل في الواقع معنى قيّومية الله ومالكيّته المطلقة لجميع ما في عالم الوجود، أي أننا إذا رأينا أحداً يشفع عند الله، فليس معنى ذلك أنّه يملك شيئاً وأنّ له

(١) شرحنا معنى الاحلام في سورة يوسف شرحاً وافياً.

(٢) وردت «ما» في جملة ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للموجودات غير العاقلة، ومع أن الموجودات العاقلة أيضاً مملوكة لله سبحانه جاءت «ما» للتغليب لأن الغلبة الأكثرية للموجودات غير العاقلة.

تأثيراً مستقلاً، بل إنّ مقامه في الشفاعة هبة من الله، ولمّا كانت شفاعته بإذن الله، فإنّ هذا بذاته دليل آخر على قيّومية الله ومالكيّته.

بحث

الشفاعة ليست محسوبية

(الشفاعة)[1] هي العون الذي يقدّمه قويّ لضعيف لكي يساعده على اجتياز مراحل تكامله بسهولة ونجاح.

إلّا أنّ الكلمة تستعمل عادةً في التوسّط لغفران الذنوب. غير أنّ مفهوم الشفاعة أوسع من ذلك ويشمل جميع العوامل والدوافع والأسباب في عالم الوجود، على سبيل المثال التربة والماء والهواء وأشعة الشمس هي العوامل الأربعة التي تشفع لبذرة النبات وتعينها على الوصول إلى مرحلة النضج لتصبح شجرة أو نبتة متكاملة، ولو نظرنا إلى الشفاعة في الآية الكريمة بهذا المعنى الواسع أدركنا أنّ وجود العوامل والأسباب المختلفة لا يحدّد مالكيّة الله المطلقة ولا يقلّل منها، لأنّ تأثير هذه العوامل كافّة لا يكون إلّا بإذن الله وأمره، وهذا أيضاً دليل على قيّوميته ومالكيّته.

بيدَ أنّ بعضهم يظنّ أنّ الشفاعة في المفاهيم الدينية تشبه التوصيات والمحسوبيات والمنسوبيات، وأنّ مفهومها العام هو السماح للإنسان أن يرتكب ما يشاء من المعاصي، ثمّ يتوسّل بالشفاعة لغفران ذنوبه كلّها بيسر وسهولة!!

ولكن الأمر ليس كذلك، فلا المعترضون أدركوا شيئاً من منطق الدين في موضوع الشفاعة، ولا العاصون المتجرّئون على حدود الله فهموا ذلك، فالشفاعة التي يقوم بها بعض عباد الله المقرّبين يمكن اعتبارها - كما قلنا - شفاعة تكوينية تتحقّق بوساطة عوامل طبيعية، كما تتحقّق في بذرة النبات، وكما أنّ البذرة لاتنمو إن لم تكن فيها عوامل الحياة حتى لو سطعت عليها الشمس وهبّت عليها الرياح وهطل عليها المطر سنوات طويلة، كذلك شفاعة أولياء الله لغير المؤهّلين، لن يكون لها أيّ أثر، أو قُل إنهم لا يمكن أن يشفعوا لأمثال هؤلاء.

الشفاعة تستلزم نوعاً من العلاقة المعنوية بين الشفيع والمشفوع له، لذلك فإنّ على من يرجو الشفاعة أن يقيم في هذه الدنيا علائق روحية مع من يتوقّع شفاعته، وهذه

---

(١) تحدّثنا عن الشفاعة في المجلد الأول الآية (٤٨) من سورة البقرة بصورة مفصلة.

العلائق ستكون - في الواقع - وسيلة من وسائل تربية المشفوع له بحيث إنّها تقرّبه من مدرسة أفكار الشفيع وأعماله، وهذا ما سيوصله إلى أن يكون مؤهّلاً لنيل تلك الشفاعة.

وبناءً على ذلك، فالشفاعة عامل تربوي، وليست نوعاً من المحسوبية والمنسوبية، ولا ذريعة للتنصّل عن المسؤولية.

ومن هذا يتّضح أنّ الشفاعة لا تغيّر إرادة الله بشأن العُصاة المذنبين، بل إنّ العاصي والمذنب - بارتباطه الروحي بشفيعه - يحظى بتربية تؤهّله لنيل عفو الله تعالى.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

بعد الإشارة إلى الشفاعة في الآية السابقة، وإلى أنّ هذه الشفاعة لا تكون إلّا بإذن الله، تأتي هذه الجملة لبيان سبب ذلك فتقول إنّ الله عالم بماضي الشفعاء ومستقبلهم، وبما خفي عليهم أيضاً، لذلك فهم غير قادرين على أن يبيّنوا عن المشفوع لهم أُموراً جديدة تحمل الله على إعادة النظر في أمرهم بسببها وتغيير حكمه فيهم.

وذلك لأنّ الشفيع - في الشفاعات العادية - يؤثّر في المتشفّع عنده بطريقين اثنين: فهو إمّا أن يعمد إلى ذكر صفات ومؤهّلات المشفوع له التي تدعو إلى إعادة النظر في أمره، أو أن يبيّن للمتشفّع عنده العلاقة التي تربط المشفوع بالشفيع ممّا يستدعي تغيير الحكم إكراماً للشفيع.

بديهيّ أنّ كلا هذين الأسلوبين يعتمدان على كون الشفيع يعلم أشياء عن المشفوع له لا يعلمها المتشفّع عنده، أمّا إذا كان المتشفّع عنده محيطاً إحاطة كاملة بكلّ شيء ممّا يتعلّق بكلّ شخص، فلا يكون لأحد أن يشفع لأحد عنده، وذلك لأنّ المتشفّع عنده أعلم بمن يستحقّ الشفاعة فيجيز للشفيع أن يشفع له.

كلّ ذلك في صورة أن يكون ضمير ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعود على الشفعاء أو المشفوع لهم، ولكن يُحتمل أيضاً أن يعود الضمير لجميع الموجودات العاقلة في السّموات والأرض الواردة في جملة ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وتُعتبر تأكيداً لقدرة الله الكاملة على جميع المخلوقات وعجز الكائنات أيضاً وحاجتها إليه، لأنّ من ليس له علمٌ بماضيه ومستقبله وغير مطّلع على غيب السّموات والأرض فإنّ قدرته محدودة جدّاً، بخلاف من هو عالمٌ ومطّلعٌ على جميع الأشياء، وفي جميع الأزمنة والأعصار، في الماضي والحاضر فإنّ قدرته غير محدودة، ولهذا السبب فكلّ عمل حتى الشفاعة يحتاج إلى إذنه.

وبهذا الترتيب يمكن الجمع بين كلا المعنيين.

أمّا المراد من جملة ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فإنّ للمفسّرين احتمالات متعدّدة، فبعضٌ ذهب إلى أنّ المراد من ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أُمور الدّنيا التي تكون أمام الإنسان وبين يديه، وجملة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يراد بها أُمور الآخرة التي تقع خلف الإنسان، وذهب بعضٌ آخر إلى عكس هذا التفسير.

وبعضٌ ثالث ذهب إلى أنّها إشارة إلى أجر الإنسان أو أعماله الخيّرة أو الشّريرة أو الأُمور التي يعلمها والتي لا يعلمها.

ولكن بمراجعة آيات القرآن الكريم يُستفاد أنّ هذين التعبيرين استعملا في بعض الموارد للمكان كالآية ١٧ من سورة الأعراف حيث تحدّثت عن قول الشيطان: ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾.

وتارةً تأتي بمعنى القبل والبعد الزماني كالآية ٧١ من سورة آل عمران حيث تقول: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ فمن الواضح أنّ الآية هنا ناظرةٌ إلى الزّمان.

أمّا في الآية التي نحن بصددها فالتعبير قد يجمع بين المكان والزمان، أي أنّ الله يعلم ما كان في الماضي أو يكون في المستقبل وما هو أمام أنظارهم بحيث إنّهم يعلمونه، وما هو خلفهم ومحجوبٌ عنهم ولا يعلمون عنه شيئاً، وعلى هذا فإنّ الله محيط بكل أبعاد الزمان والمكان فكل عمل حتى الشفاعة يجب أن تكون بإذنه.

وفي ثامن صفة مقدّسة تقول الآية: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾(١).

هذه الفقرة أيضاً توكيدٌ لما سبق من سعة علمه اللامحدود وأنّ علم الكائنات إنّما هو قبسٌ من علمه تعالى، فلذلك يكون علم الشفعاء محدوداً بإزاء علمه تعالى، فلا حظّ لهم من العلم إلّا بمقدار ما يريد الله تعالى لهم.

ومن هذه الفقرة من الآية يستفاد أمران:

الأول: أنّه لا أحد يعلم شيئاً بذاته، فجميع العلوم والمعارف البشريّة إنّما هي من الله تعالى، فهو الذي يزيح الستار عن حقائق الخلقة وأسرار الطبيعة ويضع معلومات جديدة في متناول البشر فيوسّع من أُفق معرفتهم.

والآخر: هو أنّ الله تعالى قد يضع بعض العلوم الغيبيّة في متناول من يشاء من عباده فيطلعهم على ما يشاء من أسرار الغيب، وهذا ردٌ على من يعتقد أنّ علم الغيب غير متاح

---

(١) ذهب أكثر المفسّرين إلى ان كلمة «علم» هنا بمعنى المعلوم. وهذا ما يتناسب مع معنى الآية ومن هنا تبعيضية. مجمع البيان، التفسير الكبير، روح البيان، والقرطبي في ذيل الآية مورد البحث.

للبشر، وهو تفسيرٌ أيضاً للآيات التي تنفي علم الغيب عن البشر (وسيأتي إن شاء الله مزيد من الشرح لهذا الموضوع في مكانه عند تفسير الآيات الخاصّة بالغيب كالآية ٢٦ من سورة الجن).

وجملة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ إشارة لطيفة إلى حقيقة العلم وأنّه نوعٌ من الإحاطة.

وفي تاسع وعاشر صفة إلهيّة تقول الآية: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾.

وفي الصفة الحادية عشرة والثانية عشرة تقول الآية: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

بحوث

الأوّل: المراد من العرش والكرسيّ

(الكرسي) من (كرس) بوزن إرث، ومعناه أصل الشيء وأساسه، كما يطلق على كلّ شيء متجمّع ومترابط، ولهذا يطلق على المقعد الواطىء المتعارف عليه للجلوس، ويقابله (العرش) الذي يعني السقف، أو الشيء ذا السقف، أو الكرسي ذا القوائم المرتفعة، ولمّا كان الأُستاذ أو المعلّم يجلس أحياناً على كرسي أثناء التدريس، فقد انتقل اسم (الكرسي) ليدلّ على العلم، وقد يستعمل رمزاً للسلطة والسيطرة أو يكون كناية عن الحكومة والحكم.

في هذه الآية نقرأ عن كرسيّ الله أنّه يسع السماوات والأرض، وعليه فيمكن أن يكون للكرسيّ عدّة معان:

١ - **منطقة نفوذ الحكم**: أي أنّ حكم الله نافذ في السماوات والأرض وأنّ منطقة نفوذه تشمل كلّ مكان، أي أنّه يشمل عالم المادّة برمّته، بما فيه من أرض ونجوم ومجرّات وسُدُم.

وعلى هذا يكون (العرش) مرحلة أرفع وأعظم من عالمنا المادّي هذا، لأنّ العرش - كما قلنا - يعني السقف أو المسقّف أو مقعداً أعلى من الكرسي، وبهذا يشمل العرش عالم الأرواح والملائكة وما وراء الطبيعة، وهذا يكون بالطبع إذا وضع الكرسي في قبال العرش بحيث يعني الأوّل (عالم المادّة والطبيعة) ويعني الثاني (عالم ما وراء الطبيعة).

وللعرش معان أُخرى كما سيأتي في تفسير الآية ٥٣ من سورة الأعراف، خاصّة إذا لم يذكر في قبال الكرسي، وعندئذ يمكن أن يكون بمعنى عالم الوجود كلّه.

٢ - **منطقة نفوذ العلم**: أي أنّ علم الله يحيط جميع السماوات والأرض وأنّ ما من

شيء يخرج عن منطقة نفوذ علمه، لأنّ الكرسي - كما قلنا - قد يكون كناية عن العلم، وهناك أحاديث كثيرة تعتمد هذا المعنى، ومن ذلك ما رواه حفص بن غياث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سأله عن معنى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال: هو العلم[١].

٣ - شيء أوسع من السماوات والأرض كلّها بحيث إنّه يحيط بها من كلّ جانب، وعلى هذا يكون معنى الآية: كرسيّ الله يضمّ جميع السماوات والأرض ويحيط بها.

وقد نقل هذا التفسير عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «الكرسيُّ محيطٌ بالسماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى»[٢].

بل يستفاد من بعض الروايات أنّ الكرسي أوسع بكثير من السماوات والأرض، فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما السماوات والأرض عند الكرسي إلّا كحلقة خاتم في فلاة، وما الكرسي عند العرش إلّا كحلقة في فلاة»[٣].

المعنيان الأول والثاني مفهومان، أمّا المعنى الثالث فأمر لم يتوصّل العلم البشري بَعدُ لمعرفته وكشف الستار عنه، فالعالم الذي يضمّ في زاوية منه السماوات والأرض لم يثبت وجوده بالطرق العلمية حتى الآن، كما أنّه ليس هناك أيّ دليل على عدم وجوده، فالعلماء يعترفون جميعاً بأنّ اتّساع السماء والأرض يزداد بمرور الأيّام وبتقدّم وسائل المعرفة العلمية، وما من أحد يستطيع أن يزعم أنّ سعة عالم الوجود هو ما يعرفه العلم اليوم، ولا يُستبعد أن تكون هناك عوالم أُخرى لا تعدّ ولا تُحصى خارجة عن نطاق وسائل الأبصار عندنا اليوم.

نضيف هنا أنّ التفاسير الثلاثة المذكورة لا يتعارض بعضها مع بعض، وأنّ عبارة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يمكن أن تشير إلى حكومة الله المطلقة ونفوذ قدرته في السماوات والأرض، كما تشير في الوقت نفسه إلى علمه النافذ، وكذلك إلى عالم أوسع بكثير من عالمنا هذا، وهذه الآية تكمل الآيات السابقة عن سعة علم الله.

بعبارة موجزة إنّ عرش حكومة الله وقدرته يهيمن على السماوات والأرض جميعاً، وإنّ كرسيّ علمه يحيط بكلّ هذه العوالم، وما من شيء يخرج عن نطاق حكمه ونفوذ علمه.

قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾. (يؤوده) من (أود) - على وزن قول - بمعنى الثقل

(١) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٢٥٩، ح ١٠٣٩.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٦٠، ح ١٠٤٢.
(٣) تفسير مجمع البيان: ج ١، ص ٣٦٢.

والمشقة، أي أنّ حفظ السماوات والأرض ليس فيه أيّ ثقل أو مشقّة على الله، فهو ليس مثل مخلوقاته التي يتعبها الحفاظ على الأشياء ويوهنها، ذلك لأنّ المخلوقات ضعيفة محدودة القدرة، وقدرته غير محدودة، ومن لا حدود لقدرته لا يكون للثقل والخفّة والصعب والسهل مفهوم عنده، فهذه مفاهيم تصدق عند من تكون قدراتهم محدودة.

ممّا تقدّم يتّضح أنّ الضمير في (يؤوده) يعود على الله، ويؤكّد هذا ما سبق من آيات والآية التالية، فضمائرها كلّها تعود على الله، وعليه فإنّ احتمال عود هذا الضمير إلى (الكرسي) - باعتبار أنّ حفظ السماوات والأرض ليس ثقيلاً على الكرسي - ضعيف جداً.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾. توكيد لما سبق. أي أنّ الله الذي هو أرفع وأعلى من كلّ شبيه وشريك، ومنزّه عن كلّ نقص وعيب، وهو العظيم اللّامحدود، لا يصعب عليه أي عمل ولا يتعبه حفظ عالم الوجود وتدبيره، ولا يغفل عنه أبداً، وعلمه محيط بكلّ شيء.

الثّاني: هل أنّ آية الكرسيّ هي هذه الآية فحسب؟

وقد يرد سؤال وهو: هل أنّ آيه الكرسيّ هي التي تبدأ من قوله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وتنتهي بقوله ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ أو أنّ الآيتين التاليتين لهذه الآية جزءٌ من آية الكرسيّ، فعلى هذا لو ورد الأمر بقراءة آية الكرسيّ في صلاة (ليلة الدفن) مثلاً فلا بدّ من قراءة الثلاث آيات هذه.

هناك قرائن تشير إلى أنّ آية الكرسيّ هي الآية المذكورة آنفاً:

١ - إنّ جميع الروايات التي اوردت فضيلة هذه الآية وعبّرت عنها بآية الكرسي تدلّ على أنّها آية واحدة لا أكثر.

٢ - إنّ كلمة (الكرسيّ) وردت في الآية الأُولى فقط، فلذلك فأنّ تسميتها بآية الكرسيّ متعلّقٌ بهذه الآية.

٣ - ورد في بعض الأحاديث تصريح بهذا المعنى، فالحديث الذي ذكره الشيخ - في أماليه - عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال عليه السلام ضمن بيان فضيلة آية الكرسيّ إنّه بدأها من (الله لا إله إلّا هو) إلى قوله (وهو العليّ العظيم).

٤ - ذكر صاحب مجمع البيان نقلاً عن مستدرك سفينة البحار أنّ (آية الكرسيّ معروفة وهي إلى قوله وهو العليّ العظيم)[1].

(١) مستدرك سفينة البحار: ج ٩، ص ١٠١.

٥ - ونقرأ في حديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن رسول الله قال: «من قرأ أربع آيات من أول البقرة وآية الكرسي وآيتين بعدها، وثلاث آيات من آخرها لم يرَ في نفسه وماله شيئاً يكرهه ولا يقربه شيطان، ولا ينسى القرآن»[١].

ومن هذا التعبير يستفاد أيضاً أنّ آية الكرسيّ آية واحدة.

٦ - ورد في بعض الروايات أنّ آية الكرسيّ خمسون كلمة، وفي كلّ كلمة خمسون بركة[٢]، وعندما تُعدّ كلمات هذه الآية إلى قوله ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ تكون خمسين كلمة.

أجل يستفاد من بعض الروايات الأمر بقراءة هذه الثلاث آيات إلى قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دون أن تكون معنونة بعنوان آية الكرسيّ[٣].

وعلى كلّ حال إنّ المستفاد من القرائن أعلاه هو أنّ آية الكرسيّ آية واحدة لا أكثر.

الثّالث: الدليل على أهميّة آية الكرسيّ

إنّ أهميّة آية الكرسيّ الكبيرة تكمن في تضمّنها لمجموعة من المعارف الإسلامية والصفات الإلهيّة أعم من صفات الذات والفعل خاصّة مسألة التوحيد في أبعادها المختلفة، وهذه الصفات البالغة اثنتي عشرة صفة وكلّ واحدة منها يمكن أن تكون ناظرة إلى إحدى المسائل التربويّة للإنسان تستحق التأمّل والتدبّر، وكما يقول أبو الفتوح الرازي أنّ كلّ واحدة من هذه الصفات تنفي أحد المذاهب الباطلة (وعلى هذا يمكن إصلاح وتقويم اثنتي عشرة فكرة باطلة وخاطئة بواسطة هذه الآية)[٤].

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

سبب النّزول

يقول الطبرسي في مجمع البيان في سبب نزول هذه الآية: كان لرجل من المدينة اسمه (أبو الحصين) ولدان دعاهما إلى اعتناق المسيحية بعض التجّار الذين كانوا يفدون

(١) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٢٦٥؛ وأصول الكافي، ج ٢، ص ٦٢١.
(٢) تفسير مجمع البيان: ج ١ ص ٣٦١.
(٣) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ١٧٢.
(٤) تفسير أبي الفتوح الرازي: ج ٢، ص ٣٢٧. تفسير روح الجنان، ج ٢، ص ٣٢٧.

على المدينة، فتأثّر هذان بما سمعا واعتنقا المسيحية، ورحلا مع أُولئك التجّار إلى الشام عند عودتهم، فأزعج ذلك أبا الحصين، وأقبل يخبر رسول الله ﷺ بما حدث، وطلب منه أن يعمل على إعادة ولديه إلى الإسلام، وسأله إن كان يجوز إجبارهما على الرجوع إلى الإسلام، فنزلت الآية المذكورة وبيّنت أن ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾(١).

وجاء في تفسير المنار أنّ أبا الحصين كان يريد إكراه ولديه على الرجوع إلى أحضان الإسلام، فجاءا مع أبيهما لعرض الأمر على رسول الله ﷺ، فقال أبو الحصين: كيف أُجيز لنفسي أن أنظر إلى ولديَّ يدخلان النار دون أن أفعل شيئاً؟ فنزلت الآية(٢).

التفسير

الدين ليس إجبارياً

إنّ آية الكرسيّ في الواقع هي مجموعة من توحيد الله تعالى وصفاته الجمالية والجلالية التي تشكّل أساس الدين، وبما أنّها قابلة للاستدلال العقلي في جميع المراحل وليست هناك حاجة للإجبار والإكراه تقول هذه الآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾.

(الرشد) لغوياً تعني الهداية للوصول إلى الحقيقة، بعكس (الغيّ) التي تعني الانحراف عن الحقيقة والابتعاد عن الواقع.

ولمّا كان الدين يهتم بروح الإنسان وفكره ومبنيّ على أساس من الإيمان واليقين، فليس له إلّا طريق المنطق والاستدلال وجملة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ في الواقع إشارة إلى هذا المعنى، مضافاً إلى أنّ المستفاد من شأن نزول هذه الآية هو أنّ بعض الجهلاء طلبوا من رسول الله ﷺ أن يقوم بتغيير عقائد الناس بالإكراه والجبر فجاءت الآية جواباً لهؤلاء وأنّ الدين ليس من الأُمور التي تفرض بالإكراه والإجبار وخاصّة مع كلّ تلك الدلائل الواضحة والمعجزات البيّنة التي أوضحت طريق الحقّ من طريق الباطل، فلا حاجة لأمثال هذه الأُمور.

وهذه الآية ردٌّ حاسم على الذين يتهمون الإسلام بأنّه توسّل أحياناً بالقوّة وبحدّ السيف والقدرة العسكرية في تقدّمه وانتشاره، وعندما نرى أنّ الإسلام لم يسوّغ التوسل

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج ٢٢، ص ١٦.
(٢) تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث.

بالقوّة والإكراه في حمل الوالد لولده على تغيير عقيدته الدينيّة فإنّ واجب الآخرين بهذا الشأن يكون واضحاً، إذ لو كان حمل الناس على تغيير أديانهم بالقوّة والإكراه جائزاً في الإسلام، لكان الأولى أن يجيز للأب ذلك لحمل ابنه على تغيير دينه، في حين أنّه لم يعطه مثل هذا الحقّ.

ومن هنا يتّضح أنّ هذه الآية لا تنحصر بأهل الكتاب فقط كما ظنّ ذلك بعض المفسّرين، وكذلك لم ينسخ حكم هذه الآية كما ذهب إلى ذلك آخرون، بل إنّه حكم سارٍ وعامّ ومطابق للمنطق والعقل.

ثمّ إنّ الآية الشريفة تقول كنتيجة لما تقدّم: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾.

(الطاغوت) صيغة مبالغة من طغيان، بمعنى الاعتداء وتجاوز الحدود، ويطلق على كلّ ما يتجاوز الحدّ، لذلك فالطاغوت هو الشيطان والصنم والمعتدي والحاكم الجبّار والمتكبّر، وكلّ معبود غير الله، وكلّ طريق لا ينتهي إلى الله، وهذه الكلمة تعني المفرد وتعني الجمع.

أمّا المقصود بالطاغوت، فالكلام كثير بين المفسّرين. قال بعض إنّه الصنم، وقال بعض إنّه الشيطان، أو الكهنة، أو السحرة، ولكن الظاهر أنّ المقصود هو كلّ أولئك، بل قد يكون أشمل من كلّ ذلك، ويعني كلّ متعدّ للحدود، وكلّ مذهب منحرف ضال.

إنّ الآية في الحقيقة تأييد للآيات السابقة التي قالت أن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وذلك لأنّ الدين يدعو إلى الله منبع الخير والبركة وكلّ سعادة، بينما يدعو الآخرون إلى الخراب والانحراف والفساد، على كلّ حال، إنّ التمسّك بالإيمان بالله هو التمسّك بعروة النجاة الوثقى التي لا تنفصم.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الإشارة في نهاية الآية إلى الحقيقة القائلة إنّ الكفر والإيمان ليسا من الأمور الظاهرية، لأنّ الله عالم بما يقوله الناس علانية وفي الخفاء وكذلك هو عالم بما يكنّه الناس في ضمائرهم وقلوبهم.

وفي هذه الجملة ترغيب للمؤمنين الصادقين، وترهيب للمنافقين.

بحث

الدين لا يُفرض

لا يمكن للإسلام ولا للأديان الحقّة الأُخرى أن تُفرض فرضاً على الناس لسببين:

١ - بَعدَ كلّ تلك الأدلّة والبراهين الواضحة والاستدلالات المنطقية والمعجزات الجلية لم تكن ثمّة حاجة لذلك، إنّما يستخدم القوّة من أعوزه المنطق والحجّة. والدين الإلهي ذو منطق متين وحجّة قويّة.

٢ - إنّ الدين القائم على أساس مجموعة من العقائد القلبية لا يمكن أن يُفرض بالإكراه، إنّ عوامل القوّة والسيف والقدرة العسكرية يمكنها أن تؤثّر في الأجسام، لا في الأفكار والمعتقدات.

يتّضح ممّا تقدّم الردّ على الإعلام الصليبي - المسموم ضدّ الإسلام - القائل (إنّ الإسلام انتشر بالسيف)، إذ لا قول أبلغ ولا أفصح من ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ الذي أعلنه القرآن.

هؤلاء الحاقدون يتناسون هذا الإعلان القرآني الصريح، ويحاولون من خلال تحريف مفهوم الجهاد وأحداث الحروب الإسلامية أن يثبتوا مقولتهم، بينما يتّضح بجلاء لكلّ منصف أنّ الحروب التي خاضها الإسلام كانت إمّا دفاعية، وإمّا تحريرية، ولم يكن هدف هذه الحروب السيطرة والتوسّع، بل الدفاع عن النفس، أو إنقاذ الفئة المستضعفة الرازحة تحت سيطرة طواغيت الأرض وتحريرها من ربقة العبودية لتستنشق عبير الحرية وتختار بنفسها الطريق الذي ترتئيه.

والشاهد الحيّ على هذا هو ما تكرّر حدوثه في التاريخ الإسلامي، فقد كان المسلمون إذا افتتحوا بلداً تركوا أتباع الأديان الأُخرى أحراراً كالمسلمين.

أمّا الضريبة الصغيرة التي كانوا يتقاضونها منهم باسم الجزية، فقد كانت ثمناً للحفاظ على أمنهم، ولتغطية ما تتطلّبه هذه المحافظة من نفقات، وبذلك كانت أرواحهم وأموالهم وأعراضهم مصونة في حمى الإسلام، كما أنّهم كانوا أحراراً في أداء طقوسهم الدينية الخاصّة بهم.

جميع الذين يطالعون التاريخ الإسلامي يعرفون هذه الحقيقة، بل إنّ المسيحيين الذين كتبوا في الإسلام يعترفون بهذا أيضاً، يقول مؤلّف (حضارة الإسلام أو العرب): «كان تعامل المسلمين مع الجماعات الأُخرى من التساهل بحيث إنّ رؤساء تلك الجماعات كان مسموحاً لهم بإنشاء مجالسهم الدينية الخاصّة».

وقد جاء في بعض كتب التاريخ أنّ جمعاً من المسيحيين الذين كانوا قد زاروا رسول الله ﷺ للتحقيق والاستفسار أقاموا قدّاساً في مسجد النّبي في المدينة بكلّ حرّية.

إنّ الإسلام - من حيث المبدأ - توسّل بالقوّة العسكرية لثلاثة أُمور:

١ - لمحو آثار الشرك وعبادة الأصنام، لأنّ الإسلام لا يعتبر عبادة الأصنام ديناً من الأديان، بل يراها انحرافاً ومرضاً وخرافة، ويعتقد أنّه لا يجوز مطلقاً أن يسمح لجمع من الناس أن يسيروا في طريق الضلال والخرافة، بل يجب إيقافهم عند حدّهم، لذلك دعا الإسلام عبدة الأصنام إلى التوحيد، وإذا قاوموه توسّل بالقوة وحطّم الأصنام وهدّم معابدها، وحال دون بروز أي مظهر من مظاهر عبادة الأصنام، لكي يقضي تماماً على منشأ هذا المرض الروحي والفكري.

وهذا يتبيّن من آيات القتال مع المشركين، مثل الآية ١٩٣ من سورة البقرة: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، وليس هناك أيّ تعارض بين الآية التي نحن بصددها وهذه الآية، ولا نسخ في هذا المجال.

٢ - لمقابلة المتآمرين للقضاء على الإسلام، عندئذ كانت الأوامر تصدر بالجهاد الدفاعي وبالتوسّل بالقوّة العسكرية، ولعلّ معظم الحروب الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ كانت من هذا القبيل، مثل حرب أُحد والأحزاب وحنين ومؤتة وتبوك.

٣ - للحصول على حريّة الدعوة والتبليغ، حيث إنّ لكل دين الحقّ في أن يكون حرّاً في الإعلان عن نفسه بصورة منطقية، فإذا منعه أحد من ذلك فله أن ينتزع حقّه هذا بقوّة السلاح.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

التّفسير

نور الإيمان وظلمات الكفر

بعد أن أشير في الآيات السابقة إلى مسألة الإيمان والكفر واتضاح الحقّ من الباطل والطريق المستقيم من الطريق المنحرف توضّح هذه الآية الكريمة استكمالاً للموضوع أنّ

لكل من المؤمن والكافر قائداً وهادياً فتقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهم يسيرون في ظلّ هذه الولاية من الظلمات إلى النور ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

كلمة (وليّ) في الأصل بمعنى القرب وعدم الانفصال ولهذا يقال للقائد والمربّي (وليّ) - وسيأتي شرحها في تفسير آية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[1] - وتطلق أيضاً على الصديق والرفيق الحميم، إلّا أنّه من الواضح أنّ الآية مورد البحث تعني في هذه الكلمة المعنى الأوّل، ولذلك تقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾.

ويمكن أن يقال إنّ هداية المؤمنين من الظلمات إلى النور هو تحصيل للحاصل، ولكن مع الالتفات إلى مراتب الهداية والإيمان يتّضح أنّ المؤمنين في مسيرهم نحو الكمال المطلق بحاجة شديدة إلى الهداية الإلهيّة في كلّ مرحلة وفي كلّ قدم وكلّ عمل، وذلك مثل قولنا في الصلاة كلّ يوم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2].

ثمّ تضيف الآية أنّ أولياء الكفّار هم الطاغوت (الأوثان والشيطان والحاكم الجائر وأمثال ذلك) فهؤلاء يسوقونهم من النور إلى الظلمات ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ولهذا السبب ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - إنّ تشبيه الإيمان والكفر بالنور والظلمة تشبيه بليغٌ رائع، فالنور هو منبع الحياة ومصدر البركات والرشد والنمو والتكامل والتحرّك ومنطلق الاطمئنان والمعرفة والهداية، بينما الظلام رمز السكون والموت والنوم والجهل والضلال والخوف، وهكذا الإيمان والكفر.

٢ - النقطة الثانية هي أنّ (الظلام) في هذه الآية وفي آيات أُخرى جاء بصيغة الجمع (ظلمات)، والنور جاء بصيغة المفرد، وهذا يشير إلى أنّ مسيرة الحقّ ليس فيها تفرّق وتشتّت، بل هي مسيرةٌ واحدة فهي كالخط المستقيم بين نقطتين حيث إنّه واحدٌ دائماً غير متعدّد، أمّا الباطل والكفر فهما مصدر جميع أنواع الاختلاف والتشتّت، حتّى إنّ أهل الباطل غير منسجمين في باطلهم، وليس لهم هدف واحد كما هو الحال في الخطوط المائلة والمنحرفة بين نقطتين حيث يكون عددها على طرفي الخط المستقيم غير محدود ولا معدود.

واحتمل البعض أنّ المراد من ذلك أن صفوف الباطل بالنسبة لأهل الحقّ كثيرة.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥. (٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

٣ - يمكن أن يقال إنّ الكفّار ليس لهم نورٌ فيخرجوا منه، ولكن مع الالتفات إلى أنّ نور الإيمان موجودٌ في فطرتهم دائماً فينطبق عليه هذا التعبير انطباقاً كاملاً.

٤ - من الواضح أنّ الله تعالى لا يجبر المؤمنين على الخروج من الظلمات إلى النور (ظلمات المعصية والجهل والصفات الذميمة والبعد عن الحقّ) ولا يكره الكفّار على خروجهم من نور التوحيد الفطري، بل إنّ أعمال هؤلاء هي التي توجب هذا المصير وتثمر هذه العاقبة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾

التّفسير

محاجّة إبراهيم مع طاغوت زمانه

تعقيباً على الآية السابقة التي تناولت هداية المؤمنين بواسطة نور الولاية والهداية الإلهيّة، وضلال الكافرين لاتّباعهم الطاغوت، يذكر الله تعالى في هذه الآية عدّة شواهد لذلك، وأحدها ما ورد في الآية أعلاه وهي تتحدّث عن الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام وأحد الجبّارين في زمانه ويدعى (نمرود) فتقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾.

وتعقّب الآية بجمله أُخرى تشير فيها إلى الدافع الأساس لها وتقول: إنّ ذلك الجبّار تملّكه الغرور والكبر وأسكره الملك ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾.

وما أكثر الأشخاص الذين نجدهم في الحالات الطبيعيّة أفراداً معتدلين ومؤمنين، ولكن عندما يصلون إلى مقام أو ينالون ثروةً فإنّهم ينسون كلّ شيء ويسحقون كلّ المقدّسات.

وتضيف الآية أنّ ذلك الجبّار سأل إبراهيم عن ربّه: من هو الإله الذي تدعوني إليه؟ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

الواقع أنّ أعظم قضيّة في العالم هي قضيّة الخلقة، يعني قانون الحياة والموت الذي هو أوضح آية على علم الله وقدرته.

ولكن نمرود الجبّار اتّخذ طريق المجادلة والسفسطة وتزييف الحقائق لإغفال الناس والملأ من حوله فقال: إنّ قانون الحياة والموت بيدي ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾.

ومن أجل إثبات هذه الدعوى الكاذبة استخدم حيلة كما ورد في الرواية المعروفة حيث أمر بإحضار سجينين أطلق سراح أحدهما وأمر بقتل الآخر، ثمّ قال لإبراهيم والحضّار: أرأيتم كيف أُحيي وأُميت[(١)].

ولكنّ إبراهيم قدّم دليلاً آخر لإحباط هذه الحيلة وكشف زيف المدّعي بحيث لا يمكنه بعد ذلك من إغفال النّاس فقال: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ وهنا ألقم هذا المعاند حجراً ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وبهذا أُسقط في يدي العدوّ المغرور، وعجز عن الكلام أمام منطق إبراهيم عليه السلام الحيّ، وهذا أفضل طريق لإسكات كلّ عدوّ عنيد، بالرغم من أنّ مسألة الحياة والموت أهم من قضيّة حركة الشمس وشروقها وغروبها من حيث كونها برهاناً على علم الله وقدرته، ولهذا السبب أورده إبراهيم دليلاً أوّل، ولو كان في ذلك المجلس عقلاء ومتفكّرون لاكتفوا بهذا الدليل واقتنعوا به، إذ إنّ كلّ شخص يعرف أنّ مسألة اطلاق سراح سجين وقتل آخر لا علاقة له بقضيّة الاحياء والإماتة الطبيعيتين أبداً، ولكن قد يكون هذا الدليل غير كاف لأمثال هؤلاء السذّج، ويحتمل وقوعهم تحت تأثير سفسطة ذلك الجبّار المكّار، فلهذا قدّم إبراهيم دليله الآخر وهو مسألة طلوع وغروب الشمس لكي يتضح الحق للجميع[(٢)].

وما أحسن ما صنع إبراهيم عليه السلام من تقديمه مسألة الحياة والموت كدليل على المطلوب حتى يدّعي ذلك الجبّار مشاركة الله تعالى في تدبير العالم، ثمّ طرح مسألة طلوع وغروب الشمس بعد ذلك ليتّضح زيف دعواه ويحجم عن دعوى المشاركة.

ويتّضح ضمناً من جملة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنّ الهداية والضلالة بالرغم من أنّهما من أفعال الله تعالى، إلّا أنّ مقدّماتهما بيد العباد، فارتكاب الآثام من قبيل الظلم والجور والمعاصي المختلفة يشكّل على القلب والبصيرة حجباً مظلمة تمنع من إدراك الحقائق على حقيقتها.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج ١٢، ص ٣٤.
(٢) إنّ الاستدلال الثاني يبدأ بإلغاء وقد يكون إشارة إلى أنّ الاستدلال الثاني لا يعني صرف النظر عن الاستدلال الأوّل بل يضاف إليه.

ملاحظات:

١ - القرآن لا يذكر اسم هذا الشخص الذي حاجَّ إبراهيم، ويشير إليه بقوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي أنّه لغروره بحكمه قام بمحاجَّة إبراهيم.

صاحب تفسير الدرّ المنثور نقل عن أمير المؤمنين علي عليه السلام رواية تذكر أنّه النمرود ابن كنعان(١) وكتب التاريخ تذكر هذا الاسم أيضاً.

٢ - على الرغم من عدم تعرّض القرآن لذكر وقت هذا الحوار، فالقرائن تدلّ على أنّه وقع بعد قيام إبراهيم بتحطيم الأصنام ونجاته من النار، إذ من الواضح أنّه قبل إلقائه في النار لم تكن لتجري أمثال هذه المجادلات، لأنّ عبدة الأصنام ما كانوا يسمحون له بالكلام وهم يعتبرونه مجرماً ينبغي أن ينال بأسرع وقت جزاءه على فعلته الشنيعة بتحطيم آلهتهم المقدّسة!

إنّهم سألوه عن سبب فعلته ثمّ أصدروا أمرهم بإحراقه وهم غاضبون، ولكن عندما خرج من النار سليماً على تلك الصورة العجيبة استطاع أن يصل إلى نمرود وأن يحاوره.

٣ - يتبيّن جليّاً من الآية أنّ نمرود لم يكن في الواقع يبحث عن الحقيقة، بل كان يريد أن يظهر باطله بمظهر الحق، ولعلّ استعمال الفعل (حاجَّ) قصد به هذا المعنى، لأنّه يستعمل عادة في مثل هذه الحالات.

٤ - يستدلّ من الآية بصورة واضحة أنّ جبّار ذلك الزمان كان يدعي الألوهيّة، لا ليعبدوه فحسب، بل ليؤمنوا به خالقاً لهذا العالم أيضاً، أي أنّه كان يرى نفسه معبوداً وخالقاً.

وليس في هذا ما يدعو إلى العجب، ففي الوقت الذي يسجد فيه الناس لأصنام من الحجر والخشب، وفضلاً عن عبادتها يعتبرونها مؤثرة في إدارة العالم وتساهم فيها، فإنّ الفرصة مناسبة لجبّار مخادع أن يستغفل الناس ويستغلّ سذاجتهم ويدعوهم إليه ويظهر نفسه بمظهر صنم يعبدونه ويعتبرونه خالقاً.

٥ - تاريخ عبادة الأصنام: يصعب لنا بيان تاريخ لعبادة الأصنام وتعيين مبدأ له، فمنذ أقدم الأزمنة كانت عبادة الأصنام سائدة بين البشر الذين كانت أفكارهم منحطّة وعلى مستوى متدنٍّ.

الواقع أنّ عبادة الأصنام نوع من التحريف في العقيدة الفطرية الطبيعية المودعة في

---

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ١، ص ٣٣١.

الإنسان المتمثّلة في عبادة الله، ولمّا كانت هذه الفطرة موجودة في الإنسان دائماً، فإنّ تحريفها كان أيضاً موجوداً بين المجموعات البشرية المنحطّة دائماً، لذلك يمكن القول إنّ تاريخ عبادة الأصنام يكاد يوازي تاريخ ظهور الإنسان على الأرض، وذلك لأنّ الإنسان بمقتضى فطرته وخلقه يتوجّه إلى قوّة فوق الطبيعة، إنّ طبيعته هذه كانت تؤيّدها أدلّة واضحة من نظام الوجود تقضي بوجود مبدأ عالم قادر، وكان الإنسان يدرك هذا بقدر ما عن طريقين - فطرته وعقله - والإحساس بالجوع في الأطفال مثلاً إذا لم يوجّه في الوقت المناسب إلى الغذاء السليم فإنّ الطفل قد يمدّ يده إلى أشياء كالطين والتراب، ويتعود على ذلك بالتدريج فيفقد صحّته من جراء ذلك، كذلك الإنسان الذي يبحث عن الله بفطرته وعقله إذا لم يوجّه الوجهة الصحيحة يمدّ نظره إلى مختلف الآلهة والأصنام المصطنعة، فينحني ويسجد لها ويسبغ عليها كلّ صفات الألوهيّة.

ولا حاجة إلى القول بأنّ قصيري النظر والسفهاء يسعون إلى أن يجسّموا كلّ شيء في قالب حسّي، لأنّ فكرهم لا يفارق منطقة المحسوسات أبداً، لذلك كان يصعب عليهم عبادة إله غير منظور ومرئي، ورغبوا في صبّ آلهتهم في قالب حسّي. إنّ هذا الجهل إذا امتزج بفطرة عبادة الله يظهر في صورة عباده الأصنام والآلهة المجسّدة.

وقيل من جهة أُخرى: إنّ الأقوام السالفة كانت تقدّس أنبياءها وشخصيّاتها الدينية، فإذا توفي هؤلاء أقامت لهم التماثيل لإحياء ذكراهم مدفوعين بروح تقديس الأبطال، والغلوّ التي نجدها في ضعفاء العقول، ومن ثمّ تقديس تماثيلهم إلى حدّ التأليه، وكان هذا سبباً آخر من أسباب عبادة الأصنام.

ومن الأسباب الأُخرى لعبادة الأصنام أنّ عدداً من الموجودات الطبيعية التي هي مصدر خير وبركة للإنسان كالقمر والشمس والنار والماء وغيرها قد أثارت اهتمام الإنسان بها، فراح يحني رأسه أمامها تعظيماً لها واعترافاً منه بجميلها دون أن يوسع أُفق تفكيره ليرى المبدأ الأوّل في خلق العالم وراء تلك الموجودات، فاتّخذ هذا التقدير والاحترام بمرور الزمان صورة عبادة لهذه الموجودات.

إنّ منشأ كلّ أنواع عبادة الأصنام شيء واحد، وهو الانحطاط الفكري والجهل وعدم وجود الهادي المخلّص إلى طريق الله، الأمر الذي يمكن الوقاية منه باتّباع تعاليم الأنبياء وتربيتهم وإرشاداتهم.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾

التّفسير

قصة «عُزير» العجيبة

جاءت هذه الآية معطوفة على الآية السابقة وتقصّ حكاية أحد الأنبياء القدامى، وهي من الشواهد الحيّة على مسألة البعث. وقد دارت الآيات السابقة - التي استعرضت الحوار بين إبراهيم عليه السلام والنمرود - حول التوحيد ومعرفة الله، أمّا هذه الآية والآيات التالية فتدور حول المعاد والحياة بعد الموت، نبدأ بشرح الحكاية بصورة مجملة ثمّ نباشر بالتفسير.

الآية تشير إلى حكاية رجل سافر على حماره ومعه طعام وشراب، فمرّ بقرية قد تهدّمت وتحوّلت إلى أنقاض تتخلّلها عظام أهاليها النخرة، وإذ رأى هذا المشهد المروع قال: كيف يقدر الله على إحياء هؤلاء الأموات؟

لم يكن تساؤله بالطبع من باب الشكّ والإنكار، بل كان من باب التعجّب، إذ إنّ القرائن الأُخرى في الآية تدلّ على أنّه كان أحد الأنبياء، وقد تحدّث إليه الله، كما أنّ الأحاديث[1] تؤيّد هذا كما سيأتي.

عند ذلك أماته الله مدة مائة سنة، ثمّ أحياه مرّة أُخرى وسأله: كم تظنّ أنّك بقيت في هذه الصحراء؟ فقال وهو يحسب أنّه بقي سويعات: يوماً أو أقل، فخاطبه الله بقوله: بل بقيت هنا مائة سنة، انظر كيف أنّ طعامك وشرابك طوال هذه المدّة لم يصبه أي تغيّر بإذن الله. ولكن لكي تؤمن بأنّك قد أمضيت مائة سنة كاملة هنا انظر إلى حمارك الذي

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٤٢.

تلاشى ولم يبق منه شيء بموجب نواميس الطبيعة، بخلاف طعامك وشرابك، ثمّ انظر كيف أنّنا نجمع أعضاءه ونحييه مرّة أُخرى، فعندما رأى كلّ هذه الأُمور أمامه قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: إنني الآن على يقين بعد أن رأيت البعث بصورة مجسّمة أمامي.

ومَن هذا النبيّ الذي تحدّثت عنه هذه الآية؟ ثمّة أقوال عديدة، قال بعض: إنّه (ارميا). وقال آخرون: إنّه (الخضر). إلّا أنّ أشهر الأقوال: إنّه العزير ويؤيّده حديث عن الإمام الصادق عليه السلام [١].

واختلفت الأقوال أيضاً بشأن القرية المذكورة، قال بعض: إنّها بيت المقدس التي دمّرها نبوخذ نصّر، وهو احتمال بعيد.

نعود إلى تفسير الآية: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

هذه الآية - كما قلنا - تكملة للآية السابقة التي دارت حول التوحيد، هذه الآية والآيات التالية تجسّد مسألة المعاد.

(عروش) جمع عرش، وهنا تعني السقف. و(خاوية) في الأصل بمعنى خالية، ولكنّها هنا كناية عن الخراب والدمار، فالبيوت العامرة تكون عادةً مسكونة، أمّا الدور الخالية فإمّا أن تكون قد تهدّمت من قبل، أو أنّها تهدّمت بسبب خلوّها من الساكنين، وعليه فإنّ قوله ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ تعني أنّ دور تلك القرية كانت كلّها خربة، فقد هوت سقوفها ثمّ انهارت الجدران عليها، وهذا هو الخراب التام إذ إنّ الانهدام يكون عادةً بسقوط السقف أوّلاً، وتبقى الجدران قائمة بعض الوقت، ثمّ تنهار فوق السقف.

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

الظاهر أنّ أحداً لم يكن مع النبيّ في هذه الواقعة، فهو بهذا يخاطب نفسه. وبديهيّ أنّ القرية هنا تعني أهل القرية، وهذا يعني أنّه كان يرى عظام أهل القرية بعينيه، فأشار إليها وهو ينطق بتساؤله.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

يرى أكثر المفسّرين أنّ هذه الآية تعني أنّ الله قد أمات النبيّ المذكور مدّة مائة سنة ثمّ أحياه بعد ذلك، وهذا ما يستفاد من كلمة (أماته). إلّا أنّ صاحب تفسير المنار يحتمل

(١) تفسير مجمع البيان: ج ١، ص ٣٧٠.

أن يكون ذلك إشارة إلى نوع من النوم الطويل المعروف عند بعض الحيوانات المسمّى بالسبات، حيث يغطّ الكائن الحي في نوم عميق وطويل دون أن تتوقف فيه الحياة، كالذي حدث مثلاً عند أصحاب الكهف.

وإذا كان النوم لبضع سنوات ممكناً، فهو على رأي صاحب المنار ممكن أيضاً لمائة عام وإن لم يكن اعتيادياً، ويلزم في قبول الخوارق أن تكون ممكنة لا محالة عقلاً(١).

ولكن ليس في هذه الآية ما يدلّ على صحّة هذا القول، بل إنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ النبيّ قد فارق الحياة، وبعد مائة سنة استأنف الحياة مرّة أُخرى، ولا شكّ أنّ موتاً وحياةً كهذين هما من خوارق العادات، وإن لم يكن مستحيلاً، وعلى كلّ حال فإنّ الحوادث الخارقة للعادة في القرآن ليست منحصرة بهذه الحادثة بحيث نعمد إلى تأويلها.

نعم نستطيع في هذا المجال ذكر مسألة النوم الطويل الطبيعي أو السبات الشتوي لبعض الحيوانات التي تنام خلال أشهر الشتاء وتستيقظ عند انخفاض حدّة البرد، أو مسألة انجماد بعض الحيوانات انجماداً طبيعياً، أو تجميد بعض الأحياء على يد البشر لمدّة طويلة دون أن تموت، كلّ ذلك لتقريب فكرة الإماتة والإحياء مدّة عام إلى الأذهان، ويكون ذكر هذه المسائل بهدف الخروج بالنتيجة التالية:

إنّ الله القادر على إبقاء الأحياء مئات السنين في نوم طويل أو حالة انجماد، ثمّ إيقاظها وإعادتها إلى حالتها الأُولى لهو قادر على إحياء الموتى.

إننا بقبولنا أصل المعاد وإحياء الموتى في البعث وكذلك بقبول خوارق العادات والمعجزات على أيدي الأنبياء ليس ثمّة ما يدعونا إلى محاولة تفسير جميع آيات القرآن بسلسلة من المسائل العادية والطبيعية مخالفين بذلك ظاهر الآيات، فهذا ليس صحيحاً ولا لزوم له(٢).

وكما قال بعض المفسّرين: كأننا نسينا أننا كنّا أمواتاً في البداية وقد أحيانا الله تعالى، فما المانع أن تتكرر ظاهرة الموت والحياة هذه؟!

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

---

(١) تفسير المنار والمراغي ذيل الآية مورد البحث.

(٢) إنّ بقاء المواد الغذائية والأشربة لمدّة مائة عام كما أشارت الآية الكريمة إلى ذلك، وكذلك إحياء «الحمار» بعد أن اجتمعت العظام وكسيت العظام لحماً في محضر ذلك النبيّ، كل ذلك دليل قاطع على الاحياء والاماتة في يوم القيامة وأن لا نغفل عن هذا الأمر الجليل.

يسأل الله نبيّه في هذه الآية عن المدّة التي قضاها في النوم، فيتردّد في الجواب بين قضائه يوماً كاملاً أو جزءاً من اليوم، ويستفاد من هذا التردّد أنّ الساعة التي أماته الله فيها تختلف عن الساعة التي أحياه فيها من ساعات النهار، كأن تكون إماتته قد حدثت مثلاً قبل الظهر، وأُعيد إلى الحياة بعد الظهر، لذلك انتابه الشكّ إن كان قد نام يوماً كاملاً بليله ونهاره، أم أنّه لم ينم سوى بضع ساعات من النهار، ولهذا بعد أن قال إنّه قضى يوماً، راوده الشكّ فقال ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ولكنّه ما لبث أن سمع الله يقول له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾.

ثمّ إن الله تعالى أمر نبيّه بأن ينظر إلى طعامه الذي كان معه من جهة، وينظر إلى مركوبه من جهة أُخرى ليطمئن إلى واقعية الأمر فالأول بقي سالماً تماماً، أمّا الثاني فتلاشى وأصبح رميماً، ليعلم قدرة الله على حفظ الأشياء القابلة للفساد خلال هذه الأعوام، ويدرك من جهة أُخرى مرور الزمان على وفاته: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[(١)].

(لم يتسنّه) من مادّة (سَنَه) أي لم يمض عليه مدّة سنة، لعدم تعفّنه وتفسّخه. وعلى ذلك يكون معنى الآية: لاحظ طعامك وشرابك تجده كأنّه لم تمض عليه سنة ولا مدّة زمنية، فلم يتغير، أي أنّ الله القادر على إبقاء ما يسرع إليه التفسّخ والفساد كالطعام والشراب، قادر أيضاً على إحياء الموتى بيسر، فإبقاء الطعام والشراب نوع من إدامة الحياة لهذه المواد السريعة التفسّخ، وعملية الإبقاء هذه ليست بأيسر من إحياء الموتى[(٢)].

إلّا أنّ الآية لم تشر إلى ماهيّة طعام النبيّ وشرابه، يقول بعض: إنّ طعامه كان فاكهة التين وكان شرابه عصير بعض الفواكه[(٣)]، وكلاهما يسرع إليه الفساد والتفسّخ كما هو معلوم، لذلك فإنّ بقاءهما هذه المدّة الطويلة دون تلف أمرٌ مهم.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

---

(١) اتفق كثير من المفسرين على أنّ جملة «لم يتسنّه» مأخوذة من مادة «سنه»، راجع: «الطبرسي» و«الفخر الرازي» و«القرطبي» و«أبو الفتوح» وأشار الراغب في «مفرداته» في مادة «سنه» إلى هذا المعنى وإن فسّرها في مادّة «سنّ» بمعنى آخر.

(٢) الضمير في «لم يتسنّه» مفرد وعائده مثنّى: الطعام والشراب، وإنّما أفرد لقصد الجنس، فكلاهما من جنس واحد.

(٣) التفسير الكبير، وتفسير روح المعاني، وتفسير جامع البيان؛ ذيل الآية مورد البحث.

لم يذكر القرآن عن حماره شيئاً في الآيات السابقة، إلّا أنّ الآيات التالية تشير إلى أنّ حماره قد تلاشى تماماً بمضيّ الزمان، ولولا ذلك لما كان هناك ما يشير إلى انقضاء مائة سنة، وهذا أمر عجيب أيضاً، لأنّ حيواناً معروفاً بطول العمر يتلاشى على هذه الصورة، بينما الذي يطرأ عليه التفسّخ السريع كالفاكهة وعصيرها لم يتغيّر لا في الرائحة ولا في الطعم، وهذا منتهى تجلّي قدرة الله.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾.

أي أنّ حكايتك هذه ليست آية لك وحدك، بل هي كذلك للناس جميعاً.

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

(النشوز) هو الارتفاع والبروز، ويعني هنا رفع العظام من مكانها وتركيبها مرّة أُخرى، فمعنى الآية يكون: انظر إلى هذه العظام النخرة كيف نرفعها من مواضعها ونربط بعضها ببعض ثمّ نغطّيها باللّحم ونحييها، واضح أنّ العظام المقصودة هي عظام حماره المتلاشي، لا عظام أهل القرية لما في ذلك من انسجام مع الآيات السابقة.

واحتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من العظام هي عظام نفس ذلك النّبي، وهذا بعيد جدّاً، لأنّ الحديث كان بعد إحيائه، وكذلك احتمل الآخرون أنها عظام الحمار أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم(١)، وهذا أيضاً بعيد لأن الكلام قبل هذه الجملة كان يدور حول الحمار والراكب لا أهل القرية.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

عندما اتّضحت كلّ هذه المسائل للنبيّ المذكور قال إنّه يعلم أن الله قادر على كلّ شيء، لاحظ أنّه لم يقل: الآن علمت كقول زليخا بشأن يوسف ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾(٢) بل قال: (أعلم) أي أنني أعترف بهذا الأمر بعلمي ومعرفتي.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

(١) تفسير الكشّاف: ج ١ ص ٣٠٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥١.

التفسير

تجلٍّ آخر للمعاد في هذه الدنيا

يذكر القرآن الكريم حول مسألة المعاد بعد قصة عزير قصةً أُخرى عن إبراهيم عليه السلام ليكتمل البحث، ويذكر معظم المفسّرين والمؤرخين في تفسير هذه الآية الحكاية التالية:

مرّ إبراهيم عليه السلام يوماً على ساحل البحر فرأى جيفة مرميّة على الساحل نصفها في الماء ونصفها على الأرض تأكل منها الطيور وحيوانات البرّ والبحر من الجانبين وتتنازع أحياناً فيما بينها على الجيفة، عند رؤية إبراهيم عليه السلام هذا المشهد خطرت في ذهنه مسألة يودّ الجميع لو عرفوا جوابها بالتفصيل، وهي كيفيّة عودة الأموات إلى الحياة مرّة أُخرى، ففكّر وتأمّل في نفسه أنّه لو حصل مثل هذا الحادث لبدن الإنسان وأصبح طعاماً لحيوانات كثيرة، وكان بالتالي جزءاً من بدن تلك الحيوانات، فكيف يحصل البعث ويعود ذلك الجسد الإنساني نفسه إلى الحياة؟

فخاطب إبراهيم عليه السلام ربّه وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾.

فأجابه الله تعالى: أوَلم تؤمن بالمعاد؟ فقال عليه السلام: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

فأمره الله أن يأخذ أربعة طيور ويذبحها ويخلط لحمها، ثمّ يقسّمها عدّة أقسام ويضع على كلّ جبل قسماً منها، ثمّ يدعو الطيور إليه، وعندئذ سوف يرى مشهد يوم البعث، فامتثل إبراهيم عليه السلام للأمر واستولت عليه الدهشة لرؤيته أجزاء الطيور تتجمّع وتأتيه من مختلف النقاط وقد عادت إليها الحياة(١).

وثمّة تفسير آخر للآية نقله الفخر الرازي(٢) عن أحد المفسّرين يدعى أبا مسلم يخالف آراء بقيّة المفسّرين ولكنّنا نذكره هنا لأنّ مفسّراً معاصراً وهو صاحب المنار قد اختار هذا الرأي(٣).

يقول هذا المفسّر: ليس في هذه الآية ما يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام ذبح الطيور وبعد ذلك عادت إلى الحياة من جديد بأمر الله تعالى، بل إنّ الآية في صدد بيان مثال لتوضيح مسألة المعاد، يعني أنّك يا إبراهيم خذ أربعة من الطير فضمّها إليك حتّى تستأنس بك

(١) تفسير العياشي، ج ١، ص ١٤٢؛ وبحار الانوار، ج٧، ص ٣٦ و ٤١.
(٢) التفسير الكبير، ذيل الآية مورد البحث.
(٣) تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث.

بحيث تجيب دعوتك إذا دعوتها، فإنّ الطيور من أشدّ الحيوانات استعداداً لذلك، ثمّ اجعل كلّ واحدة منهنّ على جبل ثمّ ادعها، فإنّها تسرع إليك، وهذه المسألة اليسيرة بالنسبة لك تماثل في سهولتها ويسرها مسألة إحياء الأموات وجمع أجزائها المتناثرة بالنسبة إلى الله تعالى.

فعلى هذا يكون أمر الله تعالى لإبراهيم عليه‌السلام في الطيور الأربعة لا يعني أن يقدم إبراهيم على هذا العمل حتماً، بل إنّه مجرّد بيان مثال وتشبيه كأن يقول شخصٌ لآخر لبيان سهولة الأمر عليه: اشرب هذا القدح من الماء حتى أُنهي هذا العمل، ويريد بذلك بيان سهولته، لا أنّ الآخر يجب عليه أن يشرب الماء.

واستدلّ أنصار النظريّة الثانية بكلمة (فصرهنّ إليك) وقالوا إنّ هذه الجملة إذا كانت متعدّية بحرف (إلى) فتكون بمعنى الأنس والميل، فعلى هذا يكون مفهوم الجملة أنّه (خذ هذه الطيور واجعلها تأنس بك) مضافاً إلى أنّ الضمائر في (صرهنّ) و(منهنّ) و(ادعهنّ) كلّها تعود إلى الطيور، وهذا لا يكون سليماً إلّا إذا أخذنا بالتفسير الثاني، لأنّه على التفسير الأوّل تعود بعض هذه الضمائر على نفس الطيور ويعود البعض الآخر على أجزائها، وهذا غير مستساغ في الاستعمال.

الجواب على هذه الاستدلالات سيأتي ضمن تفسيرنا للآية الشريفة ولكن ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ الآية تبيّن بوضوح هذه الحقيقة، وهي أنّ إبراهيم عليه‌السلام طلب من الله تعالى المشاهدة الحسيّة للمعاد والبعث لكي يطمئن قلبه، ولا شكّ أنّ ضرب المثل والتشبيه لا يجسّد مشهداً ولا يكون مدعاة لتطمين الخاطر، وفي الحقيقة أنّ إبراهيم كان مؤمناً عقلاً ومنطقاً بالمعاد، ولكنّه كان يريد أن يدرك ذلك عن طريق الحس أيضاً.

والآن نبدأ بتفسير الآية ليتّضح لنا أيّ التفسيرين أقرب وأنسب:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾.

سبق أن قلنا إنّ هذه الآية تكملة للآية السابقة في موضوع البعث، يفيد تعبير (أرني كيف...) أنّه طلب الرؤية والشهود عياناً لكيفيّة حصول البعث لا البعث نفسه.

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

كان من الممكن أن يتصور بعضهم أنّ طلب إبراهيم عليه‌السلام هذا إنّما يدلّ على تزلزل إيمان إبراهيم عليه‌السلام، ولإزالة هذا التوهّم أوحى إليه السؤال: (أولم تؤمن؟) لكي يأتي جوابه موضحاً الأمر، ومزيلاً كلّ التباس قد يقع فيه البعض في تلك الحادثة، لذلك أجاب إبراهيم عليه‌السلام: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

يفهم من هذه الآية أيضاً أنّ الاستدلالات العملية والمنطقية قد تؤدّي إلى اليقين ولكنها لا تؤدّي إلى اطمئنان القلب، إنّها ترضي العقل لا القلب ولا العواطف. إنّ ما يستطيع أن يرضي الطرفين هو الشهود العيني والمشاهد الحسيّة، هذا موضوع مهمّ سوف نزيده إيضاحاً في موضعه.

التعبير بالاطمئنان القلبي يدلّ على أنّ الفكر قبل وصوله إلى مرحلة الشهود يكون دائماً في حالة حركة وتقلّب ولكن إذا وصل مرحلة الشهود يسكن ويهدأ.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾.

(صرهنّ) من (الصَوْر) أي التقطيع، أو الميل، أو النداء، ومعنى التقطيع أنسب. أي خذ أربعة من الطير واذبحهنّ وقطّعهنّ واخلطهنّ.

لقد كان المقصود أن يشاهد إبراهيم عليه السلام نموذجاً من البعث وعودة الأموات إلى الحياة بعد أن تلاشت أجسادها، وهذا لا يأتلف مع أملهنّ ولا مع صح بهنّ وعلى الأخصّ ما يأتي بعد ذلك ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ وهذا دليل على أنّ الطيور قد قطّعت أوّلاً وصارت أجزاء، ولعلّ الذين قالوا إنّ (صرهنّ إليك) تعني استمالتهنّ وإيناسهنّ قد غفلوا عن لفظة (جزءاً) هذه، وكذلك الهدف من هذا العمل.

وبذلك قام إبراهيم بهذا العمل وعندما دعاهنّ تجمّعت أجزاؤهنّ المتناثرة وتركبت من جديد وعادت إلى الحياة، وهذا الأمر أوضح لإبراهيم عليه السلام أنّ المعاد يوم القيامة سيكون كذلك على شكل واسع وبمقياس كبير جدّاً.

ويرى بعضهم أنّ كلمة (سعياً) تعني أنّ الطيور بعد أن عادت إليهنّ الحياة لم يطرن، بل مشين مشياً إلى إبراهيم عليه السلام لأنّ السعي هو المشي السريع، وينقل عن الخليل بن أحمد الأديب المعروف أنّ إبراهيم عليه السلام كان يمشي عندما جاءت إليه الطيور، أي أنّ (سعياً) حال من إبراهيم عليه السلام لا من الطيور[1]، ولكن بالرغم من كلّ ذلك فالقرائن تشير إلى أنّ (سعياً) كناية عن الطيران السريع.

---

(١) تفسير البحر المحيط: ج ٢، ص ٣٠٠ ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

بحوث

١ - الحادثة الخارقة للعادة

لا شكّ في أنّ هذه الحادثة التي حدثت للطيور كانت أمراً خارقاً للعادة تماماً كما في وقوع البعث يوم القيامة، ونعلم أنّ الله تعالى حاكمٌ على قوانين الطبيعة وليس محكوماً لها، فعلى هذا لا يكون من العسير حدوث مثل هذه القضايا بأمره، وكما أشرنا سابقاً إلى أنّ إصرار بعض المفسّرين المثقفين على الإعراض عن التفسير المشهور، والقول بأنّ المراد هو تدجين وتأهيل هذه الطيور حتى تستأنس به ثمّ يدعوها إليه فتستجيب، ضعيفٌ جدّاً وكلامٌ لا يستند على أساس منطقي ولا يتناسب مع مسألة المعاد ولا مع قصّة إبراهيم عليه السلام ورؤيته للجيفة على ساحل البحر ثمّ طلبه رؤية مشهد البعث والمعاد.

والجدير بالذكر أنّ الفخر الرازي قال بأنّ جميع المفسّرين اتّفقوا على ما ذكر من التفسير المشهور إلّا أبا مسلم حيث أنكر ذلك[١].

٢ - أربعة طيور مختلفة

لا شكّ أنّ الطيور الأربعة كانت من أربعة أنواع مختلفة، وإلّا فإنّ هدف إبراهيم عليه السلام من عودة كلّ جزء إلى أصله لا يتحقق. وفي بعض الروايات أنّ هذه الطيور كانت طاووساً وديكاً وحمامةً وغراباً[٢]، فكان الاختلاف بينها كبيراً، ويرى بعض أنّها مظهر للصفات والخصال المختلفة في البشر، فالطاووس يمثّل العجب والخيلاء والتكبّر، والديك يمثّل الرغبات الجنسية الشديدة، والحمامة تمثّل اللهو واللعب، والغراب يمثّل الآمال والمطامح البعيدة.

٣ - عدد الجبال

لم يرد في القرآن ذكر عدد الجبال التي وضع عليها إبراهيم أجزاء الطيور، ولكن الأحاديث التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام تقول إنّها عشرة[٣]، ولهذا ورد في الروايات: إنّ من يوصي بإنفاق جزء من أمواله في أمر من الأُمور دون تعيين النسبة فإن صرف عشرة بالمائة يكفي[٤].

(١) التفسير الكبير: ج ٧، ص ٤١.
(٢) بحار الانوار، ج ٧، ص ٣٦ و ٤١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٢٧٨ و ٢٧٩.

٤ - متى وقعت هذه الحادثة؟

هل وقعت عندما كان إبراهيم عليه السلام في بابل، أم بعد نزوله بالشام؟ يظهر أنّ ذلك قد حدث في الشام، لأنّ منطقة بابل خالية من الجبال.

٥ - المعاد الجسماني

معظم الآيات الواردة في القرآن المجيد بشأن البعث تشرح وتوضح المعاد الجسماني، إنّ العليم بالمفاهيم القرآنية الخاصّة بالمعاد يعلم أنّ ما يذكره القرآن هو المعاد الجسماني فقط، أي عندما يبعث الناس يكون البعث للجسم والروح معاً.

لذلك فالقرآن يعبّر عن ذلك بأنّه إحياء الموتى، ولو كان البعث يقتصر على الروح لما كان للإحياء أي مفهوم.

وهذه الآية تشرح بكلّ وضوح كيفيّة تجمّع أجزاء الجسد المتناثرة، وهو ما رآه إبراهيم عليه السلام بعينيه.

٦ - شبهة الآكل والمأكول

ممّا ذكرناه من الدافع الذي دفع بإبراهيم عليه السلام إلى طلب مشاهدة إحياء الموتى وحكاية الجيفة التي كان يأكل منها حيوانات البرّ والبحر، نفهم أنّ اهتمام إبراهيم عليه السلام كان منصبّاً على أن يعرف كيف يمكن إرجاع جسد ميّت إلى حالته الأُولى بعد أن أكلته الحيوانات وأصبح جزءاً من أجساد تلك الحيوانات؟ وهذا ما يطلق عليه في علم العقائد اسم (شبهة الآكل والمأكول).

لتوضيح ذلك نقول: إنّ الله سبحانه يعيد الإنسان في يوم القيامة بهذا الجسد المادّي. وبعبارة أُخرى يعود جسم الإنسان وتعود روحه أيضاً.

في هذه الحالة يبرز تساؤل يقول: إذا استحال جسد الإنسان إلى تراب، وامتصّته جذور الأشجار والنباتات وأصبح ثمراً أكله إنسان آخر وغدا جزءاً من جسده، أو إذا افترضنا مثلاً سنوات قحط شديدة أكل فيها إنسان لحم إنسان، فإلى أيّ جسد ستعود هذه الأجزاء المأكولة؟ فإذا غدت جزءاً من الجسد الأوّل أصبح الجسد الثاني ناقصاً، وإن بقيت جزءاً من الجسد الثاني نقص الأول أو انعدم.

الجواب:

هذا الاعتراض القديم أجاب عليه الفلاسفة وعلماء العقائد إجابات مختلفة لا نرى ضرورة لدرجها جميعاً هنا، وهناك آخرون لم يستطيعوا أن يعثروا على جواب مقنع،

فراحوا يؤوّلون الآيات المرتبطة بالمعاد الجسماني وعمدوا إلى اعتبار شخصية الإنسان منحصرة بالروح والخصائص الروحية، مع أنّ شخصية الإنسان لا تنحصر بالروح فقط، ولا الآيات الخاصّة بالمعاد الجسماني غامضة بحيث يمكن تأويلها، بل هي صريحة صراحة قاطعة كما قلنا.

وهناك غيرهم قالوا بنوع من المعاد الجسماني الذي لا يختلف كثيراً عن المعاد الروحاني، إلّا أننا نجد أمامنا طريقاً أكثر وضوحاً بالاعتماد على النصوص القرآنية ويتّفق مع ما توصّل إليه العلم الحديث، ويحتاج توضيحه إلى عدّة مقدّمات.

١ - إننا نعلم أنّ أجزاء جسد الإنسان تتبدّل مرّات عديدة من الطفولة إلى الموت، حتى خلايا الدماغ التي لا تتغيّر من حيث العدد، تتغيّر من حيث الأجزاء، فهي من جهة تتغذّى ومن جهة أُخرى تتجزّأ، وهذا نفسه يؤدّي إلى تبديلها الكامل على مدى الزمن، بحيث إنّه بعد مرور عشر سنوات لا تبقى أيّة ذرّة من ذرّات الجسم القديمة.

ولكن الذرّات السابقة عندما تكون على أعتاب الهلاك تنقل جميع خواصّها وآثارها إلى الخلايا الجديدة، لذلك فإنّ مميّزات الإنسان الجسمية كالطول والشكل والهيئة وغيرها من الكيفيات الجسمانية تبقى ثابتة على مرور الزمان، وهذا لا يكون إلّا بانتقال هذه الصفات إلى الخلايا الجديدة، (لاحظ هذا بدقّة).

وعليه فإنّ الأجزاء الأخيرة من كلّ إنسان، عندما تتبدّل بعد الموت إلى تراب، تكون حاوية على مجموعة من الصفات التي اكتسبتها على امتداد العمر، فهي تاريخ ينطق بمسيرة جسم الإنسان على امتداد العمر كلّه.

٢ - صحيح أنّ الروح هي الأساس الذي تبنى عليه شخصية الإنسان، ولكن ينبغي أن نعرف أنّ الروح تتكامل وتتربّى بالجسم، وهما يتبادلان التأثير، لذلك فكما أنّ جسدين لا يتشابهان من جميع الجهات، كذلك لا تتشابه روحان من جميع الجهات أيضاً.

ولهذا السبب فإنّ الروح لا تستطيع أن تتفاعل تفاعلاً كاملاً إلّا مع الجسد الذي تربّت وتكاملت معه، لذلك ففي البعث لا بدّ من حضور الجسد السابق نفسه لكي تستطيع الروح الاندماج به وتستأنف نشاطها في عالم أسمى، ولتجني ثمار أعمالها.

٣ - تتمثّل في كلّ ذرّة من ذرّات الجسم جميع صفاته، أي أنّنا لو أمكننا أن نربّي كلّ خليّة من خلايا جسم الإنسان لتصبح إنساناً كاملاً، فإنّ ذلك الإنسان سوف يحمل جميع صفات الإنسان الذي أُخذ منه هذا الجزء، (لاحظ بدقّة).

هل أن الإنسان كان في اليوم الأوّل أكثر من خلية واحدة؟ خلية النطفة التي كانت

تحمل جميع الصفات، ثمّ راحت كلّ خلية تنشطر إلى خليتين على التوالي حتى اكتملت جميع خلايا الجسم، وعليه فإنّ كلّ خلية في جسم الإنسان هي جزء من الخلية الأُولى بحيث لو أنّها تربّت لاستحالت إلى إنسان شبيه بالأوّل يحمل صفاته من جميع الجهات[١].

والآن مع أخذ هذه المقدّمات الثلاث بنظر الاعتبار نباشر بالإجابة على الاعتراض المذكور.

في القرآن آيات تقول بوضوح: إنّ الذرّات الموجودة في جسم الإنسان عند الموت هي التي تعود إلى ذلك الجسد يوم القيامة[٢]. فإذا كان شخص آخر قد طعم من لحمه فإنّ الأجزاء التي طعمها تنفصل عنه وتعود إلى الجسم الأصلي، كلّ ما في الأمر أنّ جسم الشخص الآخر يصبح ناقصاً، ولكن ينبغي أن نقول إنّه لا ينقص، بل يصغر، لأنّ أجزاء الجسم المأكول تكون قد انتشرت في كلّ أجزاء جسم الآكل، ولذلك فإنّ جسم الآكل حين تُسترجع منه الأجزاء ينحف ويصغر بنسبة ما يؤخذ منه، فالذي يزن ستين كيلوغراماً، مثلاً، حين يؤخذ منه أربعون كيلوغراماً لتعطى للشخص الأوّل يصغر بحيث لا يزيد على وزن طفل.

وهل يسبّب هذا مشكلة؟ كلّا طبعاً، لأنّ هذا الجسد الصغير يكون حاوياً على جميع صفات الشخص دون زيادة ولا نقصان، وعند البعث يكون كالطفل الذي يولد صغيراً ثمّ ينمو ويكبر ويحشر بهيئة إنسان كامل، وليس في هذا النوع من النموّ عند البعث أيّ إشكال عقلي أو نقلي.

هل هذا النموّ عند البعث فوريّ أم تدريجي؟ هذا ما لا نعلمه، ولكن الذي نعلمه هو أنّه سواء أكان هذا أم ذاك، فلا يثير أيّة مشكلة، والمسألة محلولة في كلتا الحالتين.

ويبقى سؤال واحد، وهو: إذا كان كلّ جسد الشخص الآكل مكوّناً من أجزاء جسد الشخص المأكول، فما العمل؟

الجواب بسيط، لأنّ حالة كهذه مستحيلة الوجود، فقضية الآكل والمأكول تقتضي أن يكون هناك أوّلاً جسد معيّن، ثمّ يتغذّى على جسد آخر وينمو، وعلى هذا فلا يمكن أن

---

(١) والملفت للنظر أن الأمل بتحقق هذه الفرضية أضحى من المسلّمات حيث يمكن من أجل ايجاد إنسان انتزاع خلية واحدة من بدنه وتبديلها إلى إنسان شبيه للأول. (وهذا ما أشارت إليه التجارب العلمية الأخيرة حيث أطلق عليه اسم «كلونينك» أو الاستنساخ وقد أوردت المجلات والمقالات العلمية بحوثاً مفصلة عن هذه العملية).

(٢) انظر الآيات التي تشير إلى أنّ الله يبعث من في القبور.

تكون جميع أجزاء جسم الآكل متكونة من أجزاء جسم المأكول، إذ ينبغي أن نفترض أوّلاً وجود جسم سابق حتى يمكن أن يتغذّى على جسم آخر، وعليه فإنّ جسم الثاني سوف يكون جزءاً من جسم الأوّل لا كلّه، فتأمّل.

يتّضح من هذا الشرح أنّ مسألة المعاد الجسماني لجسم الإنسان نفسه ليس فيه أيّ إشكال، ولا حاجة إلى تأويل الآيات الصريحة في إثبات هذا الموضوع.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

التّفسير

الإنفاق وترشيد الشخصيّة

تعتبر مسألة الإنفاق إحدى أهمّ المسائل التي أكد عليها الإسلام والقرآن الكريم، والآية أعلاه هي أوّل آية في مجموعة الآيات الكريمة من سورة البقرة التي تتحدّث عن الإنفاق، ولعلّ ذكرها بعد الآيات المتعلّقة بالمعاد من جهة أنّ أحد الأسباب المهمّة للنجاة في الآخرة هو الإنفاق في سبيل الله، وذهب البعض إلى أنّ الآيات لها ارتباط بآيات الجهاد المذكورة قبل آيات المعاد والتوحيد في هذه السورة.

تقول الآية الشريفة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ فيكون المجموع المتحصّل من حبّة واحدة سبعمائة حبّة، وتضيف الآية بأنّ ثواب هؤلاء لا ينحصر بذلك ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وذلك باختلاف النيّات ومقدار الإخلاص في العمل وفي كيفيّته وكميّته. ولا عجب في هذا الثواب الجزيل لأنّ رحمة الله تعالى واسعة وقدرته شاملة وهو مطّلع على كلّ شيء ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ويرى بعض المفسّرين أنّ المراد من الإنفاق في الآية أعلاه هو الإنفاق للجهاد في سبيل الله فقط لأنّ هذه الآية في الواقع تأكيدٌ لما مرّ في الآيات التي تحدّثت عن قصة عزير وإبراهيم وطالوت، ولكنّ الانصاف أنّ مفهوم الآية أوسع من ذلك ومجرّد ارتباطها بالآيات السابقة لا يمكن أن يكون دليلاً على تخصيص هذه الآية والآيات التالية لأنّ عبارة (في سبيل الله) لها مدلول واسع يشمل كلّ مصارف الخير، مضافاً إلى أنّ الآيات

التالية أيضاً ورد فيها بحث الإنفاق بسورة مستقلّة، وقد أُشير كذلك في الروايات الإسلامية إلى عموم معنى الإنفاق في هذه الآية(١).

والجدير بالذكر أنّ هذه الآية تشبّه الأشخاص الذين ينفقون في سبيل الله بالبذرة المباركة التي تزرع في أرض خصبة في حين أنّ التشبيه عادةً يجب أن يكون بين الإنفاق نفسه والبذرة أي أعمالهم لا أنفسهم، ولذلك ذهب الكثير من المفسّرين إلى أنّ في الآية حذفاً مثل كلمة (صدقات) قبل كلمة (الذين ينفقون) أو كلمة (زارع) قبل كلمة الحبّة وأمثال ذلك.

ولكن ليس هناك أي دليل على وجود الحذف والتقدير في هذه الآية، بل إنّ تشبيه المنفقين بحبّات كثيرة البركة تشبيه رائع وعميق وكأنّ القرآن يريد أن يقول: إنّ عمل كلّ إنسان انعكاس لوجوده، وكلّما اتّسع العمل اتّسع في الواقع وجود ذلك الإنسان.

وبعبارة أُخرى: إنّ القرآن لا يفصل عمل الإنسان عن وجوده، بل يرى أنّهما مظهران مختلفان لحقيقة واحدة، ووجهان لعملة واحدة، لذلك فإنّ الآية قابلة للتفسير من دون أن نفترض فيها حذفاً وتقديراً، فالآية إشارة إلى حقيقة أنّ شخصية الإنسان الصالح تنمو وتكبر معنويّاً بأعماله الصالحة، فمثل هؤلاء المنفقين كمثل البذور الكثيرة الثمر التي تمدّ جذورها وأغصانها إلى جميع الجهات وتفيض ببركتها على كلّ الأرجاء.

والخلاصة أنّه في كلّ مورد للتشبيه مضافاً إلى وجود أداة التشبيه لا بدّ من وجود ثلاثة أُمور أُخرى:

المشبّه، والمشبّه به، ووجه التشبيه، ففي هذا المورد المشبّه هو الإنسان المنفق، والمشبّه به هو البذور الكثيرة البركة، ووجه التشبيه هو النموّ والرشد، ونحن نعتقد أنّ الإنسان المنفق ينمو ويرشد معنويّاً واجتماعيّاً من خلال عمله ذاك ولايحتاج إلى أيّ تقدير حينئذ.

وشبيه هذا المعنى ورد كذلك في الآية ٢٦٥ من هذه السورة، وهناك بحث بين المفسّرين في التعبير بقوله: ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ حيث أشارت الآية إلى أنّ حبّة واحدة تصير سبعمائة حبّة أو أكثر، وأنّ هذا التشبيه لا وجود خارجي له فهو تشبيه فرضي (لأنّ حبّة الحنطة لا تبلغ في موسم الحصاد سبعمائة حبّة أبداً)، أو أنّ المقصود هو نوعٌ خاصّ من الحبوب (كالدخن) التي تعطي هذا القدر من الناتج،

---

(١) «الطبرسي» في مجمع البيان، ج ١ و ٢ ص ٤٣٧؛ بعد أن يذكر لمفهوم الآية معنىً واسعاً يقول: وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ويلفت النظر أنّ الصحف كتبت أخيراً أنّ بعض مزارع القمح أنتجت في السنوات الممطرة سنابل طويلة يحمل بعضها نحواً من اربعمائة حبّة، وهذا يدلّ على أنّ تشبيه القرآن واقعي وحقيقي.

جملة (يضاعف) من مادّة (ضعف) ويعني مقدار المرتين أو المرّات وبالنظر إلى ما ذكرنا آنفاً من وجود حبوب تعطي عدّة آلاف من المحصول نعرف بأنّ هذا التشبيه هو تشبيه واقعي أيضاً.

بحث

الإنفاق ومشكلة الفوارق الطبقيّة

من المشكلات الاجتماعية الكبرى التي يعاني منها الإنسان دوماً ولازال يعاني رغم كلّ ما حقّقه البشر من تقدّم صناعي ومادّي، مشكلة التباين الطبقي المتمثّلة بالفقر المدقع في جانب، وتراكم الثروة في جانب آخر.

إنّك لترى بعضهم يكتنز من الثروة بحيث إنّه لا يستطيع أن يحصيها، وترى بعضهم من الفقر في عذاب ممضّ بحيث لا يستطيع أن يجد حتى الضروريّ اللّازم لحياته كالحدّ الأدنى من الغذاء والملبس والمأوى.

لا شكّ أنّ المجتمع الذي يقوم قسم من بنيانه على الغنى الفاحش، والقسم الأعظم على الفقر المدقع والجوع القاتل، لا دوام له، ولن يصل إلى السعادة الحقيقية أبداً، إنّ مجتمعاً كهذا يسوده حتماً الهلع والاضطراب والقلق والخوف وسوء الظن، ومن ثمّ العداء والصراع.

هذا التباين الطبقي الذي كان موجوداً في القديم قد تفشّى فينا اليوم - مع الأسف - بأكثر وأخطر ممّا سبق، ذلك لأنك تجد أبواب التعاون الإنساني الحقيقي قد أُغلقت بوجوه الناس، وفُتحت مكانها أبواب الربا الفاحش الذي هو من أهمّ أسباب اتساع الهوّة الطبقية بين الناس، ولا أدلّ على ذلك من ظهور الشيوعية وأمثالها، وإراقة الدماء في أنواع الحروب المروعة التي اندلعت في قرننا الأخير وما زالت مندلعة هنا وهناك في أنحاء مختلفة من العالم، ومعظمها ذو منشأ اقتصادي وردّ فعل لحرمان أكثرية شعوب العالم.

وقد سعى العلماء والمذاهب الاقتصادية في العالم للبحث عن علاج، واختار كلٌّ طريقاً، فالشيوعية اختارت إلغاء الملكية الفردية، والرأسمالية اختارت طريق استيفاء

الضرائب الثقيلة وإنشاء المؤسّسات الخيرية العامّة (وهي شكلية أكثر من كونها حلاًّ لمشكلة الطبقية)، ظانّين أنّهم بذلك يكافحون هذه المشكلة، لكن أيّاً من هؤلاء لم يستطع في الحقيقة أن يخطو خطوة فعّالة في هذا السبيل، وذلك لأنّ حلّ هذه المشكلة غير ممكن ضمن الروح المادّية التي تسيطر على العالم.

بالتدقيق في آيات القرآن الكريم يتّضح أنّ واحداً من الأهداف التي يسعى لها الإسلام هو إزالة هذه الفوارق غير العادلة الناشئة من الظلم الاجتماعي بين الطبقتين الغنية والفقيرة، ورفع مستوى معيشة الذين لا يستطيعون رفع حاجاتهم الحياتية ولا توفير حدّ أدنى من متطلّباتهم اليومية دون مساعدة الآخرين. وللوصول إلى هذا الهدف وضع الإسلام برنامجاً واسعاً يتمثّل بتحريم الربا مطلقاً، وبوجوب دفع الضرائب الإسلامية كالزكاة والخُمس، والحثّ على الإنفاق، والقرض الحسن، والمساعدات المالية المختلفة، وأهمّ من هذا كلّه هو إحياء روح الأخوّة الإنسانية في الناس.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

التّفسير

الإنفاق المقبول

الآية السابقة بيّنت أهميّة الإنفاق في سبيل الله بشكل عام، ولكن في هذه الآية بيّنت بعض شرائط هذا الإنفاق (ويستفاد ضمناً من عبارات هذه الآية أنّ الإنفاق هنا لايختصّ بالإنفاق في الجهاد).

تقول الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

يستفاد بوضوح من هذه الآية أنّ الإنفاق في سبيل الله لا يكون مقبولاً عند الله تعالى إذا تبعته المنّة وما يوجب الأذى والألم للمعوزين والمحتاجين، وعليه فإنّ من ينفق ماله

(١) «مَنّ» بمعنى حجر الميزان المعروف ثمّ أُطلقت على النعم المهمّة التي يلاحظ فيها الجانب العملي «ومنن الله تعالى من هذا القبيل» وإن كان الملحوظ فيها الجانب اللفظي كانت قبيحة جدّاً وفي الآية أعلاه وردت بهذا المعنى الثاني.

في سبيل الله ولكنّه يمنّ به على من ينفق عليه، أو ينفقه بشكل يوجب الأذى للآخرين فإنّه في الحقيقة يحبط ثوابه وأجره بعمله هذا.

إنّ ما يثير الاهتمام أكثر في هذه الآية هو أنّ القرآن لا يعتبر رأسمال الإنسان في الحياة مقتصراً على رأس المال المادّي، بل يحسب حساب رؤوس الأموال المعنوية والاجتماعية أيضاً.

إنّ من يعطي شيئاً لأحد ويمنّ عليه بهِ أو يقوم بما يثير الألم في نفس المعطى له ويجرح عواطفه فإنّه لا يكون قد أعطاه شيئاً في الواقع، لأنّه إذا كان قد أعطاه رأسمال، فإنّه قد أخذ منه رأسمال أيضاً، بل لعلّ المنّة التي يمنّ بها عليه ونظرة التحقير التي ينظر بها إليه ذات أضرار باهظة يفوق ثمنها ما أنفقه من مال.

إذا لم ينل أمثال هؤلاء الأشخاص أيّ ثواب على إنفاقهم هذا فهو أمر طبيعي وعادل. وقد يصحّ القول إنّ هؤلاء في كثير من الأحوال هم المدينون لا الدائنون لأنّ كرامة الإنسان أغلى بكثير من أيّ مال وثروة.

ولاحظ في الآية أنّ كلمتي المنّ والأذى مسبوقتان بـ(ثمّ) التي تفيد التراخي، أي وجود فترة زمنية بين فعلين. فيكون معنى الآية: إنّ الذين ينفقون، وبعد ذلك لا يمنّون على أحد ولا يؤذون أحداً يكون ثوابهم محفوظاً عند الله، ويعني هذا ضرورة الابتعاد عن المنّ والأذى لا في حالة الإنفاق فحسب، بل عليه أن لا يمنّ عليه في أوقات تالية عن طريق تذكير المنفق عليه بالإنفاق، وهذا دليل على الدقّة المتناهية التي يبتغيها الإسلام من الخدمات الإسلامية الخالصة.

لا بدّ من القول إنّ المنّ والأذى اللذين يحبطان قبول الإنفاق لا يختصّان بالإنفاق على الفقراء فقط، بل تجنّبهما لازم في جميع الأعمال العامّة والاجتماعية كالجهاد في سبيل الله والأعمال ذات المنفعة العامّة التي تتطلّب بذل المال.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

تُطمئن هذه الآية المنفقين أنّ أجرهم محفوظ عند الله لكي يواصلوا هذا الطريق بثقة ويقين، فما كان عند الله باق ولا ينقص منه شيء، بل إنّ عبارة (ربّهم) قد تشير إلى أن الله تعالى سيزيد في أجرهم وثوابهم.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

سبق أن قلنا إنّ الخوف يكون من المستقبل، والحزن على ما مضى. وعليه فإنّ المنفقين بعلمهم أنّ جزاءهم محفوظ عند الله لن ينتابهم الخوف من يوم البعث الآتي، ولا هم يحسّون بالحزن على ما أنفقوه في سبيل الله.

وذهب البعض إلى أنّه لا خوف من الفقر والحقد والبخل والغبن وأمثال ذلك ولا حزن على ما أنفقوا في سبيل الله.

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ قال: «من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثمّ آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل صدقته»(١) فالشخص الذي ينفق في سبيل الله ولم يرتكب مثل هذه الأعمال بعد ذلك لا يخشى بطلان إنفاقه، والمفاهيم الإسلامية تؤكّد دقّة الشريعة المقدّسة في هذا المجال بحيث إنّ بعض العلماء الأقدمين قالوا: «إنّك إذا تصدّقت على شخص وتعلم أنّك إذا سلّمت عليه سيصعب عليه ذلك فيتذكر صدقتك عليه فلا تسلّم عليه»(٢).

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

التّفسير

الكلمة الطيبة أفضل من الصدقة مع المنّة

هذه الآية تكمّل ما بحثته الآية السابقة في مجال ترك المنّة والأذى عند الإنفاق والتصدّق فتقول: إنّ الكلمة الطيّبة للسائلين والمحتاجين والصفح عن أذاهم أفضل من الصدقة التي يتبعها الأذى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾.

ويجب أن يكون معلوماً أنّ ما تنفقونه في سبيل الله فهو في الواقع ذخيرةٌ لكم لإنقاذكم ونجاتكم لأنّ الله تعالى غير محتاج إليكم وإلى أموالكم وحليم في مقابل جهالاتكم ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾.

بحوث

١ - تبيّن هذه الآية منطق الإسلام في قيمة الأشخاص الاجتماعيّة وكرامتهم، وترى أن أعمال الذين يسعون في حفظ رؤوس الأموال الإنسانية، ويعاملون المحتاجين باللّطف ويقدّمون لهم التوجيه اللّازم، ولا يفشون أسرارهم، أفضل وأرفع من إنفاق أُولئك الأنانيّين ذوي النظرة الضيّقة الذين إذا قدّموا عوناً صغيراً يتبعونه تجريح الناس

(١) تفسير البرهان: ج ١، ص ٢٥٣، ح ١.
(٢) تفسير روح الجنان: ج ٢، ص ٣٦٤.

المحترمين وتحطيم شخصيّاتهم. في الحقيقة إنّ أمثال هؤلاء الأشخاص ضررهم أكثر من نفعهم، فهم إذا أعطوا ثروة عرضوا ثروات للإبادة والضياع.

يتّضح ممّا قلناه أنّ لتعبير (قول معروف) مفهوماً واسعاً يشمل كلّ أنواع القول الطيّب والتسلية والتعزية والإرشاد.

وذهب بعضهم إلى أن المراد هو الأمر بالمعروف(١) ولكن هذا المعنى لا يتناسب مع الآية ظاهراً.

(المغفرة) بمعنى العفو بإزاء خشونة المحتاجين، أُولئك الذين طفح كيل صبرهم بسبب تراكم الابتلاءات عليهم، فتزلّ ألسنتهم أحياناً بالخشن من القول ممّا لا يودُونه قلبياً، هؤلاء بعنفهم هذا إنّما يريدون أن ينتقموا من المجتمع الذي ظلمهم وغمط حقوقهم، فأقلّ ما يمكن للأشخاص الأثرياء في مقابل حرمان هؤلاء المحرومين هو أن يتحمّلوا منهم اندفاعاتهم اللّفظية التي هي شرر النار التي تستعر في قلوبهم فتنطلق على ألسنتهم.

لا شكّ أنّ تحمّل عنفهم وخشونتهم والعفو عنها يخفّف عنهم ضغط عُقدِهم النفسية، وبهذا تتّضح أكثر أهميّة هذه الأوامر الإلهيّة.

يرى بعض أنّ (المغفرة) يقصد بها هنا المعنى الأصلي، وهو الستر والإخفاء، أي ستر أسرار المحتاجين الذين لهم كرامتهم مثل غيرهم، غير أنّ هذا التفسير لا يتعارض مع ما قلناه، لأنّنا إذا فسّرنا المغفرة بمعناها الأوسع فهي تشمل العفو كما تشمل الستر والإخفاء أيضاً.

جاء في تفسير (مجمع البيان) عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها، ثمّ ردّوا عليه بوقار ولين إمّا ببذل يسير أو ردّ جميل، فإنّه قد يأتيكم من ليس بإنس ولا جان ينظرونكم كيف صنيعكم في ما خوّلكم الله تعالى»(٢).

في هذا الحديث يبيّن رسول الله ﷺ جانباً من آداب الإنفاق.

٢ - إن العبارات القصيرة التي تأتي في ختام الآيات عادةً وتورد بعض صفات الله تعالى ترتبط حتماً بمضمون الآية نفسها. وعلى هذا فمن الممكن أن يكون المقصود من

(١) ذكره في تفسير «البحر المحيط»: ج ٢، ص ٣٠٧ بعنوان: قيل.

(٢) تفسير مجمع البيان: ج ١ و ٢، ص ٣٧٥، وتفسير القرطبي، ج ٣، ص ٣١٠، نورالثقلين: ج ١، ص ٢٨٣.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ هو أنّ الإنسان ظالم بالطبع، ولذلك فإنّه إذا نال منصباً وحصل ثروةً حسِب نفسه غنياً ولم يعد بحاجة إلى الآخرين، وقد تحدو به هذه الحالة إلى استعمال الخشونة والتهجّم ضدّ المحرومين والمحتاجين، لذلك يقول القرآن إنّ الغنيّ بذاته هو الله، فالله هو وحده الغنيّ الذي لا يحتاج شيئاً، أمّا إحساس البشر بأنّه غنيّ فسراب خادع لا ينبغي أن يؤدّي إلى الطغيان والتعالي على الفقراء، ثمّ إنّ الله حليم بالنسبة للذين لا يشكرون، فعلى المؤمنين أن يكونوا كذلك أيضاً.

وقد تكون الآية إشارة إلى أنّ الله غنيّ عن إنفاقكم، وأنّ ما تنفقونه إنّما هو لخيركم أنفسكم، فلا تمنّوا على أحد. ثمّ إنّ الله حليم اتجاه خشونتكم ولا يتعجّل معاقبتكم لعلّكم تستيقظون وتصلحون أنفسكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

التّفسير

دوافع الإنفاق ونتائجه

في هاتين الآيتين نهي للمؤمنين عن المنّ والأذى عند إنفاقهم في سبيل الله، لأنّ ذلك يحبط أعمالهم، ثمّ يضرب القرآن مثلاً للإنفاق المقترن بالمنّ والأذى، ومثلاً آخر للإنفاق المنطلق من الإخلاص والعواطف الإنسانية.

يقول تعالى في المثال الأوّل: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ. . .﴾.

تصوّر قطعة حجر صلد تغطّيه طبقة خفيفة من التراب، وقد وضعت في هذا التراب بذور سليمة، ثمّ عرّض الجميع للهواء الطلق وأشعة الشمس، فإذا سقط المطر المبارك على هذا التراب لا يفعل شيئاً سوى اكتساح التراب والبذور وبعثرتها، ليظهر سطح

الحجر بخشونته وصلابته التي لا تنفذ فيها الجذور، وهذا ليس لأنّ أشعة الشمس والهواء الطلق والمطر كان لها تأثير سيّئ، بل لأنّ البذر لم يزرع في المكان المناسب، ظاهر حسن وباطن خشن لا يسمح بالنفوذ إليه، قشرة خارجية من التربة لا تعين على نموّ النبات الذي يتطلّب الوصول إلى الأعماق لتتغذّى الجذور.

ويشبّه القرآن الإنفاق الذي يصاحبه الرياء والمنّة والأذى بتلك الطبقة الخفيفة من التربة التي تغطّي الصخرة الصلدة والتي لا نفع فيها، بل إنّها بمظهرها تخدع الزارع وتذهب بأتعابه أدراج الرياح، هذا هو المثل الذي ضربه القرآن في الآية الأُولى للإنفاق المرائي الذي يتبعه المنّ والأذى[1].

وفي نهاية الآية يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وهو إشارة إلى أنّ الله تعالى سوف يسلبهم التوفيق والهداية، لأنّهم أقدموا على الرياء والمنّة والأذى بأقدامهم، واختاروا طريق الكفر باختيارهم، ومثل هذا الشخص لا يليق بالهداية، وبذلك وضع القرآن الكريم الإنفاق المصحوب بالرياء والمنّة والأذى مع الكفر في عرض واحد.

مثال رائع آخر

في الآية التالية نقرأ مثالاً جميلاً آخر يقع في النقطة المقابلة لهذه الطائفة من المنفقين، وهؤلاء هم الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بدافع من الإيمان والإخلاص فتقول الآية: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

تصوّر هذه الآية مزرعة خضراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة تستقبل الهواء الطلق وأشعة الشمس الوافرة والمطر الكثير النافع، وإذا لم يهطل المطر ينزل الطلّ وهو المطر الخفيف وذرّات الهباب ليحافظ على طراوة المزرعة ولطافتها، فتكون النتيجة أنّ مزرعة كهذه تعطي ضعف ما تعطي المزارع الأُخرى، فهذه الأرض فضلاً عن كونها خصبة بحيث يكفيها الطلّ والمطر الخفيف ناهيك عن المطر الغزير لإيناع حاصلها، وفضلاً عن كونها تستفيد كثيراً من الهواء الطلق وأشعّة الشمس وتلفت الأنظار لجمالها، فإنّها لوقوعها على مرتفع تكون في مأمن من السيول.

فالآية الشريفة تريد أن تقول: إنّ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله لتمكّن الإيمان

---

(١) صفوان: جمع مفرده صفوانة، وتعني الصخرة الصافية. والوابل: هو المطر الشديد والصلد: بمعنى الحجر الأملس. وضعفين: تثنية الضعف ولكنه لا يعني أربع مرّات بل مرّتين مثل زوجين التي تعني طرفين، تأمّل بدقّة.

واليقين في قلوبهم وأرواحهم هم أشبه بتلك المزرعة ذات الحاصل الوافر المفيد والثمين.

وفي ختام الآية تقول: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو سبحانه يعلم ما إذا كان الدافع لهذا الإنفاق إلهيّاً مقترناً بالمحبّة والاحترام، أو للرياء المشفوع بالمنّة والأذى.

بحوث

١ - إنّ عبارة ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ تفيد بأنّ بعض الأعمال يمكن أن يبدّد نتائج بعض الأعمال الحسنة، وهذا هو الإحباط الذي مرّ شرحه في ذيل الآية ٢١٧ من هذه السورة.

٢ - إنّ تشبيه العمل مع الرياء بالصخرة التي غطّتها قشرة ناعمة من التراب تشبيهٌ دقيقٌ جدّاً لأنّ المرائي له باطن خشن ومجدب فيحاول تغطيته بمظهر حسن وجميل، وهو حبّ الخير والإحسان للنّاس، فأعماله غير متجذّرة في وجوده وروحه وليس لها أساس عاطفيّ ثابت فما أسرع ما ينقشع هذا الحجاب بسبب الأحداث والوقائع في الحياة فيظهر باطنهم بذلك.

٣ - جملة ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ تبيّن دوافع الإنفاق الإلهي السليم، وهما دافعان: ابتغاء مرضاة الله، وتقوية روح الإيمان والاطمئنان في القلب.

هذه الآية تقول إنّ المنفقين الحقيقيّين هم الذين يكون دافعهم رضا الله وتربية الفضائل الإنسانية وتثبيتها في قلوبهم، وإزالة الاضطراب والقلق اللذين يحصلان في نفس المرء بإزاء مسؤوليته نحو المحرومين، وعليه فإنّ (من) في الآية تعني (في) أي في نفوسهم.

٤ - وجملة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ المذكورة في آخر الآية الثانية تحذير لجميع الذين يريدون القيام بعمل صالح كي يأخذوا حذرهم لئلّا يخالط عملهم ونيّتهم وأُسلوب عملهم أي تلوّث، لأنّ الله يراقب أعمالهم.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾

التّفسير

مثال آخر للإنفاق الملوث بالرياء والمنّة

هنا يضرب القرآن مثلاً آخر يبيّن حاجة الإنسان الشديدة إلى الأعمال الصالحات يوم القيامة، وكيف أنّ الرياء والمنّ والأذى تؤثّر على الأعمال الصالحات فتزيل بركتها.

يتجسّد هذا التمثيل في صاحب مزرعة مخضرة ذات أشجار متنوّعة كالنخيل والأعناب، وتجري فيها المياه بحيث لا تتطلّب السقي، لكن السنون نالت من صاحبها وتحلّق حوله أبناؤه الضعفاء، وليس ثمّة ما يقيم أودهم سوى هذه المزرعة، فإذا جفّت فلن يقدر هو ولا أبناؤه على إحيائها، وفجأةً تهبّ عاصفة محرقة فتحرقها وتبيدها، في هذه الحالة ترى كيف يكون حال هذا العجوز الهرم الذي لا يقوى على الارتزاق وتأمين معيشته ومعيشة أبنائه الضعفاء؟ وما أعظم أحزانه وحسراته!.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ . . .﴾.

إنّ حال أُولئك الذين يعملون عملاً صالحاً ثمّ يحبطونه بالرياء والمنّ والأذى أشبه بحال من تعب وعانى كثيراً حتى إذا حان وقت اقتطاف النتيجة ذهب كلّ شيء ولم يبق سوى الحسرات والآهات. وتضيف الآية:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

لمّا كان منشأ كلّ تعاسة وشقاء - وعلى الأخصّ كلّ عمل أحمق كالمنّ على الناس - هو عدم إعمال العقل والتفكير في الأمور، فإنّ الله في ختام الآية يحثّ الناس على التعمّق في التفكير في آياته ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

بحوث

١ - هذه الأمثلة بالتوالي كلّ واحدة منها تدلّ على الأُمور الزراعية اللّطيفة، لأن هذه الآيات لم تنزل على أهل المدينة الذين كانوا مزارعين فحسب، بل إنّها نزلت على جميع الناس، على أية حال كانت الزراعة تشكل جانباً من حياتهم.

٢ - يستفاد من ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أنّ الإنفاق في سبيل الله ومدّ يد العون للمحتاجين أشبه بالبستان اليانع الذي ينتفع بثمره صاحبه وأبناؤه أيضاً، ولكن الرياء والمنّ والأذى لا تحرم صاحبه وحده من ثمرات عمله، بل إنّ ذلك يحرم حتى

أبناءه والأجيال التالية من بركات تلك الأعمال الصالحات، وهذا دليل على أنّ الأجيال القادمة تشارك الأجيال السابقة في الانتفاع بثمرات العمل الطيّب.

وهو كذلك أيضاً على الصعيد الاجتماعي، إذ إنّ المحبوبية والثقة التي ينالها الآباء نتيجةً لأعمالهم الصالحة بين الناس، تكون خير رأسمال لأبنائهم من بعدهم.

٣ - عبارة ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ قد تكون إشارة إلى رياح السموم التي تحرق الزرع وتجفّف المياه، أو الرياح التي تكتسب الحرارة من المرور على الحرائق فتكتسح معها النيران المحرقة وتحملها إلى مناطق أُخرى، أو قد تكون إشارة إلى العواصف التي تصاحبها الصواعق فتصيب الأرض وتحيلها إلى رماد، إنّها على كلّ حال إشارة إلى إبادة سريعة[١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

سبب النّزول

عن الصادق عليه السلام أنّها نزلت في أقوام لهم رِباً في الجاهلية، وكانوا يتصدّقون منه، فنهاهم الله عن ذلك وأمر بالصدقة من الطيّب الحلال[٢].

عن علي عليه السلام أنّها نزلت في قوم كانوا يأتون بالحشف (وهو أردأ التمر) فيدخلونه في الصدقة[٣].

وليس بين الروايتين أي تعارض، ولعلّ الآية نزلت في كلتا الفئتين، فالشأن الأوّل يخص الطهارة المعنوية، ويخص الثاني طيب الظاهر المادّي.

ولكن ينبغي الإشارة إلى أنّ المرابين في الجاهلية امتنعوا عن تعاطي الربا بعد نزول الآية ٢٧٥ من سورة البقرة ولم تحرم عليهم أموالهم السابقة، أي أنّ الآية لم يكن لها

---

(١) «الإعصار» ريح تثير الغبار، وهي تهبّ من اتجاهين مختلفين، بحيث إنّها تتجه من الأرض عمودياً إلى السماء.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وأصول الكافي، ج ٤، ص ٤٨.

(٣) المصدر السابق.

أثر رجعي، ولكن من الواضح أنّ هذا المال وإن يكن حلالاً، فهو يختلف عن الأموال الأُخرى، فكان في الحقيقة أشبه بتحصيل أموال عن طرق مكروهة.

التّفسير

الأموال التي يمكن إنفاقها

شرحت الآيات السابقة ثمار الإنفاق وصفات المنفقين والأعمال التي قد تبطل أعمال الإنفاق الإنسانية في سبيل الله. وهذه الآية تبيّن نوعيّة الأموال التي يمكن أن تنفق في سبيل الله.

في بداية الآية يأمر الله المؤمنين أن ينفقوا من (طيبات) أموالهم. و(الطيّب) في اللغة هو الطاهر النقي من الناحية المعنوية والمادّية، أي الأموال الجيدة النافعة والتي لا شبهة فيها من حيث حلّيتها. ويؤيّد عمومية الآية الروايتان المذكورتان في سبب النزول.

كما أنّ جملة ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ أي أنّكم أنفسكم لا تأخذون غير الطيّب من المال إلّا إذا أغمضتم أعينكم كارهين، دليل على أنّ المقصود ليس الطهارة الظاهريّة فقط، لأنّ المؤمنين لا يقبلون مالاً تافهاً ملوّثاً في ظاهره، كما لا يقبلون مالاً مشبوهاً مكروهاً إلّا بالإكراه والتغاضي.

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

كانت عبارة (ما كسبتم) إشارة إلى الدخل التجاري، وهذه العبارة إشارة إلى الدخل الزراعي وعائدات المناجم، فهو يشمل كلّ أنواع الدخل، لأنّ أصل دخل الإنسان ينبع من الأرض ومصادرها المتنوّعة، بما فيها الصناعة والتجارة وتربية المواشي وغير ذلك.

تقول هذه الآية: إننا وضعنا مصادر الثروة هذه تحت تصرّفكم، لذلك ينبغي أن لا تمتنعوا عن إنفاق خير ما عندكم في سبيل الله.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾(١).

اعتاد معظم الناس أن ينفقوا من فضول أموالهم التي لا قيمة لها أو الساقطة التي لم تعد تنفعهم في شيء، إنّ هذا النوع من الإنفاق لا هو يربّي روح المنفق، ولاهو يرتق فتقاً لمحتاج، بل لعلّه إهانة له وتحقير، فجاءت هذه الآية تنهى بصراحة عن هذا وتقول

(١) «تيمّم» في الأصل بمعنى القصد لأي شيء وجاءت هنا بهذا المعنى وأُطلقت هذه الكلمة على التيمم لأنّ الإنسان يقصد الاستفادة من التراب الطاهر كما يقول القرآن: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

للناس: كيف تنفقون مثل هذا المال الذي لا تقبلونه أنتم إذا عرض عليكم إلّا إذا اضطررتم إلى قبوله؟ أترون إخوانكم المسلمين، بل أترون الله الذي في سبيله تنفقون أقلّ شأناً منكم؟

الآية تشير في الواقع إلى فكرة عميقة وهي أنّ للإنفاق في سبيل الله طرفين، فالمحتاجون في طرف، والله في طرف آخر، فإذا اختير المال المنفَق من زهيد الأشياء ففي ذلك إهانة لمقام الله العزيز الذي لم يجده المنفِق جديراً بطيّبات ما عنده كما هو إهانة للذين يحتاجونه، وهم ربما يكونون من ذوي الدرجات الإيمانية السامية، وعندئذ يسبّب لهم هذا المال الرديء الألم والعذاب النفسي.

التعبير بكلمة (الطيّبات) يشمل الطيّب الظاهري الذي يستحقّ الإنفاق والصرف، وكذلك الطيّب المعنوي، أي الطاهر من الأموال المشبوهة والحرام لأنّ المؤمنين لا يرغبون في تناول مثل هذه الأموال.

وجملة ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ تشمل الجميع، فما ذهب إليه بعض المفسّرين من حصرها بأحد هذين المعنيين بعيدٌ عن الصواب، ونظير هذه الآية ما جاء في سورة آل عمران الآية ٩٢ حيث يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وطبعاً هذه الآية ناظرة أكثر إلى الآثار المعنويّة للإنفاق.

وفي ختام الآية يقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي لا تنسوا أنّ الله لا حاجة به لإنفاقكم فهو غنيٌّ من كلّ جهة، بل إنّ جميع المواهب والنعم تحت أمره وفي دائرة قدرته، ولذلك فهو حميد ومستحق للثناء والحمد، لأنّه وضع كلّ هذه النعم بين أيديكم.

واحتمل البعض أنّ كلمة (حميد) تأتي هنا بمعنى اسم الفاعل (حامد) لا بمعنى محمود، أي أنّه على الرغم من غناه عن إنفاقكم فإنّه يحمدكم على ما تنفقون.

ملاحظة:

لا شكّ أنّ الإنفاق في سبيل الله هو من أجل نيل القرب من ساحته المقدّسة، وعندما يريد الناس التقرّب إلى السلاطين وأصحاب النفوذ فإنّهم يقدّمون إليهم هدايا من أفضل أموالهم وأحسن ثرواتهم، في حين أنّ هؤلاء السلاطين أناسٌ مثلهم فكيف يتقرّب الإنسان إلى ربّه وخالقه وربّ السموات والأرض لتقديم بعض أمواله الدنيئة كهديّة؟! فما نرى في الأحكام الشرعيّة من وجوب كون الزكاة وحتى الهدي في الحجّ من المرغوب والجيّد يدخل في دائرة هذا الاعتبار، وعلى كلّ حال يجب الالتزام ونشر هذه الثقافة القرآنية بين صفوف المسلمين في إنفاقهم الجيّد من الأموال.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

التّفسير

مكافحة موانع الإنفاق

تشير الآية هنا وتعقيباً على آيات الإنفاق إلى أحد الموانع المهمّة للإنفاق، وهو الوساوس الشيطانيّة التي تخوّف الإنسان من الفقر والعوز وخاصّة إذا أراد التصدّق بالأموال الطيّبة والمرغوبة، وما أكثر ما منعت الوساوس الشيطانيّة من الإنفاق المستحبّ في سبيل الله وحتى من الإنفاق الواجب كالزكاة والخُمس أيضاً.

فتقول الآية في هذا الصدد ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ ويقول لكم: لا تنسوا مستقبل أطفالكم وتدبّروا في غدكم، وأمثال هذه الوساوس المضلّة، ومضافاً إلى ذلك يدعوكم إلى الإثم وارتكاب المعصية ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾.

(الفحشاء) تعني كلّ عمل قبيح وشنيع، ويكون المراد به في سياق معنى الآية البخل وترك الإنفاق في كثير من الموارد حيث يكون نوعاً من المعصية والإثم (رغم أنّ مفردة الفحشاء تعني عادةً الأعمال المنافية للعفّة ولكنّنا نعلم أنّ هذا المعنى لا يناسب السياق).

حتى إنّ بعض المفسّرين صرّح بأنّ العرب يسمّون الشخص البخيل فاحشاً[1].

ويحتمل أيضاً أنّ الفحشاء هنا بمعنى اختيار الأموال الرديئة والتصدّق بها، وقيل أيضاً: إنّ المراد بها كلّ معصية، لأنّ الشيطان يحمل الإنسان من خلال تخويفه من الفقر على اكتساب الأموال من الطرق غير المشروعة.

والتعبير عن وسوسة الشيطان بالأمر (ويأمركم) إشارة لنفس الوسوسة أيضاً، وأساساً فكلّ فكرة سلبيّة وضيّقة ومانعة للخير فإنّ مصدرها هو التسليم مقابل وساوس الشيطان، وفي المقابل فإنّ كلّ فكرة إيجابيّة وبنّاءة وذات بعد عقلي فإنّ مصدرها هو الإلهامات الإلهيّة والفطرة السليمة.

ولتوضيح هذا المعنى ينبغي أن نقول: إنّ النظرة الأُولى إلى الإنفاق وبذل المال

(١) تفسير روح البيان: ج ١، ص ٤٣١؛ وتفسير مجمع البيان، والتفسير الكبير، ذيل الآية مورد البحث.

توحي أنّه يؤدّي إلى نقص المال، وهذه هي النظرة الشيطانية الضيّقة، ولكنّنا بتدقيق النظر ندرك أن الإنفاق هو ضمان بقاء المجتمع، وتحكيم العدل الاجتماعي، وتقليل الفواصل الطبقية، والتقدّم العام.

وبديهيّ أنّ تقدّم المجتمع يعني أنّ الأفراد الذين يعيشون فيه يكونون في رخاء ورفاه، وهذه هي النظرة الواقعية الإلهيّة.

يريد القرآن بهذا أن يعلم الناس أنّ الإنفاق وإن بدا في الظاهر أنّه عطاء، ولكنّه في الواقع أخذ لرؤوس أموالهم مادّياً ومعنوياً.

في عالمنا اليوم حيث نشاهد نتائج الاختلافات الطبقية والمآسي الناتجة عن الظلم واحتكار الثروة، نستطيع أن نفهم معنى هذه الآية بوضوح.

كما أنّ الآية تفيد أيضاً أنّ هناك نوعاً من الارتباط بين ترك الإنفاق والفحشاء، فإذا كانت الفحشاء تعني البخل، فتكون علاقتها بترك الإنفاق هو أنّ هذا الترك يكرّس صفة البخل الذميمة في الإنسان شيئاً فشيئاً، وإذا كانت تعني الإثم مطلقاً أو الفحشاء في الأُمور الجنسية فإن علامة ذلك بترك الإنفاق لا تخفى، إذ إنّ منشأ كثير من المعاصي والانحرافات الجنسية هو الفقر والحاجة. يضاف إلى ذلك أن للإنفاق آثاراً ونتائج معنوية مباركة لا يمكن إنكارها.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾.

جاء في تفسير (مجمع البيان) عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ في الإنفاق شيئين من الله وشيئين من الشيطان، فاللذان من الله هما غفران الذنوب والسعة في المال، واللذان من الشيطان هما الفقر والأمر بالفحشاء»(١).

وعليه فإنّ المقصود بالمغفرة هو غفران الذنوب، والمقصود بالفضل هو ازدياد رؤوس الأموال بالإنفاق، كما رواه ابن عبّاس.

وقد جاء عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة»(٢).

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

في هذا إشارة إلى أنّ لله قدرة واسعة وعلماً غير محدود، فهو قادر على أن يفي بما يعد، ولا شكّ أنّ المرء يطمئن إلى هذا الوعد، لا كالوعد الذي يعده الشيطان المخادع

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير التبيان، ج ٢، ص ٣٤٦.
(٢) نهج البلاغة: الكلمات القصار: رقم ٢٥٨.

الضعيف الذي يجرّ المرء إلى العصيان، فالشيطان ضعيف وجاهل بالمستقبل، ولذلك ليس وعده سوى الضلال والتحريض على الإثم.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾

التّفسير

أفضل النعم الإلهيّة

مع الالتفات إلى ما تقدّم في الآية السابقة التي تحدّثت عن تخويف الشيطان من الفقر ووعد الرحمن بالمغفرة والفضل الإلهي، ففي هذه الآية مورد البحث دار الحديث عن الحكمة والمعرفة والعلم لأنّ الحكمة فقط هي التي يمكنها التفريق والتمييز بين هذين الدافعين الرحماني والشيطاني وتدعو الإنسان إلى ساحل المغفرة والرحمة الإلهيّة وترك الوساوس الشيطانيّة وعدم الاعتناء بالتخويف من الفقر.

وبعبارة أُخرى، إنّنا نلاحظ في بعض الأشخاص نوعاً من العلم والمعرفة بسبب الطهارة القلبيّة ورياضة النفس حيث تترتّب عليها آثار وفوائد جمّة، منها أن يدرك الشخص فوائد الإنفاق ودوره المهم والحيوي في المجتمع ويميّز بينه وبين ما تدعوه إليه وساوس الشيطان فتقول الآية: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾.

وقد ذكر لكلمة (الحكمة) معان كثيرة منها (المعرفة والعلم بأسرار العالم) ومنها (العلم بحقائق القرآن) و(الوصول إلى الحقّ بالقول والعمل) و(معرفة الله تعالى) و(أنّها النور الإلهي الذي يميّز بين وساوس الشيطان وإلهامات الرحمان).

والظاهر هو أنّ الحكمة تأتي بالمعنى الواسع حيث تشمل جميع هذه الأُمور بما فيها النبوّة التي هي نوعٌ من العلم والاطّلاع والإدراك، فهي في الأصل أُخذت من مادة (حكم) - على وزن حرف - بمعنى المنع، وبما أنّ العلم والمعرفة والتدبير تمنع الإنسان من ارتكاب الأعمال الممنوعة والمحرّمة، فلذا يقال عنها أنّها حكمة.

بديهيّ أنّ القصد من قوله (مَن يشاء) ليس إسباغ الحكمة على كلّ من هبّ ودبّ بغير حساب، بل إنّ مشيئة الله هي دائماً منبعثة عن حكمة، أي أنّه يمنحها لمن يستحقّها، ويرويه من سلسبيل هذه العين الزلال.

﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

رغم أنّ واهب الحكمة هو الله فإنّ اسمه لم يرد في هذه الآية وإنّما بني الفعل للمجهول ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾.

ولعلّ المقصود هو أنّ الحكمة أمر حسن بذاته بصرف النظر عن مصدرها ومنشئها.

من الملاحظ أنّ الآية تقول: إذا نزلت الحكمة بساحة أحد فقد نزلت بساحته البركة والخير الكثير لا الخير المطلق، لأنّ السعادة والخير المطلق ليسا في العلم وحده، بل العلم أهمّ عامل لهما.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ﴾.

(التذكّر) هو حفظ العلوم والمعارف في داخل الروح، والألباب جمع لب وهو قلب كلّ شيء ومركزه، ولهذا قيل للعقل: لبّ.

تقول هذه الفقرة من الآية إنّ أصحاب العقول هم الذين يحفظون هذه الحقائق ويتذكّرونها، رغم أنّ جميع الناس ذوو عقل - عدا المجانين - فلا يوصفون جميعاً بأولي الألباب، بل هؤلاء هم الذين يستخدمون عقولهم فيشقّون طريقهم على ضوء نورها الساطع.

ونختم هذا البحث بكلام لأحد علماء الإسلام (ويحتمل أنّه مقتبس من كلام الرسول الأكرم ﷺ) حيث يقول: قد يريد الله تعالى أحياناً تعذيب أمّة على الأرض ولكنّه يرى معلّماً يعلّم الأولاد الحكمة فيرفع عن تلك الأُمّة العذاب بسبب ذلك[1].

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

التّفسير

كيفيّة الإنفاق

تحدّثت الآيات السابقة عن الإنفاق وبذل المال في سبيل الله، وأن ينفق الشخص ذلك المال من الطيّب دون الخبيث، وأن يكون مشفوعاً بالمحبّة والإخلاص وحسن الخلق،

(١) تفسير القرطبي: ج ٢، ص ١١٣٨.

أمّا في هاتين الآيتين أعلاه فيدور الحديث عن كيفيّة الإنفاق وعلم الله تعالى بذلك.

فيقول الله تعالى في الآية الأولى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾.

تقول الآية: إنّ كلّ ما تنفقونه في سبيل الله سواء كان قليلاً أو كثيراً، جيّداً أو رديئاً، من حلال اكتسب أو من حرام، مخلصاً كان في نيّته أو مرائياً، أتبعه المن والأذى أو لم يتبعه، أكان الإنفاق ممّا أوجبه الله تعالى عليه أم ممّا أوجبه الإنسان على نفسه بنذر وشبهه، فإنّ الله تعالى يعلم تفاصيله ويثيب عليه أو يعاقب.

وفي ختام الآية تقول: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

(الظالمين) هنا إشارة إلى المحتكرين والبخلاء والمرائين والّذين ينفقون بالمنّ والأذى، فإنّ الله تعالى لا ينصرهم، وسوف لا ينفعهم ما أنفقوا لا في الدنيا ولا في الآخرة.

أو أنّ المراد هم الأشخاص الّذين امتنعوا من الإنفاق على المحرومين والمعوزين، فإنّهم بذلك قد ظلموهم وظلموا كذلك أنفسهم ومجتمعهم.

أو أنهم الأشخاص الّذين لا ينفقون في موارد الإنفاق، لأنّ مفهوم الظلم واسعٌ يشمل كلّ عمل يأتي به الإنسان في غير مورده، وبما أنّه لا منافاة بين هذه المعاني الثلاثة لذلك يمكن أن تدخل هذه المعاني في مفهوم الآية بأجمعها.

أجل فهؤلاء ليس لهم ناصر في الدنيا ولا شفيع في الآخرة، وهذه النتيجة من الخصائص المترتّبة على الظلم والجور بأيّ صورة كان.

ويستفاد من هذه الآية ضمناً مشروعيّة النذر ووجوب العمل بمؤدّاه، وهو من الأُمور التي كانت موجودة قبل الإسلام وقد أمضاها الإسلام وأيدها.

في الآية الثانية إشارة إلى كيفيّة الإنفاق من حيث السرّ والعلن فتقول: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾.

وسوف يعفو الله عنكم بذلك ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

بحوث

١ - لا شكّ أنّ لكلّ من الإنفاق العلني والإنفاق الخفيّ في سبيل الله آثاراً نافعة، فإذا كان الإنفاق واجباً فالإعلان عنه يشجع الآخرين على القيام بمثله، كما يرفع عن المنفق تهمة إهماله لواجبه.

أمّا إذا كان الإنفاق مستحبّاً، فإنّه يكون في الواقع أشبه بالدعاية والإعلان العملي لحثّ الناس على فعل الخير، ومساعدة المحتاجين، والقيام بالأعمال الخيرية الاجتماعية العامّة.

أمّا الإنفاق الخفيّ البعيد عن الأنظار فلا شكّ أنه أبعد عن الرياء وحبّ الظهور وخلوص النيّة فيه أكثر، خاصّة وأن مدّ يد العون إلى المحتاجين في الخفاء يحفظ لهم ماء وجههم وكرامتهم، ولذلك تثني الآية على كلا الأسلوبين.

وذهب بعض المفسرين إلى أنّ الإخفاء يقتصر على الإنفاق المستحب، وأمّا الإنفاق الواجب كالزكاة وغيره فيفضّل فيه حالة الجهر، وليست هذه بقاعدة عامّة، بل تختلف باختلاف حالات الإنفاق.

ففي الحالات التي يكون فيها الجانب التشجيعي أكثر ولا يصادر فيها الإخلاص فالإظهار أولى، وفي الحالات التي يكون فيها المحتاجون من ذوي العزّة والكرامة فإن حفظ ماء وجوههم يقتضي إخفاء الإنفاق، كما أنّه إذا خشي الرياء وعدم الإخلاص فالإخفاء أولى.

وقد جاء في بعض الأحاديث أنّ الإنفاق الواجب يفضّل فيه الإظهار، والمستحبّ يفضّل فيه الإخفاء[(١)].

وقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الزّكاة المفروضة تخرج علانية وتدفع علانية، وغير الزكاة إن دفعه سرّاً فهو أفضل»[(٢)].

إلّا أنّ هذه الأحاديث لا تتعارض مع ما قلناه آنفاً، لأنّ أداء الواجب يكون أقلّ امتزاجاً بالرّياء، فهو واجب لا بدّ أن يؤدّيه كلّ مسلم في المحيط الاسلامي كالضريبة اللازمة التي يدفعها الجميع، وعليه فإنّ إظهار الإنفاق أفضل، أمّا الإنفاق المستحبّ فليس إلزامياً لذلك، فإنّ إظهار إنفاقه قد يشوبه شيء من الرياء وعدم خلوص النيّة، فيكون الأجدر إخفاؤه.

٢ - قوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يُوضّح أنّ للإنفاق في سبيل الله أثراً في غفران الذنوب، فالتكفير عن السيئات - أي تغطية الذنوب - كناية عن ذلك.

بديهيّ أنّ هذا لا يعني أنّ إنفاق بعض المال يذهب بكلّ ذنوب الإنسان، ولذلك لا

(١) وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٣٠٩، (الباب ٥٤، باب استحباب اخراج الزكاة المفروضة علانية و...).
(٢) تفسير مجمع البيان: ج ١، ص ٣٨٤ نقلاً عن علي بن إبراهيم: ج ١، ص ٩٣.

بدّ من ملاحظة استعمال (من) التبعيضية، أي أنّ الغفران يشمل قسماً من ذنوب الإنسان، وأنّ هذا القسم يتناسب مع مقدار الإنفاق وميزان الإخلاص.

هنالك أحاديث كثيرة بشأن غفران الذنوب بالإنفاق وردت عن أهل البيت، وفي كتب أهل السنّة.

من ذلك: (صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار)(١).

كما جاء أيضاً: (سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: الإمام العدل، والشابّ الذي نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه يتعلّق بالمساجد حتى يعود إليها، ورجلان تحابّا في الله واجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنّي أخاف الله تعالى، ورجل تصدّق فأخفاه حتى لم تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)(٢).

٣ - يستفاد من جملة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾. هو أنّ الله عالم بما تنفقون سواء أكان علانيةً أم سرّاً، كما أنّه عالم بنيّاتكم وأغراضكم من إعلان إنفاقكم ومن إخفائه. على كلّ حال إنّ الذي له تأثير في الإنفاق هو النيّة الطاهرة والخلوص في العمل لله وحده، لأنّه هو الذي يجزي أعمال العبد، وهو عالم بما يخفي ويعلن.

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير مجمع البيان عن ابن عبّاس أنّ المسلمين لم يرضوا بالإنفاق على غير المسلمين، فنزلت هذه الآية تجيز لهم ذلك عند الضرورة(٣).

وهناك سبب نزول آخر لهذه الآية قريب من سبب النزول السابق. فقد جاء أنّ امرأة

(١) تفسير مجمع البيان: ج ١ و ٢، ص ٣٨٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير مجمع البيان، وتفسير القرطبي، وتفاسير أُخرى، ذيل الآية مورد البحث.

مسلمة تدعى أسماء كانت في رحلة عمرة القضاء مع رسول الله ﷺ، فجاءتها أمّها وجدّتها تطلبان بعض العون منها، ولكن لمّا كانتا من المشركين وعبدة الأصنام، فقد امتنعت أسماء عن مدّ يد المساعدة إليهما، وقالت: لا بدّ أن أستجيز رسول الله ﷺ في ذلك لأنّكما لستما على ديني. وأقبلت إلى النبيّ تستجيزه، فنزلت الآية المذكورة[١].

التّفسير

الإنفاق على غير المسلمين

تحدّثت الآيات السابقة عن مسألة الإنفاق في سبيل الله بشكل عام، ولكن في هذه الآية الحديث عن جواز الإنفاق على غير المسلمين، بمعنى أنّه لا ينبغي ترك الإنفاق على المساكين والمحتاجين من غير المسلمين حتى تشتدّ بهم الأزمة والحاجة فيعتنقوا الإسلام بسبب ذلك.

تقول الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ فلا يصحّ أن تجبرهم على الإيمان، وترك الإنفاق عليهم نوعٌ من الإجبار على دخولهم في الإسلام، وهذا الأُسلوب مرفوض، ورغم أنّ المخاطب في هذه الآية الشريفة هو النّبي الأكرم ﷺ إلّا أنّه في الواقع يستوعب كلّ المسلمين.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ومن تكون له اللّياقة للهداية.

فبعد هذا التذكّر تستمر الآية في بحث فوائد الإنفاق في سبيل الله فتقول: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ﴾.

هذا في صورة ما إذا قلنا أنّ جملة (وما تنفقون) قد أُخذت هنا بمعنى النهي، فيكون معناها إنّ إنفاقكم لا ينفعكم شيئاً إلّا إذا كان في سبيل الله تعالى.

ويحتمل أيضاً أن تكون هذه الجملة خبريّة، أي إنكم أيّها المسلمون لا تنفقون شيئاً إلّا في سبيل الله تعالى وكسب رضاه.

وفي آخر عبارة من هذه الآية الكريمة نلاحظ تأكيداً أكثر على مقدار الإنفاق وكيفيّته حيث تقول الآية: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

يعني إنّكم لا ينبغي أن تتصوروا أنّ إنفاقكم سيعود عليكم بربح قليل، بل إنّ جميع ما

---

(١) المصدر السابق، والتفسير الكبير، ذيل الآية مورد البحث.

أنفقتم وتنفقون سيعود إليكم كاملاً، وذلك في اليوم الذي تحتاجون إليه بشدّة، فعلى هذا لا تتردّدوا في الإنفاق أبداً.

ويستفاد من ظاهر هذه الجملة أنّ نفس المال المنفق سيعود على صاحبه (لا ثوابه) فيمكن أن تكون الآية دليلاً على تجسّم الأعمال الذي سيأتي بحثه مفصّلاً في الآيات اللاحقة[1].

بحوث

١ - الآية أعلاه تقول إنّ نعم الله وآلاءه في هذا العالم كما أنّها تشمل الجميع بغضّ النظر عن العقيدة والدين، كذلك ينبغي أن يشمل إنفاق المؤمنين المستحبّ رفع حاجات الناس غير المسلمين أيضاً إذا اقتضت الضرورة.

ومن الواضح أنّ الإنفاق على غير المسلمين يجب أن يكون ذا طابع إنساني ففي هذه الصورة يكون جائزاً، لا ما إذا كان موجباً لتقوية الكفر ودعم خطط الأعداء المشؤومة.

٢ - للهداية أنواع مختلفة: من الواضح أنّ المقصود من عدم وجوب هداية الناس على الرسول ﷺ لا يعني أنّه غير مكلّف بإرشاد الناس وهدايتهم لأنّ الإرشاد والدعوة من أهم جوانب مسؤوليات النّبي، وإنّما المقصود أنّه غير مكلّف بممارسة الضغط وعوامل الإكراه لحمل الناس على اعتناق الإسلام.

وهل المقصود من هذه الهداية هو الهداية التكوينيّة أو التشريعيّة؟ لأنّ الهداية لها عدّة أنواع:

أ - **الهداية التكوينية**: وتعني أنّ الله تعالى خلق مجموعة من عوامل التقدّم والتكامل في مختلف كائنات هذا العالم، يشمل ذلك الإنسان وجميع الكائنات الحيّة، بل حتى الجمادات، وهذه العوامل تدفع الموجودات نحو تكاملها.

إنّ نموّ الجنين في رحم أُمّه ورشده، ونموّ البذرة في باطن الأرض ورشدها، وحركة السيارات والمنظومات الشمسية في مداراتها، وأمثال ذلك نماذج مختلفة من الهداية التكوينية. وهذا النوع من الهداية خاصّ بالله تعالى، وتتدخل فيه عوامل وأسباب طبيعية وما وراء الطبيعية. يقول القرآن المجيد: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

---

(١) سوف تأتي هذه المسألة مفصلة في ذيل الآية (٣٠) من سورة آل عمران وفي هذا المجلد بالذات.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

ب - **الهداية التشريعية**: وتعني هداية الناس عن طريق التعليم والتربية، والقوانين، والحكومات العادلة، والموعظة والنصيحة، وهذه الهداية يقوم بها الأنبياء والأئمّة والصالحون والمربّون المخلصون، وقد أشار القرآن إلى هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

ج - **الهداية التوفيقية**: وهي الهداية إلى تهيئة الوسائل ووضعها في متناول الأفراد لكي يستفيدوا منها حسبما يشاؤون في مظانّ التقدّم، كبناء المدارس والمساجد ومعاهد التربية، وإعداد الكتب ووضع الخطط وتدريب المربّين والمعلّمين المؤهّلين، وهذا النوع من الهداية يقع بين الهدايتين التكوينية والتشريعية. يقول القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2].

د - **الهداية نحو النعمة والمثوبة**: وهذه تعني هداية الأفراد اللائقين للانتفاع بنتائج أعمالهم الصالحة في العالم الآخر، وهي هداية تختصّ بالمؤمنين الصالحين. يقول القرآن: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[3].

هذه الآية جاءت بعد ذكر تضحية الشهداء في سبيل الله. واضح أنّ هذا النوع من الهداية يرتبط بتمتّع هؤلاء بثمار أعمالهم في الآخرة.

الواقع أنّ هذه الأنواع الأربعة من الهداية تشكّل مراحل مختلفة متوالية لحقيقة واحدة. ففي البداية تكون الهداية التكوينية التي يهدي بها الله مخلوقاته ومنها الإنسان الذي أودع فيه العقل والفكر والقوى الأُخرى.

يلي تلك الهداية هداية الأنبياء والرسل الذين يهدون الناس إلى طريق الحقّ، والهداية هنا بمعنى الإرشاد والتبليغ.

ثمّ تأتي مرحلة العمل فيشمل الله مخلوقاته بتوفيقه فتتمهّد لهم سبل وطرائق تسير عليها نحو التكامل. وهذه هي هداية التوفيق.

وفي العالم الآخر ينالون جزاء أعمالهم الصالحات.

هداية الإرشاد والدعوة التي تشكّل واحداً من أنواع الهداية الأربعة هي من واجبات الأنبياء والأئمّة، وقسم منها ممّا يتناول تمهيد الطرق، يدخل معظمه ضمن واجبات الحكومات الإلهية للأنبياء والأئمّة، والباقي يختصّ بالله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٣) سورة محمّد، الآية: ٥.

وعليه حيثما نجد في القرآن سلب مسؤولية الهداية عن أنبياء، فذلك لا يخصّ النوعين الأوّلين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

وهي هداية لا تأتي اعتباطاً بدون حكمة ولا حساب، أي أنّه لا يمكن أن يهدي هذا ويحرم ذاك بغير سبب، فعلى الإنسان أن يكون جديراً بالهداية لكي ينالها ويستفيد منها.

نستخلص من هذه الآية حقيقة أُخرى، وهي أنّه تعالى يخاطب نبيّه قائلاً: إذا ظهر بين المسلمين - بعد كلّ ذلك التحذير من الإنفاق المصحوب بالرياء والمنّ والأذى - أفراد ما يزالون يلوّثون إنفاقهم بهذه الأُمور، فلا يسؤك ذلك، إنّ واجبك هو بيان الأحكام وتهيئة المناخ الاجتماعي السليم، وليس من واجبك أبداً أن تجبرهم على تجنّب هذه الأُمور، وهذا التفسير لا يتنافى مع التفسير السابق، فكلاهما محتملان.

٣ - أثر الإنفاق في حياة المنفق

نلاحظ في جملة ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أنّ فوائد الإنفاق تعود على المنفقين أنفسهم، وبهذا تدفعهم نحو هذا العمل الإنساني، وطبيعي أنّ الإنسان يزداد حماساً لممارسة عمله حين يعلم أنّ منافع هذا العمل تعود إليه.

قد يبدو للوهلة الأُولى أنّ المنافع التي تعود على المنفق من إنفاقه هي ما يناله من ثواب في الآخرة، هذا بالطبع صحيح، ولكن لا ينبغي أن يتصوّر أنّ نتائج الإنفاق أُخروية فحسب، بل إنّ له منافع في هذه الدنيا أيضاً مادّية ومعنوية، ففائدته المعنوية هي أنّ روح البذل والإنسانية والتضحية والأخوّة تتربّى في المنفق، وهذه في الواقع وسيلة مؤثّرة في تكامل شخصية الإنسان وتربيته.

أمّا فائدته المادّية فإنّ وجود أُناس معدمين فقراء في مجتمع ما يكون سبباً في أزمات اجتماعية خطرة قد تبتلع مبدأ الملكية نفسه في ثورتها، فلا تبقي ولا تذر.

الإنفاق يقلّل من الفواصل الطبقيّة ويزيل هذا الخطر الذي يهدّد الأفراد الأثرياء في المجتمع، فالإنفاق يطفئ لهيب غضب الطبقات المحرومة ويقضي على روح الانتقام في نفوسهم.

من هنا فالإنفاق لصالح المنفقين من حيث الأهميّة الاجتماعية والسلامة الاقتصادية والجوانب المختلفة المادّية والمعنوية.

٤ - ما معنى (وجه الله)؟

(وجه) بالإضافة إلى معناها المعروف قد تستعمل بمعنى ذات، وعندئذ (وجه الله)

تعني ذات الله التي يجب أن يتوجّه إليها المنفقون في إنفاقهم، وعليه فإنّ ورود كلمة (وجه) في هذه الآية وفي غيرها إنّما يقصد به التوكيد، فمن الواضح أنّ قولنا (لوجه الله) أو (لذات الله) أكثر تأكيداً من قولنا (لله). فيكون المعنى أنّ الإنفاق لله حتماً لا لغير الله.

ثمَّ إنَّ الوجه أشرف جزء من أجزاء الجسم الظاهرة، ففيه أهمّ أعضاء الإنسان كالبصر والسمع والنطق. ولهذا حيثما استعملت كلمة (الوجه) كان القصد إيصال معاني الشرف والأهميّة، واستعمالها هنا استعمال كناية يفهم منه الاحترام والأهميّة، وإلّا فإنّ الله منزّه عن الصورة الجسدية.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

سبب النّزول

نقل عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: إنّ هذه الآية نزلت في أصحاب (الصفّة). وهم جمع نحو أربعمائة شخص من مسلمي مكّة وأطراف المدينة ممّن لم يكن لهم مأوى يأوون إليه في المدينة، ولا قريب يؤويهم في منزله، فاتّخذوا من مسجد النبيّ منزلاً معلنين استعدادهم للذهاب إلى ميادين الجهاد دائماً، ولكن بما أنّ بقاءهم في المسجد لم يكن ينسجم مع شؤونه فقد أُمروا بالانتقال إلى (صفّة) دكّة عريضة كانت خارج المسجد. ونزلت الآية تحثّ المسلمين أن يغدقوا مساعداتهم على إخوتهم هؤلاء فأعانوهم[١].

صرّح بعض المفسّرين: (لقد كان هذا الوصف الموحى ينطبق على جماعة من المهاجرين، تركوا وراءهم أموالهم وأهليهم؛ وأقاموا في المدينة ووقفوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، وحراسة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأهل الصفة الذين كانوا بالمسجد حرساً لبيوت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يخلص إليها من دونهم عدو...)[٢].

---

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير أبي الفتوح الرازي، وتفسير البحر المحيط، وتفسير القرطبي، وتفسير روح المعاني، وتفاسير أُخرى ومع تفاوت في العبارات.

(٢) تفسير في ظلال القرآن: ذيل الآية مورد البحث.

التفسير

خير مواضع الإنفاق

يبيّن الله في هذه الآية أفضل مواضع الإنفاق، وهي التي تتّصف بالصفات التالية:

١ - ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الذين شغلتهم الأعمال الهامّة كالجهاد ومحاربة العدو، وتعلُّم فنون الحرب، وتحصيل العلوم الأُخرى، عن العمل في سبيل الحصول على لقمة العيش كأصحاب الصفّة الذين كانوا خير مصداق لهذا الوصف[1].

ثمّ للتأكيد تضيف الآية: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي الذين لا يقدرون على الترحال لكسب العيش بالسفر إلى القرى والمدن الأُخرى حيث تتوفر نِعم الله تعالى، وعليه فإنّ القادرين على كسب معيشتهم يجب أن يتحمّلوا عناء السفر في سبيل ذلك وأن لا يستفيدوا من ثمار أتعاب الآخرين إلّا إذا كانوا منشغلين بعمل أهمّ من كسب العيش كالجهاد في سبيل الله.

٢ - الذين ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ هؤلاء الذين لا يعرف الآخرون شيئاً عن بواطن أُمورهم، ولكنهم - لما فيهم من عفّة النفس والكرامة - يظنّون أنّهم من الأغنياء.

ولكن هذا لايعني أنّهم غير معروفين. لذا تضيف الآية ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾.

السيماء: العلامة[2]. فهؤلاء وإن لم يفصحوا بشيء عن حالهم، فإنّ على وجوههم علامات تنطق بما يعانون يدركها العارفون، فلون وجناتهم ينبئ عمّا خفي من أسرارهم.

٣ - والثالث من صفات هؤلاء أنهم لايصرّون في الطلب والسؤال: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[3] أي أنّهم لا يشبهون الفقراء الشحّاذين الذين يلحّون في الطلب من الناس، فهم يمتنعون عن السؤال فضلاً عن الإلحاف، فالإلحاح في السؤال شيمة ذوي الحاجات العاديّين، وهؤلاء ليسوا عاديّين، وقول القرآن إنّهم لا يلحفون في السؤال لا

---

(١) «حصر» بمعنى الحبس والمنع والتضييق وجاءت هنا بمعنى جميع الأُمور التي تمنع الإنسان من تأمين معاشه.

(٢) قيل إنها من مادة «وسم»، وقيل إنها من مادة «سوم».

(٣) «إلحاف» من مادة «لِحاف» بمعنى الغطاء المعروف، وأُطلق على الاصرار في السؤال لأنّه يغطي قلب الشخص المقابل.

يعني أنّهم يسألون بدون إلحاف، بل يعني أنّهم ليسوا من الفقراء العاديّين حتى يسألوا، ولذلك لا تتعارض هذه الفقرة من الآية مع قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ لأنّهم لا يُعرفون بالسؤال.

ثمّة احتمال آخر في تفسير الآية، وهو أنّهم إذا اضطرّتهم الحالة إلى إظهار عوزهم فإنّهم لا يلحفون في السؤال أبداً، بل يكشفون عن حاجتهم بأسلوب مؤدّب أمام إخوانهم المسلمين.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

في هذه الآية حثّ على الإنفاق، وعلى الأخصّ الإنفاق على ذوي النفوس العزيزة الأبية، لأنّ المنفقين إذا علموا أنّ الله عالم بما ينفقون حتى وإن كان سرّاً وأنّه سوف يثيبهم على ذلك، فستزداد رغبتهم في هذا العمل الكبير.

بحث

الاستجداء بدون حاجة حرام

إنّ أحد الذنوب الكبيرة هو السؤال والاستجداء والطلب من الناس من دون حاجة، لذلك فقد ورد في روايات متعدّدة النهي عن هذا العمل بشدّة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ يقول: «لا تحل الصدقة لغني»[(١)].

وورد في حديث آخر عنه ﷺ أنّه قال: «من سأل وعنده ما يغنيه فإنّما يستكثر من جمر جهنّم»[(٢)] وكذلك ورد في الأحاديث الشريفة «أنّه لا تقبل شهادة من يسأل الناس بكفّه»[(٣)].

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)﴾

(١) التهذيب، ج ٤، ص ٥١؛ ووسائل الشيعة، ج ٩، ص ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٩.
(٢) تفسير المراغي: ج ٣، ص ٥٠.
(٣) وسائل الشيعة: ج ٨، ص ٢٨١ كتاب الشهادات ب ٣٥.

سبب النّزول

ورد في أحاديث كثيرة أنّ هذه الآية الشريفة نزلت في عليّ عليه السلام لأنّه كان لديه أربعة دراهم فأنفق منها درهماً في الليل وآخر في النهار وثالث علانية ورابع[1] خفيةً، فنزلت هذه الآية، ولكن من الواضح أنّ نزول الآية في مورد خاصّ لا يحدّد مفهوم تلك الآية ولا ينفي شموليّة الحكم لغيره من الموارد.

التّفسير

الإنفاق محمودٌ بكلّ أشكاله

في هذه الآية يدور الحديث أيضاً عن مسألة أُخرى ممّا يرتبط بالإنفاق في سبيل الله وهي الكيفيّات المتنوّعة والمختلفة للإنفاق فتقول الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

ومن الواضح أنّ انتخاب أحد هذه الطرق المختلفة يتمّ مع رعاية الشرائط الأفضل للإنفاق، يعني أنّ المنفق يجب عليه مراعاة الجوانب الأخلاقية والاجتماعية في إنفاقه اللّيلي أو النهاري العلني أو السرّي، فحين لا يكون ثمّة مبرّر لإظهار الإنفاق على المحتاجين فينبغي أن يكون في الخفاء لحفظ كرامة المحتاجين وتركيزاً لإخلاص النيّة.

وإذا تطلّبت المصلحة إعلان الإنفاق كتعظيم الشعائر الدينيّة والترغيب والحثّ على الإنفاق دون أن يؤدّي ذلك إلى هتك حرمة أحد من المسلمين، فليعلن عنه (كالإنفاق في الجهاد والمراكز الخيريّة وأمثال ذلك).

ولا يبعد أن يكون تقديم اللّيل على النهار والسرّ على العلانية في الآية مورد البحث إشارة إلى أنّ صدقة السرّ أفضل إلّا أن يكون هناك موجب لإظهاره رغم أنّه لا ينبغي نسيان الإنفاق على كلّ حال.

ومن المسلّم به أنّ الشيء الذي يكون عند الله (وخاصّة بالنظر إلى صفة الربوبيّة

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٢٩٠ و٢٩١. ورد مضمون هذا الحديث في كتب تفسير أهل السنّة أيضاً، وينقله صاحب (الدر المنثور) عن ابن عساكر والطبراني وأبي حاتم وابن جرير وغيرهم. ويرى البعض أنّ علماء الشيعة بالاتفاق وأكثر علماء السنّة ذهبوا إلى أنّ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام وفي علماء السنّة، الواحدي، الثعلبي، الخوارزمي، السدّي، الكلبي، الزمخشري، الطافي، القشيري، الجارودي، ابن المغازلي، ابن أبي الحديد، وغيرهم، وراجع تفسير البرهان.

الناظرة إلى التكامل والنمو) لا يكون شيئاً قليلاً وغير ذي قيمة، بل يكون متناسباً مع ألطاف الله تعالى وعناياته التي تتضمّن بركات الدنيا وكذلك حسنات الآخرة والقرب إلى الله تعالى.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إنّ الإنسان يعلم أنّه لكي يدبّر أُموره المعاشية والحياتية يحتاج إلى المال والثروة، فإذا فقد ثروته ينتابه الحزن على ذلك، ويشتدّ به الخوف على مستقبله، لأنّه لا يعلم ما ينتظره في مقبلات الأيام، هذه الحالة غالباً ما تمنع الإنسان من الإنفاق، إلّا الذين يؤمنون من جهة بوعود الله ويعرفون من جهة أُخرى آثار الإنفاق الاجتماعية. فهؤلاء لا ينتابهم الخوف والقلق من الإنفاق في سبيل الله على مستقبلهم ولا يحزنون على نقص أموالهم بالإنفاق، لأنّهم يعلمون أنّهم بإزاء ما أنفقوه سوف ينالون أضعافه من فضل الله وبركات إنفاقهم الفردية والاجتماعية والأخلاقية في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

التّفسير

الربا في القرآن

في الآيات التي مضت كان الكلام على الإنفاق وبذل المال لمساعدة المحتاجين وفي سبيل رفاه المجتمع، وفي هذه الآيات يدور الكلام على الربا الذي يقف في الجهة المضادّة للإنفاق، والواقع هو أنّ هذه الآيات تكمل هدف الآيات السابقة، لأنّ تعاطي الربا يزيد من الفواصل الطبقية ويركّز الثروة في أيدي فئة قليلة، ويسبّب فقر الأكثرية،

والإنفاق سبب طهارة القلوب والنفوس واستقرار المجتمع، والربا سبب البخل والحقد والكراهية والدنس.

هذه الآيات شديدة وصريحة في منع الربا، ولكن يبدو منها أنّ موضوع الربا قد سبق التطرّق إليه، فإذا لاحظنا تاريخ نزول هذه الآيات تتّضح لنا صحّة ذلك، فبحسب ترتيب نزول القرآن، السورة التي ورد فيها ذكر الربا لأول مرّة هي سورة الروم، وهي السورة الثلاثون التي نزلت في مكّة، ولا نجد في غيرها من السور المكّية إشارة إلى الربا.

لكن الحديث عن الربا في السورة المكّية جاء على شكل نصيحة أخلاقية ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾(١).

أي أنّ قصيري النظر قد يرون أنّ الثروة تزداد بالربا، ولكنّه لا يزداد عند الله.

ثمّ بعد الهجرة، تناول القرآن الربا في ثلاث سور أُخرى من السور التي نزلت في المدينة وهي بالترتيب: سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة النساء. وعلى الرغم من أنّ سورة البقرة قد نزلت قبل سورة آل عمران، فلا يُستبعد أن تكون الآية ١٣٠ من سورة آل عمران - وهي التي تحرّم الربا تحريماً صريحاً - قد نزلت قبل سورة البقرة والآيات المذكورة أعلاه.

على كلّ حال، هذه الآية وسائر الآيات التي تخصّ الربا نزلت في وقت كان فيه تعاطي الربا قد راج بشدّة في مكّة والمدينة والجزيرة العربية حتى غدا عاملاً مهمّاً من عوامل الحياة الطبقية، وسبباً من أهمّ أسباب ضعف الطبقة الكادحة وطغيان الأرستقراطية، لذلك فإنّ الحرب التي أعلنها القرآن على الربا تعتبر من أهمّ الحروب الاجتماعية التي خاضها الإسلام.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ(٢) ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.

فالآية تشبّه المرابي بالمصروع أو المجنون الذي لا يستطيع الاحتفاظ بتوازنه عند السير، فيتخبّط في خطواته.

ولعلّ المقصود هو وصف طريقة سلوك المرابين الاجتماعي في الدنيا على اعتبار أنّهم أشبه بالمجانين في أعمالهم، فهم يفتقرون إلى التفكير الاجتماعي السليم، بل إنّهم لا يشخّصون حتى منافعهم الخاصّة، وإنّ مشاعر المواساة والعواطف الإنسانية وأمثالها

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٩.

(٢) «يتخبّطه» من مادة «الخبط» هو فقدان توازن الجسم عند المشي أو القيام.

لا مفهوم لها في عقولهم إذ إنّ عبادة المال تسيطر على عقولهم إلى درجة أنّها تعميهم عن إدراك ما ستؤدّي إليه أعمالهم الجشعة الاستغلالية من غرس روح الحقد في قلوب الطبقات المحرومة الكادحة وما سيعقب ذلك من ثورات وانفجارات اجتماعية تعرض أساس الملكية للخطر، وفي مثل هذا المجتمع سينعدم الأمن والاستقرار، وستصادر الراحة من جميع الناس بمن فيهم هذا المرابي، ولذلك فإنّه يجني على نفسه أيضاً بعمله الجنوني هذا.

ولكن بما أنّ وضع الإنسان في العالم الآخر تجسيد لأعماله في هذا العالم فيحتمل أن تكون الآية إشارة إلى المعنيين، أي أنّ الذين يقومون في الدنيا قياماً غير متعقّل وغير متوازن يخالطه اكتناز جنوني للثروة سيحشرون يوم القيامة كالمجانين.

و الطريف أنّ الروايات والأحاديث تشير إلى كلا المفهومين، ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «آكل الربا لا يخرج من الدنيا حتى يتخبّطه الشيطان»(١).

وفي رواية أُخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشأن تجسيد حال المرابين الذين لا يهمّهم غير مصالحهم الخاصّة، وما ستجرّه عليهم أموالهم المحرّمة قال: «لمّا أُسري بي إلى السماء رأيت قوماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المس»(٢).

الحديث الأوّل يبيّن اضطراب الإنسان في هذه الدنيا، ويعكس الحديث الثاني حال المرابين في مشهد يوم القيامة، وكلاهما يرتبطان بحقيقة واحدة، فكما أنّ الإنسان المبطان الأكول يسمن بإفراط وبغير حساب، كذلك المرابون الذين يسمنون بالمال الحرام لهم حياة اقتصادية مريضة تكون وبالاً عليهم.

سؤال: هل الجنون والصرع اللذين أشارت إليهما الآية المذكورة من عمل الشيطان، مع أننا نعلم أنّ الصرع والجنون من الأمراض النفسية التي لها أسباب معروفة في الغالب؟

الجواب: يرى بعضهم أنّ تعبير (مسّ الشيطان) كناية عن الأمراض النفسية والجنون، وهو تعبير كان شائعاً عند العرب، ولا يعني أنّ للشيطان تأثيراً فعلياً في روح الإنسان.

---

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ١٥٢، ح ٥٠٣.
(٢) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٢٩١، ح ١١٥٧.

ولكن مع ذلك لا يُستبعد أن يكون لبعض الأعمال الشيطانية التي يرتكبها الإنسان دون تروٍّ أثر يؤدّي إلى نوع من الجنون الشيطاني، أي يكون للشيطان على إثر هذه الأعمال فاعلية في الشخص يسبّب اختلال تعادله النفسي، ثمّ إنّ الأعمال الشيطانية الخاطئة إذا تكرّرت وتراكمت يكون أثرها الطبيعي هو أن يفقد الإنسان قدرته على تمييز السقيم من السليم والصالح من الطالح والتفكير المنطقي من المعوجّ.

منطق المرابين

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾.

هذه الآية تبيّن منطق المرابين فهم يقولون: ما الفرق بين التجارة والربا؟ ويقصدون أنّ كليهما يمثّلان معاملة تبادل بتراضي الطرفين واختيارهما.

يقول القرآن جواباً على ذلك: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ ولم يزد في ذلك شرحاً وتفصيلاً، ربما لوضوح الاختلاف:

فأوّلاً: في صفقة البيع والشراء يكون كلا الطرفين متساويين بإزاء الربح والخسارة، فقد يربح كلاهما، وقد يخسر كلاهما، ومرّة يربح هذا ويخسر ذاك، ومرّة يخسر هذا ويربح ذاك، بينما في المعاملة الربوية لا يتحمّل المرابي أيّة خسارة، فكلّ الخسائر المحتملة يتحمّل ثقلها الطرف الآخر، ولذلك نرى المؤسّسات الربوية تتوسّع يوماً فيوماً، ويكبر رأسمالها بقدر اضمحلال وتلاشي الطبقات الضعيفة.

وثانياً: في التجارة والبيع والشراء يسير الطرفان في (الإنتاج والاستهلاك)، بينما المرابي لا يخطو أيّة خطوة إيجابية في هذا المجال.

وثالثاً: بشيوع الربا تجري رؤوس الأموال مجرى غير سليم وتتزعزع قواعد الاقتصاد الذي هو أساس المجتمع، بينما التجارة السليمة تجري فيها رؤوس الأموال في تداول سليم.

ورابعاً: الربا يتسبّب في المخاصمات والمنازعات الطبقية، بينما التجارة السليمة لا تجرّ المجتمع إلى المشاحنات والصراع الطبقي.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾.

تقول الآية إنّ من بلغته نصيحة الله بتحريم الربا واتّعظ فله الأرباح التي أخذها من قبل (أي أنّ القانون ليس رجعياً) لأنّ القوانين الرجعية تولد الكثير من المشاكل والاضطرابات في حياة الناس، ولذلك فإنّ القوانين تنفّذ عادةً من تاريخ سنّها.

وهذا لا يعني بالطبع أنّ للمرابين أن يتقاضوا أكثر من رؤوس أموالهم من المدينين

بعد نزول الآية، بل المقصود إباحة ما جنوه من أرباح قبل نزول الآية.

ثمّ يقول ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أنّ النظر إلى أعمال هؤلاء يوم القيامة يعود إلى الله، وإن كان ظاهر الآية يدلّ على أنّ مستقبل هؤلاء من حيث معاقبتهم أو العفو عنهم غير واضح، ولكن بالتوجّه إلى الآية السابقة نفهم أنّ القصد هو العفو، ويظهر من هذا أنّ إثم الربا من الكبر بحيث إنّ حكم العفو عن الذين كانوا يتعاطونه قبل نزول الآية لا يذكر صراحة.

وردت احتمالات أُخرى في معنى هذه الجملة، أعرضنا عن ذكرها لكونها خلاف الظاهر(١).

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي أنّ من يواصل تعاطي الربا على الرغم من كلّ تلك التحذيرات، فعليه أن ينتظر عذاباً أليماً في النار دائماً.

إنّ العذاب الخالد لا يكون نصيب من آمن بالله، لكن الآية تعد المصرّين على الربا بالخلود في النار، ذلك لأنّهم بإصرارهم هذا يحاربون قوانين الله، ويلجّون في ارتكاب الإثم، وهذا دليل على عدم صحّة إيمانهم، وبالتالي فهم يستحقّون الخلود في النار.

كما يمكن القول إنّ خلود العذاب هنا كما في الآية ٩٣ من سورة النساء، يعني العذاب المديد الطويل الأمد لا الأبديّ الدائم.

ثمّ إن الآية التالية تبيّن الفرق بين الربا والصدقة وتقول:

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾.

ثُمّ يضيف: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ يعني الذين تركوا ما في الصدقات من منافع طيبة والتمسوا طريق الربا الذي يوصلهم إلى نار جهنم.

(المَحق) النقصان التدريجي. و(الربا) هو النموّ التدريجي. فالمرابي بما لديه من رأسمال وثروة يستحوذ على أتعاب الطبقة الكادحة، وقد يؤدّي عمله هذا إلى القضاء عليهم، أو يبذر على الأقل بذور العداء والحقد في قلوبهم بحيث يصبحون بالتدريج متعطّشين إلى شرب دماء المرابين ويهدّدون أموالهم وأرواحهم، فالقرآن يقول إنّ الله يسوق رؤوس الأموال الربوية إلى الفناء.

---

(١) تفسير القرطبي: ج ٢، ص ١٦٩، هنا ذكر أربعة تفاسير، وفي مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث وذكرت احتمالات عديدة أُخرى أيضاً.

إنّ هذا الفناء التدريجي الذي يحيق بالفرد المرابي يحيق بالمجتمع المرابي أيضاً[1].

وبالمقابل، فالأشخاص الذين يتقدّمون إلى المجتمع بقلوب مليئة بالعواطف الإنسانية وينفقون من رؤوس أموالهم وثرواتهم يقضون بها حاجات المحتاجين من الناس يحظون بمحبّة الناس وعواطفهم عموماً، وأموال هؤلاء فضلاً عن عدم تعرّضها لأيّ خطر تنمو بالتعاون العامّ نموّاً طبيعياً، وهذا ما يعنيه القرآن بقوله: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

وهذا الحكم يجري في الفرد كما يجري في المجتمع، فالمجتمع الذي يُعنى بالحاجات العامّة تتحرّك فيه الطاقات الفكرية والجسمية للطبقة الكادحة التي تؤلّف أكثرية المجتمع وتبدأ العمل، وعلى أثر ذلك يظهر إلى حيّز الوجود ذلك النظام الاقتصادي القائم على التكافل وتبادل المنافع العامّة.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

(الكفّار) من الكفور، بوزن فجور، وهو المغرق في نكران الجميل والكفر بالنعمة، و(الأثيم) هو الموغل في ارتكاب الآثام.

هذه الفقرة من الآية تشير إلى أنّ المرابين بتركهم الإنفاق والإقراض والبذل في سبيل رفع الحاجات العامّة يكفرون بما أغدق الله عليهم من النِعم، بل أكثر من ذلك يسخّرون هذه النِعم على طريق الإثم والظلم والفساد، ومن الطبيعي أنّ الله لا يحبّ أمثال هؤلاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

مقابل المرابين الآثمين الكافرين بأنعم الله، هناك أُناس من المؤمنين تركوا حبّ الذات، وأحيوا عواطفهم الفطرية، وارتبطوا بالله بإقامة الصلاة، وأسرعوا لمعونة المحتاجين بدفع الزكاة، وبذلك يحولون دون تراكم الثروة وظهور الاختلاف الطبقي المؤدّي إلى الكثير من الجرائم. هؤلاء ثوابهم محفوظ عند الله ويرون نتائج أعمالهم في الدنيا والآخرة.

ثمّ إنّ هؤلاء لا يعرفون القلق والحزن، ولا يهدّدهم الخطر الذي يتوجّه إلى المرابين من قبل ضحاياهم في المجتمع.

وأخيراً فإنّهم يعيشون في اطمئنان تام ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

---

(١) الجدير بالذكر أنه قامت مؤسسة اقتصادية أو مذهبية بدراسة مسألة الربا والمرابين في الماضي والحاضر مع التحقيق في ملفات المؤسسات القضائية، فكانت حصيلة تحقيقاتهم أنّ الربا كان ولا يزال علّة لإبادة كثير من القيم والأمم البائدة والسائدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾
فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ
مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا
تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير علي بن إبراهيم[1] أنّه بعد نزول آيات الربا جاء خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ وقال: كانت لأبي معاملات ربوية مع بني ثقيف، فمات ولم يتسلّم دَينه، وقد أوصاني أن أقبض بعض الفوائد التي لم تدفع بعد، فهل يجوز لي ذلك؟ فنزلت الآيات المذكورة تنهى الناس عن ذلك نهياً شديداً.

وفي رواية أُخرى أنّه بعد نزول هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «ألا كلّ رباً من ربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضعه ربا العبّاس بن عبد المطّلب»[2].

يتضح من هذا أنّ رسول الله ﷺ في حملته لإلغاء الديون الربوية في الجاهلية قد بدأ بأقربائه أوّلاً. وإذا كان بينهم أشخاص أثرياء مثل العبّاس ممّن كانوا مثل غيرهم يتعاطون الربا في الجاهلية، فقد ألغى رسول الله ﷺ - أوّلاً - ربا هؤلاء.

وجاء في الروايات أن النّبي ﷺ بعد نزول هذه الآيات أمر أمير مكّة بأنّه لو استمر آل المغيرة الذين كانوا معروفين بالربا في عملهم فليقاتلهم[3].

التّفسير

في الآية الأُولى يخاطب الله المؤمنين ويأمرهم بالتقوى ثمّ يأمرهم أن يتنازلوا عمّا بقي لهم في ذمّة الناس من فوائد ربوية.

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم: ج ١، ص ٩٣؛ ووسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٣١.
(٢) تفسير مجمع البيان: ج ١ و ٢، ص ٣٩٢، وتفسير الدر المنثور: ج ٢، ص ١٠٩ مع تفاوت يسير.
(٣) تفسير الدر المنثور: ج ٢، ص ١٠٨ - ١٠٧.

يلاحظ أنّ الآية بدأت بذكر الإيمان بالله واختتمت بذكره، ممّا يدلّ بوضوح على عدم انسجام الربا مع الإيمان بالله.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

تتغيّر في هذه الآية لهجة السياق القرآني، فبعد أن كانت الآيات السابقة تنصح وتعظ، تهاجم هذه الآية المرابين بكلّ شدة، وتنذرهم بلهجة صارمة أنّهم إذا واصلوا عملهم الربوي ولم يستسلموا لأوامر الله في الحقّ والعدل واستمرّوا في امتصاص دماء الكادحين المحرومين فلا يسع رسول الله ﷺ إلّا أن يتوسّل بالقوّة لإيقافهم عند حدّهم وإخضاعهم للحق، وهذا بمثابة إعلان الحرب عليهم، وهي الحرب التي تنطلق من قانون: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(١). لذلك عندما سمع الإمام الصادق عليه السلام أنّ مرابياً يتعاطى الربا بكلّ صراحة ويستهزئ بحرمته هدّده بالقتل.

ويستفاد من هذا الحديث أن حكم القتل إنّما هو لمنكر تحريم الربا. (فأذنوا) من مادة (أذن) فإذا كانت متعدية باللام فالمعنى هو السماح وإذا تعدت بالباء فتعني العلم فعلى هذا يكون قوله: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾(٢) يعني اعلموا أنّ الله ورسوله سيحاربانكم وهذا في الحقيقة بمثابة إعلان الحرب على هذه الفئة، فعلى هذا ليس من الصحيح ما ذهب إليه البعض في معنى هذه الآية بأنه (اسمحوا بإعلان الحرب من الله).

عن أبي بكير قال: بلغ أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن رجل أنّه كان يأكل الربا ويسمّيه اللّبا.

فقال: لئن أمكنني الله منه لأضربنّ عنقه(٣).

يتّضح من هذا أنّ هذا الحكم يخصّ الذين ينكرون تحريم الربا في الإسلام.

على كلّ حال يستفاد من هذه الآية أنّ للحكومة الإسلامية أن تتوسّل بالقوّة لمكافحة الربا.

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

أمّا إذا تبتم ورجعتم عن غيّكم وتركتم تعاطي الربا فلكم أن تتسلّموا من الناس

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٢) فسّر «فأذنوا» بـ«فاعلموا» غالباً من قبل المفسرين أمثال: الطبرسي في تفسير مجمع البيان، وأبي الفتوح الرازي في تفسير روح الجنان، والفخر الرازي في التفسير الكبير، والآلوسي في تفسير روح المعاني، والعلامة الطباطبائي في تفسير الميزان... وغيرهم.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٤٣٩ باب ثبوت القتل والكفر باستحلال الربا ح ١.

المدينين لكم رؤوس أموالكم فقط (بغير ربح). وهذا قانون عادل تماماً، لأنّه يحول دون أن تظلموا الناس ودون أن يصيبكم ظلم.

إنّ تعبير ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ وإن كان قد جاء بشأن المرابين، ولكنّه في الحقيقة شعار إسلامي واسع وعميق، يعني أنّ المسلمين بقدر ما يجب عليهم تجنّب الظلم، يجب عليهم كذلك أن لا يستسلموا للظلم، وفي الحقيقة لو قلّ الذين يتحمّلون الظلم لقلّ الظالمون أيضاً، ولو أنّ المسلمين أعدّوا العدّة الكافية للدفاع عن حقوقهم لما تمكّن أحد أن يعتدي على تلك الحقوق ويظلمهم، فقبل أن نقول للظالم: لاتظلم، علينا أن نقول للمظلوم: لا تستسلم للظلم.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾(١).

استكمالاً لبيان حقّ الدائن في الحصول على رأسماله (بدون ربح) تبيّن الآية هنا حقّاً من حقوق المدين إذا كان عاجزاً عن الدفع، ففضلاً عن عدم جواز الضغط عليه وفرض فائدة جديدة عليه كما كانت الحال في الجاهلية، فهو حقيق بأن يمهل مزيداً من الوقت لتسديد أصل الدَين عند القدرة والاستطاعة.

إنّ القوانين الإسلامية التي جاءت لتوضيح مفهوم هذه الآية تمنع الدائن من الاستيلاء على دار المدين وأمتعته الضرورية اللازمة لقاء دَينه، إنّما للدائن أن يأخذ الزائد على ذلك، وهذا قانون صريح وإنساني يحمي حقوق الطبقات الفقيرة في المجتمع.

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وهذه في الواقع خطوة أبعد من المسائل الحقوقية، أي أنّها مسألة أخلاقية وإنسانية تكمل البحث الحقوقي المتقدّم، تقول الآية للدائنين إنّ الأفضل من كلّ ما سبق بشأن المدين العاجز عن الدفع هو أن يخطو الدائن خطوة إنسانية كبيرة فيتنازل للمدين عمّا بقي له في ذمّته، فهذا خير عمل إنساني يقوم به، وكلّ من يدرك منافع هذا الأمر يؤمن بهذه الحقيقة.

من المألوف في القرآن أنّه بعد بيان تفاصيل الأحكام وجزئيّات الشريعة الإسلامية يطرح تذكيراً عامّاً شاملاً يؤكّد به ما سبق قوله، لكي تنفذ الأحكام السابقة نفوذاً جيّداً في العقل والنفس.

لذلك فإنّه في هذه الآية يذكّر الناس بيوم القيامة ويوم الحساب والجزاء، ويحذّرهم من اليوم الذي ينتظرهم حيث يوضع أمام كلّ امرىء جميع أعماله دون زيادة ولا

---

(١) يحتمل أن تكون (كان) في الجملة أعلاه تامّة حيث لا تحتاج إلى خبر أو ناقصة ويكون التقدير «إن كان هناك ذو عسرة».

نقصان، وكلّ ما حفظ في ملفّ عالم الوجود يسلّم إليه دفعة واحدة، عندئذ تهوله النتائج التي تنتظره، ولكن ذلك حصيلة ما زرعه بنفسه وما ظلمه فيه أحد، إنّما هو نفسه ظلم نفسه ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

جدير بالذكر أنّ هذه الآية من الأدلّة الأُخرى على تجسّد أعمال الإنسان في العالم الآخر.

ومما يلفت النظر أنّ تفسير (الدرّ المنثور) ينقل بطرق عديدة أنّ هذه الآية هي آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ (١)، ولا يُستبعد هذا إذا أخذنا مضمونها بنظر الاعتبار.

وهذا لا يتناقض مع كون سورة البقرة ليست آخر سورة نزلت على رسول الله ﷺ، لأنّ بعض الآيات كما نعلم كانت توضع في سورة سابقة عليها أو لاحقة لها، وذلك بأمر النبيّ ﷺ نفسه.

أضرار الربا

١ - الربا يخلّ بالتوازن الاقتصادي في المجتمع، ويؤدّي إلى تراكم الثروة لدى فئة قليلة، لأنّ هذه الفئة هي وحدها التي تستفيد من الأرباح بينما لا يجني الآخرون سوى الخسائر والأضرار والضغوط.

الربا يشكّل اليوم أهم عوامل اتّساع الهوة المستمر بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وما يعقب ذلك من حروب دموية طاحنة.

٢ - الربا لون من ألوان التبادل الاقتصادي غير السليم، يضعف الوشائج العاطفية، ويغرس روح الحقد في القلوب، ذلك لأنّ الربا يقوم في الواقع على أساس أنّ المرابي لا ينظر إلّا إلى أرباحه، ولا يهمّه الضرر الذي يصيب المدين.

هنا يبدأ المدين بالاعتقاد أنّ المرابي يتّخذ من أمواله وسيلة لتدمير حياة الآخرين.

٣ - صحيح أنّ دافع الربا يرضخ لعمله هذا نتيجة حاجة قد ألجأته إلى ذلك، ولكنّه لن ينسى هذا الظلم أبداً، وقد يصل به الأمر إلى الاحساس بأصابع المرابي تشدّد من ضغطها على عنقه وتكاد تخنقه. وفي هذه الحالة تبدأ كلّ جوارح المدين المسكين ترسل اللّعنات على المرابي، ويتعطّش لشرب دمه. إنّه يرى بأُمّ عينيه كيف أنّ حاصل شقائه وتعبه وثمن حياته يدخل إلى جيب هذا المرابي، في مثل هذه الحالة الهائجة ترتكب عشرات الجرائم المرعبة، فقد يقدم المدين على الانتحار، وقد تدفعه حالته اليائسة إلى أن يقتل المرابي شرّ قتلة، وقد ينفجر الشعب المضطهد انفجاراً عامّاً في ثورة عارمة.

---

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ١، ص ٣٦٥و ٣٧٠.

إنّ انفصام علائق التعاون بين الدول المرابية والدول التي تستقرض منها بالربا واضح للعيان أيضاً، إنّ الدول التي تجد ثرواتها تصبّ في خزائن دولة أُخرى باسم الربا تنظر دون شكّ بعين البغض والحقد إلى الدولة المرابية، وفي الوقت الذي هي تستقرض منها لحاجتها الماسة فإنّها تتحيّن الفرصة للإعراب عن نقمتها وكرهها بشتّى الوسائل والطرق.

وهذا هو الذي يحدونا إلى القول بأنّ للربا أثراً أخلاقياً سيئاً جدّاً في نفسيّة المدين ويثير في قلبه الكره والضغينة، ويفصم عرى التعاون الاجتماعي بين الأفراد والملل.

٤ - في الأحاديث الإسلامية إشارة إلى آثار الربا الأخلاقية السيئة وردت في جملة قصيرة ولكنها عميقة المعنى. جاء في كتاب (وسائل الشيعة) في علّة تحريم الربا عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّما حرّم الله عزّ وجلّ الربا لكي لا يمتنع الناس عن اصطناع المعروف»[1].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

---

١) وسائل الشيعة: ج ١٢، أبواب الربا، الباب ١، ص ٤٢٢.

التفسير

تدوين المعاملات التجارية

بعد أن شنّ القرآن على الربا والاحتكار والبخل حرباً شعواء، وضع تعليمات دقيقة لتنظيم الروابط التجارية والاقتصادية، لكي تنمو رؤوس الأموال نموّاً طبيعياً دون أن تعتريها عوائق أو تنتابها خلافات ومنازعات.

تضع هذه الآية التي هي أطول آيات القرآن تسعة عشر بنداً من التعليمات التي تنظّم الشؤون المالية، نذكرها على التوالي[1]:

١ - إذا أقرض شخص شخصاً أو عقد صفقة، بحيث كان أحدهما مديناً، فلكي لا يقع أيّ سوء تفاهم واختلاف في المستقبل، يجب أن يكتب بينهما العقد بتفاصيله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾.

من الجدير بالذكر أنّه يستعمل كلمة (دَين) هنا ولا يستعمل كلمة (قرض)، وذلك لأنّ القرض هو تبادل شيئين متشابهين كالنقود أو البضاعة التي يقترضها المقترض ويستفيد منها، ثمّ يعيد نقوداً أو بضاعةً إلى المقرض مثلاً بمثل، أمّا (الدَين) فأوسع معنى، فهو يشمل كلّ تعامل، مثل المصالحة والإيجار والشراء والبيع وأمثالها، بحيث إنّ أحد الطرفين يصبح مديناً للطرف الآخر، وعليه فهذه الآية تشمل جميع المعاملات التي فيها دَين يبقى في ذمّة المدين، بما في ذلك القرض.

٢ - لكي يطمئن الطرفان على صحّة العقد ويأمنا احتمال تدخّل أحدهما فيه، فيجب أن يكون الكاتب شخصاً ثالثاً ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ﴾.

على الرغم من أنّ ظاهر الآية يدلّ على وجوب كتابة العقد، يتبيّن من الآية التالية ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ أنّ لزوم الكتابة يتحقّق إذا لم يطمئن الطرفان أحدهما إلى الآخر واحتمل حصول خلافات فيما بعد.

٣ - على كاتب العقد أن يقف إلى جانب الحقّ، وأن يكتب الحقيقة الواقعة ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾.

٤ - يجب على كاتب العقد، الذي وهبه الله علماً بأحكام كتابة العقود وشروط

---

(١) وطبعاً يستفاد من بعض الأحكام ضمناً «وليس بالدلالة المطابقية» أنّه لو اضيفت تلك الأحكام إلى الأحكام التسعة عشر المذكورة لبلغت أكثر من واحد وعشرين حكماً.

التعامل، أن لا يمتنع عن كتابة العقد، بل عليه أن يساعد طرفي المعاملة في هذا الأمر الاجتماعي ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾.

إنّ تعبير (كما علّمه الله) حسب التفسير المذكور للتوكيد ولزيادة الترغيب، ويمكن القول إنّه يشير إلى أمر آخر، وهو ضرورة التزامه الأمانة، وأن يكتب العقد، كما علّمه الله، كتابة متقنة.

بديهيّ أنّ قبول الدعوة إلى تنظيم العقود ليست واجباً عينياً، كما يتّضح من قوله سبحانه ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾.

٥ - على أحد الطرفين أن يملي تفاصيل العقد على الكاتب، ولكن أيّ الطرفين؟ تقول الآية: المدين الذي عليه الحق: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾.

من المتّفق عليه أنّ التوقيع المهمّ في العقد هو توقيع المدين، ولذلك فإنّ العقد الذي يكتب بإملائه يعتبر مستمسكاً لا يمكنه إنكاره[(١)].

٦ - على المدين عند الإملاء أن يضع الله نصب عينيه، فلا يترك شيئاً إلّا قاله ليكتبه الكاتب ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

٧ - إذا كان المدين واحداً ممّن تنطبق عليه صفة (السفيه)، وهو الخفيف العقل الذي يعجز عن إدارة أمواله ولا يميّز بين ضرره ومنفعته، أو (الضعيف) القاصر في فكره والضعيف في عقله المجنون، أو (الأبكم والأصم) الذي لا يقدر على النطق، فإنّ لوليّه أن يملي العقد فيكتب الكاتب بموجب إملائه ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾.

٨ - على (الولي) في الإملاء والاعتراف بالدَين، أن يلتزم العدل وأن يحافظ على مصلحة موكّله، وأن يتجنّب الابتعاد عن الحقّ ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٩ - بالإضافة إلى كتابة العقد، على الطرفين أن يستشهدا بشاهدين ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ﴾[(٢)].

١٠ و١١ - يجب أن يكون الشاهدان بالغين ومسلمين وهذا يستفاد من عبارة ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أي ممّن هم على دينكم.

---

(١) «وليملل» من مادة «ملة» بمعنى الدين والأحكام الإلهية وقال بعض أنّها من مادة «ملال» وبما أنّ في الملاء هناك تكرار مملل أُطلقت هذه الكلمة عليه (تارة بصورة املاء وأُخرى بصورة املال).

(٢) قال بعض ان التفاوت بين «شاهد» و«شهيد» هو أنّ الشاهد يقال لمن حضر الواقعة حتى يمكنه أن يشهد عليها، والشهيد هو الذي يؤدّي الشهادة.

١٢ - يجوز اختيار شاهدتين من النساء وشاهد من الرجال ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾.

١٣ - لا بدّ أن يكون الشاهدان موضع ثقة ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾، يتبيّن من هذه الآية أنّ الشهود يجب أن يكونوا ممّن يُطمأنّ إليهم من جميع الوجوه، وهذه هي (العدالة) التي وردت في الأخبار أيضاً.

١٤ - وإذا كان الشاهدان من الرجال، فلكلّ منهما أن يشهد منفرداً، أمّا إذا كانوا رجلاً واحداً وامرأتين، فعلى المرأتين أن تدليا بشهادتهما معاً لكي تذكّر إحداهما الأُخرى إذا نسيت شيئاً أو أخطأت فيه.

أمّا سبب اعتبار شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، فهو لأنّ المرأة كائن عاطفي وقد تقع تحت مؤثّرات خارجية، لذلك فوجود امرأة أُخرى معها يحول بينها وبين التأثير العاطفي وغيره: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾.

١٥ - ويجب على الشهود إذا دُعوا إلى الشهادة أن يحضروا من غير تأخير ولا تهاون كما قال: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

وهذا من أهم الأحكام الإسلامية ولا يقوم القسط والعدل إلّا به.

١٦ - تجب كتابة الدين سواء أكان الدَين صغيراً أو كبيراً، لأنّ الإسلام يريد أن لا يقع أيّ نزاع في الشؤون التجارية، حتى في العقود الصغيرة التي قد تجرّ إلى مشاكل كبيرة ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾[1] والسأم هو الملل من أمر لكثرة لبثه.

وتشير الآية هنا إلى فلسفة هذه الأحكام، فتقول إنّ الدقّة في تنظيم العقود والمستندات تضمن من جهة تحقيق العدالة، كما أنّها تطمئن الشهود من جهة أُخرى عند أداء الشهادة، وتحول من جهة ثالثة دون ظهور سوء الظنّ بين أفراد المجتمع ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾.

١٧ - إذا كان التعاقد نقداً فلا ضرورة للكتابة ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾.

(التجارة الحاضرة) تعني التعامل النقدي، و(تديرونها) تعني الجارية في التداول

---

(١) تقديم «الصغير» على «الكبير» من أجل أنّ الناس عادة يهملون المعاملات الصغيرة أو لا يلتزمون بكتابتها وهذا يؤدّي إلى التنازع أو أنّه يحتمل أنّ الناس يظنون أنّ كتابة المعاملات الصغيرة دليل على البخل، ولذلك تعرض القرآن لنفيه.

لتوضيح معنى التجارة الحاضرة، وتعبير ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ يعني: ليس هناك ما يمنع من كتابة العقود النقدية أيضاً، وهو خير، لأنّه يزيل كلّ خطأ أو اعتراض محتملين فيما بعد.

١٨ - في المعاملات النقدية وإن لم تحتج إلى كتابة عقد، لا بدّ من شهود: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

١٩ - وآخر حكم تذكره الآية هو أنّه ينبغي ألّا يصيب كاتب العقد ولا الشهود أيّ ضرر بسبب تأييدهم الحقّ والعدالة: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

والفعل (يضارّ) يعني - كما فسّرناه - أن لا يصيب الكاتب والشهود ضرر، أي أنّه مجهول، ولا حاجة إلى تفسيره بأنّه يعني أن لا يصدر من الكاتب والشهود ضرر في الكتابة والشهادة، بعبارة أُخرى لا حاجة إلى اعتباره فعلاً معلوماً، لأنّ هذا التأكيد ورد في فقرة سابقة من الآية.

ثمّ تقول الآية إنّه إذا آذى أحد شاهداً أو كاتباً لقوله الحق فهو إثم وفسوق يخرج المرء من مسيرة العبادة لله: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾.

وفي الختام، وبعد كلّ تلك الأحكام، تدعو الآية الناس إلى التقوى وامتثال أمر الله: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ ثمّ تقول إنّ الله يعلّمكم كلّ ما تحتاجونه في حياتكم المادّية والمعنوية: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ وهو يعلم كلّ مصالح الناس ومفاسدهم ويقرّر ما هو الصالح لهم: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

بحوث

١ - إنّ الأحكام الدقيقة المذكورة في هذه الآية لتنظيم الأسناد والمعاملات وذكر الجزئيّات أيضاً في جميع المراحل في أطول آية من القرآن الكريم يبيّن الاهتمام الكبير الذي يوليه القرآن الكريم بالنسبة للأُمور الاقتصادية بين المسلمين وتنظيمها، وخاصّةً مع الالتفات إلى أنّ هذا الكتاب قد نزل في مجتمع متخلّف إلى درجة أنّ القراءة والكتابة كانتا سلعة نادرة جدّاً، وحتى إنّ النبيّ ﷺ وهو صاحب القرآن لم يكن قد درس شيئاً ولم يذهب إلى مدرسة أو مكتب، وهذا بنفسه دليل على عظمة القرآن من جهة، وأهميّة النظام الاقتصادي للمسلمين من جهة أُخرى.

يقول علي بن إبراهيم في تفسيره المعروف: جاء في الخبر أنّ في سورة البقرة خمسمائة حكم إسلامي وفي هذه الآية ورد خمسة عشر حكماً(١).

---

(١) تفسير القمي: ج ١، ص ٩٤.

وكما رأينا أنّ عدد أحكام هذه الآية يصل إلى تسعة عشر حكماً، بل إنّنا إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأحكام الضمنيّة لها فسيكون عدد الأحكام أكثر إلى حدٍّ أنّ الفاضل المقداد استفاد منها في كتابه (كنز العرفان) واحداً وعشرين حكماً بالإضافة إلى الفروع المتعدّدة الأُخرى، فعلى هذا يكون قوله بأنّ عدد أحكام هذه الآية خمسة عشر حكماً إنّما هو بسبب إدغام بعض أحكام هذه الآية بالبعض الآخر.

٢ - إنّ جملة (واتقوا الله) وجملة (ويعلّمكم الله) رغم أنّهما ذكرتا في الآية بصورة مستقلّة وقد عطفت إحداهما على الأُخرى، ولكنّ اقترانهما معاً إشارة إلى الارتباط الوثيق بينهما، ومفهوم ذلك هو أنّ التقوى والورع وخشية الله لها أثر عميق في معرفة الإنسان وزيادة علمه واطّلاعه.

أجل عندما يتطهر قلب الإنسان من الشوائب بوسيلة التقوى فسيغدو كالمرآة الصافية تعكس الحقائق الإلهيّة، وهذا المعنى لا شكّ فيه ولا إشكال من جانبه المنطقي، لأنّ الصفات الخبيثة والأعمال الذميمة تشكّل حجباً على فكر الإنسان ولا تدعه يرى وجه الحقيقة كما هي عليه، وعندما يقوم الإنسان بإزاحة هذه الحجب بوسيلة التقوى فإنّ وجه الحقّ سيظهر ويتجلّى.

ولكنّ بعض الصوفيّين الجهلاء أساءوا الاستفادة من هذا المعنى وجعلوه دليلاً على ترك تحصيل العلوم الرسميّة في حين أنّ هذا الكلام يخالف الكثير من آيات القرآن والروايات الإسلامية الشريفة.

والحقّ أنّ بعض العلوم يجب اكتسابه عن طريق العلم والتعلّم بالشكل السائد والمتعارف، وقسمٌ آخر من العلوم الإلهيّة لا يتحصّل للإنسان إلّا بوسيلة تزكية القلب وتصفية الباطن بماء المعرفة والتقوى، وهذا هو النور الذي ورد في الروايات أنّ الله يقذفه في قلب من يليق بهذه الكرامة «العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء».

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

التّفسير

هذه الآية تكمل البحث في الآية السابقة وتشتمل على أحكام أُخرى:

١ - عند التعامل إذا لم يكن هناك من يكتب لكم عقودكم، كأن يقع ذلك في سفر،

عندئذ على المدين أن يضع شيئاً عند الدائن باسم الرهن لكي يطمئن الدائن ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

قد يبدو من ظاهر الآية لأول وهلة أنّ تشريع (قانون الرهن) يختصّ بالسفر، ولكن بالنظر إلى الجملة التالية وهي ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ يتبيّن أنّ القصد هو بيان نموذج لحالة لا يمكن الوصول فيها إلى كاتب، وعليه فللطرفين أن يكتفيا بالرهن حتى في موطنهما، وكذلك وردت الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام، وفي المصادر الشيعية والسنّيّة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رهن درعه في المدينة عند شخص غير مسلم واقترض منه مبلغاً من المال[١].

٢ - يجب أن يبقى الرهن عند الدائن حتى يطمئن ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

جاء في تفسير العيّاشي أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا رهن إلّا مقبوضة»[٢].

٣ - جميع هذه الأحكام - من كتابة العقد، واستشهاد الشهود، وأخذ الرهن - تكون في حالة عدم وجود ثقة تامّة بين الجانبين، وإلّا فلا حاجة إلى كتابة عقد، وعلى المدين أن يحترم ثقة الدائن به، فيسدّد دَينه في الوقت المعيّن، وأن لا ينسى تقوى الله ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

٤ - على الذين لهم علم بما للآخرين من حقوق في المعاملات أو في غيرها، إذا دعوا للإدلاء بشهادتهم أن لا يكتموها، لأنّ كتمان الشهادة من الذنوب الكبيرة ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾.

طبيعيّ أنّ الشهادة تجب علينا إذا لم يستطع الآخرون إثبات الحقّ بشهادتهم، أمّا إذا ثبت الحقّ فيسقط وجوب الإدلاء بالشهادة عن الآخرين، أي أنّ أداء الشهادة واجب كفائي.

وبما أنّ كتمان الشهادة والامتناع عن الإدلاء بها يكون من أعمال القلب، فقد نسب هذا الإثم إلى القلب[٣]، فقال: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ ومرّة أُخرى يؤكّد في ختام الآية ضرورة ملاحظة الأمانة وحقوق الآخرين: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) تفسير روح الجنان لأبي الفتوح الرازي: ج ٢، ص ٤٢٠، وتفسير المراغي ذيل الآية مورد البحث.
(٢) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٣٠١.
(٣) لتوضيح معنى القلب انظر الجزء الأوّل ص ٧٢. (المراد من القلب في القرآن هو الروح والعقل).

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

التّفسير

مالك كلّ شيء

هذه في الحقيقة تكملة للجملة الأخيرة في الآية السابقة وتقول: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولهذا السبب فهو يعلم جميع أفعال الإنسان الظاهريّة منها والباطنيّة ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾.

يعني لا ينبغي لكم أن تتصوروا أنّ أعمالكم الباطنيّة مثل كتمان الشهادة والذنوب القلبيّة الأُخرى سوف تخفى على الله تعالى الحاكم على الكون بأجمعه والمالك للسموات والأرض، فإنّه لا يخفى عليه شيء، فلا عجب إذا قيل إنّ الله تعالى يحاسبكم على ذنوبكم القلبيّة ويجازيكم عليها ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

ويحتمل أيضاً أنّ الآية أعلاه تشير إلى جميع الأحكام المذكورة في الآيات السابقة من قبيل الإنفاق الخالص والإنفاق المشوب بالرياء أو المنّة والأذى وكذلك الصلاة والصوم وسائر الأحكام الشرعيّة والعقائد القلبيّة.

في ختام الآية تقول: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو عالمٌ بكل شيء يجري في هذا العالم، وقادرٌ أيضاً على تشخيص اللّياقات والملكات، وقادرٌ أيضاً على مجازاة المتخلّفين.

ملاحظتان:

١ - قد يتصوّر أنّ هذه الآية مخالفة للأحاديث الكثيرة التي تؤكّد على النيّة المجرّدة، ولكنّ الجواب واضح، حيث إنّ تلك الأحاديث تتعلق بالذنوب التي لها تطبيقات خارجيّة وعمليّة بحيث تكون النيّة مقدّمة لها من قبيل الظلم والكذب وغصب حقوق الآخرين وأمثال ذلك، لا من قبيل الذنوب التي لها جنبة نفسيّة ذاتاً وتعتبر من الأعمال القلبيّة مثل (الشرك والرياء وكتمان الشهادة).

وهناك تفسير آخر لهذه الآية، وهو أنّه يمكن أن يكون لعمل واحد صور مختلفة، مثلاً

الإنفاق تارةً يكون في سبيل الله، وأُخرى يكون للرياء وطلب الشهرة، فالآية تقول: إنّكم إذا أعلنتم نيّتكم أو أخفيتموها فإنّ الله تعالى أعلم بها وسيجازيكم عليها، فهي في الحقيقة إشارة إلى مضمون الحديث الشريف «لا عمل إلّا بنيّة»(١).

٢ - من الواضح أنّ قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أنّ إرادته لا تكون بدون دليل، بل إنّ عفوه أيضاً يرتكز على دليل ومبرّر، وهو لياقة الشخص للعفو الإلهي، وهكذا في عقابه وعدم عفوه.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾

التّفسير

علائم الإيمان وطريقه

لقد شرعت سورة البقرة ببيان بعض المعارف الإسلامية والاعتقادات الحقّة واختتمت بهذه المواضيع أيضاً كما في الآية أعلاه والآية التي بعدها، وبهذا تكون بدايتها ونهايتها متوافقة ومنسجمة.

وقد ذكر بعض المفسّرين في سبب نزول هذه الآية أنّه حين نزلت الآية السابقة وأنّ الله تعالى يعلم ما في أنفسكم ويحاسبكم بما أظهرتم وأخفيتم في قلوبكم، خاف بعض الصحابة وقالوا: ليس أحدٌ منّا إلّا وفي قلبه خطرات ووساوس شيطانيّة، فعرضوا الأمر على رسول الله ﷺ فنزلت الآية أعلاه، وبيّنت طريق الحقّ والإيمان، ومنهج التضرّع والمناجاة والتسليم لأوامر الله تعالى(٢).

في البداية تقول ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ فهذا المعنى وهذه الخصيصة تعتبر من امتيازات الأنبياء الإلهيين جميعاً بأنّهم مؤمنون بما جاءوا به إيماناً قاطعاً، فلا شكّ ولا شبهة في قلوبهم عن معتقداتهم، فقد آمنوا بها قبل الآخرين واستقاموا وصبروا عليها قبل الآخرين.

(١) وسائل الشيعة: ج ١، ص ٣٣.
(٢) اقتباس من (البحر المحيط): ج ٢، ص ٣٦٣.

ونقرأ في الآية ١٥٨ من سورة الأعراف أنّ هذه الخصيصة تعتبر من صفات الرسول الأكرم ﷺ ومن امتيازاته حيث تقول: «فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته».

ثـمّ تضيف الآية الكريمة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾(١) وهذه الجملة الأخيرة من كلام المؤمنين أنفسهم، حيث يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين وشرائعهم بخلاف البعض من الناس الذين تقول عنهم الآية ١٥٠ من سورة النساء: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

المؤمنون لا يرون تفاوتاً بين رسل الله من جهة أنّهم مرسلون من قبل الله تعالى، ويحترمونهم ويقدّسونهم جميعاً. ومعلوم أنّ هذا الموضوع لا ينافي مقولة نسخ الشرائع السابقة بواسطة الشريعة البعديّة، لأنّه كما سبقت الإشارة إليه أنّ تعليمات الأنبياء وشرائعهم من قبيل المراحل الدراسيّة المختلفة من الابتدائية والمتوسطة والإعدادية والجامعة، فبالرغم من أنّها تشترك جميعاً في الأُصول والمبادئ الأساسيّة، إلّا أنّها تختلف في السطوح والتطبيقات المختلفة، فعندما يرتقي الإنسان إلى مرحلة أسمى فإنّه يترك البرامج المعدّة للمرحلة السابقة ويأخذ بالبرامج المعدّة لهذه المرحلة، ومع ذلك يبقى احترامه وتقديسه للمرحلة السابقة في محلّه.

ثمّ تضيف الآية أنّ المؤمنين مضافاً إلى إيمانهم الراسخ والجامع فإنّهم في مقام العمل أيضاً كذلك ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

(سمعنا) وردت في بعض الموارد بمعنى فهمنا وصدّقنا من قبيل هذه الآية، أي أنّنا قبلنا دعوة أنبيائك بجميع وجودنا وعلى استعداد تام للإطاعة والاتّباع.

ولكن يا إلهنا وربّنا نحن بشر وقد تتسلط علينا الغرائز والأهواء وتجرّنا إلى المعصية أحياناً، ولهذا ننتظر عفوك ونتوقع منك المغفرة لأنّ مصيرنا إليك(٢).

وبهذا يتناغم الإيمان بالمبدأ والمعاد مع الالتزام العملي بجميع الأحكام الشرعيّة والدساتير الإلهيّة.

---

(١) جملة «والمؤمنون» يمكن أن تكون جملة مستأنفة كما ذكر في التفسير أعلاه ويمكن أن تكون معطوفة على (الرسول) ولا يختلف المعنى كثيراً وإن كان المعنى الأول أنسب.

(٢) ذهب كثير من المفسّرين إلى أنّ في الجملة الأخيرة فعل محذوف وتقديره (نسألك) أو (نريد غفرانك).

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

التّفسير

عدّة حاجات مهمّة

كما تقدّم في تفسير الآية السابقة أنّ هاتين الآيتين تتعلّقان بالأشخاص الّذين استوحشوا من تعبير الآية السابقة في أنّ الله تعالى مطّلع على نيّاتهم وسيحاسبهم ويجازيهم عليها فقالوا: لا أحد منّا يصفو قلبه عن الوسوسة والخطرات القلبيّة.

فالآية الحاضرة تقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

(الوسع) لغة تعني القدرة والاستيعاب، وعليه فإنّ الآية تؤيّد الحقيقة المنطقيّة القائلة إنّ التكاليف والفرائض الإلهيّة لا تتجاوز طاقة الأفراد وميزان تحمّلهم إطلاقاً، لذلك يمكن القول بأنّ كلّ الأحكام يمكن تقييدها وتفسيرها بهذه الآية حيث تتحدّد في إطار قدرة الإنسان، ومن البديهي أنّ المشرّع الحكيم والعادل لا يمكن أن يضع قانوناً على نحو آخر.

كما أنّ الآية تؤكّد أنّ الأحكام الشرعيّة لا تنفصل أبداً عن أحكام العقل والحكمة، بل هي متواكبة معها في كلّ المراحل.

ثمّ تضيف الآية: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

أجل فإنّ كلّ شخص يحصد ما جنته يداه حسناً كان أو سيئاً، وسيواجه في هذا العالم أو في العالم الآخر نتائج وعواقب هذه الأعمال، فالآية تنبّه الناس إلى مسؤولياتهم وعواقب أعمالهم، وتفنّد الأساطير التي تبرئ بعض الناس من عواقب أعمالهم، أو تجعلهم مسؤولين عن أعمال الآخرين دون دليل.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الآية تطلق على الأعمال الصالحة اسم (الكسب) وعلى الأعمال السيّئة اسم (الاكتساب). ولعلّ السبب هو أنّ (الكسب) يستعمل بالنسبة إلى الأمور التي يحقّقها المرء برغبة داخلية وبلا تكليف وهي تناسب فطرته، بينما

(الاكتساب) هو النقطة المقابلة للكسب، أي الأعمال التي تنافي الفطرة وطبيعة الإنسان، يُفهم من هذا أنّ الأعمال الصالحة مطابقة لمسيرة الفطرة وطبيعة الإنسان، بينما أعمال الشرّ تخالف الفطرة والطبيعة.

أمّا الراغب الإصفهاني في (مفرداته) فيرى رأياً غير هذا وجدير بالملاحظة يقول: الكسب ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظّ ككسب المال، ويقال فيما أخذه لنفسه ولغيره (كأعمال الخير التي لا تقتصر فائدتها على الفاعل وحده، بل قد تعمّ الأقارب وغيرهم) في حين أنّ الاكتساب لا يقال إلّا فيما تعود نتائجه على الفاعل نفسه، وهو الذنب، هذه الاختلافات في المعنى تصلح طبعاً عندما تستعمل الواحدة في قبال الأُخرى.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

لمّا كان المؤمنون يعرفون أنّ مصيرهم يتحدّد بما كسبت أيديهم من أعمال صالحة أو سيئة بموجب قانون (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) لذلك يتضرّعون ويخاطبون الله بلفظ (الرب) الذي يوحي بمعاني اللّطف في النشأة والتربية قائلين: إذا كنّا قد أذنبنا بسبب النسيان أو الخطأ، فاغفر لنا ذنوبنا برحمتك الواسعة وجنّبنا العقاب.

العقاب على النسيان والخطأ

لماذا الدعاء لأن يغفر الله الذنوب المرتكبة نسياناً أو خطأً؟

فهل الله يعاقب على مثل هذه الذنوب؟

في الجواب لا بدّ من القول بأنّ النسيان يكون أحياناً من باب التماهل والتساهل من جانب الإنسان نفسه، بديهيّ أنّ هذا النوع من النسيان لا يضع المسؤولية عن الإنسان، كما جاء في القرآن: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾[1] وعليه فإنّ النسيان الناشئ عن التساهل يوجب العقاب.

ثمّ لا بدّ من ملاحظة أنّ هناك فرقاً بين النسيان والخطأ، فالخطأ يقال عادة في الأُمور التي تقع لغفلة من الإنسان وعدم انتباه منه، كأن يطلق رصاصة ليصيد صيداً فتصيب رصاصته إنساناً فتجرحه، أمّا النسيان فهو أن يتّجه الإنسان للقيام بعمل ما ولكنّه ينسى كيف يقوم بذلك، كأن يعاقب المرء إنساناً بريئاً ظنّاً منه أنّه المذنب، لنسيانه مميّزات المذنب الحقيقي.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٤.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

(الإصر) عقد الشيء وحبسه. وتطلق على الحمل الثقيل الذي يمنع المرء من الحركة، وكذلك العهد المؤكّد الذي يقيّد الإنسان، ولهذا تطلق هذه الكلمة على العقاب أيضاً.

وفي هذا المقطع من الآية يطلب المؤمنون من الله تعالى طلبين: الأوّل أن يرفع عنهم الفروض الثقيلة التي قد تمنع الإنسان من إطاعة الله، وهذا هو ما ورد على لسان النبيّ ﷺ بشأن التعاليم الإسلامية، إذ قال: «بعثت بالشريعة السهلة السمحة»(١).

هنا قد يسأل سائل: إذا كانت السهولة والسماحة في الدين جيّدة، فلماذا لم يكن للأقوام السابقة مثلها؟

في الجواب نقول: تفيد آيات في القرآن أنّ التكاليف الشاقّة لم تكن موجودة في أصل شرائع الأديان السابقة، بل فرضت كعقوبات على أثر عصيان تلك الأقوام وعدم إطاعتها، كحرمان بني إسرائيل من أكل بعض اللّحوم المحلّلة بسبب عصيانهم المتكرّر(٢).

وفي الطلب الثاني يريدون منه أن يعفيهم من الامتحانات الصعبة والعقوبات التي لا تطاق ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾. ونرى في الفقرة السابقة صيغة (لا تحْمل)، وهنا نرى عبارة (لا تحمّل)، فالأُولى تستعمل عادة في الأُمور الصعبة، والثانية فيما لا يطاق.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾.

(عفا) بمعنى أزال آثار الشيء، وأكثر استعمالها مع الذنب بمعنى محو آثار الإثم، وتشمل الآثار الطبيعية والآثار الجزائية والعقوبات.

أمّا (الغفران) فتعني أن يصون الله العبد من أن يمسّه العذاب عقوبة على ذنبه.

وعليه، فإنّ استعمال الكلمتين يفيد أنّ المؤمنين طلبوا من الله أن يزيل الآثار التكوينية والطبيعية لزللهم عن أرواحهم ونفوسهم، لكي لا تصيبهم عواقبها السيّئة. كما أنّهم طلبوا منه أن لا يقعوا تحت طائلة عقابها. وفي المرحلة الثالثة يطلبون (رحمته الواسعة) التي تشمل كلّ شيء.

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٥، ص ٣١٩ ط بيروت، وورد مثله في فروع الكافي: ج ٥، ص ٤٩٤ باب كراهة الرهبانية.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦، وسورة النساء، الآية: ١٦٠.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

وفي آخر دعواهم يخاطبون الله على أنّه مولاهم الذي يتعهّدهم بالرعاية والتربية ويطلبون منه أنْ يمنحهم الفوز والانتصار على الأعداء.

في هاتين الآيتين خلاصة لسورة البقرة كلّها، وهما تهديانا إلى روح التسليم أمام ربّ العالمين، وتشيران إلى أن المؤمنين إذا أرادوا من الله أن يغفر لهم زلّاتهم وأن ينصرهم على الأعداء كافّة، فلابدّ لهم أن ينفذوا برنامج (سمعنا وأطعنا) أي أن يقولوا: إنّنا سمعنا دعوات الداعين وقبلناها بكلّ جوارحنا وإنّنا متّبعوها، ولن ندّخر وسعاً في حثّ السير على هذا السبيل، وعندئذ لهم أن يطلبوا الانتصار على الموانع والأعداء.

إنّ تكرار كلمة (ربّ) أي الذي يلطف بعباده ويربّيهم يكمل هذه الحقيقة، ولهذا حثّنا أئمّة الدين في أحاديثهم على قراءة هاتين الآيتين، وبيّنوا ما فيهما من أبواب الثواب، فإذا تناغم اللّسان والقلب في تلاوتهما ولم تكن التلاوة مجرّد ألفاظ تجري على اللّسان، تغدو حينئذ برنامجاً حياتياً، فإنّ تلاوتهما تربط بين القلب وخالق الكون، وتضفي الصفاء على الروح وتكون عاملاً على التحرّك والنشاط.

يستفاد جيّداً من هذه الآية أنّ (التكليف بما لايطاق) لا يوجد في الشريعة المقدّسة، لا في الإسلام ولا في الأديان الأُخرى، والأصل هو حريّة الإنسان وإرادته لأنّ الآية تقول: إنّ كلّ إنسان يلاقي جزاء أعماله الحسنة والسيئة، فما عمله من حسنات فسيعود إليه، وما ارتكبه من سيئات فعليه، ومن هذا المنطلق يكون طلب العفو والمغفرة والصفح.

وهذا المعنى يتطابق تماماً مع منطق العقل ومسألة الحسن والقبح، لأنّ الله تعالى حكيم ولا يمكن أن يكلّف العباد بما لا طاقة لهم به، وهذا بنفسه دليل على نفي مسألة الجبر، فكيف يحتمل أنّ الله تعالى يجبر العباد على ارتكاب الذنب والإثم وفي نفس الوقت ينهاهم عنه؟!

ولكنّ التكاليف الشاقّة والصعبة ليست بالأمر المحال كما قرأنا عن تكاليف بني إسرائيل الشاقّة، وهذه التكاليف أيضاً ناشئة من أعمالهم وعبارة عن عقوبة لما ارتكبوه من آثام.

سورة آل عمران

مدنيّة وعدد آياتـها مئتان

فضيلة تلاوة هذه السورة

ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ قوله: «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكلّ آية منها أماناً على جسر جهنم»(١).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «من قرأ البقرة وآل عمران جاء يوم القيامة يظلّانه على رأسه مثل الغمامتين»(٢).

محتوى السورة

ذهب بعض المفسّرين المعروفين إلى أنّ هذه السورة نزلت بين السنة الثانية والثالثة للهجرة أي بين غزوة بدر وأُحد فهي تعكس في طيّاتها فترة من أشد الفترات حساسيّة في صدر الإسلام(٣).

وعلى كلّ حال، فإنّ المحاور الأصلية في أبحاث هذه السورة عبارة عن:

١ - إنّ قسماً مهمّاً من هذه السورة يرتبط بمسألة التوحيد وصفات الله والمعاد والمعارف الإسلامية الأُخرى.

٢ - وقسم آخر منها يتعلّق بمسألة الجهاد وأحكامه المهمّة والدقيقة، وكذلك الدروس المستفادة من غزوتي بدر وأُحد، وبيان الإمداد الإلهي للمؤمنين، والحياة الخالدة الأُخرويّة للشهداء في سبيل الله.

٣ - وفي قسم من هذه السورة يدور الحديث حول سلسلة من الأحكام الإسلامية في ضرورة وحدة صفوف المسلمين وفريضة الحجّ وبيت الله الحرام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتولّي والتبرّي ومسألة الأمانة والإنفاق في سبيل الله وترك الكذب وضرورة الاستقامة والصبر في مقابل الأعداء والمشكلات والامتحانات الإلهيّة المختلفة وذكر الله على كلّ حال.

٤ - وتطرّقت هذه السورة إلى تكملة للأبحاث التي تتحدّث عن تاريخ الأنبياء عليهم السلام

---

(١) تفسير مجمع البيان: ج ١، ص ٤٠٥. (٢) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٣٠٩.

(٣) تشير الآية (١٣) إلى «غزوة بدر» ومن آية (١٢١) إلى (١٢٨) تشير إلى غزوة بدر وأُحد، ثمّ تعقب في الآيات (١٣٩) إلى (١٤٤) إلى نفس المسألة وكذلك الآيات الأُخرى.

ومنهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء وقصّة مريم وكرامتها ومنزلتها عند الله، وكذلك المؤامرات التي كان يحوكها أتباع الديانة اليهوديّة والمسيحيّة ضدّ الإسلام والمسلمين.

إنّ مواضيع هذه السورة منسجمة ومتناغمة بشكل كأنّها نزلت في وقت واحد.

❁ ❁ ❁

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين: إنّ ثمانين آية ونيفاً من هذه السورة قد نزلت في وفد مسيحيّي نجران(١) الذي قدم المدينة للتحقيق في أمر الإسلام.

كان الوفد يتألّف من ستّين شخصاً، فيهم أربعة عشر شخصاً من أشراف نجران وشخصيّاتها، ثلاثة من هؤلاء الأربعة عشر كانت لهم صفة الرئاسة، وإليهم يرجع المسيحيّون لحلّ مشاكلهم، أحدهم يدعى (عاقب) ويسمّى (عبد المسيح) أيضاً، كان زعيم قومه المطاع بينهم. والثاني يدعى (السيّد) ويسمّونه (ايهم) أيضاً، وهو المسؤول عن تنظيم برنامج الرحلة ومعتمد المسيحيّين، والثالث (أبو حارثة) وكان عالماً وصاحب نفوذ، وبنيت كنائس عديدة باسمه، وحفظ عن ظهر قلب جميع كتب المسيحيّين الدينية.

دخل هؤلاء المدينة وهم بملابس قبيلة بني كعب، وجاؤوا إلى مسجد النبيّ ﷺ. كان النبيّ ﷺ قد انتهى من صلاة العصر مع المسلمين، وأثار هؤلاء انتباه المسلمين بملابسهم اللّامعة الملوّنة الزاهية حتى قال بعض صحابة النبيّ ﷺ: ما رأينا مبعوثين بهذا الجمال!

---

(١) «نجران» منطقة في جبال اليمن الشمالية على بعد نحو عشرة منازل من صنعاء، وتسكنها قبائل همدان التي كان لها في الجاهلية صنم باسم «يعوق». ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: نجران اسم لعدد من المواضع.

وعندما وصلوا إلى المسجد كان موعد صلاتهم قد أزف، فقرعوا نواقيسهم بحسب طقوسهم واتّجهوا نحو الشرق وشرعوا يصلّون، فحاول بعض أصحاب النبيّ ﷺ أن يمنعهم، إلّا أنّ رسول الله ﷺ طلب من الصحابة أن يتركوهم وشأنهم.

وبعد الصلاة أقبل (عاقب) و(السيّد) على رسول الله ﷺ وبدءا يحادثانه، فدعاهم الرسول ﷺ إلى الدخول في الإسلام والاستسلام لله.

قالا: قد أسلمنا قبلك.

قال: كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير.

قالا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى.

فقال لهم النبيّ ﷺ: ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا ويشبه أباه؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّم على كلّ شيء ويحفظه ويرزقه؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟

قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك إلّا ما علّم؟

قالوا: لا.

قال: فإنّ ربّنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء وربّنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث.

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته أُمّه كما تحمل المرأة، ثمّ وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثمّ غذّي كما يغذّى الصبيّ، ثمّ كان يطعم ويشرب ويحدث؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا فأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية[1].

---

(١) تفسير مجمع البيان: ج ١، ص ٤٠٦؛ وتفسير الميزان، ج ٣، ص ١٥.

التّفسير

تفسير الحروف المقطّعة بالعقول الإلكترونية

فيما يتعلّق بالحروف المقطّعة في القرآن، سبق الحديث عنها في بداية سورة البقرة، فلا موجب لتكرار ذلك. وما ينبغي عرضه هنا هو النظرية المثيرة التي تقدّم بها مؤخّراً عالم مصري نورد هنا خلاصة لها لأهميّتها، لا شكّ أنّ الحكم على صحتها أو بطلانها يستلزم بحوثاً دقيقة يقع عبؤها على الأجيال القادمة، إنّما نوردها كنظرية لا غير(١).

مجلة (آخر ساعة) المصرية المعروفة نشرت تقريراً عن تحقيقات عجيبة قام بها عالم مصري مسلم بخصوص تفسير بعض آيات القرآن المجيد بوساطة العقول الإلكترونية أثارت إعجاب الناس في مختلف أنحاء العالم.

تلك التحقيقات التي أجراها الدكتور (رشاد خليفة) العالم الكيمياويّ المصري خلال ثلاث سنوات متواصلة، أثبتت أنّ هذا الكتاب السماويّ العظيم ليس من نتاج عقل بشري، وأنّ الإنسان غير قادر على الإتيان بمثله.

أجرى الدكتور رشاد تحقيقاته في مدينة (سانت لويس) بمقاطعة (ميسوري) الأمريكية واستخدم في تحقيقاته العقول الإلكترونية لفترات طويلة مع أنّ أُجرتها في كلّ دقيقة ١٠ دولارات تبرّع بها المسلمون المقيمون هناك.

كان كلّ جهد الأُستاذ المذكور ينصبّ على معرفة معاني الحروف المقطّعة في القرآن، مثل (ق، الم، يس). لقد استطاع بحسابات معقّدة أن يثبت وجود علاقة قوية بين هذه الحروف والسورة التي تقع في صدرها (فتأمّل).

لقد استعان بالعقل الإلكتروني لإجراء تلك الحسابات الخاصّة لمعرفة أعداد حروف السور ونسبة وجود كلّ حرف منها، لا لتفسير القرآن.

ولولا هذه الأجهزة ما استطاع أحد أن يجري تلك الحسابات على الورق.

والآن نوجز الاكتشافات التي توصّل إليها العالم المصري: يقول الدكتور رشاد: نعلم أنّ القرآن يضمّ ١١٤ سورة، منها ٨٦ سورة نزلت في مكّة و٢٨ سورة في المدينة، ومن بين مجموع سور القرآن ٢٩ سورة تبدأ بحروف مقطعة.

---

(١) مع الأسف أنّ هذا العالم الذي يعيش في أمريكا، وقع تحت تأثير المحيط الفاسد هناك وقد أنكر بصراحة بعض المسائل والأحكام الإسلامية المسلمة وتبنّى ادعاءات باطلة.

من الجدير بالذكر أنّ مجموع هذه الحروف يبلغ نصف حروف الهجاء العربية، وهي (أ - ح - ر - س - ص - ط - ع - ق - ك - ل - م - ن - ه - ي) وقد يصفونها بالحروف النيّرة.

يقول الدكتور: منذ سنوات وأنا أحبّ أن أعرف معنى هذه الحروف التي تبدو في الظاهر أنّها مقطّعة وتتصدّر بعض السور، وعلى الرغم من رجوعي إلى تفاسير مشاهير المفسّرين فلم أعثر لديهم على جواب مقنع، فاستعنت بالله واتّكلت عليه وبدأت بحثي:

خطر لي مرّة أنّه ربما تكون هناك علاقة بين هذه الحروف وحروف كلّ سورة تتصدّرها، غير أنّ دراسة الحروف النيّرة الأربعة عشر كلّها ضمن حروف سور القرآن المائة وأربعة عشر واستخراج نسبة كلّ حرف والحسابات الكثيرة الأُخرى لم تكن من الأُمور التي يمكن إجراؤها دون الاستعانة بالعقول الإلكترونية، لذلك شرعت أوّلاً بتعيين تلك الحروف منفردة في جميع سور القرآن، ثمّ تعيين مجموع حروف كلّ سورة، وأعطيتها جميعاً إلى العقل الإلكتروني مع رقم كلّ سورة (لغرض القيام بالحسابات المعقّدة المطلوبة فيما بعد). لقد استغرق هذا العمل مع مقدّماته سنتين من الزمان.

ثمّ عملت على العقل الإلكتروني لإجراء تلك الحسابات مدّة سنة كاملة، كانت النتائج لامعة جدّاً، وكشف الستار لأوّل مرّة في تاريخ الإسلام عن حقائق مذهلة أكّدت إعجاز القرآن (إضافة إلى أُمور أُخرى) من الناحية الرياضية ونسبة حروف القرآن.

لقد أوضحت لنا حسابات العقل الإلكتروني نسبة وجود كلّ من الحروف الأربعة عشر في كلّ سورة من سور القرآن المائة وأربعة عشر.

فمثلاً بالحسابات وجدنا أن نسبة حرف القاف، وهو أحد الحروف النورانية في القرآن في سورة (الفلق) تحوز أعلى نسبة (٧٠٠/ ٦٪) وتحوز المرتبة الأولى بين سور القرآن، طبعاً باستثناء سورة (ق). بعدها تأتي سورة (القيامة) التي يبلغ فيها عدد حروف القاف بالنسبة إلى حروف السورة (٩٠٧/ ٣٪)، ثمّ تأتي سورة (والشمس) ونسبتها (٩٠٦/ ٣٪).

ونلاحظ من ذلك أنّ الفرق بين سورة (القيامة) وسورة (والشمس) يبلغ(٠٠١/ ٠٪).

وهكذا استخرجنا هذه النسبة في ١١٤ سورة لهذا الحرف ولسائر الحروف النورانية الأُخرى، وبذلك ظهرت نسبة مجموعة حروف كلّ سورة إلى كلّ حرف من الحروف النورانية.

وفيما يلي النتائج المثيرة التي توصّل إليها التحقيق:

١ - نسبة حرف (ق) في سورة (ق) أكثر من نسبتها في أية سورة أُخرى بدون استثناء، أي أنّ الآيات التي نزلت طوال ٢٣ سنة - وهي فترة نزول القرآن - في ١١٣ سورة استعملت فيها القاف بنسبة أقل، إنّه مثير ومدهش أن يكون إنسان قادر على مراقبة تعداد كلّ حرف من الحروف التي يستعملها على مدى ٢٣ سنة، وفي الوقت نفسه يعرب بكلّ طلاقة وبدون أي تكلّف عمّا يريد بيانه، لا شكّ أنّ أمراً كهذا خارج عن نطاق قدرة الإنسان، بل إنّ مجرّد حساب ذلك يتعذّر على أعظم العقول الرياضية بدون الالتجاء إلى العقل الإلكتروني.

وهذا كلّه يدلّ على أنّ سور القرآن وآياته ليست وحدها الموضوعة وفق حساب معيّن، بل حتى حروفه موضوعة بحساب ونظام خاصّ لا يقدر عليه سوى الله تعالى.

كذلك دلّت الحسابات على أنّ حرف (ص) في سورة (ص) له هذه الخاصيّة نفسها، أي نسبة وجوده في هذه السورة أكثر من نسبة وجوده في أية سورة أُخرى من سور القرآن.

كما أنّ حرف (ن) في سورة (ن والقلم) يمتاز بنسبة أعلى من وجوده في أية سورة أُخرى.

الاستثناء الوحيد هو سورة (الحجر) التي فيها نسبة الحرف (ن) أكثر من سورة (ن والقلم). ولكن ما يلفت هو أنّ سورة (الحجر) تبدأ بالحروف (الر). وسنجد أنّ السور التي تبدأ بحروف (الر) يجب أن تعتبر بحكم السورة الواحدة. فإذا فعلنا ذلك نصل إلى النتيجة المطلوبة أي أنّ عدد حرف (ن) في هذه السور سوف يكون أقلّ مما في سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾.

٢ - حروف (المص) في بداية سورة الأعراف إذا حسبنا حروف الألف والميم والصاد في هذه السورة نجدها أكثر ممّا هي في أية سورة أُخرى.

كذلك (المر) في بداية سورة (الرعد)، و(كهيعص) في بداية سورة (مريم)، إذا حسبت الأحرف الخمسة كان عددها في هذه السورة أكثر ممّا هو في السور الأُخرى.

وهنا تواجهنا ظاهرة جديدة، فالحرف الواحد ليس هو وحده الذي يرد بحساب في السور، بل إنّ مجموعات الأحرف أيضاً تأتي هكذا بشكل مدهش.

٣ - كان الكلام حتى الآن يدور على الحروف التي تتصدّر سورة واحدة من سور القرآن، أمّا الحروف التي تتصدّر سوراً متكرّرة، مثل (الر، الم) فإنّها تتّخذ شكلاً آخر، فالحسابات الإلكترونية تقول إنّ مجموع هذه الحروف الثلاثة، مثلاً (ال م) إذا حسبت

في مجموع السور التي تتصدّرها، وتستخرج نسبتها إلى مجموع حروف هذه السور، نجد أنّ هذه النسبة أكبر من نسبة وجودها في السور الأُخرى من القرآن.

هنا أيضاً تتّخذ المسألة شكلاً مثيراً وهو أنّ حروف كلّ سورة من سور القرآن ليست هي وحدها التي تقع تحت الضبط والحساب، بل إنّ مجموع حروف السور المتشابهة تقع تحت حساب متشابه أيضاً.

وبهذه المناسبة يتّضح أيضاً لماذا تبدأ عدّة سور مختلفة بالحروف (الم) أو (الر) وهذا لم يكن من باب المصادفة والاتّفاق.

يقوم الدكتور رشاد بحسابات أعقد على السور التي تتصدّرها (حم) لا نتطرّق إليها اختصاراً.

ويصل الأستاذ المذكور من خلال دراساته هذه إلى حقائق واستنتاجات أُخرى أيضاً نوردها للقرّاء الكرام:

١ - لا بدّ من الإبقاء على إملاء القرآن الأصلي

يقول الدكتور: إنّ هذه الحسابات تصحّ في حالة الإبقاء على الإملاء الأصلي في كتابة القرآن، مثل: اسحق وزكوة وصلوة، فلا نكتبها اسحاق وزكاة وصلاة، وإلّا فإنّ الحسابات تختل.

٢ - دليل على عدم تحريف القرآن

هذه التحقيقات تدلّ على أنّ أيّ تحريف - ولو في كلمة واحدة - لم يطرأ على القرآن من حيث الزيادة والنقصان، وإلّا لما ظهرت هذه الحسابات على هذه الصورة.

٣ - إشارات عميقة المعنى

في كثير من السور التي تبدأ بالحروف المقطّعة نلاحظ أنّه بعد الحروف تأتي الإشارة إلى صدق القرآن وعظمته، مثل:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[1]، وهذا في نفسه إشارة ظريفة إلى علاقة هذه الحروف بإعجاز القرآن.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١ و ٢.

نتيجة البحث

نستنتج من هذا البحث أنّ حروف القرآن الكريم الذي نزل على رسول الله ﷺ على مدى ٢٣ سنة تنتظم في حساب دقيق، فكلّ حرف من حروف الهجاء له مع مجموع حروف كلّ سورة نسبة رياضية دقيقة بحيث إنّ الحفاظ على هذا التنظيم والحساب يتعذّر على البشر بدون العقول الإلكترونية.

لا شكّ أنّ التحقيقات التي أجراها العالم المذكور ما زالت في بداية الطريق ولا تخلو من النقائص، فيجب أن تتظافر جهود الآخرين للتغلّب عليها.

في الآية الثانية يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾.

سبق أن شرحنا هذه الآية في سورة البقرة في الآية ٢٥٥.

الآية التي تليها تخاطب نبيّ الإسلام ﷺ وتقول: إنّ الله تعالى قد أنزل عليك القرآن الذي فيه دلائل الحقّ والحقيقة، وهو يتطابق تماماً مع ما جاء به الأنبياء والكتب السابقة (التوراة والإنجيل) التي بشّرت[1] به وقد أنزلها الله تعالى أيضاً لهداية البشر: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾. ثمّ تضيف الآية ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾.

وبعد إتمام الحجّة بنزول الآيات الكريمة من الله تعالى وشهادة الفطرة والعقل على صدق دعوة الأنبياء، فلا سبيل للمخالفين سوى العقوبة، ولذلك تقول الآية محلّ البحث بعد ذكر حقّانيّة الرسول الأكرم ﷺ والقرآن المجيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

ومن أجل أن لا يتوهّم أحد أو يشك في قدرة الله تعالى على تنفيذ تهديداته تضيف الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[2].

(عزيز) في اللّغة بمعنى كلّ شيء صعب وغير قابل للنفوذ، ولذلك يقال للأرض الصعبة العبور (عزاز) وكذلك يطلق على كلّ أمر يصعب الحصول عليه لقلّته وندرته (عزيز) وكذلك تطلق هذه الكلمة على الشخص القويّ والمقتدر الذي يصعب التغلّب عليه أو يستحيل التغلّب عليه، وكلّما أطلقت كلمة (عزيز) على الله تعالى يراد بها هذا

---

(١) انظر الجزء الأول ص ١٤٦ في تفسير الآية ٤٠ من سورة البقرة، شرح ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

(٢) ذكر بعض المفسّرين أن «ذو» لها معنىً أقوى من «صاحب» ولذلك لا نجد في صفات الله أنها تذكر مع كلمة صاحب بل تذكر دائماً مع كلمة «ذو» البحر المحيط: ج ٢، ص ٣٧٩.

المعنى، أي أنّه لا أحد يقدر على التغلّب عليه، وأنّ كلّ المخلوقات خاضعة لمشيئته وإرادته.

وفي الجملة الآنفة الذكر ولكي يعرف الكفّار أنّ هذا التهديد جادّ تماماً تذكّرهم الآية بأنّ الله عزيزٌ، أي أنّه قاهر وما من أحد يستطيع أن يقف في وجه تنفيذ تهديداته وأنّه في الوقت الذي يكون فيه غفوراً رحيماً يكون شديد العقاب بالنسبة لمن لا يستحقّون هذه الرحمة.

كلمة (الانتقام) تستعمل غالباً في مفهومنا الحالي في لجوء شخص لا يستطيع أن يتسامح مع الآخرين ويغفر لهم أخطاءهم إلى عمل مقابل قد يكون عنيفاً لا يأخذ حتّى مصلحته الخاصّة بنظر الاعتبار، وبديهيٌّ أنّ هذه الصفة مذمومة، إذ إنّ على الإنسان في كثير من الحالات أن يعفو ويغفر بدلاً من الانتقام، ولكنّ (الانتقام) في اللّغة ليس بهذا المعنى بل يعني إنزال العقاب بالمجرم، ولا شكّ أنّ معاقبة المجرمين العصاة فضلاً عن كونها من الأُمور الحسنة فإنّه لا يجوز التهاون فيها وإهمالها لأنّ ذلك يجانب العدالة والحكمة.

هنا لا بدّ من ملاحظة ما يلي:

١ - أصل (الحقّ) المطابقة والموافقة، لذلك يقال لما يطابق الواقع (الحق). كما أنّ وصف الله بالحقّ ناشئ من كون ذاته القدسية أعظم واقع غير قابل للإنكار. وبعبارة أُخرى (الحق) هو الموضوع الثابت المكين الذي لا باطل فيه.

والباء في (الحق) في هذه الآية للمصاحبة، أي يا أيّها النبيّ لقد أنزل عليك الله القرآن مصحوباً بدلائل الحقّ.

٢ - (التوراة) لفظة عبرية تعني (الشريعة والقانون)[1]، وأُطلقت على الكتاب الذي أنزل الله على موسى بن عمران عليه السلام. وقد تطلق أيضاً على مجموعة كتب العهد القديم أو أسفاره الخمسة.

إنّ مجموعة كتب العهد القديم تتألّف من التوراة وعدد من الكتب الأُخرى. والتوراة تتألّف من خمسة أقسام، كلّ قسم يسمّى (سفراً) وهي: (سفر التكوين) و(سفر الخروج) و(سفر لاوي) و(سفر الاعداد) و(سفر التثنية)، هذه الأقسام من العهد القديم تشرح تكوين العالم والإنسان والمخلوقات وبعضاً من سير الأنبياء السابقين وموسى بن عمران وبني إسرائيل والأحكام.

---

(١) تفسير الميزان، ج ٣، ص ٩.

أمّا الكتب الأُخرى فهي ما كتبه المؤرّخون بعد موسى عليه السلام في شرح أحوال الأنبياء والملوك والأقوام التي جاءت بعد موسى بن عمران عليه السلام.

بديهيّ أنّ هذه الكتب - عدا الأسفار الخمسة - ليست كتباً سماوية واليهود أنفسهم لا يدّعون ذلك، وحتى (زبور) داود الذي يطلقون عليه اسم (المزامير) هو شرح مناجاة داود ومواعظه.

أمّا أسفار التوراة الخمسة ففيها دلائل تشير إلى أنّها ليست من الكتب السماوية، بل هي كتب تاريخية دوّنت بعد موسى بن عمران عليه السلام، إذ فيها بيان موت موسى عليه السلام ومراسيم دفنه، وبعض الحوادث التي وقعت بعده، على الأخصّ الفصل الأخير من سفر التثنية الذي يثبت أنّ هذا الكتاب قد كتب بعد موت موسى عليه السلام.

يضاف إلى ذلك أنّ في هذه الكتب الكثير من الخرافات وهي تنسب أُموراً فاضحة للأنبياء، وبعض الأقوال الصبيانية، ممّا يؤكّد زيف هذه الكتب، والشواهد التاريخية تؤكّد أنّ التوراة الأصلية قد ضاعت، وأنّ أتباع موسى هم الذين كتبوا هذه الكتب بعده[١].

٣ - (الإنجيل) كلمة يونانية بمعنى (البشارة) أو (التعليم الجديد)[٢] وتطلق على الكتاب الذي نزل على عيسى بن مريم عليه السلام. ومن الجدير بالتنويه أنّ القرآن كلّما أورد اسم كتاب عيسى عليه السلام (الإنجيل) جاء به مفرداً وعلى أنّه قد نزل من الله. وعليه فإنّ الأناجيل المتداولة بين أيدي المسيحيّين، وحتى الأشهر منها، وهي الأناجيل الأربعة (لوقا، ومُرقُس، ومتّى، ويوحنا) ليست من الوحي الإلهي، وهذا ما لا ينكره المسيحيّون أنفسهم، إذ يقولون إنّ هذه الأناجيل قد كتبت بأيدي تلامذة السيّد المسيح عليه السلام بعده بمدّة طويلة، ولكنّهم يزعمون أن أُولئك التلامذة قد كتبوها بإلهام من الله.

هنا يحسن بنا أن نتعرّف - ولو بإيجاز - على (العهد الجديد) والأناجيل وكتّابها:

إنّ أهم كتاب ديني عند المسيحيّين والذي يعتمدونه على أنه كتاب سماوي هو المجموعة التي يطلق عليها اسم (العهد الجديد).

(العهد الجديد) الذي يبلغ نحو ثلث (العهد القديم) يتألّف من ٢٧ كتاباً ورسالة تشمل موضوعات عامّة متناثرة ومختلفة، على النحو التالي:

---

(١) انظر «الهدى إلى دين المصطفى» و«الرحلة المدرسية».

(٢) تفسير الميزان، ج ٣، ص ٩.

١ - إنجيل متّى[١]: وهو الإنجيل الذي كتبه (متّى) أحد حواريّي المسيح الاثني عشر في سنة ٣٨ ميلادية، وبعض يقول في سنة ٥٠ أو ٦٠ ميلادية[٢].

٢ - إنجيل مُرقُس[٣]: بحسب ما جاء في كتاب (القاموس المقدّس) صفحة ٧٩٢، لم يكن مُرقُس من الحواريّين، ولكنّه كتب إنجيله بإشراف (بطرس). قتل مُرقُس سنة ٦٨م.

٣ - إنجيل لوقا: كان (لوقا) رفيق سفر (بولس) الرسول، كان (بولس) على عهد المسيح يهودياً متعصّباً، ولكنه اعتنق المسيحية بعده. يقال إنّه توفي في سنة ٧٠ م، وحسبما يقول مؤلّف (القاموس المقدّس) ص ٧٧٢: (إنّ تاريخ كتابة إنجيل لوقا يعود إلى حوالي سنة ٦٣ م).

٤ - إنجيل يوحنا: (يوحنا) كان من تلامذة المسيح عليه السلام ومن أصحاب (بولس). يقول صاحب القاموس المذكور، اعتماداً على عدد من المحقّقين: إنّه أُلف في أواخر القرن الأول الميلادي[٤].

يتّضح من محتويات هذه الأناجيل، التي تشرح عموماً حكاية صلب المسيح وما جرى بعد ذلك، أنّ جميع هذه الأناجيل قد كتبت بعد المسيح بسنوات وليست كتباً سماوية نزلت على المسيح عليه السلام.

٥ - أعمال الرسل: (أعمال الحواريّين ودعاة الصدر الأوّل).

٦ - رسائل بولس الأربع عشرة إلى جهات مختلفة.

٧ - رسالة يعقوب: (الرسالة العشرون من الرسائل السبع والعشرين في العهد الجديد).

٨ - رسالتا بطرس: (الرسالتان ٢١ و٢٢ من العهد الجديد).

٩ - رسائل يوحنا: (الرسائل ٢٣ و٢٤ و٢٥ من العهد الجديد).

١٠ - رسالة يهودا: (الرسالة ٢٦ من العهد الجديد).

١١ - مكاشفة يوحنا: (القسم الأخير من العهد الجديد).

استناداً إلى المؤرّخين المسيحيّين وحسبما ورد في هذه الأناجيل والكتب والرسائل

---

(١) متّى: على وزن حتّى، بمعنى عطاء الله.
(٢) كتاب القاموس المقدّس: ص ٧٨٢.
(٣) مُرقُس: على وزن قُنفُذ، وقيل على وزن أسهُم، جمع سهم.
(٤) القاموس المقدّس: ص ٩٦٦.

في العهد الجديد، فإنّ أيّاً منها ليس كتاباً سماوياً، بل هي كتب كتبت بعد المسيح عليه السلام، ونستنتج من ذلك أنّ الإنجيل الأصلي السماوي الذي نزل على المسيح عليه السلام قد فُقِد وليس له وجود الآن، إنّما تلامذة المسيح أدرجوا بعضاً منه في أناجيلهم ومزجوه - مع الأسف - بالخرافات.

أمّا القول بأنّ على المسلمين أن لا يشكّوا في صحّة الأناجيل والتوراة الموجودة - على اعتبار أنّ القرآن قد صدّقها وشهد لها - فإنّه قول مردود، وقد أجبنا عليه في المجلّد الأوّل عند تفسير الآية: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾[١].

٤ - بعد ذكر التوراة والإنجيل، يشار إلى نزول القرآن، ولكنّه سمّي الفرقان، لأنّ لفظة (الفرقان) تستعمل في التفريق بين الحقّ والباطل وكلّ ما يميّز الحقّ عن الباطل يقال له (الفرقان). ولذلك يسمّي القرآن حرب بدر (يوم الفرقان)[٢]، ففي ذلك اليوم انتصر فريق صغير مفتقر لكلّ أنواع المعدّات الحربيّة على جيش كبير مسلّح ومتفوّق تفوّقاً كبيراً، وكذلك يطلق على معجزات موسى عليه السلام العشر اسم (الفرقان) أيضاً[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾

التّفسير

علم الله وقدرته المطلقة

هاتان الآيتان تكمّلان الآيات السابقة التي قرأنا فيها أنّ الله تعالى حيٌّ وقيّوم وهو مدبّر الكون بأجمعه وسيعاقب الكافرين المعاندين (حتى لو لم يظهروا كفرهم وعنادهم) ومن البديهي أنّ هذه الإحاطة والقدرة لتدبير العالم بحاجة إلى علم غير محدود وقدرة مطلقة، ولهذا أشارت الآية الأولى إلى علم الله تعالى، وفي الآية الثانية إلى قدرته المطلقة.

في البداية تقول الآية الشريفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

فكيف يمكن أن يختفي عن أنظاره شيءٌ من الأشياء في حين أنّه حاضرٌ وناظرٌ في كلّ

(١) سورة البقرة، الآية: ٤١. (٢) سورة الأنفال، الآية: ٤١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٣.

مكان، فلا يخلو منه مكان؟! وبما أنّ وجوده غير محدود، فلا يخلو منه مكان معين، ولهذا فهو أقرب إلينا من كلّ شيء حتى من أنفسنا، وفي نفس الوقت الذي يتنزّه فيه الله تعالى عن المكان والمحل، فإنّه محيطٌ بكل شيء، وهذه الإحاطة والحضور الإلهي بالنسبة لجميع المخلوقات بمعنى (العلم الحضوري) لا (العلم الحصولي)(١).

ثمّ تبيّن الآية التالية واحدة من [آيات] علم وقدرة الله تعالى الرائعة، بل هي في الحقيقة إحدى روائع عالم الخلقة ومظهر بارزٌ لعلم الله وقدرته المطلقة حيث تقول الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ثمّ تضيف ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

إنّه لأمرٌ عجيب ومحيّر حقّاً أن يصوّر الله الإنسان وهو في رحم أُمّه صوراً جميلة ومتنوّعة في أشكالها ومواهبها وصفاتها وغرائزها.

وهذه الآية تؤكّد أنّ المعبود الحقيقي ليس سوى الله القادر الحكيم الذي يستحقّ العبادة، فلماذا إذن يختارون مخلوقات كالمسيح عليه السلام ويعبدونها؟! ولعلّ هذه العبارة إشارة إلى سبب النزول المتقدّم في بداية السورة من أنّ المسيحيّين أنفسهم يوافقون على أنّ المسيح كان جنيناً في بطن أُمّه مريم، ثمّ تولّد منها، إذن فهو مخلوق وليس بخالق فكيف يكون معبوداً؟!

بحوث

١ - مراحل تطوّر الجنين من روائع الخلق

إنّ عظمة مفهوم هذه الآية تجلّت اليوم أكثر من ذي قبل نتيجة للتقدّم الكبير في علم الأجنّة. فهذا الجنين يبدأ بخلية، لا شكل لها ولا هيكل ولا أعضاء ولا أجهزة. ولكنّها تتّخذ أشكالاً مختلفة كلّ يوم وهي في الرحم، وكأنَّ هناك فريقاً من الرسّامين المهرة يحيطون بها ويشتغلون عليها - ليلَ نهار وبسرعة عجيبة - ليصنعوا من هذه الذرّة الصغيرة وفي وقت قصير إنساناً سويّاً في الظاهر، وفي جوفه أجهزة دقيقة رقيقة معقّدة ومحيّرة، لو أنّ فيلماً صوّر مراحل تطوّر الجنين - وقد صوّر فعلاً - وشاهده الإنسان يمرّ من أمام عينيه لأدرك بأجلى صورة عظمة الخلق وقدرة الخالق.

---

(١) العلم الحضوري: يعني أن يكون المعلوم ذاته حاضراً عند العالم. أمّا في العلم الحصولي فإنّ الحاضر عند العالم هو صورة المعلوم ورسمه، فمثلاً إنّ علمي بنفسي علم حضوري لأنّ نفسي ذاتها حاضرة في نفسي، أمّا بالنسبة للموجودات الأُخرى فعلمنا بها حصولي، لأنّ صورتها فقط هي الحاضرة في أذهاننا.

والعجيب في الأمر أنّ كلّ هذا الرسم يتمّ على الماء الذي يضرب به المثل في عدم احتفاظه بما يرسم عليه.

من الجدير بالذكر أنّه عندما يتمّ اللّقاح ويُخلق الجنين للمرّة الأُولى يسرع بالانقسام التصاعدي على هيئة ثمرة التوت التي تكون حبّاتها متلاصقة، ويطلق عليه اسم (مرولا). وفي غضون هذا التقدّم تُخلق (المشيمة) وتتكامل، وتتّصل من جهة قلب الأُم بواسطة شريانين ووريد واحد، ومن الجهة الأُخرى تتّصل بسرّة الجنين الذي يتغذّى على الدم القادم إلى المشيمة.

وبالتدريج وعلى أثر التغذية والتطور واتجاه الخلايا نحو الخارج يتجوّف باطن (المرولا)، وعندئذ يطلق عليه اسم (البلاستولا)، ولا تلبث هذه حتى يتكاثر عدد خلاياها، مؤلّفة كيساً ذا جدارين، ثمّ يحدث فيه انخفاض يقسم الجنين إلى قسمي الصدر والبطن.

إلى هنا تكون جميع الخلايا متشابهة ولا اختلاف بينها في الظاهر، ولكن بعد هذه المرحلة يبدأ الجنين بالتصوّر، وتتشكّل أجزاؤه بأشكال مختلفة بحسب وظيفتها المستقبلية، وتتكون الأنسجة والأجهزة، وتقوم كلّ مجموعة من الخلايا ببناء أحد أجهزة الجسم وصياغته، كالجهاز العصبي وجهاز الدورة الدموية، وجهاز الهضم، وغيرها من الأجهزة، حتى يصبح الجنين بعد هذه المراحل من التطوّر في مخبئه الخفي في رحم أُمّه إنساناً كامل الصورة. وسوف ندرج - بمشيئة الله - شرحاً كاملاً لتطوّر الجنين ومراحل تكامله في تفسير الآيه ١٢ من سورة (المؤمنون).

٢ - (أرحام) جمع (رحم) يعني في الأصل محل نموّ الجنين في بطن الأُمّ، ثمّ أطلق على جميع الأقرباء الذين يشتركون في أُمّ واحدة المتولّدون من أُمّ واحدة، وبما أنّ حالة من المحبّة والعطف والحنان ترتبط بين هؤلاء الأفراد أطلقت هذه المفردة على كلّ عطف وحنان (رحمة)، ويرى البعض أنّ المفهوم من هذه الكلمة بالعكس، أي أنّ المفهوم الأصلي لها هو رقّة القلب والعطف والمحبّة، ولكن بما أنّ الأقرباء والأرحام يشتركون في هذه الصفة فيما بينهم أطلق على المكان الذي تولّدوا منه كلمة (رحم).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير (نور الثقلين)[١] نقلاً عن كتاب (معاني الأخبار) حديث عن الإمام الباقر عليه السلام ما مضمونه: أنّ نفراً من اليهود ومعهم (حي بن أخطب) وأخوه، جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واحتجّوا بالحروف المقطّعة (الم) وقالوا: بموجب حساب الحروف الأبجدية، فإنّ الألف في الحساب الأبجدي تساوي الواحد، واللّام تساوي ٣٠، والميم تساوي ٤٠، وبهذه فإنّ فترة بقاء أُمّتك لا تزيد على إحدى وسبعين سنة! ومن أجل أن يلجمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تساءل وقال ما معناه: لماذا حسبتم (الم) وحدها؟ ألم تروا أنّ في القرآن (المص) و(الر) ونظائرها من الحروف المقطّعة، فإذا كانت هذه الحروف تدلّ على مدّة بقاء أُمّتي، فلماذا لا تحسبونها كلّها؟ (مع أنّ القصد من هذه الحروف أمر آخر) وعندئذ نزلت هذه الآية[٢].

في تفسير (في ظلال القرآن) سبب نزول آخر ينسجم من حيث النتيجة مع سبب النزول المذكور، وهو أنّ جمعاً من نصارى نجران جاؤوا إلى رسول الله متذرّعين بقول القرآن (كلمة الله وروحه) بشأن المسيح عليه السلام في محاولة منهم لاستغلالها بخصوص مسألة (التثليث) و(أُلوهيّة) المسيح، متجاهلين كلّ الآيات الأُخرى الصريحة في عدم وجود شريك أو شبيه لله إطلاقاً، فنزلت الآية المذكورة تردّ عليهم[٣].

التّفسير

المحكم والمتشابه في القرآن

تقدّم في الآيات السابقة الحديث عن نزول القرآن بعنوان أحد الدلائل الواضحة والمعجزات البيّنة لنبوّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ففي هذه الآية تذكر أحد مختصّات القرآن وكيفيّة بيان هذا الكتاب السماوي العظيم للمواضيع والمطالب فتقول في البداية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾.

أي آيات صريحة وواضحة والتي تعتبر الأساس والأصل لهذا الكتاب السماوي ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ثمّ إنّ هناك آيات أُخرى غامضة بسبب علوّ مفاهيمها وعمق معارفها أو لجهات أُخرى ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٣١٣. (٢) تفسير الميزان، ج ١٨، ص ١٢ و ١٣.
(٣) تفسير في ظلال القرآن، ج ١، ص ٥٤٢.

هذه الآيات المتشابهة إنّما ذكرت لاختبار العلماء الحقيقيّين وتمييزهم عن الأشخاص المعاندين اللجوجين الذين يطلبون الفتنة، فلذلك تضيف الآية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ فيفسّرون هذه الآيات المتشابهة وفقاً لأهوائهم كيما يضلّوا الناس ويشبّهوا عليهم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾[1] ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾.

ثمّ تضيف الآية: إنّ هؤلاء أي الراسخون في العلم بسبب دركهم الصحيح لمعنى المحكمات والمتشابهات ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أجل ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

بحوث

في هذه الآية مباحث مهمّة ينبغي بحثها بشكل مستقل كلٌّ على حدة:

١ - ما المقصود بالآيات المحكمة والمتشابهة؟

(المحكم) من (الإحكام) وهو المنع. ولهذا يقال للمواضيع الثابتة القويّة (محكمة) أي إنّها تمنع عن نفسها عوامل الزوال. كما أنّ كلّ قول واضح وصريح لا يعتوره أيّ احتمال للخلاف يقال له (قول محكم).

وعليه فإنّ الآيات المحكمات هي الآيات ذات المفاهيم الواضحة التي لا مجال للجدل والخلاف بشأنها، كآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2] و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[3] و﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4] و﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[5] وآلاف أخرى مثلها ممّا يتعلّق بالعقائد والأحكام والمواعظ والتواريخ، فهي كلّها من (المحكمات).

هذه الآيات المحكمات تسمّى في القرآن (أمّ الكتاب) أي هي الأصل والمرجع والمفسّرة والموضّحة للآيات الأخرى.

و(المتشابه) هو ما تتشابه أجزاؤه المختلفة، ولذلك فالجمل والكلمات التي تكون معانيها معقّدة وتنطوي على احتمالات مختلفة، توصف بأنّها (متشابهة). وهذا هو

---

(١) «زيغ» في الأصل بمعنى الانحراف عن الخط المستقيم والتمايل إلى جهة، والزيغ في القلب بمعنى الانحراف العقائدي عن الصراط المستقيم.

(٢) سورة الإخلاص، الآية: ١.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٢؛ والأنعام: ١٠٢؛ والرّعد: ١٦؛ وغافر: ٦٢.

(٥) سورة النساء، الآيتان: ١١ و ١٧٦.

المقصود من وصف بعض آيات القرآن بأنها (متشابهات)، أي الآيات التي تبدو معانيها لأوّل وهلة معقّدة وذات احتمالات متعدّدة، ولكنّها تتّضح معانيها بعرضها على الآيات المحكمات.

وعلى الرغم من أنّ المفسّرين أوردوا احتمالات متعدّدة في تفسير (المحكم) و(المتشابه)[١]، ولكن الذي قلناه يناسب المعنى الأصلي لهذين المصطلحين كما يتّفق مع سبب نزول الآية، وكذلك مع الأحاديث الواردة في تفسير هذه الآية، ومع الآية نفسها، لأنّنا نقرأ بعد ذلك أن المغرضين يتّخذون من الآيات المتشابهات وسيلة لإثارة الفتنة، وهم بالطبع يبحثون لهذا الغرض عن الآيات التي لها تفسيرات متعدّدة وهذا نفسه يدلّ على أن معنى (المتشابه) هو ما قلناه.

ويمكن إدراج بعض الآيات التي تخصّ صفات الله والمعاد كنماذج من الآيات المتشابهات، مثل ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٢] بشأن قدرة الله، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣] بشأن علم الله، و﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٤] بشأن طريقة حساب الأعمال.

بديهيّ أنّ الله لا يد له (بمعنى العضو) ولا أُذن (بالمعنى نفسه) ولا ميزان مثل موازيننا يزن به الأعمال، هذه كنايات عن مفاهيم كلّية لقدرة الله وعلمه وميزانه.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ كلمتي (المحكم والمتشابه) قد وردتا في القرآن بمعنى آخر، ففي أوّل سورة هود نقرأ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فهنا أُشير إلى أنّ جميع آيات القرآن محكمات، والقصد هو قوّة الترابط والتماسك بينها. وفي الآية ٢٣ من سورة الزمر نقرأ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي الكتاب الذي كلّ آياته متشابهات، وهي هنا بمعنى التماثل من حيث صحّتها وحقيقتها.

يتّضح ممّا قلنا بشأن المحكم والمتشابه أنّ الإنسان الواقعيّ الباحث عن الحقيقة لا بدّ له لفهم كلام الله أن يضع الآيات جنباً إلى جنب ثمّ يستخرج منها الحقيقة، فإذا لاحظ في ظاهر بعض الآيات إبهاماً وتعقيداً، فعليه أن يرجع إلى آيات أُخر لرفع ذلك الإبهام والتعقيد ليصل إلى كنهها.

تعتبر الآيات المحكمات في الواقع أشبه بالشارع الرئيسي، والمتشابهات أشبه

---

(١) ذكر «الطبرسي» في مجمع البيان خمسة تفاسير لذلك، وذكر «الفخر الرازي» أربعة أقوال و«العلاّمة» في الميزان ستة عشر قولاً وفي «البحر المحيط» عشرون قولاً تقريباً عن تفسيرها.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٤.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

بالشوارع الفرعية، لا شكّ أنّ المرء إذا تاه في شارع فرعي سعى للوصول إلى الشارع الرئيسي ليتبيّن طريقه الصحيح فيسلكه.

إنّ التعبير عن المحكمات بأم الكتاب يؤيّد هذه الحقيقة أيضاً، إذ إنّ لفظة (أُم) في اللّغة تعني الأصل والأساس، وإطلاق الكلمة على (الأُم) أي الوالدة لأنّها أصل الأُسرة والعائلة والملجأ الذي يفزع إليه أبناؤها لحلّ مشاكلهم، وعلى هذا فالمحكمات هي الأساس والجذر والأُم بالنسبة للآيات الأُخرى.

٢ - لماذا تشابهت بعض آيات القرآن؟

إنّ القرآن جاء نوراً لهداية عموم الناس، فما سبب احتوائه على آيات متشابهات فيها إبهام وتعقيد بحيث يستغلّها المفسدون لإثارة الفتنة؟ هذا موضوع مهمّ جدير بالبحث والتدقيق، وعلى العموم يمكن أن تكون النقاط التالية هي السرّ في وجود المتشابهات في القرآن:

أوّلاً: إنّ الألفاظ والكلمات التي يستعملها الإنسان للحوار هي لرفع حاجته اليومية في التفاهم، ولكن ما إن نخرج عن نطاق حياتنا الماديّة وحدودها، كأن نتحدّث عن الخالق الذي لا يحدّه أيّ لون من الحدود، نجد بوضوح أنّ ألفاظنا تلك لا تستوعب هذه المعاني، فنضطر إلى استخدام ألفاظ أُخرى وإن تكن قاصرة لا تفي بالغرض تماماً من مختلف الجهات، وهذا القصور في الألفاظ هو منشأ الكثير من متشابهات القرآن، إنّ آيات مثل ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(١) أو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾(٢) أو ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٣) التي سوف يأتي تفسيرها في موضعه، تعتبر من هذه النماذج، وهناك أيضاً تعبيرات مثل (سميع) و(بصير)، ولكن بالرجوع إلى الآيات المحكمات يمكن تفسيرها بوضوح.

ثانياً: كثير من الحقائق تختصّ بالعالم الآخر، أو بعالم ما وراء الطبيعة ممّا هو بعيد عن أُفق تفكيرنا، وإنّنا - بحكم وجودنا ضمن حدود سجن الزمان والمكان، غير قادرين على إدراك كنهها العميق، إنّ قصور أُفق تفكيرنا من جهة، وسمّو تلك المعاني من جهة أُخرى، سبب آخر من أسباب التشابه في بعض الآيات، كالتي تتعلّق بيوم القيامة مثلاً.

وهذا أشبه بالذي يريد أن يشرح لجنين في بطن أُمّه مسائل هذا العالم الذي لم يره

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠. (٢) سورة طه، الآية: ٥.
(٣) سورة القيامة، الآية: ٣.

بعد، فهو إذا لم يقل شيئاً يكون مقصّراً، وإذا قال كان لا بدّ له أن يتحدّث بأسلوب يتناسب مع إدراكه.

ثالثاً: من أسرار وجود المتشابهات في القرآن إثارة الحركة في الأفكار والعقول وإيجاد نهضة فكرية بين الناس، وهذا أشبه بالمسائل الفكرية المعقّدة التي يعالجها العلماء لتقوية أفكارهم ولتعميق دقّتهم في المسائل.

رابعاً: النقطة الأُخرى التي ترد بشأن وجود المتشابهات في القرآن، وتؤيّدها أخبار أهل البيت عليهم السلام ، هي أنّ وجود هذه الآيات في القرآن يصعّد حاجة الناس إلى القادة الإلهيّين والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأوصياء، فتكون سبباً يدعو الناس إلى البحث عن هؤلاء والاعتراف بقيادتهم عملياً والاستفادة من علومهم الأُخرى أيضاً، وهذا أشبه ببعض الكتب المدرسية التي أُنيط فيها شرح بعض المواضيع بالمدرّس نفسه، لكي لا تنقطع علاقة التلاميذ بأُستاذهم، ولكي يستمرّوا - بسبب حاجتهم هذه - في التزوّد منه على مختلف الأصعدة.

وهذا أيضاً مصداق وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

٣ - ما التأويل؟

الكلام كثير بشأن معنى (التأويل)، والأقرب إلى الحقيقة هو أنّ (التأويل) من (الأوْل) أي الرجوع إلى الأصل، وهو إيصال العمل أو الكلام إلى الهدف النهائي المراد منه. فإذا أقدم أحد على عمل ولم يكن هدفه من هذا العلم واضحاً، ثمّ يتوضّح ذلك في النهاية، فهذا هو التأويل، كالذي نقرأه في حكاية موسى عليه السلام مع الحكيم الذي كان يقوم بأعمال غامضة الأهداف (مثل تحطيم السفينة) فكان هذا مدعاة لانزعاج موسى عليه السلام ، ولكن عندما شرح له الحكيم في نهاية المطاف وعند الفراق أهداف تلك الأعمال، وأنّه قصد إلى تخليص السفينة من الوقوع في يد سلطان غاصب وظالم، ختم شرحه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[2].

كذلك إذا رأى الإنسان رؤيا لا تتّضح له نتيجتها، ثمّ تبيّن له تعبيرها بمراجعة شخص أو مشاهدة واقعة، فذلك هو تأويل الرؤيا، مثل يوسف عليه السلام الذي قال حين تحقّقت

(١) مستدرك الحاكم: ج ٣، ص ١٤٨؛ ووسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٣٤.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

رؤياه الشهيرة عملياً، أو بعبارة أُخرى حين وصلت مرحلتها النهائية ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾[١].

وهكذا إذا صدر عن الإنسان كلام فيه مفاهيم وأسرار خاصّة تشكّل الهدف النهائي لذلك الكلام، فذلك هو التأويل.

هذا هو معنى التأويل في الآية، أي أنّ في القرآن آيات ذات أسرار ومعان عميقة غير أنّ ذوي الأفكار المنحرفة والمقاصد الفاسدة يضعون من عندهم تفسيراً لا أساس له من الصحّة ويستندون إليه لخداع أنفسهم أو غيرهم.

وعليه، فإنّ المقصود من (ابتغاء تأويله) هو أنّ هؤلاء يريدون أن يؤولوا الآيات بصورة تخالف حقيقتها، أي ابتغاء تأويله على خلاف الحقّ.

وكما قرأنا في سبب نزول هذه الآية أنّ بعض اليهود أوّلوا تلك الحروف المقطّعة في القرآن تأويلاً لا يتّفق مع الحقيقة، فقالوا: إنّها تحدّد عمر الإسلام، وهكذا المسيحيّون أساؤوا تأويل (روح منه) ليثبتوا أُلوهيّة المسيح عليه السلام، هذه كلّها من قبيل (التأويل بخلاف الحقّ)، وإرجاعها إلى مقاصد بعيدة عن الحقيقة.

٤ - من هم الراسخون في العلم؟

هذا التعبير القرآني ورد في موضعين. هذا أحدهما هنا والآخر في سورة النساء، إذ يقول: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[٢].

وبحسب المعنى اللغوي لهذه الكلمة، فإنّها تعني الذين لهم قدم ثابتة في العلم والمعرفة.

طبيعي أن يكون معنى الكلمة واسعاً يضمّ جميع العلماء والمفكّرين، إلّا أنّ بين هؤلاء أفراداً متميّزين لهم مكانتهم الخاصّة، ويأتون على رأس مصاديق الراسخين في العلم وتنصرف إليهم الأذهان عند استعمال هذه الكلمة قبل غيرهم.

وهذا هو الذي تقول به بعض الأحاديث التي تفسّر الراسخين في العلم بأنّهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة الهُدى عليهم السلام، فقد سبق أن قلنا إنّ لكلمات القرآن ومفاهيمه معاني واسعة، ومن مصاديقها البارزة الشخصيّات النموذجية السامية التي تُذكر أحياناً وحدها في تفسير تلك الكلمات والمفاهيم.

عن بريد بن معاوية قال: قلت لأبي جعفر (الباقر) عليه السلام: قول الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠. (٢) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ قال: «يعني تأويل القرآن كلّه، إلّا الله والراسخون في العلم، فرسول الله أفضل الراسخين، وقد علّمه جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله منزلاً عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه[١].

وهناك أحاديث كثيرة أُخرى في أُصول الكافي[٢] وسائر كتب الحديث بهذا الشأن، جمعها صاحبا تفسير (نور الثقلين) وتفسير (البرهان) في ذيل هذه الآية. وكما قلنا فإنّ تفسير الراسخين في العلم بأنّهم النبيّ ﷺ وأئمّة الهُدى لا يتعارض مع المفهوم الواسع الذي يشمله هذا التعبير، فقد نقل عن ابن عبّاس أنّه قال (أنا أيضاً من الراسخين في العلم)[٣] إلّا أنّ كلّ امرئ يتعرّف على أسرار تأويل آيات القرآن بقدر سعته العلمية، فالذين يصدرون في علمهم عن علم الله اللّامتناهي لا شكّ أعلم بأسرار تأويل القرآن، والآخرون يعلمون جزءاً من تلك الأسرار.

٥ - الراسخون في العلم يعرفون معنى المتشابهات

ثمّة نقاش هامّ يدور بين المفسّرين والعلماء حول ما إذا كانت عبارة (الراسخون في العلم) بداية جملة مستقلّة، أم أنّها معطوفة على (إلّا الله). وبعبارة أُخرى: هل أنّ معنى الآيــــة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾؟ أم أنّـــه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾؟

إنّ لكلّ فريق من مؤيّدي هذين الاتجاهين أدلّته وبراهينه وشواهده، أمّا القرائن الموجودة في الآية والأحاديث المشهورة المنسجمة معها فتقول إنّ ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ معطوفة على (الله)، وذلك:

أوّلاً: يُستبعد كثيراً أن تكون في القرآن آيات لا يعلم أسرارها إلّا الله وحده. ألم تنزل هذه الآيات لهداية البشر وتربيتهم؟ فكيف يمكن أن لا يعلم بمعانيها وتأويلها حتى النبيّ الذى نزلت عليه؟ هذا أشبه بمن يؤلّف كتاباً لا يفهم معاني بعض أجزائه سواه!

وثانياً: كما يقول المرحوم الطبرسي في (مجمع البيان): لم يسبق أن رأينا بين علماء الإسلام والمفسّرين من يمتنع عن تفسير آية بحجّة أنّها من الآيات التي لا يعرف معناها سوى الله، بل كانوا جميعاً يجدّون ويجتهدون لكشف أسرار القرآن ومعانيه.

---

(١) تفسير العيّاشي: ج ١، ص ١٦٤؛ وأصول الكافي، ج ١، ص ١٨٦ و ٢١٣ و ٤١٥.
(٢) أصول الكافي: ج ١، ص ٢١٣.
(٣) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج ٦، ص ٤٠٥.

وثالثاً: إذا كان القصد هو أنّ الراسخين في العلم يسلّمون لما لا يعرفونه، لكان الأولى أن يقال: والراسخون في الإيمان يقولون آمنّا به. لأنّ الرسوخ في العلم يتناسب مع العلم بتأويل القرآن، ولا يتناسب مع عدم العلم به والتسليم له.

ورابعاً: إنّ الأحاديث الكثيرة التي تفسّر هذه الآية تؤكّد كلّها أنّ الراسخين في العلم يعلمون تأويله، وعليه فيجب أن تكون معطوفة على (الله). الشيء الوحيد الباقي هو أنّ خطبة (الأشباح) للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة يستفاد منها أنّ الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل الآيات ويعترفون بعجزهم.

(وأعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب)(١).

ولكن فضلاً عن كون هذه العبارة تناقض بعض الأحاديث المنقولة عنه التي قال فيها: إنّ الراسخين في العلم معطوفة على (الله) وإنّهم عالمون بتأويل القرآن، فإنّها لا تنسجم أيضاً مع الأدلّة التي سبق ذكرها(٢). وعليه فيلزم تفسير هذه الجملة من خطبة (الأشباح) بما يتّفق والأسانيد الأُخرى التي بين أيدينا.

٦ - نتيجة الكلام في تفسير الآية

من كلّ ما مرّ قوله تفسيراً لهذه الآية نستنتج أنّ آيات القرآن قسمان: قسم معانيها واضحة جدّاً بحيث لا يمكن إنكارها ولا إساءة تأويلها وتفسيرها، وهذه هي الآيات (المحكمات)، وقسم آخر مواضيعها رفيعة المستوى، أو أنّها تدور حول عوالم بعيدة عن متناول أيدينا، كعلم الغيب، وعالم يوم القيامة، وصفات الله، بحيث إنّ معرفة معانيها النهائية وإدراك كنه أسرارها يستلزم مستوىً عالياً من العلم، وهذه هي الآيات (المتشابهات).

المنحرفون والشواذ من الناس يسعون لاستخدام إبهام هذه الآيات لتفسيرها بحسب أهوائهم وبخلاف الحقّ، لكي يثيروا الفتنة بين الناس ويضلّوهم عن الطريق المستقيم، بيدَ أنّ الله والراسخين في العلم يعرفون أسرار هذه الآيات ويشرحونها للناس، فهم بعلمهم الواسع يفهمون المتشابهات كما يفهمون المحكمات، ولذلك فإنّهم يسلّمون بها قائلين إنّها جميعاً من عند الله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

وعلى هذا يكون الرسوخ في العلم سبباً في أن يزداد الإنسان معرفة بأسرار القرآن،

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٩١.

(٢) انظر تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٣١٥.

ولا شكّ أنّ الذين رسخوا في العلم أكثر من غيرهم - كالنبيّ ﷺ وأئمّة الهُدى - يعلمون جميع أسرار القرآن، بينما الآخرون يعلمون منها كلّ بقدر سعة علمه، وهذه الحقيقة هي التي تدفع الناس، وحتى العلماء منهم، للبحث عن المعلّمين الإلهيّين ليتعلّموا منهم أسرار القرآن.

٧ - ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

تشير هذه الجملة في ختام الآية إلى أنّ هذه الحقائق يعرفها المفكّرون وحدهم، فهم الذين يدركون لماذا ينبغي أن يكون في القرآن (محكمات) و(متشابهات)، وهم الذين يعلمون أنّه يجب وضع المتشابهات إلى جانب المحكمات لكشفها. لذلك فقد نقل عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال:

«من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هُدي إلى صراط مستقيم»(١)

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

التّفسير

النجاة من الزيغ

بالنظر لاحتمال أن تكون الآيات المتشابهات وأسرارها موضع زلل الناس، فإنّ الراسخين في العلم المؤمنين يلجأون إلى ربّهم إضافة إلى استعمال رأسمالهم العلمي في إدراك حقيقة الآيات. وهذا ما تبيّنه هاتان الآيتان على لسان الراسخين في العلم، وتقولان إنّ الراسخين في العلم والمفكّرين من ذوي البصيرة لا يفتأون يراقبون أرواحهم وقلوبهم لئلّا ينحرفوا نحو الطرق الملتوية، فيطلبون لذلك العون من الله، فالغرور العلمي يخرج بعض العلماء عن مسيرهم إلى متاهات الضلال، لأنّهم لا يلتفتون إلى عظمة الخلق والخالق وتفاهة ما عندهم من علم، فيحرمون من هداية الله، أمّا العلماء المؤمنون فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا...﴾.

(١) تفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث؛ ووسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١١٥.

وليس أشدّ تأثيراً في السيطرة على الميول والأفكار من الاعتقاد بيوم القيامة والمعاد، إنّ الراسخين في العلم يصحّحون أفكارهم عن طريق الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، ويحولون دون التأثّر بالميول والأحاسيس المتطرّفة التي تؤدّي إلى الزلل، ونتيجة لذلك يستقيمون على الصراط المستقيم بأفكار سليمة ودون عائق، نعم هؤلاء هم القادرون على الاستفادة من آيات الله كلّ الاستفادة.

في الحقيقة تشير الآية الأُولى إلى إيمان هؤلاء الكامل (بالمبدأ)، وتشير الآية الثانية إلى إيمانهم الراسخ (بالمعاد).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

التّفسير

بعد بيان مواقف الكفّار والمنافقين والمؤمنين من الآيات (المحكمات) و(المتشابهات) في الآيات السابقة، تقول هذه الآية: إذا كان الكفّار المعاندون يحسبون أنّهم بثرواتهم وأبنائهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم في الآخرة فهم على خطأ كبير، فهذه الوسائل قد يكون لها تأثيرها المؤقت في هذه الدنيا، ولكنّها عند الله لن يكون لها أيّ تأثير، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة، لذلك ينبغي ألّا يغترّ الإنسان بهذه الأُمور فتحمله على ارتكاب الإثم، وإلّا فإنّه يصلى ناراً سيكون هو حطبها.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾(١).

يفيد هذا التعبير أنّ نار الجحيم مستعرة بوجود المذنبين، وهؤلاء المذنبون هم الذين يديمون أوارها ولهيبها، نعم ثمّة آيات تقول إنّ الحجارة أيضاً تكون وقود نار جهنم بالإضافة إلى المذنبين. ولكن - كما قلنا في تفسير الآية ٢٤ من سورة البقرة في الجزء الأول - يمكن أن تكون هذه الحجارة هي الأصنام التي كانوا ينحتونها من الحجر. وعليه فإنّ نار جهنّم تستعر بأعمال المذنبين وبمعبوداتهم الباطلة.

---

(١) سبق أن قلنا إنّ «الوقود» هو ما تشتعل به النار كالحطب، لا ما تُشعل به النار كالكبريت.

ثمّ تشير الآية إلى نموذج من الأُمم السالفة التي كانت قد أُوتيت الثروة الإنسانية والمادية الكثيرة، ولم تستطع هذه الثروة أن تكون مانعاً من هلاكهم.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(الدأب) إدامة السير، والعادة المستمرّة دائماً على حالة واحدة، فهذه الآية تشبّه حال الكفّار المعاصرين لرسول الله ﷺ بما كان آل فرعون قد اعتادوا عليه - وكذلك الأقوام السابقة - من تكذيب آيات الله، فأخذهم الله بذنبهم وأنزل بهم عقابه الصارم في هذه الدنيا.

هذا في الواقع إنذار للكافرين المعاندين على عهد رسول الله ﷺ لكي يعتبروا بمصير الفراعنة والأقوام السالفة، ويصحّحوا أعمالهم.

صحيح أنّ الله (أرحم الراحمين) ولكنه في المواضع ومن أجل تربية عبيده (شديد العقاب) أيضاً، ولا ينبغي أن يغترّ العبيد برحمة مولاهم الواسعة أبداً.

يستفاد أيضاً من (الدأب) أنّ هذا الاتّجاه الخطأ - أي العناد إزاء الحقيقة وتكذيب آيات الله - أصبح عادة ثابتة فيهم، ولهذا يهدّدهم بعذاب شديد، وذلك لأنّه ما دام الإثم لم يصبح عادةً ونهجاً في الحياة فإنّ الرجوع عنه ميسور وعقابه خفيف، ولكنّه إذا نفذ إلى داخل أعماق الإنسان فالرجوع عنه متعذّر، والعقاب عليه شديد، فخير للكافرين أن ينتهزوا الفرصة قبل فوات الأوان ويرجعوا عن طريق الضلال.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

سبب النّزول

بعد حرب بدر وانتصار المسلمين قال فريق من اليهود: إنه النبيّ الأُميّ الذي بشرنا به موسى عليه السلام، ونجده في كتابنا بنعته وصفته، وأنّه لا تُردّ له راية، ثمّ قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتّى تنظروا إلى واقعة أُخرى.

فلمّا كان يوم أُحد، وُنكب أصحاب رسول الله، شكّوا وقالوا: لا والله ما هو به، فغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا، وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدّة لم تنقض، فنقضوا ذلك العهد قبل أجله، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكّة في ستين راكباً، فواقفوهم وأجمعوا أمرهم على رسول الله ﷺ، لتكونن كلمتنا واحدة، ثمّ رجعوا إلى

المدينة، عندئذ نزلت الآية المذكورة تقول لهم إنّ الحساب قريب وإنكم جميعاً ستكونون عمّا قريب من المغلوبين(١).

التّفسير

مع ما تقدّم في سبب النزول يتضح أن الكفّار المغرورين بأموالهم وأولادهم، وعددهم وعدّتهم يتوقعون هزيمة الإسلام، ولكن القرآن الكريم يصرح في هذه الآية بأنّهم سيُغلبون، ويخاطب النبيّ ﷺ بأن يخبرهم بذلك وأن عاقبتهم في الدنيا والآخرة ليست سوى الهزيمة والذلّ والعذاب الأليم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾(٢).

تنبّؤ صريح

هناك أخبار غيبية كثيرة في القرآن الكريم تعتبر من أدلة عظمته وإعجازه، والآية أعلاه واحدة من هذه الأخبار الغيبية.

وفي هذه الآية يبشّر الله نبيّه ﷺ بالانتصار على جميع الأعداء، وينذر الكافرين بأنّهم فضلاً عن اندحارهم في هذه الدنيا، فإنّ لهم في الآخرة شرّ مصير.

إذا لاحظنا سبب نزول الآية، وكونها نزلت بعد فشل المسلمين في أُحد، وظهور ضعفهم الظاهري، وازدياد قوّة الأعداء باتّحادهم وتكاتفهم فإنّ هذا التنبّؤ الصريح وعلى الأخصّ عن المستقبل القريب: (ستُغلَبون) يكون أمراً مثيراً للانتباه، ومن هنا يمكن اعتبار هذه الآية من آيات إعجاز القرآن، لوجود هذا التنبّؤ عن المستقبل فيه، في الوقت الذي لا تشير فيه الظواهر إلى احتمال انتصار المسلمين على الكفّار واليهود.

ولم تمض فترة طويلة حتى تحقّقت نبوءة الآية وهُزم يهود المدينة (بنو قريظة، وبنو النضير)، وفي خيبر - أهم معقل من معاقلهم - اندحروا وتلاشت قواهم، كما هُزم المشركون في فتح مكّة هزيمة نكراء.

---

(١) تفسير مجمع البيان: ج ١ و ٢ ص ٤١٣.

(٢) «مهاد» بمعنى المكان المهيأ، كما يقول الراغب، وهي في الأصل من مادة (مَهْد) وهو محل استراحة الطفل.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

سبب النّزول

نزلت هذه الآية بشأن حرب (بدر). يقول المفسّرون إنّ عدد المسلمين يوم بدر كان ٣١٣ شخصاً، منهم ٧٧ من المهاجرين و٢٣٦ من الأنصار، كان لواء المهاجرين بيد عليّ عليه السلام، وكان سعد بن عبادة صاحب لواء الأنصار، وكانت عُدّتهم لا تتجاوز ٧٠ بعيراً، وفرسين، وستة دروع، وثمانية سيوف، خاضوا بها تلك الحرب الكبيرة، في وجه عدوّ يزيد عدده على الألف، مع الكثير من السلاح ومائة فرس، ومع ذلك فقد انتصر المسلمون بتقديم ٢٢ شهيداً (١٤ من المهاجرين و٨ من الأنصار)، في مقابل ٧٠ قتيلاً و٧٠ أسيراً من الأعداء، وعادوا إلى المدينة تزيّنهم أكاليل النصر، وهذه الآية تحكي جانباً من معركة بدر(١).

التّفسير

معركة بدر والتأييد الإلهي

تعقيباً على الآيات السابقة التي حذّر القرآن فيها الكافرين من الاغترار بالمال والأبناء والأتباع، جاءت هذه الآية شاهداً حيّاً على هذا الأمر، فتدعوهم إلى الاعتبار بما جرى في معركة بدر التاريخية.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾.

كيف لا تكون لهم عبرة، وهم يرون أنّ جيشاً صغيراً لا يملك شيئاً من العدّة، سوى الإيمان الراسخ، ينتصر على جيش يفوقه أضعافاً في العدد والعدّة، فلو كان المال

---

(١) ما ذكر أعلاه ورد في مجمع البيان ولكن ورد في «الكامل» لابن الأثير: ج ٣، ص ١٣٦ أنّه «وكان جميع مَن قُتلَ من المسلمين ببدر أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار» بحار الانوار، ج ١٩، ص ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٣٦٠.

والعدد - بغير إيمان - قادرين على شيء لظهر مفعولهما في معركة بدر، ولكن النتيجة كانت معكوسة.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾.

تقول الآية: إنّ الكفّار كانوا يرون جند المسلمين ضعف عددهم، أي أنّهم إذا كانوا ٣١٣ شخصاً كان الكفّار يرونهم أكثر من ٦٠٠ شخص(١)، ليزيد من خوفهم، وكان هذا أحد أسباب هزيمة الكفّار.

وهذا - فضلاً عن كونه إمداداً غيبياً من الله انتصر به المسلمون، لأنّ الله يمدّ عباده المجاهدين المؤمنين بمختلف السبل - كان أمراً طبيعياً من حيث جانبه الظاهري، وذلك لأنّ الضربات الشديدة التي أنزلها المسلمون - بقوة إيمانهم وتربيتهم الإسلامية - على الأعداء، أثارت فيهم الرعب والهلع فظنّوا أنّ هناك قوّة أُخرى التحقت بالمسلمين، ولذلك ظنّوا أنّ المسلمين يحاربون بضعف قوّتهم الأُولى ويسيطرون على ميدان الحرب سيطرة تامّة، مع أنّهم قبل الدخول لم يكن يخطر لهم ذلك أبداً، بل كانوا يرون المسلمين أقلّ ممّا كانوا عليه، في الآية ٤٤ من سورة الأنفال إشارة إلى ذلك أيضاً ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

تذكّروا يوم لقائكم بهم في ميدان الحرب، فقد أظهرناكم في أعينهم قلّة لكي لا يتجنّبوا حرباً ستؤدّي إلى هزيمتهم - كما أظهرناهم في أعينكم قلّة لكي لا تضعف معنوياتكم في حرب مصيرية.. وما أن بدأت الحرب حتى تبدّلت المشاهد، وظهر المسلمون في أعين الأعداء بأعداد مضاعفة، فكان هذا واحداً من أسباب هزيمتهم.

وجاء في بعض الروايات أنّ أحد المسلمين قال: قبل نشوب القتال في بدر قلت لرفيق لي: ألّا تظن أن عدد الكفّار سبعون نفراً؟ فقال: إني أحسبهم مائة نفر، ولكن عندما انتصرنا في الحرب وأسرنا منهم عدداً غفيراً سمعنا أنّ عددهم ألف نفر(٢).

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

تشير الآية إلى حقيقة أنّ الله ينصر من يشاء، لقد سبق أن قلنا إنّ مشيئة الله وإرادته لا

---

(١) هذا التفسير يعتمد على إرجاع الضمير في «يرون» إلى الكفّار، والضمير «هم» إلى المسلمين. وهذا اوضح التفاسير العديدة للآية.
وسنشرح معركة بدر شرحاً وافياً عند تفسير الآيات ٤١ - ٤٥ من سورة الانفال.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٢٦٨.

تكون بغير حساب، بل هي بموجب حكمته وفي حدود لياقة الأفراد، أي أنّ الله يؤيّد الذين يستحقّون ذلك.

جدير بالذكر أنّ النصر الإلهي للمسلمين في الحادثة التاريخية كان ذا جانبين، فقد كان (نصراً عسكرياً) و(نصراً منطقياً). فمن الناحية العسكرية: انتصر جيش صغير مفتقر إلى المعدّات الحربية على جيش يبلغ أضعافه عدداً وإمكانات، ومن الناحية المنطقية: فإنّ الله كان قد أخبر المسلمين صراحة بهذا النصر قبل بدء الحرب.

﴿فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

في ختام الآية يؤكّد سبحانه أنّ الذين وهبوا البصيرة بحيث يرون الحقائق كما هي، يعتبرون بهذا الانتصار الذي أحرزه أُناس مؤمنون، ويدركون أنّ أساس هذا الانتصار هو الإيمان... الإيمان وحده[1].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

جاذبية المتاع الدنيوي

تعقيباً على الآيات السابقة التي اعتبرت الإيمان رأس المال الحقيقي للإنسان - لا المال والبنين والأنصار - تشير هذه الآية إلى حقيقة أنّ الزوجة والأبناء والأموال إنّما هي ثروات تنفع في الحياة المادّية هذه، ولكنّها لا يمكن أن تشكّل هدف الإنسان الأصيل، صحيح أنّه بغير هذه الوسائل لا يمكن السير في طريق السعادة والتكامل المعنوي، إلّا أنّ الاستفادة منها في هذا السبيل شيء وحبّها وعبادتها - بغير أن تكون مجرّد وسيلة يستفاد منها - شيء آخر.

(١) «عبرة» في الأصل من مادة «عبور» بمعنى الانتقال من مرحلة إلى أُخرى أو من مكان إلى آخر ويقال لدمع العين «عَبرة» على وزن «حسرة» لأنّه يعبر من العين، ويقال للكلمات التي تمر من خلال اللسان والأُذن «عبارات» أيضاً وكذلك يقال للحوادث «عِبرة» لأجل أنّ الإنسان عندما يراها يعلم ما بمخلفاتها من الحقائق.

في هذه الآية بضع نقاط ينبغي الالتفات إليها:

١ - مَن الذي جعل المادّيات زينة؟

في تعبير: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ . . .﴾[1] جاء الفعل مبنيّاً للمجهول، أي إنّ الفاعل المجهول قد زيّن للناس حبّ الزوجة والأولاد والأموال، في هذه الحالة يخطر للمرء هذا السؤال: ترى من هو الذي زيّن هذه الأُمور للناس؟

بعض المفسّرين يرون أنّ هذه المشتهيات من عمل الشيطان الذي يزيّنها في أعين الناس، ويستدلّون على ذلك بالآية ٢٤ من سورة النمل: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وأمثالها[2]. إلّا أنّ هذا الاستدلال لا يبدو صحيحاً، لأنّ الكلام في الآية التي نبحث فيها لا تتكلّم عن (الأعمال)، بل عن الأموال والنساء والأبناء.

إنّ التفسير الذي يبدو صحيحاً هو أنّ الله هو الذي زيّن للناس ذلك عن طريق الخلق والفطرة والطبيعة الإنسانية.

إنّ الله هو الذي جعل حبّ الأبناء والثروة في جبلّة الإنسان لكي يختبره ويسير به في طريق التربية والتكامل، كما يقول القرآن: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3].

ممّا يثير الالتفات في الآية أنّ الزوجة أو المرأة قد وردت أوّلاً، وهذا هو ما يقول به علماء النفس اليوم، بأنّ الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز في الإنسان، كما أنّ التاريخ المعاصر والقديم يؤيّد أنّ كثيراً من الحوادث الاجتماعية ناشئة عن طغيان هذه الغريزة.

وينبغي القول أيضاً إنّ هذه الآية والآيات المشابهة لا تذمّ العلائق المعتدلة مع المرأة والأولاد والمال، لأنّ التقدّم نحو الأهداف المعنوية غير ممكن بدون الوسائل المادّية، وهي لا تتعارض مع نواميس الخلق الطبيعية، إنّما المذموم هو الإفراط في هذه العلائق، وبعبارة أُخرى: المذموم هو عبادة هذه الأُمور.

٢ - ما هي (القناطير المقنطرة) و(الخيل المسوّمة)؟

(قناطير) جمع قنطار، وهو الشيء المحكم، ثمّ أُطلق على المال الكثير، وإطلاق (القنطرة) على الجسر، و(القِنْطَر) على الشخص الذكي إنّما هو لإحكام البناء أو الفكر،

---

(١) الشهوات: جمع شهوة، أي حبّ شيء من الأشياء حبّاً شديداً، ولكنها في هذه الآية بمعنى المشتهيات.

(٢) سورة الانفال، الآية: ٤٨؛ وسورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٧.

و(المقنطرة) اسم مفعول يدلّ على الكثرة والمضاعفة، وذكرهما متتاليين يعني التوكيد، كقولنا (آلاف مؤلّفة) ونقصد به الكثرة الكاثرة.

هناك من حدّد وزن القنطار بأنّه يساوي سبعين ألف دينار ذهباً، وقال بعض إنّه مائة ألف دينار، وقال آخرون إنّه يساوي اثني عشر ألف درهم، ويقول بعض إنّ القنطار كيس مملوء ذهباً أو فضة.

وفي رواية عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام أنّ القنطار مقدار من الذهب الذي يملأ جلد بقرة[1]، إلّا أنّ كلّ هذه تشير إلى المال الوفير.

(الخيل) اسم جمع للفرس، وتطلق على الفرسان أيضاً، والمقصود في الآية هو المعنى الأول طبعاً.

و(المسوّمة) بمعنى المعلّمة أي ذات العلامة، فقد تُعلّم الخيل لإبراز جمال هيكلها ورشاقتها، أو لمعرفة أنّها مدرّبة ومعدّة للركوب في ميادين القتال.

وعليه، فإنّ الآية تعدّد ستة من ثروات الحياة وهي: المرأة، والولد، والمال، والخيول الأصيلة، والمواشي والإبل، والزراعة، وهي أركان الحياة المادّية.

٣ - ما هو المراد بـ (متاع الحياة الدنيا)؟

(المتاع) هو الانتفاع بالشيء بعض الوقت، والحياة الدنيا هي الحياة الواطئة الحقيرة، فيكون معنى الآية: إذا عشق أحد هذه الأشياء الستة وحدها باعتبارها الهدف النهائي للحياة، ولم يستفد منها كسلّم للصعود في مسيرة حياته، يكون قد اختار لنفسه حياة منحطّة.

وفي الحقيقة أنّ تعبير (الحياة الدنيا) إشارة إلى سير الحياة التكاملي، إذ إنّ هذه الحياة الدنيا تعتبر المرحلة الأُولى في ذلك السير، لذلك تشير الآية في النهاية إلى الحياة السامية التي تنتظر الإنسان فتقول: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾.

٤ - كما تقدّم في تفسير الآية، فقد اشارت الآية إلى النساء من بين النعم المادّية وقدّمتها على الجميع، لأنّها بالقياس إلى النعم الأُخرى أقوى تأثيراً واشدّ جاذبية لأهل الدنيا وقد تدعوهم إلى ارتكاب أعظم الجنايات في هذا السبيل.

---

(١) بحار الانوار، ج ٢، ص ٥.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

التّفسير

هذه الآية توضّح الخطّ البياني الصاعد لتكامل الحياة الإنسانية الذي أُشير إليه في الآية السابقة، تقول الآية: هل أُخبركم بحياة أرفع وأسمى من هذه الحياة المادّية المحدودة في الدنيا، تلك الحياة فيها كلّ ما في هذه الحياة من النِعم لكنّها صورتها الكاملة الخالية من أيّ نقص وعيب خاصة بالمتقين.

بساتينها، لا كبساتين الدنيا، لا ينقطع الماء عن الجريان بجوار أشجارها: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

ونِعمها دائمة أبدية، لا كنِعم الدنيا السريعة الزوال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

نساؤها خلافاً لكثير من غواني هذه الدنيا، ليس في أجسامهنّ ولا أرواحهنّ نقطة ظلام وخبث: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

كلّ هذا بانتظار المتّقين. وأسمى من ذلك كلّه، النِعم المعنوية التي تفوق كلّ تصوّر وهي ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

نلاحظ أنّ الآية تبدأ بجملة: (أؤنبّئكم) الاستفهامية الموجّهة إلى الفطرة الإنسانية الواعية لكي تكون أنفذ في السامع وأعمق، ثمّ إنّ الاستفهام ينصّ على (الإنباء) التي تستعمل للإدلاء بخبر مهمّ جدير بالاستيعاب.

وتخبر الآية المؤمنين أنّهم إذا امتنعوا عن اللّذائذ غير المشروعة والأهواء الطاغية الممزوجة بالمعصية، فإنّهم سيفوزون في الآخرة بلذائذ مشابهة ولكن بمستوى أرفع وخالية من كلّ نقص وعيب، إلّا أنّ هذا لا يعني حرمان النفس من لذائذ الحياة الدنيا التي لهم أن يتمتّعوا بها بصورة مشروعة.

هل في الجنّة لذائذ مادّية أيضاً؟

يظنّ بعضهم أنّ اللذائذ المادّية مقتصرة على الحياة الدنيا، وأنّ الحياة الأُخرى خالية منها، وأنّ جميع ما جاء في القرآن عن الجنّات والفواكه والمياه الجارية والأزواج الطاهرة إنّما هي كناية عن مقامات ونِعم معنوية من باب (كلّم الناس على قدر عقولهم)(١).

ولكنّنا ينبغي أن نقول: إنّنا بعد أن قبلنا بالمعاد الجسماني استناداً إلى الكثير من آيات القرآن الصريحة، فلا بدّ من وجود نِعم تناسب الجسم والروح وبمستوى أرفع وأعلى. وفي هذه الآية إشارة إلى كليهما: ما يناسب المعاد الجسماني، وما يناسب المعاد الروحي.

في الواقع، إنّ الذين يعتبرون نِعم الآخرة المادّية كناية عن نِعم معنوية، إنّما يؤوّلون ظاهر آيات القرآن دون سبب، كما أنّهم ينسون المعاد الجسماني وما يقتضيه.

ولعلّ جملة ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ التي جاءت في آخر الآية إشارة إلى هذه الحقيقة، أي أنّه يعلم ما يحتاجه الجسم والروح في العالم الآخر، وما هي متطلّبات كلّ منهما وهو يضمن إشباع هذه الحاجات على أحسن وجه.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ . . .﴾.

في هذه الآية والآية التي بعدها نتعرّف على المتّقين الذين كانوا في الآية السابقة مشمولين بِنِعم الله العظيمة في العالم الآخر، فتعددان ستّ صفات من صفاتهم الممتازة:

١ - إنّهم يتوجّهون إلى الله بكلّ جوارحهم، والإيمان يضيء قلوبهم، ولذلك يحسّون بمسؤولية كبيرة في كلّ أعمالهم، ويخشون عقاب أعمالهم خشية شديدة، فيطلبون مغفرته والنجاة من النار: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

٢ - مثابرون صابرون ذوو همّة، ومقاومون عند مواجهتهم الحوادث في مسيرة إطاعتهم لله وتجنّبهم المعاصي، وعند ابتلائهم بالشدائد الفردية والاجتماعية (الصابرين).

٣ - صادقون ومستقيمون، وما يعتقدون به في الباطن يعملون به في الظاهر، ويتجنّبون النفاق والكذب والخيانة والتلوّث (والصادقين).

---

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٣.

٤ - في طريق العبودية لله خاضعون ومتواضعون ومواظبون على ذلك (والقانتين)[(١)].

٥ - لا ينفقون من أموالهم فحسب، بل ينفقون من جميع ما لديهم من النِعم المادّية والمعنوية في سبيل الله، فيعالجون بذلك أدواء المجتمع (والمنفقين).

٦ - في أواخر الليل وعند السحر، أي عندما يسود الهدوء والصفاء وحين يغطّ الغافلون في نوم عميق وتهدأ ضوضاء العالم المادّي، يقوم ذوو القلوب الحيّة اليقظة، ويذكرون الله ويطلبون المغفرة منه وهم ذائبون في نور الله وجلاله، وتلهج كلّ ذرّة من وجودهم بتوحيده سبحانه (والمستغفرين بالأسحار).

بحثان

١ - في تفسير هذه الآية، روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «من قال في آخر صلاة الوتر في السحر (أستغفر الله وأتوب إليه) سبعين مرّة، وداوم على ذلك سنة كتبه الله من المستغفرين بالأسحار»[(٢)].

٢ - (السحر) في أصل اللغة هو (التغطية والإخفاء)، ولمّا كانت ساعات اللّيل الأخيرة تغطّي كلّ شيء بستار خاصّ، فقد سمّيت بالسحر. و(السحر) - بكسر السين - من المادّة نفسها، لأنّ الساحر يقوم بأعمال تخفى أسرارها على الآخرين. وقد يطلق العرب اسم (السحر) - بوزن البشر - على الرئة لاختفاء ما فيها.

لماذا يشار إلى السحر من بين جميع ساعات الليل والنهار، مع أنّ الاستغفار وذكر الله مطلوبان في كلّ وقت؟ السبب هو ما تتميّز به ساعات السحر من هدوء وسكون وابتعاد عن الأعمال المادّية، وللنشاط الذي يشعر به المرء بعد استراحته ونومه، فيكون أكثر استعداداً للتوجّه إلى الله، وهذا ما يسهل دركه بالتجربة، حتى إنّ بعض العلماء يستثمرون وقت السحر لحلّ المسائل العلمية، إذ إنّ سراج الفكر وروح الإنسان أكثر تلألؤاً وسطوعاً في ذلك الوقت من أيّ وقت آخر، ولمّا كانت روح العبادة والاستغفار هي التوجّه وحضور القلب، فإنّ العبادة والاستغفار في هذا الوقت أسمى من أيّ وقت آخر.

---

(١) «قانتين» من مادة «قنوت» بمعنى الخضوع أمام الله وأيضاً بمعنى المداومة على الطاعة والعبودية.

(٢) تفسير البرهان: ج ١، ص ٢٧٣؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٤٨٩.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

الجميع يشهد بالوحدانية

تعقيباً على البحث في الآيات السابقة حول المؤمنين الحقيقيين، تشير هذه الآية إلى بعض أدلّة التوحيد ومعرفة الله فتقول بأن الله تعالى يشهد بوحدانيته (من خلال إيجاد النظام الكوني العجيب)، كما تشهد الملائكة، ويشهد بعد ذلك العلماء والذين ينظرون إلى حقائق العالم بنور العلم والمعرفة ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾.

بحوث

١ - كيف يشهد الله على وحدانيّته؟

المقصود من شهادة الله هنا هو الشهادة العملية والعقلية، لا الشهادة اللّفظية، أي إنّ الله بخلقه عالم المخلوقات الذي يسوده نظام موحّد، وتتشابه قوانينه في كلّ مكان، وتجري وفق برنامج واحد، لتكوّن (وحدة واحدة) و(نظاماً واحداً)، قد أظهر عملياً أنّ الخالق والمعبود في العالم ليس أكثر من واحد، وأنّ كلّ شيء ينطلق من ينبوع واحد، وعليه فإنّ خلق هذا النظام الواحد شهادة ودليل على وحدانيّته.

أمّا شهادة الملائكة والعلماء، فهي شهادة لفظية، فهم بالتعبير اللفظي الذي يناسبهم يعترفون بهذه الحقيقة، إنّ هذا اللون من التفكيك في الآيات القرآنية كثير في الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[1]، لا شكّ أنّ صلاة الله على النبيّ ﷺ غير صلاة الملائكة عليه، فصلاة الله هي إرسال الرحمة، وصلاة الملائكة هي طلب الرحمة.

بديهيّ أنّ لشهادة الملائكة والعلماء جانبها العملي أيضاً، ذلك لأنّهم لا يعبدون سواه، ولا يخضعون لمعبود غيره.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

٢ - ما القيام بالقسط؟

إنّ عبارة (قائماً بالقسط) حال من فاعل (شهد) وهو (الله)، أي إنّ الله يشهد بوحدانيّته في حالة كونه قائماً بالعدالة في عالم الوجود، وهذا في الحقيقة دليل على شهادته، لأنّ العدالة هي اختيار الطريق الوسط والمستقيم، بمعزل عن كلّ إفراط وتفريط وانحراف، ونعلم أنّ الطريق الوسط المستقيم لا بدّ أن يكون طريقاً واحداً، كما نقرأ في الآية ١٥٣ من سورة الأنعام ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

تقول هذه الآية إنّ طريق الله واحد، بينما طرق المنحرفين والبعيدين عن الله متعدّدة ومتناثرة، وذلك لورود الصراط المستقيم بصيغة المفرد، وسُبل المنحرفين بصيغة الجمع.

النتيجة هي أن (العدالة) تصاحب (النظام الواحد)، والنظام الواحد دليل على (المبدأ الواحد). وبناءً على ذلك فإنّ العدالة بمعناها الحقيقي في عالم الخلق دليل على وحدانية الخالق، فتأمّل.

٣ - أهمية العلماء

العلماء في هذه الآية وضِعوا إلى جانب الملائكة، وهذا بذاته امتياز للعلماء على غيرهم، كما يستفاد من الآية أنّ العلماء إنّما امتازوا على غيرهم لأنّهم بعلمهم توصّلوا إلى معرفة الحقائق، وعلى رأسها معرفة وحدانية الله.

من الواضح أنّ الآية تشمل جميع العلماء، أمّا قول بعض المفسّرين بأنّ (أُولوا العلم) هم الأئمّة الأطهار عليهم السلام فلأن الأئمّة من أظهر مصاديق ذلك[1].

ينقل المرحوم الطبرسي في (مجمع البيان) ضمن تفسير هذه الآية، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «ساعة من عالم يتّكيء على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاماً»[2].

يتكرّر تعبير ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في نهاية الآية، ولعلّ التكرار إشارة إلى أنّه كما جاءت في البداية شهادة الله والملائكة والعلماء، كذلك على من يسمع هذه الشهادات أن يردّدها هو أيضاً معهم، ويشهد على وحدانية المعبود.

---

(١) بحار الانوار، ج ٢٣، ص ٢٠٤: وتفسير العياشي، ج ١، ص ١٦٦.

(٢) بحار الانوار، ج ٢، ص ٢٣؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٥٨.

ولمّا كان قوله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعظيماً وإظهاراً لوحدانيّته، فقد اختتم بالصفتين (العزيز) و(الحكيم) لأنّ القيام بالقسط يتطلّب القدرة والحكمة، وأنّ الله القادر على كلّ شيء، والعليم بكلّ شيء هو وحده القادر على إجراء العدالة في عالم الوجود.

هذه الآية من الآيات التي كانت موضع اهتمام رسول الله ﷺ دائماً وكان يردّدها في مواضع مختلفة.

وروي عن الزبير بن العوام قال: قلت لأدنونّ هذه العشية من رسول اللهوهي عشية عرفة، حتى أسمع ما يقول...، فسمعته يقول: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، فما زال يرددها حتى رفع(١).

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

روح الدين التسليم للحقّ

(الدِين) في الأصل بمعنى الجزاء والثواب، ويطلق على (الطاعة) والانقياد للأوامر، و(الدين) في الاصطلاح: مجموعة العقائد والقواعد والآداب التي يستطيع الإنسان بها بلوغ السعادة في الدنيا، وأن يخطو في المسير الصحيح من حيث التربية والأخلاق الفردية والجماعية.

(الإسلام) يعني التسليم، وهو هنا التسليم لله، وعلى ذلك، فإنّ معنى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: إنّ الدين الحقيقي عند الله هو التسليم لأوامره وللحقيقة، في الواقع لم تكن روح الدين في كلّ الأزمنة سوى الخضوع والتسليم للحقيقة.

وإنّما أطلق اسم (الإسلام) على الدِين الذي جاء به الرسول الأكرم لأنّه أرفع الأديان.

وقد أوضح الإمام علي عليه السلام هذا المعنى في بيان عميق فقال: «لأنسبنّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»(٢).

---

(١) مجمع البيان: ج ٢، ص ٤٢١.

(٢) نهج البلاغة: قصار الكلمات، ١٢٠، أُصول الكافي: ج ٢، ص ٤٥ مع تفاوت يسير.

فالإمام في كلمته هذه يضع للاسم ستّ مراحل، أُولاها التسليم أمام الحقيقة، ثمّ يقول إنّ التسليم بغير يقين غير ممكن (إذ إنّ التسليم بغير يقين يعني الاستسلام الأعمى، لا التسليم الواعي). ثمّ يقول إنّ اليقين هو التصديق (أي أنّ العلم وحده لايكفي، بل لا بدّ من الاعتقاد والتصديق القلبيّين) والتصديق هو الإقرار (أي لا يكفي أن يكون الإيمان قلبيّاً فحسب، بل يجب إظهاره بشجاعة وقوّة)، ثمّ يقول إنّ الإقرار هو الأداء (أي أنّ الإقرار لا يكون بمجرّد القول باللّسان، بل هو التزام بالمسؤولية)، وأخيراً يقول إنّ الأداء هو العمل (أي إطاعة أوامر الله وتنفيذ البرامج الإلهيّة) لأنّ الالتزام وتحمّل المسؤولية لا يعنيان سوى العمل، أمّا الذين يسخّرون كلّ قواهم وطاقاتهم في عقد الجلسات تلو الجلسات وتقديم الاقتراحات وما إلى ذلك من الأُمور التي لا تتطلّب سوى الكلام فلا هم تحمّلوا التزاماً ولا مسؤولية، ولا هم وعوا روح الإسلام حقّاً.

هذا أجلى تفسير للإسلام من جميع جوانبه، ثمّ إنّ الآية تذكر علّة الاختلاف الديني على الرغم من الوحدة الحقيقية للدين الإلهي وتقول:

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾.

فعلى هذا إن الاختلاف ظهر أوّلاً: بعد العلم والاطلاع على الحقائق، وثانياً: كانت الدوافع لذلك هي الظلم والطغيان والحسد، فاليهود اختلفوا في خليفة موسى بن عمران عليه السلام واقتتلوا بينهم، والمسيحيون اختلفوا في أمر التوحيد حيث خلطوه بالشرك والتثليث، وقد اختلف كلّ منهما في أمر الإسلام ودلائل صدق النّبي الواردة في كتبهم، فقبل بعضهم وأنكر آخرون.

والخلاصة إنّ لكلّ دين سماوي دلائله الواضحة التي لا تترك إبهاماً أمام الباحث عن الحقيقة، فالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً - بالإضافة إلى أنّ المعجزات والدلائل الواضحة في نصوص دينه تؤكّد صدقه - وردت أوصافه وعلاماته في الكتب السماوية السابقة التي بقي قسم منها في أيدي اليهود والنصارى، ولذلك بشّر علماؤهم بظهوره قبل ظهوره، ولكنّهم بعد أن بُعث رأوا مصالحهم في خطر، فأنكروا كلّ ذلك، يحدوهم الظلم والحسد والطغيان.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

هذا بيان لمصير أمثال هؤلاء الذين لا يعترفون بآيات الله، إنّهم سوف يتلقّون نتائج عملهم هذا، فالله سريع في تدقيق حساباتهم[1].

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٠٢ من سورة البقرة بشأن معنى «سريع الحساب».

المراد من (آيات الله) في هذه الآية ما يشمل جميع آياته وبراهينه وكتبه السماوية، ولعلّها تشمل أيضاً الآيات التكوينية في عالم الوجود، وما ذكره بعض المفسرين من أنها تعني آيات التوراة والإنجيل خاصة، لا دليل عليه.

بحث

منشأ الاختلافات الدينية

ممّا يلفت النظر في هذه الآية هو أنّ سبب الاختلافات الدينية ليس الجهل وعدم المعرفة دائماً، بل هو على الأكثر الظلم والطغيان والانحراف عن الحقّ واتّباع وجهات النظر الخاصّة، فلو تخلّى الناس - وعلى الأخصّ العلماء منهم - عن التعصّب، والحقد، وضيق النظر، والمصالح الخاصّة، وتجاوز الحدود، والاعتداء على الحقوق، وتعمّقوا في دراسة أحكام الله بنظرة واقعية وبروح من العدالة، فسيرون محجّة الحقّ منيرة وسيستطيعون حلّ الاختلافات بسرعة.

وهذه الآية في الواقع ردّ دامغ على الذين يقولون: (إنّ الدين هو سبب الخلافات وإراقة الدماء بين البشر على امتداد التاريخ).

هؤلاء يخلطون بين (الدين) و(التعصّب الديني) والانحرافات الفكرية، فنحن إذا درسنا تعاليم الأديان السماوية نجد أنّها جميعاً تسعى لتحقيق هدف واحد، وكلّها جاءت من أجل سعادة الإنسان، وإن كانت قد تكاملت تدريجياً على مرور الزمن.

الأديان السماوية أشبه في الواقع بقطرات المطر النازلة من السماء حيث تكمن فيها الحياة، ولكنّها إذا نزلت على الأراضي السبخة، كالأرض المالحة، اكتسبت صبغة هذه الأرض، فهذه الاختلافات ليست من قطرات المطر، بل هي من تلك الأراضي، ولكن من حيث مبدأ التكامل، فإنّ آخر تلك الأديان يكون أكملها.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)﴾

التّفسير

(المحاجّة) أن يسعى كلّ واحد في ردّ الآخر عن حجّته ومحجّته دفاعاً عن عقيدته.

من الطبيعيّ أن يقوم أتباع كلّ دين بالدفاع عن دينهم، ويرون أنّ الحقّ بجانبهم، لذلك يخاطب القرآن رسول الله ﷺ قائلاً: قد يحاورك أهل الكتاب (اليهود والنصارى...) فيقولون إنّهم قد أسلموا بمعنى أنّهم قد استسلموا للحق، وربّما هم يصرّون على ذلك، كما فعل مسيحيّو نجران مع رسول الله ﷺ.

فالآية لا تطلب من رسول الله ﷺ أن يتجنّب محاورتهم ومحاجتهم، بل تأمره أن يسلك سبيلاً آخر، وذلك عندما يبلغ الحوار منتهاه، فعليه لكي يهديهم ويقطع الجدل والخصام أن يقول لهم: إنّني وأتباعي قد أسلمنا لله واتّبعنا الحقّ ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

ثمّ يسأل أهل الكتاب والمشركين إن كانوا هم أيضاً قد أسلموا لله واتّبعوا الحقّ فعليهم أن يخضعوا للمنطق ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ فإذا لم يستسلموا للحقيقة المعروضة أمامهم، فإنّهم لا يكونون قد أسلموا لله. عندئذ لا تمضِ في مجادلتهم، لأنّ الكلام في هذه الحالة لا تأثير له، وما عليك إلّا أن تبلّغ الرسالة لا غير ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

ومن الواضح أن المراد ليس هو التسليم اللّساني والادعائي، بل التسليم الحقيقي والعملي في مقابل الحق، فلو أنهم خضعوا حقيقة للكلام الحق، فلابدّ أن يؤمنوا بدعوتك القائمة على المنطق والدليل الواضح، وإلّا فإنهم غير مستسلمين للحق.

والخلاصة: إنّ وظيفتك هي إبلاغ الرسالة المشفوعة بالدليل والبرهان، فلو كانت لديهم روحية البحث عن الحقيقة فسوف يؤمنون حتماً، وإلّا فإنّك قد أدّيت واجبك تجاههم.

وفي الختام يقول: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فهو سبحانه يعلم المدّعي من الصادق وكذلك أغراض ودوافع المتحاجّين، ويرى أعمالهم الحسنة والقبيحة ويجازي كلّ شخص بعمله.

بحوث

١ - يستفاد من الآية ضمنياً لزوم تجنّب مجادلة المعاندين الذين لا يخضعون للمنطق السليم.

٢ - المقصود بالأُميّين في هذه الآية هم المشركون، والسبب في وصف المشركين بالأُميّين في قبال أهل الكتاب - اليهود والنصارى - هو أنّ المشركين لا يملكون كتاباً سماوياً حتى يكون حافزاً لهم على تعلّم القراءة والكتابة.

٣ - يتّضح من هذه الآية بكلّ جلاء أنّ أُسلوب رسول الله ﷺ لم يكن أُسلوب فرض الفكرة والعقيدة، بل كان أُسلوبه السعي إلى توضيح الحقائق أمام الناس، ثمّ يتركهم وشأنهم لكي يتّخذوا قرارهم في اتّباع الحقّ بأنفسهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

التّفسير

علامات الطغيان

تعقيباً للآية السابقة التي تضمّنت أنّ اليهود والنصارى والمشركين كانوا يجادلون رسول الله ﷺ ولا يستسلمون للحق، ففي الآية الأُولى إشارة إلى بعض علامات هذا الأمر حيث تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ...﴾.

وتشير هذه الآية في البداية إلى ثلاثة ذنوب كبيرة وهي الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير الحق وقتل الّذين يدعون إلى العدالة ويدافعون عن أهداف الأنبياء، وكلّ واحد من هذه الذنوب يكفي لوحده لجعل الإنسان معانداً ومتصلّباً بكفره وعدم تسليمه للحق، بل يسعى لخنق كلّ صوت يدعو إلى الحقّ.

التعبير بـ(يكفرون) و(يقتلون) جاء بصيغة الفعل المضارع وهو إشارة إلى أنّ كفرهم وقتلهم الأنبياء والآمرين بالقسط كان من جملة برنامجهم في الحياة فيرتكبون هذه الأعمال بصورة دائمة ومستمرّة (لأنّ الفعل المضارع يدلّ على الاستمراريّة).

وبطبيعة الحال إنّ هذه الأعمال كانت تصدر عادةً من اليهود حيث نلحظ استمرارهم بهذه الأعمال في زماننا الحاضر بشكل آخر، ولكنّ هذا لا يمنع من عموميّة مفهوم الآية أيضاً.

ثمّ إنّ الآية تشير إلى ثلاث عقوبات مترتّبة على ارتكاب هذه الذنوب، ففي البداية تشير الآية ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثمّ تقول: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فلو فرض أنّهم عملوا بعض الأعمال الصالحة فإنّها ستمحى وتزول بسبب الذنوب الكبيرة التي يرتكبونها.

والثالث أنّ الآية تقول: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ فلا أحد يحميهم من العقوبات الإلهيّة التي تنتظرهم ولا أحد يشفع لهم في ذلك اليوم.

وسبق وأن قلنا في تفسير الآية ٦١ من سورة البقرة إنّ هذه الآية تشير إلى تاريخ اليهود المضطرب، فهم فضلاً عن إنكارهم آيات الله تجرّأوا على قتل الأنبياء، كما كانوا يقتلون أتباع الأنبياء من المجاهدين، ولكنّ هذا العمل لا يختصّ بهم وحدهم، بل يصحّ بالنسبة إلى جميع الأقوام التي فعلت وتفعل فعلهم.

بحوث

١ - وضعت الآية الداعين إلى العدالة والآمرين بالمعروف في مصافّ الأنبياء، وترى الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل هؤلاء، على مستوى واحد، وهذا منتهى اهتمام الإسلام بنشر العدالة في المجتمع.

ويتبيّن من الآية الثانية شدّة العقوبات التي ستنزل بالذين يقتلون أمثال هؤلاء الرجال الصالحين، وقد سبق أن قلنا إنّ (الحبط) لا يشمل جميع الذنوب، بل الذنوب الكبيرة التي تذهب بآثار الأعمال الصالحة(١) وأخيراً عدم قبول أيّة شفاعة بحقّهم، كدليل على عظم ذنوبهم.

٢ - المقصود من ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ليس إمكان جواز قتلهم بحق، بل المقصود هو القول بأنّ قتل الأنبياء كان دائماً ظلماً وبغير حقّ، فعبارة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قيد توضيحيّ للتوكيد.

٣ - يستفاد من عبارة ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أنّها تشمل الكفّار المعاصرين للنبيّ ﷺ أيضاً، مع أنّنا نعلم أنّ هؤلاء لم يقتلوا أحداً من الأنبياء، وقد أشرنا من قبل إلى السبب وقلنا إذا رضي أحد بفعال قوم وسلوكهم وأفكارهم، فإنّه يكون شريكاً لهم في أعمالهم الخيّرة والسيّئة، ولمّا كانت هذه الجماعة المعاصرة للنبيّ من الكفّار -

(١) انظر تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة بخصوص «حبط».

وخاصّة اليهود - تؤيّد أعمال أسلافهم وجرائمهم، فهم يشاركونهم فيما ينتظرهم من العقاب أيضاً.

٤ - (البشارة) هي إخبار الرجل خبراً سارّاً يبسط أسارير وجهه. واستعمال هذه الكلمة في الإخبار بالعذاب في هذه الآية وفي غيرها إنّما هو نوع من التهديد والاستهزاء بأفكار المذنبين، وهذا أشبه بما هو متداول بيننا اليوم، إذ نقول - مستهزئين - لمن أساء الفعل: حسناً، سوف نكافئك على ذلك.

٥ - ورد في حديث عن أبي عبيدة الجراح أنّه قال سألت رسول الله ﷺ عن أيّ الناس أشدّ عذاباً في الآخرة؟

فقال: رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بالمعروف أو نهى عن منكر ثمّ قرأ ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ ثمّ قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيّاً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم، وهو الذي ذكره الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير (مجمع البيان) عن ابن عبّاس أنّه حدث على عهد رسول الله ﷺ أن ارتكب يهودي الزنا مع امرأة محصنة، على الرغم من أنّ ما جاء في التوراة يقضي بالرجم على أمثال هؤلاء، فإنّهما لم ينالا عقاباً لأنّهما كانا من الأشراف، واتّفق اليهود

(١) تفسير مجمع البيان: ج ١، وج ٢، ص ٤٢٣؛ وتفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ١٣.

على الرجوع إلى رسول الإسلام ﷺ ليكون هو الحكم، آملين أن ينالا عقاباً أخف.

غير أنّ رسول الله ﷺ أيّد العقاب المعيّن لهما، فاعترض بعض كبار اليهود على حكم الرسول ﷺ وأنكروا أن يكون في اليهود مثل هذا العقاب.

فقال رسول الله ﷺ: (بيني وبينكم التوراة) فوافقوا، واستدعوا ابن صوريا أحد علمائهم من فدك إلى المدينة، وعند وصوله عرفه النبيّ ﷺ وسأله: أأنت ابن صوريا؟ قال: نعم. فقال: أأنت أعلم علماء اليهود؟ قال: هكذا يحسبونني، فأمر رسول الله أن يفتحوا أمامه التوراة حيث ذكر الرجم ليقرأه، ولكنّه لمّا كان مطّلعاً على تفاصيل الحادث قرأ جانباً من التوراة، وعندما وصل إلى عبارة الرجم وضع يده عليها وتخطّاها ولم يقرأها وقرأ ما بعدها، فأدرك (عبد الله بن سلام) - الذي كان من علماء اليهود ثمّ أسلم - مكر ابن صوريا وقام إليه ورفع يده عن الآية وقرأ ما كان قد أخفاه بيده، قائلاً: تقول التوراة: على اليهود، إذا ثبت زنا المحصن بالمحصنة رجما، فأمر رسول الله ﷺ أن ينفّذ العقاب بحقّهما بموجب شريعتهم، فغضب بعض اليهود، فنزلت هذه الآية في حقّهم[1].

التّفسير

هذه الآيات تصرّح ببعض تحريفات أهل الكتاب الذين كانوا يتوسّلون بالتبريرات والأسباب الواهية لتفادي إجراء حدود الله، مع أنّ كتابهم كان صريحاً في بيان حكم الله بغير إبهام، وقد دُعوا للخضوع للحكم الموجود في كتابهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

ولكن عصيانهم كان ظاهراً ومصحوباً بالإعراض والطغيان واتّخاذ موقف المعارض لأحكام الله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

يمكن الاستنتاج من ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ أنّ ما كان بين أيدي اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل لم يكن كاملاً، بل كان قسم منهما بين أيديهم، بينما كان القسم الأعظم من هذين الكتابين السماويّين قد ضاع أو حُرِّف.

(١) في التوراة الموجودة حاليّاً، في سفر اللاويّين في الفصل العشرين، الجملة العاشرة نقرأ ما يلي: «إذا زنا أحد بامرأة غيره، أي بامرأة جاره (مثلاً) يجب قتل الزاني والزانية». على الرغم من أنّ الرجم نفسه لم يرد، فقد ورد العقاب بالموت، وربما يكون التصريح بالرجم قد ورد في النسخة التي كانت موجودة على عهد رسول الله ﷺ (تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج ٩، ص ٦٩).

هذه الآية تؤيّدها آيات أُخرى في القرآن، كما أنّ هناك شواهد ودلائل تاريخية تؤكّد ما ذهبنا إليه.

وفي الآية الثانية شرح سبب عصيانهم وتمردهم، وهو أنّهم كانوا يحملون فكرة خاطئة عن كونهم من عنصر ممتاز، وهم اليوم أيضاً يحملون هذه الفكرة الباطلة الواضحة في كتاباتهم الدالّة على الاستعلاء العنصري.

كانوا يظنّون أنّ لهم علاقة خاصّة بالله سبحانه، حتى إنّهم سمّوا أنفسهم (أبناء الله) كما ينقل القرآن ذلك على لسان اليهود والنصارى في الآية ١٨ من سورة المائدة قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ . وبناءً على ذلك كانوا يرون لأنفسهم حصانة تجاه العقوبات الربّانية، وكانوا ينسبون ذلك إلى الله نفسه. لذلك كانوا يعتقدون أنّهم لن يعاقَبوا على ذنوبهم يوم القيامة إلّا لأيّام معدودات: ﴿قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ .

ولعلّ القصد من (الأيام المعدودات) هي الأربعون يوماً التي عبدوا فيها العجل في غياب موسى عليه السلام ، وكان هذا ذنباً لم يكونوا هم أنفسهم قادرين على إنكاره.

أو لعلّها أيّام قليلة من أعمارهم ارتكبوا فيها ذنوباً كبيرة غير قابلة للإنكار، ولم يستطيعوا حتى إخفاءها.

هذه الامتيازات الكاذبة المصطنعة، التي أسبغوها على أنفسهم ونسبوها إلى الله، صارت شيئاً فشيئاً جزءاً من معتقداتهم بحيث إنّهم اغترّوا بها وراحوا يخالفون أحكام الله ويخرقون قوانينه مجترئين عليها جرأةً لا مزيد عليها ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ .

وتدحض الآية الثالثة كلّ هذه الخيالات الباطلة وتقول: لاشكّ أنّ هؤلاء سوف يلاقون يوماً يجتمع فيه البشر أمام محكمة العدل الإلهي فيتسلّم كلّ فرد قائمة أعماله، ويحصدون ناتج ما زرعوه، ومهما يكن عقابهم فهم لا يُظلمون لأنّ ذلك هو حاصل أعمالهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

يتّضح من ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أنّ عقاب المرء وثوابه يوم القيامة وفوزه وخذلانه في العالم الآخر إنّما يرتبط بأعماله هو، ولا يؤثّر فيه شيء آخر، هذه حقيقة أُشير إليها في كثير من الآيات الكريمة.

سؤالان:

١ - أيمكن للإنسان أن يختلق كذباً أو افتراءً وينسبه إلى الله، ثمّ يتأثّر به هو ويعتوره الغرور إلى تلك الدرجة التي أشار إليها القرآن في الآيات السابقة بالنسبة لليهود؟

ليس من العسير الردّ على هذا السؤال، وذلك لأنّ قضية خداع النفس من القضايا التي يعترف بها علم النفس المعاصر، إنّ العقل الإنساني يسعى أحياناً إلى استغفال الضمير بأن يغيّر وجه الحقيقة في عين ضميره، كثيراً ما نشاهد أُناساً ملوّثين بالذنوب الكبيرة، كالقتل والسرقة وأمثالهما، على الرغم من إدراكهم تماماً قبح تلك الأعمال يسعون لإظهار ضحاياهم بأنّهم كانوا يستحقّون ما أصابهم لكي يسبغوا هدوءً كاذباً على ضمائرهم، وكثيراً ما نرى المدمنين على المخدّرات يبرّرون فعالهم بأنّهم يستهدفون الفرار من مصائب الدنيا ومشاكلها.

ثمّ إنّ هذه الأكاذيب والافتراءات عن تفوّقهم العنصري التي حاكتها الأجيال السابقة من أهل الكتاب وصلت بالتدريج إلى الأجيال التالية التي لم تكن تعرف الكثير عن هذا الموضوع - ولم تعن بالبحث عن الحقيقة - بصورة عقائد مسلّم بها.

٢ - يمكن أن يقال إنّ الاعتقاد (بالعذاب لأيام معدودات) منتشر بيننا نحن المسلمين أيضاً، لأنّنا نعتقد أنّ المسلمين لا يخلّدون في العذاب الإلهي، إذ إنّ إيمانهم سوف ينجيهم أخيراً من العذاب.

ولكن ينبغي التوكيد هنا أنّنا لا يمكن أن نعتقد بأنّ المسلم المذنب والملوّث بأنواع الآثام يعذّب بضعة أيّام فقط، بل إنّنا نعتقد أنّ عذاب هؤلاء يطول لسنوات وسنوات لا يعرف مداها إلّا الله، إلّا أنّ عذابهم لا يكون أبدياً خالداً. وإذا وجد حقّاً بين المسلمين من يحسبون أنّهم بالاحتماء بالإسلام والإيمان والنبيّ ﷺ والأئمّة الأطهار يجوز لهم أن يرتكبوا ما يشاؤون من الذنوب، ثمّ لا يصيبهم من العقاب سوى بضعة أيّام من العذاب، فإنّهم على خطأ كبير ويجهلون تعاليم الإسلام وروح تشريعاته.

ثمّ إنّنا لا نعترف بأيّ امتياز خاصّ للمسلمين، بل نعتقد أنّ كلّ أُمّة اتّبعت نبيّها في زمانها ثمّ أذنبت مشمولة بهذا القانون أيضاً، بغضّ النظر عن عنصرها، أمّا اليهود فيخصّون أنفسهم بهذا الامتياز دون غيرهم بزعم تفوّقهم العنصري، وقد ردّ عليهم القرآن زعمهم الكاذب هذا في الآية ١٨ من سورة المائدة: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

سبب النّزول

يذكر المفسّر المعروف (الطبرسي) في (مجمع البيان) سببين لنزول هاتين الآيتين يتناولان حقيقة واحدة:

١ - عندما فتحت مكّة، بشّر رسول الله ﷺ المسلمين بأنّ دولة الفرس ودولة الروم سرعان ما ستنضويان تحت لواء الإسلام، غير أنّ المنافقين الذين لم تكن قلوبهم قد استنارت بنور الإيمان ولم يدركوا روح الإسلام، اعتبروا ذلك مبالغة، وقالوا بدهشة: لم يقنع محمّد بالمدينة ومكّة، وهو يطمع الآن بفتح فارس والروم، فنزلت الآية المذكورة(١).

٢ - كان رسول الله ﷺ والمسلمون مشغولون بحفر الخندق في أطراف المدينة، وانتظم المسلمون في جماعات يحفرون بسرعة وجدّ لكي ينجزوا هذا الحصن الدفاعي قبل وصول جيش الأعداء، وفجأةً ظهرت صخرة كبيرة بيضاء صلدة وسط الخندق عجز المسلمون عن كسرها أو تحريكها، فجاء (سلمان) إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه الأمر، فنزل رسول الله ﷺ إلى الخندق وتناول المعوَل من سلمان وأنزل ضربة شديدة بالصخرة، فانبعث منها الشرر، فصاح النبيّ ﷺ مكبّراً تكبيرة الانتصار، فردّد المسلمون التكبير وراح صوتهم يدوّي في كلّ مكان، ومرّة أُخرى أنزل رسول الله ﷺ مِعوَله على الصخرة، فانبعث الشرر وكسرت قطعة منها، وارتفع صوت تكبير الانتصار من النبيّ والمسلمين بعده، وللمرّة الثالثة ارتفع مِعوَل النبيّ ﷺ ونزل على الصخرة، وللمرّة الثالثة انبعث الشرر من الضربة وأضاء ما حولها، وتحطّمت الصخرة، وارتفع صوت التكبير بين جنبات الخندق.

فقال سلمان: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، لقد رأيت شيئاً ما رأيت منك قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم وقال: رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: ضربت ضربتي الأُولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنّها أنياب الكلاب، فأخبرني جبرئيل أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، ثمّ ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنّها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرئيل أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، ثمّ ضربت ضربتي الثالثة فبرق

---

(١) إرشاد المفيد: نقلاً عن تفسير الميزان. تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج ١٧، ص ١٦٩ و ١٧٠.

الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنّها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرئيل أن أُمّتي ظاهرة عليها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون وحمدوا الله، أمّا المنافقون فقد عبسوا وقالوا بلهجة المعترض: أمل باطل ووعد مستحيل! هؤلاء يحفرون الخنادق خوفاً على أرواحهم من جيش صغير يخشون مواجهته، ثمّ يحلمون بفتح أعظم دول العالم، وعندئذ نزلت الآيات المذكورة[١].

التّفسير

بيده كلّ شيء

دار الكلام في الآيات السابقة حول المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا يخصّون أنفسهم بالعزة وبالملك، وكيف أنّهم كانوا يرون أنفسهم في غنى عن الإسلام. فنزلت هاتان الآيتان تفنّدان مزاعمهم الباطلة يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

إنّ المالك الحقيقي للأشياء هو خالقها، وهو الذي يعطي لمن يشاء الملك والسلطان، أو يسلبهما ممّن يشاء، فهو الذي يعز، وهو الذي يذل، وهو القادر على كلّ هذه الأمور، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ولا حاجة للقول بأنّ مشيئة الله في هذه الآيات لا تعني أنّه يعطي بدون حساب ولا موجب، أو يأخذ بدون حساب ولا موجب، بل إنّ مشيئته مبنيّة على الحكمة والنظام ومصلحة عالم الخلق وعالم الإنسانية عموماً، وبناءً على ذلك فإنّ أي عمل يقوم به إنّما هو خير عمل وأصحّه.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾.

(خير) صيغة تفضيل يقصد بها تفضيل شيء على شيء، والكلمة تطلق أيضاً على كلّ شيء حسن، بدون مفهوم التفضيل، والظاهر من الآية مورد البحث أنّها جاءت بالمعنى الثاني هذا، أي إنّ مصدر كلّ خير بيده ومنه سبحانه.

وعبارة (بيدك الخير) تحصر كلّ الخير بيد الله من جهتين:

١ - الألف واللام في (الخير) هما للاستغراق.

٢ - إنّ تقديم الخبر (بيدك) وتأخير المبتدأ (الخير) دليل على الحصر كما هو معلوم، فيكون المعنى: (كلّ الخير بيدك وحدك لا بيد غيرك).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج ١٧، ص ١٧٠ و ١٧١.

كذلك يستفاد من ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أنّ الله هو منبع كلّ خير وسعادة، فإذا أعزّ أحداً أو أذلّه، أو أعطى السلطنة والحكم لأحد الناس أو سلبها منه فذلك قائم على العدل، ولا شرّ فيه، فالخير للأشرار أن يكونوا في السجن، والخير للأخيار أن يكونوا أحراراً.

وبعبارة أُخرى: إنّه لا وجود للشر في العالم، ونحن الذين نقلب الخيرات إلى شرور، فعندما تحصر الآية الخير بيده تعالى ولا تتحدث عن الشر إنّما هو بسبب أنّ الشر لا يصدر من ذاته المقدّسة إطلاقاً.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذه الآية جاءت دليلاً على الآية السابقة، أي ما دام الله ذا قدرة مطلقة، فليس ثمّة ما يمنع أن يكون كلّ خير خاضعاً لمشيئته.

الحكومات الصالحة والطالحة

يُطرح هنا سؤال هام يقول: قد يستنتج بعضهم من هذه الآية أنّ من يصل إلى مركز الحكم، أو يسقط منه، فذلك بمشيئة الله، ومن هنا فلا بدّ من قبول حكومات الجبّارين والظالمين في التاريخ مثل حكومات جنكيز خان وهتلر وغيرهما، بل إنّنا نقرأ في التاريخ أنّ (يزيد بن معاوية) - تبريراً لحكمه الشائن الظالم - استشهد بهذه الآية(١)، لذلك نرى في كتب التفسير توضيحات مختلفة بشأن هذه الشبهة، من ذلك أنّ الآية تختصّ بالحكومات الإلهيّة، أو أنّها تقتصر على حكومة رسول الله ﷺ التي أنهت حكم جبّاري قريش.

ولكن الآية تطرح في الواقع مفهوماً عامّاً يقضي أنّ جميع الحكومات الصالحة وغير الصالحة مؤطّرة بقانون مشيئة الله، ولكن ينبغي أن نعلم أنّ الله قد أوجد مجموعة من الأسباب للتقدّم والنجاح في العالم، وأنّ الاستفادة من تلك الأسباب هي نفسها مشيئة الله، وعليه فإنّ مشيئة الله هي الآثار المخلوقة في تلك الأسباب والعوامل، فإذا قام ظَلَمة وطغاة - مثل جنكيز ويزيد وفرعون - باستغلال أسباب النجاح، وخضعت لهم شعوب ضعيفة وجبانة، وتحمّلت حكمهم الشائن، فذلك من نتائج أعمال تلك الشعوب وقد قيل: كيفما كنتم يولّى عليكم.

ولكن إذا كانت هذه الشعوب واعية، وانتزعت تلك الأسباب والعوامل من أيدي الجبابرة وأعطتها بيد الصلحاء، وأقامت حكومات عادلة، فإنّ ذلك أيضاً نتيجةً لأعمالها ولطريقة استفادتها من تلك العوامل والأسباب الإلهيّة.

---

(١) تفسير الميزان، ج ٣، ص ١٤٣.

في الواقع، أنّ الآية دعوة للأفراد والمجتمعات إلى اليقظة الدائمة والوعي والاستفادة من عوامل النجاح والنصر، لكي يشغلوا المواقع الحسّاسة قبل أن يستولي عليها أُناس غير صالحين.

خلاصة القول: إنّ مشيئة الله هي نفسها عالم الأسباب، إنّما الاختلاف في كيفية استفادتنا من عالم الأسباب هذا.

في الآية التالية ولتأكيد حاكمية الله المطلقة على جميع الكائنات تضيف الآية:

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ ...﴾.

وبهذا تذكر الآية بعض المصاديق البارزة على قدرة الله تعالى، ومنها مسألة التغيير التدريجي للّيل والنهار، بمعنى أن الليل يقصر مدّته في النصف من السنة، وهو ما عُبّر عنه بدخوله في النهار، بينما يطول اللّيل ويقصر النهار في النصف الثاني من السنة، وهو دخول وولوج النهار في اللّيل، وكذلك اخراج الموجودات الحية من الميّتة وبالعكس، وكذلك الرزق الكثير الذي يكون من نصيب بعض الأشخاص دون بعض، كلّها من علائم قدرته المطلقة.

بحث

(الولوج) بمعنى الدخول، والقصد من الآية هو هذا التغيير التدريجي الذي نراه بين الليل والنهار طوال السنة، هذا التغيير ناشىء عن انحراف محور الأرض عن مدارها بنحو ٢٣ درجة واختلاف زاوية سقوط أشعّة الشمس عليها، لذلك نرى الشتاء في النصف الشمالي من خطّ الاستواء تطول أيّامه تدريجياً، وتقصر لياليه تدريجياً، حتى أوائل الصيف، حيث ينعكس التغيير فتقصر أيّامه وتطول لياليه حتى أوائل الشتاء، أمّا في جنوب خطّ الاستواء فالتناظر يكون معكوساً.

وبناءً على ذلك فإنّ الله يدخل اللّيل في النهار، ويدخل النهار في اللّيل، دائماً، أي أنّه ينقص هذا ليزيد ذاك وبالعكس.

قد يقول قائل إنّ اللّيل والنهار في خطّ الاستواء الحقيقي وفي نقطتي القطبين في الشمال والجنوب متساويان وليس ثمّة أيّ تغيير فيهما، فاللّيل والنهار في خطّ الاستواء متساويان ويمتدّ كلّ منهما اثنتي عشر ساعة على امتداد السنة، وفي القطبين يمتدّ اللّيل ستة أشهر ومثله النهار، لذلك فإنّ الآية ليست عامّة.

في الجواب على هذا التساؤل نقول: إنّ خطّ الاستواء الحقيقي خطّ وهمي، والناس عادةً يعيشون على طرفي الخط، كذلك الحال في القطبين فهما نقطتان وهميّتان،

وسكّان القطبين - إن كان فيهما سكّان - يعيشون في مناطق أوسع طبعاً من نقطة القطب الحقيقية، وعليه فالاختلاف موجود في كلّ الحالات.

وقد يكون للآية معنى آخر بالإضافة إلى ما ذكر، وهو أنّ اللّيل والنهار لا يحدثان فجأةً في الكرة الأرضية بسبب وجود طبقات (الجو) حولها. فالنهار يبدأ بالتدريج من الفجر وينتشر، ويبدأ اللّيل من حمرة الأُفق الغربي والغسق، ثمّ ينتشر الظلام حتى يعمّ جميع الأرجاء.

إنّ للتدرّج في تغيير اللّيل والنهار - بأيّ معنى كان - آثاراً مفيدة في حياة الإنسان والكائنات الأُخرى على الأرض، لأنّ نموّ النباتات وكثير من الحيوانات يتمّ في إطار نور الشمس وحرارتها التدريجيّة، فمن بداية الربيع حيث يزداد بالتدريج نور الشمس وحرارتها، تطوي النباتات وكثير من الحيوانات كلّ يوم مرحلة جديدة من تكاملها، ولمّا كانت هذه الموجودات تحتاج بمرور الأيّام إلى مزيد من النور والحرارة، فإنّ حاجتها هذه تلّبى عن طريق التغييرات التدريجيّة للّيل والنهار، لتصل إلى نقطة تكاملها النهائيّة.

فلو كان اللّيل والنهار كما هما دائماً، لاختلّ نموّ كثير من النباتات والحيوانات، ولاختفت الفصول الأربعة التي تنشأ من اختلاف اللّيل والنهار ومن مقدار زاوية سقوط نور الشمس، ولخسر الإنسان فوائد ذلك.

كذلك هي الحال إذا أخذنا بنظر الاعتبار المعنى الثاني في تفسير الآية أي أنّ حلول اللّيل والنهار تدريجي لا فجائي، وأنّ هناك فترة بين الطلوعين تفصل بينهما، فمن ذلك يتّضح أنّ هذا التدرّج في حلول اللّيل والنهار نعمة كبرى لسكنة الأرض، لأنّهم يتعرّفون بالتدرج على الظلام أو الضياء، وبذلك تتطابق قِواهم الجسمية وحياتهم الاجتماعية مع هذا التغيير، وإلّا حدثت حتماً مشاكل لهم.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

إنّ معنى خروج (الحيّ) من (الميّت) هو ظهور الحياة من كائنات عديمة الحياة، فنحن نعلم أنّه في اليوم الذي استعدّت فيه الأرض لاستقبال الحياة، ظهرت كائنات حيّة من كائنات عديمة الحياة، أضف إلى ذلك أنّ مواد لا حياة فيها تصبح باستمرار أجزاءً من خلايانا الحيّة وخلايا جميع الكائنات الحيّة في العالم، وتتبدّل إلى مواد حيّة.

أمّا خروج (الميّت) من (الحيّ) فهو دائم الحدوث أمام أنظارنا.

إنّ الآية - في الواقع - إشارة إلى قانون التبادل الدائم بين الحياة والموت، وهو أعمّ القوانين التي تحكمنا وأعقدها، كما أنّه أروعها في الوقت نفسه.

لهذه الآية تفسير آخر أيضاً - لا يتعارض مع التفسير السابق - وهو مسألة الحياة والموت المعنويّين، فنحن كثيراً ما نرى أنّ بعض المؤمنين - وهم الأحياء الحقيقيّون - يخرجون من بعض الكافرين - وهم الأموات الحقيقيّون.. وقد يحدث العكس، حين يخرج الكافر من المؤمن.

إنّ القرآن يعبّر عن الحياة والموت المعنويّين بالإيمان والكفر في كثير من آياته.

وبموجب هذا التفسير يكون القرآن قد ألغى قانون الوراثة الذي يعتبره بعض العلماء من قوانين الطبيعة الثابتة. فالإنسان يتميّز بحرّية الإرادة وليس مثل الكائنات غير الحيّة في الطبيعة التي تقع تحت تأثير مختلف العوامل وقوعاً إجبارياً، وهذا بذاته مظهر من مظاهر قدرة الله التي تغسل آثار الكفر في نفوس أبناء الكافرين - أُولئك الذين يريدون حقّاً أن يكونوا مؤمنين - ويغسل آثار الإيمان من أبناء المؤمنين - الذين يريدون حقّاً أن يكونوا كافرين.. وهذا الاستقلال في الإرادة، القادر على الانتصار، حتى في ظروف غير مؤاتية، من مظاهر قدرة الله أيضاً.

هذا المعنى يرد في حديث عن رسول الله ﷺ، كما جاء في تفسير (الدرّ المنثور) عن سلمان الفارسي أنّه قال: إنّ رسول الله ﷺ فسّر الآية ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فقال: أي أنّه يخرج المؤمن من صلب الكافر، والكافر من صلب المؤمن[1].

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هذه الآية تعتبر من باب ذكر (العام) بعد (الخاص)، إذ الآيات السابقة قد ذكرت نماذج من الرزق الإلهي، أمّا هنا فالآية تشير إلى جميع النِعم على وجه العموم، أي أنّ العزّة والحكم والحياة والموت ليست هي وحدها بيد الله، بل بيده كلّ أنواع الرزق والنِعم أيضاً.

وتعبير ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يشير إلى أنّ بحر النِعم الإلهية من السعة والكبر بحيث إنّه مهما أُعطي منه فلن ينقص منه شيء ولا حاجة به لضبط الحسابات، فالتسجيل في دفاتر الحساب من عادة ذوي الثروات الصغيرة المحدودة التي يخشى عليها من النفاد والنقصان، فهؤلاء هم الذين يحسبون حسابهم قبل أن يهبوا لأحد شيئاً، لئلّا تتبدّد ثرواتهم، أمّا الله فلا يخشى النقص فيما عنده، ولا أحد يحاسبه، ولا حاجه له إلى الحساب.

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ١٥؛ وبحار الانوار، ج ٦، ص ١٥٦.

يتّضح ممّا قلنا أنّ هذه الآية لا تتعارض مع الآيات التي تبيّن التقدير الإلهي وتطرح موضوع لياقة الأفراد وقابليّتهم ومسألة التدبير في الخلقة.

ليس في الأمر إجبار

وهنا يُطرح سؤال آخر وهو: إننا نعلم أنّ الإنسان حرّ في كسب رزقه بغير إجبار، وذلك بموجب قانون الخلق وحكم العقل ودعوة الأنبياء، فكيف تقول هذه الآية إنّ كلّ هذه الأُمور بيد الله؟

في الجواب نقول: إن المصدر الأوّل لعالم الخلق وجميع العطايا والإمكانات الموجودة عند الناس هو الله، فهو الذي وضع جميع الوسائل في متناول الناس لبلوغ العزّة والسعادة، وهو الذي وضع في الكون تلك القوانين التي إذا لم يلتزمها الناس انحدروا إلى الذلّ والتعاسة، وعلى هذا الأساس يمكن إرجاع كلّ تلك الأُمور إليه، وليس في ذلك أيّ تعارض مع حرّية إرادة البشر، لأنّ الإنسان هوالذي يتصرّف بهذه القوانين والمواهب والقوى والطاقات تصرّفاً صحيحاً أوخاطئاً.

﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

التّفسير

العلاقة مع الأجنبي

ذكرت الآيات السابقة أن العزّة والذلّة وجميع الخيرات بيد الله تعالى. وبهذه المناسبة فإنّ هذه الآية تحذّر المؤمنين من مصادقة الكافرين وتنهاهم بشدّة عن موالاة الكفّار، لأنّه إذا كانت هذه الصداقة والولاء من أجل العزّة والقدرة والثروة، فإنّها جميعاً بيد الله عزّوجلّ، ولذلك تقول الآية: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولو ارتكب أحد المؤمنين ذلك فإنه يقطع ارتباطه مع الله تماماً ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ وقد نزلت هذه الآية في وقت كانت هناك روابط بين المسلمين والمشركين مع اليهود والنصارى.

وهذه الآية درس سياسيّ واجتماعي مهمّ للمسلمين، فتحذّرهم من اتّخاذ الأجنبي

صديقاً أو حامياً أو عوناً أو رفيقاً، في أيّ عمل من أعمالهم، ومن الانخداع بكلامه المعسول وعروضه الجذّابة وتظاهره بالمحبّة الحميمة، لأنّ التاريخ قد أثبت بأنّ أقسى الضربات التي تلقّاها المؤمنون جاءت من هذا الطريق.

لو أنّنا طالعنا تاريخ الاستعمار للاحظنا أنّ المستعمرين جاؤوا دائماً في لبوس الصداقة والترحّم وحبّ الإعمار والبناء فتغلغلوا بين طبقات المجتمع.

إنّ كلمة (استعمار) التي تعني الإعمار والبناء دليل على هذا الخداع، فهم بعد أن يتمكّنوا من إنشاب مخالبهم في جذور المجتمع المستعمَر، يبدأون بامتصاص دمائه بكلّ قسوة وبغير رحمة.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنّ الناس في حياتهم الاجتماعية لا بدّ لهم من اتّخاذ الأولياء والأصدقاء، فعلى المؤمنين أن يختاروا أولياءهم من بين المؤمنين، لا من بين الكافرين.

﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

تقول الآية: إن الذين يعقدون أواصر صداقتهم وولائهم مع أعداء الله، ليسوا من الله في أيّ شيء من الأشياء، أي إنّهم يكونون قد تخلّوا عن إطاعة أوامر الله وقطعوا علاقتهم بالجماعة المؤمنة الموحّدة، وانقطعت ارتباطاتهم من جميع الجهات.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

هذا استثناء من الحكم المذكور، وهو أنّه إذا اقتضت الظروف - التقية - فللمسلمين أن يظهروا الصداقة لغير المؤمنين الذين يخشون منهم على حياتهم، ولكن الآية تعود في الختام لتؤكّد الحكم الأوّل فتقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فالله ينذر الناس أوّلاً بغضب منه وبعقاب شديد، ثمّ إنّ مرجع الناس جميعاً إلى الله، وإن تولّوا أعداء الله نالوا عاجلاً نتيجة أعمالهم.

بحثان

١ - التقية أو الدرع الواقي

صحيح أنّ الإنسان قد يضحّي حتى بحياته من أجل هدف كبير ولصيانة الشرف ونصرة الحقّ وقمع الباطل، ولكن هل يجيز عاقل لنفسه أن تتعرّض للخطر دون أن يكون أمامه هدف هام؟

الإسلام يجيز للإنسان صراحة أن يمتنع عن إعلان الحقّ مؤقّتاً وأن يؤدّي واجبه في

الخفاء حين يعرضه ذلك لخطر في النفس والمال والعرض وحين لا يكون للإعلان نتيجة مهمّة وفائدة كبيرة، كما جاء في هذه الآية، وكما جاء في الآية ١٠٦ من سورة النحل حيث يقول: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

إنّ كتب التاريخ والحديث الإسلامي مازالت تحفظ حكاية (عمّار) وأبيه وأُمّه إذ وقعوا في قبضة عبدة الأصنام الذين راحوا يعذّبونهم لكي يرتدّوا عن الإسلام، فرفض والدا عمّار ذلك فقتلهما المشركون، غير أنّ عمّاراً قال بلسانه ما أرادوا أن يقوله، ثمّ هرع باكياً إلى رسول الله ﷺ خوفاً من الله، فقال له رسول الله ﷺ: «إن عادوا لك فعد لهم» أي إذا قبضوا عليك مرّة أُخرى وطلبوا منك أن تقول شيئاً فقله، وبهذا هدأ روعه وزال عنه خوفه.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ حكم التقية يختلف باختلاف الظروف، فهي قد تكون واجبة، وقد تكون حراماً، وقد تكون مباحة.

تجب التقية حيثما تتعرّض حياة الإنسان للخطر دونما فائدة تذكر، أمّا إذا كانت التقية سبباً في ترويج الباطل وضلالة الناس وإسناد الظالم فهي هنا حرام.

وهذا جواب لجميع الاعتراضات التي ترد بهذا الشأن. لو أنّ المعترضين دقّقوا في البحث لأدركوا أنّ الشيعة ليسوا منفردين بهذا الاعتقاد، بل إنّ التقية في موضعها حكم عقلي قاطع ويتّفق مع الفطرة الإنسانية.

فجميع عقلاء العالم - حين يرون أنفسهم أمام طريقين: إمّا الإعلان عن عقيدتهم والمخاطرة بالنفس والمال والكرامة، أو إخفاء معتقداتهم - يمعنون النظر في الظروف القائمة، فإن كان الإعلان عن العقيدة يستحقّ كلّ هذه التضحية بالنفس والمال والكرامة اعتبروا إعلانها عملاً صحيحاً، وإن لم يكن للإعلان نتيجة تذكر تركوا ذلك.

٢ - التقية أو تغيير أُسلوب النضال

في تاريخ النضالات الدينية والاجتماعية والسياسية حالات إذا أراد فيها المدافعون عن الحقّ أن يناضلوا علانية، فإنّهم يتعرّضون للإبادة هم ومبادئهم أو يواجهون الخطر على الأقلّ، مثل الحالة التي مرّ بها شيعة علي عليه السلام على عهد بني أُمية، في مثل هذه الحالة يكون الطريق الصحيح والمعقول هو أن لا يبدّدوا قواهم، وأن يواصلوا نضالهم غير المباشر في الخفاء. التقية في مثل هذه الحالات أشبه بتغيير أُسلوب النضال الذي يجنّبهم الفناء ويحقّق لهم النصر في الكفاح، إنّ الذين يرفضون التقية كلّية ويفتون ببطلانها لا ندري ما الذي يقترحونه في مثل هذه الحالات؟ أيرون الفناء خيراً، أم

استمرار النضال بشكل صحيح ومنطقي؟ هذاالطريق الثاني هو التقية، وأمّا الطريق الأوّل فليس بمقدور أحد أن يجيزه.

ويتضح ممّا تقدّم أن التقية هي أصل قرآني مسلّم به، ولكنّها تكون مشروعة في موارد معينة ووفق ضوابط خاصّة، وما نرى من بعض الجهلاء أنّهم تصوّروا أنّ التقية من اختلاقات أتباع أهل البيت عليهم السلام فهو دليل على عدم اطلاعهم على القرآن بصورة كافية.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

التّفسير

العالم بأسراركم

نهت الآية السابقة عن الصداقة والتعاون مع الكافرين والاعتماد عليهم نهياً شديداً، واستثنت من ذلك حالة (التقية).

إلّا أنّ بعضهم قد يتّخذ من (التقية) في غير محلّها ذريعة لمدّ يد الصداقة إلى الكفّار أو الخضوع لولايتهم وسيطرتهم. وبعبارة أُخرى إنّهم قد يستغلّون (التقية) ويتّخذونها مبرّراً لعقد أواصر العلاقات مع أعداء الإسلام، فهذه الآية تحذّر أمثال هؤلاء وتأمرهم أن يضعوا نصب أعينهم علم الله المحيط بأسرار القلوب والعالِم بما ظهر وما خفي وتقول ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ ولا يقتصر علم الله الواسع على ذلك بل: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

في الواقع أنّ هذه الآية لكي تنبّه الناس إلى إحاطة الله بأسرارهم الخفية، تشير إلى أنّ معرفة الله بأسرارهم إنّما هي جانب صغير من مدى علمه اللامحدود الذي يسع السماوات والأرض، وهو إضافة إلى علمه الواسع قادر على معاقبة المذنبين: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

حضور الأعمال يوم القيامة

تشير هذه الآية إلى حضور الأعمال الصالحة والسيئة يوم القيامة، فيرى كلّ امرئ ما عمل من خير وما عمل من شرّ حاضراً أمامه، فالذين يشاهدون أعمالهم الصالحة يفرحون ويستبشرون، والذين يشاهدون أعمالهم السيّئة يستولي عليهم الرعب ويتمنّون لو أنّهم استطاعوا أن يبتعدوا عنها ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ فالآية لم تقل إنّه يتمنّى فناء عمله وسيئاته، لأنّه يعلم أنّ كلّ شيء في العالم لا يفنى فلذلك يتمنّى أن يبتعد عنه كثيراً.

(الأمد) في اللغة الزمان المحدود، و(الأبد) اللامحدود، والأمد يقصد من استعماله غالباً انتهاء الزمان، وإن استعمل أحياناً أيضاً في مطلق الزمان المحدود.

بناءً على ذلك، فإنّ المذنبين - كما تقول الآية - يتمنّون أنّ يمتدّ الفاصل الزماني بينهم وبين ذنوبهم طويلاً، وهو تعبير عن ذروة ما يشعرون به من تعاسة جرّاء أعمالهم السيّئة، لأنّ طلب البُعد الزماني أبلغ في التعبير عن هذا الاستياء من طلب البُعد المكاني، فاحتمال الحضور موجود في الفاصل المكاني، بينما ينتفي هذا الاحتمال تماماً في الفاصل الزماني.

فإذا عاش أحد - مثلاً - في فترة الحرب العالمية، شمله القلق والاضطراب وإن ابتعد مكانياً عن منطقة الحرب، لكن الشخص الذي يعيش في فترة زمنية بعيدة عن الحرب لا يشعر بذلك القلق.

هذا مع أن بعض المفسّرين احتملوا أن يكون للفظة (الأمد) معنى البُعد المكاني أيضاً (كما ورد في مجمع البيان نقلاً عن بعض المفسّرين)، غير أنّ هذا لم يرد في اللغة على الظاهر.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

في الجزء الأوّل من هذه العبارة يحذّر الله الناس من عصيان أوامره، وفي الجزء الثاني يذكّرهم برأفته، ويبدو أنّ هذين الجزءين هما - على عادة القرآن - مزيج من الوعد والوعيد، ومن المحتمل أن يكون الجزء الثاني ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ توكيداً

---

(١) «يوم» في الجملة أعلاه مفعول لفعل مقدّر مثل: (واذكروا) أو (واحذروا). وهناك احتمالات أُخرى ولكنها بعيدة لا يعتنى بها.

للجزء الأوّل ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، وهذا أشبه بمن يقول لك: إنّي أحذّرك من هذا العمل الخطر، وإنّ تحذيري إيّاك دليل على رأفتي بك، إذ لولا حبّي لك لما حذّرتك.

القرآن وتجسّد الأعمال وحضورها

هذه الآية تبيّن بكل وضوح تَجسُّد الأعمال وحضورها يوم القيامة، كلمة (تجد) من الوجود ضدّ العدم. ولفظتا (خير) و(سوء) وردتا نكرتين لتفيدا العموم. أي إنّ الإنسان يجد أعماله الحسنة والقبيحة يوم القيامة مهما تكن قليلة.

بعضهم أوّل هذه الآية وأشباهها وقال إنّ القصد من حضور الأعمال هو حضور ثوابها أو عقابها، أو حضور سجلّ الأعمال الذي دوّنت فيه الأعمال كلّها.

ولكن من الجلي أنّ ذلك لا ينسجم وظاهر الآية، لأنّ الآية تقول بوضوح إنّ الإنسان يوم القيامة (يجد) عمله، وتقول: إنّ المسيء يودّ لو أنّ بينه وبين (عمله) القبيح فواصل مديدة، فهنا (العمل) نفسه هو الذي يدور حوله الكلام، لا سجلّ الأعمال، ولا الثواب والعقاب.

كذلك نقرأ في الآية أنّ المسيء يودّ لو بَعُدَ عنه عمله، ولكنّه لا يتمنّى زوال عمله إطلاقاً. وهذا يعني أنّ زوال الأعمال غير ممكن، ولذلك فهو لا يتمنّاه.

هناك آيات كثيرة أُخرى تؤيّد هذا الأمر، كالآية ٤٩ من سورة الكهف.

﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ والآيتان ٧ و٨ من سورة الزلزال ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

سبق أن قلنا إنّ بعض المفسّرين يرون أنّ لفظ (الجزاء) مقدّر وهذا خلاف ظاهر الآية.

يستفاد من بعض الآيات أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، وأنّ عمل الإنسان أشبه بالحبّ الذي يُزرع في التربة، فتنمو تلك الحبّة، ثمّ يحصد الإنسان معها حبّاً كثيراً، كذلك هي أعمال الإنسان التي تجري عليها تبدّلات وتغيّرات تناسب يوم القيامة، ثمّ تعود إلى الإنسان نفسه، كما جاء في الآية ٢٠ من سورة الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾.

ويستفاد من آيات أُخرى أنّ الأعمال الصالحة في هذه الدنيا تأتي في الآخرة بصورة نور وضياء، فيطلبه المنافقون من المؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[١].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.

هذه الآيات وغيرها العشرات تدلّ على أنّنا يوم القيامة نجد العمل عينه بشكل أكمل، وهذا هو تجسيد الأعمال الذي يقول به علماء الإسلام.

هناك روايات كثيرة أيضاً عن أئمّة الإسلام تؤكّد هذا المعنى، من ذلك:

قال رسول الله ﷺ لمن طلب أن يعظه: «لابدّ لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حيّ، وتدفن معه وأنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، لا يحشر إلّا معك ولا تحشر إلّا معه، ولا تُسأل إلّا عنه، ولا تُبعث إلّا معه، فلا تجعله إلّا صالحاً، فإنّه إن كان صالحاً لم تستأنس إلّا به، وإن كان فاحشاً لا تستوحش إلّا منه، وهو عملك»(١).

ولإلقاء الضوء على هذا البحث لا بدّ من معرفة كيفية الإثابة والعقاب على الأعمال.

رأي العلماء في الثواب والعقاب

للعلماء آراء مختلفة في الثواب والعقاب:

١ - يعتقد البعض أنّ جزاء الأعمال الأُخروي أمر اعتباري، مثل المكافأة والعقوبة في هذه الدنيا، أي كما أنّ هناك في هذه الدنيا عقاباً على كلّ عمل سَيّئ أقرّه القانون الوضعي، كذلك وضع الله لكلّ عمل ثواباً أو عقاباً معيّنين، وهذه هي نظرة الأجر المعيّن والجزاء القانوني.

٢ - ثمّة آخرون يعتقدون أنّ النفس البشرية تخلق الثواب والعقاب، فالنفس تخلق ذلك في العالم الآخر دون اختيار، أي إنّ الأعمال الحسنة والأعمال السيّئة في هذا العالم تخلق في النفس صفات حسنة أو سيّئة، وهذه الصفات تصبح جزءاً متمكّناً من ذات الإنسان، وتبدأ هذه بإيجاد صورة تناسبها من السعادة أو العذاب، فذو الباطن الحسن في هذا العالم يتعامل مع مجموعة من الأفكار والتصوّرات الحسنة، والأشرار والخبثاء مشغولون بأفكارهم الباطلة وتصوّراتهم الدنيئة في نومهم ويقظتهم.

وفي يوم القيامة تقوم هذه الصفات نفسها بخلق السكينة والعذاب أو الشقاء والسعادة، وبعبارة أُخرى إنّ ما نقرأه عن نِعم الجنّة وعذاب جهنّم ليس سوى ما تخلقه هذه الصفات الحسنة أو السيّئة في الإنسان.

٣ - فريق ثالث من كبار علماء الإسلام اتّخذوا سبيلاً آخر دعموه بكثير من الآيات والأحاديث، يقول هؤلاء: إنّ لكلّ عمل من أعمالنا - حسناً كان أو سيّئاً - صورة دنيوية

---

(١) البحار: طبعة كمباني: ج ٣، ص ٢٥٧؛ ومعاني الأخبار، ص ٢٣٣.

هي التي نراها، وصورة أُخروية كامنة في باطن ذلك العمل، وفي يوم القيامة، وبعد أن تكون قد طرأت عليه تحوّلات كثيرة، يفقد صورته الدنيوية ويظهر بصورته الأُخروية فيبعث على راحة فاعله وسكينته، أو شقائه وعذابه.

هذه النظرة، من بين النظرات الأُخرى، تتّفق مع كثير من آيات القرآن، وبناءً على ذلك، فإنّ أعمال الإنسان - وهي مظاهر مختلفة من الطاقة - لا تفنى بموجب قانون بقاء (المادة / الطاقة) وتبقى أبداً في هذه الدنيا، على الرغم من أنّ الناظر السطحي يظنّها قد تلاشت.

إنّ بقاء هذه الأعمال بقاءً أبدياً يتيح من جهة أن يراها الإنسان عند محاسبته يوم القيامة ولا يبقى له مجال للإنكار، كما يتيح للإنسان من جهة أُخرى أن يعيش يوم القيامة بين أعماله، فيشقى أو يسعد، وعلى الرغم من أنّ علم الإنسان لم يبلغ بعد مرحلة اكتشاف الماضي، إلّا للحظات قليلة سابقة[1]، فممّا لا شكّ فيه أنّه لو تمّ صنع جهاز أدقّ وأكمل، أو لو كانت لنا (رؤية) و(إدراك) أكمل لاستطعنا أن نرى وندرك كلّ ما حدث في الماضي. (ليس هناك ما يمنع أن يكون جانب من الثواب والعقاب ذا طابع توافقي).

العلم وتجسّد الأعمال

لإثبات إمكان تجسّد الأعمال الماضية، يمكن الاستناد إلى مبادىء الفيزياء الثابتة اليوم، فقوانين الفيزياء تقول إنّ المادة تتحوّل إلى طاقة، وذلك لأنّ (المادّة) و(الطاقة) مظهران لحقيقة واحدة، كما تقول أحدث النظريات بهذا الخصوص، وأنّ المادّة طاقة متراكمة مضغوطة تتحوّل إلى طاقة في ظروف معيّنة، وقد تكون الطاقة الكامنة في غرام واحد من المادّة تعادل في قوة انفجارها أكثر من ثلاثين ألف طن من الديناميت.

ملخّص القول: إنّ المادّة والطاقة مظهران لحقيقة واحدة، وبالنظر لعدم فناء الطاقة والمادّة، فليس هناك ما يحول دون تراكم الطاقات المنتشرة مرّة أُخرى وتتّخذ صورة مادّة أو جسم، فإذا كانت نتيجة الأعمال صالحة ظهرت بصورة نِعم مادّية جميلة، وإذا كانت شرّاً وسيّئة فإنّها تتجسّد في وسائل عذاب وعقاب.

---

(١) اكتشف العلماء جهاز تصوير يعمل بالأشعة ما تحت الحمراء يستطيع أن يتصوّر حدثاً لم يمض عليه أكثر من بضع لحظات، إنّ الجهاز يعمل وفق نظام حراري يجتذب الأمواج الصادرة عن الأجسام، ويحوّلها بوساطة جهاز يدعى «ثرموجرام» إلى سالب وموجب، ثمّ يصوّرها بالأسود والأبيض - كما ذكرت وسائل الإعلام - وبهذا يمكن أن نعرف كيفية وقوع جريمة وتصوير أعمال المجرمين السابقة ثمّ عرضها عليهم وكشف كذبهم.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

سبب النّزول

لهاتين الآيتين روايتان في سبب نزولهما: إحداهما في تفسير (مجمع البيان) والأُخرى في تفسير (المنار).

الأُولى تقول: ادّعى جمع من الحاضرين في مجلس رسول الله ﷺ أنّهم يحبّون الله، مع أنّ العمل بتعاليم الله كان أقلّ ظهوراً في أعمالهم. فنزلت هاتان الآيتان بشأنهم(١).

وتقول الأُخرى: حضر فريق من مسيحيّي نجران مجلس رسول الله وزعموا في حديثهم أنّ مبالغتهم في تقديس المسيح عليه السلام إنّما تنطلق من حبّهم لله، فنزلت الآيتان تردّان عليهم(٢).

التّفسير

الحب الحقيقي

تقول الآية الأُولى إنّ الحبّ ليس بالعلاقة القلبية فحسب، بل يجب أن تظهر آثاره في عمل الإنسان، إنّ من يدّعي حبّ الله، فعليه أوّلاً اتّباع رسوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

في الواقع إنّ من آثار الحبّ الطبيعية انجذاب المحبّ نحو المحبوب والاستجابة له، صحيح أنّ هناك حبّاً ضعيفاً لا تتجاوز أشعّته جدران القلب، إلّا أنّ هذا من التفاهة بحيث لا يمكن اعتباره حبّاً، لا شكّ أنّ للحبّ الحقيقي آثاراً عملية تربط المحبّ بالحبيب وتدفعه للسعي في تحقيق طلباته.

(١) تفسير القرطبي، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ١٧.
(٢) المصدر السابق؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

والدليل على ذلك واضح، فحبّ المرء شيئاً لا بدّ أن يكون بسبب عثوره على أحد الكمالات فيه ولا يمكن أن يحبّ الإنسان مخلوقاً ليس فيه شيء من قوّة الجذب، وعليه فإنّ حبّ الإنسان لله ناشئ من كونه منبع جميع الكمالات وأصلها، إنّ محبوباً هذا شأنه لا بدّ أن تكون أوامره كاملة أيضاً، فكيف يمكن لإنسان يعشق الكمال المطلق أن يعصي أوامر الحبيب وتعاليمه، فإن عصى فذلك دليل على أنّ حبّه غير حقيقي.

هذه الآية لا تقتصر في ردّها على مسيحيّي نجران والذين ادّعوا حبّ الله على عهد رسول الله ﷺ، بل هذا الردّ أصيل وعامّ في منطق الإسلام موجّه إلى جميع العصور والقرون، إنّ الذين لا يفتأون - ليلَ نهار - يتحدّثون عن حبّهم لله ولأئمّة الإسلام وللمجاهدين في سبيل الله وللصالحين والأخيار، ولكنّهم لايشبهون أُولئك في العمل، هم كاذبون.

أُولئك الغارقون في الذنوب من قمة الرأس حتى أخمص القدم، ومع ذلك فهم يرون أن قلوبهم مليئة بحبّ الله ورسوله وأميرالمؤمنين والأئمّة العظام، أو الذين يعتقدون أنّ الإيمان والحبّ والمحبّة قلبية فحسب، هم غرباء عن منطق الإسلام تماماً.

جاء في (معاني الأخبار) عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: (ما أحبّ الله من عصاه). ثمّ قرأ الأبيات:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمرك في الفعال بديع
لوكان حبّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع[1]

﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تقول هذه الآية: إذا كنتم تحبّون الله، وبدت آثار ذلك في أعمالكم وحياتكم، فإنّ الله سيحبّكم أيضاً، وسوف تظهر آثار حبّه في أنه سيغفر لكم ذنوبكم، ويشملكم برحمته.

والدليل على هذا الحبّ المتقابل من قِبل الله واضح أيضاً، لأنّه سبحانه موجود كامل ولا متناهٍ من كلّ الجهات، وسيرتبط - على أثر السنخية - بكل موجود يقطع خطوات على طريق التكامل برباط الحبّ.

يتبيّن من هذه الآية أن ليس هناك حبّ من طرف واحد، لأنّ الحبّ يدفع المحبّ إلى أن يحقّق عملياً رغبات حبيبه. وفي هذه الحالة لا يمكن للمحبوب إلّا أن يرتبط بالمحبّ.

(١) بحار الانوار، ج ٤٧ ص ٢٤؛ وتحف العقول، ص ٢٩٤.

قد يسأل سائل: إذا كان المحبّ دائم الإطاعة لأوامر المحبوب، فلا يبقى له ذنب فيغفر له، ولذلك فإن جملة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ليست ذات موضوع.

في الجواب نقول: أوّلاً: يمكن أن تعني هذه الجملة غفران الذنوب السابقة، وثانياً: إنّ المحبّ لا يتحرّك على مستوى عصيان المحبوب، ولكن قد يزلّ أحياناً بسبب طغيان الشهوات، وهذا هو الذي يغفره الله سبحانه.

الدين والحبّ

جاء في كثير من الأحاديث أنّ أئمّة الإسلام كانوا يقولون: ما الدين إلّا الحب. ومن ذلك ما جاء في (الخصال) و(الكافي) عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «وهل الدين إلّا الحبّ؟» ثمّ تلا هذه الآية ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾[1].

هذه الأحاديث تريد أن تبيّن أنّ حقيقة الدين وروحه هي الإيمان بالله وحبّه، ذلك الإيمان والعشق اللذين يعمّ نورهما كلّ الوجود الإنساني ويضيئانه، وتتأثر بهما الأعضاء والجوارح، ويظهر أثرهما في اتّباع أوامر الله.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

هذه الآية تتابع حديث الآية السابقة، وتقول: ما دمتم تدّعون الحبّ لله، إذاً اتّبعوا أمر الله ورسوله، وإن لم تفعلوا فلستم تحبّون الله، والله لا يحبّ هؤلاء ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

ويستفاد من ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أنّ إطاعة الله وإطاعة رسوله لا تنفصلان، وأنّ إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله هي إطاعة الله، وإطاعة الله هي إطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله، لذلك فالآية السابقة تحدّثت عن إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله فقط، وهنا دار الكلام عن إطاعتهما كليهما.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

التّفسير

في مبتدأ هذه الآية يشرع القرآن بسرد حكاية مريم وأجدادها ومقامهم، فهم النموذج الكامل لحب الله الحقيقي وظهور آثار هذا الحب في مقام العمل والذي أشارت إليه الآيات السابقة.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٧١، ح ٢١٢٦٥.

(اصطفى) من الصفو، وهو خلوص الشيء من الشوائب، ومنه (الصفا) للحجارة الصافية، وعليه فالاصطفاء هو تناول صفو الشيء.

تقول الآية: إنّ الله اختار آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران من بين الناس جميعاً، هذا الاختيار قد يكون (تكوينياً) وقد يكون (تشريعياً) أي أنّ الله قد خلق هؤلاء منذ البدء خلقاً متميزاً، وإن لم يكن في هذا الامتياز ما يجبرهم على اختيار طريق الحقّ، بل إنّهم بملء اختيارهم وحرّية إرادتهم اختاروه، غير أنّ ذلك التميّز أعدّهم للقيام بهداية البشر ثمّ على أثر إطاعتهم أوامر الله، والتقوى والسعي في سبيل هداية الناس نالوا نوعاً من التميّز الاكتسابي، الذي امتزج بتميّزهم الذاتي، فكانوا من المصطفين.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[1].

تشير هذه الآية إلى أنّ هؤلاء المصطفين كانوا - من حيث الإسلام والطهارة والتقوى والجهاد في سبيل هداية البشر - متشابهين، بمثل تشابه نسخ عدّة من كتاب واحد، يقتبس كلّ من الآخر: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

في النهاية تشير الآية إلى حقيقة أنّ الله كان يراقب مساعيهم ونشاطهم، ويسمع أقوالهم، ويعلم أعمالهم. وفي هذا إشارة أيضاً إلى مسؤوليات المصطفين الثقيلة نحو الله ومخلوقات الله.

في هذه الآية إشارة إلى جميع الأنبياء من أُولي العزم، فبعد نوح الذي صرّح باسمه، يأتي آل إبراهيم الذين يضمّون نوحاً نفسه وموسى وعيسى ونبيّ الإسلام. وذكر آل عمران تكرار للإشارة إلى السيّدة مريم والمسيح، بالنظر لكون هذه الآية مقدّمة لبيان حالهما.

امتياز الأنبياء

هنا يبرز هذا السؤال: على الرغم من أنّ هذا التميّز لم يجبر الأنبياء على السير في طريق الحقّ، وأنّه لا يتعارض مع حرّية الإرادة والاختيار، ولكن ألا يعتبر نوعاً من التفضيل؟

في الجواب نقول: إنّ خلقاً مصحوباً بنظام سليم يستتبع بالضرورة مثل هذا التفاضل،

---

(١) «الذرية» أصلها الصغار من الأولاد. وقد يشمل الأبناء الصغار والكبار أيضاً بلا واسطة أو مع الواسطة، والكلمة من (الذرء)، بمعنى الخلق والإيجاد.

فتأمّل جسم الإنسان - مثلاً - مخلوق منظّم، وللحفاظ على هذا التنظيم لا بدّ من الاعتراف بالتفاضل بين عضو وعضو، إذ لو كانت جميع الخلايا في جسم الإنسان تشبه في لطافتها خلايا شبكية العين، أو تشبه في صلابتها وقوّتها خلايا عظام الساق، أو تشبه خلايا الدماغ في حساسيّتها، أو تشبه خلايا القلب في حركتها، لاختلّ حتماً نظام الجسم. إذاً لا بدّ من وجود خلايا مثل خلايا الدماغ لكي تتولّى إدارة سائر أعضاء الجسم وعضلاته، وخلايا العظام المتينة لتحفظ استقامة الجسم وخلايا الأعصاب الحسّاسة لتتسلّم أبسط الإيعازات، والخلايا المتحرّكة لتخلق الحركة في الجسم.

ما من أحد يستطيع أن يقول لماذا ليس الجسم كلّه دماغاً؟ أو في النباتات، لماذا لا تكون الخلايا كلّها بلطافة خلايا أوراق الورد؟ إنّ حالة كهذه ستهدم بناء النبات وتعرضه للفناء.

النقطة المهمّة هي أنّ هذا التميّز الذاتيّ الضروري لإيجاد بناء منظّم ليس بسيطاً، بل هو مصحوب بمسؤولية عظيمة، هذا (الامتياز) وهذه المسؤولية الثقيلة نفسها تحفظ توازن كفّتي ميزان الخلق، أي أن نسبة تميّز الأنبياء على سائر البشر تتناسب مع أهميّة المسؤولية التي يضطلعون بها، كما أنّ الاختلاف في تميّز الآخرين يتناسب مع مسؤولياتهم.

فضلاً عن ذلك فإنّ التميّز الذاتي لا يكفي للاقتراب من الله، بل لا بدّ معه من التميّز المكتسب.

في الآية بعض النقاط ينبغي ذكرها:

١ - ليست الآية بصدد ذكر جميع الذين اصطفاهم الله، بل تعدّد بعضاً منهم، فإذا لم يكن بعض الأنبياء من بين هؤلاء، فلا يعني ذلك أنّهم ليسوا مصطفين، ثمّ إنّ (آل إبراهيم) يشمل موسى بن عمران ونبيّ الإسلام والمصطفين من أهله أيضاً لأنّهم جميعاً من (آل إبراهيم).

٢ - يرى (الراغب) في كتابه (المفردات) أنّ (الآل) من (الأهل)، ولكنّه خصّ بالإضافة إلى الأقرباء العظماء من الناس والأشراف ودون الأزمنة والأمكنة، ولكن (الأهل) يضاف إلى الكلّ، كالزمان والمكان وغير ذلك، فيقال: أهل المدينة الفلانية، ولكن لا يقال: آل المدينة الفلانية.

٣ - غنيّ عن القول إنّ اصطفاء آل إبراهيم وآل عمران لا يعني اصطفاء جميع أبناء إبراهيم وعمران، إذ يحتمل أن يكون بينهم حتى من الكفّار، إنّما المقصود هو (بعض) من آل إبراهيم وآل عمران.

٤ - (عمران) في هذه الآية هو أبو مريم، لا أبو موسى، إذ كلّما ورد في القرآن اسم عمران كان المعنيّ به أبا مريم، كما يستدلّ على ذلك أيضاً من الآيات التالية التي تخصّ شرح حال مريم.

٥ - في الأحاديث العديدة عن أهل البيت عليهم السلام اعتبرت هذه الآية دليلاً على عصمة الأنبياء والأئمّة(١)، وذلك لأنّ الله لا يمكن أن يصطفي المذنبين الملوّثين بالشرك والكفر والفسق، بل لا بدّ أن يقع اختياره على المطهّرين المعصومين. (يستدلّ كذلك من الآية أنّ هناك مراتب للعصمة).

٦ - يستدلّ بعض الكتّاب المحدثين بهذه الآية على نظرية النشوء والارتقاء، معتقدين أنّ الآية تدلّ على أنّ (آدم) لم يكن هو الإنسان الأوّل، بل كان هناك أُناس كثيرون فاصطفى الله من بينهم آدم الذي خلّف نسلاً متميّزاً من أبنائه، وأنّ تعبير ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على ذلك. يقول هؤلاء: كان في عصر آدم مجتمع إنساني، ولذلك فليس ثمّة ما يمنع من أن يكون الإنسان الأوّل - الذي وجد قبل ذلك بملايين السنين - قد نشأ وتطوّر من حيوانات أُخرى متطوّرة، ويكون (آدم) وحده الذي اصطفاه الله.

ولكن في مقابل هذا الرأي يمكن القول إنه ليس هناك أيّ دليل على أنّ (عالمين) هم أُناس عاصروا آدم، بل قد يكون القصد هو مجموع المجتمعات البشرية على امتداد التاريخ. وعلى هذا يكون معنى الآية: إنّ الله اصطفى من بين جميع المجتمعات البشرية على امتداد التاريخ أفراداً كان أوّلهم آدم، فنوحاً، فآل إبراهيم، فآل عمران، وبما أنّ كلّ واحد من هؤلاء كان يعيش في عصر غير عصر الآخر نفهم من ذلك أنّ القصد من (عالمين) هو البشر عموماً على اختلاف عصورهم وأزمانهم، لذلك ليس ثمّة ما يدعونا إلى الاعتقاد بأنّ آدم كان يعاصره أُناس آخرون فاصطفاه الله من بينهم، فتأمّل.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٩ و ٦٠ و ٣٢٨ - ٣٣١؛ وبحار الانوار، ج ١١، ص ٧٢ و ٧٨ و ١٦٤.

التفسير

كيفية ولادة مريم

تعقيباً على ما جاء في الآية السابقة من إشارة إلى آل عمران، تشرع هاتان الآيتان بالكلام على مريم بنت عمران وكيفية ولادتها وتربيتها وما جرى لهذه السيّدة العظيمة.

جاء في التواريخ والأخبار الإسلامية وأقوال المفسّرين أنّ (حنة) و(اشياع) كانتا أُختين، تزوّجت الأُولى (عمران)[١] أحد زعماء بني إسرائيل، وتزوّجت الأُخرى (زكريا) النبيّ.

مضت سنوات على زواج (حنة) بغير أن ترزق مولوداً، وفي أحد الأيّام بينما هي جالسة تحت شجرة، رأت طائراً يطعم فراخه، فأشعل هذا المشهد نار حبّ الأُمومة في قلبها، فتوجّهت إلى الله بمجامع قلبها طالبةً منه أن يرزقها مولوداً، فاستجاب الله دعاءها الخالص، ولم تمض مدّة طويلة حتى حملت.

ورد في الأحاديث أنّ الله قد أوحى إلى (عمران) أنّه سيهبه ولداً مباركاً يشفي المرضى الميؤوس من شفائهم، ويحيي الموتى بإذن الله، وسوف يرسله نبيّاً إلى بني إسرائيل، فأخبر عمران زوجته (حنة) بذلك، لذلك عندما حملت ظنّت أنّ ما تحمله في بطنها هو الابن الموعود، دون أن تعلم أنّ ما في بطنها أُم الابن الموعود (مريم) فنذرت ما في بطنها للخدمة في بيت الله (بيت المقدس)، ولكنّها إذ رأتها أُنثى ارتبكت ولم تدر ما تعمل، إذ إنّ الخدمة في بيت الله كانت مقصورة على الذكور، ولم يسبق أن خدمت فيه أُنثى[٢].

والآن نباشر بالتفسير ومن خلاله نتعرّف على تتمّة الأحداث:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ . . .﴾.

هذه إشارة إلى النذر الذي نذرته امرأة عمران وهي حامل بأنّها تهب ابنها خادماً في بيت المقدس، لأنّها كانت تظنّه ذكراً بموجب البشارة التي أتاها بها زوجها، ولذلك قالت (محرّراً) ولم تقل (محرّرة) ودعت الله أن يتقبل نذرها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣].

---

(١) تفيد بعض الأحاديث أنّ «عمران» كان نبياً ويوحى إليه. وعمران هذا غير عمران والد موسى، إذ بينهما ١٨٠٠ سنة من الزمان. (مجمع البيان - وتفسير المراغي، ذيل الآية مورد البحث).

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) قال «الراغب»، في «المفردات»: «تقبّل» قبول الشيء مع الثواب والجزاء (إذن يتفاوت مع مادة القبول).

(المحرر) من التحرير، وكانت تطلق في ذلك الزمان على الأبناء المعيّنين للخدمة في المعبد ليتولّوا تنظيفه وخدماته، وليؤدّوا عباداتهم فيه وقت فراغهم. ولذلك سمّي الواحد منهم (المحرّر)، إذ هو محرّر من خدمة الأبوين، وكان ذلك مدعاة لافتخارهم.

قيل إنّ الصبيان القادرين على هذه الخدمة كانوا يقومون بها بإشراف الأبوين إلى سنّ البلوغ، ومن ثمّ كان الأمر يوكل إليهم، إن شاؤوا بقوا، وإن شاؤوا تركوا الخدمة.

ويرى البعض أن إقدام امرأة عمران على النذر دليل على أن عمران توفي أيّام حمل زوجته، وإلّا كان من البعيد أن تستقل الأُم بهذا النذر.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾.

هذه الآية تشرح حال أُم مريم بعد ولادتها، فقد أزعجها أن تلد أُنثى، وراحت تخاطب الله قائلة: إنّها أُنثى، وأنت تعلم أنّ الذكر ليس كالأُنثى في تحقيق النذر، فالأُنثى لا تستطيع أن تؤدّي واجبها في الخدمة كما يفعل الذكر فالبنت بعد البلوغ لها عادة شهرية ولا يمكنها دخول المسجد، مضافاً إلى أن قواها البدنية ضعيفة، وكذلك المسائل المربوطة بالحجاب والحمل وغير ذلك. ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾.

ويظهر من القرائن في الآية والأحاديث الواردة في التفاسير أنّ هذا القول ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ قول أُمّ مريم، لا قول الله كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين، ولكن كان ينبغي أن تقول: (وليست الأُنثى كالذكر) باعتبارها قد ولدت أُنثى لا ذكراً، لذلك يمكن أن يكون في الجملة تقديم وتأخير، كما نلاحظه في كلام العرب وغير العرب، ولعلّ ما انتابها من الكدر والحزن لوضعها أُنثى جعلها تنطق بهذا الشكل، إذ كانت شديدة الاعتقاد بأنّ ما ستلده ذكر وأنّها ستفي بنذرها فتجعله خادماً في بيت المقدس، وهذا الاعتقاد والتوقّع جعلاها تقدّم الذكر على الأنثى، على الرغم من أنّ أُصول تركيب الجمل وجنس المولود يقتضيان تقديم الأُنثى.

والجملة المعترضة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ من قول الله، أي لم يكن يلزم أن تقول إنّها ولدت أُنثى، لأنّ الله كان أعلم منها بمولودها منذ انعقاد نطفته وتعاقب مراحل تصوّره في الرحم.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ . .﴾.

يتّضح من هذه الجملة أنّ أُم مريم هي التي سمّتها بهذا الاسم عند ولادتها، و(مريم) بلغتها تعني (العابدة)، وفي هذا يظهر منتهى اشتياق هذه الأُمّ الطاهرة لوقف وليدها على

خدمة الله، لذلك طلبت من الله - بعد أن سمّتها - أن يحفظها ونسلها من وسوسة الشياطين، وأن يرعاهم بحمايته ولطفه ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾

التّفسير

تواصل هذه الآية سرد حكاية مريم. لقد أشرنا من قبل أنّ أُمّ مريم لم تكن تصدّق إمكان قبول الأُنثى خادمة في بيت الله، لذلك كانت تتمنّى أن تلد مولوداً ذكراً، إذ لم يسبق أن اختيرت أُنثى لهذا العمل. ولكن الآية تقول إنّ الله قد قبل قيام هذه الأُنثى الطاهرة بهذه الخدمة الروحية والمعنوية، لأوّل مرّة.

يقول بعض المفسّرين: إنّ دليل قبولها لهذه الخدمة أنّها لم تكن ترى العادة الشهرية أثناء خدمتها في بيت المقدس لكي لا تضطرّ إلى ترك الخدمة، أو أن حضور طعامها من الجنّة إلى محرابها دليل على قبولها، وقد يكون قبول النذر وقبول مريم قد أُبلغ للأُمّ عن طريق الإلهام.

وكلمة (أنبتها) إشارة إلى تكامل مريم أخلاقياً وروحياً، كما أنّه يتضمّن نكتة لطيفة هي أنّ عمل الله هو (الإنبات) والإنماء. أي كما أنّ بذور النباتات تنطوي على استعدادات كامنة تظهر وتنمو عندما يتعهّدها المزارع، كذلك توجد في الإنسان كلّ أنواع الاستعدادات السامية الإنسانية التي تنمو وتتكامل بسرعة إن خضعت لمنهج المربّين الإلهيّين ولمزارعي بستان الإنسانية الكبير، ويتحقّق الإنبات بمعناه الحقيقي.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾.

(الكفالة) ضمّ شيء إلى آخر، لذلك يطلق على من يلتزم رعاية شؤون أحد الأطفال اسم (الكافل) أو (الكفيل)، أي إنّه يضمّ الطفل إليه، إذا استعملت الكلمة ثلاثية مجرّدة كانت فعلاً لازماً، وتتعدّى بنقلها إلى باب الثلاثي المزيد (كفّل) أي انتخاب الكفيل لشخص آخر.

في هذه الآية يقول القرآن: اختار الله زكريّا كي يتكفّل مريم، إذ إنّ أباها عمران قد ودّع الحياة قبل ولادتها، فجاءت بها أُمّها إلى بيت المقدس وقدّمتها لعلماء اليهود

وقالت: هذه البنت هديّة لبيت المقدس، فليتعهّدها أحدكم، فكثر الكلام بين علماء اليهود، وكان كلّ منهم يريد أن يحظى بهذا الفخر، وفي احتفال خاص - سيأتي شرحه في تفسير الآية ٤٤ من هذه السورة - اختير زكريّا ليكفلها.

وكلّما شبّت وتقدّم بها العمر ظهرت آثار العظمة والجلال عليها أكثر إلى حدّ يقول القرآن عنها: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

(المحراب) هو الموضع الذي يخصّص في المعبد لإمام المعبد أو لأفراد من النخبة، وذكروا في سبب تسميته بهذا الاسم أوجهاً كثيرة، أوجهها ثلاثة: أحدها: إنّ المحراب من (الحرب) سمّي بذلك لأنّه موضع محاربة الشيطان والأهواء، والآخر: إنّ المحراب صدر المجلس، ثمّ أُطلق أيضاً على صدر المعبد. (كان بناء المحراب عند اليهود يختلف عن بنائه عندنا، فأولئك كانوا يبنون المحراب مرتفعاً عن سطح الأرض بعدّة درجات بين حائطين مرتفعين يحفظانه، بحيث كانت تصعب رؤية من بداخل المحراب من الخارج).

والثالث: أنّه يطلق على كلّ المعبد، وهو المكان الذي يخصّص للعبادة ومجاهدة النفس والشيطان.

كَبُرت مريم تحت رعاية زكريّا، وكانت غارقة في العبادة والتعبّد. بحيث إنّها - كما يقول ابن عبّاس - عندما بلغت التاسعة من عمرها كانت تصوم النهار وتقوم الليل بالعبادة، وكانت على درجة كبيرة من التقوى ومعرفة الله حتى إنّها فاقت الأحبار والعلماء في زمانها[(١)]، وعندما كان زكريّا يزورها في المحراب يجد عندها طعاماً خاصّاً، فيأخذه العجب من ذلك، سألها يوماً: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾. فقالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الآية لا تذكر شيئاً عن ماهيّة هذا الطعام ومن أين جاء، لكنّ بعض الأحاديث الواردة في تفسير العيّاشي وغيره من كتب الشيعة والسنّة تفيد أنّه كان فاكهة من الجنّة في غير فصلها تحضر بأمر الله إلى المحراب، وليس ما يدعو إلى العجب في أن يستضيف الله عبداً تقيّاً[(٢)].

كما أنّ اعتبار (الرزق) طعاماً من الجنّة يتبيّن من القرائن التي نراها في ثنايا الآية، فأوّلاً كلمة (رزقاً) النكرة دليل على أنّ زكريّا لم يعرف نوع هذا الرزق، وثانياً جواب

(١) تفسير مجمع البيان: ج ٢، ص ٤٣٦؛ وبحار الانوار، ج ١٤، ص ١٩٦.
(٢) بحار الانوار، ج ١٤، ص ١٦٩ و ١٨٦ و ١٩٦ و ٢٠٠ و ٢٠٣ و ٢٠٤.

مريم التي قالت ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ دليل آخر. وثالثاً انفعال زكريّا وطلبه ولداً من الله - كما نقرأ في الآية التالية - دليل ثالث على ذلك.

بَيدَ أنّ بعض المفسّرين - مثل صاحب المنار - يرون أنّ (رزقاً) تعني هذا الطعام الدنيويّ المألوف، يقول ابن جرير: إنّ قحطاً أصاب بني إسرائيل يومئذ، ولم يعد زكريّا قادراً على سدّ جوعة مريم، لذلك اقترعوا فكانت من نصيب رجل نجّار، فأخذ هذا يقتطع من كسبه الطيّب الحلال ليهيّئ الطعام لها، فكان هذا هو الطعام الذي يراه زكريّا في محرابها ويعجب من وجوده في تلك الظروف الصعبة، وكان جواب مريم يعني أنّ الله قد سخّر لي مؤمناً فأحبّ القيام بهذه الخدمة الشاقّة.

ولكن - كما قلنا - هذا التفسير لا يتّسق مع القرائن الموجودة في الآية، ولا مع الأحاديث الواردة في تفسيرها، ومنها ما ورد في تفسير العيّاشي عن الإمام الباقر عليه السلام ما ملخّصه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل يوماً على ابنته فاطمة عليها السلام وهو يعلم أنّها لم تكن تملك طعاماً يذكر منذ أيّام، فوجد عندها طعاماً وافراً خاصّاً، فسألها عنه، فقالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام: ألا أُحدّثك بمثلك ومثلها؟ قال: بلى، قال: مثل زكريّا إذ دخل على مريم المحراب فوجد عندها رزقاً، قال: يا مريم أنّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب...[(١)].

وفيما يتعلّق بعبارة ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فقد شرحنا ذلك في تفسير الآية ٢٠٢ من سورة البقرة، والآية ٢٧ من هذه السورة.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

---

١) تفسير العيّاشي: ج ١، ص ١٧١؛ وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٣٣٣.

التفسير

قلنا إنّ زوجة زكريّا وأمّ مريم كانتا أختين، وكانتا عاقرين، وعندما رزقت أمّ مريم بلطف من الله هذه الذرّية الصالحة، ورأى زكريّا خصائصها العجيبة، تمنّى أن يرزق هو أيضاً ذرّية صالحة وطاهرة وتقيّة مثل مريم، بحيث تكون آية على عظمة الله وتوحيده، وعلى الرغم من كبر سن زكريّا وزوجته، وبُعدهما من الناحية الطبيعيّة عن أن يرزقا طفلاً، فإنّ حبّ الله ومشاهدة الفواكه الطرية في غير وقتها في محراب عبادة مريم، أترعا قلبه أملاً بإمكان حصوله في فصل شيخوخته على ثمرة الأُبوّة، لذلك راح يتضرّع إلى الله ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾[1].

لم يمض وقت طويل حتى أجاب الله دعاء زكريّا: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

وفيما كان يعبد الله في محرابه، نادته ملائكة الله وقالت له: إنّ الله يبشّرك بمولود اسمه يحيى بل إنّهم لم يكتفوا بهذه البشارة حتى ذكروا للمولود خمس صفات:

أوّلاً: سوف يؤمن بالمسيح ويشدّ أزره بهذا الإيمان: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾. و(كلمة الله) هنا وفي مواضع أُخرى من القرآن سيرد شرحها - تعني المسيح عليه السلام - وقد جاء في التاريخ أنّ يحيى كان يكبر عيسى بستّة أشهر، وكان أول من آمن به، وإذا كان قد اشتهر بين الناس بالطهر والزهد، فقد كان لإيمانه هذا بالمسيح تأثير كبير على الناس، في توجيههم وحثّهم على الإيمان به.

وثانياً: سيكون من حيث العلم والعمل قائداً للناس ﴿وَسَيِّدًا﴾، كما أنّه سيحفظ نفسه عن الشهوات الجامحة وعن التلوّث بحبّ الدنيا.

﴿وَحَصُورًا﴾.

(الحصور) من الحصر، أي الذي يضع نفسه موضع المحاصرة، أو الذي يمتنع عن الزواج، وإلى هذا ذهب بعض المفسّرين، كما أُشير إليه في بعض الأحاديث[2].

---

(١) «ذرية» في الاصل كما قلنا في ذيل الآية ٣٤ بمعنى الاولاد الصغار وقد يطلق على الكبار أيضاً، وإن كان هذا المصطلح في الأصل صفة للجمع، ولكن يطلق على المفرد أيضاً كما قال الراغب في مفرداته، ضمناً جاءت كلمة «طيبة» بصورة مؤنثة مع أنّ النّبيّ زكريا عليه السلام كان قد طلب الابن، فيظهر أن ذلك مراعاة لظاهر لفظ «ذريّة».

(٢) مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ١٥٦؛ وبحار الانوار، ج ١٤، ص ١٦٩ و ١٧٠ و ١٨٥.

والرابعة والخامسة من مميّزاته أيضاً أنّه سيكون ﴿وَنَبِيًّا﴾ (وجاءت هذه الكلمة بصيغة النكرة للدلالة على العظمة) وأنّه من الصالحين.

فلما سمع زكريا بهذه البشارة غرق فرحاً وسروراً، ولم يمتلك نفسه في إخفاء تعجبّه من ذلك، فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فأجابه الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فلما سمع زكريا هذا الجواب الموجز الذي يشير إلى نفوذ إرادته تعالى ومشيئته، قنع بذلك.

بحوث

١ - هل العزوبة فضيلة؟

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال يقول: إذا كان (الحصر) هو العزوف عن الزواج، فهل هذا مَحمَدة يمتاز بها الإنسان، بحيث يوصف بها يحيى؟

في الجواب نقول: ليس هناك ما يدلّ على أنّ (الحصر) المذكور في الآية يقصد به العزوف عن الزواج، فالحديث المنقول بهذا الخصوص ليس موثوقاً به من حيث أسانيده، فلا يُستبعد أن يكون المعنى هو العزوف عن الشهوات والأهواء وحبّ الدنيا، وهي صفات الزاهدين، هذا أوّلاً.

وثانياً: من المحتمل أن يكون يحيى - مثل عيسى - قد عاش في ظروف خاصّة اضطرّته إلى الترحال من أجل تبليغ رسالته، فاضطرّ إلى حياة العزوبة، وهذا لا يمكن أن يكون قانوناً عامّاً للناس، فإذا مدحه الله بهذه الصفة فذلك لأنّه تحت ضغط ظروفه عزف عن الزواج، ولكنّه استطاع في الوقت نفسه أن يحصن نفسه من الزلل وأن يحافظ على طهارته من التلوّث، إنّ قانون الزواج قانون فطري، فلا يمكن في أيّ دين أن يشرع قانون ضدّه، وعليه فالعزوبة ليست صفة محمودة، لا في الإسلام ولا في الأديان الأُخرى.

٢ - يحيى وعيسى

(يحيى) من الحياة وتعني البقاء حيّاً، وقد اختيرت هذه الكلمة اسماً لهذا النبيّ العظيم، والمقصود بالحياة هنا الحياة المادّية والحياة المعنوية في نور الإيمان ومقام النبوّة والارتباط بالله، هذا الاسم قد اختاره الله له قبل أن يولد، كما جاء في الآية ٧ من سورة مريم: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ومن هذا يتبيّن أيضاً أنّ أحداً لم يسبق أن سمّي بهذا الاسم.

قلنا فيما سبق إنّ زكريّا طلب من ربّه الذرّية بعد أن شاهد ما نالته مريم من عطاء معنوي سريع، وعلى أثر ذلك وهب الله له ولداً شبيهاً بعيسى بن مريم في كثير من الصفات: في النبوّة وهما صغيران، وفي معنى اسميهما (عيسى ويحيى كلاهما بمعنى البقاء حيّاً)، وفي تحية وسلام الله عليهما في المراحل الثلاث: الولادة، والموت، والحشر وجهات أخرى.

٣ - في هذه الآية يصف زكريّا شيخوخته بقوله ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ ولكنه في الآية ٩ من سورة مريم يقول ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، فالعبارة الأُولى تعني أنّ الكِبَر قد وصلني والثانية تعني أنّي وصلت الكِبَر، ولعلّ هذا الاختلاف في التعبير يعود إلى أنّ الإنسان - كلّما تقدّم نحو الكِبَر - يتقدّم الكبر والموت نحوه أيضاً، كما قال عليّ عليه السلام «إذا كنت في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى»(١).

٤ - (الغلام) الفتى الذي طرّ شاربه، و(عاقر) من (عُقر) بمعنى الأصل والأساس، أو بمعنى الحبس، ووصف المرأة التي لا تلد بأنّها عاقر يعني أنّها وصلت إلى عقرها وانتهت، أو أنّها حبست عن الولادة.

وقد يسأل سائل: لماذا استولى العجب على زكريّا مع أنّه عالم بقدرة الله التي لا تنتهي؟

يتّضح الجواب بالرجوع إلى الآيات الأُخرى، كان يريد أن يعرف كيف يمكن لامرأة عاقر - خلفت وراءها سنوات عديدة بعد سنّ اليأس - أن تحمل وتلد؟ ما الذي يتغيّر فيها؟ أترجع إليها العادة الشهرية كسائر النساء المتوسّطات العمر؟ أم أنّها ستحمل بصورة أُخرى؟

ثمّ إنّ الإيمان بقدرة الله غير (الشهود والمشاهدة). زكريّا كان يريد أن يبلغ إيمانه مبلغ الشهود، مثل إبراهيم الذي كان مؤمناً بالمعاد، ولكنّه طلب المشاهدة. كان يريد أن يصل إلى هذه المرحلة من الإيمان، وإنّه لأمر طبيعيّ أن يفكّر الإنسان، إذا ما صادفه أمر خارق للقوانين الطبيعية في كيفيّة حصول ذلك، ويودّ لو أنّه رأى دليلاً حسّياً على ذلك.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار: ٢٨؛ ووسائل الشيعة، ج ٢، ص ٤٣٩.

التّفسير

هنا يطلب زكريّا من الله إمارة على بشارته بمجيء يحيى، إنّ إظهار دهشته - كما قلنا - وكذلك طلب علامة من الله، لا يعنيان أبداً أنّه لا يثق بوعد الله، خاصّة وأنّ ذلك الوعد قد توكّد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾. إنّما كان يريد زكريّا أن يتحوّل إيمانه بهذا إيماناً شهودياً، كان يريد أن يمتلئ قلبه بالاطمئنان، كما كان إبراهيم يبحث عن اطمئنان القلب والهدوء الناشئين عن الشهود الحسّي.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾.

(الرمز) إشارة بالشفة، والصوت الخفي، ثمّ اتّسع المعنى في الحوار العادي، فأُطلق على كلّ كلام وإشارة غير صريحة إلى أمر من الأُمور.

أجاب الله طلب زكريّا هذا أيضاً، وعيَّن له علامة، وهي أنّ لسانه كفّ عن الكلام مدّة ثلاثة أيّام بغير أيّ نقص طبيعي، فلم يكن قادراً على المحادثة العادية، ولكن لسانه كان ينطلق إذا ما شرع يسبّح الله ويذكره، هذه الحالة العجيبة كانت علامة على قدرة الله على كلّ شيء، فالله القادر على فكّ لجام اللسان عند المباشرة بذكره، قادر على أن يفكّ عقم رحم امرأة فيخرج منه ولداً مؤمناً هو مظهر ذكر الله، وهكذا تتّضح العلاقة بين هذه العلامة وما كان يريده زكريّا.

هذا المضمون يرد في الآيات الأُولى من سورة مريم أيضاً.

وفي الوقت نفسه يمكن أن تحمل هذه العلامة معنى آخر في طيّاتها، وهو أنّ إلحاح زكريّا على طلب العلامة والآية - وإن لم يكن أمراً محرّماً ولا مكروهاً - كان من نوع (ترك الأولى)، لذلك قرّر له علامة، إضافة إلى ما فيها من بيان لقدرة الله، طافحة بالإشارة إلى تركه للأولى.

يتبادر هنا للذهن سؤال: أيتّسق بُكم نبيّ مع مقام النبوّة وواجب الدعوة والتبليغ؟

ليس من الصعب الإجابة على هذا السؤال، إذ إنّ هذه الحالة لا تتّسق مع مقام النبوّة عند استمرارها مدّة طويلة، أمّا حدوثها لفترة قصيرة يستطيع النبيّ خلالها اعتزال الناس والتوجّه إلى عبادة الله، فلا مانع فيه، كما أنّه خلال هذه المدّة يستطيع أن يخاطب الناس بالإيماء في الأُمور الضرورية، أو بتلاوة آيات الله، التي تعتبر ذكراً لله، وتبليغاً للرسالة الإلهيّة، وهذا ما قام به فعلاً، إذ كان يدعو الناس إلى ذكر الله بالإشارة.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

(العشي) تطلق عادة على أوائل ساعات الليل، كما يقال (الإبكار) للساعات الأولى من النهار. وقيل إنّ (العشي) هو من زوال الشمس حتى غروبها، و(الإبكار) من طلوع الفجر حتى الظهر.

والراغب الإصفهاني يقول في (المفردات): إنّ (العشي) من زوال الشمس حتى الصباح، و(الإبكار) أوائل النهار.

وفي الآية يأمر الله زكريّا بالتسبيح، إنّ هذا التسبيح والذكر على لسان لا ينطق مؤقتاً دليل على قدرة الله على فتح المغلق، وكذلك هو أداء لفريضة الشكر لله الذي أنعم عليه بهذه النعمة الكبرى.

من الآيات الأُولى لسورة مريم يستفاد أنّ زكريّا لم ينفّذ هذا البرنامج وحده، بل طلب من الناس إيماءً أن يسبّحوا الله صباح مساء شكراً على ما أنعم عليهم من موهبة ترتبط بمصير مجتمعهم ومن قائد كفء مثل يحيى، وأضحت هذه الأيام أيّام شكر وتسبيح عام.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

التفسير

الانتخاب الإلهي لمريم

بعد الإشارات العابرة إلى مريم في الآيات السابقة التي دارت حول عمران وزوجته، هذه الآية تتحدّث بالتفصيل عن مريم.

تقول الآية إنّ الملائكة كانوا يكلّمون مريم: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(١).

ما أعظم هذا الافتخار بأن يتحدّث الإنسان مع الملائكة ويحدثوه، وخاصة إذا كانت المحادثة بالبشارة من الله تعالى باختياره وتفضيله، كما في مورد مريم بنت عمران، فقد بشرتها الملائكة بأن الله تعالى قد اختارها من بين جميع نساء العالم وطهّرها وفضلها بسبب تقواها وإيمانها وعبادتها.

(١) المراد من طهارة مريم عليها السلام طهارتها من العادة الشهرية وأن تكون في خدمة «البيت المقدس» أو طهارتها من كل رجس ودنس أخلاقي أو معنوي.

والجدير بالذكر أن كلمة (اصطفاك) تكررت مرتين في هذه الآية، ففي المرّة الأُولى كانت لبيان الاصطفاء المطلق، وفي الثانية إشارة إلى أفضليّتها على سائر نساء العالم المعاصرة لها.

هذا يعني أن مريم كانت أعظم نساء زمانها، وهو لا يتعارض مع كون سيّدة الإسلام فاطمة الزهراء عليها السلام سيّدة نساء العالمين، فقد جاء في أحاديث متعدّدة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإمام الصادق عليه السلام قولهما: «أمّا مريم فكانت سيّدة نساء زمانها، وأمّا فاطمة فهي سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين»[1].

كما أنّ كلمة (العالمين) لا تتعارض مع هذا الكلام أيضاً، فقد وردت هذه الكلمة في القرآن وفي الكلام العام بمعنى الناس الذين يعيشون في عصر واحد، كما جاء في شأن بني إسرائيل ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]. فلا شكّ أنّ تفضيل مؤمني بني إسرائيل كان على أهل زمانهم.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾.

هذه الآية تكملة لكلام الملائكة مع مريم، فبعد أن بشّرها بأنّ الله قد اصطفاها، قالوا لها: الآن اشكري الله بالركوع والسجود والخضوع له اعترافاً بهذه النعمة العظمى.

نلاحظ هنا أنّ الملائكة يصدرون إلى مريم ثلاثة أوامر:

الأول: القنوت أمام الله، والكلمة - كما سبق أن قلنا - تعني الخضوع ودوام الطاعة.

الثاني: السجود، الذي هو أيضاً دليل الخضوع الكامل أمام الله.

والثالث: الركوع، وهو أيضاً خضوع وتواضع.

أمّا القول: ﴿وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ فقد يكون إشارة إلى صلاة الجماعة، أو طلب التحاقها بجموع المصلّين الراكعين أمام الله، أي اركعي مع عباد الله المخلصين الذين يركعون لله.

في هذه الآية، الإشارة إلى السجود تسبق الإشارة إلى الركوع، وليس معنى هذا أنّ سجودهم قبل ركوعهم في صلاتهم، بل المقصود هو أداء العبادتين دون أن يكون القصد ذكر ترتيبهما، كما لو كنّا نطلب من أحدهم أن يصلّي، وأن يتوضّأ، وأن يتطهّر، إذ يكون قصدنا أن يقوم بكلّ هذه الأُمور وإنّ العطف بالواو لا يقتضي الترتيب، ثمّ إنّ

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٣٣٦ و٣٣٨، والبحار: ج ٣٧، ص ٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

الركوع والسجود أصلاً بمعنى التواضع والخضوع، وما حركتا الركوع والسجود المألوفين سوى بعض مصاديق ذلك.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

التّفسير

كفالة مريم

هذه الآية تشير إلى جانب آخر من قصة مريم عليها السلام وتقول بأن ما تقدّم من قصة مريم وزكريّا إنّما هو من أخبار الغيب ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ لأنّ هذه القصة بشكلها الصحيح والخالي من شوائب الخرافة لا توجد في أيٍّ من الكتب السابقة، مضافاً إلى أن سند هذه القصة هو وحي السماء.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي إنّك لم تكن حاضراً حينذاك، بل جاءك الخبر عن طريق الوحي.

سبق أن قلنا إنّ أُمّ مريم بعد أن وضعتها لفّتها في قطعة قماش وأتت بها إلى المعبد وخاطبت علماء بني إسرائيل وأشرافهم بقولها: هذه المولودة قد نُذرت لخدمة بيت الله، فليتعهّد أحدكم بتربيتها، ولمّا كانت مريم من أُسرة معروفة (آل عمران)، أخذ علماء بني إسرائيل يتنافسون على الفوز بتعهّد تربيتها، وأخيراً اتّفقوا على إجراء القرعة بينهم، فجاؤوا إلى شاطىء نهر وأحضروا معهم أقلامهم وعصيّهم التي كانوا يقترعون بها، كتب كلّ واحد منهم اسمه على قلم من الأقلام، وألقوها في الماء، فكلّ قلم غطس في الماء خسر صاحبه، والرابح يكون من يطفو قلمه على الماء: غطس القلم الذي كتب عليه اسم زكريا، ثمّ عاد وطفا على سطحه، وبذلك أصبحت مريم في كفالته، وقد كان في الحقيقة أجدرهم بذلك، فهو نبيٌ وزوج خالة مريم.

الاقتراع الحلّ الأخير

يستفاد من هذه الآية والآيات الأُخرى الخاصّة بيونس في سورة الصافّات أنّ من الممكن اللجوء إلى القرعة لحلّ النزاع والخصام الذي يصل إلى طريق مسدود بحيث لا يكون هناك أيّ حلّ مقبول من أطراف النزاع، هذه الآية بالإضافة إلى الأحاديث الواردة

عن أئمّة الإسلام[١] كانت سبباً في اعتبار القرعة قاعدة فقهية يجري بحثها في الكتب الإسلامية، ولكن شرط الالتجاء إلى القرعة هو الوصول إلى طريق مسدود تماماً، كما قلنا، لذلك إذا كان من الممكن العثور على طريق لحلّ مشكلة ما فلا يجوز اللجوء إلى القرعة.

ليس للاقتراع طريقة خاصّة في الإسلام، فيجوز اتّخاذ العصي، أو الحصى، أو الورق وغير ذلك وسيلة له، على أن لا يكون فيه أيّ تواطؤ.

من الواضح أنّ الإسلام لا يجيز الربح والخسارة عن طريق القرعة، لأنّ الربح والخسارة ليسا من المشاكل التي يستعصي حلّها ليلجأ فيها إلى القرعة، لذلك فالربح الناشىء عن القرعة غير مشروع في الإسلام.

لابدّ من الإشارة أيضاً إلى أنّ القرعة لا تقتصر على حلّ المنازعات والاختلافات بين الناس، بل يمكن بها حلّ المشاكل المستعصية الأُخرى أيضاً. فمثلاً، كما جاء في الأحاديث: وطئ شخص شاة، ثمّ أطلقها بين الغنم بحيث لا يمكن التعرّف عليها، فيجب عندئذ إخراج واحدة منها بطريق القرعة والامتناع عن أكل لحمها، وذلك لأنّ الامتناع عن أكل لحمها جميعاً يشكل ضرراً كبيراً، كما أنّ أكل لحومها جميعاً غير جائز. فهنا تحلّ القرعة المشكلة.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾

التّفسير

هذه الآية تبيّن حادث ولادة المسيح الذي يبدأ بتقديم الملائكة البشارة لمريم عليها السلام بأمر من الله قائلين لها إنّ الله سوف يهب لكِ ولداً اسمه المسيح عيسى بن مريم، وسيكون له مقام مرموق في الدنيا والآخرة، وهو مقرّب عند الله.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[٢].

---

(١) التهذيب، ج٦، ص ٢٣٣، (الباب٩٠، باب... وحكم القرعة)؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٨٩، (باب الحكم بالقرعة).

(٢) الجدير بالذكر أن الضمير في «اسمه» يعود إلى «كلمة» والحال جاء الضمير بشكل مذكر نظراً إلى المعنى والمصداق الذي هو المسيح عليه السلام.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى بضع مسائل:

١ - في هذه الآية وفي آيتين أُخريين يوصف المسيح بأنّه (الكلمة) وهو تعبير موجود في كتب العهد الجديد أيضاً.

كلام المفسّرين كثير في بيان سبب إطلاق هذه الكلمة على المسيح، إلّا أنّ أقربها إلى الذهن هو ولادة المسيح الخارقة للعادة والتي تقع ضمن: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

أو لأنّ البشارة بولادته قد جاءت في كلمة إلى أُمّه.

كما أنّ لفظة (الكلمة) وردت في القرآن بمعنى (المخلوق): ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[2].

ففي هذه الآية (كلمات ربي) هي مخلوقات الله، ولمّا كان المسيح أحد مخلوقات الله العظيمة فقد سمّي بالكلمة، وهذا يتضمّن أيضاً ردّاً على الذين يقولون بأُلوهيّة المسيح عليه السلام.

٢ - (المسيح) بمعنى الماسح أو الممسوح، وإطلاقها على عيسى إما لأنّه كان يمسح بيده على المرضى الميؤوس منهم فيشفيهم بإذن الله، إذ كانت هذه الموهبة قد خصّصت له منذ البداية، ولذلك أطلق الله عليه اسم المسيح قبل ولادته.

أو لأنّ الله قد مَسح عنه الدنس والإثم وطهّره.

٣ - يصرّح القرآن في هذه الآية بأنّ عيسى هو ابن مريم، وهو تصريح يدحض مفتريات المفترين عن أُلوهيّة المسيح، إذ إنّ من يولد من امرأة وتطرأ عليه جميع التحوّلات التي تطرأ على الجنين البشري والكائن المادّي لا يمكن أن يكون إلهاً، ذلك الإله المنزّه عن كلّ أنواع التغيّرات والتحوّلات.

تشير الآية التي بعدها إلى إحدى فضائل ومعاجز عيسى عليه السلام وهي تكلّمه في المهد ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فقد جاء في سورة مريم أنّه لدفع التهمة عن أُمّه تكلّم في المهد كلاماً فصيحاً أعرب فيه عن عبوديّته لله، وعن كونه نبيّاً.

ولمّا لم يكن من الممكن أن يولد نبيّ في رحم غير طاهرة، فإنّه يؤكد بهذا الإعجاز طهارة أُمّه.

(المهد) هو كلّ مكان يعدّ لنوم المولود حديثاً، سواء أكان متحرّكاً أم ثابتاً والظاهر

(١) سورة يس، الآية: ٨٢. (٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

من آيات سورة مريم أنه عليه السلام تكلّم منذ بداية تولده ممّا يستحيل على كلّ طفل أن يقوم به في هذا العمر عادة، وبهذا كان كلامه في المهد معجزة كبيرة، ولكن الكلام في مرحلة الكهولة[1]، أمر عادي، ولعلّ ذكره في الآية أعلاه مقارناً للحديث في المهد إشارة إلى أنّ كلامه في المهد مثل كلامه في الكهولة والكمال لم يجانب الصواب والحقّ والحكم.

وتشير الآية كذلك إلى أنّ المسيح لا ينطق إلّا بالحقّ منذ ولادته حتى كهولته، وأنّه يواصل الدعوة إلى الله وإرشاد الناس ولا يفتر عن ذلك لحظة واحدة.

ولعلّ إيراد هذا التعبير عن المسيح ضرب من التنبؤ بعودة المسيح إلى الدنيا، إذ إنّنا نعلم من كتب التاريخ أنّ عيسى عليه السلام قد رُفِع من بين الناس إلى السماء وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، وهذا يتّفق مع كثير من الأحاديث الواردة عن عودة المسيح في عهد الإمام المهدي عليه السلام[2] حيث يعيش معه بين الناس ويؤيّده.

وبعد ذكر مناقب المسيح المختلفة يضيف إليها ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ومن هذا يتّضح أنّ الصلاح من أعظم دواعي الفخر والاعتزاز، وتنضمّ تحت لوائه القيم الإنسانية الأُخرى.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

التفسير

إنّنا نعلم أنّ هذه الدنيا هي دنيا العلل والأسباب، وأنّ الله قد دبّر أمر الخلق بحيث إنّ خلق كلّ كائن يتمّ ضمن سلسلة من العوامل، فلِكي يولد إنسان قرّر الله أن يكون ذلك عن طريق الاتّصال الجنسي، ونفوذ الحيمن في البويضة، لذلك حقّ لمريم أن تصيبها الدهشة وأن تتقدّم بسؤالها: كيف يمكن أن تحمل وتلد ويكون لها ولد بغير أن يكون لها أيّ اتّصال جنسي مع أيّ بشر؟ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾.

فجاءتها الملائكة بأمر ربّها تخبرها بأنّ الله يخلق ما يشاء وكيفما يشاء، فنظام الطبيعة هذا من خلق الله وهو يأتمر بأمره، والله قادر على تغيير هذا النظام وقتما يشاء، فيخلق وفق أسباب وعوامل أُخرى غير عادية ما يشاء: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

---

(١) «الكهولة» هي متوسط العمر، وقيل إنّها الفترة ما بين السنة الرابعة والثلاثين حتى الحادية والخمسين، وما قبلها «شاب» وما بعدها «شيخ».

(٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٤٩.

ثمّ لتوكيد هذا الأمر وإنهائه يقول: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

إنّ تعبير (كن فيكون) إشارة إلى سرعة الخلق.

بديهيّ أنّ لفظة (كن) تشير في الحقيقة إلى إرادة الله الحاسمة التي لايعتورها الأخذ والرد، أي أنّه ما أن يشاء أمراً ويصدر أمره بالخلق حتى تتحقّق مشيئته في عالم الوجود.

من الجدير بالالتفات أنّه بشأن خلق عيسى قال: (يخلق) ولكنّه بشأن خلق يحيى قبل بضع آيات قال: (يفعل)، ولعلّ هذا الاختلاف في التعبير ناشىء من اختلاف طريقة خلق هذين النبيّين، فأحدهما خُلق بطريقة طبيعية، والآخر خُلق بطريقة خارقة للطبيعة، وهناك ملاحظة أُخرى وهي أنّ هذه الآيات تذكر في بدايتها محادثة الملائكة مع مريم، وهنا محادثتها مع الله عزّ وجلّ، وكأنّها بلغ بها الوجد والجذبة الإلهيّة أن زالت الوسائط واتّصلت مع مبدأ العزة، فأخذت تحدثه وتسمع منه مباشرة، (وطبعاً لا إشكال في تكلّم غير الأنبياء مع الله تعالى إذا لم يكن بصورة الوحي).

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

التّفسير

بقية امتيازات المسيح عليه السلام

بعد أن ذكرت الآيات السابقة أربع صفات للمسيح عليه السلام (وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد، ومن الصالحين) شرعت هاتان الآيتان بذكر صفتين أُخريين من صفات هذا النّبي العظيم، فالأُولى تقول: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ففي البداية تشير إلى تعليمه الحكمة والعلم بشكل عام، ثمّ تبيّن مصداقين من مصاديق الكتاب والحكمة، وهما التوراة والإنجيل.

إنّ الذين يختارهم الله لقيادة الناس وهدايتهم، لا بدّ أن يكونوا في أعلى درجة من العلم والمعرفة وأن يقدّموا أسمى التعاليم والقوانين البنّاءة، ثمّ بعد ذلك عليهم أن

يظهروا أدلّة واضحة على علاقتهم بالله، لتوكيد مهمّتهم. وبهاتين الوسيلتين تكتمل عملية هداية الناس، وفي الآيات أعلاه تمت الإشارة إلى هذين الأمرين. ففي الأُولى كان الكلام عن علم المسيح وكتبه السماوية وفي الآية الثانية إشارة إلى معجزاته العديدة، ثمّ تبيّن الهدف من كلّ ذلك وهو هداية بني إسرائيل المنحرفين ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾(١).

من الجدير بالذكر أنّ الآية تفيد أنّ رسالة عيسى كانت موجّهة إلى بني إسرائيل فقط، وهذا لا يتنافى مع كونه من أُولي العزم، لأنّ أُولي العزم هم الأنبياء الذين جاؤوا بدين جديد، حتى وإن لم يكن عالميّ الرسالة، وقد جاء في تفسير (نور الثقلين) حديث عن اقتصار رسالة عيسى على بني إسرائيل(٢).

إلّا أنّ بعض المفسّرين يرون احتمال عالمية رسالة المسيح، وأنّها لم تكن محصورة ببني إسرائيل، على الرغم من أنّ بني إسرائيل كانوا على رأس الذين أُرسل إليهم لهدايتهم، يورد المرحوم العلّامة المجلسي في (بحار الأنوار) أخباراً عن أُولي العزم من الأنبياء تؤيّد أنّها كانت رسالات عالمية(٣).

ثمّ تضيف الآية: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾(٤) وليست آية واحدة، بل آيات عديدة (لأن التنوين جاء هنا لبيان عظمة هذه الآية، لا لبيان وحدتها).

ولمّا كانت دعوة الأنبياء في الحقيقة دعوة إلى حياة حقيقية، فإنّ هذه الآية - عند بيان معجزات السيّد المسيح عليه السلام - تبدأ بذكر بثّ الحياة في الأموات بإذن الله، وتقول على لسان المسيح عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾.

إنّ قضية إحياء الموتى التدريجي بإذن الله ليست عويصة، لأنّنا نعلم أنّ جميع الكائنات الحيّة مخلوقة من التراب والماء، إلّا أنّ المعجزة في أن هذا الخلق الذي تحقّق على امتداد سنوات طويلة، فما الذي يمنع من أن يكثّف الله تلك العوامل والأسباب بحيث تتمّ مراحل الخلق بسرعة فائقة، ويتحوّل الطين إلى كائن حي؟

بديهيّ أنّ تحقّق هذا الأمر في ذلك المحيط، وفي أي محيط آخر، سند حيّ ودليل

---

(١) وقعت الجملة أعلاه في تقدير فعل مثل «يجعله» وهناك احتمالات أُخرى في هذا المجال أيضاً.
(٢) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٣٤٣.
(٣) بحار الأنوار: ج ١١، ص ٢٨ و٣٢ و٣٣ الطبعة الجديدة؛ وأصول الكافي، ج ١، ص ١٧٥ و ٢٢٤.
(٤) والتقدير: (كلّمهم بأنّي).

واضح على علاقة صاحب المعجزة بعالم ما وراء الطبيعة، وعلى قدرة الله اللامتناهية.

ثمّ تشير إلى معالجة الأمراض الصعبة العلاج أو التي لا علاج لها، وتقول على لسانه: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ(١) وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. لا شكّ أنّ القيام بكلّ هذه الأعمال وخاصّة لدى علماء الطبّ في ذلك الزمان كان من المعجزات التي لا يمكن إنكارها.

بعد ذلك تشير إلى إخباره عن أسرار الناس الخافية، فلكلّ امرىء في حياته بعض الأسرار التي لا يعرف الآخرون شيئاً عنها، فإذا جاء من يخبرهم بما أكلوه، أو ما ادّخروه، فهذا يعني أنّه يستقي معلوماته من مصدر غيبي: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وأخيراً يقول إنّ هذه كلّها دلائل صادقة للذين يؤمنون منكم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

بحوث

١ - أكانت معجزات المسيح عجيبة؟

يصرّ بعض المفسّرين - مثل صاحب المنار - على تأويل المعجزات التي ذكرها القرآن للمسيح بشكل من الأشكال، من ذلك قولهم إنّ المسيح اكتفى بمجرّد الادّعاء بأنّه يفعل كذا وكذا بإذن الله، ولكنّه لم يفعل منها شيئاً أبداً! فإذا كان هذا الرأي قابلاً للنقاش هنا، فإنّ ما جاء في الآية ١١٠ من سورة المائدة لا مجال فيه لأيّ نقاش: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ...﴾ لأنّ الآية تقول صراحةً إنّ واحدة من نِعم الله عليك أنّك كنت تصنع من الطين طيراً حيّاً بإذن الله.

إنّ الإصرار على أمثال هذه التأويلات لا موجب له أبداً، لأنّه إذا كان الهدف إنكار أعمال الأنبياء الخارقة للعادة، فإنّ القرآن يصرّح بها في كثير من المواضع، فإذا استطعنا - فرضاً - أن نؤوّل هذه المعجزات فكيف بسائر المعجزات التي لا يمكن تأويلها؟

ثمّ إنّنا إذا كنا نقول إنّ الله هو الذي يحكم قوانين الطبيعة، وليست هي التي تحكمه، فما الذي يمنع هذه القوانين الطبيعية أن تتغيّر بأمر منه في ظروف استثنائية فتظهر حوادث بطرق غير طبيعية.

---

(١) «اكمه» قيل إنّه يعني أعمى، وذهب بعض إلى أنّه العشو الليلي، ولكن أغلب المفسّرين وأرباب اللغة ذهبوا إلى أنّه يعني الأعمى منذ الولادة، وبعض ذهب إلى أكثر من ذلك بأنّ المراد هو عدم وجود أصل العين.

أمّا إذا تصوّر هؤلاء أن ذلك يتعارض مع وحدة أفعال الله وخالقيّته وكونه لا شريك له، فإنّ القرآن قد أجاب على هذا. فوقوع هذه الحوادث أينما وقعت مشروط بأمر الله، أي إنّ أحداً بقواه الخاصّة غير قادر على القيام بأمثال هذه الأعمال إلّا إذا شاء، وبإمداد من قدرته اللامتناهية وهذا هوالتوحيد عينه، لا الشرك.

٢ - الولاية التكوينية

تفيد هذه الآية وآيات أُخرى سوف نتطرّق إليها - إن شاء الله - أنّ رسل الله وأولياءه يستطيعون بإذن منه وبأمره - إذا اقتضى الأمر - أن يتدخّلوا في عالم الخلق والتكوين، وأن يحدثوا ما يعتبر خارقاً للقوانين الطبيعية. فاستعمال أفعال مثل (أُبرىء) و(أُحيي الموتى) وبضمير المتكلّم تدلّ على أنّ هذه الأفعال من عمل الأنبياء أنفسهم، وأنّ القول بأنّ هذه الأفعال كانت تقع بسبب دعائهم فقط هو قول لا يقوم عليه دليل، بل إنّ ظاهر الآيات يدلّ على أنّهم كانوا يتصرفون بعالم التكوين ويقومون بتلك الأفعال.

ولكن لكي لا يتصوّر أحد أنّ الأنبياء والأولياء كان لهم استقلال في العمل، وأنّهم أقاموا جهازاً للخلق في مقابل جهاز خلق الله، وكذلك لكي لايكون هناك أيّ احتمال للشرك وللعبادة المزدوجة، تكرّر قول: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، (تكرّر في هذه الآية مرّتين، وفي الآية ١١٠ من سورة المائدة أربع مرّات).

وما الولاية التكوينية إلّا القول بأنّ الأنبياء والأئمّة يستطيعون - إذا لزم الأمر - أن يتصرّفوا في عالم الخلق بإذن الله، وهذا مقام أرفع من مقام الولاية التشريعية، أي إدارة الناس وحكمهم ونشر قوانين الشريعة بينهم ودعوتهم إلى الله وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

وبذلك يتضح جواب الذين ينكرون ولاية أهل الله التكوينية ويعتبرونها ضرباً من الشرك، فما من أحد يقول بأنّ للأنبياء والأئمّة جهازاً للخلق مستقلاً في قبال الله، إنّما هم يفعلون ما يفعلون بإذن الله وبأمر منه، غير أنّ منكري الولاية التكوينية يقولون إنّ مهمّة الأنبياء تنحصر في الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالته وأحكامه، وقد يتوسّلون أحياناً بالدعاء إلى الله في بعض الأُمور التكوينية، وإنّ هذا هو كلّ ما يقدرون عليه، مع أنّ هذه الآية والآيات الأُخرى تفيد غير ذلك.

كما يُستنتج من هذه الآية أنّ كثيراً من معجزاتهم - على الأقل - قد فعلوها بأنفسهم، وإن كان ذلك بإذن الله وبعون من القدرة الإلهيّة، في الواقع يمكن القول بأنّ المعجزة من عمل الأنبياء - لأنّهم هم الذين يقومون بها - كما هي من عمل الله لأنّها تتمّ بإذنه وبالاستعانة بقدرته.

٣ - الجدير بالالتفات هنا أنّ تكرار القول ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والاعتماد على مشيئته في هذه الآية من أجل أن لا يبقى عذر لمدعي أُلوهية المسيح، ولكيلا يعتبره الناس ربّاً، أما عدم تكرارها في الإخبار بالغيب فلوضوح الأمر.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

التّفسير

هذه الآية جاءت على لسان المسيح عليه السلام ولبيان بعض اهداف النبوّة حيث يقول: جئت أُؤكّد لكم التوراة وأُثبت أُصولها ومبادئها ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ كما جئت لأرفع الحظر الذي فرض عليكم، بالنسبة لبعض الأشياء، في دين موسى عليه السلام بسبب عصيانكم - مثل منع لحم الأباعر، وبعض شحوم الحيوانات، وبعض الطيور، والأسماك - ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

وسوف نجد في تفسير الآية ١٦٠ من سورة النساء أنّه بسبب عناد بعض جماعات اليهود وطغيانهم حرّم الله عليهم بعض الطيّبات من النِعم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

إلّا أنّ هذه المحظورات أُحلّت لهم مرّة أُخرى ببركة ظهور المسيح عليه السلام هذا النبيّ العظيم.

ثمّ مرّة أُخرى تتكرّر الجملة التي قرأناها على لسان المسيح في الآية السابقة: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

وفي الآية الثانية تؤكّد على لسان السيد المسيح عليه السلام عبودية المسيح لرفع كلّ إبهام وريب قد ينشأ من كيفية ولادته التي قد يتشبث بها البعض لإثبات أُلوهيته وتقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يتّضح من هذه الآية ومن آيات أُخرى أنّ السيّد المسيح، لكي يزيل كلّ إبهام وخطأ فيما يتعلّق بولادته الخارقة للعادة، ولكي لا يتّخذوها ذريعة لتأليهه، كثيراً ما يكرّر القول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ و﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾(١)، بخلاف ما نراه في الأناجيل المحرّفة الموجودة التي تنقل

(١) سورة مريم، الآية: ٣٠.

عن المسيح أنّه كان يستعمل (الأب) في كلامه عن الله، إنّ القرآن يذكر (الرب) بدلاً من ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، وهذا أكثر ما يمكن أن يقوم به المسيح في محاربة من يدّعي ألوهيّته، بل لكي يكون التوكيد على ذلك أقوى يقول للناس (فاعبُدوه) أي اعبدوا الله ولا تعبُدوني.

ولذلك نجد أنّه لم يكن أحد من الناس يتجرأ في حياة السيّد المسيح أن يدعي أُلوهيته أو أنّه أحد الآلهة، وحتى بعد عروجه بقرنين من الزمان لم تخالط تعليماته في التوحيد شوائب الشرك، إلّا أنّ التثليث باعتراف أرباب الكنيسة ظهر في القرن الثالث للميلاد (وسيأتي تفصيل ذلك في ذيل الآية ١٧١ من سورة النساء).

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

التّفسير

استقامة الحواريين

كان اليهود ينتظرون مجيء المسيح عليه السلام بموجب ما بشّرهم به موسى عليه السلام، قبل أن يولد، ولكنّه عندما ظهر، وتعرّضت مصالح جمع من الظالمين والمنحرفين من بني إسرائيل للخطر، لم يبق معه إلّا نفر قليل، بينما تركه الذين احتملوا أن يؤدّي قبولهم دعوة المسيح والتقيّد بالقوانين الإلهية إلى ضياع مصالحهم.

بعد أن أعلن عيسى دعوته وأثبتها بالأدلّة الكافية، أدرك أنّ جمعاً من بني إسرائيل يصرّون على المعارضة والعصيان ولا يتركون المعاندة والانحراف ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ[1] عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾، فنادى في أصحابه و﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فاستجاب لندائه نفر قليل، كانوا أطهاراً سمّاهم القرآن بـ(الحواريّين)، لبّوا نداء المسيح ولم يبخلوا بشيء في سبيل نشر أهدافه المقدّسة.

---

(١) التعبير بـ«أحسّ» مع أن الكفر أمر باطني لا يدرك بالحواس قد يكون أنّ إصرارهم على الكفر بلغ مرتبة من الشدّة وكأنّه أصبح محسوساً (الميزان - ذيل الآية مورد البحث).

أعلن الحواريون استعدادهم لتقديم كلّ عون للمسيح عليه السلام، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

لاحظ أنّ الحواريين لم يقولوا: نحن أنصارك، بل لكي يعربوا عن منتهى إيمانهم بالتوحيد وليؤكّدوا إخلاصهم، ولكي لا يشمّ من كلامهم أيّ رائحة للشرك، قالوا: نحن أنصار الله، ننصر دينه، ونريدك شاهداً على هذه الحقيقة، لعلّهم قد شمّوا منذ ذلك اليوم رائحة الانحراف في المستقبل وأنّ هناك من سيدّعي أُلوهيّة عيسى من بعده، فسعوا ألّا يكون في كلامهم ما يمكن أن يتذرّعوا به، ضمناً نلاحظ أنّ الحواريين عبّروا في كلامهم عن كونهم مسلمين، وهذا يدلّ على أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء عليهم السلام.

وهنا ميّز المسيح عليه السلام أتباعه المخلصين من الأعداء والمنافقين كيما يضع لدعوته برنامجاً دقيقاً وخطة مدروسة كما صنع نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ذلك في بيعة العقبة.

وبعد أن قبل الحواريّون دعوة المسيح إلى التعاون معه واتّخاذه شاهداً عليهم في إيمانهم، اتّجهوا إلى الله يعرضون عليه إيمانهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾.

ولكن لمّا كانت دعوى الإيمان لا تكفي وحدها، فقد أتبعوا ذلك بقيامهم بتنفيذ أوامر الله واتّباع رسوله المسيح، وقالوا مؤكّدين: ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾.

عندما يتغلغل الإيمان في روح الإنسان لا بدّ أن ينعكس ذلك على عمله، فبدون العمل يكون ادّعاؤه الإيمان تقوّلاً، لا إيماناً حقيقياً.

بعد ذلك طلبوا من الله قائلين ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾. والشاهدون هم أُولئك الذين لهم صفة قيادة الأُمم، ويوم القيامة يشهدون على أعمال الناس الحسنة والسيّئة.

وبعد أن انتهى الحواريّون من شرح إيمانهم، أشاروا إلى خطط اليهود الشيطانية، وقالوا: إنّ هؤلاء - لكي يقضوا على المسيح عليه السلام، وعلى دعوته، ويصدّوا انتشار دينه - وضعوا الخطط الماكرة، إلّا أنّ ما رسمه الله من مكر فاق مكرهم وكان أشدّ تأثيراً ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

بحوث

١ - من هم الحواريون؟

(حواريّون) جمع حواريّ من مادة (حَوَر) بمعنى الغسل والتبييض، وقد تطلق على الشيء الأبيض، لذلك يطلق العرب على الطعام الأبيض (الحوارى). و(حور) جمع حوراء وهي البيضاء البشرة.

أمّا سبب تسمية تلامذة المسيح عليه السلام بالحواريّين فقد ذكرت له احتمالات كثيرة، ولكن الأقرب إلى الذهن، وهو الوارد في أحاديث أئمّة الدين، هو لأنّهم فضلاً عن طهارة قلوبهم وصفاء أرواحهم، كانوا دائبي السعي في تطهير الناس وتنوير أفكارهم وغسلهم من أدران الذنوب.

وهذا ما أكّده حديث عن الإمام الرضا عليه السلام في (عيون أخبار الرضا)..[1]؟!

٢ - الحواريّون في القرآن والإنجيل

تكلّم القرآن عن الحواريّين في سورة الصف، الآية ١٤، مشيراً إلى إيمانهم. ولكن يتبيّن ممّا نقرأه في الإنجيل بشأن الحواريّين أنّهم جميعاً ارتكبوا بعض الزلل بالنسبة للمسيح عليه السلام.

أمّا أسماؤهم كما جاءت في إنجيل متّى ولوقا، الباب السادس، فهي:

١ - بطرس٢، - اندرياس، ٣ - يعقوب، ٤ - يوحنّا، ٥ - فيلوبس، ٦ - برتولولما، ٧ - توما، ٨ - متّى، ٩ - يعقوب بن حلفا، ١٠ - شمعون (الغيور)، ١١ - يهوذا أخو يعقوب، ١٢ - يهوذا الاسخريوطي الذي خان المسيح.

يذكر المفسّر المعروف المرحوم الطبرسي في (مجمع البيان) أنّ الحواريّين كانوا يرافقون المسيح في رحلاته، كلّما عطشوا أو جاعوا رأوا الماء والطعام مهيّأً أمامهم بأمر الله، فكانوا يرون في ذلك فخراً لهم أيّ فخر، وسألوا المسيح: أهناك من هو أفضل منّا؟ فقال: نعم، أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه.

وعلى أثر ذلك اشتغلوا بغسل الملابس للناس لقاء أجر، وانشغلوا بذلك؛ فكان ذلك درساً عملياً للناس بأنّ العمل ليس عيباً أو عاراً[2].

٣ - ما المراد بالمكر الإلهي؟

في القرآن آيات مشابهة لهذه ينسب فيها المكر إلى الله[3]، كلمة (المكر) بالمصطلح المعاصر تختلف كثيراً عن معناها اللغوي، فالمكر بالمعنى المعاصر هو وضع الخطط الشيطانية الضارّة، ولكن معناها بلغة العرب هو البحث عن العلاج لأمر ما، وقد يكون حسناً أو سيّئاً.

---

(١) عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٧٩؛ وعلل الشرائع، ج١، ص ٨٠.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٤٤٨؛ ومستدرك الوسائل، ج ١٣، ص ٢٣.

(٣) انظر الآية ٣٠ من سورة الأنفال، أو الآية ٥٠ من سورة النمل وغيرهما.

في كتاب (المفردات) للراغب نقرأ: المكر: صرف الغير عمّا يقصد - خيراً كان أو شرّاً -.

وفي القرآن وردت كلمة (المكر) مقرونة بكلمة (الخير)، إذ يقول ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، كما وردت مع (السيّىء): ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾(١).

وعليه يكون المقصود من الآية هو أنّ أعداء المسيح وضعوا الخطط الشيطانية للوقوف بوجه هذه الدعوة الإلهيّة، ولكن الله لكي يحفظ حياة نبيّه ويصون الدعوة مكَرَ أيضاً فأحبط كلّ ما مكروه.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

التّفسير

قلنا إنّ اليهود - بالتعاون مع بعض المسيحيّين الخونة - قرّروا قتل السيّد المسيح، فأحبط الله مكرهم، ونجى نبيّه منهم، في هذه الآية يذكر الله نعمته على المسيح قبل وقوع الحادثة، قائلاً: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾.

من المعروف عند المفسّرين، بالاستناد إلى الآية ١٥٧ من سورة النساء، أنّ السيّد المسيح لم يُقتَل، وأنّ الله رفعه إلى السماء، غير أنّ المسيحيّين يقولون إنّه قُتِل ودُفِن، ثمّ قام من بين الأموات وبقي لفترة قصيرة على الأرض ثمّ صعد إلى السماء(٢).

ولكن الذي لا بدّ من قوله الآن هو أنّ هذه الآية ليس فيها دليل على موت عيسى، على الرغم من أنّ بعضهم تصوّر أنّ كلمة (متوفّيك) من (الوفاة). وعلى ذلك فإنّهم يرون أنّ هذا الموضوع يتعارض مع الرأي السائد بين المسلمين، والذي تؤيّده الأحاديث، من أنّ عيسى لم يمت وأنّه حي، ولكن الأمر ليس كذلك.

(الفوت) هو بُعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذّر إدراكه، و(الوافي) الذي بلغ التمام، ووفى بعهده إذا أتمّه ولم ينقضه، وإذا استوفى أحد دَينه من المدين قيل (توفّى دَينه).

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٢) إنجيل مرقس الباب ٩ - إنجيل متى الباب ٢٨ - إنجيل لوقا الباب ٢٤ - إنجيل يوحنا الباب ٣١.

وفي القرآن وردت (توفى) كراراً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾(١). فهنا عبّر عن النوم بكلمة (يتوفّاكم).

هذا المعنى نفسه يرد في الآية ٤٢ من سورة الزمر، كما ترد كلمة (توفّى) في آيات أُخرى بمعنى الأخذ.

صحيح أنّ (توفّى) قد تأتي أحياناً بمعنى الموت، ولكنّها حتى في تلك المواضع لا تعني الموت حقّاً، بل بمعنى قبض الروح، والواقع أنّ مادّة (فوت) ومادّة (وفى) منفصلتان تماماً.

ممّا تقدّم يكون تفسير الآية واضحاً.

يقول الله: يا عيسى إنّني سوف أستوفيك وأرفعك إليّ، وهذا يعني حياة عيسى، لا موته (وطبعاً إذا كانت كلمة (توفي) بمعنى قبض الروح فقط، فإن لازم ذلك هو الموت).

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

هذا جانب آخر من خطاب الله للمسيح، والقصد من التطهير هنا هو إنقاذه من الكفّار الخبثاء البعيدين عن الحقّ والحقيقة الذين كانوا يوجّهون إليه التهم الباطلة، ويحوكون حوله المؤامرات ساعين إلى تلويث سمعته، فنصر الله دينه، وطهّره من تلك التهم، بمثل ما نقرأه عن نبيّ الإسلام ﷺ في أوّل سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، أي أنّنا هيّأنا لك نصراً واضحاً كي يغفر لك الله ذنوبك السابقة واللاحقة (ويطهّرك من التهم التي ألصقوها بك على شكل ذنوب).

كما يحتمل أن يعني التطهير إخراج المسيح عليه السلام من ذلك المحيط الملوّث، وهذا يناسب الآية السابقة.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وهذه بشارة يبشّر بها الله المسيح وأتباعه لتشجيعهم على المضيّ في الطريق الذي اختاروه، والواقع أنّ هذه واحدة من آيات الإعجاز ومن تنبّؤات القرآن الغيبية التي تقول إنّ أتباع المسيح سوف يسيطرون دائماً على اليهود الذين عادوا المسيح.

وها نحن اليوم نرى هذه الحقيقة رأيَ العين، فاليهود الصهاينة، - بغير الاستناد إلى المسيحيّين - غير قادرين على إدامة حياتهم السياسية والاجتماعية يوماً واحداً، بديهيّ أنّ (الكافرين) هنا هم اليهود الذين كفروا بالمسيح.

وفي ختام الآية يقول تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

تَخۡتَلِفُونَ﴾ ويعني أن ما تقدّم من الانتصارات والبشائر يتعلق بالحياة الدنيا، أمّا المحكمة النهائية ونيل الجزاء الكامل فسيكون في الآخرة.

بحث

هل الديانتان اليهودية والمسيحيّة باقيتان؟

هنا يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو أنّ اليهود والنصارى - بموجب هذه الآية - سيبقون في الدنيا حتى يوم القيامة، وأنّ أتباع هاتين الديانتين سيبقون أيضاً، مع أنّ الأخبار الخاصّة بظهور المهدي عليه السلام تبيّن أنّه يخضع جميع الأديان ويحكم العالم كلّه.

يتّضح جواب هذا السؤال بالتدقيق في الأحاديث، فنحن نقرأ في الأحاديث عن المهدي عليه السلام أنّه لا يبقى بيت في البدو ولا في الحضر إلّا ويدخله التوحيد، أي إنّ الإسلام سيكون الدين الرسمي في العالم كلّه، وتكون الحكومة حكومة إسلامية، ولا يحكم العالم سوى القوانين الإسلامية، ولكن هذا لا يمنع من وجود أقلّية من اليهود والنصارى تعيش تحت ظلّ حكومة المهدي عليه السلام وفق شروط (أهل الذمّة).

إنّنا نعلم أنّ حكومة المهدي عليه السلام لا تجبر الناس على اعتناق الإسلام، بل تتقدّم بالمنطق، أمّا التوسّل بالقوّة العسكرية فلبسط العدالة، وللإطاحة بالحكومات الظالمة، ولانضواء العالم تحت لواء الإسلام، لا لإجبار الناس على قبول الإسلام، وإلّا فلن يكون هناك أي معنى لحرية الإرادة والاختيار.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

التّفسير

عاقبة أنصار وأعداء المسيح عليه السلام

الآية الأُولى والثانية تتابعان الخطاب للسيد المسيح وحال أتباعه وأعدائه، بينما الآية الثالثة تخاطب نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد ذكر رجوع الناس إلى الله ومحاكمتهم - في الآية السابقة - يأتي في هذه الآية ذكر نتيجة تلك المحاكمة، فالكافرون والمعارضون للحقّ والعدالة سيُلاقون في الآخرة من العذاب الأليم مثل ما يُلاقون في الدنيا، ولن يكون لأيّ منهم حام ولا نصير، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

ومن الإشارة في هذه الآية إلى عذاب الدنيا نفهم أنّ الكافرين - وهم هنا اليهود - لا ينجون من العذاب، وهذا ما يؤكّده تاريخ اليهود، ومن ذلك تفوّق الآخرين عليهم كما جاء في الآيات السابقة.

ثمّ أشار القرآن الكريم إلى الفئة الثانية وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾. ثمّ يؤكد القول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

تقديم مصير الكافرين على المؤمنين من أجل أن الكافرين بنبوّة المسيح كانوا يشكلون الأغلبية.

والملفت للنظر أن الآية الأُولى اكتفت بذكر الكفر فقط، أمّا الآية الثانية فقرنت الإيمان بالعمل الصالح، وهذا إشارة إلى أن الكفر لوحده يكون سبباً للعذاب الإلهي، ولكن الإيمان لوحده لا يكفي للنجاة، بل لا بدّ وأن يقترن بالعمل الصالح.

وجملة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لعلّها ناظرة إلى أنّ جميع معاني الكفر والأعمال السيّئة داخلة في مفهوم الظلم بمعناه الواسع، ومن الواضح أن الله لا يحب الظالمين ولا يقدم على ظلم عباده بل يوفيهم أُجورهم بالكامل.

وبعد ذكر تاريخ المسيح وبعض ما جرى له، يتّجه الخطاب إلى رسول الإسلام ﷺ فيقول: كلّ هذا الذي سردناه عليك دلائل صدق لدعوتك ورسالتك، وكان تذكيراً حكيماً جاء بصورة آيات قرآنية نزلت عليك، تبيّن الحقائق في بيان محكم وخال من كلّ هزل وباطل وخرافة.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

سبب النّزول

قلنا في بداية هذه السورة إنّ الكثير من آياتها كانت ردّاً على محاورات مسيحيّي نجران الذين جاؤوا في وفد مؤلّف من ٦٠ شخصاً وفيهم عدد من زعمائهم بقصد التحاور مع رسول الله ﷺ.

من بين المواضيع التي طرحت في ذلك الاجتماع مسألة أُلوهيّة المسيح التي رفضها رسول الله ﷺ واستدلّ بأنّ المسيح وُلِد وعاش كبقية الناس ولا يمكن أن يكون إلهاً، لكنّهم استدلّوا على أُلوهيّته بولادته من غير أب، فنزلت الآية ردّاً عليهم، ولمّا رفضوا ذلك دعاهم إلى المباهلة، وسوف يأتي ذكرها قريباً إن شاء الله[1].

التّفسير

نفي ألوهية المسيح

الآية الأُولى تورد استدلالاً قصيراً وواضحاً في الردّ على مسيحيّي نجران بشأن أُلوهية المسيح: إنّ ولادة المسيح من غير أب لا يمكن أن تكون دليلاً على أنّه ابن الله أو أنّه الله بعينه، لأنّ هذه الولادة قد جرت لآدم بصورة أعجب فهو قد ولد من غير أب ولا أُم، وعليه، فكما أنّ خلق آدم من تراب لا يستدعي التعجّب، لأنّ الله قادر على كلّ شيء، ولأن (فعله) و(إرادته) متناسقان فإذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون، كذلك ولادة عيسى من أُمّ وبغير أب، ليست مستحيلة.

وأساساً، فإنّ الميسور والمعسور يتحقّقان بالنسبة لمن كانت قدرته محدودة كما في المخلوقات، أمّا من كانت قدرته مطلقة فلا مفهوم للصعب والسهل بالنسبة له، فخلق ورقة واحدة تتساوى بالنسبة له مع خلق غابة من آلاف الكيلومترات، وخلق ذرة واحدة كخلق المنظومة الشمسية لديه.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

هذه الآية تؤكّد الموضوع وتقول: إنّ ما أنزلنا عليك بشأن المسيح أمرٌ حقيقيٌ من الله ولا يعتوره الشكّ، فلا تتردّد في قبوله.

في تفسير ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ للمفسّرين رأيان: الرأي الأول يقول: إنّ الجملة مبتدأ وخبر، وبذلك يكون المعنى: الحقّ دائماً من ربّك، وذلك لأنّ الحقّ هو الحقيقة، والحقيقة هي الوجود، وكلّ وجود ناشىء من وجوده، لذلك فكلّ باطل عدم، والعدم غريب على ذاته.

الرأي الثاني يقول: إنّ الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره (تلك الأخبار). أي تلك الأخبار التي أنزلناها عليك حقائق من الله، وكلّ من التفسيرين ينسجم مع الآية.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

سبب النّزول

قيل نزلت الآيات في وفد نجران العاقب والسيد ومن معهما قالوا لرسول الله ﷺ: هل رأيت ولداً من غير ذكر فنزلت: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ...﴾ الآيات فقرأها عليهم، فلمّا دعاهم رسول الله إلى المباهلة(١) استنظروه إلى صبيحة غد من يومهم ذلك، فلمّا رجعوا إلى رجالهم قال لهم الأُسقف: انظروا محمّداً في غد فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلته، وإن غدا بأصحابه فباهلوه فإنّه على غير شيء.

فلمّا كان الغد جاء النّبي ﷺ آخذاً بيد علي بن أبي طالب عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام بين يديه يمشيان وفاطمة عليها السلام تمشي خلفه، وخرج النصارى يتقدمهم أُسقفهم. فلمّا رأى النّبي ﷺ قد أقبل بمن معه سأل عنهم فقيل له: هذا ابن عمّه وزوج ابنته وأحب الخلق إليه، وهذان ابنا بنته من علي وهذه الجارية بنته فاطمة أعزّ الناس عليه وأقربهم إلى قلبه، وتقدّم رسول الله ﷺ فجثا على ركبتيه، قال أبو حارثة الاسقف جثا والله كما جثا الأنبياء للمباهلة.

فرجع ولم يقدم على المباهلة، فقال السيد: أُدن يا أبا حارثة للمباهلة! فقال: لا، إنّي لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة وأنا أخاف أن يكون صادقاً ولئن كان صادقاً لم يحل والله علينا حول وفي الدنيا نصراني يطعم الماء.

فقال الأسقف: يا أبا القاسم! إنّا لا نباهلك ولكن نصالحك فصالحنا على ما ينهض

---

(١) «مُباهَلة» في الأصل من مادة «بَهْل» (على وزن أهل) بمعنى اطلاق وفك القيد عن الشيء وبذلك يقال للحيوان الطلق حيث لا توضع محالبها في كيس كي يستطيع وليدها أن يرضع بسهولة يقال له: «باهل»، «ابتهال» في الدعاء بمعنى التضرع وتفويض الأمر إلى الله. وإذا فسّروها بمعنى الهلاك واللّعن والبعد عن الله كذلك بسبب ترك العبد طلقاً وحراً في كلّ شيء تترتب عليه هذه النتائج، هذا معنى «المباهلة» لغةً. أمّا مفهوماً ما هو المعروف نزول هذه الآية بمعنى الملاعنة بين الشخصين، ولذا يجتمع أفراد للحوار حول مسألة دينية مهمّة في مكان واحد ويتضرّعون إلى الله أن يفضح الكاذب ويعاقبه.

به، فصالحهم رسول الله ﷺ على ألفي حلّة من حلل الأواقي قسمة كلّ حلّة أربعون درهماً فما زاد أو نقص فعلى حساب ذلك أو على عارية ثلاثين درعاً وثلاثين رمحاً وثلاثين فرساً إن كان باليمن كيد، ورسول الله ﷺ ضامن حتى يؤدّيها وكتب لهم بذلك كتاباً.

وروي أنّ الأسقف قال لهم: إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة[1].

التّفسير

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ...﴾.

بعد الآيات التي استدلّ فيها على بطلان القول بأُلوهية عيسى بن مريم، يأمر الله نبيّه بالمباهلة إذا جاءه من يجادله من بعد ما جاءه من العلم والمعرفة، وأمره أن يقول لهم: إنّي سأدعو أبنائي، وأنتم ادعوا أبناءكم، وأدعو نسائي، وأنتم ادعوا نساءكم، وأدعو نفسي، وتدعون أنتم أنفسكم، وعندئذ ندعو الله أن ينزل لعنته على الكاذب منّا ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

ولا حاجة للقول بأنّ القصد من المباهلة لم يكن إحضار جمع من الناس للّعن، ثمّ ليتفرّقوا كلٌّ إلى سبيله، لأنّ عملاً كهذا لن يكون له أيّ تأثير، بل كان المنتظر أن يكون لهذا الدعاء واللّعن أثر مشهود عياناً فيحيق بالكاذب عذاب فوري.

وبعبارة أُخرى: فإنّ المباهلة - وإن لم يكن في الآية ما يشير إلى تأثيرها - كانت بمثابة (السهم الأخير) بعد أن لم ينفع المنطق والاستدلال، فإنّ الدعاء وحده لم يكن المقصود بها، بل كان المقصود منها هو (أثرها الخارجي).

بحوث

١ - المباهلة دليل قاطع على أحقية نبي الإسلام

لعلّ قضية المباهلة بهذا الشكل لم تكن معروفة عند العرب، بل كانت أُسلوباً يبيّن صدق النبيّ وإيمانه بشكل قاطع، إذ كيف يمكن لمن لا يؤمن كلّ الإيمان بعلاقته بالله أن

---

(١) تفسير مجمع البيان، ورد سبب نزول هذه الآيات في تفاسير أُخرى مع تفاوت يسير مثل: تفسير أبي الفتوح الرازي والتفسير الكبير وغيرهما، وادّعى الفخر الرازي أن هذه الروايات متفق عليها عند علماء التفسير والحديث (بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٢١ و ٣٢٢ و ٣٤٢ و...).

يدخل هذا الميدان، فيطلب من معارضيه أنّ يتقدّموا معه إلى الله يدعونه أن ينزل لعناته على الكاذب، وأن يروا سرعة ما يحلّ بالكاذب من عقاب؟! لاشكّ أنّ دخول هذا الميدان خطر جدّاً، لأنّ المبتهل إذا لم يجد استجابة لدعائه ولم يظهر أيّ أثر لعقاب الله على معارضيه، فلن تكون النتيجة سوى فضيحة المبتهل، فكيف يمكن لإنسان عاقل ومدرك أن يخطو مثل هذه الخطوة دون أن يكون مطمئناً إلى أنّ النتيجة في صالحه؟ لهذا قيل إنّ دعوة رسول الله ﷺ إلى المباهلة تعتبر واحداً من الأدلّة على صدق دعوته وإيمانه الراسخ بها، بصرف النظر عن النتائج التي كانت ستكشف عنها المباهلة.

تقول الروايات الإسلامية: عند عرض هذا الاقتراح للمباهلة، طلب ممثّلو مسيحيّي نجران من رسول الله ﷺ أن يمهلهم بعض الوقت ليتبادلوا الرأي مع شيوخهم، فكان لهم ما أرادوا، وكانت نتيجة مشاورتهم - التي تعتمد على ناحية نفسية - هي أنّهم أمروا رجالهم بالدخول في المباهلة دون خوف إذا رأوا محمّداً ﷺ قد حضر في كثير من الناس ووسط جلبة وضوضاء، إذ إنّ هذا يعني أنّه بهذا يريد بثّ الرعب والخوف في النفوس وليس في أمره حقيقة، أمّا إذا رأوه قادماً في بضعة أنفار من أهله وصغار أطفاله إلى الموعد، فليعلموا أنّه نبيّ الله حقّاً، وليتجنّبوا مباهلته.

وقد حضر المسيحيّون إلى المكان المعيّن، ثمّ رأوا أنّ رسول الله ﷺ أقبل يحمل الحسين عليه السلام على يد ويمسك الحسن عليه السلام باليد الأُخرى ومن خلفه علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام، وهو يطلب منهم أن يؤمّنوا على دعائه عند المباهلة، وإذ رأى المسيحيّون هذا المشهد استولى عليهم الفزع، ورفضوا الدخول في المباهلة، وقبلوا التعامل معه بشروط أهل الذمّة.

٢ - أحد أدلّة عظمة أهل البيت عليهم السلام

يصرّح المفسّرون من الشيعة والسنّة أنّ آية المباهلة قد نزلت في حقّ أهل بيت النبيّ ﷺ، وأنّ الذين اصطحبهم النبيّ ﷺ معه للمباهلة بهم هم: الحسن والحسين وفاطمة وعلي عليهم السلام، وعليه، فإنّ (أبناءنا) الواردة في الآية ينحصر مفهومها في الحسن والحسين عليهما السلام، ومفهوم (نساءنا) ينحصر في فاطمة عليها السلام، ومفهوم (أنفسنا) ينحصر في علي عليه السلام، وهناك أحاديث كثيرة بهذا الخصوص[١].

حاول بعض أهل السنّة أن ينكر وجود أحاديث في هذا الموضوع، فصاحب تفسير المنار يقول في تفسير الآية:

---

(١) بحار الانوار، ج١٠، ص ١٤١ و ٣٥٠.

الروايات متّفقة على أنّ النبيّ ﷺ اختار للمباهلة عليّاً وفاطمة وولديهما ويحملون كلمة (نساءنا) على فاطمة عليها السلام وكلمة (أنفسنا) على عليّ عليه السلام فقط، ومصادر هذه الروايات شيعية، ومقصدهم منها معروف، وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت عند كثير من أهل السنّة، ولكن بالرجوع إلى مصادر أهل السنّه الأصلية يتّضح أنّ الكثير من تلك الطرق لا تنتهي بالشيعة وبكتب الشيعة، وإنكار هذه الأحاديث الواردة بطريق أهل السنّة، يسقط سائر أحاديثهم وكتبهم من الاعتبار.

لكي نلقي الضوء على هذه الحقيقة، نورد هنا بعضاً من رواياتهم ومصادرها:

القاضي نور الله الشوشتري في المجلّد الثالث من كتابه النفيس (إحقاق الحقّ)، الطبعة الجديدة، ص ٤٦، يتحدّث عن اتّفاق المفسّرين في أنّ (أبناءنا) في هذه الآية إشارة إلى الحسن والحسين، و(نساءنا) إشارة إلى فاطمة، و(أنفسنا) إشارة إلى عليّ عليه السلام.

ثمّ يشير في هامش الكتاب إلى نحو ستّين من كبار أهل السنّة من الذين قالوا إنّ آية المباهلة نزلت في أهل البيت، ويذكر أسماء هؤلاء العلماء بالتفصيل في الصفحات ٤٦ - ٧٦.

ومن المشاهير الذين نقل عنهم هذا التصريح:

١ - مسلم بن الحجاج النيسابوري، صاحب أحد الصحاح الستة المعروفة التي يعتمدها أهل السنّة. المجلّد ٧ ص ١٢٠ (طبعة محمّد علي صبيح - مصر).

٢ - أحمد بن حنبل في كتابه (المسند) ج ١ ص ١٨٥ (طبعة مصر).

٣ - الطبري في تفسيره المعروف: ج ٣ ص ١٩٢ (المطبعة اليمنية - مصر).

٤ - الحاكم في كتابه (المستدرك) ج ٣ ص ١٥٠ (طبعة حيدر آباد الدكن).

٥ - الحافظ أبو نعيم الإصفهاني في كتابه (دلائل النبوة) ص ٢٩٧ (طبعة حيدر آباد).

٦ - الواحديّ النيسابوري في كتابه (أسباب النزول) ص ٧٤ (المطبعة الهندية مصر).

٧ - الفخر الرازي في تفسيره المعروف، ج٨ ص ٨٥ (المطبعة البهية - مصر).

٨ - ابن الأثير في كتابه (جامع الأُصول) ج ٩ ص ٤٧٠ (مطبعة السنّة المحمدية - مصر).

٩ - ابن الجوزي في كتابه (تذكرة الخواص) ص ١٧ (طبعة النجف).

١٠ - القاضي البيضاوي في تفسيره ج ٢ ص ٢٢ (مطبعة مصطفى محمّد - مصر).

١١ - الآلوسي في تفسيره (روح المعاني) ج ٣ ص ١٦٧ (المطبعة المنيرية - مصر).

١٢ - الطنطاوي في تفسيره المعروف (الجواهر) ج ٢ ص ١٢٠ (مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر).

١٣ - الزمخشري في تفسيره (الكشّاف) ج ١ ص ١٩٣ (مطبعة مصطفى محمّد).

١٤ - الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني في كتابه (الإصابة) ج ٢ ص ٥٠٣ (مطبعة مصطفى محمّد).

١٥ - ابن الصبّاغ في كتابه (الفصول المهمّة) ص ١٠٨ (طبعة النجف).

١٦ - العلّامة القرطبي في كتابه (الجامع لأحكام القرآن) ج ٣ ص ١٠٤ (طبعة مصر سنة ١٩٣٦).

جاء في كتاب (غاية المرام) عن صحيح مسلم في باب (فضائل علي بن أبي طالب) أنّ معاوية قال يوماً لسعد بن أبي وقاص: لِمَ لا تسبّ أبا تراب (علي عليه السلام)!؟ فقال: (تركت سبّه منذ أن تذكرت الأشياء الثلاثة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وآله في حقّ علي عليه السلام (وأحدها) عندما نزلت آية المباهلة لم يدعُ النبيّ سوى فاطمة والحسن والحسين وعلي عليهم السلام، وقال: اللهمّ هؤلاء أهلي[(١)].

صاحب (الكشّاف) وهو من كبار علماء أهل السنّة، يذهب إلى أنّ هذه الآية أقوى دليل على فضيلة أهل الكساء.

يتّفق المفسّرون والمحدّثون والمؤرّخون الشيعة أيضاً أنّ هذه الآية قد نزلت في أهل البيت، وقد أورد صاحب تفسير (نور الثقلين) روايات كثيرة بهذا الشأن[(٢)].

من ذلك أيضاً ما جاء في كتاب (عيون أخبار الرضا) عن المجلس الذي عقده المأمون في قصره للبحث العلمي، وجاء فيه عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: . . . ميّز الله الطاهرين من خلقه، فأمر نبيّه صلى الله عليه وآله بالمباهلة بهم في آية الابتهال، فقال عزّ وجلّ: يا محمّد ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ . . . فِيهِ﴾ الآية، فأبرز النبيّ صلى الله عليه وآله عليّاً والحسن والحسين وفاطمة صلوات الله عليهم . . .

وقال عليه السلام: فهذه خصوصية لا يتقدّمهم فيها أحد، وفضل لايلحقهم فيه بشر، وشرف لا يسبقهم إليه خلق[(٣)].

(١) صحيح مسلم، ج ٧، ص ١٢٠؛ والغدير، ج ٣، ص ٢٠٠.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥٠.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ١ ص ٣٤٩، تفسير البرهان، ج ١ ص ٢٨٩، تفسير العيّاشي، ج ١، ص ١٧٧، =

كذلك وردت روايات بهذا المضمون في تفسير البرهان وبحار الأنوار وتفسير العيّاشي، وكلّها تقول إنّ الآية قد نزلت في أهل البيت.

٣ - اعتراض وجوابه

هنا اعتراض مشهور أورده الفخر الرازي وآخرون على نزول هذه الآية في أهل البيت، يقول هؤلاء: كيف يمكن أن نعتبر أنّ القصد من (أبناءنا) هو الحسن والحسين عليهما السلام مع أنّ (أبناء) جمع ولا تطلق على الاثنين؟ وكذلك (نساءنا) جمع، فكيف تطلق على سيّدة الإسلام فاطمة عليها السلام وحدها؟ وإذا كان القصد من (أنفسنا) عليّاً عليه السلام وحده فلماذا جاء بصيغة الجمع؟

الجواب:

أوّلاً: كما سبق أن شرحنا بإسهاب، أنّ هناك أحاديث كثيرة في كثير من المصادر الإسلامية الموثوق بها - شيعية وسنّية - تؤكّد نزول هذه الآية في أهل البيت، وهي كلّها تقول إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يدع للمباهلة غير علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، هذا بذاته قرينة واضحة لتفسير الآية، إذ إنّ من القرائن التي تساعد على تفسير القرآن هي السنّة وما ثبت من أسباب النزول.

وعليه، فإنّ الاعتراض المذكور ليس موجّهاً للشيعة فقط، بل إنّ على جميع علماء الإسلام أن يجيبوا عليه، بموجب ما ذكرناه آنفاً.

ثانياً: إطلاق صيغة الجمع على المفرد أو المثنى ليس أمراً جديداً فهو كثير الورود في القرآن وفي غير القرآن من الأدب العربي، وحتى غير العربي.

من ذلك مثلاً أنّه عند وضع قانون، أو إعداد اتّفاقية، تستعمل صيغة الجمع على وجه العموم، فمثلاً، قد يقال في اتّفاقية: إنّ المسؤولين عن تنفيذها هم الموقّعون عليها وأبناؤهم، في الوقت الذي يمكن أن يكون لأحد الأطراف ولد واحد أو اثنين، فلا يكون في هذا أيّ تعارض مع تنظيم الاتّفاقية بصيغة الجمع، وذلك لأنّ هناك مرحلتين، مرحلة (الاتفاق) ومرحلة (التنفيذ). ففي المرحلة الأُولى قد تأتي الألفاظ بصيغة الجمع لكي تنطبق على جميع الحالات. ولكن في مرحلة التنفيذ قد تنحصر الحالة في فرد واحد، وهذا لا يتنافى مع عمومية المسألة.

= البحار، ج ٢٠، ص ٥٢ وج ٦، ص ٦٥٢ الطبعة الجديدة؛ وعيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ٢٢٩ - ٢٣١.

وبعبارة أُخرى: كان على رسول الله ﷺ بموجب اتفاقه مع مسيحيّي نجران، أن يدعو للمباهلة جميع أبنائه وخاصّة نسائه وجميع من كانوا بمثابة نفسه. إلّا أنّ مصداق الاتّفاق لم ينطبق إلّا على ابنين وامرأة ورجل (فتأمّل!).

في القرآن مواضع متعدّدة ترد فيها العبارة بصيغة الجمع، إلّا أنّ مصداقها لا ينطبق إلّا على فرد واحد، فمثلاً نقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾[1] المقصود من (الناس) في هذه الآية هو (نعيم بن مسعود) حسب قول فريق من المفسّرين، لأنّ هذا كان قد أخذ أموالاً من أبي سفيان في مقابل إخافة المسلمين من قوّة المشركين[2].

وأيضاً نقرأ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[3]. فهنا المقصود بـ(الذين) في هذه الآية، على رأي كثير من المفسّرين، هو (حي بن أخطب) أو (فنحاص)[4].

وقد يطلق الجمع على المفرد للتكريم، كما جاء عن إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[5]. فهنا أُطلقت كلمة (أُمّة) وهي اسم جمع، على مفرد.

٤ - كما أنّ آية المباهلة تفيد بأنّ أبناء البنت يعتبرون أبناء أبيها أيضاً، بخلاف ما كان سائداً في الجاهلية في اعتبار أبناء الابن فقط هم أبناء الجد، إذ كانوا يقولون:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد[6]

هذا اللون من التفكير كان من بقايا التقاليد الجاهلية الخاطئة التي لم تكن ترى المرأة عضواً من أعضاء المجتمع، بل كانت تنظر إليها على أنّها وعاء لنموّ الأبناء فقط، وترى أنّ النسب يلحق بالآباء لا غير. يقول شاعرهم:

وإنّما أُمّهات الناس أوعية مستودعات وللأنساب آباء[7]

غير أنّ الإسلام قضى على هذا اللون من التفكير، وساوى بين أبناء الابن وأبناء البنت.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٢) التفسير الكبير؛ وتفسير روح المعاني؛ وتفسير القرطبي، ذيل الآية ١٧٣ من سورة آل عمران.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.
(٤) تفسير جامع البيان؛ وتفسير قرطبي، ذيل الآية ١٨١ من سورة آل عمران.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٠.
(٦) تفسير الميزان، ج ٤، ص ٣١٢؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي حديد، ج ١١، ص ٢٨.
(٧) تفسير الميزان، ج ١٨، ص ٤٤.

نقرأ في الآية ٨٤ و٨٥ من سورة الأنعام بشأن أبناء إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام عدّ هنا من أبناء إبراهيم عليه السلام مع أنّه كان ابناً من جهة البنت.

الأحاديث والروايات الواردة عن طريق الشيعة والسنّة بشأن الحسن والحسين عليهما السلام تشير إلى كلّ منهما بـ(ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) كراراً.

وفي الآيات التي تحرّم الزواج ببعض النساء نقرأ: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾[1]. يتّفق علماء الإسلام على أن الرجل يحرم عليه الزواج من زوجة ابنه وزوجة حفيده سواء أكان من جهة الابن أم البنت، باعتبار شمولهم بالآية المذكورة.

٥ - هل المباهلة تشريع عام؟

لا شكّ أنّ هذه الآية ليست دعوة عامّة للمسلمين للمباهلة، إذ إنّ الخطاب موجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون المباهلة مع المعارضين حكماً عامّاً، وأنّ الأتقياء من المؤمنين الذين يخشون الله، لهم أن يطلبوا من الذين لم ينفع معهم المنطق والاستدلال التقدّم للمباهلة.

وتظهر عمومية هذا الحكم في بعض الروايات الإسلامية، فقد جاء في تفسير نور الثقلين، ج ١ ص ٣٥١ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: إذا كان كذلك (أي إذا لم يقبل المعاند الحقّ) فادعهم إلى المباهلة... أصلح نفسك ثلاثاً... وابرز أنت وهو إلى الجبّان (الصحراء) فشبّك أصابعك من يدك اليمنى في أصابعه، ثمّ انصفه وابدأ بنفسك وقل: اللهمّ ربّ السماوات السبع وربّ الأرضين السبع عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم إن كان (فلان) جحد حقّاً وادّعى باطلاً فأنزل عليه حسباناً (بلاءً) من السماء وعذاباً أليماً، ثمّ ردّد الدعوة عليه... فإنّك لا تلبث أن ترى ذلك فيه[2].

ويتّضح أيضاً من هذه الآية أنه - خلافاً للحملات التي يشنّها الزاعمون أنّ الإسلام دين الرجال وليس للمرأة فيه أيّ حساب - قد ساهمت المرأة المسلمة مع الرجل خلال اللحظات الحسّاسة في تحقيق الأهداف الإسلامية ووقفت معه ضدّ الأعداء، إنّ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٥١٣ و ٥١٤.

الصفحات المشرقة التي تمثّل سيرة سيّدة الإسلام فاطمة الزهراء عليها السلام وابنتها السيّدة زينب الكبرى وغيرهما من نساء الإسلام اللاتي سرن على طريقهما دليل على هذه الحقيقة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

التّفسير

تقول الآية - بعد شرح حياة المسيح عليه السلام - إنّ ما قصصناه عليك من قصة عيسى حقيقة أنزلها الله عليك، وعليه، فإنّ المزاعم الباطلة القائلة بألوهية المسيح، أو اعتباره ابن الله، أو بعكس ذلك اعتباره لقيطاً، كلّها خرافات باطلة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾.

ثمّ تضيف للتوكيد: إنّ الذي يليق للعبادة هو الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وحده، وأن اتّخاذ معبود آخر دونه عمل بعيد عن الحقّ والحقيقة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو قادر على أن يخلق ولداً بدون أب، وذلك على الله يسير.

(القصص) مفرد، تعني القصّة، وهي في الأصل من (القص) بمعنى تعقّب الأثر، في موضع آخر من القرآن قالت أُمّ موسى لابنتها (قصّيه) أي عقّبيه وابحثي عنه ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾(١) وقولهم لثأر الدم (القصاص) لأنّه يتبع لحقوق أصحاب الدم.

و(القصّة) تعنى بتاريخ القدامى والبحث في سير حياتهم ومن ذلك يعلم أنّ المشار إليه في (هذا) هو قصة حياة المسيح عليه السلام لا القرآن الكريم ولا قصص الأنبياء.

الآية الثانية تهدد من لم يستسلم من هؤلاء للحقّ بعد الاستدلالات المنطقية في القرآن بشأن المسيح عليه السلام، وكذلك إذا لم يخضعوا للمباهلة واستمرّوا في عنادهم وتعصّبهم، لأنّ ذلك دليل على أنّهم ليسوا طلّاب حقّ، بل هم مقيّدون بأغلال تعصّبهم المجحف، وأهوائهم الجامحة، وتقاليدهم المتحجّرة، وبذلك يكونون من المفسدين في المجتمع: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

لأنّ هدفهم تخدير الناس وإفساد العقائد السليمة لأفراد المجتمع، ومن المعلوم أنّ الله تعالى يعرف هؤلاء، ويعلم بنيّاتهم وسيجازيهم في الوقت المناسب.

---

(١) سورة القصص، الآية: ١١.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التّفسير

الدعوة إلى الاتّحاد

بدأ القرآن في الآيات السابقة بدعوة المسيحيّين إلى الاستدلال المنطقي، وإذ رفضوا، دعاهم إلى المباهلة، فكان لهذا أثرد في نفوسهم، فرفضوها ولكنّهم رضخوا لشروط اعتبارهم ذمّيين، فانتهز القرآن هذه الفرصة من استعدادهم النفسي، وعاد إلى طريقة الاستدلال.

غير أنّ الاستدلال هذه المرّة يختلف عن الاستدلال السابق اختلافاً كبيراً.

في الآيات السابقة كانت الدعوة إلى الإسلام (بكلّ تفاصيله)، ولكنّ الدعوة هذه المرّة تتجه إلى النقاط المشتركة بين الإسلام وأهل الكتاب، وبهذا يعلّمنا القرآن درساً، مفاده: أنّكم إذا لم توفّقوا في حمل الآخرين على التعاون معكم في جميع أهدافكم، فلا ينبغي أن يقعد بكم اليأس عن العمل، بل اسعوا لإقناعهم بالتعاون معكم في تحقيق الأهداف المشتركة بينكم، كقاعدة للانطلاق إلى تحقيق سائر أهدافكم المقدّسة ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

هذه الآية تعتبر نداء (الوحدة والاتّحاد) إلى أهل الكتاب، فهي تقول لهم: إنّكم تزعمون - بل تعتقدون - أنّ التثليث (أي الاعتقاد بالآلهة الثلاثة) لا ينافي التوحيد، لذلك تقولون بالوحدة في التثليث، وهكذا اليهود يدّعون التوحيد وهم يتكلّمون بكلام فيه شرك ويعتبرون (العزير) ابن الله.

يقول لهم القرآن: إنّكم جميعاً ترون التوحيد مشتركاً، فتعالوا نضع يداً بيد لنحيي هذا المبدأ المشترك بدون لفّ أو دوران، ونتجنّب كلّ تفسير يؤدّي إلى الشرك والابتعاد عن التوحيد.

والملفت للنظر أن الآية الشريفة تؤكّد موضوع التوحيد في ثلاثة تعابير مختلفة، فأوّلاً ذكرت ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وفي الجملة الثانية ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وفي المرّة الثالثة قالت ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ولعلّ في هذه الجملة الأخيرة إشارة إلى أحد موضوعين:

(الأوّل): أنّه لا يجوز تأليه المسيح، وهو بشر مثلنا ومن أبناء نوعنا.

(والثاني): أنّه لا يجوز الاعتراف بالعلماء المنحرفين الذين يستغلّون مكانتهم ويغيّرون حلال الله وحرامه كيفما يحلو لهم، ولا يجوز اتّباع هؤلاء.

ويتّضح ممّا سبق من الآيات القرآنية أنّه كان هناك بين علماء أهل الكتاب جماعات يحرّفون أحكام الله بحسب (مصالحهم) أو (تعصّبهم)، إنّ الإسلام يرى أنّ من يتّبع أمثال هؤلاء دون قيد أو شرط وهو يعلم بهم، إنّما هو يعبدهم بالمعنى الواسع لكلمة العبادة.

إنّ سبب هذا الحكم واضح، فإن حقّ وضع القوانين والتشريعات يعود إلى الله، فإذا قرّر أحد هذا الحقّ لغير الله فقد أشرك.

يقول المفسّرون في ذيل تفسير هذه الآية إنّ عدي بن حاتم الذي كان نصرانياً ثمّ أسلم، عندما سمع هذه الآية، فهِم من كلمة (أرباب) أنّ القرآن يقول إنّ أهل الكتاب يعبدون بعض علمائهم، فقال للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما كنّا نعبدهم يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أما كانوا يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم؟

فقال: نعم.

فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: هو ذاك[1].

في الواقع يعتبر الإسلام الرقّ والاستعمار الفكري نوعاً من العبودية والعبادة لغير الله، وهو كما يحارب الشرك وعبادة الأصنام، يحارب كذلك الاستعمار الفكري الذي هو أشبه بعبادة الأصنام.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ (أرباب) جمع، لذلك لا يمكن أن نقول إنّ المقصود هو النهي عن عبادة عيسى وحده، ولعلّ النهي يشمل عبادة عيسى وعبادة العلماء المنحرفين.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

لو أنّهم - بعد دعوتهم دعوة منطقية إلى نقطة التوحيد المشتركة - أصرّوا على الإعراض، فلابدّ أن يقال لهم: اشهدوا أنّنا قد أسلمنا للحق، ولم تسلموا، وبعبارة

(١) تفسير مجمع البيان: ذيل الآية المذكورة. تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٣٥٢.

أُخرى: فاعلموا من يطلب الحق، ومن يتعصّب ويعاند. ثمّ قولوا لهم ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فلا تأثير لعنادكم وعصيانكم وابتعادكم عن الحقّ في أنفسنا، وإنّا ما زلنا على طريقنا - طريق الإسلام - سائرون، لا نعبد إلّا الله، ولا نلتزم إلّا شريعة الإسلام، ولا وجود لعبادة البشر بيننا.

بحث

رسائل النّبي ﷺ إلى رؤساء العالم

يقول التاريخ: عندما استقرّ الإسلام نسبيّاً في الحجاز، أرسل رسول الله ﷺ رسائل إلى عدد من كبار رؤساء العالم في ذلك العصر، في بعض هذه الرسائل استند إلى هذه الآية الداعية إلى التوحيد - المبدأ المشترك بين الأديان السماوية .. ولأهميّة الموضوع ندرج بعضاً من تلك الرسائل:

١ - رسالة إلى المقوقس[١]

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّما عليك إثم القبط[٢]، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون)[٣].

حمل حاطب بن أبي بلتعة رسالة النبيّ ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر، فوجده قد رحل إلى الإسكندرية، فركب إليه، وسلّمه الرسالة، ثمّ قال لحاطب: ما منعه إن كان نبيّاً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده إلى غيرها أن يسلّط عليهم؟

فقال له حاطب: ألست تشهد أنّ عيسى بن مريم رسول الله؟ فما له حيث أخذه قومه، فأرادوا أن يقتلوه، أن لا يكون دعا عليهم، أن يهلكهم الله تعالى، حتى رفعه الله إليه؟

قال: أحسنت أنت حكيمٌ من عند حكيم.

---

(١) المقوقس: حاكم مصر من قبل هرقل ملك الروم، وكان نصرانياً.

(٢) الأقباط: أقوام كانت تقطن مصر.

(٣) مكاتيب الرسول: ج ١، ص ٩٧؛ وبحار الانوار، ج ٢٠، ص ٣٨٣.

ثمّ قال له حاطب: إنّه كان قبلك من يزعم أنّه الربّ الأعلى - يعني فرعون - فأخذه الله نكال الآخرة والأُولى فانتقم به، ثمّ انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرُك بك.

إنّ هذا النبيّ دعا الناس، فكان أشدّهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري، ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام، إلّا كبشارة عيسى بمحمّد ﷺ، وما دعاؤنا إيّاك إلى القرآن، إلّا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكلّ نبيّ أدرك قوماً فهم أُمته، فالحقّ عليهم أن يطيعوه، فأنت ممّن أدرك هذا النبيّ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح بل نأمرك به.

بقي حاطب بن أبي بلتعة أيّاماً ينتظر جواب المقوقس على رسالة رسول الله ﷺ، وبعدها استدعاه المقوقس إلى قصره واستزاده معرفة بالإسلام وقال له: إلى ما يدعو محمّد؟

قال حاطب: إلى أن نعبد الله وحده، ويأمر بالصلاة، خمس صلوات في اليوم والليلة، ويأمر بصيام رمضان، وحجّ البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة، والدم... ثمّ شرح له بعض جوانب حياة النبيّ ﷺ.

فقال المقوقس: هذه صفته، وكنت أعلم أن نبيّاً قد بقي، وكنت أظنّ أنّ مخرجه بالشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج من أرض العرب.

ثمّ دعا كاتبه الذي يكتب له بالعربية فكتب إلى النبيّ ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمّد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك. أمّا بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أنّ نبيّاً قد بقي، وقد كنت أظنّ أنّه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك...»

ثمّ عدّد له الهدايا التي بعثها إليه وختم رسالته بعبارة (والسلام عليك)[١].

تقول كتب التاريخ إنّ المقوقس أرسل نحو أحد عشر نوعاً من الهدايا وبينها طبيب أرسله لمعالجة مرضى المسلمين، فقبل رسول الله ﷺ الهدايا، لكنّه أرجع الطبيب قائلاً: (إنّا قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع) مشيراً بذلك إلى أنّ هذه القاعدة في تناول الطعام كافية لحفظ صحّة المسلمين[٢] (ولعلّه - إضافة إلى هذه القاعدة الصحّية العظيمة - لم يكن يأمن جانب الطبيب الذي كان مسيحياً وربما كان الطبيب متعصّباً أيضاً، فلم يشأ أن يترك أرواح المسلمين بين يديه).

---

(١) مكاتيب الرسول: ج ١، ص ١٠٠؛ وموسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٦٦٣.

(٢) مكاتيب الرسول: ج ١، ص ١٠٠؛ وموسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ٦٦٣.

إن إكرام المقوقس سفير النبيّ ﷺ، والهدايا التي أرسلها إليه، وتقديم اسم محمّد ﷺ على اسمه، تدلّ كلّها على أنّه كان قد قبل دعوة رسول الله ﷺ في قرارة نفسه، أو أنّه - على الأقل - مالَ إلى الإسلام، ولكنّه لكي لا يهتزّ مركزه امتنع عن إظهار ذلك علناً.

٢ - رسالة إلى قيصر الروم

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرّتين فإن تولّيت فإنّما عليك إثم الأريسيّين(١)، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون»(٢).

كان حامل رسالة رسول الله ﷺ إلى القيصر رجل اسمه دحية الكلبي. وتهيّأ السفير للانطلاق نحو أرض الروم، ولكنّه قبل أن يصل القسطنطنية، عاصمة القيصر، علم أنّ القيصر قد يمّم شطر بيت المقدس للزيارة، فاتّصل بحاكم (بصرى) الحارث بن أبي شمر وكشف له عن مهمّته، ويبدو أنّ رسول الله ﷺ كان قد أجاز دفع الرسالة إلى حاكم (بصرى) ليوصلها هذا إلى القيصر.

بعد أن اطّلع الحاكم على الأمر، استدعى عدي بن حاتم وكلّفه أن يسافر مع دحية إلى بيت المقدس ليوصل الرسالة إلى القيصر، التقى السفيرُ قيصرَ في حمص، وكانت الحاشية قبل ذلك قد أفهموا دحية أنّ عليه أن يسجد أمام القيصر، وأن لا يرفع رأسه أبداً حتى يأذن له، فقال دحية: لا أفعل هذا أبداً، ولا أسجد لغير الله، فأُعجبوا بمنطقه المتين. وقال له أحد رجال البلاط: إذاً لك أن تضع الرسالة تجاه منبر قيصر وتنصرف، إنّ أحداً غير القيصر لا يمسّها. فشكره دحية على ذلك، وترك الرسالة في ذلك المكان، وانصرف.

فتح قيصر الرسالة، وجلب انتباهه افتتاحها باسم الله، وقال: أنا لم أرَ رسالة مثل هذه غير رسالة سليمان، ثمّ طلب مترجمه ليقرأ له الرسالة ويترجمها، احتمل قيصر أن يكون كاتب الرسالة هو النبيّ الموعود في التوراة والإنجيل، فعزم على معرفة دقائق حياة هذا النبيّ، فأمر بالبحث في الشام لعلّهم يعثرون على من يعرف شيئاً عن محمّد ﷺ.

---

(١) الأريسيون: هم العنصر الرومي والعمال.

(٢) مسند أحمد، ج ١، ص ٢٦٣؛ وبحار الانوار، ج ٢٠، ص ٣٨٦.

واتّفق أن كان أبو سفيان وجمع من قريش قد قدموا إلى الشام - التي كانت الجناح الشرقي للروم - للتجارة، فاتّصل بهم رجال القيصر وأخذوهم إلى بيت المقدس، فسألهم القيصر: أيّكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبيّ؟ فقال أبو سفيان: أنا.

ثمّ قال القيصر للقريشيين - على طريق ترجمانه - إني سائل أبا سفيان عن هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبيّ، فإن كذبني فكذّبوه. فقال أبو سفيان: وايم الله لولا مخافة أن يؤثر عليّ الكذب لكذبت.

١ - ثمّ قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟

أبو سفيان: هو فينا ذو حسب.

٢ - القيصر: هل كان من آبائه ملك؟

أبو سفيان: لا.

٣ - القيصر: هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

أبو سفيان: لا.

٤ - القيصر: من يتّبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

٥ - القيصر: أيزيدون أم ينقصون؟

أبو سفيان: بل يزيدون.

٦ - القيصر: هل يرتدّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟

أبو سفيان: لا.

ثمّ استمرّ الحوار بين الاثنين عن موقف قريش من النّبي ﷺ وعن سجاياه ثمّ قال القيصر:

إن يكن ما تقول حقّاً فإنّه نبيّ، وقد كنت أعلم أنّه خارج، ولم أكن أظنّه منكم، ولو أعلم أنّي أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه - حسب تقاليد الاحترام يومئذ - وليبلغنّ ملكه ما تحت قدميّ، ثمّ دعا بكتاب رسول الله فقرأه ودعا دحية واحترمه وكتب جواب الرسالة وضمّنها هديّة وأرسلها إلى الرسول ﷺ وأظهر في جواب الرسالة ولاءه ومحبته لرسول الله ﷺ (١).

---

(١) مكاتيب الرسول: ج ١، ص ١٠٩؛ وبحار الانوار، ج ٢٠، ص ٣٧٨ و ٣٧٩.

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الرابع

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا
مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ
تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ
إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾
إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

سبب النّزول

ورد في الروايات الشريفة أنّ علماء اليهود ونصارى نجران جاءوا إلى النبيّ الأكرم ﷺ وأخذوا يجادلونه في إبراهيم، فقالت اليهود: إنّه كان يهودياً، وقالت النصارى: إنّه كان نصرانياً (وهكذا كلّ يدعي إبراهيم لنفسه لتكون له الغلبة والافتخار على خصمه، لأنّ إبراهيم عليه السلام كان نبيّاً عظيماً لدى جميع الأديان والمذاهب) فنزلت الآيات أعلاه لتبيّن كذب هذه الادّعاءات(١).

التّفسير

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ...﴾.

هذه الآية تردّ على مزاعم اليهود والنصارى، وتقول: إنّ جدلكم بشأن إبراهيم النبيّ المجاهد في سبيل الله جدل عقيم، لأنّه كان قبل موسى والمسيح بسنوات كثيرة، والتوراة والإنجيل نزلا بعده بسنوات كثيرة ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أيعقل أن يدين نبيّ سابق بدين لاحق؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

هنا يوبّخهم الله قائلاً إنّكم قد بحثتم فيما يتعلّق بدينكم الذي تعرفونه (وشاهدتم كيف

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير جامع البيان، ج ٣، ص ٢١٥.

أنّكم حتى في بحث ما تعرفونه قد وقعتم في أخطاء كبيرة وكم بعدتم عن الحقيقة، فقد كان علمكم، في الواقع، جهلاً مركّباً)، فكيف تريدون أن تجادلوا في أمر لا علم لكم به، ثمّ تدّعون ما لا يتّفق مع أيّ تاريخ؟

وفي نهاية الآية يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ توكيداً للموضوع السابق، وتمهيداً لبحث الآية التالية.

أجل، إنّه يعلم متى بعث إبراهيم عليه السلام بالرسالة لا أنتم الذين جئتم بعد ذلك بزمن طويل وتحكمون في هذه المسألة بدون دليل.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾.

وهذا ردّ صريح على هذه المزاعم يقول إنّ إبراهيم لم يكن من اليهود ولا من المسيحيّين، وإنّما كان موحّداً طاهراً مخلصاً أسلم لله ولم يشرك به أبداً.

(الحنيف) من الحنف، وهو الميل من شيء إلى شيء، وهو في لغة القرآن ميل عن الضلال إلى الاستقامة.

يصف القرآن إبراهيم أنّه كان حنيفاً لأنّه شقّ حجب التعصّب والتقليد الأعمى، وفي عصر كان غارقاً في عبادة الأصنام، نبذ هو عبادة الأصنام ولم يطأطىء لها رأساً.

إلّا أنّ العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام في العصر الجاهلي كانوا يعتبرون أنفسهم حنفاء على دين إبراهيم، وقد شاع هذا شيوعاً حدا بأهل الكتاب إلى أن يطلقوا عليهم اسم (الحنفاء). وبهذا اتّخذت لفظة (الحنيف) معنىً معاكساً تماماً لمعناها الأصلي، غدت ترادف عبادة الأصنام، لذلك فإنّ القرآن بعد أن وصف إبراهيم بأنّه كان ﴿حَنِيفًا﴾ أضاف ﴿مُّسْلِمًا﴾ ثمّ أردف ذلك بقوله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لإبعاد احتمال آخر.

كيف كان إبراهيم مسلماً؟

قد يسأل سائل: إذا لم نكن نعتبر إبراهيم من أتباع موسى ولا من أتباع عيسى فنحن بطريق أولى لا نستطيع أن نعتبره مسلماً أيضاً، لأنّه كان قبل كلّ هذه الأديان، فكيف يصفه القرآن بأنّه كان مسلماً؟

جواب هذا السؤال هو أنّ (الإسلام) في القرآن لا يعني اتّباع رسول الإسلام فقط، بل الكلمة بالمعنى الأوسع تعني التسليم المطلق لأمر الله بالتوحيد الكامل الخالص من كلّ شرك وثنوية، وكان إبراهيم حامل لواء ذلك الإسلام.

وممّا تقدّم يتّضح أن إبراهيم عليه السلام لم يكن تابعاً لهذه الأديان، ولكن يبقى شيء

واحد، وهو من هم الذين يحقّ لهم ادعاء العلاقة والارتباط بالدين الإبراهيمي وبعبارة أُخرى كيف يمكننا اتّباع هذا النّبي العظيم الذي يفتخر باتّباعه جميع أتباع الأديان السماوية؟

آخر آية من الآيات مورد البحث توضح هذا المطلب وتقول:

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ . . .﴾.

لوضع حدّ لجدل أهل الكتاب حول إبراهيم، نبيّ الله العظيم، الذي كانت كلّ جهة تدّعي أنّه منها، وكانوا يستندون غالباً إلى قرابتهم منه، أو اشتراكهم معه في العنصر، أعاد القرآن مبدأ رئيساً إلى الأذهان وهو أنّ الارتباط بالأنبياء والولاء لهم إنّما يكون عن طريق الإيمان واتّباعهم فقط، وبناءً على ذلك، فإنّ أقرب الناس لإبراهيم هم الذين يتّبعون مدرسته ويلتزمون أهدافه، سواء بالنسبة للذين عاصروه ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أو الذين بقوا بعده أوفياء لمدرسته وأهدافه، مثل نبيّ الإسلام ﷺ وأتباعه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

والسبب واضح، فاحترام الأنبياء إنّما هو لمدرستهم، لا لعنصرهم وقبيلتهم ونسبهم، وعليه، إذا كان أهل الكتاب بعقائدهم المشركة قد انحرفوا عن أهم مبدأ من مبادىء دعوة إبراهيم، فقد بقي رسول الإسلام ﷺ والمسلمون - بالاستناد إلى هذا المبدأ نفسه وتعميمه على جميع أُصول الإسلام وفروعه - من أوفى الأوفياء له، فلابدّ أن نعترف بأنّ هؤلاء هم الأقربون إلى إبراهيم، لا أُولئك.

وفي ختام الآية يبشر الله تعالى الذين يتبعون رسالة الأنبياء حقيقة ويقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

بحث

الارتباط الديني أوثق الروابط:

ترى هذه الآية أنّ الرابط الوحيد الذي يربط الناس بالأنبياء هو اتّباع مدرستهم وأهدافهم، ليس غير.

لذلك نجد أنّ النصوص المروية عن أئمة الإسلام تؤكّد هذا الموضوع بصراحة تامّة، من ذلك أنّه جاء في تفسير مجمع البيان ونور الثقلين، نقلاً عن الإمام عليّ عليه السلام أنه قال: «إنّ أولى الناس بالأنبياء أعملهم بما جاؤوا به - ثمّ تلا الآية المذكورة ثمّ قال: -

إنّ وليّ محمّد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإنّ عدوّ محمّد من عصى الله وإن قربت قرابته»[١].

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٦٩﴾

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين إنّ فريقاً من اليهود سعوا أن يستميلوا إلى اليهودية بعض الشخصيات الإسلامية المجاهدة، مثل (معاذ) و(عمّار) وغيرهما مستعينين بالوساوس الشيطانية وغير ذلك، فنزلت هذه الآية تنذر المسلمين ممّا يبيت لهم اليهود[٢].

التّفسير

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ[٣] مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ[٤]﴾

سعى أعداء الإسلام، وعلى الأخصّ اليهود، كما جاء في سبب النزول أن يباعدوا بين المسلمين والإسلام، ولم يتوانوا في سبيل ذلك في بذل كلّ جهد، حتى أنّهم طمعوا في إغراء أصحاب رسول الله ﷺ المقرّبين لعلّهم يستطيعون صرفهم عن الإسلام، ولاشكّ أنّهم لو نجحوا في التأثير على عدد منهم، أو حتى على فرد واحد منهم، لكان ذلك ضربة شديدة على الإسلام تمهّد الطريق لتضليل الآخرين أيضاً.

هذه الآية تكشف خطّة الأعداء، وتنذرهم بالكفّ عن محاولاتهم العقيمة استناداً إلى التربية التي نشأ عليها هذا الفريق من المسلمين في مدرسة رسول الله ﷺ بحيث لا يمكن أن يكون هناك أيّ احتمال لارتدادهم. إنّ هؤلاء قد اعتنقوا الإسلام بكلّ

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص ٤٥٨؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٨، ص ٢٥٢.

(٢) ورد سبب النزول هذامع تفاوت يسير في: (تفسير روح الجنان، وتفسير روح المعاني، والتفسير الكبير، وتفسير القرطبي، وتفسير البحر المحيط، ذيل الآية مورد البحث).

(٣) «طائفة» من مادة الطواف. بمعنى الحركة حول الشيء. وبما أنّ الناس كانوا في السابق يسافرون بشكل جماعات لإحراز الأمان اطلقت هذه الكلمة عليها، ثمّ استعملت في كل فئة وجماعة.

(٤) «لو» في جملة (لو يضلّونكم) بمعنى (أن) المصدرية، وبما أنّ (لو) تعطي معنى التمني جاءت في هذه الجملة بدل (أن) ليكون التعبير أبلغ.

وجودهم، ولذلك فإنّهم يعشقون هذه المدرسة الإنسانية بمجامع قلوبهم ويؤمنون بها، وبناءً على ذلك لا سبيل للأعداء إلى تضليلهم، بل إنّهم إنّما يضلّون أنفسهم.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك لأنّهم بإلقاء الشبهات حول الإسلام وعلى رسول الإسلام واتّهامهما بشتّى التهم، إنّما يربّون في أنفسهم روح سوء الظن، وبعبارة أوضح: إنّ العيّاب الذي يتصيّد الهفوات يعمى عن رؤية نقاط القوّة، أو بسبب تعصّبه وعناده يرى النقاط المضيئة الإيجابية نقاطاً مظلمة سلبية، وكلّما ازداد إصراراً على هذا، ازداد بُعداً عن الحقّ.

ولعلّ تعبير ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى هذه الحالة النفسية، وهي أنّ الإنسان يقع دون وعي منه تحت تأثير أقواله هو أيضاً، وفي الوقت الذي يحاول فيه بالسفسطة والكذب والافتراء أن يضلّ الآخرين، لا يكون هو نفسه بمنأى عن التأثير بأكاذيبه، فتروح هذه الإختلاقات تؤثّر بالتدريج في روحه وتتمكّن فيه بعد فترة وجيزة بصورة عقيدة راسخة، فيصدّقها ويضلّ نفسه بها.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

التّفسير

كتمان الحقّ لماذا؟

تعقيباً للحديث عن الأعمال التخريبية لأهل الكتاب الواردة في الآية السابقة، توجّه هاتان الآيتان الخطاب لأهل الكتاب وتلومهم على كتمانهم للحقائق وعدم التسليم لها. فتقول:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[1].

السؤال هنا أيضاً موجه إلى أهل الكتاب عمّا يدعوهم إلى العناد واللجاجة والإصرار

(١) جملة «تشهدون» تعني العلم والمعرفة وفقاً للتفسير أعلاه، كما ورد في مجمع البيان وغيره - وهذا العلم ناشىء من اطلاعهم على أوصاف النبي الأكرم ﷺ الواردة في التوراة والإنجيل، ولكن البعض يرى أنّ المراد بالعلم هنا هو كفاية المعجزات لإثبات نبوة نبيّ الإسلام. وذهب آخرون إلى أنّ المراد تنكرونها في الظاهر، ولكن في جلساتكم الخاصّة تشهدون بصدق دعوة نبيّ الإسلام ﷺ وحقانيته.

عليهما بعد أن قرأوا علامات نبي الإسلام في التوراة والإنجيل ويعلمون ما فيهما، فلماذا ينكرونها؟

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

مرّة أُخرى يستنكر القرآن قيامهم بالخلط بين الحقّ والباطل، وإخفاءهم الحقّ مع علمهم به، فهم على علمهم بالأمارات الواردة في التوراة والإنجيل عن رسول الإسلام ﷺ يخفونها.

إنّه يوبّخهم أوّلاً على انحرافهم عن طريق الحقّ مع علمهم به، ثمّ يوبّخهم في الآية الثانية على تضليلهم الآخرين[١].

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين القدامى إنّ اثني عشر من يهود خيبر وغيرها وضعوا خطّة ذكيّة لزعزعة إيمان بعض المؤمنين، فتعاهدوا فيما بينهم أن يصبحوا عند رسول الله ﷺ ويتظاهروا باعتناق الإسلام، ثمّ عند المساء يرتدّون عن إسلامهم، فإذا سئلوا لماذا فعلوا هذا، يقولون: لقد راقبنا أخلاق محمّد عن قرب، ثمّ عندما رجعنا إلى كتبنا وإلى أحبارنا رأينا أنّ ما رأيناه من صفاته وسلوكه لا يتّفق مع ما هو موجود في كتبنا، لذلك ارتددنا، إنّ هذا سيحمل بعضهم على القول بأنّ هؤلاء قد رجعوا إلى كتبهم السماوية التي هم أعلم منّا بها، إذاً لا بدّ أن يكون ما يقولونه صحيحاً، وبهذا تتزعزع عقيدتهم[٢].

(١) في تفسير الآية ٤٢ من سورة البقرة المشابهة لهذه الآية تحدّثنا عن هذا الموضوع - انظر الجزء الأوّل..

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وأسباب النزول، للواحدى النيشابوري، ص ٧١.

و هناك سبب نزول آخر، إلّا أنّ ما ذكرناه أقرب إلى معنى الآية(١).

التّفسير

مؤامرة خطيرة

تكشف هذه الآية عن خطّة هدّامة أُخرى من خطط اليهود، وتقول إنّ هؤلاء لكي يزلزلوا بُنية الإيمان الإسلامي توسّلوا بكلّ وسيلة ممكنة، من ذلك أنّ ﴿طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اتّفقوا أن يؤمنوا بما أُنزل على المسلمين في أوّل النهار ويرتدّوا عنه في آخره ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾.

لعلّ المقصود من أوّل النهار وآخره قصر المدة بين إيمانهم وارتدادهم، سواء أكان ذلك في أوّل النهار حقّاً أم في أيّ وقت آخر، إنّما قصر هذه المدّة يوحي إلى الآخرين أن يظنّوا أنّ هؤلاء كانوا يرون الإسلام شيئاً عظيماً قبل الدخول فيه، ولكنّهم بعد أن أسلموا وجدوه شيئاً آخر قد خيّب آمالهم، فارتدّوا عنه.

لا شكّ أنّ مثل هذه المؤامرة كانت ستؤثّر في نفوس ضعفاء الإيمان، خاصّة وأنّ أُولئك اليهود كانوا من الأحبار العلماء، وكان الجميع يعرفون عنهم أنّهم عالمون بالكتب السماوية وبعلائم خاتم الأنبياء، فإيمانهم ثمّ كفرهم كان قادراً على أن يزلزل إيمان المسلمين الجديد، لذلك كانوا يعتمدون كثيراً على خطّتهم الماهرة هذه، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ دليل على أملهم هذا.

وكانت خطّتهم تقضي أن يكون إيمانهم بالإسلام ظاهرياً، وأن يبقى ارتباطهم القلبي بدينهم.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

ويستفاد من بعض التفاسير أنّ يهود خيبر أوصوا يهود المدينة بذلك لئلّا يقع القريبون من رسول الله ﷺ تحت تأثيره فيؤمنوا به حقّاً، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ النبوّة يجب أن تكون في العنصر اليهودي، فإذا ظهر نبيّ فلابدّ أن يكون يهودياً.

يرى بعض المفسّرين أنّ جملة (لاتؤمنوا) من الإيمان الذي يعني (الوثوق والاطمئنان) كما هو أصل الكلمة اللغوي، وبناءً على ذلك يكون المعنى: هذه المؤامرة

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وأسباب النزول، للواحدي النيشابوري، ص ٧١.

يجب أن تبقى مكتومة وسرّية، وأن لا يعلم بها أحد من غير اليهود، حتى المشركين، لئلّا تنكشف وتحبط، ففضح الله هذه المؤامرة في هذه الآيات وفضحهم، ليكون ذلك درس عبرة للمؤمنين، ودرس هداية للمعاندين.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

هذه جملة معترضة جاءت ضمن كلام على لسان اليهود في ما قبلها وما بعدها من الآيات.

في هذه الآية التي تقع بين كلام اليهود، يردّ الله عليهم ردّاً قصيراً ولكنه عميق المعنى، فأوّلاً: الهداية مصدرها الله، ولا تختصّ بعنصر أو قوم بذاته، فلا ضرورة في أن يجيء النبيّ من اليهود فقط.

وثانياً: إنّ الذين شملهم الله بهدايته الواسعة لا تزعزعهم هذه المؤامرات ولا تؤثّر فيهم هذه الخطط.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾.

هذه الآية استمرار لأقوال اليهود، بتقدير عبارة (ولا تصدّقوا)[1] قبلها.

وعلى ذلك يصبح معنى الآية هكذا: «لا تصدّقوا أن ينال أحد ما نلتم من الفخر وما نزل عليكم من الكتب السماوية، وكذلك لا تصدّقوا أن يستطيع أحد أن يجادلكم يوم القيامة أمام الله ويدينكم، لأنّكم خير عنصر وقوم في العالم، وأنتم أصحاب النبوّة والعقل والعلم والمنطق والاستدلال».

بهذا المنطق الواهي كان اليهود يسعون لنيل ميزة يتميّزون بها، من حيث علاقتهم بالله، ومن حيث العلم والمنطق والاستدلال، على الأقوام الأُخرى، لذلك يردّهم الله في الآية التالية بقوله:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: قل لهم إنّ المواهب والنعم، سواء أكانت النبوّة والاستدلالات العقلية المنطقية، أم المفاخر الأُخرى، هي جميعاً من الله، يسبغها على من يشاء من المؤهّلين اللّائقين الجديرين بها، إنّ أحداً لم يأخذ عليه عهداً ووعداً، ولا لأحد قرابة معه، إنّ جوده وعفوه واسعان، وهو عليم بمن يستحقّهما.

---

(١) جملة «ولاتؤمنوا» تعني انكم لا تصدقوا ان ينزل كتاب سماوي على احد كما نزل عليكم.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

هذا توكيد لما سبق أيضاً: إنّ الله يخصّ من عباده من يراه جديراً برحمته - بما في ذلك مقام النبوّة والقيادة - دون أن يستطيع أحد تحديده فهو صاحب الأفضال والنِعم العظيمة.

ويستفاد ضمناً من هذه الآية الكريمة أن الفضل الإلهي إذا شمل بعض الناس دون بعض، فليس ذلك لمحدودية الفضل الإلهي، بل بسبب تفاوت القابليات فيهم.

خطط قديمة

تعتبر هذه الآيات، في الواقع، من آيات إعجاز القرآن، لأنّها تكشف أسرار اليهود وأعداء الإسلام وتفضح خططهم لزعزعة مسلمي الصدر الأوّل، فتيقّظ المسلمون ببركتها، ووعوا وساوس الأعداء المغرية، ولكنّنا لو دقّقنا النظر لأدركنا أنّ تلك الخطط تجري في عصرنا الحاضر أيضاً بطرق مختلفة، إنّ وسائل إعلام الأعداء القوية المتطوّرة مستخدمة الآن للغرض نفسه، فهم يحاولون هدم أركان العقيدة الإسلامية في عقول المسلمين، وبخاصة الجيل الشاب، وهم في هذا السبيل لا يتورّعون عن كلّ فرية، ويلجأون إلى كلّ السبل ويتلبّسون بلبوس العالم والمستشرق والمؤرّخ وعالم الطبيعيات والصحفي، بل حتى الممثّل السينمائي.

إنّهم يصرّحون أنّ هدفهم ليس التبشير بالمسيحية وحمل المسلمين على اعتناقها، ولا اعتناق اليهودية، بل هدفهم هو هدم أُسس المعتقدات الإسلامية في أفكار الشباب، وجعلهم غير مهتمّين بدينهم وتراثهم، إنّ القرآن اليوم يحذّر المسلمين من هذه الخطط كما حذّرهم في القديم.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

(١) «فضل» بمعنى كل شيء زاد عن المقدار اللاّزم من المواهب والنعم، وهو معنىً إيجابي وممدوح. ولكن تارة يستبطن معنىً مذموماً وسلبياً، وذلك عندما يأتي بمعنى الخروج عن حدّ الإعتدال. والميل إلى الإفراط، ويأتي غالباً بصيغة (فضول) جمع (فضل) كما في قولهم فضول الكلام).

سبب النّزول

نزلت هذه الآية بشأن يهوديّين أحدهما أمين وصادق، والآخر خائن منحط، الأوّل هو عبد الله بن سلام الذي أودع عنده رجل ١٢٠٠ أوقية(١) من الذهب أمانة، ثمّ عندما استعادها ردّها إليه، والله يثني عليه في هذه الآية لأمانته، واليهوديّ الثاني هو فنحاص ابن عازورا ائتمنه رجل من قريش بدينار، فخانه فيه، والله يذمّه في هذه الآية لخيانته الأمانة(٢).

وقيل إنّ القسم الأوّل من الآية يقصد جمعاً من النصارى، وأمّا الذين خانوا الأمانة فهم جمع من اليهود(٣)، وقد تشير الآية إلى الحالتين، إذ إنّنا نعلم أنّ الآيات - وإن كان لبعضها سبب نزول خاص - لها طابع عامّ وسبب النزول لا يخصّصها.

التّفسير

ترسم الآية ملامح أُخرى لأهل الكتاب، كان جمع من اليهود يعتقدون أنّهم لا يكونون مسؤولين عن حفظ أمانات الناس، بل لهم الحقّ في تملّك أماناتهم! كانوا يقولون: إنّنا أهل الكتاب، وإنّ النبيّ والكتاب السماوي نزلا بين ظهرانينا، لذلك فأموال الآخرين غير محترمة عندنا. لقد تغلغلت فيهم هذه الفكرة بحيث غدت عقيدة دينية راسخة، وهذا ما يعبّر عنه القرآن بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ قال اليهود: إنّ لنا حقّ التصرّف بأموال العرب واغتصابها لأنّهم مشركون ولا يتّبعون دين موسى.

وقيل أيضاً إن اليهود كانت لهم مع العرب اتفاقات اقتصادية وتجارية وعندما أسلم العرب، امتنع اليهود عن ردّ حقوقهم، قائلين: إنكم عند عقد الاتفاق لم تكونوا من مخالفينا، أما وقد اتخذتم ديناً جديداً فقد سقط حقّكم.

من الجدير بالذكر أنّ هذه الآية تعلن أنّ أهل الكتاب لم يكونوا جميعاً ينهجون هذا الطراز من التفكير غير الإنساني، بل كان فيهم جماعة ترى أنّ من واجبها أن تؤدّي حقّ الآخرين. ولذلك فإنّ القرآن لم يدنهم جميعاً ولم يلق تبعة أخطاء بعضهم على الجميع،

---

(١) الأوقية تساوي ١/ ١٢ من الرطل ويساوي ٧ مثاقيل، جمعها: أواق.
(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ٧١.
(٣) المصدر السابق.

ولـذلـك يـقـول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ[1] يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

إنّ تعبير ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أي واقفاً ومسيطراً، يشير إلى مبدأ أصيل في نفسيّة اليهود، فكثير منهم لا يجدون أنفسهم ملزمين بردّ حقّ إلّا بالقوّة. وليس أمام المسلمين لاسترجاع حقوقهم منهم سوى هذا السبيل، سبيل السعي للحصول على القوّة التي تجعلهم يردّون حقوقهم.

إنّ الحوادث التي جرت في الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ القرارات الدولية والرأي العام العالمي، وقضايا الحقّ والعدالة وأمثالها، لا قيمة لها في نظر الصهاينة ولا معنى، وما من شيء يحملهم على الخضوع للحقّ سوى القوّة، وهذه من المسائل التي تنبّأ بها القرآن.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾.

هذه الآية تبيّن منطقهم في أكل أموال الناس، وهو قولهم بأنّ (لأهل الكتاب) أفضلية على (الأميّين) أي على المشركين والعرب الذين كانوا أُميّين غالباً أو أن المقصود كلّ من ليس له نصيب من قراءة التوراة والإنجيل، لذلك يحقّ لهم أن يستولوا على أموال الآخرين، وليس لأحد الحقّ أن يؤاخذهم على ذلك، حتى إنّهم ينسبون إلى الله تقرير التفوّق الكاذب.

لا شكّ أنّ هذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرّد خيانة الأمانة، لأنّهم كانوا يرون هذا حقّاً من حقوقهم، فيشير القرآن إلى هذا قائلاً:

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

هؤلاء يعلمون أنّه ليس في كتبهم السماوية أيّ شيء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس في أموالهم، ولكنّهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يختلقون الأكاذيب وينسبونها إلى الله.

الآية التالية تنفي مقولة اليهود ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ التي قرّروا فيها لأنفسهم حرّية العمل، فاستندوا إلى هذا الزعم المزيّف للاعتداء على حقوق الآخرين بدون حقّ، حيث يتلاعبون بمصائر شعوب العالم، ولا يتورّعون عن ارتكاب كلّ اعتداء على حقوق الإنسان، ويرون القوانين مجرّد أُلعوبة بيدهم لتحقيق مصالحهم، فتقول: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) بشأن معنى قنطار انظر تفسير الآية ١٤ من هذه السورة.

تقرر هذه الآية أنّ مقياس الشخصية والقيمة الإنسانية ومحبّة الله يتمثّل في الوفاء بالعهد وفي عدم خيانة الأمانة خاصّة، وفي التقوى بشكل عامّ، أجل، إن الله يحب هؤلاء، لا الخونة الكذابين الذين يبيحون لأنفسهم غصب حقوق الآخرين ويتجرأون كذلك على نسبتها إلى الله تعالى.

بحث

اعتراض

قد يقول قائل إنّ الإسلام قرّر أيضاً مثل هذا الحكم بالنسبة لأموال الأجانب، إذ إنّه يجيز الاستيلاء على أموالهم.

الجواب:

إنّ اتّهام الإسلام بهذا افتراء لاشكّ فيه، إذ إنّ من أحكام الإسلام القاطعة الواردة في كثير من الأحاديث، هو أنه (ليس من الجائز خيانة الأمانة سواء أكانت الأمانة تخصّ مسلماً أم غير مسلم، وحتى المشرك وعابد الأصنام).

في حديث معروف عن الإمام السجاد عليه السلام قال: «عليكم بأداء الأمانة، فوالذي بعث محمّداً بالحقّ نبياً لو أنّ قاتل أبي الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ائتمنني على السيف الذي قتله به لأدّيته إليه»[1].

وفي رواية أُخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله لم يبعث نبيّاً قط إلّا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر»[2].

بناءً على ذلك فإنّ ما جاء في هذه الآية عن اليهود وخيانتهم الأمانة ومنطقهم في تسويغ تلك الخيانة لم يسمح به الإسلام بأيّ شكل من الأشكال، فالمسلمون مكلّفون أن لا يخونوا الأمانة في جميع الأحوال[3].

٢ - كلمة (بلى) تستعمل في اللغة العربية ردّاً على النفي أو جواباً على استفهام مقترن بالنفي، كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[4] و(نعم) جواباً للاستفهام المثبت، مثل ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾[5].

---

(١) أمالي الصدوق، ص ١٤٩؛ ووسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٧٦.
(٢) مشكاة الأنوار: عن سفينة البحار. مادة «أمن»؛ وأصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٤.
(٣) الكافر الحربي يؤخذ ماله بعد هزيمته، وهذا ما يقرّ به جميع الأمم والشعوب.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢. (٥) سورة الأعراف، الآية: ٤٤.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

سبب النّزول

جمع من أحبار اليهود وعلمائهم مثل أبي رافع وحي بن أخطب وكعب بن أشرف حين لاحظوا أنّ مراكزهم الاجتماعية بين اليهود معرّضة للخطر، عمدوا إلى العلامات الموجودة في التوراة بشأن خاتم الأنبياء والتي كانوا هم أنفسهم قد دوّنوها بأيديهم في نسخ التوراة، فحرّفوها وأقسموا على أنّ تلك الكتابات المحرّفة من الله، لذلك نزلت هذه الآية وفيها إنذار شديد لهم(١).

وهناك مفسّرون آخرون ذهبوا إلى أنّ هذه الآية نزلت في أشعث بن قيس الذي كان يريد استملاك أرض لغيره عن طريق الكذب والتزوير، وعندما تهيّأ لأداء اليمين لتوثيق ادّعائه نزلت الآية، فاستولى الخوف على أشعث واعترف بالحقّ وأعاد الأرض لصاحبها(٢).

التّفسير

المحرفون للحقائق

تشير الآية إلى جانب آخر من آثام اليهود وأهل الكتاب، ولكونها وردت بصيغة عامّة، فإنّها تشمل كلّ من تنطبق عليه هذه الصفات.

تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي الذين يجعلون عهودهم مع الله والقسم باسمه المقدّس موضع بيع وشراء لقاء مبالغ ماديّة، سيكون جزاؤهم خمس عقوبات:

---

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير جامع البيان، وتفسير روح المعاني، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) المصدر السابق.

١ - إنّهم سوف يُحرمون من نِعم الله التي لا نهاية لها في الآخرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ[1] لَهُمۡ﴾.

٢ - إنّ الله يوم القيامة يكلّم المؤمنين ولكنّه لا يكلّم أمثال هؤلاء ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٣ - إنّ الله سوف لا ينظر إليهم بنظر الرحمة واللطف يوم القيامة ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾. ومن ذلك يعلم أنّ الله تعالى في ذلك اليوم يتكلم مع عباده المؤمنين (سواء مباشرة أو بتوسط الملائكة) ممّا يجلب لهم السرور والفرح ويكون دليلاً على عنايته بهم ورعايته لهم، وكذلك النظر إليهم، فهو إشارة إلى العناية الخاصّة بهم، وليس المقصود النظر الجسماني كما توهم بعض الجهلاء.

أمّا الأشخاص الذين باعوا آيات الله بثمن مادي فلا يشملهم الله تعالى بعنايته، ولا يشرّفهم بمحادثته.

٤ - ولا يطهّرهم من ذنوبهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾.

٥ - وأخيراً سيعذّبهم عذاباً شديداً ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

وليس المقصود من (الثمن القليل) أنّ الإنسان إذا باع العهد الإلهي بثمن كثير فيجوز له ذلك، بل المقصود أي ثمن مادّي يعطى مقابل ارتكاب هذه الذنوب الكبيرة، حتى وإن كان هذا الثمن يتمثّل في رئاسات كبيرة وواسعة، فهو مع ذلك قليل.

بديهيّ أنّ كلام الله ليس نطق اللسان، لأنّ الله منزّه عن التجسّد، إنّما الكلام عن طريق الإلهام القلبي، أو عن طريق إحداث أمواج صوتية في الفضاء، كالكلام الذي سمعه موسى عليه السلام من شجرة الطور.

بحث

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه العواقب الخمس المترتّبة على (نقض العهد) و(الأيمان الكاذبة) المذكورة في هذه الآية ربّما تكون إشارة إلى مراحل (القرب والبعد) من الله.

إنّ من يقترب من الله ويدنو من ساحة قربه تشمله مجموعة من النِعم الإلهيّة المعنوية، فإذا ازداد اقتراباً كلّمه الله، وإن دنا أكثر نظر إليه الله نظرة الرحمة، وإن اقترب أكثر طهّره

---

(١) «خلاق» من مادة «خُلُق» بمعنى النصيب والفائدة. وذلك لأن الإنسان يحصل عليها بواسطة اخلاقه (وهو إشارة إلى أنّهم يفتقدون الأخلاق الحميدة التي تؤهلهم للانتفاع في ذلك اليوم).

الله من آثار ذنوبه، وأخيراً ينجو من العذاب الأليم وتغمره نِعم الله، أمّا الذين يسيرون في طريق نقض العهود واستغلال اسم الله بشكل غير مشروع، فيحرمون من كلّ تلك النِعم ويتراجعون مرحلة بعد مرحلة.

وفي تفسير الآية ١٧٤ من سورة البقرة، المشابهة لهذه الآية، شرح أوفى للموضوع.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾

التّفسير

هذه الآية التي تؤكّد ما بحثته الآيات السابقة بشأن خيانة بعض علماء أهل الكتاب وتقول: إنّ فريقاً من هؤلاء يلوون ألسنتهم عند تلاوتهم الكتاب، وهذا كناية عن تحريفهم كلام الله. و(يلوون) من مادة (لَيّ) على وزن حيّ، وهو الإمالة، وهو تعبير بليغ عن تحريف كلام الله، وكأنهم حين تلاوتهم للتوراة وعندما يصلون إلى الآيات التي فيها صفات رسول الله ﷺ والبشارة بظهوره يغيّرون لحن كلامهم.

وتضيف: إنّهم في تحريفهم هذا من المهارة بحيث إنّكم تحسبون ما يقرأونه آيات أنزلها الله، وهو ليس كذلك ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

ولكنّهم لا يقنعون بذلك، بل يشهدون علانية بأنّه من كتاب الله، وهو ليس كذلك ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

مرّة أُخرى يقول القرآن: إنّهم في عملهم هذا ليسوا ضحية خطأ، بل هم يكذبون على الله بوعي وبتقصّد، وينسبون إليه هذه التهم الكبيرة وهم عالمون بما يفعلون ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)﴾

سبب النّزول

في سبب نزول هذه الآية روايتان:

الأولى: أنّ رجلاً قال: يا رسول الله نحن نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض، ألا نسجد لك؟

قال: لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيّكم واعرفوا الحقّ لأهله، فأنزل الله الآية(١).

الثانية: أنّ أبا رافع من اليهود ومعه رئيس وفد نجران قالا للنبيّ: أتريد أن نعبدك ونتّخذك إلهاً؟

(ولعلّهم ظنّوا أن مخالفة الرسول ﷺ لأُلوهية المسيح عليه السلام لأنّه ليس له نصيب من ذلك، فلو أنّهم رفعوا منزلته إلى مستوى الإله كما هو الحال بالنسبة إلى المسيح عليه السلام لترك الخلاف معهم، ولعلّ هذا الاقتراح يستبطن مؤامرة دبّرت لتلويث سمعة النّبي ﷺ ودفع الأنظار عنه) ولكن النّبي ﷺ قال: معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فأنزل الله الآية(٢).

التّفسير

الدعوة إلى عبادة غير الله مستحيلة

سبق أن قلنا إنّ واحدة من عادات أهل الكتاب القبيحة - اليهود والنصارى - كانت تزييف الحقائق، من ذلك قولهم بأُلوهية عيسى، زاعمين أنّه هو الذي أمرهم بذلك، وكان هذا ما يريد بعضهم أن يحقّقه بشأن رسول الإسلام أيضاً، للأسباب التي ذكرناها في نزول الآية.

إنّ الآية ردّ حاسم على جميع الذين كانوا يقترحون عبادة الأنبياء. تقول الآية: ليس لكم أن تعبدوا نبيّ الإسلام ولا أيّ نبيّ آخر ولا الملائكة، ويخطىء من يقول إنّ عيسى قد دعاهم إلى عبادته.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج ٩، ص ٧١؛ وتفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠ و ٤١ و ٤٦.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

الآية تنفي نفياً مطلقاً هذا الأمر، أي أنّ الذين أرسلهم الله وآتاهم العلم والحكمة لا يمكن - في أيّة مرحلة من المراحل - أن يتعدّوا حدود العبودية لله، بل إنّ رسل الله هم أسرع خضوعاً له من سائر الناس، لذلك فهم لا يمكن أن يخرجوا عن طريق العبودية والتوحيد ويجرّوا الناس إلى هوة الشرك.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

(الربّاني) هو الذي أحكم ارتباطه بالله، ولمّا كانت الكلمة مشتقّة من (ربّ) فهي تطلق أيضاً على من يقوم بتربية الآخرين وتدبير أُمورهم وإصلاحهم.

وعلى هذا يكون المراد من هذه الآية: إنّ هذا العمل (دعوة الأنبياء الناس إلى عبادتهم) لا يليق بهم، إنّ ما يليق بهم هو أن يجعلوا الناس علماء إلهيّين في ضوء تعليم آيات الله وتدريس حقائق الدين، ويصيّروا منهم أفراداً لا يعبدون غير الله ولا يدعون إلّا إلى العلم والمعرفة.

يتّضح من ذلك أنّ هدف الأنبياء لم يكن تربية الناس فحسب، بل استهدفوا أكثر من ذلك: تربية المعلّمين والمربّين وقادة الجماعة، أي تربية أفراد يستطيع كلّ منهم أن يضيء بعلمه وإيمانه ومعرفته محيطاً واسعاً من حوله.

تبدأ الآية بذكر (التعليم) أوّلاً ثمّ (التدريس). تختلف الكلمتان من حيث اتّساع المعنى، فالتعليم أوسع ويشمل كلّ أنواع التعليم، بالقول وبالعمل، للمتعلّمين وللأُمّيّين، أمّا التدريس فيكون من خلال الكتابة والنظر إلى الكتاب، فهو أخصّ والتعليم أعمّ.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾.

هذه تكملة لما بحث في الآية السابقة، فكما أنّ الأنبياء لا يدعون الناس إلى عبادتهم، فإنّهم كذلك لا يدعونهم إلى عبادة الملائكة وسائر الأنبياء. وفي هذا جواب لمشركي العرب الذين كانوا يعتقدون أنّ الملائكة هم بنات الله، وبذلك يسبغون عليهم نوعاً من الأُلوهية، ومع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم من أتباع دين إبراهيم، كذلك هو جواب للصابئة الذين يقولون إنّهم أتباع يحيى، وكانوا يرفعون مقام الملائكة إلى حدّ عبادتهم، وهو أيضاً ردّ على اليهود الذين قالوا إنّ عزيراً ابن الله، أو النصارى الذين

قالوا إن المسيح ابن الله، وأضفوا عليه طابعاً من الربوبية، فالآية تردّ هؤلاء جميعاً وتقول إنّه لا يليق بالأنبياء أن يدعوا الناس إلى عبادة غير الله.

وفي الختام تقول الآية ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. أيمكن أن يدعوكم النبيّ إلى الكفر بعد أن اخترتم الإسلام ديناً؟

واضح أنّ (الإسلام) هنا يقصد به معناه الأوسع، كما هي الحال في مواضع كثيرة من القرآن، وهو التسليم لأمر الله والإيمان والتوحيد، أي كيف يمكن لنبيّ أن يدعو الناس أوّلاً إلى الإيمان والتوحيد، ثمّ يدلّهم على طريق الشرك؟ أو كيف يمكن لنبيّ أن يهدم ما بناه الأنبياء في دعوتهم الناس إلى الإسلام، فيدعوهم إلى الكفر والشرك؟

تنوّه الآية ضمنيّاً بعصمة الأنبياء وعدم انحرافهم عن مسير إطاعة الله(١).

بحث

منع عبادة البشر

تدين هذه الآيات بصراحة كلّ عبادة، وخاصّة عبادة البشر، سوى عبادة الله، وتربّي في الإنسان روح الحرّية واستقلال الشخصية، تلك الروح التي لا يكون بدونها جديراً بحمل اسم إنسان.

نعرف من خلال التاريخ العديد من الأشخاص الذين كانوا، قبل الوصول إلى السلطة، يتميّزون بالبراءة ويدعون الناس إلى الحقّ والعدالة والحرّية والإيمان. ولكنّهم ما أن صعدوا عروش السلطة والهيمنة على المجتمع غيّروا سيرتهم شيئاً فشيئاً وانحازوا إلى فكرة عبادة الشخصية ودعوا الناس إلى عبادتهم.

في الواقع، إنّ من أساليب تمييز (دعاة الحقّ) عن (دعاة الباطل) هو هذا. فدعاة الحقّ - وعلى رأسهم الأنبياء والأئمّة - كانوا وهم في قمّة السلطة، كما كانوا قبل أن تكون لهم أيّة سلطة، يدعون إلى الأهداف الدينية المقدّسة والإنسانية والتوحيد والحرّية، أمّا دعاة الباطل، فإنّ أوّل ما يبادرون إليه عند وصولهم السلطة هو الدعوة

---

(١) في القراءة المعروفة التي اعتمدتها طبعة القرآن السائدة، تأتي «ولا يأمركم» في حالة نصب - بفتح الراء - وهي معطوفة على «أن يؤتيه الله» في الآية السابقة. و«لا» توكيد لـ «ما» النافية في الآية السابقة، وعليه تكون الآية بهذا المعنى: وما كان لبشر أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيّين أرباباً.

لأنفسهم وحثّ الناس على نوع من عبادتهم، نتيجة تملّق الناس الضعفاء المحيطين بهم، وكذلك نتيجة ضيق أُفقهم وغرورهم.

هناك حديث عن الإمام علي عليه السلام تظهر من خلاله شخصيّته الكبيرة الفذّة، ويعتبر دليلاً وشاهداً على هذا البحث.

عند وصول الإمام عليه السلام إلى أرض الأنبار - إحدى مدن العراق الحدودية - خرّ جمع من الدهاقين ساجدين أمامه، بحسب التقاليد التي اعتادوا عليها، فغضب الإمام من فعلتهم هذه وصرخ فيهم: (ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خُلُقٌ منّا نعظّم به أُمراءنا. فقال: والله ما ينتفع بهذا أُمراؤكم، وإنّكم لتشقّون على أنفسكم في دنياكم وتَشقوْن به في آخرتكم، وما أخسر المشقّة وراءها العقاب، وأربح الدعة معها الأمان من النار)[1].

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

التّفسير

الميثاق المقدس

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى وجود علائم لنبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم في كتب الأنبياء السابقين، أشارت هذه الآية إلى مبدأ عام، وهو أنّ الأنبياء السابقين وأتباعهم قد أبرموا مع الله ميثاقاً بالتسليم للأنبياء الذين يأتون بعدهم، وبالإضافة إلى الإيمان بهم، لا يبخلون عليهم بشيء في مساعدتهم على تحقيق أهدافهم. تقول الآية:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٣٧؛ ووسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٢٨.

في الواقع، مثلما أنّ الأنبياء والأُمم التالية تحترم الأنبياء السابقين ودياناتهم، فإنّ الأنبياء السابقين والأُمم السابقة كانوا يحترمون الأنبياء الذين يأتون بعدهم. وفي القرآن إشارات كثيرة على وحدة الهدف عند أنبياء الله. وهذه الآية نموذج حيّ على ذلك.

و(الميثاق) من (الوثوق)، أي ما يدعو إلى الاطمئنان به والاعتماد عليه، و(الميثاق) هو الاتّفاق المؤكّد، وأخذ الميثاق من الأنبياء مصحوب بأخذ الميثاق من أتباعهم أيضاً، كان موضوع هذا الميثاق هو أنّه إذا جاء نبيّ تنسجم دعوته مع دعوتهم (وهذا ما يثبت صدق دعوته) فيجب الإيمان به ونصرته.

ثمّ لتوكيد هذا الموضوع جاءت الآية:

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيٓ﴾[1].

هل اعترفتم بهذا الميثاق وقبلتم عهدي وأخذتم من أتباعكم عهداً بهذا الموضوع؟

وجواباً على ذلك ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾.

ثمّ لتوكيد هذا الأمر المهمّ وتثبيته يقول الله: كونوا شهداء على هذا الأمر وأنا شاهد عليكم وعلى أتباعكم ﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

وفي الآية الأخيرة يذم ويهدد القرآن الكريم ناقضي العهود ويقول:

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

فلو أنّ أحداً بعد كلّ هذا التأكيد على أخذ المواثيق والعهود المؤكّدة - أعرض عن الإيمان بنبيّ كنبيّ الإسلام الذي بشرت به الكتب القديمة وذكرت علائمه، فهو فاسق وخارج على أمر الله تعالى، ونعلم أنّ الله لايهدي الفاسقين المعاندين، كما مرّ في الآية ٨٠ من سورة التوبة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2]، ومن لا يكون له نصيب من الهداية الإلهيّة، فإنّ مصيره إلى النار.

هنا ثلاث نقاط لا بدّ أن ننتبه لها:

١ - هل هذه الآية مقصورة على بشارة الأنبياء السابقين وميثاقهم بالنسبة لنبيّ الإسلام ﷺ، أم أنّها تشمل كلّ نبيّ يبعث بعد نبيّ قبله؟

يظهر من الآية أنّها تعبّر عن مسألة عامّة، وإن كان خاتم الأنبياء مصداقها البارز، كما أنّ هذا المعنى الواسع يتّسق مع روح مفاهيم القرآن، لذلك إذا ما رأينا في بعض الأخبار

---

(١) الإصر: العهد المؤكّد الذي يستوجب نقضه العقاب الشديد.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٨؛ والتّوبة، الآية: ٢٤؛ والصف، الآية: ٥.

أنّ المقصود هو نبيّ الإسلام الكريم، فما ذلك إلّا من قبيل تفسير الآية وتطبيقها على أجلى مصاديقها، وليس لأنّ المعنى جاء على سبيل الحصر.

ينقل الفخر الرازي في تفسيره عن الإمام علي عليه السلام قال: «إنّ الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلّا أخذ عليهم العهد لئن بُعث محمّد عليه الصلاة والسلام وهو حيّ، ليؤمننّ به ولينصرنّه»[١].

٢ - بعد أخذ مضمون الآية بنظر الاعتبار، يبرز هذا السؤال: أيمكن أن يظهر نبيّ من أُولي العزم في زمان نبيّ آخر من أُولي العزم حتى يتبعه؟

يمكن القول في جواب هذا السؤال: إنّ الميثاق لم يؤخذ من الأنبياء وحدهم، بل ومن أتباعهم أيضاً، كما قلنا في تفسير الآية، والواقع أنّ القصد من أخذ الميثاق من الأنبياء وأخذه من أُممهم والأجيال التي تولد بعدهم وتدرك عصر النبيّ التالي، كما أنّ الأنبياء أنفسهم يؤمنون أيضاً إذا أدركوا - فرضاً - عهد الأنبياء التالين، أي أنّ أنبياء الله لا ينفصلون إطلاقاً في أهدافهم وفي دعوتهم ولا صراع أو خلاف بينهم[٢].

٣ - والقول الأخير بشأن هذه الآية هو أنّها وإن تكن بخصوص الأنبياء، فهي تصدق طبعاً بحقّ خلفائهم أيضاً، إذ إنّ خلفاءهم الصادقين لا ينفكّون عنهم، وهم جميعاً يسعون لتحقيق هدف واحد، ولذلك كان الأنبياء يعيّنون خلفاءهم، ويبشّرون الناس بهم ويدعونهم إلى الإيمان بهم وشدّ أزرهم.

ولئن وجدنا بعض الروايات الواردة في تفاسيرنا لهذه الآية وكتب أحاديثنا بشأن نزول عبارة (ولتنصرنّه) في علي عليه السلام وأنّها تشمل قضية الولاية، إنّما هو إشارة إلى هذا المعنى.

ولا بدّ أن نشير إلى أنّ هذه الآية - من حيث تركيبها النحوي - كانت موضع بحث بين المفسّرين ورجال الأدب[٣].

٤ - **التعصّب المقيت**: يحدّثنا التاريخ أنّ أتباع دين من الأديان لا يتخلّون بسهولة عن

---

(١) التفسير الكبير: ج ٨، ص ١٥١؛ وبحار الانوار، ج ١١، ص ١٣.

(٢) كان قد يتفق في القرون البائده وجود عدّة أنبياء في عصر واحد، ويُؤمر أحدهما أن يقبل بنبوّة الآخر وأن يعملوا جميعاً على توحيد الكلمة.

(٣) في «لما آتيتكم» يعتبر بعضهم «ما» موصولة ومبتدأ، واللام موطئة للقسم، وجملة «لتؤمننّ به» خبر. قال فريق آخر «ما» شرطية زمانية وجزاؤها «لتؤمننّ به ولتنصرنّه». وهذا الاحتمال الثاني أقرب إلى معنى الآية.

دينهم ولا يستسلمون للأنبياء الجدد المبعوثين من قبل الله، بل يتمسّكون بدينهم القديم تمسّكاً جافّاً جامداً، ويدافعون عنه كأنّه جزء من وجودهم، ويرون تركه إبادة لقوميّتهم.

لذلك يشقّ عليهم القبول بالدين الجديد، إنّ منشأ الكثير من الحروب الدينية التي وقعت على امتداد التاريخ - وهي من أفظع حوادث التاريخ - هو هذا التعصّب الجاف والجمود على الأديان القديمة.

غير أنّ قانون الارتقاء والتكامل يقول: هذه الأديان يجب أن تأتي الواحد تلو الآخر، وتتقدّم بالبشرية في سيرها نحو معرفة الله والحقّ والعدالة والإيمان والأخلاق والإنسانية والفضيلة، حتى تصل إلى الدين النهائي، خاتم الأديان، كالطفل الذي يتدرّج في مراحل الدراسة ويطويها الواحدة بعد الأُخرى حتى يتخرّج من الكليّة والجامعة.

فإذا أحبّ التلاميذ جوّ مدرستهم الابتدائية ذلك الحبّ الذي يربطهم بمدرستهم إلى درجة أنّهم يرفضون الانتقال إلى المدرسة الثانوية، فبديهيّ أن لا يكون نصيب هؤلاء سوى التخلّف عن ركب السائرين نحو التقدّم والارتقاء.

إنّ إصرار الآية على أخذ الميثاق والعهد المؤكّد من الأنبياء والأُمم الماضية نحو الأنبياء التالين لهم قد يكون من أجل اجتناب أمثال هذا التعصّب والجمود والعناد.

ولكنّ الذي يؤسف له أنّنا - بعد كلّ هذا التأكيد - ما زلنا نرى أتباع الأديان القديمة لا يسلّمون بسهولة أمام الحقائق الجديدة، سوف نشرح إن شاء الله في تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب كيف يكون الإسلام آخر الأديان وخاتمها ولماذا؟

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

التّفسير

الإسلام أفضل الأديان الإلهيّة

مرّت بنا حتى الآن بحوث مسهبة في الآيات السابقة عن الأديان الماضية، وابتداءً

من هذه الآية يدور البحث حول الإسلام وفيها إلفات لأنظار أهل الكتاب وأتباع الأديان السابقة إلى الإسلام.

تبدأ الآية بالتساؤل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ أيريد هؤلاء ديناً غير دين الله؟ وما دين الله سوى التسليم للشرائع الإلهيّة، هي كلّها قد جمعت بصورتها الكاملة الشاملة في دين نبيّ الإسلام ﷺ. فإذا كان هؤلاء يبحثون عن الدين الحقيقي فعليهم أن يسلموا.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

يبدأ القرآن بتفسير الإسلام بمعناه الأوسع، فيقول: كلّ مَن في السماوات والأرض، أو جميع الكائنات في السماوات والأرض، مسلمون خاضعون لأوامره ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. هذا الاستسلام والخضوع يكون (طوعاً) أو اختيارياً أحياناً، إزاء (القوانين التشريعية)، ويكون (كرهاً) أو إجبارياً أحياناً أخرى، إزاء (القوانين التكوينية).

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ لله نوعين من الأمر في عالم الوجود، فبعض أوامره يكون بشكل (قوانين طبيعية وما وراء طبيعية) تحكم على مختلف كائنات هذا العالم، فهي خاضعة لها خضوع إكراه وليس لها أن تخالفها لحظة واحدة، فإن فعلت - فرضاً - يكتب لها الفناء والزوال، هذا نوع من (الإسلام والتسليم) أمام أمر الله. وبناءً على هذا فإنّ أشعة الشمس التي تسطع على البحار، وبخار الماء الذي يتصاعد منها، وقطع السحاب التي تتواصل، وقطرات المطر التي تنزل من السماء والنباتات التي تنمو بها، والزهور التي تتفتح لها، جميعها مسلّمة، لأنّ كلّاً منها قد أسلم للقوانين التي فرضها عليها قانون الخليقة.

والنوع الآخر من أوامر الله هي (الأوامر التشريعية) وهي القوانين التي ترد في الشرائع السماوية وتعاليم الأنبياء، إنّ التسليم أمامها تسليم (طوعي) أو اختياري، فالمؤمنون الذين يسلمون لها إنّما هم وحدهم المسلمون، إنّ مخالفة هذه القوانين والشرائع لا تقلّ - على كلّ حال - عن مخالفة القوانين التكوينية، لأنّ مخالفتها تبعث على الانحطاط والتخلّف والعدم.

ولمّا كانت (أسلم) مستعملة في هذه الآية بالمعنى الأوسع للإسلام، أي المعنى الذي يشمل النوعين من أوامر الله، لذلك فهي تقول إنّ فريقاً يسلم طوعاً - كالمؤمنين - وفريقاً يسلم كرهاً - كالكافرين - أمام القوانين التكوينية، وهكذا نجد أنّ الكافرين الذين يمتنعون عن التسليم أمام بعض أوامر الله مجبرون على التسليم أمام بعض آخر من أوامر الله. فلماذا إذاً لا يسلمون لجميع قوانين الله ودين الحقّ؟

هناك احتمال آخر في تفسير هذه الآية ذكره كثير من المفسّرين، وإن لم يتعارض مع ما قلناه آنفاً، وهو: أنّ المؤمنين وهم في حال من الرفاه والهدوء يسيرون نحو الله بملء اختيارهم، أمّا غير المؤمنين فلا يسيرون نحو الله إلّا عندما تحيق بهم البلايا والمشكلات التي لا تطاق، فيدعونه ويتوسّلون إليه، فمع أنهم في الظروف العادية يشركون به، فإنّهم في الشدائد والملمّات لا يتوجّهون إلّا إليه.

ويتضح ممّا تقدّم أن (مَن) في جملة ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تشمل الموجودات العاقلة وغير العاقلة، فبالرغم من كونها تستعمل عادة للعقلاء، إلّا أنّها قد تكون عامّة للتغليب، و(طوعاً) إشارة إلى الموجودات العاقلة المؤمنة، و(كرهاً) إشارة إلى الكفّار وغير العقلاء.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا . . .﴾.

في هذه الآية يأمر الله النبيّ والمسلمين بأنّهم، فضلاً عن إيمانهم بما أُنزل على رسول الإسلام، عليهم أن يظهروا إيمانهم بكلّ الآيات والتعليمات التي نزلت على الأنبياء السابقين، وأن يقولوا: إنّنا لا نفرّق بينهم من حيث صدقهم وعلاقتهم بالله، إنّنا نعترف بالجميع، فهم جميعاً كانوا قادة إلهيّين، وهم جميعاً بُعثوا لهداية الناس، إنّا نسلم بأمر الله من جميع النواحي، وبذلك نقطع أيدي المفرّقين.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

(يبتغ) من (الابتغاء) بمعنى الطلب والسعي، ويكون في الأُمور المحمودة وفي الأُمور المذمومة، هنا يختتم البحث المذكور باستنتاج نتيجة كلّيّة، وهي أنّ الدين الحقيقي هو الإسلام، أي التسليم لأمر الله بمعناه العام، وأمّا بمفهومه الخاصّ فهو الانتقال إلى الدين الإسلامي الذي هو أكمل الأديان، فتقول الآية: إنّه لا يقبل من أحد سوى الإسلام مع الأخذ بنظر الاعتبار احترام سائر الشرائع الإلهيّة المقدسة، فكما أن طلّاب الجامعة في نفس الوقت الذي يحترمون فيه الكتب الدراسية للمراحل السابقة من الابتدائية والمتوسطة والإعدادية، فإنّه لا يقبل منهم سوى دراسة الكتب والدروس المقررة للمرحلة النهائية، فكذلك الإسلام، وأمّا الذين يتّخذون غير هذه الحقيقة ديناً، فلن يقبل منهم هذا أبداً، ولهم على ذلك عقاب شديد ﴿وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ذلك لأنّه تاجر بثروة وجوده مقابل بضع خرافات وتقاليد بالية، وعصبيّات جاهلية وعنصرية، ولا شكّ أنّه هو الخاسر في هذه الصفقة، وإذا ما خسر الإنسان ثروة وجوده، وجد نتيجة ذلك حرماناً وعذاباً وعقاباً يوم القيامة.

وذكر بعض المفسّرين أنّ هذه الآية نزلت في اثني عشر من المنافقين الذين أظهروا

الإيمان، ثمّ ارتدّوا، وخرجوا من المدينة إلى مكّة، فنزلت الآية وأنذرتهم بأنّه من اعتنق غير الإسلام فهو من الخاسرين(١).

وفي الدرّ المنثور في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ الآية، أخرج أحمد والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول: يا ربّ أنا الصلاة فيقول: إنّك على خير، وتجيء الصدقة فتقول يا ربّ أنا الصدقة فيقول: إنّك على خير، ثمّ يجيء الصيام فيقول: أنا الصيام فيقول: إنّك على خير، ثمّ تجيء الأعمال كلّ ذلك يقول الله: إنّك على خير، ثمّ يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام فيقول الله: إنّك على خير؛ بك اليوم آخذ، وبك أُعطي، قال الله في كتابه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٢).

فيما يتعلّق باختلاف (الإسلام) عن (الإيمان) سوف يأتي شرحه في تفسير الآية ١٤ من سورة الحجرات إن شاء الله.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

سبب النّزول

كان الحارث بن سويد من الأنصار، ارتكب قتل شخص بريء اسمه المجذر بن زياد، فارتدّ عن الإسلام خوفاً من العقاب، وفرّ من المدينة إلى مكّة، ولكنّه في مكّة ندم على فعلته، وراح يفكّر فيما يصنعه، وأخيراً استقرّ رأيه على أن يبعث بأحد أقاربه في المدينة يسأل رسول الله ﷺ عمّا إذا كان له سبيل للرجوع، فنزلت هذه الآيات، تعلن

(١) تفسير روح الجنان، ج ٣، ص ١٠٠.

(٢) تفسير الدرّ المنثور: ج ٢، ص ٤٨، نقلاً عن معجم الأوسط: ج ٨، ص ٢٩٦ حديث ٧٦٠٧. ومجمع الزائد، ج ١٠، ص ٣٤٥.

قبول توبته بشروط خاصّة، فمثل الحارث بن سويد بين يدي رسول الله ﷺ وجدّد إسلامه، وظلّ ملتزماً وفيّاً لإسلامه حتى آخر رمق فيه، غير أنّ أحد عشر شخصاً ممّن ارتدّوا عن الإسلام معه بقوا مرتدّين[1].

في تفسير الدرّ المنثور وفي تفاسير أُخرى، سبب نزول للآيات المذكورة لا يختلف كثيراً عمّا أوردناه[2].

التّفسير

كان الكلام في الآيات السابقة عن أنّ الدين الوحيد المقبول عند الله هو الإسلام، وفي هذه الآيات يدور الحديث حول من قبلوا الإسلام ثمّ رفضوه وتركوه، ويسمى مثل هذا الشخص (مرتد) تقول الآية:

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾.

فالآية تقول: إنّ الله لا يعين أمثال هؤلاء الأشخاص على الاهتداء، لماذا؟ لأنّ هؤلاء قد عرفوا النبيّ بدلائل واضحة وقبلوا رسالته، فبعدولهم عن الإسلام أصبحوا من الظالمين والشخص الذي يظلم عن علم واطلاع مسبق غير لائق للهداية الإلهيّة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

المراد من (البينات) في هذه الآية القرآن الكريم وسائر معاجز النّبي الأكرم ﷺ، والمراد من (الظالم) هو من يظلم نفسه بالمرتبة الأولى، ويرتد عن الإسلام وفي المرتبة الثانية يكون سبباً في إضلال الآخرين، ثمّ تضيف الآية:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

عقاب أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعدلون عن الحقّ بعد معرفتهم له، كما هو مبيّن في الآية، أن تلعنهم الملائكة وأن يلعنهم الناس.

(اللعن) في الأصل الطرد والإبعاد على سبيل السخط، من هنا فلعن الله هو إبعاد الشخص عن رحمته، أمّا لعن الملائكة والناس فقد يكون السخط والطرد المعنوي، وقد يكون الطلب من الله تعالى بإبعادهم عن رحمته فهؤلاء الأشخاص يكونون في الواقع غارقين في الفساد والإثم إلى درجة أنّهم يصبحون مورد استنكار كلّ عاقل ملتزم في العالم، من البشر كان أم من الملائكة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص ٤٧١؛ وكنز الدقائق، ج ٢، ص ١٥٢.
(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٤٩.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

تُضيف الآية هنا أنّهم فضلاً عن كونهم موضع لعن عام، فإنّهم سيبقون في هذا اللعن إلى الأبد، فهم في الواقع كالشيطان الخالد في اللعن الأبدي.

ولاشكّ أنّ نتيجة ذلك هو أن يكونوا في عذاب شديد ودائم بغير تخفيف ولا إمهال.

وفي آخر آية تفتح طريق العودة أمام هؤلاء الأفراد، وتدعوهم للتوبة، لأنّ هدف القرآن هو الإصلاح والتربية، ومن أهم الطرق لذلك هو فتح باب العودة للمذنبين والملوثين كيما تتاح لهم الفرصة لجبران ما فرط منهم، فتقول:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إنّ هذه الآية مثل الكثير من آيات القرآن، وبعد الإشارة إلى التوبة - تشير إلى التكفير عن الذنوب السابقة وبجملة (وأصلحوا) تبيّن أنّ التوبة لا تعني مجرّد الندم على ما مضى والعزم على تجنّب ارتكاب الذنوب في المستقبل، بل شرط قبولها هو أن يمحو التائب بأعماله الصالحة في المستقبل جميع أعماله القبيحة الماضية.

لذلك نجد في كثير من الآيات أنّ التوبة يرافقها العمل الصالح، مثل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[(١)] وإلّا فإنّ التوبة لن تكون كاملة، فهؤلاء إن فعلوا ذلك نالوا رحمة الله ومغفرته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بل إنّه يستفاد من هذه الآية أنّ الذنب عبارة عن نقص في الإيمان، وأنّه بعد التوبة يقوم الشخص التائب بتجديد الإيمان ليتطهر من هذا النقص.

هل تقبل توبة المرتد؟

يبدو من الآية أعلاه ومن سبب نزولها أن قبول توبة المرتد (وهو الذي أسلم ثمّ عاد عن إسلامه) يرتبط بنوع الارتداد، فثمّة (المرتدّ الفطري) وهو المرتد الذي ولد من أبوين مسلمين، أو انعقدت نطفته حين كان أبواه مسلمين، ثمّ قبل الإسلام وعاد عنه بعد ذلك، وهناك (المرتدّ الملّي) وهو الذي لم يولد من أبوين مسلمين.

توبة المرتدّ الملّي تقبل، وعقوبته في الواقع خفيفة لأنّه ليس مسلماً بالمولد، لكن حكم المرتدّ الفطري أشد، هذا المرتدّ - وإن قبلت توبته لدى الله سبحانه - يُحكم بالإعدام إن ثبت ارتداده، وتوزّع أمواله على ورثته المسلمين، وتنفصل عنه زوجته، ولا تحول توبته دون إنزال هذه العقوبة بحقّه.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٠.

لكن هذه الشدّة تخصّ - كما قلنا - المرتدّ الفطري، وبشرط أن يكون رجلاً.

قد تعجّب بعضهم لهذا التشدّد، وربّما اعتبر نوعاً من الفظاظة القاسية البعيدة عن الرحمة، الأمر الذي لا يتّسق مع روح الإسلام.

غير أنّ لهذا الحكم فلسفة أساساً، وهي حفظة الجبهة الداخلية في بلاد الإسلام ضدّ نفوذ المنافقين والأجانب، وللحيلولة دون تفكّكها واضمحلالها. إنّ الارتداد ضرب من التمرّد على نظام البلد الإسلامي، وحكمه الإعدام في أنظمة الكثير من قوانين العالم اليوم، إذ لو أُجيز لمن يشاء أن يعتنق الإسلام متى شاء وأن يرتدّ عنه متى شاء، لتحطّمت الجبهة الداخلية سريعاً، ولانفتحت أبواب البلد أمام الأعداء وعملائهم، ولساد المجتمع الإسلامي الهرج والمرج، وبناءً على ذلك فإنّ هذا الحكم حكم سياسي في الواقع، ولابدّ منه لحماية الحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامي وللضرب على أيدي العملاء والأجانب.

أضف إلى ذلك أنّ من يتقبّل الإسلام بعد التحقّق والتدقيق، ثمّ يتركه ليعتنق ديناً آخر، لا يمتلك دوافع سليمة ومنطقية، وهو بذلك يستحقّ أشدّ العقوبات، أمّا تخفيف هذا الحكم بالنسبة للمرأة، فلأنّ جميع العقوبات تخفّف بشأنها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

سبب النّزول

ذكر بعض المفسّرين أن الآية الأولى نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي ﷺ قبل بعثته، ولكنّهم بعد البعثة كفروا به[1]، وذهب آخرون إلى أنها نزلت في الحارث بن سويد وأحد عشر آخرين الذين ارتدّوا عن الإسلام لأسباب، ثمّ تاب وعاد إلى الإسلام، أمّا الآخرون فقد رفضوا دعوته للعودة، وقالوا: سنبقى في مكّة ونواصل مناوءة محمّد انتظاراً لهزيمته، فإذا تحقّق ذلك فخير، وإلّا فإنّ باب التوبة مفتوح، نتوب وقتما نشاء

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير روح المعاني، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج٢٢، ص ١٧.

ونرجع إلى محمّد، وسوف يقبل توبتنا! وعندما فتح رسول الله ﷺ مكّة أسلم بعضهم وقبلت توبتهم، وأمّا من أصرّ على البقاء على الكفر فقد نزلت الآية الثانية بشأنهم[(١) (٢)].

التّفسير

التوبة الباطلة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾.

كان الكلام في الآيات السابقة يدور حول الذين يندمون حقّاً على انحرافهم عن طريق الحقّ فيتوبون توبةً صادقة، في هذه الآية يدور الكلام على الذين لن تُقبل توبتهم، وهم الذين آمنوا أوّلاً، ثمّ ارتدّوا وكفروا، وأصرّوا على كفرهم، ورفضوا الانصياع لأوامر الله، حتى إذا اشتدّ عليهم الأمر اضطرّوا إلى العودة للإسلام، إنّ الله لن يقبل توبة هؤلاء، لأنّهم لم يتّخذوا باختيارهم خطوة في سبيل الله، بل هم مجبرون على إظهار الندم والتوبة بعد رؤيتهم انتصار المسلمين، لذلك فتوبتهم ظاهرية ولن تُقبل.

وثمّة احتمال آخر في تفسير هذه الآية هو: أنّ أمثال هؤلاء الأشخاص عندما يرون أنفسهم على أعتاب الموت ونهاية العمر قد يندمون ويتوبون حقّاً، غير أنّ توبتهم لن تُقبل، لأنّ وقت التوبة يكون قد انتهى، كما سيأتي شرحه، وهذا نظير قوله تعالى في الآية ١٨ من سورة النساء: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾.

وقيل: من المحتمل أن يكون معنى الآية: إنّ التوبة عن الذنوب العادية في حال الكفر لن تقبل. أي إذا أصرّ أحدهم على المضي في طريق الكفر، ثمّ تاب عن ذنوب معيّنة كالظلم والغيبة وأمثالهما، فإنّ توبته هذه لا طائل وراءها ولن تُقبل، وذلك لأنّ غسل التلوّث الظاهر عن الروح والنفس، مع بقاء التلوّث الأعمق في الباطن، لا فائدة منه.

لا بدّ أن نضيف هنا أنّ التفاسير المذكورة آنفاً لا تعارض بينها، وقد تشملها الآية جميعاً، وإن يكن التفسير الأوّل أقرب إلى الآيات السابقة وإلى سبب نزول هذه الآية.

---

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير روح المعاني، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج٢٢، ص ١٧.
(٢) الجدير بالذكر أنّ توبة الحارث وأصحابه كانت توبة «مرتد ملّي».

وفي الآية الثانية يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

تخصّ الآية أُولئك الذين يقضون أعمارهم كافرين في هذه الدنيا، ثمّ يموتون وهم على تلك الحال، يقول القرآن، بعد أن اتّضح لهؤلاء طريق الحقّ، يسيرون في طريق الطغيان والعصيان، وهم في الحقيقة ليسوا مسلمين، ولن يُقبل منهم كلّ ما ينفقونه، وليس أمامهم أيّ طريق للخلاص، حتى وإن أنفقوا ملء الأرض ذهباً في سبيل الله.

من الواضح أنّ القصد من القول بإنفاق هذا القدر الكبير من الذهب إنّما هو إشارة إلى بطلان إنفاقهم مهما كثر، لأنّه مقرون بتلوّث القلب والروح بالعداء لله، وإلّا فمن الواضح أنّ ملء الأرض ذهباً يوم القيامة لا يختلف عن ملئها تراباً، إنّما قصد الآية هو الكناية عن أهميّة الموضوع.

أمّا بشأن مكان هذا الإنفاق، أفي الدنيا أم في الآخرة؟ فقد ذكر المفسّرون لذلك احتمالين اثنين، ولكن ظاهر الآية يدلّ على العالم الآخر، أي كانوا كافرين ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، فلو كانوا يملكون ملء الأرض ذهباً، وظنّوا أنّهم بالاستفادة من هذا المال، كما هي الحال في الدنيا، يستطيعون أن يدرأوا العقاب عن أنفسهم، فهم على خطأ فاحش، إذ إنّ هذه الغرامة المالية والفدية ليست قادرة على التأثير في ما سيواجههم من عقاب، وفي الواقع فإن مضمون هذه الآية يشبه قوله تعالى في الآية ١٥ من سورة الحديد: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

وفي الختام يشير إلى نكتة أُخرى في المقام ويقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

لا شكّ في أنّهم سينالون عقاباً شديداً مؤلماً، ولن يكون باستطاعة أحد أن ينتصر أو يشفع لهم، لأنّ الشفاعة لها شرائط، وأهمها الإيمان بالله، ولهذا السبب فلو أن جميع الشفعاء اجتمعوا لإنقاذ أحد الكفّار من عذاب النار لم تقبل شفاعتهم. وأساساً، بما أنّ الشفاعة بإذن الله، فإنّ الشفعاء لا يشفعون أبداً لمثل هؤلاء الأفراد غير اللائقين للشفاعة، لأنّ الشفاعة تحتاج إلى قابلية المحل، والإذن الإلهي لايشمل الأفراد غير اللائقين.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

التّفسير

من علائم الإيمان

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾.

ولفظة (البر) في أصلها اللغوي تعني (السعة) ولهذا يقال للصحراء (البَر) بفتح الباء، ولهذه الجهة أيضاً يقال للأعمال الصالحة ذات الآثار الواسعة التي تعم الآخرين وتشملهم (البِر) بكسر الباء، والفرق بين البر والخير من حيث اللغة هو أن البر يراد منه النفع الواصل إلى الآخرين مع القصد إلى ذلك، بينما يطلق الخير على ما وصل نفعه إلى الآخرين حتى لو وقع عن سهو ومن غير قصد.

ماذا يعني (البر) في الآية؟

لقد ذهب المفسّرون في تفسير (البر) في هذه الآية إلى مذاهب شتى.

فمنهم من قال: إن المراد به هو (الجنّة)، ومنهم من قال إنّ المراد هو (الطاعة والتقوى) ومنهم من فسّره بأن معناه (الأجر الجميل).

غير أنّ المستفاد من موارد استعمال هذه اللفظة في آيات الكتاب العزيز نفسه هو: أنّ لكلمة (البر) معنى واسعاً يشمل كلّ أنواع الخير إيماناً كان أو أعمالاً صالحة، كما أنّ المستفاد من الآية ١٧٧ من سورة البقرة هو اعتبار (الإيمان بالله واليوم الآخر، والأنبياء، وإعانة المحتاجين، والصلاة، والصيام، والوفاء، والاستقامة في البأساء والضراء) جميعها من شعب البر ومصاديقه.

وعلى هذا فإنّ للوصول إلى مراتب الأبرار الحقيقيين شروطاً عديدة، منها: الإنفاق ممّا يحبه الإنسان من الأموال، لأنّ الحبّ الواقعي لله، والتعلّق بالقيم الأخلاقية والإنسانية إنّما يتضح ويثبت إذا إنتهى المرء إلى مفترق طريقين، وواجه خيارين لا ثالث لهما، ويقع في أحد الجانبين الثروة، أو المنصب، والمكانة المحببة لديه، وفي الجانب الآخر رضا الله والحقيقة والعواطف الإنسانية وفعل الخير، ويتعين عليه أن يختار أحدهما ويضحي بالآخر، ويتغاضى عنه.

فإذا غضّ نظره عن الأول لحساب الثاني أثبت صدق نيّته، وبرهن على حبّه، وعلى واقعيته في ولائه وانتمائه.

وإذا اقتصر - في هذا السبيل - على إنفاق الحقير القليل، وبذل ما لايحبّه ويهواه، فإنّه يكون بذلك قد برهن على قصوره في الإيمان والمحبّة، والتعلّق المعنوي عن تلك

المرتبة السامية، وأنّه ليس إلّا بنفس الدرجة التي أظهرها في سلوكه وعطائه لا أكثر، وهذا هو المقياس الطبيعي والمنطقي لتقييم الشخصية، ومعرفة مستوى الإيمان لدى الإنسان، ومدى تجذره في ضميره.

تأثير القرآن في قلوب المسلمين

لقد كان لآيات الكتاب العزيز تأثير بالغ ونفوذ سريع في أفئدة المسلمين الأوائل، فما يسمعون آيات جديدة النزول، إلّا ويظهر هذا التأثير على سلوكهم ومواقفهم وتصرفاتهم، ونذكر من باب المثال ما نقرأه في كتب التفسير والتاريخ الإسلامي ممّا ورد في مجال هذه الآية بالذات.

١ - كان أبو طلحة أكثر أنصاري المدينة نخلاً، وكان أحبّ أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما أنزلت ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله إنّ الله يقول: لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممّا تحبون وإنّ أحبّ أموالي إليّ بيرحاء، وإنّها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله ﷺ : بخ بخ ذلك مال رابح لك وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[1].

٢ - أضاف أبو ذر الغفاري ضيفاً، فقال للضيف: إنّي مشغول، وإن لي إبلاً فاخرج وأْتني بخيرها، فذهب فجاء بناقة مهزولة، فقال أبو ذر: خنتني بهذه، فقال: وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوم حاجتكم إليه، فقال أبو ذر: إنّ يوم حاجتي إليه ليوم أُوضع في حفرتي، مع أنّ الله يقول:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2].

٣ - كان لزبيدة زوجة هارون الرشيد مصحف ثمين جدّاً، قد زينت غلافه بأغلى أنواع المجوهرات والأحجار الكريمة وكانت تحبّه حبّاً شديداً وتعتز به أكبر اعتزاز، وفيما هي تتلو القرآن في ذلك المصحف ذات يوم وإذا بها مرت على قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ

---

(١) مجمع البيان وصحيح مسلم والبخاري كتاب التفسير باب ما جاء في سورة آل عمران، وبيرحاء موضع كان لأبي طلحة بالمدينة ومستدرك الوسائل، ج ٧، ص ٢٤٨ و ٢٤٩.

(٢) مجمع البيان: ج ٢، ص ٤٧٤.

تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فتأملت فيه، وغاصت في معناه وتأثرت بندائه فقالت في نفسها: (إنّه ليس هناك ما هو أحبّ إلي من هذا المصحف المزين الثمين فلأنفقه في سبيل الله)، فأرسلت إلى باعة الجواهر وباعت جواهره وأحجاره الكريمة عليهم ثمّ هيأت بثمنها آباراً وقنوات من الماء في صحراء الحجاز ليشرب منه سكان الصحراء وينتفع به المسافرون، ويقال إن بقايا هذه الآبار لا تزال باقية وتدعى[1] باسمها عند الناس.

وحتى يطمئن المنفقون إلى أنّ أي شيء ممّا ينفقونه لن يعزب عن الله سبحانه ولن يضيع، عقب الله على حثه للناس على الإنفاق ممّا يحبون بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ إنه يعلم بما تنفقونه صغيراً كان أو كبيراً، تحبونه أو لا تحبونه.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾

سبب النّزول

المستفاد من الروايات الواردة حول هذه الآيات وما ينقله المفسّرون هو: أنّ اليهود طرحوا إشكالين آخرين على رسول الله ﷺ ضمن جدالهم له، أحدهما: تحليله لحوم الإبل وألبانها، وقد كانت حراماً في دين إبراهيم عليه السلام وكانوا يقولون: كلّ شيء نحرمه فهو كان محرماً على نوح وإبراهيم، فكيف تحلله وأنت تدعي متابعة إبراهيم وأنك على ملته ودينه؟[2]

والآخر: صلاته باتجاه الكعبة فكانوا يقولون: كيف تدعي يا محمّد الاقتداء بملّة إبراهيم عليه السلام والنبيين العظام، وقد كان جميع الأنبياء من ولد إسحاق يولون وجوههم شطر «بيت المقدس» ويصلون باتجاهه وأنت تصلي شطر الكعبة وتعرض عن «بيت المقدس»[3]؟

(١) راجع تفسير روح الجنان لأبي الفتوح الرازي ج ٣، ص ١٥٧ في تفسير الآية، وتاج العروس، ج ٧، ص ١٠٨.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث. (٣) المصدر السابق.

فجاءت الآيات الثلاث تردّ على إنكارهم للأمر الأول وتفند زعمهم، بينما تكفلت الآيات القادمة بالردّ على اعتراضهم الأخير.

التّفسير

صرحت الآية الأُولى من هذه الآيات الثلاث بتفنيد كلّ المزاعم اليهودية حول تحريم بعض أنواع الطعام الطيب (مثل لحوم الإبل وألبانها) وردت على هذه الكذبة بقولها: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ[1] عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾.

أمّا لماذا حرّم يعقوب على نفسه بعض الأطعمة؟ وما هو نوع الأطعمة التي حرمها على نفسه فلم يرد في الآية أي توضيح بشأنها، بيد أنّ المستفاد من الروايات الإسلامية هو أنّ يعقوب كان - كما قيل - كلّما أكل من لحم الإبل أخذه وجع العرق الذي يقال له عرق النساء[2] فعزم إن شفاه الله على أن يحرم لحم الإبل على نفسه، فاقتدى به أتباعه في هذا، حتى اشتبه الأمر على من أتوا من خلفهم فيما بعد فتصور بعض أنّه تحريم إلهي، فاعتبروا ذلك حكماً ونسبوه إلى الله[3]، وادعوا بأنّه حرم عليهم لحم الإبل، فنزلت الآية تفند هذا الزعم ببيان علّة الالتباس، وتصرّح بأن نسبه هذا التحريم إلى الله سبحانه محض اختلاق.

وعلى هذا فقد كان كلّ الطعام حلالاً، ولم يكن شيء من الطيبات منه حراماً على بني إسرائيل قبل نزول التوراة، كما يفيد قوله سبحانه: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ وإن كان قد حرمت - بعد نزول التوراة ومجيء موسى بن عمران عليه السلام - بعض الأطعمة الطيبة، على اليهود لظلمهم وعصيانهم، تنكيلاً بهم، وجزاءً لظلمهم.

وتأكيداً لهذه الحقيقة أمر الله نبيّه في هذه الآية أن يطلب من اليهود بأن يأتوا بالتوراة الموجودة عندهم ويقرأوها ليتبين كذب ما ادعوه، وصدق ما أخبر به الله حول حلّية الطعام الطيب كله إذ قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ولكنّهم أعرضوا عن تلبية هذا الطلب لعلمهم بخلو التوراة عن التحريم الذي ادعوه.

---

(١) إسرائيل هو الاسم الآخر ليعقوب.

(٢) عرق النساء ألم عصبي يمتد على مسار العصب الوركي من الالية إلى معصم القدم ويشتد هذا الألم جداً إذا ما ثنيت الساق الممتدة عند مفصل الحوض (الموسوعة العربية الميسرة)

(٣) بحار الانوار، ج ٩، ص ١٩١.

والآن بعد أن تبيّن كذبهم وافتراؤهم على الله لعدم استجابتهم لطلب النّبي بإحضار التوراة، فإن عليهم أن يعرفوا بأنّ كلّ من افترى على الله الكذب استحق وصف الظلم، لأنّه بهذا الافتراء ظلم نفسه بتعريضها للعذاب الإلهي، وظلم غيره بتحريفه وإضلاله بما افترى، وهذا هو ما يعنيه قوله سبحانه في ختام هذه الآية ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

التوراة الرائجة وتحريم بعض اللّحوم

نقرأ في الفصل[1] الحادي عشر من سفر اللّاويين ضمن استعراض مفصل للّحوم المحرّمة والمحلّلة: (كل ما شق ظلفاً وقسمه ظلفين ويجتر من البهائم فإيّاه تأكلون. إلّا هذه فلا تأكلوها ممّا يجتر وممّا يشق الظلف. الجمل لأنّه يجتر لكنّه لا يشق ظلفاً فهو نجس لكم).

من هذه العبارات نفهم أنّ اليهود كانوا يحرمون الإبل وكل ما شق ظلفاً من البهائم، ولكن ذلك لايدلّ على أنّها كانت محرمة في شريعة نوح وإبراهيم أيضاً، إذ يمكن أن يكون هذا التحريم مختصاً باليهود عقاباً لهم وتنكيلاً.

فإذا لم يكن لليهود حجّة على زعمهم، وإذا تبين لهم صدق الرسول الكريم ﷺ في دعوته، واتضح لهم أنّه على ملّة إبراهيم، ودينه الحنيف حقّاً يوجب عليهم أن يتبعوه ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ اتبعوا ملّة إبراهيم الذي كان حنيفاً مستقيماً لا يميل إلى شيء من الأديان الباطلة، والأهواء الفاسدة، بل يسير في الطريق المستقيم، فلم يكن في دينه أي حكم منحرف مائل عن الحق وحتى في الأطعمة الطيبة الطاهرة لم يكن يحرم شيئاً بدون مبرر أو سبب وجيه للتحريم... إنّه لم يكن مشركاً، فادعاء مشركي العرب بأنّهم على ملته محض اختلاق، فأين الوثنية وأين التوحيد؟ وأين عبادة الأصنام، وأين تحطيم الأصنام؟

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم يكرر هذا الوصف ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في شأن إبراهيم ويؤكّد عليه في مواطن كثيرة، وما ذلك إلّا لأنّ العرب الجاهليين الوثنيين كانوا - كما ألمحنا - ينسبون ديانتهم وعقائدهم الوثنية إلى الخليل عليه السلام، ويدّعون بأنّهم على دينه وملته، وكانوا يصرون على هذا إلى درجة أنّ الآخرين سموهم بالحنفاء (أي أتباع إبراهيم) ولذلك كرر القرآن نفي الشرك عن الخليل وصرح مراراً وتكراراً بأنّه عليه السلام كان

(١) وهو ما يسمى بالإصحاح.

حنيفاً، ولم يكن من المشركين أبداً[١] إبطالاً لذلك الادعاء السخيف، وتنزيهاً لساحة هذا النّبي العظيم عن تلك الوصمة المقيتة.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾

أول بيت وضع للناس

لقد أنكرت اليهود على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أمرين كما أسلفنا، وقد رد القرآن على الأمر الأول في الآيات الثلاث المتقدمة، وها هو يرد على الأمر الثاني، وهو: إنكارهم على النّبي اتخاذه الكعبة قبلة، وتفضيله لها على (بيت المقدس) بينما كانوا يفضلونه على الكعبة.

يقول سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ فلا عجب إذن أن تكون الكعبّة قبلة للمسلمين، فهي أول مركز للتوحيد، وأقدم معبد بني على الأرض ليعبد فيه الله سبحانه ويوحد، بل لم يسبقه أي معبد آخر قبله، إنّه أول بيت وضع للناس، ولأجل خير المجتمع الإنساني، في نقطة من الأرض محفوفة بالبركات، غنية بالخيرات، وضع ليكون مجتمع الناس، وملتقاهم.

إنّ المصادر الإسلامية والتاريخية تحدثنا بأنّ الكعبة تأسست على يدي آدم عليه السلام ثمّ تهدمت بسبب الطوفان الذي وقع في عهد النّبي نوح عليه السلام ثمّ جدد بناءها النّبي العظيم إبراهيم الخليل عليه السلام فهي إذن عريقة عراقة التاريخ البشري[٢].

ولا شكّ أن اختيار أعرق بيت أُسس للتوحيد من أجل أن يكون قبلة للمسلمين، أولى وأفضل من اختيار أية نقطة أُخرى وأي مكان آخر.

هذا وممّا يجدر الانتباه إليه هو أن (الكعبة) والتي تسمى في تسمية وأُخرى بـ(بيت الله) وصفت في هذه الآية بأنّها (بيت للناس)، وهذا التعبير يكشف عن حقيقة هامّة

---

(١) جملة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ جاءت في آل عمران ٦٧ - ٩٥ والأنعام ١٦١ والنحل ١٢٤ والبقرة ١٣٥.

(٢) للوقوف على معلومات أكثر حول مصادر ونصوص هذا الموضوع من الآيات والأحاديث راجع الجزء الأول من هذا التفسير في ذيل الآية ١٢٧ من سورة البقرة.

وهي: أنّ كلّ ما يكون باسم الله ويكون له، يجب أن يكون في خدمة الناس من عباده، وأن كلّ ما يكون لخدمة الناس وخير العباد فهو لله سبحانه.

كما تتضح - ضمن ما نستفيده من هذه الآية - قيمة الأسبقية في مجال العلاقات بين الخلق والخالق، ولذلك نجد القرآن يشير - في هذه الآية - إلى أسبقية الكعبة على جميع الأماكن الأُخرى، وإلى تاريخها الطويل الضارب في أعماق الزمن، معتبراً ذلك أول وأهم ما تتسم به الكعبة من الفضائل والمزايا، ومن هنا يتضح أيضاً علّة ما للحجر الأسود من الحرمة، ويتبيّن جواب ما يحوم حوله من سؤال مفاده: ما قيمة قطعة من الحجر ولماذا يندفع ويتدافع لاستلامه ملايين الناس كلّ عام، ويتسابقون - في عناء بالغ - إليه حتى إنّ استلامه يعدّ من المستحبات المؤكّدة في مناسك الحجّ وبرامجه؟

إنّ تاريخ هذا الحجر يكشف عن ميزة خاصة في هذا الحجر لا نجدها في أي حجر آخر غيره في هذا العالم، وهي أنّ هذا الحجر أسبق شيء استخدم كمادة إنشائية في أقدم بيت شيد لعبادة الله، وتقديسه، وتوحيده، فإننا نعلم بأنّ جميع المعابد حتى الكعبة قد فقدت موادها الإنشائية في كلّ عملية انهدام وتجديد، عدا هذه القطعة من الصخر التي بقيت منذ آلاف السنين، واستخدمت في بناء هذه البنية المعظمة على طول التاريخ منذ تأسيسها وإلى الآن، ولا شكّ أنّ لهذه الاستمرارية، وتلك الأسبقية في طريق الله وفي خدمة الناس قيمة وأهميّة من شأنها أن تكسب الأشياء والأشخاص ميزة لا يمكن تجاهلها.

كلّ هذا مضافاً إلى أنّ هذه الصخرة ليست إلّا تاريخاً صامتاً لأجيال كثيرة من المؤمنين في الأعصر المختلفة، فهي تحيي ذكرى استلام الأنبياء العظام وعباد الله البررة لها، وعبادتهم، وتضرعهم إلى الله في جوارها عبر آلاف السنين ومئات من القرون والأحقاب.

على أنّ ثمّة أمراً آخر ينبغي الانتباه إليه وهو: أنّ الآية المبحوثة هنا تصرح بأنّ الكعبة هي أول بيت وضع للناس، ومن المعلوم أنّه وضع لغرض العبادة فهو أول بيت وضع للعبادة إذن، وهو أمر لا يمنع من أن يكون قد شيدت في الأرض قبل الكعبة بيوت للسكن.

وهذا التعبير رد واضح على كلّ أولئك[1] الذين يدّعون أنّ النبي إبراهيم هو أول من أسس الكعبة المشرفة، ويعتبرون بناءها على يدي آدم عليه السلام من قبيل الأساطير، في حين

---

(١) أمثال رشيد رضا مؤلف المنار.

أنّ من المسلَّم به وجود بيوت للعبادة في العالم قبل إبراهيم كان يتعبد فيها من سبقه من الأنبياء مثل نوح عليه السلام ، فكيف تكون الكعبة التي هي أول بيت وضع للعبادة في العالم قد أُسست على يدي إبراهيم عليه السلام ؟

ما المراد من (بكّة)؟

(بكة) مأخوذة أصلاً من (البك) وهو الزحم، وبكّة أي زحمة، وتباكّ الناس أي ازدحموا، وإنّما يقال للكعبة أو الأرض التي عليها تلك البنية المعظمة بكّة لازدحام الناس هناك، ولا يستبعد أنّ هذه التسمية أطلقت عليها بعد أن اتخذت صفة المعبد رسمياً لا قبل ذلك.

وفي رواية عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال: «موضع البيت بكة، والقرية مكّة»[(١)].

وقد احتمل بعض المفسّرين أيضاً أن تكون (بكة) هي (مكّة) أُبدل ميمها باء، نظير (لازب) و(لازم) اللتين تعنيان شيئاً واحداً في لغة العرب.

وقد ذكر في علة تسمية (الكعبة) وموضعها ببكة وجه آخر أيضاً هو أنّها سمّيت (بكة) لأنّها تبك أعناق الجبابرة، وتحطم غرورهم ونخوتهم، لأنّ البك هو دق العنق، فعند الكعبة تتساقط وتزول كلّ الفوارق المصطنعة، ويعود المتكبرون والمغرورون كبقية الناس، عليهم أن يخضعوا لله، ويتضرعوا إليه شأنهم شأن الآخرين، وبهذا يتحطم غرورهم[(٢)].

بحث تاريخي

توسيع المسجد الحرام

منذ العهد النبوي أخذ عدد المسلمين في الازدياد، وعلى أثر ذلك كان يتزايد عدد الحجّاج والوافدين إلى البيت الحرام، ولهذا كان المسجد الحرام يتعرض للتوسعة المستمرة على أيدي الخلفاء في العصور المختلفة، فقد جاء في تفسير العيّاشي أنّ أبا جعفر (المنصور) طلب أن يشتري من أهل مكّة بيوتهم ليزيدها في المسجد، فأبوا فأرغبهم، فامتنعوا فضاق بذلك، فأتى أبا عبد الله (الصادق) عليه السلام فقال له: إنّي سألت

---

(١) من لايحضره الفقيه، ج٢، ص ١٩٣.
(٢) أصول الكافي، ج٤، ص ٢١١.

هؤلاء شيئاً من منازلهم وأفنيتهم لنزيد في المسجد، وقد منعوني ذلك فقد غمني غماً شديداً، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيغمك ذلك وحجتك عليهم فيه ظاهرة؟ فقال: وبما أحتج عليهم؟ فقال: بكتاب الله، فقال: في أي موضع؟ فقال: قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ قد أخبرك الله أنّ أول بيت وضع للناس هو الذي ببكة، فإن كانوا هم تولوا قبل البيت فلهم أفنيتهم، وإن كان البيت قبلهم فله فناؤه، فدعاهم أبو جعفر (المنصور) فاحتج عليهم بهذا فقالوا له اصنع ما أحببت[1].

وقد جاء في ذلك التفسير أيضاً أنّ المهدي (العباسي) لما بنى في المسجد الحرام بقيت دار احتيج إليها في تربيع المسجد، فطلبها من أربابها فامتنعوا فسأل عن ذلك الفقهاء فكلّ قال له: إنّه لا ينبغي أن يدخل شيئاً في المسجد الحرام غصباً، فقال له علي ابن يقطين: يا أميرالمؤمنين لو أنّك كتبت إلى موسى بن جعفرلأخبرك بوجه الأمر في ذلك، فكتب إلى والي المدينة أن يسأل موسى بن جعفر عليه السلام عن دار أردنا أن ندخلها في المسجد الحرام فامتنع علينا صاحبها فكيف المخرج من ذلك؟ فقال ذلك لأبي الحسن عليه السلام، فقال أبو الحسن عليه السلام: ولابدّ من الجواب في هذا؟ فقال له: الأمر لا بدّ منه، فقال له: اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم إن كانت الكعبة هي النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها، وإن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها) فلما أتى الكتاب إلى المهدي أخذ الكتاب فقبله (لفرحه الشديد)، ثمّ أمر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن عليه السلام فسألوه أن يكتب لهم إلى المهدي كتاباً في ثمن دارهم فكتب إليه أن أرضخ لهم شيئاً فأرضاهم[2].

إنّ في هاتين الروايتين استدلالاً لطيفاً يتفق تماماً مع المقاييس والموازين القانونية المعمول بها أيضاً، فإنّ الاستدلال يقول: إنّ لمعبد تقصده الجماهير كالكعبة، قد بني يوم بني على أرض لا أحد فيها، الحق والأولوية في تلك الأرض بقدر حاجته وحيث إنّ الحاجة يوم أُسس لم تكن تدعو إلى أكثر من تلك المساحة التي أقيم عليها أول مرّة كان للناس أن يسكنوا في حريم الكعبة، أما الآن وقد اشتدت الحاجة إلى مساحة أوسع ممّا كانت عليه لتسع الحجيج، فإن للكعبة الحقّ في أن تستخدم أولويتها بالأرض.

---

(١) تفسير العياشي، ج١، ص ١٨٥؛ ووسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٢١٧.
(٢) المصدر السابق.

مزايا الكعبة وفضائلها

لقد ذكرت في هاتين الآيتين - مضافاً إلى الميزتين اللّتين مرّ شرحهما - أربع مزايا أُخرى هي:

١ - ﴿مُبَارَكًا﴾

(المبارك) يعني كثير الخير والبركة، وإنّما كانت الكعبة المعظمة مباركة لأنّها تعتبر بحق واحدة من أكثر نقاط الأرض بركة وخيراً، سواء الخير المادي، أو المعنوي.

وأمّا البركات المعنوية التي تتحلى بها هذه الأرض وهذه المنطقة من اجتماع الحجيج فيها، وما ينجم عن ذلك من حركة وتفاعل ووحدة، وما يصحبه من جاذبية ربانية تحيي الأنفس والقلوب وخاصة في موسم الحج فمما لا يخفى على أحد.

ولو أنّ المسلمين لم يقصروا اهتمامهم - في موسم الحج - على الجانب الصوري لهذه الفريضة بل أحيوا روحها، والتفتوا إلى فلسفتها، لاتضحت - حينذاك - البركات المعنوية، وتجلت للعيان أكثر فأكثر.

هذا من الناحية المعنوية.

وأما من الناحية المادية فإن هذه المدينة رغم أنّها أُقيمت في أرض قاحلة لا ماء فيها ولا عشب، ولا صلاحية فيها للزراعة والرعي بقيت على طول التاريخ واحدة من أكثر المدن عمراناً وحركة، وكانت دائماً من المناطق المؤهلة - خير تأهيل - للحياة، بل وللتجارة أيضاً.

٢ - ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾

أجل، إنّ الكعبة هدى للعالمين فهي تجتذب الملايين من الناس الذين يقطعون إليها البحار والوهاد، ويقصدونها من كلّ فج عميق ليجتمعوا في هذا الملتقى العبادي العظيم وهم بذلك يقيمون هذه الفريضة - فريضة الحجّ - التي لم تزل تؤدّى بجلال عظيم منذ عهد الخليل عليه السلام.

ولقد كانت هذه البنية معظمة أبداً حتى من قبل العرب الجاهليين، فهم كانوا يحجون إليها وإن مزجوا مناسك الحجّ ببعض خرافاتهم وعقائدهم الباطلة، إلّا أنّهم ظلوا أوفياء لهذه المناسك على أنّها دين إبراهيم، وقد كان لهذه المناسك والمراسم الناقصة، والخليطة أحياناً بالخرافات الجاهلية، أثرها في سلوكهم، حيث كانوا يرتدعون بسببها عن بعض المفاسد بعض الوقت، وهكذا كانت الكعبة سبباً للهداية حتى للوثنيين...

إنّ لهذا البيت من الجواذب المعنوية ما لا يستطيع أي أحد أن يقاومها ويصمد أمام تأثيرها الأخّاذ.

٣ - ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾

إنّ في هذا البيت معالم واضحة وعلائم ساطعة لعبادة الله وتوحيده، وفي تلك النقطة المباركة من الآثار المعنوية ما يبهر العيون ويأخذ بمجامع القلوب. وإن بقاء هذه الآثار والمعالم رغم كيد الكائدين وإفساد المفسدين الذين كانوا يسعون إلى إزالتها ومحوها لَمن تلك الآيات التي يتحدث عنها القرآن في هذا الكلام العلوي.

فها هي آثار جليلة من إبراهيم عليه السلام لا تزال باقية عند هذا البيت مثل: زمزم والصفا والمروة، والركن(١) والحطيم(٢)، والحجر الأسود، وحجر إسماعيل(٣) الذي يعتبر كلّ واحد منها تجسيداً حيّاً لتاريخ طويل، وذكريات عظيمة خالدة.

ولقد خصّ مقام إبراهيم بالذكر من بين كلّ هذه الآثار والآيات لأنّه المحل الذي كان قد وقف فيه الخليل عليه السلام لبناء الكعبة، أو لإتيان مناسك الحجّ، أو لإطلاق الدعوة العامّة التي وجهها إلى البشرية كافة، والأذان بهم ليحجوا هذا البيت، ويلتقوا في هذا الملتقى العبادي التوحيدي العظيم.

وعلى كلّ حال فإنّ هذا المقام لَمن أهم الآيات التي مر ذكرها، وإنّها لَمن أوضح الدلائل وأقوى البراهين على ما شهدته هذه النقطة من العالم من التضحيات والذكريات، والاجتماعات والحوادث، البالغة الأهميّة.

يبقى أن نعرف أنّ ثمّة خلافاً بين المفسّرين في أنّ المراد بمقام إبراهيم هل هو خصوص النقطة التي توجد فيها الصخرة التي لا تزال تحمل أثر قدمه الشريف، أو أنّه الحرم المكي، أو جميع المواقف التي ترتبط بمناسك الحجّ، ولكن في الرواية المنقولة عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب الكافي(٤) إشارة إلى الاحتمال الأول.

٤ - ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾

لقد طلب إبراهيم عليه السلام من ربّه بعد الانتهاء من بناء الكعبة، أن يجعل بلد مكّة آمناً إذ

(١) كل زاوية من زوايا الكعبة - الأربع تسمى ركناً.
(٢) يقع الحطيم بين الحجر الأسود وباب الكعبة المعظمة، وإنما سمي بالحطيم إما لكثرة ازدحام الناس والطائفين فيها، وهو موضع توبة آدم، وإمّا لكونه موضع غفران الذنوب، وغفرانها بمنزلة تحطيمها.
(٣) حجر إسماعيل هو محل بني فيه جدار هلالي الشكل عند الضلع الشمالي الغربي من الكعبة.
(٤) راجع كتاب فروع الكافي كتاب الحجّ باب حد موضع الطواف، ووسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٢٣٩.

قال ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[١]، فاستجاب الله له، وجعل مكّة بلداً آمناً، ففيه أمن للنفوس والأرواح، وفيه أمن للجموع البشرية التي تفد إليه وتستلهم المعنويات السامية منه، وفيه أمن من جهة القوانين الدينية، فإنّ الأمن في هذا البلد قد بلغ من الاهتمام به واحترامه أن منع فيه القتال منعاً باتاً، وأكيداً.

وقد جعلت الكعبة بالذات مأمناً وملجأ في الإسلام لا يجوز التعرض لمن لجأ إليها أبداً، وهو أمر يشمل الحيوانات أيضاً إذ يجب أن تكون في أمان من الأذى والمزاحمة إذا هي التجأت إلى هذه النقطة من الأرض.

فإذا التجأ إنسان إلى الكعبة لم يجز التعرض له حتى لو كان قاتلاً جانياً، بيد أنّه حتى لا تستغل حرمة هذا البيت وقدسيّته الخاصّة، وحتى لا تضيع حقوق المظلومين سمح الإسلام بالتضييق في المطعم والمشرب على الجناة أو القتلة اللّاجئين إليه ليضطروا إلى مغادرته ثمّ ينالوا جزاءهم العادل.

وبعد أن استعرض القرآن الكريم فضائل هذا البيت وعدد مزاياه، أمر الناس بأن يحجّوا إليه - دون استثناء - وعبر عن ذلك بلفظ مشعر بأنّ مثل هذا الحجّ هو في الحقيقة دين لله على الناس، فيتوجب عليهم أن يؤدّوه ويفرغوا ذممهم منه إذ قال ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾.

وتعني لفظة (الحجّ) أصلاً القصد، ولهذا سمّيت الجادة بالمحجة (على وزن مودة) لأنّها توصل سالكها إلى المقصد، كما أن لهذا السبب نفسه سمي الدليل بـ(الحجة) لأنّه يوضح المقصود.

أمّا وجه تسمية هذه الزيارة وهذه المناسك الخاصة بالحجّ فلأن قاصد الحجّ إنّما يخرج وهو يقصد زيارة بيت الله ولهذا أضيفت لفظة الحجّ إلى البيت فقال تعالى ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾.

ثم إننا قد أشرنا سابقاً إلى أن مراسم الحج هذه قد سنّت وأُسست منذ عهد إبراهيم عليه السلام ثمّ استمرت حتى العهد الجاهلي حيث كان العرب الجاهليون يمارسونها ويؤدّونها، ولكنها شرعت في الإسلام في صورة أكمل، وكيفية خالية عن الخرافات التي لصقت بها من العهد الجاهلي[٢] ولكن المستفاد من الخطبة القاصعة في نهج البلاغة

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

(٢) يستفاد من بعض الروايات أن تشريع هذه الفريضة في الإسلام كان في السنة العاشرة من الهجرة وأنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر جماعة - في تلك السنة - أن يؤذنوا في الناس بالحجّ، ويهيئوا الناس لأداء هذه الفريضة، وإن كان النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وجماعة من صحبه قد سبق لهم أن أتوا بالعمرة قبل ذلك أيضاً(وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٢٣٥، ح ١٤٦٧٥).

وبعض الأحاديث والروايات أنّ فريضة الحج شرعت أول مرّة في زمن آدم عليه السلام إلّا أنّ اتخاذها الصفة الرسمية يرتبط - في الأغلب - بزمن الخليل عليه السلام .

إنّ الحجّ يجب على كلّ إنسان مستطيع، في العمر مرّة واحدة، ولا يستفاد من الآية المبحوثة هنا أكثر من ذلك، لأنّ الحكم فيها مطلق، وهو يحصل بالامتثال مرّة واحدة.

إنّ الشرط الوحيد الذي ذكرته الآية الحاضرة لوجوب الحجّ واستقراره هو (الاستطاعة) المعبر عنها بقوله سبحانه: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ .

نعم، قد فسرت الاستطاعة في الأحاديث الإسلامية والكتب الفقهية بـ (الزاد والراحلة - أي الإمكانية المالية لنفقات سفر الحجّ ذهاباً وإياباً - والقدرة الجسدية والتمكن من الإنفاق على نفسه وعائلته بعد العودة من الحجّ)[1] والحقّ أنّ جميع هذه الأُمور موجودة في الآية، إذ لفظة (استطاع) التي تعني القدرة والإمكانية تشمل كلّ هذه المعاني والجهات.

ثمّ إنّه يستفاد من هذه الآية أنّ هذا القانون - مثل بقية القوانين الإسلامية - لايختصّ بالمسلمين، فعلى الجميع أن يقوموا بفريضة الحجّ مسلمين وغير مسلمين، وتؤيد ذلك القاعدة المعروفة: (الكفّار مكلفون بالفروع كما أنهم مكلفون بالأُصول)[2] . وإن كانت صحّة هذه المناسك وأمثالها من العبادات مشروطة بقبولهم للإسلام واعتناقهم إيّاه، ثمّ أدائها بعد ذلك، ولكن لا بدّ أن يعلم بأنّ عدم قبولهم للإسلام لا يسقط عنهم التكليف، ولا يحررهم من هذه المسؤولية.

وما قلناه في هذه الآية في هذا المجال جارٍ في أمثالها أيضاً.

هذا وقد بحثنا بإسهاب حول أهميّة الحجّ وفلسفته وآثاره الفردية والاجتماعية عند الحديث عن الآيات ١٩٦ إلى ٢٠٣ من سورة البقرة.

أهميّة الحجّ

وللتأكيد على أهميّة الحجّ قال سبحانه في ذيل الآية الحاضرة ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أنّ الذين يتجاهلون هذا النداء، ويتنكرون لهذه الفريضة، ويخالفونها لا يضرون بذلك إلّا أنفسهم لأن الله غني عن العالمين، فلا يصيبه شيء بسبب إعراضهم ونكرانهم وتركهم لهذه الفريضة.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص٧ و ٢٣.

(٢) مختلف الشيعة، للعلامة الحليّ، ج ٣، ص ٢٥١.

إنّ لفظة (كفر) تعني في الأصل الستر والإخفاء وأمّا في المصطلح الديني فتعطي معنى أوسع، فهي تعني كلّ مخالفة للحقّ وكل جحد وعصيان سواء في الأُصول والاعتقاد، أو في الفروع والعمل، فلا تدلّ كثرة استعمالها في الجحود الاعتقادي على انحصار معناه في ذلك، ولهذا استعملت في (ترك الحجّ).

ولذلك فسّر الكفر في هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام بترك الحجّ[1].

وبعبارة أُخرى إن للكفر والابتعاد عن الحق - تماماً مثل الإيمان والتقرب إلى الحقّ - مراحل ودرجات، ولكلّ واحدة من هذه المراحل والدرجات أحكام خاصة بها، وفي ضوء هذه الحقيقة يتضح الحال بالنسبة لجميع الموارد التي استعملت فيها لفظة الكفر والإيمان في الكتاب العزيز.

فإذا وجدنا القرآن يستعمل وصف الكفر في شأن آكل الربا (كما في الآية ٢٧٥ من سورة البقرة) وكذا في شأن السحرة (كما في الآية ١٠٢ من نفس السورة) ويعبر عنهما بالكافر، كان المراد هو ما ذكرناه، أي إنّ الربا والسحر ابتعاد عن الحقّ في مرحلة العمل.

وعلى كلّ حال فإنه يستفاد من هذه الآية أمران:

الأوّل: الأهمّية الفائقة لفريضة الحجّ، إلى درجة أن القرآن عبر عن تركها بالكفر، ويؤيد ذلك ما رواه الصدوق في كتاب (من لا يحضره الفقيه) من أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام:

«يا علي إنّ تارك الحجّ وهو مستطيع كافر يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾؛ يا عليّ من سوّف الحجّ حتى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً، أو نصرانياً»[2].

الثاني: إنّ هذه الفريضة الإلهية المهمّة - مثل بقية الفرائض والأحكام الدينية الأُخرى - شرعت لصلاح الناس، وفرضت لغرض تربيتهم، وإصلاح أمرهم وبالهم أنفسهم، فلا يعود شيء منها إلى الله سبحانه أبداً، فهو الغني عنهم جميعاً.

---

(١) التهذيب ج ٥، ص ١٨ بناء على نقل تفسير الصافي، ج ١، ص ٣٦٢ في ذيل هذه الآية.

(٢) من لايحضره الفقيه: ج ٤، ص ٣٦٨ باب النوادر.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾
قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ
شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

سبب النّزول

يستفاد من مؤلفات الشيعة والسنّة وما ذكروه في سبب نزول هذه الآية أنّ شأس بن قيس وكان شيخاً من اليهود قد أسنّ، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، مرّ ذات يوم على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم - إذا اجتمع ملؤهم بها - من قرار، فأمر شاباً من اليهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثمّ اذكر يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار(١).

وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان يرأس الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي أبو أسيد بن حضير، ويرأس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعاً.

ففعل ذلك الشاب ما أراده شأس فتكلّم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين، وتقاولا، وراح أحدهما يهدد الآخر، وكادت نيران الاقتتال تتأجج بينهم من جديد. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، وقال: «يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية،

---

(١) يحسن الرجوع حول «يوم بعاث» إلى الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٤٤٣.

واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم»؟ فعرف القوم أنّها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثمّ انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس، فأنزل الله تعالى هذه الآيات الأربع، الأوليان في شأس بن قيس وما صنع. والأخريان لإنذار المسلمين وتحذيرهم[1].

التّفسير

مفرقو الصفوف ومثيرو الخلاف

بعد أن فعل بعض العناصر اليهودية الحاقدة فعلته وكادت أن تشعل نيران العداوة بين المسلمين نزل - كما عرفت في سبب النزول - قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ والمخاطب في هذه الآية هم أهل الكتاب ويقصد منهم هنا اليهود، فالله سبحانه يأمر نبيّه في هذه الآية أن يسألهم معاتباً عن علّة كفرهم بآيات الله في حين أنّ الله يعلم بأعمالهم.

والمراد من آيات الله المذكورة في هذا المقام إمّا الآيات الواردة في التوراة حول الرسول الأكرم ﷺ وعلائم نبوّته، أو مجموعة الآيات والمعجزات التي نزلت على نبيّ الإسلام، وتحققت على يديه، وكشفت عن حقانيته، وصدق دعوته، وصحّة نبوته.

ثمّ جاءت الآية الثانية تلومهم قائلة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي قل يا رسول الله لهم لائماً ومنددا: إذا كنتم غير مستعدين للقبول بالحقّ، فلماذا تصرون على صرف الآخرين عنه، وصدهم عن سبيل الله، وإظهار هذا الطريق المستقيم في صورة السبيل الأعوج بما تدخلون من الشبه على الناس؟ في حين ينبغي - بل يتعين - أن تكونوا أول جماعة تبادر إلى تلبية هذا النداء الإلهي، لما وجدتموه من البشائر بظهور هذا النّبي في كتبكم وتشهدون عليه.

فإذا كان الأمر كذلك فلِمَ هذه الوساوس والمحاولات لإلقاء الفرقة وإضلال الناس، وإزاحتهم عن سمت الحقّ، وصدهم عن السبيل الإلهي القويم؟ ولم تحملون أثقالاً إلى أثقالكم، وتتحملون إلى إثم الضلال جريمة الإضلال؟، لماذا؟

---

(١) تفسير روح المعاني، ج ٤، ص ١٤، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج ٧١، ص ٢٤٦.

هل تتصورون أنّ كلّ ما تفعلونه سيخفى علينا؟ كلّا . . . ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ إنّه تهديد بعد تنديد، وإنّه إنذار بعد لوم شديد.

ولعلّ وصفه سبحانه بعدم الغفلة في هذا المقام لأجل أنّ اليهود كانوا - لإنجاح محاولاتهم - يتكتمون ويتسترون، ويعمدون إلى حبك المؤامرات في الخفاء، لينجحوا في التأثير على المغفلين والبسطاء بنحو أفضل، وليجنوا المزيد من الثمار، ولهذا قال لهم سبحانه إذا كان بعض الناس ينخدعون بوساوسكم ومؤامراتكم لغفلتهم فإنّ الله يعلم بأسراركم، وخفايا أعمالكم، وما هو بغافل عمّا تعملون، فعلمه محيط بكم، وعقابه الأليم ينتظركم.

وبعد أن ينتهي هذا التقريع والتنديد، والإنذار والتهديد لمشعلي الفتن، الصادّين عن سبيل الله القويم، المستفيدين من غفلة بعض المسلمين يتوجه سبحانه بالخطاب إلى هؤلاء المخدوعين من المسلمين، يحذرهم من مغبة الانخداع بوساوس الأعداء، والوقوع تحت تأثيرهم، والسماح لعناصرهم بالتسلل إلى جماعتهم، وترتيب الأثر على تحريكاتهم وتسويلاتهم، وأنّ نتيجة كلّ ذلك هو الابتعاد عن الإيمان، والوقوع في أحضان الكفر، إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾.

أجل إنّ نتيجة الانصياع لمقاصد هؤلاء الأعداء هو الرجوع إلى الكفر لأنّ العدو يسعى في المرحلة الأُولى إلى أن يشعل بينكم نيران العداوة والاقتتال، ولكنه لن يكتفي بهذا القدر منكم، بل سيستمر في وساوسه الخبيثة حتى يخرجكم عن الإسلام مرّة واحدة، ويعيدكم إلى الكفر تارة أُخرى.

من هذا البيان اتضح أنّ المراد من الرجوع إلى الكفر - في الآية - هو (الكفر الحقيقي، والانفصال الكامل عن الإسلام) كما ويمكن أن يكون المراد من ذلك هو تلك العداوات الجاهلية التي تعتبر - في حدّ ذاتها - شعبة من شعب الكفر، وعلامة من علائمه، وأثراً من آثاره، لأنّ الإيمان لا يصدر منه إلّا المحبّة والمودة والتآلف، وأمّا الكفر فلا يصدر منه إلّا التقاتل والعداوة والتنافر.

ثـمّ يتسـاءل - فـي عـجب واسـتغـراب - ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥ﴾ أي كيف يمكن أن تسلكوا سبيل الكفر، وترجعوا كفّاراً والنّبي ﷺ بين ظهرانيكم، وآيات الله البينات تقرأ على أسماعكم، وتشع أنوار الوحي على قلوبكم وتهطل عليكم أمطاره المثيرة للحياة؟

إنّ هذه العبارة ما هي - في الحقيقة - إلّا الإشارة إلى أنّه لا عجب إذا ضل الآخرون

وانحرفوا، ولكن العجب ممّن يلازمون الرسول ويرونه فيما بينهم، ولهم مع عالم الوحي اتصال دائم... ومع آياته صحبة دائمة، إنّ العجب إنّما هو - في الحقيقة - من هؤلاء كيف يضلون وكيف ينحرفون؟

إنّه حقّاً يدعو إلى الدهشة والاستغراب ويبعث على العجب أن يضل مثل هؤلاء الذين يعيشون في بحبوحة النور، ولاشك أنّهم أنفسهم يتحملون إثم هذا الضلال إن ضلوا - لأنّهم لم يضلوا إلّا عن بيّنة، ولم ينحرفوا إلّا بعد بصيرة... ولا شكّ أنّ عذابهم سيكون شديداً جدّاً لذلك.

ثمّ في ختام هذه الآيات يوصي القرآن الكريم المسلمين - إن أرادوا الخلاص من وساوس الأعداء، وأرادوا الاهتداء إلى الصراط المستقيم - أن يعتصموا بالله ويلوذوا بلطفه ويتمسكوا بهداياته وآياته، ويقول لهم بصراحة تامة ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هذا ومن النقاط المهمّة التي تلفت النظر في هذه الآيات أنّ الخطاب الإلهي في الآيتين الأوليين من هذه الآيات موجّه إلى اليهود بالواسطة، لأنّ الله سبحانه يأمر نبيّه الكريم أن يبلغ هذه المواضيع لليهود عن لسانه فيقول تعالى له (قل) ولكنه عندما يوجه الخطاب إلى المسلمين في الآيتين الأُخريين يخاطبهم بصورة مباشرة ودون واسطة فلا يشرع خطابه لهم بلفظه (قل) وهذا يكشف عن منتهى عناية الله ولطفه بالمؤمنين، وأنّهم - دون غيرهم - لائقون بأن يخاطبهم الله مباشرة، وأن يوجه إليهم الكلام دون أن يوسط بينه وبينهم أحداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

سبب النّزول

كانت بين الأوس والخزرج القبيلتين الكبيرتين القاطنتين في يثرب حروب طويلة دامية ومنازعات استمرت ما يقرب من مئة عام، وكانت المعارك والمناوشات تنشب بينهم بين فترة وأُخرى وتكلف الجانبين خسائر جسيمة في الأموال والأرواح.

كلّ ذلك كان أيّام الجاهلية قبل بزوغ الإسلام وطلوع شمسه على تلك الربوع.

وقد كان ممّا وفق له الرسول ونجح فيه أكبر نجاح - بعد هجرته إلى المدينة (يثرب) - تمكنه من وضع حد لتلك المعارك والمناوشات وتلك المذابح والمجازر، وإقرار الإخاء مكان العداء وإحلال السلام محل الحروب، وتشكيل جبهة متحدة متراصة الصفوف، قوية البنيان والأركان في المدينة المنورة.

ولكن حيث إنّ جذور النزاع كانت قوية وعديدة جدّاً، كان ذلك الاتحاد يتعرض أحياناً لبعض الهزات بسبب بعض الاختلافات المنسية التي كانت تطفو على السطح أحياناً فتشتعل نيران النزاع بعد غياب، ولكن سرعان ما كانت تختفي مرّة أُخرى بفضل تعليمات النّبي العظيم ﷺ وحكمته، وتدبيره.

وقد لاحظنا في الآيات السابقة نموذجاً من تلك الاختلافات المتجددة التي كانت تبرز على أثر التحريكات التي كان يقوم بها الأعداء الأذكياء، ولكن هذه الآيات تشير إلى نوع آخر من الاختلافات التي كان يسببها الأصدقاء الجاهلون، والعصبيات العمياء والحمقاء.

يقال: افتخر رجلان من الأوس والخزرج هما ثعلبة بن غنم وأسعد بن زرارة فقال ثعلبة: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة ومنّا عاصم بن ثابت بن أفلح حميّ الدبر، ومنّا سعد بن معاذ الذي رضي الله بحكمه في بني قريظة، وقال أسعد منّا أربعة أحكموا القرآن: أُبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم. فجرى الحديث بينهما فغضبا وتفاخرا ونادیا فجاء الأوس إلى الأوسي، والخزرج إلى الخزرجي ومعهم السلاح، فبلغ ذلك النّبي ﷺ فركب حماراً وأتاهم، فأنزل الله هذه الآيات فقرأها عليهم فاصطلحوا[١].

التّفسير

الدعوة إلى التقوى

في الآية الأُولى من هاتين الآيتين دعوة إلى التقوى لتكون التقوى مقدمة للاتحاد والتآخي.

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الانوار، ج ١٨، ص ١٥٥ و ١٥٦.

وفي الحقيقة أن الدعوة إلى الاتحاد دون أن تستعين هذه الدعوة وتنبع من الجذور الخلقية والاعتقادية، دعوة قليلة الأثر، إن لم تكن عديمة الأثر بالمرّة، ولهذا يركز الاهتمام في هذه الآية على معالجة جذور الاختلاف، وإضعاف العوامل المسببة للتنازع في ضوء الإيمان والتقوى، ولهذا توجه القرآن بالخطاب إلى المؤمنين فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

يبقى أن نعرف أنّه قد وقع كلام كثير بين المفسّرين حول المراد من قوله تعالى (حق تقاته) ولكن ممّا لا شكّ فيه أن (حق التقوى) يعد من أسمى درجات التقوى وأفضلها لأنّه يشمل اجتناب كلّ إثم ومعصية، وكلّ تجاوز وعدوان، وانحراف عن الحقّ.

ولذا نقل عن الرسول الأكرم ﷺ كما في تفسير الدرّ المنثور، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام كما في تفسير العيّاشي ومعاني الأخبار - في تفسير قوله: (حق تقاته) أنّهما قالا: «أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى (ويشكر فلا يكفر)»(١).

ومن البديهي أنّ القيام بهذا الأمر كغيره من الأوامر الإلهيّة، يرتبط بمدى قدرة الإنسان واستطاعته ولهذا لا تنافي بين هذه الآية التي تطلب حقّ التقوى وأسمى درجاته والآية ١٦ من سورة التغابن التي تقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فالكلام حول المنافاة بين الآيتين وادعاء نسخ إحداهما بالأخرى ممّا لا أساس له مطلقاً، ولا داعي له أبداً.

على أنّه ليس من شكّ في أنّ الآية الثانية تعتبر تخصيصاً - في الحقيقة - لمفاد الآية الأُولى وتقييداً بالاستطاعة والقدرة، وحيث إنّ لفظة النسخ كانت - عند القدماء - تطلق على التخصيص، لذلك من الممكن أن يكون المراد من قول القائل بأنّ الآية الثانية ناسخة للأُولى هو كونها مخصصة للأُولى لا غير.

ثمّ إنّه بعد أن أوصى جميع المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى انتهت الآية بما يعتبر تحذيراً - في حقيقته - للأوس والخزرج وغيرهم من المسلمين في العالم، تحذيراً مفاده أنّ مجرد اعتناق الإسلام والانضمام إلى هذا الدين لا يكفي، إنّما المهم أن يحافظ المرء على إسلامه وإيمانه واعتقاده إلى اللحظة الأخيرة من عمره وحياته، فلا يبدد هذا الإيمان بإشعال الفتن وإثارة نيران البغضاء أو بالانسياق وراء العصبيات الجاهلية الحمقاء، والضغائن المندثرة فتكون عاقبته الخسران، وضياع كلّ شيء ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٨٥؛ وبحار الانوار، ج ٦٧، ص ٢٩١.

الدعوة إلى الإتحاد

بعد أن أوصت الآية السابقة كلّ المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى ومهدت بذلك النفوس وهيّأتها، جاءت الآية الثانية تدعوهم بصراحة إلى مسألة الاتحاد، والوقوف في وجه كلّ ممارسات التجزئة وإيجاد الفرقة، فقال سبحانه في هذه الآية ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾.

ولكن ما المقصود من (حبل الله) في هذه الآية؟ فقد ذهب المفسّرون فيه إلى احتمالات مختلفة، فمنهم من قال بأنّه القرآن، ومنهم من قال بأنّه الإسلام، ومنهم من قال بأنّهم الأئمّة المعصومون من آل الرسول وأهل بيته المطهرون.

وقد وردت كلّ هذه المعاني في روايات منقولة عن النّبي ﷺ والأئمّة من أهل بيته عليهم السلام.

ففي تفسير (الدرّ المنثور) عن النّبي الأكرم ﷺ وفي كتاب (معاني الأخبار) عن الإمام السجّاد أنّهما قالا: «كتاب الله حبل ممدود من السماء»(١).

وروى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «آل محمّد عليهم السلام هم حبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به فقال: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»(٢).

ولكنه ليس هناك - في الحقيقة - أي اختلاف وتضارب بين تلك الأقوال والأحاديث لأنّ المراد من الحبل الإلهي هو كلّ وسيلة للارتباط بالله تعالى سواء كانت هذه الوسيلة هي الإسلام، أو القرآن الكريم، أو النّبي وأهل بيته الطاهرين.

وبعبارة أُخرى فإن كلّ ما قيل يدخل بأجمعه في مفهوم ما يحقق (الارتباط بالله) سبحانه - الواسع - والذي يستفاد من معنى حبل الله.

التعبير بـ(حبل الله) لماذا؟

إنّ النقطة الجديرة بالاهتمام في هذه الآية هو التعبير عن هذه الأُمور بحبل الله، فهو إشارة إلى حقيقة لطيفة وهامة، وهي أنّ الإنسان سيبقى في حضيض الجهل، والغفلة، وفي قاع الغرائز الجامحة إذا لم تتوفر له شروط الهداية، ولم يتهيأ له الهادي والمربي الصالح فلابدّ للخروج من هذا القاع، والارتفاع من هذا الحضيض من حبل متين يتمسك به ليخرجه من بئر المادية والجهل والغفلة، وينقذه من أسر الطبيعة، وهذا الحبل

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٦٠؛ وعيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٣٠.
(٢) تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠٢ و ١٩٤.

ليس إلّا حبل الله المتين، وهو الارتباط بالله عن طريق الأخذ بتعاليم القرآن الكريم والقادة الهداة الحقيقيين، التي ترتفع بالناس من الحضيض إلى أعلى الذرى في سماء التكامل المادي والمعنوي.

أعداء الأمس وإخوان اليوم

ثمّ إنّ القرآن بعد كلّ هذا يعطي مثالاً حيّاً من واقع الأمة الإسلامية لأثر الارتباط بالله وهو يذكّر - في نفس الوقت - بنعمة الاتحاد والأخوّة - تلك النعمة الكبرى - ويدعو المسلمين إلى مراجعة الماضي المؤسف، ومقارنة ذلك الاختلاف والتمزق بهذه الوحدة القوية الصلبة ويقول: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

والملفت للنظر هو تكرار كلمة (نعمة) في هذه الآية مرّتين وهو إشعار بأهميّة الوحدة هذه الموهبة الإلهيّة التي لا تتحقّق إلّا في ظل التعاليم الإسلامية والاعتصام بحبل الله.

والنقطة الأُخرى الجديرة بالاهتمام أيضاً هي أنّ الله نسب تأليف قلوب المؤمنين إلى نفسه فقال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أي إنّ الله ألف بين قلوبكم، وبهذا التعبير يشير القرآن الكريم إلى معجزة اجتماعية عظيمة للإسلام، لأنّنا لو لاحظنا ما كان عليه العرب والمجتمع الجاهلي من عداوات واختلافات وما كان يكمن في القلوب من أحقاد طويلة عميقة وما تراكم فيها من ضغائن مستحكمة، وكيف أن أقل شرارة صغيرة أو مسألة جزئية كانت تكفي لتفجير الحروب، واندلاع القتال في ذلك المجتمع المشحون بالأحقاد، وخاصة بالنظر إلى تفشي الأمية والجهل الملازم عادة للإصابة باللجاج والعناد والعصبية، فإنّ أفراداً من هذا النوع من الصعب أن يتناسوا أبسط أُمورهم فكيف بالأحداث الدامية الكبرى؟ ومن هنا تتجلى أهمية المعجزة الاجتماعية التي حققها الإسلام حيث وحد الصفوف، وألف بين القلوب، وأنسى الأحقاد، تلك المعجزة التي أثبتت أن تحقيق مثل هذه الوحدة وتأليف تلك القلوب المتنافرة المتباغضة، وإيجاد أُمة واحدة متآخية من ذلك الشعب الممزق الجاهل ما كان ليتيسر في سنوات قليلة بالطرق والوسائل العادية.

اعتراف العلماء والمؤرّخين

وقد برزت أهميّة هذا الموضوع (أي وحدة القبائل العربية المتباغضة بفضل الإسلام) إلى درجة أنّها لم تخف على العلماء والمؤرخين، حتى غير المسلمين منهم، فقد اتفق الجميع على الإعجاب بهذه المسألة، وإظهارها في كتاباتهم، وها نحن نذكر نماذج من ذلك:

يقول (جان ديون پورث) العالم الإنجليزي المشهور: (لقد حول محمّد العربي البسيط، القبائل المتفرقة والجائعة، الفقيرة في بلدة إلى مجتمع متماسك منظم، امتازت - فيما بعد - بين جميع شعوب الأرض بصفات وأخلاق عظيمة وجديدة، واستطاع في أقل من ثلاثين عاماً وبهذا الطريق أن يتغلب على الامبراطورية الرومانية، ويقضي على ملوك إيران، ويستولي على سوريا وبلاد ما بين النهرين، وتمتد فتوحاته إلى المحيط الأطلسي وشواطىء بحر الخزر وحتى نهر سيحان (في جنوب شرقي آسيا الوسطى)[(١)].

ويقول توماس كارليل: (لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيى به منها أُمة خاملة لا يسمع لها صوت ولا يحس فيها حركة حتى صار الخمول شهرة، والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوّة، والشرارة حريقاً، وشمل نوره الأنحاء، وعم ضوؤه الأرجاء وما هو إلّا قرن بعد إعلان هذا الدين حتى أصبح له قدم في الهند، وأُخرى في الأندلس، وعم نوره ونبله وهداه نصف المعمورة)[(٢)].

ويقول الدكتور (غوستاف لوبون) معترفاً بهذه الحقيقة: (. . . وإلى زمان وقوع هذه الحادثة المدهشة (يعني الإسلام) الذي أبرز العربي فجأة في لباس الفاتحين، وصانعي الفكر والثقافة لم يكن يعدّ أنّ جزء من أرض الحجاز جزءاً من التاريخ الحضاري ولا كان يتراءى فيها للناظر أي شيء أو علامة للعلم والمعرفة، أو الدين)[(٣)].

ويكتب (نهرو) العالم والسياسي الهندي الراحل في هذا الصدد قائلاً:

(إنّ قصة إنتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم أُعجوبة من أعجوبات التاريخ، ولقد كان محمّد واثقاً بنفسه ورسالته، وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأُمته أسباب القوّة والعزّة والمنعة)[(٤)].

لقد كان وضع العرب سيئاً إلى أبعد الحدود حتى إنّ القرآن يصف تلك الحالة بأنّهم كانوا على حافة الانهيار والسقوط إذ يقول: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

وتعني (شفا) في اللغة حافة الهاوية وطرف الحفرة أو الخندق وما شابه ذلك، ومن

---

(١) من كتاب عذر تقصير به پيشگاه محمّد وقرآن (بالفارسية) ص ٧٧.

(٢) الإسلام والعلم الحديث ص ٣٣، والمخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للصواف ص٣٨.

(٣) حضارة العرب لغوستاف لوبون.

(٤) لمحات من تاريخ العالم ج ١، ص ٣١٧.

ذلك (الشفة)، كما وتستعمل لفظة (شفا) هذه في البُرء من المرض، لأنّ الإنسان بسببه يكون على حافة السلامة والعافية.

ويريد سبحانه من قوله هذا: إنّكم كنتم على حافة السقوط والانهيار في الهاوية، وإنّ سقوطكم كان محتملاً في كلّ آن ومتوقعاً في كلّ لحظة، لتصبحوا بعد السقوط رماداً، وخبراً بعد أثر، ولكن الله نجاكم من ذلك السقوط المرتقب، وأبدلكم بعد الخوف أمناً، وبدل الانهيار اعتلاء ومجداً، وهداكم إلى حيث الأمن والأمان في رحاب الأُخوّة والمحبة.

والنار في هذه الآية: هل هي نار الجحيم، أو نيران هذه الدنيا؟ فيها خلاف بين المفسّرين، ولكن النظر في مجموع الآية يهدي إلى أنّ النار كناية عن نيران الحروب والمنازعات التي كانت تتأجج كلّ لحظة بين العرب في العهد الجاهلي بحجج واهية، ولأسباب طفيفة.

إنّ القرآن يصور بهذه العبارة الوضع الجاهلي المتأزم ويصور أخطار الحروب المدمرة التي كانت تتهدد حياة الناس في كلّ لحظة بالفناء والدمار والانهيار، وما منَّ به الله سبحانه عليهم من النجاة والخلاص من ذلك الوضع في ظل الإسلام وبفضل تعاليمه، والذي بسببه تخلّص المسلمون أيضاً من نار جهنم، وعذابه الأليم.

ولمزيد من التأكيد على ضرورة الاعتصام بحبل الله مع الاعتبار بالماضي والحاضر، يختم سبحانه الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

إذن فالهدف الأساسي هو خلاصكم ونجاتكم وهدايتكم إلى سبل الأمن والسلام، وحيث إنّ في ذلك مصلحتكم فإنّ عليكم أن تعيروا ما بيّناه لكم مزيداً من الاهتمام، ومزيداً من العناية.

دور الاتحاد في بقاء الأُمم

رغم كلّ ما قيل عن أهميّة الاتحاد وآثاره العظيمة في التقدّم الاجتماعي عند الشعوب والأُمم فإن من الممكن القول والادّعاء بأن الآثار الواقعية لهذه المسألة لا تزال مجهولة، وغير معروفة كما ينبغي.

إنّ العالم يشهد اليوم سدوداً كثيرة وكبيرة أُقيمت في مختلف المناطق، وقد أصبحت منشأً لإنتاج أضخم القوى الصناعية، فقد استطاعت هذه السدود بفضل ما أنتجت من طاقات وحفظت من مياه كانت تذهب قبل ذلك هدراً، أن تغطي مساحات كبيرة شاسعة بالري والإضاءة.

فلو أنّنا فكرنا قليلاً لوجدنا أنّ هذه القوّة العظيمة لم تنشأ إلّا من تجمع القوى الصغيرة، الجزئية - أي تجمع قطرات المطر، وحبات الغيث الحقيرة - ومن هنا ندرك أهميّة اجتماع القوى البشرية وتلاحم الطاقات الإنسانية، وتجمعها، وما يرافقها من جهود جماعية.

ولقد عبرت النصوص والأحاديث المأثورة عن النّبي الكريم وأهل بيته الطاهرين - عليهم صلوات الله أجمعين - عن أهمّية الاتحاد والاجتماع بعبارات متنوعة مختلفة.

فتارة يقول النّبي الأكرم ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه(١).

وأُخرى يقول ﷺ: «المؤمنون كالنفس الواحدة»(٢).

وثالثة يقول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى»(٣).

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

التّفسير

الدعوة إلى الحقّ ومكافحة الفساد

بعد الآيات السابقة التي حثّت على الأخوّة والاتحاد جاءت الإشارة - في الآية الأُولى من الآيتين الحاضرتين - إلى مسألة (الأمر بالمعروف) و(النهي عن المنكر) اللتين هما - في الحقيقة - بمثابة غطاء وقائي اجتماعي لحماية الجماعة وصيانتها، إذ تقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(١) تفسير أبي الفتوح الرازي ج ٢، ص ٤٥٠ نقلاً عن البخاري كتاب المظالم باب ٥. تفسير روح الجنان، ج ٤، ص ٤٧٦؛ وبحار الأنوار، ج ٥٨، ص ١٥٠.

(٢) تفسير أبي الفتوح الرازي ج ٢، ص ٤٥٠ نقلاً عن البخاري كتاب المظالم باب ٥. تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٠٧؛ ذيل الآية ١١من سورة النور؛ وتفسير روح الجنان، ج ٤، ٤٧٧.

(٣) المصدر السابق. تفسير روح الجنان، ج ٢، ٤٥٠؛ ومستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٤٢٤.

لأنّ فقدان (الأمر بالمعروف) و(النهي عن المنكر) يفسح المجال للعوامل المعادية للوحدة الاجتماعية بأن تنخرها من الداخل، وتأتي على كلّ جذورها كما تفعل الأرضة، وأن تمزق وحدة الأُمة وتفرق جمعها، ولهذا فلا بدّ من مراقبة مستمرة ورعاية دائمة لهذه الوحدة، ولا يتم ذلك إلّا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وهذه الآية تتضمن دستوراً أكيداً للأُمة الإسلامية بأن تقوم بهاتين الفريضتين دائماً، وأن تكون أُمة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر أبداً لأنّ فلاحها رهن بذلك: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

يبقى أن نعرف أنّ (الأُمة) مأخوذة لغة من (الأُم) وهو كلّ ما انضم إليه الأشياء الأُخرى، أو كلّ شيء ضم إليه سائر ما يليه، والأُمة كلّ جماعة يجمعهم أمر جامع إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد لهذا لا تطلق لفظة الأُمة على الأفراد المتفرقين، والأشخاص الذين لا يربطهم رباط واحد.

سؤال:

وهنا يطرح سؤال وهو: إنّ الظاهر من جملة ﴿مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ هو جماعة من المسلمين لا كافة المسلمين، وبهذا لا يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً عامّاً، بل وظيفة دينية تختص بفريق من المسلمين، وإن كان انتخاب هذا الفريق الخاصّ من مسؤولية المسلمين جميعاً.

وبعبارة أُخرى إن جملة ﴿مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ ظاهرة في أنّ هذين الأمرين، واجبان كفائيان لا عينيان.

في حين أنّ آيات أُخرى تفيد بأنّهما عامان غير خاصين بجماعة دون أُخرى، كما في آية لاحقة وهي قوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

أو ما جاء في سورة (العصر):

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ فإن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواصي بالحقّ، والتواصي بالصبر في هذه الآيات وما شابهها عامّة غير خاصّة.

الجواب:

إنّ الإمعان في مجموعة هذه الآيات يوضح لنا الجواب، فإنه يستفاد منها أنّ (الأمر بالمعروف) و(النهي عن المنكر) مرحلتان: (المرحلة الفردية) التي يجب على كلّ واحد

القيام بها بمفرده، إذ يجب عليه أن يراقب تصرفات الآخرين، و(المرحلة الجماعية) وهي التي تعتبر من مسؤولية الأُمة بما هي أُمة، حيث يجب عليها أن تقوم بمعالجة كلّ الاعوجاجات والانحرافات الاجتماعية، وتضع حدّاً لها، بالتعاون بين أفرادها وأعضائها كافة.

ويعتبر القسم الأول من وظيفة الأفراد، فرداً فرداً، وحيث إنّ إمكانات الفرد وقدراته محدودة، ولذلك فإنّ إطار هذا القسم يتحدد بمقدار هذه الإمكانات.

وأمّا القسم الثاني فإنه يعتبر واجباً كفائياً، وحيث إنّه من واجب الأُمة بما هي أُمة فإن حدوده تتسع ولهذا يكون من واجبات الحكومة الإسلامية، وشؤونها بطبيعة الحال.

إنّ وجود هذين النوعين من مكافحة الفساد، والدعوة إلى الحقّ يعتبران - بحقّ - من أهم التعاليم التي تتوج القوانين الإسلامية، كما ويكشف عن سياسة تقسيم الواجبات والوظائف وتوزيع الأدوار في الدولة الإسلامية، وعن لزوم تأسيس (فريق المراقبة) للنظارة على الأوضاع الاجتماعية والمؤسسات المختلفة في النظام الإسلامي.

وقد جرت العادة فيما سبق بوجود أجهزة خاصّة تقوم بمهمّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المستوى الاجتماعي في البلاد الإسلامية، وقد كانت تسمى هذه الأجهزة تارة باسم (دائرة الحسبة) ويسمى موظفوها بالمحتسبين، وتارة باسم الآمرين بالمعروف، وقد كانت هذه الأجهزة بسبب موظفيها تقوم بمكافحة كلّ فساد في المجتمع، أو كل فساد وظلم في أجهزة الدولة، إلى جانب ما تقوم به من تشجيع الناس على الخير والحثّ على المعروف.

ومع وجود مثل هذه الجماعة بما لها من القوة الواسعة لا يوجد أي تنافٍ بين شمول فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليها وعلى الفرد بما له من القدرة المحدودة، إذ يكون الأمر والنهي الواسعان من واجب الدولة الإسلامية لا الفرد.

وحيث إنّ هذا البحث يعتبر من أهم الأبحاث القرآنية وقد أشارت إليه آيات كثيرة في الكتاب العزيز لذلك يلزم أن نذكر أُموراً في هذا المجال:

بحوث

١ - ما هو (المعروف) وما هو (المنكر)؟

(المعروف) هو كلّ ما يعرف وهو مشتق من عرف، و(المنكر) كلّ ما ينكر وهو مشتق من الإنكار، وبهذا النحو وصفت الأعمال الصالحة بأنّها أُمور معروفة، والأعمال السيّئة

والقبيحة بأنها أُمور منكرة، لأن الفطرة الإنسانية الطاهرة تعرف القسم الأول وتنكر القسم الثاني.

٢ - هل الأمر بالمعروف واجب عقلي أو تعبدي؟

يعتقد جماعة من علماء المسلمين أنّ وجوب هاتين الفريضتين لم يثبت إلّا بالدليل النقلي، وأنّ العقل لا يحكم بوجوب النهي عن منكر لا يتعدى ضرره إلى غير فاعله.

ولكن نظراً إلى العلاقات الاجتماعية، وما للمنكر من الآثار السيئة التي لا تنحصر في نقطة وقوعها، بل تتعداها إلى العلاقات الاجتماعية إذ يمكن سراية شرارته إلى كلّ نواحي المجتمع تتضح الأهميّة العقلية لهاتين الوظيفتين.

وبعبارة أُخرى: ليس هناك في المجتمع ما يكون (ضرراً فردياً) ينحصر نطاقه على الفرد خاصة، بل كلّ ضرر فردي يمكن أن ينقلب إلى (ضرر اجتماعي) ولهذا يؤكد العقل والمنطق السليم لأفراد المجتمع بأن لا يألوا جهداً في الإبقاء على سلامة البيئة الاجتماعية وطهارتها من كلّ دنس.

وقد أشير إلى هذا في بعض الأحاديث.

فعن النّبي ﷺ أنه قال: «مثل القائم على حدود الله [والواقع فيها] والمدهن فيها كمثل قوم استهمّوا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها... فقال الذين في أسفلها: إننا ننقبها من أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً»[(١)].

ولقد جسد النّبي الأكرم ﷺ - بهذا المثال الرائع - موضوعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنطقية هاتين الفريضتين بغض النظر عن أمر الشارع بهما، وبذلك قرر حقّ الفرد في النظارة على المجتمع على أساس أنه حقّ طبيعي ناشيء من اتحاد المصائر في المجتمع، وارتباط بعضها ببعض.

٣ - أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هناك علاوة على الآيات القرآنية الكثيرة، أحاديث مستفيضة في المصادر الإسلامية المعتبرة تتحدث عن أهميّة هاتين الفريضتين الاجتماعيتين الكبيرتين، قد أُشير فيها إلى

---

(١) راجع سنن الترمذي: ج ٤ كتاب الفتن الباب ١٢ ومسند أحمد: ج ٤ ص ٢٦٨. تفسير روح الجنان، ج٤، ٤٨٢؛ والمعجم الأوسط للطبراني، ج ٣، ص ١٤٩.

العواقب الخطيرة المترتبة على تجاهل وترك هاتين الوظيفتين في المجتمع، نذكر من باب المثال طائفة منها:

١ - عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب، وتردّ المظالم، وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر»(١).

٢ - قال النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسول الله وخليفة كتابه»(٢).

٣ - جاء رجل إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو على المنبر فقال: يا رسول الله من خير الناس؟ قال: «آمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم»(٣).

٤ - في حديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لتأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم، وتدعو خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون، وتستغيثون فلا تغاثون، وتستغفرون فلا تغفرون»(٤).

هذه الأُمور كلّها هي الآثار الطبيعية لموقف المجتمع الذي يعطل هاتين الوظيفتين الاجتماعيتين العظيمتين، لأن ترك النظارة العامّة على ما يجري في المجتمع يلازم خروج الأُمور من قبضة الصالحين، والإفساح للأشرار بأن يتسلموا أزمة الأُمور ومقدّرات المجتمع ويحكموا فيه بأهوائهم، فيقع ما يقع من المآسي وتصاب الجماعة بما ذكره الحديث المتقدم من التبعات والمفاسد.

وما ذكر في الحديث من عدم قبول توبتهم أيضاً لأنة لا معنى لقبول التوبة مع استمرارهم على السكوت اللهم إلّا أن يعيدوا النظر في سلوكهم.

٥ - عن علي عليه السلام: «وما أعمال البر كلّها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا كنفثة في بحر لجّيّ»(٥).

كل هذه التأكيدات هي لكون هاتين الوظيفتين العظيمتين خير ضمان لإجراء وتنفيذ

---

(١) وسائل الشيعة: ج ١١ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٣٩٥.
(٢) مجمع البيان في تفسير الآية؛ ومستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ١٧٩.
(٣) مجمع البيان في تفسير الآية.
(٤) المصدر السابق.
(٥) نهج البلاغة قصار الكلم، الكلمة رقم ٣٧٤.

بقية الوظائف الفردية والاجتماعية، ولأنّهما بمثابة الروح لها، فبتركهما تندرس كلّ الأحكام والقيم الأخلاقية وتفقد قيمتها وتختفي من حياة المجتمع.

٤ - هل الأمر بالمعروف يوجب سلب الحريات؟

في الإجابة على هذا السؤال لا بدّ من القول بأنّ النمط الجماعي للحياة وإن كان - بلا ريب - ينطوي على فوائد كثيرة لأفراد البشر، بل إنّ هذه المزايا هي التي دفعت الإنسان ليختار الحياة الاجتماعية، إلّا أنه ينطوي في مقابل ذلك على بعض التقييدات لحريات الأفراد، ولكن بما أن ضرر هذه التقييدات الجزئية ضئيل تجاه الفوائد الجمة التي تنطوي عليها الحياة الاجتماعية اختار الإنسان النمط الاجتماعي منذ الأيّام الأُولى من حياته على هذا الكوكب متحملاً كلّ التقييدات.

وحيث إنّ مصائر الأفراد ترتبط ببعضها في الحياة الاجتماعية، ويؤثر بعضها في بعض بمعنى أنّ الجميع في الحياة الاجتماعية يشتركون في مصير واحد، لذلك كان حقّ النظارة على تصرفات الآخرين وسلوكهم حقّاً طبيعياً تقتضيه الحياة الجماعية، كما جاء ذلك في الحديث الرائع الذي نقلناه آنفاً عن الرسول الأكرم ﷺ في هذا المجال.

وعلى هذا فإنّ الأمر بالمعروف لا ينافي الحريات الفردية فحسب، بل هو وظيفة كلّ فرد تجاه الفرد الآخر، لأنّ من شأنه الإبقاء على سلامة الآخرين واستقامة أُمورهم، ومن ثمّ سلامة الفرد نفسه واستقامة أمره.

٥ - ألا يلازم الأمر بالمعروف الفوضى الاجتماعية؟

هناك سؤال آخر يطرح نفسه في هذا المجال وهو إذا سمحنا للناس بأن يتدخلوا في شؤون الآخرين وتكون لهم النظارة على أعمالهم وتصرفاتهم، فإنّ ذلك يوجب وقوع الفوضى في المجتمع، إذ تحصل بسببه المصادمات بين الأفراد، ولأنّه يخالف مبدأ توزيع الواجبات والمسؤوليات في الحياة الاجتماعية فما هو الجواب؟

في الإجابة على هذا السؤال لا بدّ من القول بأنّ الأبحاث السابقة قد أوضحت أنّ لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرحلتين: المرحلة الأُولى: وهي المرحلة العمومية، وهي ذات إطار محدود لا يتجاوز التذكير، والعظة، والاعتراض، والنقد وما شابه ذلك، ولا شكّ أنّ المجتمع إذا أراد أن يكون حيّاً لا بدّ أن يشعر أفراده جميعاً بمثل هذه المسؤولية تجاه المفاسد، وبمثل هذا الشعور تجاه المنكرات.

وأمّا المرحلة الثانية التي تختص بجماعة معيّنة وخاصة، وتكون من شؤون الحكومة

الإسلامية فهي أوسع إطاراً، وأكبر مسؤولية، وأكثر قوة، بمعنى أنّ الأمر إذا تطلب استخدام القوة، وحتى إجراء القصاص وإجراء الحدود كان من صلاحيات هذه الجماعة أن تقوم به تحت نظر الحاكم الشرعي، ومسؤولي الحكومة الإسلامية، وهذا القسم هو الذي يقع بسببه الهرج والمرج لو أنيط بكلّ من هبّ ودبّ، دون القسم الأول الذي لا يتجاوز النصح والتذكير، والاعتراض والإعراض.

إذن فبملاحظة المراحل المختلفة في هذه الوظيفة الدينية، وما لكلّ واحدة منها من الحدود والأبعاد، فإنّ القيام بهذه الوظيفة لا يستوجب الهرج والمرج في المجتمع، بل يخرج المجتمع من صورة الجماعة الميتة الخامدة، إلى صورة المجتمع الحي النابض، والجماعة المتحركة الصاعدة.

٦ - الأمر بالمعروف غير العنف

في ختام هذا البحث لا بدّ من التذكير بهذه الحقيقة وهي أنّه لا بدّ في القيام بهذه الفريضة الإلهيّة السامية والدعوة إلى الحقّ ومكافحة الفساد من حسن النية، وسلامة الهدف، والشعور بالمسؤولية، كما يجب أن يتم بالطرق السلمية، ومن هنا لا يمكن اعتباره عملاً خشناً ملازماً للعنف إلّا في بعض الموارد الضرورية.

بيد أنّ البعض - مع الأسف - يستخدم العنف والخشونة لدى القيام بهذا الواجب المقدّس في غير الموارد الضرورية التي تستدعي مثل ذلك، وربّما توسل بالسب والشتم، ولهذا نرى أنّ مثل هذه الممارسات لا تترك أثراً إيجابياً، بل تعطي في الأغلب نتائجها العكسية، وثمارها السلبية، في حين ترينا سيرة الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السلام غير ذلك، فهم كانوا يستعملون - في هذه الوظيفة المقدسة - منتهى اللّطف والمحبة، وغاية الأدب والاتّزان، ولهذا كانوا يؤثّرون غاية التأثير، ويتركون أفضل النتائج حتى إنّهم كانوا يطوعون بذلك النهج أعتى الأفراد، وأكثرهم عناداً وجفاءً -.

جاء في تفسير (المنار) في معرض الحديث عن هذه الآية: إنّ غلاماً شاباً أتى النّبي ﷺ فقال: أتأذن لي في الزنا؟

فصاح الناس به فقال النّبي ﷺ: قرّبوه، أُدن، فدنا حتى جلس بين يديه فقال النّبي ﷺ: أتحبّه لأُمّك؟

قال: لا، جعلني الله فداءك.

قال: كذلك الناس لا يحبّونه لأُمهاتهم، أتحبّه لابنتك؟

قال: لا، جعلني الله فداءك.

قال: كذلك لايحبّونه لبناتهم، أتحبّه لأختك؟

قال: لا، جعلني الله فداءك.

فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: «اللّهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه».

فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا[١].

وكان هذا هو الأثر الطبيعي للأُسلوب اللين في النهي عن المنكر.

الفرقة بعد الاتحاد من شيم النصارى واليهود

تقتضي أهميّة الوحدة أن يركز القرآن الكريم ويؤكد عليها مرّة بعد أُخرى، ولذا يذّكر بأهميّة الاتحاد، ويحذر من تبعات الفرقة والنفاق وآثارهما المشؤومة، بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

إنّ هذه الآية تحذر المسلمين من أن يتبعوا - كالأقوام السابقة مثل اليهود والنصارى - سبيل الفرقة والاختلاف بعد أن جاءتهم البينات وتوحدت صفوفهم عليها، فيكسبوا بذلك العذاب الأليم.

إنّه في الحقيقة يدعو المسلمين إلى أن يعتبروا بالماضي، ويتأملوا في حياة السابقين، وما آلوا إليه من المصير المؤلم، بسبب الاختلاف والتشتت.

إنّها لفتة تاريخية من شأنها أن توقفنا على ما ينتظر كلّ أُمة من سوء العواقب إذا هي سلكت سبيل النفاق، وتفرقت بعدما توحدت، وتشتّتت بعدما تجمعت.

إنّ إصرار القرآن الكريم في هذه الآيات على اجتناب الفرقة والنفاق إنما هو تلميح إلى أنّ هذا الأمر سيقع في المجتمع الإسلامي مستقبلاً، لأنّ القرآن لم يحذّر من شيء أو يصر على شيء إلّا وكان ذلك إشارة إلى وقوعه في المستقبل.

ولقد تنبأ الرسول الأكرم ﷺ بهذه الحقيقة وأخبر المسلمين عنها بصراحة إذ قال: «إن أُمّة موسى افترقت بعده على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت أُمة عيسى بعده على اثنتين وسبعين فرقة، وإن أُمتي ستفترق بعدي على ثلاث وسبعين فرقة»[٢].

---

(١) تفسير المنار: ج ٤ ص ٣٣ - ٣٤؛ ومسند الشاميين، للطبراني، ج ٢، ص ١٣٩.

(٢) نقلت هذه الرواية بطرق مختلفة عن الشيعة والسنة وأمّا كتب الشيعة التي نقلت هذه الرواية فهي: الخصال، ومعاني الأخبار، والاحتجاج، وأمالي الصدوق، وأصل سليم بن قيس، وتفسير العياشي، وأما الكتب السنية فهي الدرّ المنثور، وجامع الأصول، والملل والنحل.

والظاهر أنّ عدد (٧٠) إشارة إلى الكثرة فهو عدد تكثيري، لا عدد إحصائي، فالرواية تعني أنّ فرقة واحدة فقط بين اليهود والنصارى هي المحقّة الناجية، وفرقاً كثيرة في النار، وهكذا الحال في المسلمين وربّما يزداد عدد اختلافات المسلمين على ذلك.

ولذا أشار القرآن الكريم بما أخبر الرسول الأكرم ﷺ أيضاً إلى ما يقع بين المسلمين بعد وفاته من الاختلاف والفرقة، والخروج عن الطريق المستقيم الذي لا يكون إلّا طريقاً واحداً، والانحراف عن جادة الحقّ في العقائد الدينية، بل ويذهب المسلمون - في هذا الاختلاف - إلى حد تكفير بعضهم بعضاً، وشهر السيوف، والتلاعن والتشاتم، وهدر النفوس، واستحلال الدماء والأموال، بل ويبلغ الاختلاف بينهم أن يلجأ بعض المسلمين إلى الكفّار، وإلى مقاتلة الأخ أخاه.

وبهذا تتبدل الوحدة التي كانت من أسباب تفوّق المسلمين السابقين ونجاحهم إلى النفاق والاختلاف والتشرذم والتمزق، وتنقل حياتهم السعيدة إلى حياة شقيّة، وتحلّ الذلة محل العزّة، والضعف مكان القوة وتتبدد العظمة السامية، وينتهي المجد العظيم.

أجل إنّ الذين يسلكون سبيل الاختلاف بعد الوحدة، والفرقة بعد الاتحاد سيكون لهم عذاب أليم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

إنّه ليس من شكّ في أن نتيجة الاختلاف والفرقة لن تكون سوى الذلة والانكسار، فذلك هو سر سقوط الأمم وذلتها، إنّه الاختلاف والتشتت، والنفاق والتدابر.

إنّ المجتمع الذي تحطمت وحدته بسبب الفرقة، وتفتّت تماسكه بسبب الاختلاف، سيتعرض - لا محالة - لغزو الطامعين، وستكون حياته عرضة لأطماع المستعمرين، بل ومسرحاً لتجاوزاتهم، وما أشد هذا العذاب، وما أقسى هذه العاقبة! أجل تلك هي عاقبة النفاق والاختلاف في الدنيا.

وأما عذاب الآخرة فهو - كما وصفه الله تعالى في القرآن الكريم - أشد وأخزى. فذلك هو ما ينتظر المفرّقين المختلفين، وذلك هو ما يجب أن يتوقعه كلّ من حبّذ النفاق على الاتفاق، والتدابر على التآلف، والتشتت على الاجتماع... خزيٌ في الدنيا، وعذاب أخزى في الآخرة.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

التّفسير

الوجوه المبيضّة والوجوه المسودّة

في تعقيب التحذيرات القوية التي تضمنتها الآيات السابقة بشأن التفرقة والنفاق والعودة إلى عادات الكفر ونعرات الجاهلية، جاءت الآيتان الحاضرتان تشيران إلى النتائج النهائية لهذا الارتداد المشؤوم إلى خُلُق الجاهلية وعاداتها، وتصرّحان بأنّ الكفر والنفاق والتنازع والعودة إلى الجاهلية توجب سواد الوجوه، فيما يوجب الثّبات على طريق الإيمان والاتحاد، والمحبّة والتآلف، بياض الوجوه، فتقول: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ففي يوم القيامة تجد بعض الناس وجوههم مظلمة سوداء، والبعض الآخر وجوههم نقية بيضاء ونورانية ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فلماذا اخترتم طريق النفاق والفرقة والجاهلية على الاتحاد في ظلّ الإسلام، فذوقوا جزاءكم العادل، وأمّا المؤمنون فغارقون في رحمة الله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

إنّ هاتين الآيتين تصرّحان بأنّ المنافقين والمتفرقين بعدما جاءتهم البينات هم المسودة وجوههم الذائقون للعذاب الأليم بسبب كفرهم، وأمّا المؤمنون المتآلفون المتحابون المتحدون فهم في رحمة الله ورضوانه مبيضة وجوههم.

ولقد قلنا مراراً إنّ ما يلاقيه الإنسان من الأوضاع والحالات، ومن الثواب والعقاب في الحياة الآخرة ليس في الحقيقة سوى أفكاره وأعماله وتصرفاته المجسّمة التي قام بها في هذه الحياة الدنيا، فهما وجهان لعملة واحدة، إنّه تجسم صادق ودقيق لما كان ينويه أو يعمله هنا ليس إلّا.

وبعبارة أُخرى: إنّ لكل ما يفعله الإنسان في هذه الحياة آثاراً واسعة تبقى في روحه، وقد لا تدرك في هذه الحياة، ولكنها تتجلّى - بعد سلسلة من التحولات - في الآخرة، فتظهر بحقائقها الواقعية، وحيث إنّ جانب الروح يكون أقوى في الآخرة، إذ تشتد حاكميتها وسيادتها على الجانب الآخر من الكيان البشري من هنا يكون لتلك الآثار انعكاساتها حتى على الجسد، فتبدو الآثار المعنوية للأعمال محسوسة كما يكون الجسد محسوساً لكلّ أحد.

فكما أنّ الإيمان والاتحاد يوجبان الرفعة وبياض الوجوه في هذا العالم، ويوجب العكس العكس، أي إنّ الكفر والاختلاف يوجبان للأُمة الكافرة المتفرقة سواد الوجوه

والذلة، فإنّ هذا البياض والسواد (المجازيين) في الدنيا يظهران في الآخرة بصورة حقيقية حيث يحشر المؤمنون المتحدون المتآلفون بيض الوجوه، بينما يحشر الكافرون المتفرقون المتخاصمون سود الوجوه.

وتلك حقيقة أشارت إليها آيات أُخرى في القرآن الكريم في شأن من يتمادى في المعصية ويأتي بالذنب تلو الذنب، والإثم بعد الإثم إذ يقول سبحانه: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ﴾(١).

ويقول في شأن الذين يفترون على الله الكذب ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ﴾(٢).

وكلّ هذه الأُمور هي المردودات والآثار الطبيعية لما يأتيه الإنسان في عالم الدنيا من الأعمال.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (١٠٩)﴾

التّفسير

هذه الآية إشارة إلى ما تعرضت الآيات السابقة له حول الإيمان والكفر، والاتحاد، والاختلاف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآثارها وعواقبها، إذ تقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فكلّ هذه الآيات تحذيرات من تلك العواقب السيئة التي تترتب على أفعال الناس أنفسهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾وإنّما هي آثار سيئة يجنيها الناس بأيديهم.

ويدلُّ على ذلك أنّ الله لا يحتاج إلى ظلم أحد، كيف وهو القوي المالك لكلّ شيء وإنّما يحتاج إلى الظلم الضعيف، وإلى هذا يشير قوله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

فالآية - في الحقيقة - تشتمل على دليلين على عدم صدور الظلم منه سبحانه:

الأوّل: إنّ الله مالك الوجود كلّه فله ما في السماوات وما في الأرض، فلا معنى

(١) سورة يونس، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٠.

للظلم ولا موجب له عنده، وإنما يظلم الآخرين ويعتدي عليهم من يفقد شيئاً، وإلى هذا يشير المقطع الأول من الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الثاني: إنّ الظلم يمكن صدوره ممّن تقع الأمور دون إرادته ورضاه، أما من ترجع إليه الأُمور جميعاً، وليس لأحد أن يعمل شيئاً بدون إذنه فلا يمكن صدور الظلم منه، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

التّفسير

مكافحة الفساد والدعوة إلى الحقّ أيضاً

في هذه الآية تطرح مرّة أُخرى مسألة (الأمر بالمعروف) و(النهي عن المنكر)، وتعتبر الآية الحاضرة هاتين المسألتين واجبين عموميين كما مرّ في تفسير الآية (١٠٤)، بينما تبين الآية السابقة مرحلة خاصّة، وهي مرحلة الوجوب الكفائي أي الخاصّ بجماعة معينة، كما مرّ تفصيله.

فالآية السابقة تشير إلى القسم الخاصّ، وهذه الآية تشير إلى القسم العام من هاتين الفريضتين.

والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم يصف المسلمين - في هذه الآية - بأنّهم خير أُمة هُيئت وعُبئت لخدمة المجتمع الإنساني، والدليل على أنّ هذه الأُمة خير أُمة رشحت لهذه المهمّة الكبرى هو «قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيمانها بالله» وهذا يفيد أنّ إصلاح المجتمع البشري لا يمكن بدون الإيمان بالله والدعوة إلى الحقّ، ومكافحة الفساد، كما ويستفاد من ذلك أنّ هاتين الوظيفتين مع ما هما عليه من السعة في الإسلام ممّا تفرد بهما هذا الدين من دون بقية الشرائع السابقة.

أمّا لماذا يجب أن تكون هذه الأُمة خير الأمم، فسببه واضح كذلك. لأنّها تختص بآخر الأديان الإلهيّة والشرائع السماوية، ولا شكّ أنّ هذا يقتضي أن يكون أكمل الشرائع وأتمها في سلّم الأديان.

وقفتان عند هذه الآية:

ثمّ إنّه يتعين علينا أن ننتبه إلى نقطتين أُخريين في هذه الآية وهما:

الأولى: التعبير بلفظ الماضي (كنتم) يعني أنّكم كنتم كذلك في السابق، ومفهوم هذا التعبير وإن كان موضع احتمالات كثيرة بين المفسّرين، إلّا أنّ ما يترجح عند النظر هو أنّ التعبير بالماضي إنّما هو لأجل التأكيد، والتلويح بأنّ الشيء محقق الوقوع، ولذلك نظائر كثيرة في الكتاب العزيز حيث عبّر عن القضايا المحقّقة الوقوع بصيغة الفعل الماضي، لإفادة أنّ ذلك ممّا يقع حتماً حتى إنّه نزل منزلة الماضي الذي قد تحقّق فعلاً.

الثانية: إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قُدِّما - في هذه الآية - على الإيمان بالله، وذلك خير شاهد على أهمية هاتين الفريضتين الإلهيتين - وخطورتهما، مضافاً إلى أن القيام بهذين الواجبين المقدسين ممّا يوجب انتشار الإيمان، واتساع رقعته، وتعميق جذوره في النفوس، وتنفيذ كلّ القوانين الفردية والاجتماعية، ولا ريب أنّ ما يضمن تنفيذ القانون وتطبيقه مقدّم على نفس القانون.

بل إنّ تعطيل هذين الواجبين يوجب ضعف العقائد في القلوب، وانهيار قواعد الإيمان في النفوس، ولهذا كلّه كان طبيعياً أن يقدَّما على الإيمان.

من هذا البيان يتضح أنّ المسلمين (خير أُمة) ما داموا يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فإذا نسوا هاتين الفريضتين وأهملوهما لم يعودوا خير أُمة، كما لم يعودوا في خدمة المجتمع البشري أبداً.

على أنّ المخاطب في هذه الآية هم عموم المسلمين في جميع العصور كما هو الحال في كلّ الخطابات القرآنية، فما احتمله البعض من أنّه خاص بالمهاجرين أو المسلمين الأوائل لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه.

ثم إنّ الآية تشير إلى أنّ ديناً بمثل هذا الوضوح، وتشريعاً بمثل هذه العظمة، وتعاليم تنطوي على مثل هذه الفوائد التي لا تنكر، ينبغي أن يؤمن به أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأنّ في ذلك صلاحهم، وخيرهم إذ يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

ولكن - وللأسف - لم يؤمن به إلّا قلّة ممّن نبذ التعصب الأعمى، واعتنق الإسلام برغبة صادقة، واستقبل هذا الدين برحابة صدر، فيما أعرض الأكثرون منهم، وفضلوا البقاء على ما هم عليه من الكفر والعصبية على اتباع هذا الأمر الإلهي، متجاهلين حتى تلك البشائر التي نطقت بها كتبهم حول هذا الدين وإلى هذا يشير سبحانه بقوله ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن هذا الأمر الإلهي.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

سبب النّزول

عندما أقدم بعض ذوي الضمائر المستيقظة من كبار اليهود مثل عبد الله بن سلام على ترك دينهم واعتناق الإسلام عمد جمع من رؤوس اليهود إليهم وأنّبوهم لإسلامهم، بل وهددوهم لتركهم دين الآباء، واعتناق الإسلام، فنزلت هذه الآيات لتثبيتهم، وتبشيرهم وتبشير المسلمين بالظفر[١].

التّفسير

تبشر الآية الأُولى المسلمين الذين يواجهون ضغوطاً شديدة وتهديدات أحياناً من جانب قومهم الكافرين بسبب اعتناق الإسلام، تبشرهم وتعدهم بأنّهم منصورون، وأنّ أهل الكتاب لا يقدرون عليهم ولا تنالهم من جهتهم مضرة، وأنّ ما سيلحقهم من الأذى من جانبهم لن يكون إلّا طفيفاً وعابراً: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

إنّ هاتين الآيتين تحتويان - في الحقيقة - على عدّة أخبار غيبية، وبشائر مهمة للمسلمين قد تحقق جميعها في زمن النّبي الأكرم ﷺ وحياته الشريفة وهي:

١ - إنّ أهل الكتاب لا يقدرون على إلحاق أي ضرر مهم بالمسلمين، وإنّ ما يلحقونه بهم لن يكون إلّا أضراراً بسيطة، وعابرة ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾.

٢ - إنّهم لن يثبتوا - في القتال - أمام المسلمين، بل ينهزمون ويكون الظفر للمسلمين، ولا يجدون ناصراً ولا معيناً: ﴿وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

٣ - إنّهم لن يستطيعوا الوقوف على أقدامهم ولن يتمكنوا من العيش مستقلين، بل

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير القرطبي، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ٧٢.

سيبقون أذلاء دائماً، إلّا أن يعيدوا النظر في سلوكهم، ويسلكوا طريق الله، أو أن يعتمدوا على الآخرين ويستعينوا بقوتهم إلى حين: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ولم يمض على هذه الوعود الإلهيّة والبشائر السماوية زمن حتى تحققت برمّتها في حياة الرسول ﷺ وخاصّة بالنسبة إلى اليهود القاطنين في الحجاز (بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، ويهود خيبر وبني المصطلق) الذين آل أمرهم إلى الهزيمة في جميع ميادين القتال والانحدار أمام القوى الإسلامية بعد أن اقترفوا سلسلة من التحرشات والمؤامرات ضد الإسلام والمسلمين.

اليهود والمصير الخطير

إنّ الآيات المذكورة وإن لم تصرح بإسم اليهود ولكن من خلال القرائن الموجودة في هذه الآية والآيات السابقة وكذا بقرينة الآية ٦١ من سورة البقرة ونظائرها ممّا صرّح فيه باسم اليهود يستفاد أن قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يرتبط باليهود، ويعنيهم.

ففي هذا المقطع من الآية يقول سبحانه: إنّ أمام اليهود طريقين يستطيعون بهما أن يتخلصوا من لباس الذلة:

إمّا أن يعودوا إلى الله، ويعقدوا حبلهم بحبله، وإمّا أن يتمسكوا بحبل من الناس، ويعتمدوا على هذا وذاك، ويعيشوا ذيولاً وأتباعاً للآخرين.

وتعني لفظة (ثقفوا) المأخوذة من (ثقف) على وزن (سقف) الحذق في إدراك الشيء، والظفر به بمهارة.

ويقصد القرآن من ذلك: أنّ اليهود أينما وجدوا فإنّهم يوجدون وقد ختموا بخاتم الذلة على جباههم مهما حاولوا اخفاء ذلك - وكانت الذلة الصفة البارزة لهم بسبب مواقفهم المشينة من تعاليم السماء، ورسالات الأنبياء العظام، إلّا إذا عادوا إلى منهج السماء، أو استعانوا بهذا أو ذاك من الناس لتخليصهم من هذا الذل. وإنقاذهم من هذا الهوان.

وأمّا التعبير بـ: (حبل من الله وحبل من الناس) وإن ذهب المفسّرون فيه إلى احتمالات عديدة، بيد أن ما قد ذكر آنفاً يمكن أن يقال بأنّه أنسب إلى الآية من بقية الاحتمالات، لأنّه عندما يوضع (حبل الله) في قبال (حبل من الناس) يتبين أن هناك معنى متقابلاً متفاوتاً لهما لا أنّ الأول بمعنى الإيمان بالله، والثاني بمعنى العهد المعطى لهم من جانب المسلمين على وجه الأمان والذمة.

وعلى هذا تكون خلاصة المفهوم من هذه الآية هي: إنّ على اليهود أن يعيدوا النظر في برنامج حياتهم، ويعودوا إلى الله، ويمسحوا عن أدمغتهم كلّ الأفكار الشيطانية، وكلّ النوايا الشريرة، ويطرحوا النفاق والبغضاء للمسلمين جانباً، أو أن يستمروا في حياتهم النكدة الممزوجة بالنفاق، مستعينين بهذا أو ذاك. فإمّا الإيمان بالله والدخول تحت مظلته وفي حصنه الحصين، وإمّا الاعتماد على معونة الناس الواهية والاستمرار في الحياة التعسة.

اليهود والمسكنة الدائمة

لقد كان أمام اليهود طريقان: إمّا أن يعودوا إلى منهج الله، وإمّا أن يبقوا على سلوكهم فيعيشوا أذلّاء ما داموا، ولكنهم اختاروا الثاني ولهذا لزمتهم الذلة ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾.

ولفظة (باؤوا) تعني في الأصل المراجعة واتخاذ السكنى، وقد استخدمت هنا للكناية عن الاستحقاق فيكون المعنى: إنّ اليهود بسبب إقامتهم على المعاصي استحقوا الجزاء الإلهي، واختاروا غضب الله كما يختار الإنسان مسكناً ومنزلاً للإقامة.

وأمّا لفظة (مسكنة) فتعني الذلة والانقطاع الشديد الذي لا تكون معه حيلة أبداً، وهي مأخوذة من السكون أصلاً، لأنّ المساكين لشدّة ما بهم من الفقر والضعف لا يقدرون على أية حركة، بل هم في سكون وجمود.

ثمّ إنّه لا بدّ من الالتفات إلى أنّ المسكين لا يعني المحتاج والمعدم من الناحية المالية خاصّة، بل يشمل هذا الوصف كلّ من عدم الحيلة والقدرة على جميع الأصعدة، فيدخل فيه كلّ ضعف وعجز وافتقار شديد.

ويرى البعض أنّ الفرق بين الذلة والمسكنة هو أنّ الذلة ما كان مفروضاً على الإنسان من غيره، بينما تكون المسكنة ناشئة من عقدة الحقارة وازدراء الذات، أي إنّ المسكين هو من يستهين بشخصيته ومواهبه وذاته، فتكون المسكنة نابعة من داخله، بينما تكون الذلة مفروضة من الخارج.

وعلى هذا الأساس يكون مفاد قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ هو أن اليهود بسبب إقامتهم على المعاصي وتماديهم في الذنوب أُصيبوا بأمرين: أولاً: طردوا من جانب المجتمع وحل عليهم غضب الله سبحانه، وثانياً: إنّ هذه الحالة (أي الذلة) أصبحت تدريجاً صفة ذاتية لازمة لهم حتى إنّهم رغم كلّ ما يملكون من إمكانيات وقدرات مالية وسياسية، يشعرون بحقارة ذاتية، وصغار باطني، ولهذا لا نجد أي استثناء في ذيل هذه الجملة من الآية.

وهذا هو ما يشير إليه قوله سبحانه إذ يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وبذلك يشير سبحانه إلى علة هذا المصير الأسود الذي يلازم اليهود، ولا يفارقهم.

إنّهم لم يصابوا بما أصيبوا به من ذلة ومسكنة، وحقارة وصغار لأسباب قومية عنصرية أو ما شابه ذلك، بل لما كانوا يرتكبونه من الأعمال فهم:

أولاً: كانوا ينكرون آيات الله ويكذبون بها.

ثانياً: يصرون على قتل الأنبياء الهداة الذين ما كانوا يريدون سوى إنقاذ الناس من الجهل والخرافة، وتخليصهم من الشقاء والعناء.

ثالثاً: إنهم كانوا يرتكبون كلّ فعل قبيح، ويقترفون كلَّ جريمة نكراء، ويمارسون كلّ ظلم فظيع، وتجاوز على حقوق الآخرين، ولا شكّ أنّ أي قوم يرتكبون مثل هذه الأُمور يصابون بمثل ما أصيب به اليهود، ويستحقون ما استحقوه من العذاب الأليم والمصير الأسود.

مصير اليهود المظلم

إنّ التاريخ اليهودي الزاخر بالأحداث والوقائع يؤيد ما ذكرته الآيات السابقة تأييداً كاملاً، كما أن وضعهم الحاضر هو الآخر خير دليل على هذه الحقيقة، أي إنّ الذلة اللّازمة لليهود والصغار الملتصق بهم أينما حلوا ونزلوا، ليس حكماً تشريعياً كما قال بعض المفسّرين، بل هو قضاء تكويني، وهو حكم التاريخ الصارم الذي يقضي بأن يلازم الذلة، ويصاب بالصغار كلّ قوم يتمادون في الطغيان، ويغرقون في الآثام، ويتجاوزون على حقوق الآخرين وحدودهم، ويسعون في إبادة القادة المصلحين والهداة المنقذين، إلّا أن يعيد هؤلاء القوم النظر في سلوكهم، ويغيروا منهجهم وطريقتهم، ويرجعوا ويعودوا إلى الله، أو يربطوا مصيرهم بالآخرين ليعيشوا بعض الأيام في ظل هذا أو ذاك كما هي حال الصهيونية اليوم.

فإنّ الصهيونية التي تعادي المسلمين اليوم وتحارب الإسلام نجدها لا تستطيع الوقوف أمام الأخطار التي تهددها إلّا بالاعتماد على الآخرين، وحمايتهم رغم كلّ ما تملك من الثروات والقدرات الذاتية، وكلّ هذا يؤكد ويؤيد ما ذكرته هذه الآيات وما يستفاد منها من الحقائق، ولا شكّ أنّ هذا الوضع سيستمر بالنسبة إلى اليهود إلّا إذا تخلوا عن سلوكهم العدواني وأعادوا الحقوق إلى أهلها، وعاشوا إلى جانب الآخرين على أساس من الوفاق لا الغصب والعدوان والاحتلال.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

سبب النّزول

يقال: لما أسلم (عبد الله بن سلام) وهو من علماء اليهود وجماعة منهم، انزعجت اليهود، وبخاصة أحبارهم من هذا الحادث، وصاروا بصدد اتهامهم بالخيانة، وعيبهم بالشر فقال أحبارهم: (ما آمن بمحمّد إلّا شرارنا) وهم بذلك يهدفون إلى إسقاطهم من أعين اليهود حتى لا يقتدي بهم الآخرون، فنزلت الآيات أعلاه للدفاع عن هذه الفئة المؤمنة[١].

التّفسير

الإسلام وخصيصة البحث عن الحقّ

بعد كلّ ذلك الذم لليهود، الذي تضمنته الآيات السابقة بسبب مواقفهم المشينة وأفعالهم الذميمة نجد القرآن - كما هو شأنه دائماً - يراعي جانب العدل والإنصاف، فيحترم كلّ من تنزه عن ذلك السلوك الذميم الذي سار عليه اليهود، ويعلن بصراحة أنّه لا يعمم ذلك الحكم، وأنّه لا يمكن النظر إلى الجميع بنظرة واحدة دون التفريق بين من أقام على تلك الفعال، وبين من غادرها وطلب الحقّ، ولهذا يقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[٢].

أجل ليس أهل الكتاب سواء، فهناك جماعة تطيع الله وتخافه، وتؤمن به وتهابه، وتؤمن بالآخرة وتعمل لها، وتقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبهذا يتورع القرآن الكريم عن إدانة العنصر اليهودي كافة، بل يركز على أفعالهم

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) الآناء جمع أنى (على وزن وفا) وأنى (على وزن غنى) بمعنى الأوقات.

وأعمالهم وممارساتهم، ويحترم ويمدح كلّ من انفصل عن أكثريتهم الفاسدة، وخضع للحقّ والإيمان، وهذا هو أُسلوب الإسلام الذي لا يعادي أحداً على أساس اللّون والعنصر، بل إنّما يعاديه على أساس اعتقادي محض، ويكافحه إذا كانت أعماله لا تنطبق مع الحقّ والعدل والخير، لا غير.

ثمّ إنّه يستفاد من بعض الأحاديث أنّ الممدوحين في هذه الآية لم ينحصروا في (عبد الله بن سلام) وجماعته الذين أسلموا معه، بل شمل هذا المدح (٤٠) من نصارى نجران و(٣٢) من نصارى الحبشة و(٨) أشخاص من أهل الروم كانوا قد أسلموا قبل ذلك(١)، ويدل على ذلك أنّ الآية استخدمت لفظة ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو كما نعرف تعبير يعم اليهود وغيرهم.

ثمّ إنّه سبحانه قال: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ معقباً بذلك على العبارات السابقة ومكملاً للآية، ويعني بقوله أنّ هؤلاء الذين أسلموا واتخذوا مواقعهم في صفوف المتقين لن يضيع الله لهم عملاً، وإن كانوا قد ارتكبوا في سابق حالهم ما ارتكبوه من الآثام، وما اقترفوه من المعاصي، ذلك لأنّهم قد أعادوا النظر في سلوكهم وأصلحوا مسارهم، وغيروا موقفهم.

والمراد من كلمة (الكفر) هنا هو ما يقابل الشكر، لأنّ الشكر يعني أصلاً الاعتراف بالنعمة والجميل، والكفر يعني إنكار ذلك، فيكون المراد في هذه الآية هو أنّ الله لن ينكر أعمالهم الصالحة، ولن يتنكر لها.

كيف ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ وكأن هذه العبارة التي يختم بها سبحانه الآية الحاضرة تشير إلى حقيقة من الحقائق الهامة وهي: أنّ المتقين وإن كانوا قلة قليلة في الأغلب، وخاصة في جماعة اليهود الذين عاصروا النبي ﷺ حيث كان المسلمون المهتدون منهم قلة ضعيفة، ومن شأن ذلك أن لا تلفت كميتهم النظر، ولكنهم مع ذلك يعلمهم الله بعلمه الذي لا يعزب عنه شيء، فلا موجب للقلق، ولا داعي للاضطراب ما دام سبحانه يعلم بالمتقين على قلتهم، ويعلم بأعمالهم، فلا يضيعها أبداً قليلة كانت أو كثيرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ٧٣.

﴿الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

التّفسير

في مقابل العناصر التي تبحث عن الحقّ، وتؤمن به من الذين وصفتهم الآية السابقة، هناك عناصر كافرة ظالمة وصفهم الله سبحانه في هاتين الآيتين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لأنه لا ينفع في الآخرة سوى العمل الصالح والإيمان الخالص لا الإمتيازات المادية، في هذه الحياة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾(١).

يبقى أن نعرف لماذا أُشير في هذه الآية إلى الثروة والأولاد من بين بقية الإمكانات؟ وجه ذلك أنّ أهم الإمكانات المادية تنحصر في أمرين:

الأول: الطاقة البشرية وقد ذكرت الأولاد كأفضل نموذج لها.

الثاني: الثروة الاقتصادية.

وأما بقية الإمكانات المادية الأُخرى فتتفرع من هاتين.

إنّ القرآن ينادي بصراحة بأن الامتيازات المالية والقدرة البشرية الجماعية لا تعد امتيازاً في ميزان الله، وأنّ الاعتماد عليها وحدها هو الخطأ الجسيم إلّا إذا قرنت بالإيمان والعمل الصالح، واستخدمت في سبيلهما، وإلّا فستؤول بأصحابها إلى الجحيم وعذابها الخالد ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ولما كان الكلام عن الثروة والمال كان لا بدّ من الإشارة إلى مسألة الإنفاق فيقول سبحانه: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

و (الصرّ) مأخوذ من (الإصرار) لغة، وتعني الشد بقوّة وشدّة، والمراد بها هنا هي الريح الشديدة سواء كانت مصحوبة بالبرد القارس، أو الحر اللافح.

إنفاق الكفّار

وفي هذه الآية إشارة إلى كيفية إنفاق الكفّار وبذلهم المصحوب بالرياء، ضمن إعطاء

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ و٨٩.

مثل رائع يجسد مصير هذا الإنفاق والبذل، ويصوره في أبلغ تصوير.

القرآن يمثل إنفاق الكفّار بالريح الشديدة الباردة أو اللافحة جدّاً التي إذا هبت على الزرع لا تبقي منه شيئاً ولا تذر، بل تترك الزرع حطاماً والأرض بلاقع.

إنّه لا شكّ أنّ النسائم الخفيفة تنعش الزرع وتحيي الطبيعة، فنسائم الربيع تفتح الأزهار، وتصب في عروق الأشجار والنباتات روحاً جديدة وحياة ونشاطاً، وتساعد على لقاحها، وكذلك يكون الإنفاق الصحيح والبذل الذي ينبع من الإخلاص والإيمان، إنّه يعالج مشاكل المجتمع كما يكون له أثر حسن وعميق في نفس الباذل المنفق، لأنّه يرسخ فيها السجايا الإنسانية ويعمق مشاعر العطف واللّطف والرفق والحبّ بما يستشعره من آثار إيجابية لإنفاقه، وبما يسببه الإنفاق في رفع الآلام الاجتماعية، وتوفير السعادة للآخرين.

أما إذا تبدلت هذه النسائم الرقيقة إلى رياح عاصفة لافحة، أو زوبعة شديدة البرودة، فسوف تؤدي إلى إحراق جميع النباتات والأزهار أو تجميدها.

وهذا هو حال غير المؤمن في إنفاقه، فإنّه لا ينفق ماله بدافع صحيح، بل ينفقه رياءً وسمعة وأهواء وأهداف شريرة، وبذلك يكون كالريح العاتية، اللّافحة أو الباردة، تأتي على كلّ ما أنفقه كما تأتي على الزرع، فتصيبه بالجفاف والفناء، والدمار والهلاك.

إنّ مثل هذا الإنفاق لا يعالج أية مشكلة اجتماعية (لأنّه صرف للمال في غير محله في الأغلب) كما لا ينطوي على أي أثر أخلاقي ونفسي للمنفق الباذل.

والذي يلفت النظر أنّ القرآن الكريم يقول في هذه الآية ﴿حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وهو يشير إلى أنّ هؤلاء المزارعين تعرضوا لما تعرضوا له لأنّهم تساهلوا في اختيار مكان الزرع وزمانه، ولأنّهم زرعوا في أرض معرضة للرياح الشديدة، أو أنّهم اختاروا للزرع وقتاً يكثر فيه هبوب رياح السموم، وبهذا ظلموا أنفسهم، وكذلك حال غير المؤمن في إنفاقه، فإنّه ظلم نفسه بإنفاقه غير الصحيح وغير المناسب من حيث الزمان والمكان والهدف، وبهذا عرض أمواله وثرواته للرياح.

من كلّ ما أشرنا إليه، وبملاحظة القرائن الموجودة في الآية تبين أنّ هذا التمثيل لإنفاق الكفّار بالزرع الذي أهلكته الرياح العاصفة تمثيل به من ناحيتين:

الأولى: تشبيه لإنفاق الكافر بالزرع في غير محله وموسمه المناسب.

الثانية: تشبيه لنواياه وأهدافه من الإنفاق بالرياح العاصفة الباردة أو السموم، ولهذا فإنّ المقام لا يخلو عن تقدير شيء محذوف وأن معنى قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ أنّ مثل

نوايا الكافر في الإنفاق مثل الرياح الباردة أو السموم التي تهب على الزرع فتفنيه.

قال جماعة من المفسّرين: إنّ هذه الآية إشارة إلى الأموال التي يستخدمها الكفّار للإيقاع بالإسلام وصد حركته، والتي يحركون بها الأعداء ضد النّبي الكريم ﷺ، أو الأموال التي يعطيها اليهود لأحبارهم ليحرفوا آيات الله عن مواضعها ويزيدوا أو ينقصوا في الكتب السماوية.

ولكن من الواضح جدّاً أنّ هذه الآية تنطوي على معنى واسع يشمل هذا الرأي وغيره.

ثمّ إنّه سبحانه يعقب على ما قال بشأن إنفاق الكفّار الذي لا يعود عليهم إلّا بالوبال والويل بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

أجل، إنّ العمل الفاسد لا يجر على صاحبه إلّا النتيجة الفاسدة، فما يحصده الكفّار من إنفاقهم من الوبال والبطلان، إنما هو بسبب نواياهم الباطلة الفاسدة من هذا الإنفاق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾

سبب النّزول

عن ابن عباس أنّ هذه الآيات نزلت عندما أقدم بعض المسلمين - بسبب ما كان بينهم وبين اليهود من الصداقة أو القرابة أو الجوار أو الحلف أو الرضاع - على ذكر أسرار المسلمين عندهم، وبهذا كان اليهود الذين يتظاهرون بالمودّة للمسلمين - وهم ألدّ أعداء الإسلام في باطنهم - يطّلعون على أسرار المسلمين، فنزلت هذه الآيات تحذر أُولئك الرجال من المسلمين من مغبة هذه الصداقات والعلاقات، وتوصيهم بأن

لا يتخذوا اليهود بطانة يسرّون إليهم بأسرارهم، لأنّهم لا يتورعون عن استخدام كلّ وسيلة ممكنة - حتى هذه الأسرار - لإلحاق الأذى والضرر بكم، لأنّهم يهمهم - دائماً - أن تكونوا في نصب وتعب ومحن ومشاكل، وعناء وشقاء[١].

التّفسير

لا تتخذوا الأعداء بطانة

هذه الآية التي جاءت بعد الآيات السابقة التي تعرضت لمسألة العلاقات بين المسلمين والكفّار، تشير إلى قضايا حساسة بالغة الأهميّة، وتحذر المؤمنين - ضمن تمثيل لطيف - بأن لا يتخذوا من الذين يفارقونهم في الدين والمسلك أصدقاء يسرّون إليهم ويخبرونهم بأسرارهم، وأن لا يطلعوا الأجانب على ما تحتفظ به صدورهم وما خفي من نواياهم وأفكارهم الخاصّة بهم، قال سبحانه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً[٢] مِّن دُونِكُمْ...﴾.

وهذا يعني أنّ الكفّار لا يصلحون لمواصلة المسلمين ومصادقتهم، كما لا يصلحون بأن يكونوا أصحاب سر لهم، وذلك لأنّهم لا يتورعون عن الكيد والإيقاع بهم ما استطاعوا: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[٣].

فليست الصداقات والعلاقات بقادرة على أن تمنع أُولئك الكفّار - بسبب ما يفارقون به المسلمين في العقيدة والمسلك - من إضمار الشر للمسلمين، وتمني الشقاء والعناء لهم ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي أحبوا في ضمائرهم ودخائل نفوسهم لو أصابكم العنت والعناء.

إنّهم - لإخفاء ما يضمرونه تجاهكم - يحاولون دائماً أن يراقبوا تصرفاتهم، وأحاديثهم كيلا يظهر ما يبطنونه من شر وبغض لكم، بيد أن آثار ذلك العداء والبغض تظهر أحياناً في أحاديثهم وكلماتهم، عندما تقفز منهم كلمة أو أُخرى تكشف عن الحقد الدفين والحنق المستكن في صدورهم: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

وتلك حقيقة من حقائق النفس يذكرها الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام في إحدى

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير جامع البيان، ج ٤، ص ٨٢.

(٢) «البطانة» مأخوذة من بطانة الثوب، وهي الوجه الذي يلي البدن لقربه منه، ونقيضها «الظهارة» والبطانة في المقام كناية عن خاصة الرجل الذين يستبطنون أمره ويطلعون على أسراره.

(٣) «الخبال» في الأصل بمعنى ذهاب شيء، وهي تطلق في الأغلب على الأضرار التي تؤثر على عقل الإنسان وتلحق به الضرر.

كلماته إذ يقول: «ما أضمر أحد شيئاً إلّا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه»(١).

إنّه لا بدّ أن يَرْشَح شيء إلى الخارج إذا ما امتلأ الداخل، كما يطفح الكيل فتنفضح السرائر، وتبدو الدخائل.

وقد أوضح الله سبحانه في هذه الآية إحدى سبل التعرف على بواطن الأعداء ودخائل نفوسهم، ثمّ إنّه سبحانه يقول: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي أنّ ما يبدو من أفواههم ما هو إلّا شرارة تحكي عن تلك النار القوية الكامنة في صدورهم.

ثمّ إنّه تعالى يضيف قائلاً: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي أنّ ما ذكرناه من الوسيلة للتعرف على العدو أمر في غاية الأهميّة لو كنتم تتدبرون فيه، فهو يوقفكم على وسيلة جداً فعالة لمعرفة ما يكنّه الآخرون ويضمرونه تجاهكم، وهو أمر في غاية الخطورة بالنسبة لأمنكم وحياتكم وبرامجكم.

البغض في مقابل الحبّ

يحسب بعض المسلمين أن في مقدورهم أن يكسبوا حبّ الأعداء والأجانب إذا أعطوهم حبهم وودهم، وهو خطأ فظيع، وتصور باطل، يقول سبحانه: ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

إنّه سبحانه يخاطب هذا الفريق من المسلمين ويقول لهم: إنّكم تحبّون من يفارقكم في الدين لما بينكم من الصداقة أو القرابة أو الجوار، وتظهرون لهم المودّة والمحبّة، والحال أنّهم لا يحبّونكم أبداً، وتؤمنون بكتبهم وكتابكم المنزل من السماء - على السواء - في حين أنّهم لا يؤمنون بكتابكم ولا يعترفون بأنّه منزل من السماء.

إنّ هذا الفريق من أهل الكتاب ينافقون ويخادعون ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

ولا شكّ أنّ هذا الغيظ لن يضر المسلمين في الواقع، إذن فقل لهم يا رسول الله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ واستمروا على هذا الحنق فإنه لن يفارقكم حتى تموتوا.

هذه هي حقيقة الكفّار التي غفلتم عنها، ولم يغفل عنها سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

ثمّ إنّ الله يذكر علامة أُخرى من علائم العداوة الكامنة في صدور الكفّار إذ يقول: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الحكمة ٢٦.

ولكن هل تضر هذه العداوة وما يلحقها من ممارسات ومحاولات شريرة بالمسلمين؟

هذا ما يجيب عنه ذيل الآية الحاضرة حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وعلى هذا يستفاد من ذيل هذه الآية أنّ أمن المسلمين، وسلامة حوزتهم من كيد الأعداء، يتوقف على استقامة المسلمين وحذرهم وتقواهم، ففي مثل هذه الحالة فقط يمكنهم أن يضمنوا أمنهم وسلامتهم من كيد الكائدين.

تحذير للمسلمين

حذر الله سبحانه المسلمين في هذه الآية من أن يتخذوا أعداءهم بطانة يسرّون إليهم بأسرارهم وأُمورهم وهو تحذير عام لا يختص بزمان دون زمان، ولا بمكان دون مكان، ولا بطائفة من المسلمين دون طائفة.

فلابدّ أن يحذر المسلمون من هذا العمل في جميع الأزمنة والأمكنة، حفاظاً على أمن المسلمين وكيانهم.

ولكننا مع الأسف نجد الكثيرين من أتباع القرآن قد غفلوا عن هذا التحذير الإلهي المهم، فتعرضوا لتبعات هذا العمل وآثاره السلبية.

فها نحن نجد أعداء كثيرين يحيطون بالمسلمين من كلّ جانب، يتظاهرون بمحبّة المسلمين وصداقتهم، وربّما أعلنوا تأييدهم في بعض الأُمور، ولكنهم بما يظهرون - في بعض الأحيان - من مواقف عدائية يكشفون عن كذبهم، ومع ذلك ينخدع المسلمون بما يتظاهر هؤلاء الأعداء به من صداقة وحب وتأييد، ويعتمدون عليهم أكثر ممّا يعتمدون على إخوانهم من المسلمين المشاركين لهم في العقيدة والمصير، في حين أنّ الأعداء والأجانب لا يريدون للأمة الإسلامية إلّا الشقاء والتأخر، وإلّا الهلاك والدمار، ولا يألون جهداً في إثارة المشاكل في وجه المسلمين وإيجاد الصعوبات في حياتهم.

ولا نذهب بعيداً، فإنّ الأعوام الأخيرة شهدت حربين بين المسلمين وأعدائهم الصهاينة، ففي الحرب الأُولى (حرب حزيران) تحمل المسلمون هزيمة ساحقة ونكسة فاضحة، في حين أنّهم في حربهم الثانية (حرب رمضان) استطاعوا تحقيق انتصارات باهرة على الأعداء وتغيّرت الخارطة السياسية لصالحهم، وتمكنوا من دفن أُسطورة الجيش الإسرائيلي والرعب والخوف في صحراء سيناء وهضبة الجولان منذ الأيّام الأُولى للحرب، وذاق المسلمون أخيراً طعم النصر لأول مرّة في العقود الأخيرة.

ماذا حصل في هذه المدّة القصيرة التي شهدت هذا التحول الكبير؟ الجواب بحاجة إلى بحث طويل، ولكن من المتيقّن أنّ أحد الأسباب المؤثرة في تلك الهزيمة وهذا النصر هو أنّ الأجانب والذين كانوا يظهرون الود والصداقة للمسلمين كانوا على علم بأمر الحرب وتفاصيلها، ولكن في الحرب الثانية لم يطلع على أسرار الحرب سوى اثنين أو ثلاثة من رؤساء البلدان الإسلامية، وهذا هو أحد عوامل النصر، وشاهد حيّ على عظمة هذا الدستور السماوي والقرآني.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

التّفسير

من هنا تبدأ الآيات التي نزلت حول واحدة من أهم الأحداث الإسلامية ألا وهي معركة (أُحد) لأنّ القرائن التي توجد في الآيتين الحاضرتين يستفاد منها أنّ هاتين الآيتين نزلتا بعد معركة أُحد، وتشير إلى بعض وقائعها المرعبة، وعلى هذا أكثر المفسّرين.

في البدء تشير الآية الأُولى إلى خروج النّبي ﷺ من المدينة لاختيار المحل الذي يعسكر فيه عند (أُحد) وتقول: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ﴾.

أي واذكر عندما خرجت غدوة من المدينة تهيىء للمؤمنين مواطن للقتال لغزوة أُحد.

ولقد كانت بين المسلمين في ذلك اليوم آراء مختلفة وكثيرة - كما ستعرفها قريباً - حول الموطن الذي ينبغي أن يعسكر فيه المسلمون، بل وكيفية مقابلة الأعداء القادمين، وأنّه يتعيَّن عليهم أن يتحصنوا بالمدينة، أم يخرجوا إليهم ويحاربوهم خارجها.

ولقد كان هناك خلاف شديد في الرأي بين المسلمين في هذه الأُمور، فاختار النّبي ﷺ بعد المشاورة رأي الأغلبية، والتي كانت تتألف - في الأكثر - من الشباب المتحمسين، وهو الخروج من المدينة ومقاتلة العدو خارجها، بعد الاستقرار عند جبل أُحد.

ومن الطبيعي أن يكون هناك بين المسلمين من كان يخفي أشياء وأُموراً يحجم عن الإفصاح بها لعلل خاصّة، ومن الممكن أن تكون عبارة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ناظرة إلى هذه الأُمور المكنونة، فهو سبحانه سميع لما يقولون، عليم بما يضمرون.

ثمّ إنّ الآية الثانية تشير إلى زاوية أُخرى من هذا الحدث إذ تقول: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

والطائفتان كما يذكر المؤرخون هما بنو سلمة من الأوس وبنو حارثة من الخزرج.

فقد صممت هاتان الطائفتان على التساهل في أمر هذه المعركة والرجوع إلى المدينة، وهمّتا بذلك.

وقد كان سبب هذا الموقف المتخاذل هو أنّهما كانتا ممّن يؤيد فكرة البقاء في المدينة ومقاتلة الأعداء داخلها بدل الخروج منها والقتال خارجها، وقد خالف النّبي هذا الرأي، مضافاً إلى أنّ عبد الله بن أبي سلول الذي التحق بالمسلمين على رأس ثلاثمائة من اليهود عاد هو وجماعته إلى المدينة، لأنّ النّبي ﷺ عارض بقاءهم في عسكر المسلمين، وقد تسبب هذا في أن تتراجع الطائفتان المذكورتان عن الخروج مع النّبي وتعزما على العودة إلى المدينة من منتصف الطريق.

ولكن يستفاد من ذيل الآية أنّ هاتين الطائفتين عدلتا عن هذا القرار، واستمرتا في التعاون مع بقية المسلمين، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني أنّ الله ناصرهما فليس لهما أن تفشلا إذا كانتا تتوكلان على الله بالإضافة إلى تأييده سبحانه للمؤمنين.

ثمّ لا بدّ من التنبيه إلى نقطة هامة وهي أن ذكر هذه المقاطع من غزوة أُحد بعد الآيات السابقة التي تحدثت عن لزوم عدم الوثوق بالكفّار، إشارة إلى نموذج واحد من هذه الحقيقة، لأنّ النّبي - كما أسلفنا وكما سيأتي تفصيله - لم يسمح ببقاء اليهود - الذين تظاهروا بمساعدة المسلمين - في المعسكر الإسلامي، لأنّهم كانوا أجانب على كلّ حال، ولا يمكن السماح لهم بأن يبقوا بين صفوف المسلمين فيطلعوا على أسرارهم في تلك اللحظات الخطيرة، وأن يكونوا موضع اعتماد المسلمين في تلك المرحلة الحساسة.

بحث

سبب غزوة أُحد

هنا لا بدّ من الإشارة - قبل أي شيء - إلى مجموعة الحوادث التي وقعت في هذه الغزوة، فإنّه يستفاد من الروايات والنصوص التاريخية الإسلامية، أنّ قريشاً لما رجعت

من بدر إلى مكّة وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، لأنّه قتل منهم سبعون شخصاً وأسر سبعون شخصاً، وقال أبو سفيان: يا معشر قريش لا تدعوا نساءكم يبكين على قتلاكم فإنّ الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والعداوة لمحمّد وأخذ أبو سفيان على نفسه العهد على أن لا يقرب فراش زوجته ما لم ينتقم لقتلى بدر.

وهكذا ألّبت قريش الناس على المسلمين وحركتهم لمقاتلتهم وسرت نداءات (الانتقام، الانتقام) في كلّ نواحي مكّة.

وفي السنة الثالثة للهجرة عزمت قريش على غزو النّبي، وخرجوا من مكّة في ثلاثة آلاف فارس وألفي راجل، مجهزين بكلّ ما يحتاجه القتال الحاسم، وأخرجوا معهم النساء والأطفال والأصنام، ليثبتوا في ساحات القتال.

العباس يرفع تقريراً إلى النّبي

لم يكن العباس عمّ النّبي قد أسلم إلى تلك الساعة، بل كان باقياً على دين قريش، ولكنه كان يحب ابن أخيه غاية الحب، ولهذا فإنّه عندما عرف بتعبئة قريش وعزمهم الأكيد على غزو المدينة ومقاتلة النّبي، بادر إلى إخبار النّبي، محمّلاً غفارياً (من بني غفار) رسالة عاجلة يذكر فيها الموقف في مكّة وعزم قريش، وكان الغفاري يسرع نحو المدينة، حتى أبلغ النّبي رسالة عمه العباس، ولما عرف ﷺ بالخبر التقى سعد بن أبي وقّاص وأخبره بما ذكره له عمه، وطلب منه أن يكتم ذلك بعض الوقت.

النّبي يشاور المسلمين

عمد النّبي - بعد أن بلغته رسالة عمه العباس - إلى بعث رجلين من المسلمين إلى طرق مكّة والمدينة للتجسس على قريش، وتحصيل المعلومات الممكنة عن تحركاتها.

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الرجلان وأخبرا النّبي بما حصلا عليه حول قوات قريش وأنّ هذه القوات الكبيرة يقودها أبو سفيان.

وبعد أيّام استدعى النّبي ﷺ جميع أصحابه وأهل المدينة لدراسة الموقف، وما يمكن أو يجب اتخاذه للدفاع، وبحث معهم في أمر البقاء في المدينة ومحاربة الأعداء الغزاة في داخلها، أو الخروج منها ومقاتلتهم خارجها، فاقترح جماعة قائلين «لا نخرج من المدينة حتى نقاتل في أزقتها فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة على أفواه السكك وعلى السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا ونحن في حصوننا ودروبنا وما خرجنا إلى عدو لنا قط إلّا كان الظفر لهم علينا، وكان هذا هو ما قاله (عبد الله بن أُبي).

وقد كان النّبي ﷺ يميل إلى هذا الرأي نظراً لوضع المدينة يومذاك، فقد كان ﷺ يرغب في البقاء في المدينة ومقاتلة العدو في داخلها، إلّا أنّ فريقاً من الشباب الأحداث الذين رغبوا في الشهادة وأحبّوا لقاء العدو، خالفوا هذا الرأي الذي كان عليه الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: اخرج بنا إلى عدونا، وقام سعد بن معاذ وغيره من الأوس فقالوا: يا رسول الله ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يطمعون فينا وأنت فينا، لا، حتى نخرج إليهم فنقاتلهم فمن قتل منّا كان شهيداً، ومن نجا منّا كان قد جاهد في سبيل الله، وقال مثلها الآخرون.

وهكذا تزايدت الطلبات بالخروج من المدينة ومقابلة العدو خارجها حتى أصبح المقترحون بالبقاء أقلية.

فوافقهم النّبي ﷺ - رغم أنّه كان يميل إلى البقاء في المدينة - احتراماً لمشورتهم، ثمّ خرج مع أحد أصحابه ليرتب مواضع استقرار المقاتلين المسلمين خارج المدينة واختار الشعب من جبل (أُحد) لاستقرار الجيش الإسلامي باعتباره أفضل مكان من الناحية العسكرية والدفاعية.

المسلمون يتهيّأون للدفاع

لقد استشار النّبي أصحابه في هذه المسألة يوم الجمعة، ولذلك فإنّه بعد انتهاء المشاورة قام يخطب لصلاة الجمعة وقال بعد حمد الله والثناء عليه:

«انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم».

ثمّ تولى ﷺ بنفسه قيادة المقاتلين وقد أمر بأن تعقد ثلاثة ألوية، دفع واحداً منها للمهاجرين، واثنين منها للأنصار، ثمّ إنّ النّبي قطع المسافة بين المدينة وأُحد مشياً على الأقدام، وكان يستعرض جيشه طوال الطريق، ويرتب صفوفهم، يقول المؤرخ المعروف الحلبي في سيرته:

وسار إلى أن وصل رأس الثنية وعندها وجد كتيبة كبيرة فقال ﷺ ما هذا؟ قالوا: هؤلاء خلفاء عبد الله بن أُبي اليهودي فقال ﷺ: أسلموا؟ فقيل: لا، فقال ﷺ: «إنّا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك» فردّهم، ورجع عبد الله بن أُبي اليهودي ومن معه من أهل النفاق وهم ثلاثمائة رجل[1].

ولكن المفسّرين كتبوا أن عبد الله بن أُبي رجع من أثناء الطريق مع جماعة من أعوانه، يبلغون ثلاثمائة رجل، لأنّه لم يؤخذ برأيه في الشورى.

---

(١) السيرة الحلبية المجلد الثاني الصفحة ٢٣٣.

وعلى أي حال فإنّ النّبي ﷺ بعد أن أجرى التصفية اللازمة في صفوف جيشه واستغنى عن بعض أهل الريب والشكّ والنفاق استقر عند الشعب من أُحد في عدوة الوادي إلى الجبل وجعل أُحداً خلف ظهره واستقبل المدينة.

وبعد أن صلّى بالمسلمين الصبح صف صفوفهم وتعبأ للقتال.

فأمّر على الرماة عبد الله بن جبير والرماة خمسون رجلاً جعلهم ﷺ على الجبل خلف المسلمين وأوعز إليهم قائلاً:

«إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكّة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا مراكزكم».

ومن جانب آخر، وضع أبو سفيان خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً يتحينون الفرصة للتسلل من ذلك الشعب ومباغتة المسلمين من ورائهم وقالوا: (إذا رأيتمونا قد اختلطنا فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا وراءهم).

بدء القتال

ثمّ اصطف الجيشان للحرب، وراح كلّ واحد منهما يشجع رجاله على القتال بشكل من الأشكال ويحرضهم على الجلاد بما لديه من وسيلة.

وقد كان أبو سفيان يحرض رجاله باسم الأصنام ويغريهم بالنساء الجميلات.

وأمّا النّبي ﷺ فقد كان يحث المسلمين على الصمود والاستقامة، مذكراً إيّاهم بالنصر الإلهي والتأييدات الربانية.

ها هي تكبيرات المسلمين ونداءات (الله أكبر، الله أكبر) تدوي في جنبات ذلك المكان، وتملأ شعاب أُحد وسهولها، بينما تحرض هند والنسوة اللاتي معها من نساء قريش وبناتها الرجال ويضربن بالدفوف ويقرأن الأشعار المثيرة.

وبدأ القتال وحمل المسلمون على المشركين حملة شديدة هزمتهم شر هزيمة، وألجأتهم إلى الفرار وراح المسلمون يتعقبونهم ويلاحقون فلولهم.

ولما علم خالد بهزيمة المشركين وأراد أن يتسلل من خلف الجبل ليهجم على المسلمين من الخلف رشقه الرماة بنبالهم، وحالوا بينه وبين الوقيعة بالمسلمين.

هذه الهزيمة النكراء التي لحقت بالمشركين دفعت ببعض المسلمين الجديدي العهد بالإسلام إلى التفكر في جمع الغنائم والانصراف عن الحرب، بظن أنّ المشركين هزموا هزيمة كاملة، حتى إنّ بعض الرماة تركوا مواقعهم في الجبل متجاهلين تذكير قائدهم عبد

الله بن جبير إيّاهم بما أوصاهم به النّبي ﷺ ولم يبق معه إلّا قليل ظلوا يحافظون على تلك الثغرة الخطرة في الجبل محافظة على المسلمين.

فتنبه خالد بن الوليد إلى قلّة الرماة في ذلك المكان، فكر راجعاً بالخيل - وعددهم مائتا رجل كانوا معه في الكمين - فحملوا على عبد الله بن جبير ومن بقي معه من الرماة وقتلوهم بأجمعهم، ثمّ هجموا على المسلمين من خلفهم.

وفجأة وجد المسلمون أنفسهم وقد أحاط بهم العدو بسيوفهم، وداخلهم الرعب، فاختل نظامهم، وأكثر المشركون من قتل المسلمين فاستشهد - في هذه الكرة - حمزة سيد الشهداء وطائفة من أصحاب النّبي الشجعان، وفر بعضهم خوفاً، ولم يبق حول النّبي سوى نفر قليل جداً يدافعون عنه ويردون عنه عادية الأعداء، وكان أكثرهم دفاعاً عن النّبي ﷺ ورداً لهجمات العدو، وفداء بنفسه هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يذب عن النّبي الطاهر ببسالة منقطعة النظير، حتى إنّه تكسر سيفه فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه المسمى بذي الفقار، ثمّ تترس النّبي بمكان، وبقي علي عليه السلام يدفع عنه حتى لحقه - حسب ما ذكره المؤرخون - ما يزيد عن ستين جراحة في رأسه ووجهه، ويديه وكلّ جسمه المبارك، وفي هذه اللّحظة قال جبرائيل (إنّ هذه لهي المواساة يا محمّد) فقال النّبي ﷺ «إنّه منّي وأنا منه»(١) فقال جبرائيل: «وأنا منكما».

قال الإمام الصادق عليه السلام: نظر رسول الله ﷺ إلى جبرائيل بين السماء والأرض وهو يقول: «لاسيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي»(٢).

وفي هذه اللحظة صاح صائح: قتل محمّد.

من الصائح: قتل محمّد؟

يذهب بعض المؤرخين إلى أن ابن قمئة الذي قتل الجندي الإسلامي البطل مصعب بن عمير وهو يظن أنّه النّبي، هو الذي صاح: واللات والعزى: لقد قتل محمّد!.

وسواء كانت هذه الشائعة من جانب المسلمين، أو العدو فإنّها - ولا ريب - كانت في صالح الإسلام والمسلمين لأنّها جعلت العدو يترك ساحة القتال ويتجه إلى مكّة بظنّه أنّ النّبي قد قتل وانتهى الأمر، ولولا ذلك لكان جيش قريش الفاتح الغالب لا يترك المسلمين حتى يأتي على آخرهم لما كانوا يحملونه من غيظ وحنق على النّبي، بل ولما

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣٨، ص ١٨٨.

(٢) تفسير مجمع البيان ج ١، ص ٤٩٧.

كانوا يتركون ساحة القتال حتى يقتلوا رسول الله لأنهم لم يجيئوا إلى أُحد إلّا لهذه الغاية.

لم يرد ذلك الجيش الذي كان قوامه ما يقارب خمسة آلاف - وبعد تلك الانتصارات - أن يبقى ولو لحظة واحدة في ساحة القتال، ولذلك غادرها في نفس الليلة إلى مكّة، وقبل أن يندلع لسان الصباح.

إلّا أنّ شائعة مقتل النّبي ﷺ أوجدت زلزالاً كبيراً في نفوس بعض المسلمين، ولذلك فر هؤلاء من ساحة المعركة.

وأمّا من بقي من المسلمين في الساحة فقد عمدوا - بهدف الحفاظ على البقية من التفرق وإزالة الخوف والرعب عنهم - إلى أخذ النّبي ﷺ إلى الشعب من أُحد ليطلع المسلمون على وجوده الشريف ويطمئنوا إلى حياته. وهكذا كان، فإنّهم لما عرفوا رسول الله ﷺ عاد الفارون وآب المنهزمون واجتمعوا حول الرسول ولامهم النّبي ﷺ على فرارهم في تلك الساعة الخطيرة، فقالوا يا رسول الله أتانا الخبر بأنّك قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين.

وهكذا لحقت بالمسلمين - في معركة أُحد - خسائر كبيرة في الأموال والنفوس، فقد قتل منهم في هذه الموقعة اثنان وسبعون من المسلمين في ميدان القتال، كما جرح جماعة كبيرة، ولكنهم أخذوا من هذه الهزيمة والنكسة درساً كبيراً ضمن انتصاراتهم في المعارك القادمة، وسوف نعرض بتفصيل عند دراسة الآيات القادمة لآثار هذه الحادثة الكبرى بإذن الله سبحانه(١).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ
لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾
بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْ
يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

(١) الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٥٤٧ وما بعد.

التفسير

المرحلة الخطيرة من الحرب:

بعد انتهاء معركة أُحد عاد المشركون المنتصرون إلى مكّة بسرعة، ولكنّهم بدا لهم في أثناء الطريق أن لا يتركوا هذا الانتصار دون أن يكملوه ويجعلوه ساحقاً، أليس من الأحسن أن يعودوا إلى المدينة، وينهبوها ويلحقوا بالمسلمين مزيداً من الضربات القاضية وأن يقتلوا محمّداً ﷺ إذا كان لايزال حيّاً ليتخلصوا من الإسلام والمسلمين ويطمئن بالهم من ناحيتهم بالمرّة.

لهذا صدر قرار العودة إلى المدينة، ولا ريب أنّه كان أخطر مراحل معركة أُحد بالنظر إلى ما كان قد لحق بالمسلمين من القتل والجراحة والخسائر، الذي كان قد سلب منهم كلّ طاقة للدخول في معركة جديدة أو لاستئناف القتال، فيما كان العدو في ذروة القوّة والروحية العسكرية التي كانت تمكّن العدو من تحقيق انتصارات جديدة، وإحراز النتيجة لصالحه، فنهاية هذه العودة ونتيجتها كانت معروفة سلفاً.

وقد بلغ خبر العودة هذه إلى النّبي ﷺ، ولولا شهامته البالغة، وقدرته المكتسبة من الوحي على الأخذ بزمام المبادرة لانتهى تاريخ الإسلام وحياته عند تلك النقطة.

في هذه المرحلة الحساسة بالذات نزلت الآيات الحاضرة لتقوي روحية المسلمين وتصعد من معنوياتهم، وفي أعقاب ذلك صدر أمر من النّبي إلى المسلمين بالتهيؤ لمقابلة المشركين، فاستعد جميع المسلمين حتى المجروحين (ومنهم الإمام علي عليه السلام الذي كان يحمل في جسمه أكثر من ستين جراحة) لمقابلة المشركين، وخرجوا بأجمعهم من المدينة لذلك.

فبلغ هذا الخبر مسامع زعماء قريش فأرعبتهم هذه المعنوية العالية التي يتمتع بها المسلمون وظنوا أنّ عناصر جديدة التحقت بالمسلمين وأن هذا يمكن أن يغير نتائج المواجهة الجديدة لصالح المسلمين، ولذلك فكروا في العدول عن قرارهم بمهاجمة المدينة، حفاظاً على قواهم، وهكذا قفلوا راجعين إلى مكّة بسرعة، وانتهت القضية عند هذا الحدّ.

وإليك شرحاً للآيات التي نزلت لتقوّي روحية المسلمين، وتجبر ما نزل بهم من هزيمة في هذه المعركة.

فقد بدأت هذه الآيات بتذكير المسلمين بما تحقق لهم من نصر ساحق بتأييد الله لهم

في بدر[١] إذ قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ وقد كان الهدف من هذا التذكير هو شد عزائم المسلمين وزرع الثقة في نفوسهم والاطمئنان إلى قدراتهم، والأمل بالمستقبل، فقد نصرهم الله وهم على درجة كبيرة من الضعف، وقلة العدد وضآلة العدة (حيث كان عددهم ٣١٣ مع إمكانيات بسيطة قليلة، وكان عدد المشركين يفوق ألف مقاتل مع إمكانيات كبيرة)[٢].

فإذا كان الأمر كذلك فليتقوا الله، وليجتنبوا مخالفة أوامر النّبي ﷺ ليكونوا بذلك قد أدوا شكر المواهب الإلهية ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ثمّ تتعرض الآية اللاحقة لذكر بعض التفاصيل حول ما جرى في بدر إذ قالت: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ أي اذكروا واذكر أيّها النّبي يوم كنت تقول للمسلمين الضعفاء آنذاك اخرجوا وسيمدكم الله بالملائكة ألا يكفيكم ذلك لتحقيق النصر الساحق على جحافل المشركين المدججين بالسلاح؟

نعم، أيّها المسلمون لقد تحقّق لكم ذلك في بدر نتيجة صبركم واستقامتكم، واليوم يتحقّق لكم ذلك أيضاً إذا أطعتم أوامر النّبي، وسرتم وفق تعليماته وصبرتم: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ[٣] هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

على أن نزول الملائكة هذا لن يكون هو العامل الأساسي لتحقيق هذا الانتصار لكم بل النصر من عند الله، وليس نزول الملائكة إلّا لتطمئن قلوبكم ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فهو العالم بسبل النصر ومفاتيح الظفر، وهو القادر على تحقيقه.

ثمّ إنّه سبحانه عقب هذه الآيات بقوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾.

وهذه الآية وإن ذهب المفسّرون في تفسيرها مذاهب مختلفة، إلّا أنّها - في ضوء ما ذكرناه في تفسير الآيات السابقة بمعونة الآيات نفسها وبمعونة الشواهد التاريخية - واضحة المراد بيّنة المقصود كذلك، فهي تقصد أن تأييد الله للمسلمين بإنزال الملائكة عليهم إنّما هو لأجل القضاء على جانب من قوّة العدو العسكرية، وإلحاق الذلة بهم.

---

(١) «بدر» سميت بدر لأنّ الماء كان لرجل من جهينة اسمه بدر (مجمع البحرين).
وبدر من حيث اللغة يعني الممتلىء الكامل. ولهذا سمي القمر إذا امتلأ: بدراً.

(٢) الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٥٢٦.

(٣) «الفور» السرعة التي تقلب المعادلات كما تفور القدر وتقلب محتوياتها بسرعة.

يبقى أن نعرف أن (طرف) الشيء يعني جانبه وقطعة منه، وأمّا (يكبتهم) فيعني الرد بعنف وإذلال.

ثمّ إنّ هاهنا أسئلة تطرح نفسها حول كيفية نصرة الملائكة للمسلمين ومساعدتهم على تحقيق الانتصار فسنجيب عليها - بإذن الله - لدى تفسير الآيات ٧ - ١٢ من سورة الأنفال.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

التّفسير

وقع بين المفسّرين في تفسير هذه الآية كلام كثير، إلّا أنّ ما هو مسلّم به تقريباً هو أنّ الآية الحاضرة نزلت بعد معركة أُحد وهي ترتبط بأحداث تلك المعركة، والآيات السابقة تؤيد هذه الحقيقة أيضاً.

ثمّ إنّ هناك معنيين يلفتان النظر من بين المعاني المذكورة في تفسير هذه الآية وهما:

أولاً: إنّ هذه الآية تشكل جملة مستقلة، وعلى هذا تكون جملة ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى (إلّا أن يتوب عليهم) ويكون معنى مجموع الآية كالتالي: ليس لك حول مصيرهم شيء، فإنّهم قد استحقوا العذاب بما فعلوه، بل ذلك إلى الله، يعفو عنهم إن شاء أو يأخذهم بظلمهم، والمراد بالضمير (هم) إمّا الكفّار الذين ألحقوا بالمسلمين ضربات مؤلمة، حتى إنّهم كسروا رباعية النّبي ﷺ، وشجّوا جبينه المبارك، وإمّا المسلمون الذين فروا من ساحة المعركة، ثمّ ندموا على ذلك بعد أن وضعت الحرب أوزارها واعتذروا للنبي ﷺ وطلبوا منه العفو.

فالآية تقول: إنّ العفو عنهم، أو معاقبتهم على ما فعلوا، أمر يعود إلى الله تعالى، وإنّ النّبي ﷺ لن يفعل شيئاً بدون إذنه سبحانه.

وهناك تفسير آخر، وهو أن يعتبر قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ جملة اعتراضية، وتكون جملة ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ جملة معطوفة على ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ وتعتبر هذه الآية متصلة بالآية السابقة.

وعلى هذا يكون المراد من مجموع الآيتين، السابقة والحاضرة هو: إنّ الله سيمكّنكم من وسائل النصر ويصيب الكفّار بإحدى أُمور أربعة: إمّا أن يقطع طرفاً من جيش المشركين، أو يردهم على أعقابهم خائبين مخزيين، أو يتوب عليهم إذا أصلحوا، أو

يعذبهم بظلمهم، وعلى كلّ حال فإنّه سيعامل كلّ طائفة وفق ما تقتضيه الحكمة والعدالة، وليس لك أن تتخذ أي موقف من عندك إذ كلّ ذلك إلى الله تعالى.

ولقد نقلت في سبب نزول هذه الآية روايات عديدة منها أنّه لما كان من المشركين يوم أُحد ما كان من كسر رباعية الرسول ﷺ وشجّه حتى جرى الدم على وجهه الشريف، ولحق بالمسلمين ما لحق من الخسائر في الأرواح والإصابات في الأبدان قلق النّبي ﷺ على مصير أُولئك القوم، وفكر في نفسه، كيف يمكن أن تهتدي تلك الجماعة المتمادية في غيها وعنادها وقال: (كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم)؟[1] فنزلت الآية وأخبره تعالى فيها أنّه ليس له إلّا ما أُمر به من تبليغ الرسالة ودعائهم إلى الهدى، فهو ليس مسؤولاً عن هدايتهم إن لم يهتدوا ولم يستجيبوا لندائه.

تصحيح خطأ

لابدّ هنا من الانتباه إلى نقطتين:

١ - إنّ المفسّر المعروف صاحب تفسير (المنار) يعتقد أنّ هذه الآية تُعلم المسلمين درساً كبيراً في مجال الاستفادة من الوسائل والأسباب الطبيعية للنصر، وأنّ وعد الله لهم بإنزال النصر عليهم، ليس بمعنى أن للمسلمين أن يتجاهلوا الوسائل الحربية، والتخطيط العسكري، وما شاكل ذلك من الأسباب المادية اللازمة للقتال ولتحقيق الانتصار، وانتظار أن يدعو لهم النّبي لينزل عليهم النصر الإلهي، دون الأخذ بالأسباب القتالية المتعارفة، ولهذا جاءت الآية تخاطب النّبي قائلة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ بمعنى أنّ أمر النصر لم يوكل إليك، بل هو إلى الله، وقد جعل الله لتحقيقه سنناً ونواميس يجب أن يستخدمها الناس حتى يتحقّق لهم النصر والغلبة (وبالتالي فإن دعاء النّبي وإن كان مؤثراً ومفيداً، إلّا أنّ له موارد استثنائية خاصّة).

وهذا الكلام وإن كان منطقياً في حد ذاته، إلّا أنه لا يلائم ما جاء في ذيل الآية إذ يقول سبحانه: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ ولهذا لا يمكن تفسير الآية بما قاله هذا الكاتب.

٢ - إنّ هذه الآية وإن كانت تنفي أن يكون للنّبي الحقّ في أن يغفر للكفّار والمشركين أو يعذبهم، إلّا أنّها لا تتعارض مع ما يستفاد من الآيات الأُخرى من تأثير دعائه ﷺ

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ١٠٢؛ وتفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٧١.

وعفوه وشفاعته، لأنّ المقصود في الآية الحاضرة هو نفي أن يكون للنّبي كلّ ذلك على نحو الاستقلال، هذا لاينافي أن يكون له كلّ ذلك (من العفو أو المجازاة) بإذن الله سبحانه.

فله بالتالي أن يعفو - بإذن الله - لمن أراد، أو يجازي حيث تصح المجازاة، كما أنّ له أن يهيىء عوامل النصر وأسباب الظفر، بل وله - بإذن الله - أن يحيي الموتى كما كان يفعل المسيح عليه السلام بإذنه سبحانه.

إنّ الذين تمسكوا بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ لنفي وإنكار قدرة الرسول على هذا الأمر نسوا - في الحقيقة - الآيات القرآنية الأُخرى في هذا المجال.

فالقرآن الكريم يقول في سورة النساء الآية ٦٤: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

فاستغفار النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عُدَّ - طبق هذه الآية - من العوامل المؤثرة لمغفرة الذنوب، وسوف نوضح هذه الحقيقة في أبحاثنا القادمة عند تفسير الآيات المناسبة إن شاء الله.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

التّفسير

هذه الآية - في الحقيقة - تأكيد لمفاد الآية السابقة، فيكون المعنى هو أنّ العفو أو المجازاة ليس بيد النّبي، بل هو لله الذي بيده كلّ ما في السماوات وكلّ ما في الأرض، فهو الحاكم المطلق لأنّه هو الخالق، فله الملك وله التدبير، وعلى هذا الأساس فإنّ له أن يغفر لمن يشاء من المذنبين، أو يعذّب، حسب ما تقتضيه الحكمة، لأنّ مشيئته تطابق الحكمة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾.

ثمّ إنّه سبحانه يختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تنبيهاً إلى أنّه وإن كان شديد العذاب، إلّا أنّ رحمته سبقت غضبه، فهو غفور رحيم قبل أن يكون شديد العقاب والعذاب.

وهنا يحسن بنا أن نشير إلى ما ذكره أحد كبار العلماء المفسّرين الإسلاميين وهو العلّامة الطبرسي من سؤال وجواب حول هذه الآية، لكونه على اختصاره في غاية الأهميّة من الناحية الاعتقادية، فقد ذكر في ذيل هذه الآية أنّه سُئل بعض العلماء: كيف يعذب الله عباده بذنوبهم مع سعة رحمته؟

فقال: «رحمته لا تغلب حكمته، إذ لا تكون رحمته برقة القلب كما تكون الرحمة منّا».

بمعنى أنّ الرحمة الإلهيّة لا تكون على أساس عاطفي كما هو الحال فينا، بل إنّ رحمته ممتزجة دائماً مع حكمته، وحكمته توجب عقوبة المذنبين (إلّا في موارد خاصّة).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

التّفسير

حول الارتباط بين الآيات القرآنية

الآيات السابقة - كما عرفت - تحدثت حول معركة أُحد وحوادثها ووقائعها، والدروس والعبر المختلفة التي تعلمها منها المسلمون، غير أنّ هذه الآيات الثلاث، والآيات الست اللاحقة بها تحتوي على سلسلة من البرامج الاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية، ثمّ يستأنف القرآن بعد هذه الآيات التسع، حديثه حول معركة أُحد ووقائعها.

ويمكن أن يكون هذا النوع من الحديث والبيان مبعث استغراب ودهشة للبعض، إلّا أنّ الانتباه إلى مبدأ أساسي يوضح حقيقة هذا الأمر، ويكشف الغطاء عن سر هذا الأُسلوب. وذلك المبدأ هو:

إنّ القرآن ليس كتاباً كبقية الكتب ذات النمط الكلاسيكي الذي يعتمد نظام الفصول والأبواب الخاصّة، بل هو كتاب نزل (نجوماً) وبصورة تدريجية طوال ثلاثة وعشرين عاماً، وذلك طبقاً للاحتياجات التربوية المختلفة، وفي أماكن وأزمنة مختلفة، فيوم حدثت معركة أُحد ووقائعها نزلت الآيات التي تتحدث عمّا يرتبط بهذه المعركة من برامج وقضايا حربية، ويوم كانت الحاجة تتطلب بيان بعض البرامج والتعاليم الاقتصادية كالموقف من الربا، أو بعض المسائل الحقوقية كأحكام الزوجية أو بعض القضايا التربوية والأخلاقية كالتوبة كانت تنزل الآيات التي تتناول هذه الأُمور.

فيستنتج من هذا أنه قد لايوجد أي ارتباط خاص بين بعض الآيات وبين ما قبلها أو

ما بعدها، وليس من الضروري أن نبحث عن مثل هذا الارتباط - كما يحاول بعض المفسّرين ذلك - أو أن نتكلف افتعال ذلك بين قضايا لم يرد الله سبحانه الاتصال والإرتباط بينها، لأن مثل هذا العمل لا يتفق مع روح القرآن وكيفية نزوله في الحوادث المختلفة، والمناسبات المتنوعة وحسب الاحتياجات والظروف المنفصلة.

على أنّه لا ريب في أن جميع السور والآيات القرآنية مرتبطة ومترابطة على وجه، وهو أنّ جميعها تؤلف برنامجاً كاملاً ومنهاجاً متكاملاً مترابطاً لصنع الإنسان وصياغته، وتربيته بأفضل تربية وصياغة وأسماها، كما أنها بمجموعها نزلت لإيجاد مجتمع فاضل، واع متقدم في جميع الأبعاد والجوانب المادية والمعنوية.

وبما قلناه يعلل عدم ارتباط الآيات التسع التي أشرنا إليها مع ما تقدمها أو يلحقها من الآيات في هذه السورة المباركة.

تحريم الرّبا في مراحل

كلنا يعرف أنّ أُسلوب القرآن في مكافحة الانحرافات الاجتماعية المتجذرة في حياة الناس يعتمد معالجة الأُمور خطوة فخطوة، فهو أولاً يهيىء الأرضية المناسبة، ويُطلع الرأي العام على مفاسد ما يطلب محاربته ومكافحته، ثمّ بعد أن تتهيأ النفوس لتقبل التحريم النهائي يعلن عن التحريم في صيغته القانونية النهائية (ويتبع هذا الأُسلوب خاصّة إذا كان ذلك الأمر الفاسد ممّا استشرى في المجتمع، وكانت رقعة انتشاره واسعة).

كما أننا نعلم أيضاً أن المجتمع العربي في العهد الجاهلي كان مصاباً - بشدة - بداء الربا، حيث كانت الساحة العربية (وخاصّة مكّة) مسرحاً للمرابين، وقد كان هذا الأمر مبعثاً للكثير من المآسي الاجتماعية، ولهذا استخدم القرآن في تحريم هذه الفعلة النكراء أُسلوب المراحل، فحرم الربا في مراحل أربع:

١ - يكتفي في الآية ٣٩ من سورة الروم بتوجيه نصح أخلاقي حول الربا إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

بهذا يكشف عن خطأ الذين يتصورون أن الربا يزيد من ثروتهم، في حين أنّ إعطاء الزكاة والإنفاق في سبيل الله هو الذي يضاعف الثروة.

٢ - يشير - ضمن انتقاد عادات اليهود وتقاليدهم الخاطئة الفاسدة - إلى الربا كعادة سيئة من تلك العادات، إذ يقول في الآية ١٦١ من سورة النساء: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾.

٣ - يذكر في الآية الحاضرة - كما سيأتي تفسيرها المفصل - حكم التحريم بصراحة، ولكنه يشير إلى نوع واحد من أنواع الربا، وهو النوع الشديد والفاحش منه فقط.

٤ - وأخيراً أعلن في الآيات ٢٧٥ إلى ٢٧٩ من سورة البقرة عن المنع الشامل والشديد عن جميع أنواع الربا، واعتباره بمنزلة إعلان الحرب على الله سبحانه.

التحريم في الآية الحاضرة

قلنا إنّ الآية الحاضرة إشارة إلى الربا الفاحش معبرة عن ذلك بقوله ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾.

والمراد من (الربا الفاحش) هو أن تكون الزيادة الربوية تصاعدية، بمعنى أن تُضم الزيادة المفروضة أولاً على رأس المال ثمّ يصبح المجموع مورداً للربا، بمعنى أنّ الزيادة ثانياً تقاس بمجموع المبلغ (الذي هو عبارة عن رأس المال والزيادة المفروضة في المرة الأُولى) ثمّ تضم الزيادة المفروضة ثانياً إلى ذلك المبلغ، وتفرض زيادة ثالثة بالنسبة إلى المجموع[١].

وهكذا يصبح مجموع رأس المال والزيادة في كلّ مرّة رأس مال جديد تضاف عليه زيادة جديدة بالنسبة، وبهذا يبلغ الدين أضعاف المبلغ الأصلي المدفوع إلى المديون حتى يستغرق كلّ ماله.

ولهذا قال القرآن الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾.

ويستفاد من الأخبار والروايات أنّ الرجل - في الجاهلية - كان إذا تخلّف عن أداء دينه عند الموعد المقرر طلب من الدائن أن يضيف الزيادة على المبلغ ثمّ يؤخره إلى أجل آخر، وهكذا حتى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون.

وهذا هو السائد بعينه في عصرنا الحاضر ويفعله المرابون الكبار دون رحمة.

ولا شكّ أنّ مثل هذا الفعل يدر على أصحاب الأموال مبالغ ضخمة دون عناء، فلا يمكن الارتداع عنه إلّا بتقوى الله، ولهذا عقب سبحانه نهيه عن مثل هذا الربا الظالم بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولكن هل يكفي الأمر بتقوى الله والترغيب في الفلاح في صورة ترك الربا؟ أم لا بدّ

---

(١) فإذا كان أصل المبلغ المدفوع إلى المديون أول مرّة هو (١٠٠) والزيادة المفروضة (١٠) فإذا تخلف عن الأداء ضمت الزيادة (١٠) إلى المبلغ (١٠٠) فيكون رأس المال (١١٠) وأضيفت إلى المجموع زيادة بنسبة (١١٪) فإذا تخلف عن الأداء ثانياً، ضمت الزيادة (١١) إلى (١١٠) فكان المجموع (١٢١) وهكذا فصاعداً.

من التلويح بالعذاب الأخروي للمرابين؟ ولهذا قال سبحانه في الآية الثانية ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فهذه الآية تأكيد لحكم التقوى الذي مرّ في الآية السابقة.

ويوحي التعبير بـ(الكافرين) أن أخذ الربا لا يتفق أساساً مع روح الإيمان، ولهذا ينتظر المرابين ما ينتظر الكافرين من النار والعذاب.

كما يستفاد من ذلك أن النار أُعدت أساساً للكافرين، وينال العصاة والمذنبون من هذه النار بقدر شباهتهم بالكفّار، وتعاونهم معهم.

ثم إنّه سبحانه يمزج ذلك التهديد بشيء من التشجيع والترغيب للمطيعين والممتثلين لأوامره تعالى إذ يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

التفسير

السباق في مضمار السعادة

بعد أن هددت الآيات السابقة العصاة وتوعدتهم بالعذاب والجحيم، وبشّرت الأبرار المطيعين بالرحمة الإلهيّة وشوقتهم إليها جاءت الآية الأُولى من هذه الآيات تشبّه سعي المطيعين واجتهادهم بالسباق في المسابقة المعنوية التي تهدف إلى الوصول إلى الرحمة الإلهيّة، والنعم والعطايا الربانية الخالدة ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

(وسارعوا) تعني تسابق اثنين أو أكثر للوصول إلى هدف معين فيحاول كلّ واحد - باستخدام المزيد من السرعة - أن يسبق صاحبه ومنافسه وهو أمر مندوب في الأعمال والأخلاق الصالحة، ومقبوح مذموم في الأفعال السيئة والأخلاق القبيحة.

إنّ القرآن الكريم يستفيد هنا - في الحقيقة - من نقطة نفسية هي أنّ الإنسان لا يؤدّي عمله بسرعة فائقة إذا كان بمفرده، وكان العمل من النوع الروتيني، أمّا إذا اتخذ العمل طابع المسابقة والتنافس الذي يستعقب جائزة قيمة ومكافأة ثمينة نجده يستخدم كلّ طاقاته، ويزيد من سرعته لبلوغ ذلك الهدف، ونيل تلك الجائزة.

ثمّ إذا كان الهدف المجعول في هذه الآية هو (المغفرة) في الدرجة الأُولى فلأن الوصول إلى أي مقام معنوي لا يتأتى بدون المغفرة والتطهر من أدران الذنوب، فلا بدّ إذن من تطهير النفس من الذنوب أولاً، ثمّ الدخول في رحاب القرب الإلهي، ونيل الزلفى لديه.

هذا هو الهدف الأول.

وأمّا الهدف الثاني لهذا السباق المعنوي العظيم فهو (الجنّة) التي يصرح القرآن الكريم أن سعتها سعة السماوات والأرض ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

ثمّ إنّ هناك تفاوتاً قليلاً بين هذه الآية وبين الآية ٢١ من سورة الحديد ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ففي هذه الآية ذكرت لفظة (المسابقة) مكان (المسارعة) كما ذكرت السماء بصورة المفرد المصدّر بألف ولام الجنس الذي يفيد العموم.

كما استعمل هنا كاف التشبيه فيكون معنى هذه الآية هو أنّ سعة الجنّة مثل سعة السماء والأرض، ومعنى الآية المبحوثة هنا هو أنّ سعة الجنّة هي سعة السماوات والأرض فيكون المعنيان سواء.

ثم إنّه سبحانه يختم الآية الحاضرة بقوله ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهذه الجنّة العظيمة الموصوفة بتلك السعة قد أعدّت للذين يتقون الله ويخشونه ويجتنبون معاصيه ويمتثلون أوامره.

وينبغي أن نعلم أنّ المراد بالعرض هنا ليس هو الطول والعرض الهندسي بل المراد - كما عليه أهل اللغة - هو السعة.

وهنا سؤالان:

أولاً: هل الجنّة والنار مخلوقتان وموجودتان بالفعل، أم أنّهما توجدان فيما بعد على أثر أعمال الناس؟

ثانياً: إذا كانت الجنّة والنار موجودتين فعلاً فأين تقعان، وقد قال سبحانه بأنّ عرض الجنّة عرض السماوات والأرض؟

هل الجنّة والنار موجودتان الآن؟

يعتقد أكثر العلماء المسلمين أنّ للجنّة والنار وجوداً خارجياً وفعلياً، وأنّ ظواهر الآيات القرآنية تؤيد هذه النظرية، نذكر من باب النموذج ما يلي:

١ - ذكرت في الآية الحاضرة وآيات قرآنية أُخرى لفظة (أعدت) وما شابه ذلك من مادة هذه اللفظة، وقد استعملت تارة بشأن الجنّة وتارة بشأن النار[١].

فيستفاد من هذه الآيات أنّ الجنّة والنار معدتان فعلاً، وإن كانتا تتوسعان فيما بعد على أثر أعمال الناس. (تأمل).

٢ - نقرأ في الآيات ١٣ و١٤ و١٥ المرتبطة بالمعراج في سورة والنجم قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ وهذا يشهد مرّة أُخرى بأنّ الجنّة موجودة فعلاً.

٣ - يقول سبحانه في سورة التكاثر الآيات ٥ و٦ و٧ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾.

أي لو كان لديكم علم يقيني لشاهدتم الجحيم، بل لرأيتموها رأي العين.

ثمّ إنّ هناك روايات ترتبط بالمعراج، وروايات أُخرى تحمل شواهد على هذه المسألة[٢].

أين تقع الجنّة والنار؟

إذا ثبت أنّ الجنّة والنار موجودتان بالفعل يُطرح سؤال آخر هو: أين تقعان إذن؟

ويمكن الإجابة على هذا السؤال على نحوين:

الأول: إنّ الجنّة والنار تقعان في باطن هذا العالم ولا غرابة في هذا، فإننا نرى السماء والأرض والكواكب بأعيننا، ولكننا لا نرى العوالم التي توجد في باطن هذا العالم، ولو أننا ملكنا وسيلة أُخرى للإدراك والعلم لأدركنا تلك العوالم أيضاً، ولوقفنا على موجودات أُخرى لا تخضع أمواجها لرؤية البصر، ولا تدخل ضمن نطاق حواسنا الفعلية.

---

(١) راجع الآيات التالية: التوبة: ٨٩، التوبة: ١٠٠، الفتح: ٦، البقرة: ٢٤، آل عمران: ١٣١، آل عمران: ١٣٣، الحديد: ٢١.

(٢) لابدّ من الانتباه إلى أنّ الجنّة المبحوث عنها هنا والتي ترتبط بالعالم الآخر هي غير الجنّة التي أُسكن آدم وحواء فيها وكانت قبل خلقهما.

والآية المنقولة عن سورة التكاثر وهي قوله سبحانه: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ هي الأُخرى شاهدة على هذه الحقيقة ومؤيدة لهذا الرأي.

كما ويستفاد من بعض الأحاديث أيضاً أنّه كان بين الأتقياء والأولياء من قد زودوا ببصيرة ثاقبة، ورؤية نفاذة استطاعوا بها أن يشاهدوا الجنّة والنار مشاهدة حقيقية.

ويمكن التمثيل لهذا الموضوع بالمثال الآتي:

لنفترض أنّ هناك في مكان ما من الأرض جهازاً قوياً للإرسال الإذاعي يبث في العالم - وبمعونة الأقمار الفضائية والأمواج الصوتية - تلاوات شيقة لآيات القرآن الكريم. بينما يقوم جهاز قوي إذاعي آخر ببث أصوات مزعجة وصاخبة بنفس القوّة.

لا شكّ أننا لا نملك القدرة على إدراك هذين النوعين من البث بحواسنا العادية، ولا أن نعلم بوجودهما إلّا إذا استعنا بجهاز استقبال فإننا حينما ندير المؤشر على الموج المختص بكل واحد من هذين البثين نستطيع فوراً أن نلتقط ما بثته كلّ واحدة من تينك الإذاعتين ونستطيع أن نميز بينهما بجلاء، ودون عناء.

وهذا المثال وإن لم يكن كاملاً من جميع الجهات إلّا أنّه يصور لنا حقيقة هامة، وهي أنّه قد توجد الجنّة والنار في باطن هذا العالم غير أننا لا نملك إدراكها بحواسنا، بينما يدركها من يملك الحاسة النفاذة المناسبة.

الثاني: إنّ عالم الآخرة والجنّة والنار عالم محيط بهذا الكون، وبعبارة أُخرى: إنّ كوننا هذا يقع في دائرة ذلك العالم، تماماً كما يقع عالم الجنين ضمن عالم الدنيا، إذ كلنا يعلم أن عالم الجنين عالم مستقل له قوانينه وأوضاعه ولكنه مع ذلك غير منفصل عن هذا العالم الذي نحن فيه، بل يقع في ضمنه وفي محيطه ونطاقه، وهكذا الحال في عالم الدنيا بالنسبة إلى عالم الآخرة.

وإذا وجدنا القرآن يقول بأنّ سعة الجنّة سعة السماوات والأرض فإنّما هو لأجل أنّ الإنسان لا يعرف شيئاً أوسع من السماوات والأرض ليقيس به سعة الجنّة، ولهذا يصور القرآن عظمة الجنّة وسعتها وعرضها بأنّها كعرض السماوات والأرض، ولم يكن بد من هذا، فكما لو أننا أردنا أن نصور للجنين - فيما لو عقل - حجم الدنيا التي سينزل إليها، لم يكن لنا مناص من التحدث إليه بالمنطق الذي يدركه وهو في ذلك المحيط.

ثمّ إنّه تبين ممّا مرّ الجواب على السؤال الآخر، وهو إذا كانت الجنّة عرضها السماوات والأرض فأين تكون النار؟

لأنه حسب الجواب الأول يتضح أنّ النار هي الأُخرى تقع في باطن هذا العالم، ولا ينافي وجودها فيه وجود الجنّة فيه أيضاً (كما تبين من مثال جهازي الإرسال).

وأما حسب الجواب الثاني (وهو كون عالم الجنّة والنار محيطاً بهذا العالم الذي نعيش فيه) فيكون الجواب على هذا السؤال أوضح لأنّه يمكن أن تكون النار محيطة بهذا العالم، وتكون الجنّة محيطة بها فتكون النتيجة أنّ الجنّة أوسع من النار.

سيماء المتقين

لما صرّح في الآية السابقة بأنّ الجنّة أُعدت للمتقين، تعرضت الآية التالية لذكر مواصفات المتقين فذكرت خمساً من صفاتهم الإنسانية السامية هي:

١ - أنّهم ينفقون أموالهم في جميع الأحوال، في الشدّة والرخاء، في السرّاء والضرّاء ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

وهم بهذا العمل يثبتون روح التعاطف مع الآخرين، وحب الخير الذي تغلغل في نفوسهم، ولهذا فهم يقدمون على هذا العمل الصالح والخطوة الإنسانية في جميع الظروف والأحوال.

ولا شكّ أنّ الإنفاق في حال الرخاء فقط لا يدلّ على التغلغل الكامل للصفات الإنسانية في أعماق الروح وإنّما يدلّ على ذلك إذا أقدم الإنسان على الإنفاق والبذل في مختلف الظروف وفي جميع الأحوال، فإنّ ذلك ممّا يدلّ على تجذر تلك الصفة في النفوس.

يمكن أن يقال: وكيف يمكن للإنسان أن ينفق عندما يكون فقيراً؟

والجواب واضح تمام الوضوح:

أولاً: لأنّ الفقراء يمكنهم إنفاق ما يستطيعونه، فليس للإنفاق حدّ معين لا في القلة ولا في الكثرة.

وثانياً: لأنّ الإنفاق لا ينحصر في بذل المال والثروة فحسب، إذ للإنسان أن ينفق من كلّ ما وهبه الله، ثروة كان أو علماً أو جاهاً أو غير ذلك من المواهب الإلهيّة الأُخرى.

وبهذا يريد الله سبحانه أن يركز روح التضحية والعطاء، والبذل والسخاء حتى في نفوس الفقراء والمقلّين حتى يبقوا - بذلك - في منأى عن الرذائل الأخلاقية التي تنشأ من البخل.

إنّ الذين يستصغرون الإنفاقات القليلة في سبيل الله ويحتقرونها إنّما يذهبون هذا المذهب، لأنّهم حسبوا لكلّ واحد منها حساباً مستقلاً وخاصاً، ولو أنّهم ضموا هذه

الإنفاقات الجزئية بعضها إلى بعض، ودرسوها مجتمعة لتغيرت نظرتهم هذه.

فلو أنّ كلّ واحد من أهل قطر من الأقطار - فقراء وأغنياء - قدّم مبلغاً صغيراً لمساعدة الآخرين من عباد الله، ولتقدم الأهداف والمشاريع الاجتماعية، لاستطاعوا أن يقوموا بأعمال ضخمة وكبيرة، مضافاً إلى ما يجنونه من هذا العمل من آثار معنوية لا ترتبط بحجم الإنفاق، وتعود إلى المنفق في كلّ حال.

والملفت للنظر أنّ أول صفة ذكرت للمتقين هنا هي (الإنفاق) لأنّ هذه الآيات تذكر - في الحقيقة - ما يقابل الصفات التي ذكرت للمرابين والمستغلّين في الآيات السابقة. هذا مضافاً إلى أن غض النظر عن المال والثروة في السرّاء والضراء من أبرز علائم التقوى.

٢ - أنّهم قادرون على السيطرة على غضبهم: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

ولفظة (الكظم) تعني في اللغة شد رأس القربة عند ملئها، فيقول كظمت القربة إذا ملأتها ماء ثمّ شددت رأسها، وقد استعملت كناية عمن يمتلىء غضباً ولكنه لا ينتقم.

وأمّا لفظة (الغيظ) فتكون بمعنى شدة الغضب والتوتر والهيجان الروحي الشديد الحاصل للإنسان عندما يرى ما يكره.

وحالات الغيظ والغضب من أخطر الحالات التي تعتري الإنسان، ولو تركت وشأنها دون كبح لتحولت إلى نوع من الجنون الذي يفقد الإنسان معه السيطرة على أعصابه وتصرفاته وردود فعله.

ولهذا فإنّ أكثر ما يقترفه الإنسان من جرائم وأخطاء وأخطرها على حياته هي التي تحصل في هذه الحالة، ولهذا تجعل الآية: «كظم الغيظ» و«كبح جماح الغضب» الصفة البارزة الثانية من صفات المتقين.

قال النّبي الأكرم ﷺ: «من كظم غيظاً وهو قادر على إنفاذه ملأه الله أمناً وإيماناً»(١).

وهذا الحديث يفيد أن كظم الغيظ له أثر كبير في تكامل الإنسان معنوياً، وفي تقوية روح الإيمان لديه.

٣ - أنهم يصفحون عمن ظلمهم ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

إنّ كظم الغيظ أمر حسن جدّاً، إلّا أنّه غير كافٍ لوحده، إذ من الممكن أن لا يقلع

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ١١٠، ح ٧.

ذلك جذور العداء من قلب المرء، فلا بدّ، للتخلص من هذه الجذور والرواسب، أن يقرن «كظم الغيظ» بخطوة أُخرى وهي: «العفو والصفح» ولهذا أُردفت صفة: «الكظم للغيظ» التي هي بدورها من أنبل الصفات بمسألة العفو.

ثمّ إنّ المراد هو العفو والصفح عمن يستحقون العفو، إلّا الأعداء المجرمون الذين يحملهم العفو والصفح على مزيد من الإجرام، وينتهي بهم إلى الجرأة أكثر.

٤ - أنهم محسنون: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وهنا إشارة إلى مرحلة أعلى من «العفو والصفح» وبهذا يرتقي المتقون من درجة إلى أعلى في سلّم التكامل المعنوي.

وهذه السلسلة التكاملية هي أن لا يكتفي الإنسان تجاه الإساءة إليه بكظم الغيظ ولا يكتفي أيضاً بأن يعفو ويصفح عن المسيء ليغسل بذلك آثار العداء عن قلبه، بل يعمد إلى القضاء على جذور العداء في فؤاد خصمه المسيء إليه أيضاً، وذلك بالإحسان إليه، وبذلك يكسب وده وحبّه، ويمنع من تكرار الإساءة إليه في مستقبل الزمان.

وخلاصة القول أنّ القرآن يأمر المسلم بأن يكظم غيظه أولاً ثمّ يطهر قلبه بالعفو عنه، ثمّ يطهر فؤاد خصمه من كلّ رواسب الضغينة وبقايا العداء بالإحسان إليه.

إنّه تدرج عظيم من صفة إنسانية خيّرة إلى صفة إنسانية أعلى هي قمة الخلق وذروة الكمال المعنوي.

ولقد روي في المصادر الشيعية والسنّية في ذيل هذه الآية أنّ جارية لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجه، فرفع رأسه إليها فقالت له الجارية: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي. قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: «قد عفوت وقد عفا الله عنك» قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله[1].

إنّ هذا الحديث شاهد حي على أنّ كلّ مرحلة متأخرة من تلك المراحل أفضل من المرحلة المتقدمة.

٥ - أنّهم لا يصرّون على ذنب: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾.

و(الفاحشة) مشتقة أصلاً من الفحش، وهو كلّ ما اشتد قبحه من الذنوب، ولا يختص بالزنا خاصّة، لأن الفحش - في الأصل - يعني (تجاوز الحدّ) الذي يشمل كلّ ذنب.

---

(١) تفسير الدر المنثور، وتفسير نور الثقلين ذيل الآية مورد البحث؛ ومستدرك الوسائل، ج ١، ص ٣٤٥.

هذا وفي الآية أعلاه إشارة إلى إحدى صفات المتقين، فالمتقون مضافاً إلى الاتصاف بما ذكر من الصفات الإيجابية، إذا اقترفوا ذنباً، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ .

يستفاد من هذه الآية أنّ الإنسان لا يذنب ما دام يتذكر الله، فهو إنّما يذنب إذا نسي الله تماماً واعترته الغفلة، ولكن لا يلبث هذا النسيان وهذه الغفلة - لدى المتقين - حتى تزول عنهم سريعاً ويذكرون الله، فيتداركون ما فات منهم، ويصلحون ما أفسدوه.

إنّ المتقين يحسّون إحساساً عميقاً بأنّه لا ملجأ لهم إلّا الله، فلابدّ أن يطلبوا منه المغفرة لذنوبهم دون سواه ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ .

وينبغي أن نعلم أنّ القرآن ذكر مضافاً إلى (الفاحشة) (ظلم النفس) ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ ويمكن أن يكون الفرق بين هذين هو أنّ الفاحشة إشارة إلى الذنوب الكبيرة، وظلم النفس إشارة إلى الذنوب الصغيرة.

ثمّ إنّه سبحانه تأكيداً لهذه الصفة قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

وقد نقل عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الإصرار: أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار»(١) .

وفي أمالي الصدوق بإسناده إلى الإمام الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ صعد إبليس جبلاً بمكّة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه فقالوا يا سيدنا لم دعوتنا؟

قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين. فقال: أنا لها بكذا وكذا.

قال: لست لها. فقام آخر فقال مثل ذلك.

فقال: لست لها.

فقال الوسواس الخناس: أنا لها.

قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأُمنّيهم حتى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار.

فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة»(٢) .

---

(١) تفسير العياشي في ذيل الآية؛ ووسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٣٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٦٦ و ٦٧.

ومن الواضح أنّ النسيان ناشىء من التساهل بالوساوس الشيطانية، وإنّما يبتلى بها من سلم نفسه لها، وخضع لتأثيرها، وتعاون مع الوسواس الخناس واستجاب له.

ولكن اليقظين المؤمنين تجدهم في أعلى درجة من مراقبة النفس، فكلّما صدرت منهم خطيئة أو بدر ذنب، بادروا - في أقرب فرصة - إلى غسل ما ران على قلوبهم ونفوسهم من درن المعصية، وأغلقوا منافذ أفئدتهم على جنود الشيطان الذين لا يستطيعون النفوذ إلى القلوب من الأبواب المؤصدة.

هذه هي أبرز صفات المتقين وأقوى المعالم في سلوكهم وخلقهم، قد تعرضت لذكرها الآيات السابقة.

والآن جاء الدور ليذكر القرآن الكريم ما ينتظر هذا الفريق من الثواب والجزاء اللائق.

وكان ذلك إذ قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

لقد ذكر في هذه الآية جزاء المتقين الذين تعرضت الآيات السابقة لذكر أوصافهم وأبرز صفاتهم، وهذا الجزاء عبارة عن: مغفرة ربانية، وجنات خالدات تجري من تحتها الأنهار بدون انقطاع أبداً.

والحقيقة أن الإشارة هنا كانت إلى المواهب المعنوية (وهي المغفرة والطهارة الروحية والتكامل المعنوي) أولاً، ثمّ إلى المواهب المادية.

ثمّ إنّه سبحانه يعقب ما قال عن الجزاء بقوله: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أي ما أروع هذا الجزاء الذي يعطى للعاملين لا للكسالى، الذين يتهرّبون من مسؤولياتهم، ويتملّصون من التزاماتهم.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

التّفسير

النظر في تاريخ الماضين وآثارهم

يعتبر القرآن الكريم ربط الماضي بالحاضر والحاضر بالماضي أمراً ضرورياً لفهم الحقائق، لأنّ الارتباط بين هذين الزمانين (الماضي والحاضر) يكشف عن مسؤولية

الأجيال القادمة، ويوقفها على واجبها، ولهذا قال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

وهذا يعني أنّ لله في الأمم سنناً لا تختص بهم، بل هي قوانين وسنن عامة في الحياة تجري على الحاضرين كما جرت على الماضين سواء بسواء، وهي سنن للتقدّم والبقاء وسنن للتدهور والانحدار، التقدّم للمؤمنين المجاهدين المتّحدين الواعين، والتدهور والإنحدار للأُمم المتفرقة المتشتتة الكافرة الغارقة في الذنوب والآثام.

أجل إنّ للتاريخ أهمية حيوية لكلّ أُمة من الأُمم، لأنّ التاريخ يعكس الخصوصيات الأخلاقية والأعمال الصالحة وغير الصالحة، والأفكار التي كانت سائدة في الأجيال السابقة، كما يكشف عن علل سقوط المجتمعات أو سعادتها، ونجاحها وفشلها في العصور الغابرة المختلفة.

وبكلمة واحدة: إنّ التاريخ مرآة الحياة الروحية والمعنوية للمجتمعات البشرية وهو لذلك خير مرشد ومحذر للأجيال القادمة.

ولهذا نجد القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى السير في الأرض والنظر بإمعان وتدبر في آثار الأُمم والشعوب التي سادت ثمّ بادت إذ يقول: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

إنّ آثار الماضين خير عِبرة للقادمين، وبالنظر فيها والاعتبار بها يمكن للناس أن يعرفوا المسير الصحيح للسلوك والحياة.

السياحة والسير في الأرض

إنّ الآثار المتبقية في مختلف بلدان العالم من الأُمم والعهود السابقة ما هي - في الحقيقة - إلّا وثائق التاريخ الحية والناطقة، بل هي قادرة على أن تعطينا من الحقائق والأسرار أكثر ممّا يعطينا التاريخ المدون.

إنّ الآثار الباقية من العصور السالفة بما فيها من أشكال وصور ونقوش وكيفيات تدلنا على ما كانت تتمتع به الأُمم البائدة من روح وفكر، وثقافات ومبادىء، وعظمة أو صغار، في حين لا يجسّد التاريخ المدون سوى الحوادث الواقعة وسوى صور خاوية عنها.

أجل، إنّ خرائب قصور الطغاة وبقايا آثار عظيمة مثل الأهرام، وبرج بابل، وقصور كسرى، وآثار الحضارة المندثرة لقوم سبأ، ومئات من نظائرها الأُخرى من هذه الآثار

المنتشرة في شتى أنحاء هذا الكوكب تنطوي - رغم صمتها - على ألف حديث وحديث، وألف كلمة وكلمة.

ولهذا عمد كبار الشعراء إلى الاستلهام من هذه الأطلال والآثار واستوحوا منها الدروس والعبر والعظات، ونقلوا إلى الآخرين عبر قصائدهم ما كان يجيش في صدورهم، وينقدح في نفوسهم من المشاعر والأحاسيس المختلفة، تجاه ما تحكيه هذه الأطلال والآثار من معانٍ وتعطيه من دلالات.

ولقد لخص أحد الأدباء هذه الحقيقة في بيت شعري إذ قال:

إنّ آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

إنّ مطالعة سطر واحد من هذه التواريخ الحية الناطقة تعادل - في الحقيقة - مطالعة كتاب ضخم في مجال التاريخ، وإنّ ما تبعثه تلك المطالعة في النفس والروح البشرية لا يقاس به شيء مهما عظم.

ذلك لأنّنا عندما نقف أمام آثار الماضين تتمثل أمامنا تلك الآثار وكأنّها قد استعادت حياتها، ودبت فيها الروح، وكأنّ العظام النخرة قد خرجت من تحت الأرض حية، وكأنّ كلّ شيء قد عاد إلى سيرته الأُولى، وكأنّ جميع الأشياء تنطق وتتحدث، ثمّ إذا أعدنا النظر وجدناها صامتة ميتة منسيّة، وهذه المقايسة بين هاتين الحالتين ترينا غباء أُولئك المستبدين الذين يرتكبون آلاف الجرائم، وأفظع الجنايات للوصول إلى الشهوات العابرة، واللذائذ الخاطفة.

ولهذا يحث القرآن المسلمين على السير في الأرض، والنظر إلى آثار الماضين المدفونة تحت التراب أو الباقية على ظهر الأرض بأُم أعينهم، وأن يتخذوا من كلّ ذلك العظة والعبرة وما أكثر العبر!

أجل، إنّ الإسلام يقر مسألة السياحة والسير في الأرض، ويوليها أهميّة كبرى، لكن لا كما يريد السياح وطلاب اللذة والهوى، بل لدراسة آثار الأُمم الماضية والتدبر فيها، والاعتبار بها، والوقوف على آثار العظمة الإلهيّة في شتى نقاط العالم وهذا هو ما يسميه القرآن الكريم بالسير في الأرض، والذي تأمر به الآيات العديدة ومن ذلك:

١ - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(١).

٢ - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾(٢).

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

٣ - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[(١)] وآيات أُخرى. . . [(٢)]

إنّ هذه الآية تقول بأن السير في الأرض والنظر في آثار الماضين يفتح العقول والعيون، وينير القلوب والأفئدة، ويخلص الإنسان من الجمود والركود.

وقد أشار الإمام علي أميرالمؤمنين عليه السلام إلى هذه الحقيقة في كلمات وخطب عديدة منها قوله: «فاعتبروا بما أصاب الأُمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته، ووقائعه ومثلاته واتعظوا بمثاوي خدودهم، ومصارع جنوبهم واستعيذوا بالله من لواقح الكبر كما تستعيذونه من طوارق الدهر. . .

واحذروا ما نزل بالأُمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال، وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشرّ أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم فالزموا كلّ أمر لزمت العزة به شأنهم وزاحت الأعداء له عنهم، ومدت العافية به عليهم، وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم من الاجتناب للفرقة واللزوم للأُلفة والتحاضّ عليها، والتواصي بها، واجتنبوا كلّ أمر كسر فقرتهم وأوهن منّتهم، من تضاغن القلوب، وتشاحن الصدور وتدابر النفوس، وتخاذل الأيدي. . . »[(٣)].

ولكن هذا التعليم الإسلامي الحي قد نسي - مع الأسف - كبقية التعاليم الإسلامية ولم يلتفت إليه المسلمون، بل إنّ بعض العلماء والمفكرين الإسلاميين حصروا الزمان والمكان في فكرهم، فعاشوا في عالم غير عالم الحياة هذا، وبقوا في معزل عن التحولات الاجتماعية، وشغلوا أنفسهم بأُمور حقيرة وقضايا جزئية قليلة الأثر بالقياس إلى الأعمال الجوهرية والقضايا الأساسية.

ففي عالم نجد فيه البابوات والقساوسة المسيحيين الذين طالما حبسوا أنفسهم بين جدران الكنائس قد خرجوا من تلك العزلة الطويلة والانقطاع عن الحياه الاجتماعية إلى العالم الخارجي وراحوا يسيحون في الأرض، ويقيمون الجسور والعلاقات مع الأُمم والشعوب ليزدادوا خبرة بالعصر، ويقفوا على متطلباته ومستجداته ومتغيراته الكثيرة، أفلا يجدر بالمسلمين أن يعملوا بهذا التعليم الإسلامي الصريح، ويخرجوا من النطاق

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.

(٢) سورة يوسف، الآية:١٠٩؛ والروم، ٩ و ٤٢؛ وفاطر، ٤٤؛ وغافر، ٢١ و ٨٢؛ ومحمّد، ١٠؛ والأنعام، ١١؛ والنحل، ٣٦.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

الفكري الضيق الذي هم فيه حتى يتحقق التحول المطلوب في حياة الأُمة الإسلامية، وتحل الحركة الصاعدة محل الجمود والتقهقر، والتقدّم المطرد مكان التخلّف والتراجع؟

ولما كان التعليم الإلهي العظيم - رغم كونه موجهاً إلى عامة المخاطبين - لا ينتفع به ولا يستلهمه إلّا المتقون قال سبحانه تعقيباً على الآية السابقة ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

أجل، إنّ المتقين الهادفين هم الذين يتعظون بهذه الأُمور لأنّهم يبحثون عن كلّ ما يعمق روح التقوى في نفوسهم، ويزيد بصيرتهم بالحقّ.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ
النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ
﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن
تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾
وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

سبب النّزول

لقد وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات مختلفة، ولكن يستفاد من مجموعها أنّ هذه الآيات تتبع الآيات السابقة التي كانت تدور حول غزوة أُحد.

وفي الحقيقة تعتبر هذه الآيات تحليلاً ودراسة لنتائج غزوة أُحد وأسبابها لكونها تمثل دروساً كبيرة للمسلمين، وهي في نفس الوقت تسلية للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتثبيت لأفئدتهم، لأنّ هذه الغزوة - كما أسلفنا - انتهت بسبب تجاهل بعض الرماة لأوامر النّبي ﷺ المشدّدة بالبقاء في الثغرة، بنكسة المسلمين، واستشهاد ثلة كبيرة من أعيانهم وأبطال الإسلام البارزين، ومن جملتهم حمزة عم النّبي ﷺ.

فقد حضر النّبي ﷺ مع جماعة من أصحابه في تلك الليلة، عند القتلى، وجلس عند كلّ واحد من الشهداء كرامة له وبكى عنده واستغفر له، ثمّ دفن جميع الشهداء عند أُحد في جو من الحزن العميق، فكان المسلمون بحاجة - في هذه اللحظات إلى ما

يمسح عنهم كآبة الهزيمة ومرارة الانكسار، ويقوي قلوبهم ويفيدهم درساً في نفس الوقت من نتائج النكسة ومعطياتها - فنزلت الآيات المذكورة هنا[١].

التّفسير

دراسة نتائج غزوة أحد

في الآية الأُولى من هذه الآيات حذر القرآن المسلمين من أن يعتريهم اليأس والفتور بسبب النكسة في معركة واحدة، وأن يتملكهم الحزن وييأسوا من النصر النهائي، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أجل، لا يحسن بهم أن يشعروا بالوهن أو يتملكهم الحزن لما حدث، فالرجال الواعون هم الذين يستفيدون الدروس من الهزائم كما يستفيدونها من الانتصارات وهم الذين يتعرفون في ضوء النكسات على نقاط الضعف في أنفسهم أو مخططاتهم، ويقفون على مصدر الخطأ والهزيمة، ويسعون لتحقيق النصر النهائي بالقضاء على تلك الثغرات والنواقص. والوهن المذكور في الآية، هو - كما في اللغة - كلّ ضعف يصيب الجسم أو الروح أو يصيب الإرادة والإيمان.

على أن عبارة ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ عبارة غنية بالمعاني حريّة بالنظر والتأمل. إذ هي تعني أن هزيمتكم إنّما كانت بسبب فقدانكم لروح الإيمان وآثارها، فلو أنّكم لم تتجاهلوا أوامر الله سبحانه لم يصبكم ما أصابكم، ولم يلحقكم ما لحقكم، ولكن لا تحزنوا مع ذلك، فإنّكم إذا ثبتّم على طريق الإيمان كان النصر النهائي حليفكم، والهزيمة في معركة واحدة لا تعني الهزيمة النهائية.

ثمّ إنّه سبحانه يقول: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ وبذلك يعطي للمسلمين درساً آخر للوصول إلى النصر النهائي.

و(القرح) جرح يصيب البدن بسبب اصطدامه بشيء خارجي.

فيكون معنى الآية إنّ عزيمتكم لا ينبغي أن تكون أقل من عزيمة الأعداء، فهم رغم ما لحقهم من خسائر فادحة في الأرواح والأموال - في بدر - حيث قتل منهم سبعون، وجرح وأُسر كثير، فإنّهم لم يقعدوا عن منابذتكم ومقاتلتكم، ولم يصرفهم ذلك عن الخروج إلى محاربتكم، بل تلافوا في هذه المعركة ما فاتهم، وتداركوا هزيمتهم، فإذا

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٢ و ٤٢ و ٦٥.

أُصبتم في هذه المعركة بهزيمة شديدة فإنّ عليكم أن لا تقعدوا حتى تتلافوا ما فاتكم فـ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، فلماذا الوهن ولماذا الحزن إذن؟

ويذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الآية تشير إلى الجراح التي لحقت بالكفّار في أُحد، ولكن هذا لا يستقيم لأنّ الجراح التي لحقت بالكفّار في أُحد لم تكن مثل الجراح التي لحقت بالمسلمين، هذا أولاً، وكذلك لا يتناسب مع الجملة اللّاحقة التي سيأتي تفسيرها فيما بعد ثانياً، ألا وهي قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

ففي هذا القسم يشير سبحانه إلى واحدة من السنن الإلهيّة وهي أنّه قد تحدث في حياة البشر حوادث حلوة أو مرّة ولكنها غير باقية ولا ثابتة مطلقاً، فالانتصارات والهزائم، والغالبية والمغلوبية، والقوّة والضعف كلّ ذلك يتغير ويتحول، وكلّ ذلك يزول ويتبدل، فلا ثبات ولا دوام لشيء منها، فيجب أن لا يتصور أحد أنّ الهزيمة في معركة واحدة وما يتبعها من الآثار أُمور دائمة ثابتة باقية، بل لا بدّ من الانتفاع بسنّة التحول، وذلك بتقييم أسباب الهزيمة وعواملها وتلافيها، وتحويل الهزيمة إلى انتصار، فالحياة صعود ونزول، وأحداثها في تحول مستمر، وتبدل دائم ولا ثبات لشيء من أوضاعها وأحوالها. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ[1] نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ لتتضح سنّة التكامل من خلال ذلك.

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى نتيجة هذه الحوادث المؤلمة فيقول: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي أنّ ذلك إنّما هو لأجل أن يتميز المؤمنون حقّاً عن مدّعي الإيمان.

وبعبارة أُخرى: إذا لم تحدث الحوادث المؤلمة في حياة أُمة من الأُمم وتاريخها لم تتميز الصفوف ولم يتبين الخبيث والطيب، لأنّ الانتصارات وحدها تخدع وتغري، وتصيب المنتصرين بالغفلة بينما تشكل الهزائم عامل يقظة للمستعدين المتهيئين، وتوجب ظهور القيم، وتعرف بها حقائق الرجال.

ثمّ إنّه في قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ يشير إلى إحدى نتائج هذه الهزيمة المؤلمة، وهي تقديم المسلمين بعض الشهداء في هذه المعركة، فيجب أن تعلموا أنّ هذا الدين لم يصل إليكم بالهيّن، فلا يفلت منكم كذلك في المستقبل.

إنّ الأُمة التي لا تضحي في سبيل أهدافها المقدّسة لا تعير تلك الأهداف أهمّيتها،

---

(١) «الأيام» جمع يوم يعبر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يطلق على فترات الانتصارات الكبرى في حياة الشعوب، و«نداولها» من المداولة بمعنى إنتقال الشيء من بعض القوم إلى البعض الآخر.

ولا تعطيها قيمتها اللّائقة، أما إذا ضحت في سبيل أهدافها فإنّ هذا يعني أنّها تولي تلك الأهداف الأهميّة والقيمة اللّازمة وستنظر إليها بعين الاحترام والإكبار.

ويمكن أن يكون المراد من (الشهداء) هنا هم الذين يشهدون، فيكون معنى قوله ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي أن يتخذ منكم بوقوع هذه الحادثة في حياتكم شهوداً لتعرفوا كيف أن عدم الانضباط وعدم التقيُّد بالأوامر يؤدّي إلى الهزيمة، وينتهي إلى النكسة المؤلمة.

وإنّ هؤلاء الشهود سيعلمون الأجيال اللّاحقة دروس الانتصار والهزيمة حتى لا يكرروا الأخطاء، ولا تقع حوادث مشابهة.

ثمّ إنّه تعالى يختم هذا الاستعراض للسنن والدروس والنتائج بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو لا ينصرهم ولا يدافع عنهم، ولا يمكّنهم من المؤمنين الصالحين العاملين بتعاليم السماء الآخذين بسنن الله في الكون والحياة.

الحوادث المرة ميدان تربية

أجل، إنّ لمعركة أُحد وما لحق بالمسلمين فيها من هزيمة نتائج وآثاراً، ومن نتائجها وآثارها الطبيعية أنّها كشفت عن نقاط الضعف في الجماعة والثغرات الموجودة في كيانها، وهي وسيلة فعالة ومفيدة لغسل تلك العيوب والتخلّص من تلك النواقص والثغرات، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ[1] ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي أنّ الله أراد - في هذه الواقعة - أن يتخلص المؤمنون من العيوب ويريهم ما هم مبتلون به من نقاط الضعف، إذ يجب لتحقيق الانتصارات في المستقبل أن يمتحنوا في بوتقة الاختبار، ويزنوا فيها أنفسهم كما قال الإمام علي عليه السلام : «في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال»[2].

ولهذا قد يكون لبعض الهزائم والنكسات من الأثر في صياغة المجتمعات الإنسانية وتربيتها ما يفوق أثر الانتصارات الظاهرية.

والجدير بالذكر أنّ مؤلف تفسير المنار نقل عن أُستاذه مفتي مصر الأكبر الشيخ محمد عبده أنّه رأى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فقال له: «رأيت النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الخميس الماضية (غرة ذي القعدة سنة ١٣٢٠) في الرؤيا منصرفاً مع أصحابه من أُحد وهو يقول: «لو خيّرت بين النصر والهزيمة لاخترت الهزيمة» أي لما في الهزيمة من التأديب الإلهي

---

(١) «التمحيص» والمحص أصله: تخليص الشيء ممّا فيه من عيب.

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢١٧.

للمؤمنين وتعليمهم أن يأخذوا بالاحتياط ولا يغتروا بشيء يشغلهم عن الاستعداد وتسديد النظر(١).

وأمّا نتيجة هذه التربية والصياغة التي يتلقاها المؤمنون في خضم المحن والمصائب وأتون الحوادث المرّة فهو حصول القدرة الكافية لدحر الشرك والكفر دحراً ساحقاً وكاملاً، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَيَمْحَقَ(٢) الْكَافِرِينَ﴾.

فإنّ المؤمنين بعد أن تخلصوا - في دوامة الحوادث - من الشوائب يحصلون على القدرة الكافية للقضاء التدريجي على الشرك والكفر، وتطهير مجتمعهم من هذه الأقذار والشوائب، وهذا يعني أنّه لا بدّ أولاً من تطهير النفس ثمّ تطهير الغير. أي التطهر ثمّ التطهير.

وفي الحقيقة كما أنّ القمر - مع ما هو عليه من النور والبهاء الخاصين به - يفقد نوره شيئاً فشيئاً أمام وهج الشمس وبياض النهار حتى يغيب في ظلمة المحاق فلا يعود يرى إلّا عندما تنسحب الشمس من الأُفق، كذلك يأفل نجم الشرك وأهله وتتضاءل قوّة الكفر وأشياعه كلّما ازداد صفاء المسلمين المؤمنين، وخلصوا من رواسب الضعف والاعوجاج والانحراف.

فهناك علاقة متقابلة بين تمحيص المؤمنين وارتقائهم في مدارج الخلوص والطهر، ومراتب الصفاء والتقوى، وبين انزياح الكفر والشرك واندثار معالمهما وآثارهما عن ساحة الحياة الاجتماعية.

هذه هي الحقيقة الكبرى والخالدة التي يلخصها القرآن في هاتين الجملتين اللتين تشكل الأُولى منهما المقدمة والثانية النتيجة.

ثمّ إنّه يفيدنا القرآن درساً من واقعة أُحد في تصحيح خطأ فكري وقع فيه المسلمون فيقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أي هل تظنون أنّكم تنالون أوج السعادة المعنوية بمجرّد اختياركم لاسم المسلم، أو بمجرّد أنّكم حملتم العقيدة الإسلامية في الفكر دون أن تطبقوا ما يتبعها من التعاليم؟

لو كان الأمر كذلك لكان هيناً جدّاً، ولكن ليس كذلك حتماً، فإنّه ما لم تطبق التعاليم التي تتبع تلك المعتقدات، في واقع الحياة العملية لم ينل أحد من تلك السعادة العظمى شيئاً.

---

(١) تفسير المنار: ج ٤، ص ٤٦؛ ذيل الآية مورد البحث.

(٢) المحق: النقصان ومنه المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال وامتحق وقل ضياؤه.

وهنا بالذات يجب أن تتميز الصفوف، ويعرف المجاهدون الصابرون من غيرهم.

مزاعم جوفاء

ثمّ إنّه كان هناك جماعة من المسلمين - بعد معركة بدر واستشهاد فريق من أبطال الإسلام - يتمنون الموت في أحاديثهم ومجالسهم ويقولون: ليتنا نلنا الشهادة في بدر، ومن الطبيعي أن يكون بعض تلك الجماعة صادقين في تمنيهم والبعض الآخر كاذبين يتظاهرون بهذه الأمنية، أو يجهلون حقيقة أنفسهم، ولكن لم يلبث هذا الوضع طويلاً، فسرعان ما وقعت معركة أُحد الرهيبة المؤلمة، فقاتل المجاهدون الصادقون بشهامة وبسالة وصدق وكرعوا كؤوس الشهادة، وحققوا أمانيهم، ولكن الذين كانوا يتمنونها كذباً وتظاهراً ما أن رأوا علائم الهزيمة التي لحقت بالجيش الإسلامي في تلك الواقعة حتى فروا خوفاً وجبناً، وضنّاً بنفوسهم وأرواحهم، تاركين الساحة للعدو الغاشم، فنزلت هذه الآية توبّخهم وتعاتبهم إذ تقول: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فلماذا فررتم وهربتم من الشيء الذي كنتم تتمنونه طويلاً وكيف يفر المرء من محبوبه، وهو يراه وينظر إليه؟

دراسة سريعة لعلل الهزيمة في أُحد:

لقد مررنا في الآيات السابقة في هذا المقطع من الحديث على عبارات تكشف كلّ واحدة منها القناع عن واحدة من أسرار الهزيمة التي وقعت في معركة أُحد، وها نحن نشير إلى أهم وأبرز هذه العوامل التي تعاضدت فأدت إلى هذه النكسة المرة، والحاوية لكثير من العبر في نفس الوقت، وهذه العوامل هي:

١ - الخطأ في المحاسبة عند بعض المسلمين الحديثي العهد بالإسلام في فهم مفاهيمه وتعاليمه، حيث إنّهم تصوروا أن إظهار الإيمان وحده يكفي لتحقيق الانتصار، وأنّ الله - لذلك - سينزل عليهم نصره، ويمدهم بالقوى الغيبية في جميع الميادين، ولهذا تناسوا وتجاهلوا السنن الإلهيّة في مجال الأسباب الطبيعية للانتصار من اختيار الخطة الصحيحة، وإعداد القوى اللازمة، واليقظة القتالية.

٢ - عدم الانضباط العسكري ومخالفة أوامر النّبي ﷺ القائد المشددة للرماة بالبقاء في الثغر من الجبل، والذب عن ظهور المسلمين وقد كان هذا هو العامل الحقيقي المؤثر للهزيمة.

٣ - حبّ الدنيا والحرص على الحطام الذي دفع بعض المسلمين الحديثي العهد

بالإسلام إلى الانصراف إلى جمع الغنائم، وترك ملاحقة العدو، ووضع الأسلحة حتى لا يتأخروا عن الآخرين في حيازة الغنائم، وكان هذا هو العامل الثالث لتلك النكسة الدامية التي علمتهم أنّ الجهاد في سبيل الله يستدعي نسيان جميع هذه الأُمور والتوجه بالكامل إلى الهدف.

٤ - الغرور الناشيء عن الانتصار الساحق واللّامع في معركة بدر إلى درجة أنّه أنسى بعض المسلمين قوّة العدو، وجعلهم يحتقرون تجهيزاته وطاقاته، ويستصغرون شأنه.

هذه هي بعض نقاط الضعف التي ينبغي أن تذوب في مياه هذه النكسة المؤلمة الساخنة، وتتبخر في أتونها.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

سبب النّزول

إنّ الآية الأُولى من هاتين الآيتين ناظرة أيضاً إلى حادثة أُخرى من حوادث معركة أُحد وهي الصيحة التي ارتفعت فجأة في ذروة القتال بين المسلمين والوثنيين أنّ محمّداً قد قتل.

ولقد قارنت هذه الصيحة نفس اللحظة التي رمى فيها عمرو بن قمئة الحارثي النّبي ﷺ بحجر فكسر به رباعيته وشجه في وجهه، فسال الدم، وغطّى وجهه الشريف(١) فقد كان العدو يريد في هذه اللّحظة أن يقضي على رسول الله، ولكن مصعب ابن عمير وهو من حملة الرايات في الجيش الإسلامي ذب عنه حتى قتل دون النّبي، فتوهم العدو أنّ النّبي قد قتل، ولهذا صاح: ألا إنّ محمّداً قد قتل، ليخبر الناس بذلك الأمر.

(١) ولقد جاء في بعض كتب التاريخ أن هذه الإصابات لحقت بالنبي ﷺ من جراء هجمات أفراد عديدين من العدو، (لمزيد من الإيضاح، راجع بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٧؛ وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٠١).

وقد كان لانتشار هذا الخبر أثره الإيجابي في معنويات الوثنيين بقدر ما ترك من الأثر السيّىء في نفوس المسلمين حيث تزعزعت روحيتهم وزلزلوا زلزالاً شديداً، فاضطرب جمع كبير منهم كانوا يشكلون أغلبية الجيش الإسلامي، وأسرعوا في الخروج من ميدان القتال، بل وفكر بعضهم أن يرتد عن الإسلام بمقتل النبي ويطلب الأمان من أقطاب المشركين، بينما كان هناك أقلية من المسلمين مثل الإمام علي عليه السلام وأبي دجانة وطلحة وآخرين، يصرون على الثبات والمقاومة ويدعون الناس إليه.

فقد جاء أنس بن النضر إلى ذلك الفريق الذي كان يفكر في الفرار وقال لهم: «يا قوم إن كان قد قتل محمّد فربّ محمّد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وموتوا على ما مات عليه» ثمّ شد بسيفه وحمل على الكفّار وقاتل حتى قتل، ثمّ لم يمض وقت طويل حتى تبين أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم على قيد الحياة، وتبين على أثره خطأ ذلك الخبر أو كذبه، فنزلت الآية الأُولى - من الآيتين الحاضرتين - توبخ الذين لاذوا بالفرار بشدة[١].

التّفسير

لا لعبادة الشخصية وتقديس الفرد

تعلّم الآية الأُولى من هاتين الآيتين حقيقة أُخرى للمسلمين استلهاماً من أحداث معركة أُحد إذ تقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ وهذه الحقيقة هي أنّ الإسلام ليس دين عبادة الشخصية حتى إذا قتل النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ونال الشهادة في هذه المعركة - افتراضاً - ينتهي كلّ شيء ويسقط واجب الجهاد والنضال عن كاهل المسلمين، بل إنّ هذا الواجب مستمر، وعليهم أن يواصلوه لأنّ الإسلام لا ينتهي بموت النّبي أو استشهاده، وهو الدين الحقّ الذي أُنزل ليبقى خالداً إلى الأبد.

إنّ عبادة الشخصية وتقديس الفرد من أخطر ما يصيب أية حركة جهادية ويهددها بالسقوط والانتهاء، فإنّ ارتباط الحركة أو الدين بشخص معين حتى لو كان ذلك هو النّبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم معناه توقف كلّ الفعاليات وكلّ تقدّم بفقدانه وغيابه عن الساحة، وهذا النوع من الارتباط هو أحد علائم النقص في الرشد الاجتماعي.

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٥٩ و ١٠٦.

إنّ تركيز النّبي وإصراره على مكافحة تقديس الفرد وعبادة الشخصية آية أُخرى من آيات صدقه، ودليل آخر يدل على حقانيته، لأنّ قيامه ودعوته لو كان لنفسه وبهدف تحقيق مصالحه الشخصية للزم أن يعمق في الأذهان والقلوب هذه الفكرة، ويزيد من توجيه الأنظار إلى نفسه وأنّ جميع الأشياء في هذا الدين مرتبطة بشخصه بحيث إذا غاب عنهم ذهب وانتهى كلّ شيء، ولكن القادة الصادقين كالنّبي الأكرم ﷺ لا يفعلون مثل هذا أبداً، ولا يشجعون على مثل هذه الأفكار، بل يكافحونها بقوة، ويقولون: إنّ أهدافنا أعلى من أشخاصنا وهي لا تنتهي بموتنا وبغيابنا، ولهذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾؟ وهو بذلك يستنكر ما دار في خلد البعض أو قد يدور من أنّ كلّ شيء في هذا الدين ينتهي بغياب النّبي القائد ﷺ.

والجدير بالذكر أنّ القرآن استخدم للتعبير عن الردة إلى الجاهلية كلمة ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ و(الأعقاب) جمع عقب (وزان خشن) بمعنى مؤخرة القدم، فهو تعبير موح يصور التراجع إلى الوراء والارتداد الواقعي، وهو أكثر إيحاءً وأقوى تصويراً من لفظة الردة والرجوع والعودة، لأنه بمعنى السير القهقرى.

ثمّ إنّه سبحانه يقول: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ يعني أنّ العودة إلى الكفر والوثنية تضرّكم أنتم دون الله سبحانه، لأنّ أمثال هذا التراجع لا يعني سوى توقفكم في طريق الخير والسعي نحو السعادة الكاملة، بل فقدان كلّ ما حصلتموه من العزّة والكرامة والمجد بسرعة.

ثمّ إنّه لما كان هناك - في معركة أُحد - أقلية استمرت على جهادها رغم الصعوبات، وانتشار الخبر المفجع عن مقتل الرسول ﷺ، كان من الطبيعي أن ينال صمودهم هذا وثباتهم التقدير اللائق، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ وبذلك مدح القرآن الكريم استقامتهم وصمودهم، ووصفهم بالشاكرين لأنّهم أحسنوا الاستفادة والانتفاع بالنعم في سبيل الله، وهذا أفضل مصاديق الشكر.

إنّ الدرس الذي تعطيه هذه الآية في مكافحة عبادة الشخصية وتقديس الفرد هو أبلغ وأفضل درس لجميع المسلمين في جميع العصور والأزمنة، فعليهم جميعاً أن يتعلموا من القرآن أن لا يربطوا القضايا الاستراتيجية والأهداف العليا والمصيرية بالأشخاص، بل لا بدّ أن يلتفوا حول الأُسس والمبادىء الخالدة التي لا تفنى ولا تتغير، ولا تتأثر بتغير الأشخاص أو غيابهم عن الساحة بسبب الموت أو القتل حتى لو كان ذلك هو

النبيّ الأكرم ﷺ، لكيلا تتوقف عجلة المسيرة عن الحركة، ولا يتعطل دولاب العمل عن الدوران، بل إنّ ذلك هو رمز الخلود في أي مبدأ وحركة أساساً.

وعلى هذا الأساس فإنّ جميع البرامج والتشكيلات المرتبطة بالأشخاص والقائمة بوجودهم الشخصي هي في الحقيقة برامج وتشكيلات غير سليمة ولا طبيعية، وهي معرضة للزوال والفناء في أية لحظة.

وممّا يؤسف له أن يكون أغلب التشكيلات الإسلامية اليوم من هذا القبيل، أي إنّها قائمة بالأشخاص، ولذلك فهي سرعان ما تزول وتتهاوى وتتلاشى عندما يغيب الأشخاص بذواتهم عن الساحة.

إنّ على المسلمين أن يستلهموا من هذه الآية فيقيموا مؤسساتهم المتنوعة المختلفة بنحو يستفاد فيه من مواهب الأشخاص اللائقين الموهوبين دون أن يكون مصيرها مرتبطاً بمصيرهم حتى لا تندثر بتغيرهم أو غيابهم.

ثمّ إنّ جماعة كثيرة من المسلمين أُرعبوا وزلزلوا لشائعة مقتل النّبي في أُحد - كما أسلفنا - إلى درجة أنّهم تركوا ساحة المعركة، وفروا بأنفسهم من الموت وحتّى إنّ بعضهم فكر في الردة عن الإسلام فكان قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ وهو يكرر توبيخهم، وتنبيههم إلى أنّ الموت بيد الله، والفرار لا ينفع في الخلاص من الأجل الإلهي، فإذا صحّ أنّ النّبي قتل في المعركة ونال الشهادة فليس ذلك إلّا تحقيق لسنّة إلهيّة، فلماذا خاف المسلمون وكفوا عن القتال؟؟

ومن ناحية أُخرى إنّ الفرار من المعركة لا يدفع الأجل كما أنّ مواصلة القتال والبقاء في المعركة لا يقرب هو الآخر أجلاً، فالفرار من ميدان الجهاد حفاظاً على النفس لغو لا فائدة فيه.

وهناك بحث حول معنى الأجل، وأنّ منه حتمياً، ومنه معلقاً، والفرق بين النوعين سنوافيك به في تفسير الآية الثانية من سورة الأنعام بإذن الله تعالى.

وبعد عرض هذه الحقائق يعقب سبحانه على ما قال بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي إنّ ما عمله الإنسان لا يضيع أبداً، فإن كان هدفه دنيوياً مادياً كما كان عليه بعض المقاتلين في أُحد فإنه سيحصل على ما يسعى إليه ويناله.

وأما إذا كان هدفه أسمى من ذلك، وصب جهوده في سبيل الحصول على الحياة الخالدة والفضائل الإنسانية بلغ إلى هدفه حتماً وأُوتي ثواب الآخرة الذي هو أعظم من

كلّ ثواب وأسمى من كلّ نتيجة، فلماذا إذن لا يصرف الإنسان جهوده، ويوظف ما أُوتي من طاقات معنوية ومادية في الطريق الثاني وهو الطريق الخالد السامي؟

وتأكيداً لهذه الحقيقة قال سبحانه مرة أُخرى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

والجدير بالتأمل أن الفعل في هذه العبارة جاء في الآية السابقة، بصيغة الغائب (سيجزي) وجاء هنا في صورة المتكلم (سنجزي) وهذا يفيد غاية التأكيد للوعد الإلهي بإعطاء الثواب لهم، فهو تدرج من الوعد العادي إلى الوعد المؤكّد، فكأنّ الله يريد أن يقول - وببساطة -: أنا ضامن لجزائهم وثوابهم.

ثمّ إنّه جاء في تفسير (مجمع البيان) في ذيل هذه الآية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: إنّه أصاب علياً عليه السلام يوم أُحد إحدى وستون جراحة، وإنّ النّبي صلى الله عليه وآله أمر أم سليم وأم عطية أن تداوياه، فقالتا إنا لا نعالج منه مكاناً إلّا انفتق مكان آخر، وقد خفنا عليه، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون يعودونه وهو قرحة واحدة فجعل يمسحه بيده، ويقول: «إنّ رجلاً لقي هذا في الله فقد أبلى وأعذر» وكان القرح الذي يمسحه رسول الله صلى الله عليه وآله يلتئم، وقال علي عليه السلام: «الحمد لله إذ لم أفرّ ولم أُولِّ الدبر» فشكر الله له ذلك في موضعين من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١).

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

التّفسير

المجاهدون السابقون

بعد استعراض حوادث معركة أُحد في الآيات السابقة، جاءت الآيات الحاضرة لتحث المسلمين على التضحية والثبات وتشجعهم وتثبّتهم بذكر تضحيات من سبقوهم

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير الميزان، ج ٤، ص ٦٧.

من أصحاب الرسل الماضين وأتباعهم المؤمنين الصادقين الأبطال، وتوبّخ ضمناً أُولئك الذين فرّوا في أُحد وحدّثوا أنفسهم بما حدّثوا إذ يقول سبحانه في الآية الأُولى من هذه الآيات: ﴿وَكَأَيِّن(١) مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ(٢) فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأنصار الأنبياء إذا واجهوا المصاعب والجراحات والشدائد في قتالهم الأعداء لم يشعروا بالضعف والهوان أبداً، ولم يخضعوا للعدو أو يستسلموا له، ومن البديهي أنّ الله تعالى يحب مثل هؤلاء الأشخاص الذين يثبتون ويصبرون في القتال ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

فهؤلاء عندما كانوا يواجهون المشاكل بسبب بعض الأخطاء أو العثرات وعدم الإنضباط لم يفكروا في الاستسلام للأمر الواقع، أو يحدثوا أنفسهم بالفرار أو الارتداد عن الدين والعقيدة بل كانوا يتضرّعون إلى الله ويطلبون منه الصبر والثبات، والعون والمدد ويقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

إنّهم بمثل هذا التفكر الصحيح والعمل الصالح كانوا يحصلون على ثوابهم دون تأخير، وهو ثواب مزدوج، أمّا في الدنيا فالنصر والفتح، وأمّا في الآخرة فما أعد الله للمؤمنين المجاهدين الصادقين: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

ثمّ إنّه سبحانه يعدّ هؤلاء - في نهاية هذه الآية - من المحسنين إذ يقول: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وبهذا النحو يبين القرآن درساً حياً للمسلمين الحديثي العهد بالإسلام، من حياة الأُمم السابقة وسلوكهم مع أنبيائهم، وكيفية تعاملهم مع المشكلات الطارئة، وكيفية التغلب عليها، وهو درس من شأنه أن يربّيهم ويعدّهم للحوادث المستقبلة، والمعارك القادمة.

وقفات أُخرى عند هذه الآيات

ثمّ إن في هذه الآيات نقاطاً هامة أُخرى جديرة بالتوجه والالتفات نشير إليها فيما يلي:

---

(١) «كأيّن» أي ما أكثر، ويقال أنّها اسم مركب - أصلاً - من كاف التشبيه وأي الاستفهامية فظهرتا في صورة الكلمة الواحدة التي فقد عندها معنيا الجزئين، واكتسبت معنى جديداً هو «ما أكثر».

(٢) «ربيون» جمع «رِبِّيّ» وزان «عِلِّيّ» يطلق على من اشتد ارتباطه بالله عزّوجلّ، ويكون مؤمناً عالماً، صامداً مخلصاً.

١ - الصبر - كما أشرنا إليه سابقاً - يعني الثبات والصمود، ولهذا جاء في هذه الآية في مقابل (الضعف والاستكانة) كما ويدل على ذلك كون الصابرين في رديف المحسنين إذ قال في الآية الأُولى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقال في الآية الثالثة: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهو إشعار بأنّ الإحسان لا يمكن إلّا بالثبات والصمود والصبر، لأنّ المحسن تواجهه آلاف المشاكل، فإذا لم يكن مزوداً بالصمود والصبر والثبات والاستقامة لم يمكنه الاستمرار في عمله، بل سرعان ما يتركه في خضم المشكلات.

٢ - إنّ المجاهدين الحقيقيين هم الذين لا ينسبون سبب الهزيمة إلى غيرهم، أو يسندونها إلى عوامل وأسباب خيالية ووهمية، بل يبحثون عنها في نفوسهم وذواتهم، ويحاولون - بصدق - التخلص منها من خلال تصحيح الأخطاء، وترميم الثغرات، بل لا يتلفظون بكلمة الهزيمة، إنّما يعبرون عنها بالإسراف، والإفراط غير المبرر، تماماً على العكس منّا اليوم حيث نسعى غالباً لأن نتجاهل هزائمنا بالمرة، وأن ننسبها إلى عوامل خارجية لا تمتّ إلى ذواتنا بصلة، ولا ترتبط بسلوكنا وأفكارنا، ولهذا فإننا لا نفكر في إصلاح الأخطاء، وإزالة نقاط ضعفنا.

٣ - لقد عبرت الآية الثالثة عن الجزاء الدنيوي بثواب الدنيا، ولكنها عبرت عن الجزاء الأُخروي بحسن ثواب الآخرة، وهذه إشارة إلى أنّ ثواب الآخرة يختلف عن ثواب الدنيا اختلافاً كلياً، لأنّ ثواب الدنيا مهما يكن فهو ممزوج بالفناء والعدم، ويقترن ببعض المنغصات والمكروهات التي هي من طبيعة الحياة الدنيا، في حين أنّ ثواب الآخرة حسن كلّه، إنّه خير خالص لا فناء فيه ولا عناء، ولا انقطاع فيه ولا انتهاء، ولا كدورات فيه ولا منغصات، ولا متاعب ولا مزعجات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

التفسير

تحذيرات مكررة

هذه الآيات - كسابقاتها - نزلت بعد معركة أُحد وبهدف تقويم وتحليل الحوادث

التي وقعت أو لابست تلكم المعركة، ويشهد بهذا وضع هذه الآيات والآيات السابقة.

إنّ ما يبدو للنظر هو أن أعداء الإسلام أخذوا - بعد معركة أُحد - يسعون في إلقاء الفرقة في صفوف المسلمين ببث سلسلة من الدعايات المسمومة، والمغلفة أحياناً بلباس النصيحة، والتحرّق على ما آل إليه المسلمون، وكانوا بالاستفادة من الأوضاع النفسية المتردية التي كان يمر بها جماعة من المسلمين، يحاولون زرع بذور النفور من الإسلام بينهم.

ولا يستبعد أن يكون اليهود والنصارى قد ساعدوا المنافقين في هذه الخطة الحاقدة، كما حدث في المعركة نفسها حيث كان لهم حظ في الترويج للشائعة التي أُطلقت حول مقتل النّبي ﷺ بهدف إضعاف معنويات المقاتلين المسلمين.

الآية الأُولى من هذه الآيات تقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ فهي تحذر المسلمين من إطاعة الكفّار وتقول: إنّ إطاعة الكفّار تعني العودة إلى الجاهلية بعد تلك الرحلة العظيمة في طريق التكامل المعنوي والمادي في ظل التعاليم الإسلامية.

إنّ إطاعة الكفّار في وساوسهم وتلقيناتهم، والإصغاء إلى دعاياتهم تعني العودة إلى النقطة الأُولى ألا وهي الكفر والفساد والسقوط في حضيض الانحطاط، وفي هذه الصورة يكونون قد ارتكبوا إثماً كبيراً ستلازمهم تبعاته، وآثاره الشريرة، فأية خسارة أكبر من أن يستبدل الإنسان الإيمان بالكفر، والنور بالظلام، والهدى بالضلال والسعادة بالشقاء؟!

ثمّ إنّه سبحانه يؤكّد بأنّ لهم خير ناصر وولي وهو الله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾.

إنّه الناصر الذي لا يغلب، بل لا تساوي قدرته أية قدرة، في حين ينهزم غيره من الموالي، ويندحر غيره من الأسياد.

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى نموذج من نماذج التأييد الإلهي للمسلمين في أحرج الظروف، وأحلك المراحل إذ يقول: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾.

ففي هذا المقطع من الآية يشير إلى نجاة المسلمين بعد معركة أُحد، وخلاصهم بأعجوبة، وهو بذلك - كما أسلفنا - يشير إلى واحد من موارد حماية الله للمسلمين وغضبه على الكفّار، ويطمئن المسلمين إلى المستقبل ويزيد من ثقتهم بأنفسهم، ويؤمّلهم بالتأييدات الإلهيّة القادمة.

فالوثنيون المكّيون - كما سبق أن قلنا في قصة معركة أُحد - مع أنّهم أحرزوا في تلك المعركة انتصاراً ملفتاً للنظر، واستطاعوا أن يبددوا الجيش الإسلامي ولو ظاهراً، رأوا أن يعودوا إلى ساحة المعركة، ويأتوا على البقية الباقية من القوّة الإسلامية، بل ولم يترددوا مطلقاً في الإغارة على المدينة المنورة، والقضاء على شخص النّبي الكريم ﷺ حيث كان قد بلغهم عدم صحة الخبر بمقتله في تلك المعركة.

إلّا أنّ الله سبحانه قد ألقى في قلوبهم رعباً عجيباً، وخوفاً بالغاً صرفهم عن نيّتهم تلك.

على أن هذا الخوف الذي لم يكن له ما يبرره أبداً سوى أنّه من خواص الكفر والوثنية والاعتقاد بالخرافة قد شمل وجودهم كلّه حتى إنّهم - كما نقرأ ذلك في الأحاديث - كانوا عند عودتهم من أُحد واقترابهم من مكّة أشبه ما يكونون بجيش منهزم مندحر، رغم ما قد حققوه من انتصار شبه ساحق.

وهذا هو ما تلخصه الآية إذ تقول: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ أي إنّنا كما ألقينا الرعب في قلوب الكفّار في أعقاب معركة أُحد ورأيتم نموذجاً منه بأُم أعينكم، سنلقي مثله في قلوب الذين كفروا فيما بعد، ولهذا ينبغي أن تطمئنوا إلى المستقبل، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، ولا تهزكم ولا تزعزعكم شماتة شامت ووسوسة موسوس.

والجدير بالذكر أنّ الآية تعلل نشأة هذا الرعب الواقع في قلوب الكفّار كالتالي: ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾.

لقد كانوا قوماً أهل خرافة، لا يتبعون دليلاً، ولا يلتمسون برهاناً، ولهذا كثيراً ما كانت المحقرات من الأشياء تعظم في عيونهم وأفكارهم، فيتخذون الحجر والمدر والخشب معبودات وآلهة لهم، يضعفون أمام الحوادث ضعفاً عجيباً ويستكينون لها استكانة مذلة لأنّهم سرعان ما يخطئون في حساباتهم وتقديراتهم، فإذا ما حدث حادث طفيف - في حياتهم - كما لو سمعوا مثلاً بأنّ المسلمين المهزومين عادوا مع جراحاتهم وجرحاهم إلى ساحة المعركة لملاحقة الأعداء، عظم ذلك في عيونهم وكبر في نظرهم، وحسبوا له أعظم حساب، وخافوا من ذلك أشد الخوف، وهي بعينها الحالة التي يعاني منها المستكبرون في عالمنا الراهن وعصرنا الحاضر، حيث إنّنا نشاهد كيف يخافون من أصغر حادث، فيتصورون الذرّة جبلاً والحبّة قبة، وذلك لأنّهم لا يركنون إلى ركن وثيق، ولم يختاروا لأنفسهم كهفاً حصيناً، من إيمان صحيح وعقيدة مستقيمة.

لقد ظلم هؤلاء الكافرون أنفسهم وظلموا مجتمعاتهم: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وما أسوأه من مثوى ومآل.

الانتصار بعامل الرعب

تفيد روايات كثيرة أنّ النّبي ﷺ كان يمتاز في جملة ما يمتاز به أنّه كان ينتصر على أعدائه بسبب خوفهم وإلقاء الرعب في قلوبهم(١).

إنّ هذا الموضوع يشير - في نفس الوقت - إلى أحد عوامل الانتصار في المعارك والحروب وخاصة في مثل هذا اليوم الذي تعتبر فيه معنويات المقاتلين من أهم الأُمور العسكرية، ومن أهم القضايا في شؤون التكتيك الحربي.

ولهذا فإن لمعنوية المقاتلين المرتفعة من التأثير في تحقيق النصر ما ليس للسلاح من حيث الكمية والكيفية.

من هنا بالغ الإسلام في رفع معنويات المقاتلين، فمضى يقوي فيهم روح الإيمان والحبّ للجهاد، والاعتزاز بالشهادة، والاتكال على الله القادر المنان وبهذا بلغ بالمجاهدين المسلمين أعلى قمم الاستقامة والثبات، والشجاعة والبسالة في حين أنّ المشركين وعبدة الأوثان، الذين لم يكونوا يعتقدون إلّا بأصنام صمّ بكم لا تضر ولا تنفع، ولا يؤمنون بمعاد وقيامة وحياة بعد الموت، كانوا يعانون من نفسية ضعيفة منهزمة مهزوزة، فكان هذا التفاوت بين النفسيتين هو أحد العوامل المؤثرة لانتصار المسلمين عليهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً

---

(١) راجع كتاب الخصال، وتفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث؛ ووسائل الشيعة، ج ٣، ص ٣٥٠.

نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

التّفسير

الهزيمة بعد الانتصار

قاتل المسلمون في المرحلة الأُولى من معركة أُحد بشجاعة خاصّة، ووقفوا وقفة رجل واحد فأحرزوا انتصاراً سريعاً، ودحروا جيش العدو في أقرب وقت، فدبّ السرور والفرح في المعسكر الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه كما أسلفنا، إلّا أنّ تجاهل فريق من الرماة لأوامر الرسول ﷺ المشددة بالبقاء عند ثغر الجبل والمحافظة عليه سبّب في أن تنقلب الآية.

فقد أقدم ذلك الفريق من الرماة الذين كلّفهم النّبي القائد ﷺ بحراسة الثغر الموجود في جبل عينين بقيادة عبد الله بن جبير على ترك موقعهم المهم جدّاً عندما عرفوا بهزيمة قريش، واشتغال المسلمين بجمع الغنائم، وفسح هذا الأمر المجال لكمين من قريش في أن يهاجموا المسلمين من الخلف ويتحمل الجيش الإسلامي ضربة نكراء.

وعندما عاد المسلمون بعد تحمل خسائر عظيمة إلى المدينة كان يسأل أحدهم رفيقه: ألم يعدنا الله سبحانه بالفتح والنصر، فلماذا هزمنا في هذه المعركة؟

فكانت الآيات الحاضرة جواباً على هذا السؤال، وتوضيحاً للعلل الحقيقية التي سببت تلك الهزيمة، وإليك فيما يلي تفسير جزئيات هذه الآيات وتفاصيلها:

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم(١) بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا(٢) فَشِلْتُمْ﴾.

---

(١) «تحسّونهم» من «الحس» القتل على وجه الاستئصال، وسمي القتل حساً لأنه يبطل الحس.

(٢) «إذا» ليست هنا شرطية، بل بمعنى «حين».

ففي هذه العبارة يشير القرآن الكريم بل ويصرح بأنّ الله قد صدق وعده وأنزل النصر على المسلمين في بداية تلك المعركة، فقتلوا العدو، وفرقوا جمعهم ومزقوا شملهم ما داموا يتبعون تعاليم النّبي ﷺ ويتقيدون بأوامره، وما داموا يتحلون بالثبات والاستقامة، فلم تلحق بهم الهزيمة إلّا عندما وهنوا وتجاهلوا أوامر القيادة النبوية الدقيقة، وهذا يعني أنّ عليهم أن لا يتوهموا بأنّ الوعد بالتأييد والنصر مطلق لا قيد له ولا شرط، بل كل الوعود الإلهيّة بالنصر مقيدة باتباع تعاليم الله بحذافيرها، والتمسك بأهدافها.

أما متى وعد الله المسلمين بالنصر في هذه المعركة، فهناك احتمالان:

أحدهما: أن يكون المراد هو تلك الوعود العامة التي يعد الله بها المؤمنين دائماً حيث يخبرهم بأنّه سبحانه ينصرهم على الكافرين والأعداء.

الآخر: أنّ النّبي ﷺ قد وعد المسلمين بصراحة قبل أن يخوضوا معركة أُحد بأنّهم منتصرون في تلك المعركة، ووعد النّبي هو الوعد الإلهي بلا ريب.

ثمّ إنّه سبحانه يقول بعد بيان هذه الحقيقة حول النصر الإلهي ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾.

ومن هذه العبارة التي هي إشارة إلى ما طرأ على وضع الرماة في جبل (عينين) يستفاد بوضوح أنّ الرماة الذين كلفوا بحراسة الثغر قد اختلفوا فيما بينهم في ترك ذلك الثغر ومغادرة ذلك الموقع في الجبل فعصى فريق كبير منهم، (وهذا قد يستفاد من لفظة عصيتم التي تفيد أن الأغلبية والأكثرية من الرماة قد عصت وتجاهلت تأكيدات النّبي بالبقاء هناك).

ولهذا يقول القرآن الكريم بأنّكم عصيتم من بعد ما أراكم النصر الساحق الذي كنتم تحبون، أي إنّكم بذلتم غاية الجهد لتحقيق النصر، ولكنكم وهنتم في حفظه، وتلك حقيقة ثابتة أبداً وهي أن الحفاظ على الانتصارات أصعب بكثير من تحقيقها.

أجل لقد اختلفتم فيما بينكم وتنازعتم في تلك اللحظات الحساسة البالغة الأهميّة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾.

ففي الوقت الذي كان البعض (وهم الأغلب كما قلنا) يفكرون في الغنائم وقد سال لعابهم لها حتى إنّهم تركوا موقعهم الخطير في الجبل، بينما بقيت جماعة أُخرى قليلة مثل عبد الله بن جبير وبعض الرماة ثابتين في مكانهم يذبون عنه الأعداء ويطلبون الآخرة والثواب الإلهي العظيم.

وهنا تغير مجرى الأُمور، وانعكست القضية فبدّل الله الانتصار هزيمة ليمتحنكم وينبّهكم، ويربّيكم: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

ثمّ إنه سبحانه غفر لكم كلّ ما صدر وبدر منكم من عصيان وتجاهل لأوامر الرسول ﷺ وما ترتب على ذلك من التبعات في حين كنتم تستحقون العقاب، وما ذلك إلّا لأنّ الله لا يضنّ بنعمة على المؤمنين، ولا يبخل عليهم بموهبة ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أجل، إنّه تعالى يحب المؤمنين، ولا يتركهم وشأنهم ولا يكلهم إلى أنفسهم إلّا في بعض الأحيان ليتنبهوا، ويثوبوا إلى رشدهم فيزدادوا التصاقاً بالشريعة، واهتماماً بالمسؤوليات، ويقظة وإحساساً.

ثمّ إنّه سبحانه يذكّر المسلمين بموقفهم في نهاية معركة أُحد فيقول: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ(١) وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾(٢) أي تذكروا إذ فررتم من المعركة، ورحتم تلوذون بالجبل أو تنتشرون في السهل، تاركين رسول الله وحده بين المهاجمين المباغتين من المشركين وهو يدعوكم من ورائكم ويناديكم قائلاً: (إليّ عباد الله - إليّ عباد الله فإني رسول الله) وأنتم لا تلتفتون إلى الوراء أبداً، ولا تلبّون نداء النّبي ﷺ.

وفي ذلك الوقت أخذت الهموم والأحزان تترى عليكم ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾، لِما أصابكم من النكسة ولفقدان مجموعة كبيرة من خيار فرسانكم وجنودكم ولِما أصاب جماعة منكم من الجراحات والإصابات ولِما بلغكم من شائعة قتل النّبي ﷺ.

ولقد كان كلّ ذلك من نتائج مخالفتكم لأوامر القيادة النبوية، وتجاهلكم لتأكيداتها بالمحافظة على المواقع المناطة بكم.

ولقد كان هجوم تلك الغموم عليكم من أجل أن لا تحزنوا على ما فاتكم من غنائم الحرب، وما أصابكم من الجراحات في ساحة المعركة في سبيل تحقيق الانتصار ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فهو يعرف جيداً من ثبت منكم وأطاع، وكان مجاهداً

---

(١) «تصعدون» من الإصعاد وهو - كما في المفردات للراغب - الإبعاد والمشي في الأرض سواء كان ذلك في صعود أو انحدار في حين أنّ الصعود يعني الذهاب في المكان العالي، ولعلّ استعمال الاصعاد في الآية بدل الصعود لأنّ جماعة من الفارين صعدوا الجبل، وجماعة آخرين انتشروا في الصحراء.

(٢) «أُخراكم» بمعنى «ورائكم».

واقعياً، ومن هرب وعصى، وعلى ذلك فليس لأحد أن يخدع نفسه، فيدعي خلاف ما صدر منه في تلك الحادثة، فإذا كنتم من الفريق الأول بحق وصدق فاشكروه سبحانه، وإن لم تكونوا كذلك فتوبوا إليه واستغفروه من ذنوبكم.

وساوس الجاهلية

اتسمت اللّيلة التي تلت معركة أُحد بالقلق والاضطراب الشديدين، فقد كان المسلمون يتوقعون أن يعود جنود قريش الفاتحون المنتصرون إلى المدينة مرّة أُخرى لاجتياح البقية الباقية من القوّة الإسلامية، والقضاء على من تبقى من المقاتلين المسلمين، ولعلّ بعض الأخبار كان قد نمّ إلى المسلمين عن اعتزام المشركين ونيّتهم في العودة إلى ساحة القتال.

ولاشكّ أنّهم لو عادوا لكان المسلمون يواجهون أحلك الظروف في تلك الواقعة.

بيد أنّه كان هناك بين المسلمين ثلة من المجاهدين الصادقين الذين ندموا على الفرار من الميدان في أُحد فتابوا إلى الله، واطمأنوا إلى وعود النّبي الكريم ﷺ حول المستقبل، قد أخذهم نوم مريح، وغلبهم نعاس هانىء ولذيذ وهم في عدة الحرب، في الوقت الذي كان فيه المنافقون وضعاف الإيمان، والجبناء يعانون من كابوس الأوهام والوساوس طوال الليل، ولم يذوقوا لذة النوم، فكانوا - من حيث لا يشعرون ولا يقصدون - يحرسون المؤمنين الحقيقيّين الذين كانوا يستريحون في تلك النومة الطارئة اللذيذة. وإلى هذا كلّه يشير الكتاب العزيز في الآية الحاضرة إذ يقول: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً(١) نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

أجل، إنّ المنافقين والجبناء وضعاف النفوس والإيمان لم يزرهم النوم ولا حتى النعاس في تلك الليلة خوفاً على نفوسهم، وعلى أرواحهم، وجرياً وراء الوساوس الشيطانية، والمخاوف التي هي من طبيعة ولوازم النفاق وضعف اليقين ووهن الإيمان، فيما المؤمنون الصادقون يستريحون في ذلك النعاس اللذيذ، وتلك النومة الطارئة الهانئة، وهذا أحد آثار الإيمان وثماره المهمة البارزة، فإنّ المؤمن يحظى بالراحة والطمأنينة حتى في هذه الدنيا، على العكس من غير المؤمنين من الكفّار أو المنافقين أو ضعاف الإيمان، فإنّهم محرومون من الطمأنينة والراحة اللذيذة تلك.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يعمد إلى بيان واستعراض طبيعة ما كان يدور بين أُولئك

(١) الامنة: أي الأمن، والنعاس: هو النوم الخفيف.

المنافقين وضعاف الإيمان من أحاديث وحوار، وما كان يدور في خلدهم من ظنون وأفكار، إذ يقول: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

إنّهم كانوا يظنون بالله ما كانوا يظنونه به أيام كانوا يعيشون في الجاهلية، وقبل أن تبزغ عليهم شمس الإسلام، فقد كانوا يتصورون أنّ الله سيكذبهم وعده، ويظنون أنّ وعود النّبي ﷺ غير محققة ولا صادقة، وكان يقول بعضهم للآخر: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ أي هل سيصيبنا النصر ونحن في هذه الحالة من السقوط والهزيمة، والمحنة والبلية؟ إنّهم كانوا يستبعدون أن ينزل عليهم نصر من الله بعد ما لقوا، أو كانوا يرون ذلك محالاً.

ولكن القرآن يجيبهم قائلاً ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي كيف تستبعدون ذلك أو ترونه محالاً والأمر كلّه بيد الله، وهو قادر أن ينزل عليكم النصر متى وجدكم أهلاً لذلك.

على أنّهم لم يظهروا كلّ ما كان يدور في خلدهم من ظنون وأوهام وهواجس خوفاً من أن يُعدوا في صفوف الكفّار: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

وكأنّهم كانوا يتصورون أنّ الهزيمة في أُحد من العلائم الدالة على بطلان الإسلام، ولذا كانوا يقولون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي لو كنّا على حق لكسبنا المعركة، ولم نخسر كلّ هذه الأرواح والنفوس.

ولكن الله تعالى أجابهم وهو يشير في هذه الإجابة إلى مطلبين:

الأول: إنّ عليكم أن لا تتوهموا بأنّ الفرار من ساحة المعركة، وتجنب الصعاب يمكنه أن ينقذكم من الموت الذي هو قدر لكلّ إنسان ولهذا يقول سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ فإنّ الذين جاء أجلهم، وحان حين موتهم لا بدّ أن يموتوا ولا محالة هم مقتولون حتى لو كانوا في مضاجعهم.

وفي الأساس فإنّ كلّ أُمة استحقت الهزيمة لوهن أكثريتها، لا بدّ أن تذوق الموت، ولا محالة يصيبها القتل، فالأجدر بها أن تموت في ساحات المعارك، وتحت ضربات السيوف، وهي تسطر ملاحم البطولة، وتخط أسطر البسالة، لا أن تموت خانعة، أو تقتل ذليلة على فراشها، وما أروع ما قاله الإمام علي إذ قال عليه السلام: «لألف ضربة بالسيف أحب إليَّ من ميتة على فراش».

والثاني: إنّ هذه الحوادث لا بدّ أن تقع حتى يبدي كلّ واحد مكنون صدره، ومكتوم قلبه، فتتميّز الصفوف، وتتشخّص جواهر الرجال، هذا مضافاً إلى أنّ هذه الحوادث

سبب لتربية الأشخاص شيئاً فشيئاً، ولتخليص نياتهم، وتقوية إيمانهم، وتطهير قلوبهم ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

ثمّ يقول سبحانه: في ختام هذه الآية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ولذلك فهو لا ينظر إلى أعمال الناس بل يمتحن قلوبهم، ليطهرها من كلّ ما تعلق بالنفوس والأفئدة من شوائب الشرك والنفاق، والشك والتردد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

التّفسير

الذنب ينتج ذنباً آخر

هذه الآية ناظرة أيضاً إلى وقائع معركة أُحد، وتقرر حقيقة أُخرى للمسلمين، وهي أن الذنوب والانحرافات التي تصدر من الإنسان بسبب وساوس الشيطان، تفرز آثاماً وذنوباً أُخرى بسبب وجود القابلية الحاصلة في النفس الإنسانية نتيجة الذنوب السابقة، والتي تمهد لذنوب مماثلة وآثام أُخرى، وإلّا فإنّ القلوب والنفوس التي خلت وطهرت من آثار الذنوب السالفة لا تؤثر فيها الوساوس الشيطانية، ولا تتأثر بها، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وهكذا يعلمهم القرآن أن عليهم أن يضاعفوا الجهد في تربية نفوسهم وتطهير قلوبهم لتحقيق الإنتصار في المستقبل.

ويمكن أن يكون المقصود من الذنب الذي كسبوا هو حب الدنيا وجمع الغنائم، ومخالفة الرسول ﷺ، وتجاهل أوامره في بحبوحة المعركة، أو ذنوب أُخرى كانوا قد إقترفوها قبل معركة أُحد أضعفت من طاقاتهم الإيمانية، وأضرت بالجانب المعنوي فيهم.

وقد نقل العلّامة الطبرسي عن أبي القاسم البلخي أنّه لم يبق مع النّبي ﷺ يوم أُحد إلّا ثلاث عشرة نفساً (فيكون عددهم مع النّبي ١٤) خمسة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وقد اختلف في الجميع إلّا في علي عليه السلام وطلحة فإنّهما ثبتا ولم يفرّا باتفاق الجميع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

التّفسير

استغلال المنافقين

كانت حادثة أُحد تحظى بأهميّة كبيرة من وجهة نظر المسلمين وذلك من جهتين:

أولاً: لأنّها كانت تعتبر خير مرآة تعكس حقيقة المسلمين في تلك المرحلة، وتساعدهم على رؤية نقاط ضعفهم، فإصلاحها وإزالتها، ولهذا السبب ركز القرآن على أحداث هذه الواقعة وملابساتها وقضاياها ذلك التركيز الكبير وأولاها ذلك الاهتمام البالغ، فنحن نرى كيف نستفيد منها دروساً وعبراً كثيرة وكبيرة، في الآيات القادمة كما في الآيات السابقة.

ومن جهة أُخرى هيّأت أحداث هذه الواقعة أرضية وفرصة مناسبة للمنافقين بأن يقوموا بمحاولاتهم التشويشية، ومن أجل هذا نزلت آيات عديدة لإبطال مفعول هذه المحاولات وإجهاض هذه المساعي الماكرة، من جملتها الآيات المذكورة أعلاه.

فهذه الآيات تتوجه بالخطاب أولاً إلى المؤمنين بهدف تحطيم جهود المنافقين ومحاولاتهم التخريبية، وتحذير المسلمين منهم فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾.

هذه الكلمات وإن كانوا يطلقونها في ستار من التعاطف وتحت قناع الإشفاق، إلّا أنّهم لم يكونوا - في الحقيقة - يقصدون منها إلّا تسميم روحية المسلمين، وإضعاف معنوياتهم، وزعزعة إيمانهم، فينبغي ألا تقعوا تحت تأثيرها، وتكرروا نظائرها من العبارات.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

إنّكم أيّها المؤمنون إذا وقعتم تحت تأثير هذه الكلمات المضلّة الغاوية، وكررتم نظائرها ستضعف روحيتكم أيضاً، وستمتنعون أيضاً عن الخروج إلى ميادين الجهاد والسفر والرحيل من أجل الله وفي سبيله، وحينئذ سيتحقق للمنافقين ما يصبون إليه، ولكن لا تفعلوا ذلك، وتقدّموا إلى سوح الجهاد وميادين القتال بمعنوية عالية، وعزم أكيد ودون تردد ولا كلل، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب المنافقين المخذولين أبداً.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يردّ على خبث المنافقين وتسويلاتهم وتشويشاتهم بثلاثة أجوبة منطقية هي:

١ - إن الموت والحياة بيد الله على كلّ حال، وإنّ الخروج والحضور في ميدان القتال لا يغير من هذا الواقع شيئاً، وإنّ الله يعلم بأعمال عباده جميعها: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢ - ثمّ إنّكم حتى إذا متّم أو قتلتم، وبلغكم الموت المعجل - كما يحسب المنافقون - فإنّكم لم تخسروا شيئاً، لأنّ رحمة الله وغفرانه أعظم وأعلى من كلّ ما تجمعه أيديكم أو يجمعه المنافقون مع الاستمرار في الحياة من الأموال والثروات ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وأساساً لا تصحّ المقارنة بين هذين الأمرين فأين الثرى من الثريا!! ولكنه أمر لا مفر منه عند مخاطبة تلك العقول المنحطة التي تفضل أياماً معدودة من الحياة الفانية وحفنة من الثروة الزائلة على عزة الجهاد وفخر الشهادة.

إنّه ليس من سبيل أمام هؤلاء إلّا أن يقال لهم: إنّ ما يحصل عليه المؤمنون عن طريق الشهادة أو الموت في سبيل الله، أفضل من كلّ ما يجمعه الكفّار من طريق حياتهم الموبوءة، الممزوجة بالشهوات الرخيصة وعبادة المال والدنيا.

٣ - وبغضّ النظر عن كلّ ذلك فإنّ الموت لايعني الفناء والعدم حتى يخشى منه هذه الخشية ويخاف منه هذا الخوف، ويستوحش منه هذا الاستيحاش، إنّه نقلة من حياة إلى حياة أوسع وأعلى وأجل وأفضل، حياة ممزوجة بالخلود موصوفة بالبقاء ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

إنّ الجدير بالملاحظة في هذه الآيات هو جعل الموت في اثناء السفر، في مصاف الشهادة في سبيل الله، لأنّ المراد بالسفر هنا الأسفار التي يقوم بها الإنسان في سبيل الله ولأجل الله كالسفر وشد الرحال إلى ميادين القتال أو للعمل التبليغي، وذلك لأنّ الأسفار في تلك العصور كانت محفوفة بالمشاكل، ومقترنة بالمصاعب والمتاعب،

وكانت تلازمها في الأغلب الأمراض التي تؤدّي في أكثر الأحيان إلى الموت، ولذلك لم يكن ذلك الموت بأقل فضلاً من القتل والشهادة في ميادين الجهاد وسوح النضال.

وأمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ الأسفار المذكورة في هذه الآية هي الأسفار التجارية فهو بعيد جدّاً عن معنى الآية، لأنّ الكفّار لم يتأسفوا قط لهذا الأمر الذي كان وسيلة من وسائل الحصول على الثروة وتكريسها، بالإضافة إلى أن هذا الموضوع لم يكن له أي تأثير في إضعاف روحية المسلمين بعد معركة أُحد، كما وأن عدم تنسيق المسلمين مع الكفّار في هذا المورد لم يوجد ولم يسبب أية حسرة للكفّار، ولهذا فإنّ الظاهر هو أنّ المراد من الموت في أثناء السفر في هذه الآية هو الموت في السفر الذي يكون بهدف الجهاد في سبيل الله، أو لغرض القيام بغير ذلك من البرامج الإسلامية.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

التّفسير

الأمر بالعفو العام

هذه الآية وإن كانت تتضمن سلسلة من التعاليم الكلية الموجهة إلى رسول الله ﷺ وتشتمل من حيث المحتوى على برامج كلية وأساسية، ولكنها من حيث النزول ترتبط بواقعة أُحد لأنّه بعد رجوع المسلمين من أُحد أحاط الأشخاص الذين فروا من المعركة برسول الله ﷺ وأظهروا له الندامة من فعلتهم وموقفهم، وطلبوا منه العفو.

فأصدر الله سبحانه إلى نبيّه ﷺ أمره بأن يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئتهم ويستقبل المخطئين التائبين منهم بصدر رحب.

إذ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولقد أشير في هذه الآية - قبل أي شيء - إلى واحدة من المزايا الأخلاقية لرسول الله ﷺ، ألا وهي اللين مع الناس والرحمة بهم، وخلوّه من الفظاظة والخشونة.

(الفظّ) - في اللغة - هو الغليظ الجافي الخشن الكلام، و(غليظ القلب) هو قاسي الفؤاد الذي لا تلمس منه رحمة، ولا يحس منه لين.

وهاتان الكلمتان وان كانتا بمعنى واحد هو الخشونة، إلّا أنّ الغالب استعمال الأُولى في الخشونة الكلامية، واستعمال الثانية في الخشونة العملية والسلوكية، وبهذا يشير سبحانه إلى ما كان يتحلى به الرسول الأعظم ﷺ من لين ولطف تجاه المذنبين والجاهلين.

ثمّ إنّه سبحانه يأمر نبيّه بأن يعفو عنهم إذ يقول: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

وهذا الكلام يعني أنّه سبحانه يطلب منه ﷺ أن يتنازل عن حقه لهم إذ تفرقوا عنه في أحلك الظروف، وسببوا له تلك المصائب والمتاعب في تلك المعركة، وأنّه يشفع لهم لدى نبيه بأن يتجاوز عنهم، وأن يشفع هو بدوره لهم عند الله ويطلب المغفرة لهم منه سبحانه.

وبتعبير آخر إنه سبحانه يطلب من نبيّه أن يعفو عنهم فيما بينه وبينهم، وأمّا ما بين الله وبينهم فهو سبحانه يغفر لهم ذلك. وقد فعل الرسول الكريم ﷺ ما أمره به ربّه وعفا عنهم جميعاً.

ومن الواضح أنّ هذا المقام كان من الموارد التي تتطلب حتماً العفو والمغفرة، واللطف واللين، ولو إنّ النّبي ﷺ فعل غير ذلك لأفضى إلى انفضاض الناس من حوله، وتفرقهم عنه، إذ أنّ الجماعة رغم أنّها أُصيبت بالهزيمة النكراء، وتحملت ما تحملت من القتلى والجرحى، وكانوا هم السبب في ذلك، إلّا أنّهم أحوج ما يكونون إلى العطف واللّطف وإلى اللّين والعفو، وإلى البلاسم التي تبل جراحاتهم، وإلى المراهم التي تهدىء خواطرهم، حتى يتهيأوا بعد شفائها واستعادة معنوياتهم إلى مواجهة أحداث المستقبل، وتحمل المسؤوليات القادمة.

إنّ في هذه الآية إشارة صريحة إلى إحدى أهم الصفات التي يجب توفرها في أيّة قيادة، ألا وهي العفو واللّين تجاه المتخلفين التائبين، والعصاة النادمين، والمتمردين العائدين، ومن البديهي أنّ من يتصدى للقيادة لو افتقد هذه الخصلة الهامة، وافتقر إلى روح السماحة، وصفة اللين، وعامل من حوله بالخشونة والعنف والفظاظة فسرعان ما يواجه الهزيمة، وسرعان ما تصاب مشاريعه وبرامجه بنكسات ماحقة، تبدّد جهوده، وتذري مساعيه أدراج الرياح، إذ يتفرّق الناس من حوله، فلا يمكنه القيام بمهام القيادة ومسؤولياتها الجسيمة، ولهذا قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مشيراً إلى هذه الخصلة القيادية الحساسة (آلة الرياسة سعة الصدر)[1].

(١) نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ١٧٦.

الأمر بالمشاورة

بعد إصدار الأمر بالعفو العام يأمر الله نبيّه ﷺ بأن يشاور المسلمين في الأمر ويقف على وجهات نظرهم، وذلك إحياءً لشخصيتهم، ولبث الروح الجديدة في كيانهم الفكري والروحي اللذين أصابهما الفتور بعد الذي حدث.

على أنّ هذا الأمر للنّبي بمشاورة المسلمين إنّما هو لأجل أنّه ﷺ - كما أسلفنا - قد استشار المسلمين قبل الدخول في معركة أُحد في كيفية مواجهة العدو واستقر رأي الأغلبية منهم على التعسكر عند جبل أُحد فكان ما كان من المكروه ووقع ما وقع من البلاء، وهنا كان كثيرون يتصورون بأنّ على النّبي أن لا يشاور بعد ذلك أحداً، وأن عليه أن يتصرف كما يرى هو، ولكن القرآن الكريم جاء يرد على هذا التصور، ويجيب على هذا النوع من التفكير ويأمر النّبي بأن يعيد المشاورة إذ يقول ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ لأنّ المشاورة وإن لم تنفع في بعض المواضع، فإنّها نافعة على العموم، بل إنّ نتائجها المفيدة الكثيرة لو قيست إلى بعض النتائج السلبية وغير المفيدة تبدو أكثر أضعافاً كما وأنّ أثرها في صياغة الأفراد والجماعات وإنماء شخصيتهم من الأهميّة بحيث يغطي على نقاط ضعفها، بل هو أبرز آثارها وأهم فوائدها الذي لا يمكن ولا يجوز التغاضي عنه.

والآن نرى في أي المواضيع كان يشاور الرسول الأعظم ﷺ أصحابه؟

صحيح أنّ كلمة (الأمر) في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ ذات مفهوم واسع يشمل جميع الأُمور، ولكن من المسلَّم به أيضاً أنّ النّبي ﷺ لم يشاور الناس في الأحكام الإلهيّة مطلقاً، بل كان في هذا المجال يتبع الوحي فقط.

وعلى هذا الأساس كانت المشاورة في كيفية تنفيذ التعاليم والأحكام الإلهيّة على أرض الواقع.

وبعبارة أُخرى: إنّ النّبي لم يشاور أحداً في التقنين، بل كان يشاور في كيفية التطبيق ويطلب وجهة نظر المسلمين في ذلك.

ولهذا عندما كان يقترح النّبي ﷺ أمراً - أحياناً - يبادره المسلمون بهذا السؤال: هل هذا حكم إلهي لا يجوز إبداء الرأي فيه، أو أنّه يرتبط بكيفية التطبيق والتنفيذ؟ فإذا كان من النوع الثاني، أدلى الناس فيه بآرائهم، وأمّا إذا كان من النوع الأول فلا يكون منهم تجاهه سوى التسليم والتفويض.

ففي يوم بدر جاء النّبي ﷺ أدنى ماء من بدر فنزل عنده، فقال الحباب ابن المنذر:

يارسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) فقال: يا رسول الله ليس هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثمّ نغور ما وراءه إلى آخر ما قال... فقال له النّبي ﷺ: (لقد أشرت بالرأي) وعمل برأيه[1].

أهمّية المشاورة في نظر الإسلام

لقد حظيت مسألة المشاورة بأهميّة خاصة في نظر الإسلام، فالنّبي ﷺ رغم أنّه كان يملك - بغضّ النظر عن الوحي الإلهي - قدرة فكرية كبيرة تؤهله لتسيير الأُمور وتصريفها دون حاجة إلى مشاورة أحد، إلّا أنّه ﷺ كيما يُشعر المسلمين بأهميّة المشاورة وفوائدها حتى يتخذوها ركناً أساسياً في برامجهم وحتى ينمي فيهم قواهم العقلية والفكرية نجده يشاور أصحابه في أُمور المسلمين العامة التي تتعلق بتنفيذ القوانين والأحكام الإلهيّة (لا أصل الأحكام والتشريعات التي مدارها الوحي) ويقيم لآراء مشيريه أهميّة خاصة ويعطيها قيمتها اللّائقة بها، حتى إنّه كان - أحياناً - ينصرف عن الأخذ برأي نفسه احتراماً لهم ولآرائهم كما فعل ذلك في أُحد، ويمكن القول بأن هذا الأمر بالذات كان أحد العوامل المؤثرة وراء نجاح الرسول الأكرم ﷺ في تحقيق أهدافه الإسلامية العليا.

والحقّ أنّ أيّة أُمة أقامت إدارة شؤونها على أساس من الشورى والمشاورة، قلّ خطؤها، وندر عثارها، على العكس من الأفراد الذين يعانون من استبداد الرأي، ويرون أنفسهم في غنى عن نصح الناصحين ورأي الآخرين فإنّهم إلى العثار أقرب، ومن الصواب والرشد أبعد، مهما تمتعوا بسديد الرأي، وقويّ التفكير.

هذا مضافاً إلى أنّ الاستبداد في الرأي يقضي على الشخصية في الجمهور، ويوقف حركة الفكر وتقدمه، ويميت المواهب المستعدة بل يأتي عليها، وبهذا الطريق تهدر أعظم طاقات الأمّة الإنسانية.

ومضافاً أيضاً إلى أنّ الذي يشاور الآخرين في أُموره وأعماله إذا حقق نجاحاً قلَّ أن يتعرض لحسد الحاسدين، لأنّ الآخرين يرون أنفسهم شركاء في تحقيق ذلك الانتصار والنجاح، وليس من المتعارف أن يحسد الإنسان نفسه على نجاح حققه، أو انتصار أحرزه.

---

(١) تفسير المنار: ج ٤ ص ٢٠٠؛ والمستدرك، للحاكم النيشابوري، ج ٣، ص ٤٢٧.

أمّا إذا أصابته نكسة فلا تلومه ألسن الناس، ولا يتعرض لسهام نقدهم واعتراضهم، لأنّ الإنسان لا يعترض على عمل نفسه، ولا ينقد فعل ذاته، بل سيشاطرونه الألم، ويتعاطفون معه، ويشاركونه في التبعات.

كلّ ذلك لأنّهم شاركوه في الرأي وشاطروه في التخطيط، ولم يكن متفرداً في العمل، ولا مستبداً في الرأي.

ثمّ إنّ هناك فائدة أُخرى للمشاورة وهي أنّ المشاورة خير محكٍّ لمعرفة الآخرين، والتعرف على ما يكنّونه للمستشير من حب أو كراهية، وولاء أو عداء، ولا ريب في أنّ هذه المعرفة ممّا يمهد سبيل النجاح، ولعلّ استشارات النّبي الأكرم ﷺ - مع ما كان يتمتع به من قوة فكرية وعقلية جبارة - كانت لهذه الأسباب مجتمعة.

لقد ورد حثّ شديد وتأكيد ليس فوقه تأكيد على سنّة المشاورة، وفي الأحاديث والأخبار الإسلامية، ففي حديث منقول عن النّبي ﷺ أنّه قال:

«ما شقي عبد قط بمشورة ولا سعد باستغناء رأي»(١).

كما ونقرأ في كلمات الإمام علي عليه السلام قوله:

«من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»(٢).

ونقل عن النّبي ﷺ أيضاً أنّه قال:

«إذا كان أُمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاؤكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خيرٌ لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاؤكم، ولم يكن أمركم شورى بينكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»(٣).

من تشاور؟

من المسلّم به أن للمشورة أهلاً، فلا يصح أن يستشار كلّ من هبّ ودبّ، فربّ مشيرين يعانون من نقاط ضعف، توجب مشورتهم فساد الأمر، وضياع الجهود، وفشل العمل، والتأخر والسقوط.

فعن علي عليه السلام أنّه قال في هذا الصدد: لا تدخلن في مشورتك:

١ - بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك بالفقر.

---

(١) تفسير روح الجنان لأبي الفتوح الرازي، ج ٥، ص ١٢٦.

(٢) نهج البلاغة الكلمات القصار الحكمة ١٦١.

(٣) تفسير روح الجنان لأبي الفتوح الرازي، ج ٥، ص ١٢٦؛ وتحف العقول، ص ١٣٦.

٢ - ولا جباناً يضعفك عن الأُمور.
٣ - ولا حريصاً يزين لك الشرّة بالجور[(١)].

وظيفة المشير

كما تأكد الحث في الإسلام على المشاورة فقد أكدت النصوص على المشيرين أيضاً بأن لا يألوا جهداً في النصح، ولا يدخروا في هذا السبيل خيراً، وتعتبر خيانة المشير للمستشير من الذنوب الكبيرة، بل وتذهب أبعد من ذلك حيث لا تفرق في هذا الحكم بين المسلم والكافر، يعني أنّه لا يحق لمن تكفل تقديم النصح والمشورة أن يخون من استشاره، فلا يدله على ما هو الصحيح في نظره، مسلماً كان ذلك المستشير أو كافراً.

في رسالة الحقوق عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «وحق المستشير إن علمت له رأياً أشرت عليه، وإن لم تعلم أرشدته إلى من يعلم، وحق المشير عليك أن لا تتهمه فيما لا يوافقك من رأيه»[(٢)].

شورى عمر بن الخطاب

عندما بلغ جماعة من علماء أهل السنة ومفسريهم إلى هذه الآية (آية الشورى) أشاروا إلى شورى عمر السداسية لاختيار الخليفة الثالث، وحاولوا عبر بيان مفصل تطبيق مفاد هذه الآية وروايات المشاورة على تلك العملية والفكرة.

والكلام المفصل حول هذه المسألة وإن كان من مهمة الكتب الاعتقادية، إلّا أنّه لا بدّ من الإشارة هنا إلى بعض النقاط بصورة مختصرة وسريعة:

أولاً: إنّ انتخاب الخليفة للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم يجب أن يكون فقط من جانب الله، لأنّ الخليفة يجب أن يتمتع على غرار النّبي - بصفات ومؤهلات كالعصمة وما شاكل ذلك وهي أُمور لا يمكن الوقوف والاطلاع عليها إلّا من قبل الله سبحانه.

وبتعبير آخر: كما أنّ تعيين النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن أن يكون بالمشاورة والشورى فكذلك انتخاب الإمام لا يمكن أن يكون بالشورى.

ثانياً: إنّ الشورى السداسية المذكورة لم تنطبق بالمرة على معايير الشورى وموازين المشاورة، لأنّ الشورى التي ذهب إليها عمر إن كان المراد منها مشاورة المسلمين عامّة، فماذا يعني تخصيصها بستة أنفار؟

---

(١) نهج البلاغة كتابه عليه السلام وعهده لمالك الأشتر، ص ٤٣٠.
(٢) تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٤٠٥؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٦٢٤.

وإن كان الهدف منها مشاورة العقلاء والمفكرين وأهل الرأي من الأُمة فهم لا ينحصرون في هؤلاء الستة، إذ هناك شخصيات ناضجة أمثال سلمان الذي كان مستشاراً شخصياً للنّبي الأكرم ﷺ ومثل أبي ذر والمقداد وابن عباس، وغيرهم ممن قد نحّوا عن هذه الشورى.

وعلى هذا الأساس فإنّ حصر هذه الشورى بالأنفار الستة المعينين يجعل هذا الاجتماع والشورى أقرب إلى التحزب السياسي منه إلى التجمع الشوروي.

وأمّا إذا كان المراد من حصر المشيرين في هؤلاء الستة هو جعلها في أصحاب الكلمة والنفوذ حتى تنفذ قراراتهم ولا يخالفها أحد من الأُمة، ولا يتمرد عليها أحد من الناس فإنّه لم يكن موقفاً صائباً أيضاً، لأنّ ثمّة شخصيات من أصحاب الكلمة والنفوذ - أمثال سعد بن عبادة الذي كان يرأس في حينه الأنصار بدون منازع، وأبي ذر الغفاري أكبر شخصية مسموعة الكلمة في قبيلة غفار - قد أُقصيت من حلبة الشورى.

ثالثاً: نحن نعلم أنّه قد اشترط في هذه الشورى شروط صعبة وقاسية إلى درجة أنّه هدد المخالفون والمعارضون بالموت، في حين لا يوجد لمثل هذه الشروط في سنّة الشورى التي سنّها الإسلام أي مكان، ولا أي أثر، فكيف تنطبق على هذه الشورى؟

مرحلة القرار الأخير!

بقدر ما يجب على المستشير أن يتخذ جانب الرفق واللّين في المشورة مع مستشاريه، يجب عليه أن يكون حاسماً وحازماً في اتخاذ القرار الأخير.

وعلى هذا يجب التخلص من أي تردد، أو استماع إلى الآراء المتشتتة بعد استكمال مراحل المشاورة واتضاح نتيجتها، ويجب اتخاذ القرار الأخير بصرامة وحسم، وهذا هو ما يعبر عنه بالعزم في قوله سبحانه في هذا السياق إذ يقول: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

إنّ الجدير بالتأمل هو أنّ مسألة المشاورة ذكرت في الآية الحاضرة بصيغة الجمع (وشاورهم) ولكن اتخاذ القرار الأخير جعل من وظيفة الرسول الكريم ﷺ خاصة إذا جاء بصيغة المفرد (عزمت).

إنّ الاختلاف في التعبير إشارة إلى نكتة مهمة وهي أن تقليب وجوه الأمر، ودراسة القضية الاجتماعية من جميع جوانبها وأطرافها يجب أن تتم بصورة جماعية، وأمّا عندما يتم التصديق على شيء فإنّ إجراءه وإبرازه في صورة القرار القطعي يجب أن يوكل إلى إرادة واحدة، وإلّا وقع الهرج والمرج، ودبت الفوضى في الأُمّة لأنّ التنفيذ بوساطة قادة

متعددين من دون الانطلاق من قيادة واحدة متمركزة سيواجه الاختلاف، ويؤول إلى النكسة والهزيمة، ولهذا تتم المشاورات في عالمنا الراهن بصورة جماعية، ولكن إجراء نتائجها يناط بالدول والأجهزة التي تدار وتعمل تحت إشراف شخص واحد، وفرد معين لا أفراد متعددين.

والموضوع المهم الآخر الذي تشير إليه الجملة السابقة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هو أنّ اتخاذ القرار الأخير يجب أن يقترن بالتوكل على الله، بمعنى أنّ عليكم أن تستمدوا العون من الله القادر المطلق ولا تنسوه في الوقت الذي تهيئون فيه الأسباب العادية والوسائل المادية للأمر.

على أنّ التوكل لا يعني بالمرة أنّ يتجاهل الإنسان الأسباب المادية والوسائل العادية للنصر والتي جعلها الله سبحانه في عالم المادة، ومكّن الإنسان من الأخذ بها، فقد روي في حديث أنّ النّبي ﷺ قال لأعرابي حضر عنده وقد ترك ناقته سادرة في الصحراء دون أن يعقلها حتى لا تفر أو تضل، ظناً بأنّ هذا من التوكل على الله: أعقلها وتوكل)[١].

أجل ليس المراد من التوكل هو هذا المفهوم الخاطىء، بل المراد منه هو أن لا ينحصر الإنسان في حصار هذا العالم المادي، وفي حدود قدرته الضيقة، فلا ينطلق قدماً إلى الأمام، بل يعلّق أمله - إلى جانب الأخذ بالأسباب - على عناية الله وحمايته ولطفه ومنّه.

ولاريب أنّ مثل هذه الالتفاتة تهب للإنسان استقراراً نفسياً عالياً، وطاقة روحية فعالة، ومعنوية تتضائل أمامها كلّ الصعاب والمشاق، وتتحطم عندها كلّ أمواج المشكلات العاتية، أو تنزاح أمامها كلّ الأهوال (وسوف نشرح بإسهاب إن شاء الله مسألة التوكل وكيفية العلاقة بينها وبين الاستفادة من وسائل العالم المادي في ذيل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾)[٢].

ثمّ إنّه سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين في ختام الآية أن يتوكلوا على الله فحسب لأنّه تعالى يحبّ المتوكلين إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

هذا ويستفاد من هذه الآية أنّ التوكل يجب أن يكون بعد التشاور، وبعد الأخذ والاستفادة من جميع الإمكانيات المتاحة للإنسان حتماً.

---

(١) ارشاد القلوب، ج ١، ص ١٢١؛ وفتح الباري، ج ١٠، ص ١٨٠.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٣.

نتيجة التوكل وثمرته

بعد أن يحث الباري سبحانه وتعالى عباده على أن يتوكلوا عليه، يبين في هذه الآية - التي هي مكملة للآية السابقة - نتيجة التوكل وثمرته وفائدته العظمى فيقول: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ وهو بهذا يشير إلى أنّ قدرة الله فوق كلّ القدرات، فإذا أراد بعبد خيراً وأراد نصره وتأييده والدفاع عنه لم يكن في مقدور أية قوة في الأرض - مهما عظمت - أن تتغلب عليه، فمن كان - هكذا - منبع كلّ الانتصارات، وجب التوكل عليه، واستمداد العون منه.

فهذه الآية تتضمن ترغيباً للمؤمنين في أن يتّكلوا على الله وقدرته التي لا تقهر، مضافاً إلى تهيئة كلّ الوسائل الظاهرية، والأسباب العادية.

والكلام في الآية السابقة موجه إلى شخص النّبي الأكرم ﷺ وأمر له في الحقيقة ولكنه في هذه الآية موجه إلى جميع المؤمنين وكأنها تقول لهم: إنّ عليهم أن يتوكلوا على الله كما يفعل النّبي ﷺ، ولهذا يختم هذه الآية بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

ولا يخفى أن تأييد الله للمؤمنين أو عدم تأييده ليس من غير حساب، فهو يتم بناءً على أهليتهم لذلك.

فمن أعرض عن تعاليم الله، وغفل عن تحصيل المقومات المادية والمعنوية وتقاعس عن إعداد القوى العادية اللازمة لم يشمله التأييد الإلهي مطلقاً، على العكس من الذين استعدوا لمواجهة الأعداء بصفوف متراصة ونيات خالصة وعزائم راسخة، مهيئين كلّ الوسائل اللازمة للمواجهة، فإن تأييد الله سيشمل هؤلاء، وستكون يد الله معهم حتى تحقيق الانتصار.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

التّفسير

الخيانة ممنوعة مطلقاً

بالنظر إلى الآية السابقة التي نزلت بعد الآيات المتعلقة بوقعة أُحد وبالنظر إلى رواية نقلها جمع من مفسري الصدر الأول، تعتبر هذه الآية رداً على بعض التعللات الواهية

التي تمسك بها بعض المقاتلين، وتوضيح ذلك هو أنّ بعض الرماة عندما أرادوا ترك مواقعهم الحساسة في الجبل لغرض جمع الغنائم، أمرهم قائدهم بالبقاء فيها، لأنّ الرسول لن يحرمهم من الغنائم، ولكن تلك الجماعة الطامعة في حطام الدنيا اعتذرت لذلك بعذر يخفي حقيقتهم الواقعية، إذ قالوا: نخشى أن يتجاهلنا النّبي عند تقسيم الغنائم فلا يقسم لنا، قالوا هذا وأقبلوا على جمع الغنائم تاركين مواقعهم التي كلفهم الرسول بحراستها فوقع ما وقع من عظائم الأُمور وجلائل المصائب.

فجاء القرآن يرد على زعمهم وتصورهم هذا فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[1] أي إنّكم تصورتم وظننتم أن النّبي يخونكم، والحال أنّه ليس لنبي أن يغل ويخون أحداً.

إنّ الله سبحانه ينزه في هذه الآية جميع الأنبياء والرسل من الخيانة، ويقول: إنّ هذا الأمر لا يصلح - أساساً - للأنبياء، ولا يتناسب أساساً مع مقامهم العظيم.

يعني أنّ الخيانة لا تتناسب مع النبوة، فإذا كان النّبي خائناً، لم يمكن الوثوق به في أداء الرسالة وتبليغ الأحكام الإلهية.

وغير خفي أنّ هذه الآية تنفي عن الأنبياء مطلق الخيانة سواء الخيانة في قسمة الغنائم أو حفظ أمانات الناس وودائعهم، أو أخذ الوحي وتبليغه للعباد.

ومن العجيب أن يثق أحد بأمانة النّبي في الحفاظ على وحي الله، وتبليغه وأدائه، ثمّ يحتمل - والعياذ بالله - أن يخون النّبي في غنائم الحرب، أو يقضي بما ليس بحق، ويحكم بما ليس بعدل، ويحرم أهلها منها من غير سبب.

إنّ من الوضوح بمكان أنّ الخيانة محظورة على كلّ أحد، نبياً كان أو غير نبي، ولكن حيث إنّ الكلام هنا يدور حول اعتذار تلك الجماعة المتمردة وتصوراتهم الخاطئة حول النّبي الأكرم ﷺ لذلك تتحدث الآية عن الأنبياء أولاً، ثمّ تقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي أنّ كلّ من يخون سيأتي يوم القيامة وهو يحمل على كتفه وثيقة خيانته، أو يصحبه معه إلى المحشر، وهكذا يفتضح أمام الجميع، وتنكشف أوراقه وتعرف خيانته.

قال بعض المفسّرين إنّ المراد من حمل الخيانة على الظهر أو استصحاب ما غلّ يوم القيامة ليس أن يحمل كلّ ذلك حملاً أو يستصحبه استصحاباً حقيقياً معه يوم القيامة، بل

(١) الغلول: تعني الخيانة، وأصله تدرع الشيء وتوسطه ومنه الغلل للماء الجاري بين الشجر، وهو الماء الذي يتسلل ويتسرب فيما بين الشجر ويدخل فيه، ويطلق الغليل على ما يقاسيه الإنسان في داخله من العطش ومن شدة الوجد والغيظ، لهذا السبب.

المراد أنّه يتحمل مسؤولية ذلك، ولكن بالنظر إلى مسألة (تجسم الأعمال) في يوم القيامة لا يبقى أي مبرر ولا أي داع لهذا التفسير، بل - وكما يدلّ عليه ظاهر الآية ويشهد به - يأتي الخائن وهو يحمل عين ما غل كوثيقة حية تشهد على خيانته وغلوله، أو يستصحبها معه.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني أنّ الناس يجدون عين أعمالهم هناك، ولهذا فهم لا يظلمون لأنّه يصل إلى كلّ أحد نفس ما كسبه خيراً كان أو شراً.

ولقد أثّرت الآية السابقة، والأحاديث التي صدرت عن النّبي ﷺ وهي تذم الخيانة والغلول في نفوس المسلمين وخلقهم تأثيراً عجيباً حتى إنّهم - نتيجة لهذه التربية - لم يصدر عنهم أقل خيانة ولا أدنى غلول في غنائم الحرب أو الأموال العامة، إلى درجة أنّهم كانوا يأتون بالغنائم الغالية الثمن الصغيرة الحجم التي كان من السهل إخفاؤها، إلى النّبي، أو القادة من بعده دون أي تصرف فيها، الأمر الذي يدعو إلى الدهشة والإكبار والعجب.

فقد كان هؤلاء نفس أُولئك العرب القساة، الجفاة، المغيرون، السلّابون قطّاع الطرق في الجاهلية، وقد أصبحوا الآن - في ظل التربية الإسلامية - في قمّة الصلاح والأمانة، وفي ذروة الاستقامة والطهر والتُقى وكأنّهم يرون مشاهد القيامة بأُم أعينهم وكيف يقدم الخائنون في الأموال والأمانات إلى المحشر وهم يحملون على أكتافهم وظهورهم ما غلّوه وخانوه.

أجل لقد كان هذا الإيمان يحذرهم من الخيانة، بل يصرفهم حتى عن التفكير فيها.

كتب الطبري في تاريخه أنّه لما هبط المسلمون بالمدائن، وجمعوا الأقباض (الغنائم) أقبل رجل بحُق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأناً، فقالوا من أنت؟ فقال: والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه[1].

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

التّفسير

المتخلفون عن الجهاد

تضمنت الآيات السابقة الحديث عن شتى جوانب معركة أُحد وملابساتها ونتائجها، وقد جاء الآن دور المنافقين وضعاف الإيمان من المسلمين الذين تقاعسوا عن الحضور في أُحد تبعاً للمنافقين، لأننا نقرأ في الأحاديث أنّ النّبي ﷺ عندما أمر بالتحرك إلى أُحد تخلف جماعة من المنافقين عن التوجه إلى الميدان بحجة أنّه لن يقع قتال، وتبعهم في ذلك بعض المسلمين من ضعاف الإيمان، فنزل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ولبى نداء النّبي واتبع أمره بالخروج ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

ثمّ يقول تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي أنّ لكل واحد منهم درجة بنفسه ومكانة عند الله، وهو إشارة إلى أنّه لا يختلف المنافقون عن المجاهدين فقط، بل إنّ لكلّ فرد من أفراد هاتين الطائفتين درجة خاصة تناسب مدى تضحيته وتفانيه في سبيل الله أو مدى نفاقه وعدائه لله تعالى، وتبدأ هذه الدرجات من الصفر وتستمر إلى خارج حدود التصوّر.

هذا وقد نقل في رواية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «الدرجة ما بين السماء والأرض»[1].

وجاء في حديث آخر (إنّ أهل الجنّة ليرون أهل علّيّين كما يرى النجم في أُفق السماء)[2] بيد أنّنا يجب أن نعلم أن (الدرجة) تطلق عادة على تلك الوسيلة التي يرتقي بها الإنسان ويصعد إلى مكان مرتفع، في حين أنّ الدرجات التي يستخدمها الإنسان للنزول من مكان مرتفع إلى مكان منخفض تسمى (دركاً) ولهذا جاء في شأن الأنبياء عليهم السلام في سورة البقرة الآية ٢٥٣ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ وجاء في حقّ المنافقين في سورة النساء الآية ١٤٥ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ولكن حيث كان البحث في الآية الحاضرة حول كلا الفريقين غلب جانب المؤمنين، فكان التعبير بالدرجة دون غيرها إذ قيل ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

ثمّ يقول سبحانه في ختام هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي أنّه سبحانه عالم

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٤٠٦.
(٢) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

بأعمالهم جميعاً فهم يعلم جيداً من يستحق أية درجة من الدرجات، بحيث تليق بنيّته وإيمانه وعلمه.

مع أُسلوب تربوي قرآني مؤثر

هناك الكثير من الحقائق المتعلقة والمرتبطة بالقضايا الدينية أو الخلقية أو الاجتماعية، يطرحها القرآن الكريم في قالب التساؤل والاستفهام تاركاً للسامع - وبعد أن يضعه أمام كلا جانبي القضية - أن يختار هو بمعونة من فكره، وانطلاقاً من تحليله وتقويمه.

إنّ لهذا الأُسلوب - الذي لا بدّ أن نسميه بالأُسلوب التربوي غير المباشر - أثراً بالغاً في تحقيق الأهداف المرجوة من البرامج التربوية وتأثيرها فيمن يراد توجيههم وتربيتهم، وذلك لأنّ الإنسان - في الأغلب - يهتم أكثر بما توصل إليه بنفسه من النتائج والأفكار والآراء وما انتهى إليه بفكره من التفاسير والتحاليل في القضايا المختلفة، فإذا طرحت عليه قضية بصورة قطعية وصبغة جازمة، قاومها أحياناً، ولعله ينظر إليها كما ينظر إلى أية فكرة غريبة.

ولكن عندما يطرح عليه الأمر في صورة التساؤل الذين يطلب منه الجواب عليه حسب قناعته الشخصية ثمّ يسمع ذلك الجواب من أعماق ضميره وفؤاده، فإنّه لا يسعه حينئذ أن يقاوم هذا الجواب ويعاديه، بل ينظر إليه نظر العارف به، ولن تعود لديه - حينئذ - تلك الفكرة الغريبة البعيدة، بل تكون الفكرة القريبة إلى قلبه، المأنوسة إلى فؤاده.

إنّ هذا الأُسلوب من التوجيه والإرشاد مؤثر غاية التأثير خاصة مع المعاندين، وكذا الأطفال والناشئين.

ولقد استفاد القرآن الكريم من هذا الأُسلوب التربوي الرائع المؤثر في مواضع عديدة نذكر منها بعض النماذج:

١ - ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

٢ - ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

٣ - ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾(٣).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٩. (٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٦.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

التّفسير

النعمة الإلهيّة الكبرى

في هذه الآية يدور الحديث حول أكبر النعم الإلهيّة، ألا وهي نعمة بعثة الرسول الأكرم والنّبي الخاتم ﷺ، وهو في الحقيقة إجابة قوية على التساؤل الذي خالج بعض الأذهان من الحديثي العهد بالإسلام بعد معركة أُحد وهو: لماذا لحق بنا ما لحق، ولماذا أُصبنا بما أصبنا به؟ فيجيبهم القرآن الكريم بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي إذا كنتم قد تحملتم كلّ هذه الخسائر، وأُصبتم بكلّ هذه المصائب، فإنّ عليكم أن لا تنسوا أن الله قد أنعم عليكم بأكبر نعمة، ألا وهي بعثة نبي يقوم بهدايتكم وتربيتكم، وينقذكم من الضلالات وينجيكم من المتاهات، فمهما تحملتم في سبيل الحفاظ على هذه النعمة العظمى والموهبة الكبرى، ومهما كلفكم ذلك من ثمن، فهو ضئيل إلى جانبها، وحقير بالنسبة إليها.

والجدير بالاهتمام - في المقام - هو أن هذه النعمة قد شرع ذكرها بكلمة (منّ) التي قد لا تبدو جميلة ولا مستحسنة في بادىء الأمر، ولكننا عندما نراجع مادة هذه اللفظة وأصلها اللغوي يتضح لنا الأمر غاية الوضوح، وتوضيحه هو أنّ المن - كما قال الراغب في مفرداته: هو ما يوزن به، ولذلك أطلق على النعمة الثقيلة: المنة، ويقال ذلك إذا كان ذلك بالفعل، فيقال: منَّ فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة الجميلة الثمينة وهو حسن لا بأس فيه، أما إذا عظّم أحد - في القول والادعاء - ما قام به من حقير الخدمات والأفعال والصنائع فهو في غاية القبح.

وعلى هذا فإنّ المن المستقبح هو الذي يكون استعظاماً للصنائع والنعم في القول، أمّا المنة المستحسنة فهي بذل النعم الكبرى والصنائع العظيمة.

أمّا تخصيص المؤمنين بالذكر في هذه الآية في حين أنّ الهدف من بعثة النّبي ﷺ هو هداية عموم البشر، فلأنّ المؤمنين هم الذين سيستفيدون - بالنتيجة والمآل - من

هذه النعمة العظمى فهم الذين يستأثرون بآثارها عملياً دون غيرهم.

ثمّ إنّ الله سبحانه يقول: ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ إنّ إحدى مميزات هذا النّبي ﷺ هو أنّه من نفس الجنس والنوع البشري، لا من جنس الملائكة وما شابهها، وذلك لكي يدرك كلّ احتياجات البشر بصورة دقيقة، ولا يكون غريباً عنها، غير عارف بها، وحتى يلمس آلام الإنسان وآماله، ومشكلاته ومصائبه، ومتطلبات الحياة ومسائلها، ثمّ يقوم بما يجب أن يقوم به من التربية والتوجيه على ضوء هذه المعرفة.

هذا مضافاً إلى أنّ القسط الأكبر من برامج الأنبياء التربوية يتكون من تبليغهم العملي بمعنى أن أعمالهم تعتبر أفضل مثل، وخير وسيلة تربوية للآخرين، لأنّ التبليغ بلسان العمل أشد تأثيراً، وأقوى أثراً من التبليغ بأية وسيلة أُخرى، وهذا إنّما يمكن إذا كان المبلّغ من نوع البشر وجنسهم بخصائصهم، ومواصفاتهم الجسمية، وبذات غرائزهم وبنائهم الروحي.

فإذا كان الأنبياء من جنس الملائكة - مثلاً - كان للبشر الذين أُرسل الأنبياء إليهم أن يقولوا: إذا كان الأنبياء لا يعصون أبداً، فلأجل أنّهم من الملائكة وليست في طبائعهم الشهوات والغرائز، ولا الغضب ولا الحاجة.

وهكذا كانت رسالة الأنبياء ومهمتهم تتعطل وتفقد تأثيرها، ولا تحقق أغراضها.

ولهذا اختير الأنبياء من جنس البشر ومن فصيلة الإنسان بغرائزه، واحتياجاته، ليمكنهم أن يكونوا أسوة لغيرهم من البشر، وقدوة لسواهم من بني الإنسان.

ثمّ إنّ الله سبحانه يقول واصفاً مهمات هذا النّبي العظيم: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي أنه ﷺ يقوم بثلاثة أُمور في حقّهم:

١ - تلاوة آيات الله على مسامعهم، وإيقافهم على هذه الآيات والكلمات الإلهية.

٢ - تعليمهم، بمعنى إدخال هذه الحقائق في أعماق ضمائرهم وقلوبهم.

٣ - تزكية نفوسهم، وتنمية قابلياتهم الخلقية، ومواهبهم الإنسانية.

ولكن حيث إنّ الهدف الأصلي هو (التربية) لذلك قدمت على (التعليم) مع أنّ الحال - من حيث الترتيب الطبيعي - تقتضي تقديم التعليم على التربية.

إنّ الذين يبتعدون عن الحقائق الإنسانية بالمرة، ليس من السهل إخضاعهم للتربية، فلا بدّ أولاً من إسماعهم آيات الله مدة من الزمن حتى تذهب عنهم الوحشة التي وقعوا فريسة لها من قبل، ليتسنى حينئذ إدخالهم في مرحلة التعليم، ثمّ يمكن اقتطاف ثمار التربية بعد ذلك.

ثم إنّ هناك احتمالاً آخر في تفسير الآية وهو أنّ المقصود من التزكية هو التنقية من رواسب الجاهلية والشرك، ومن بقايا العقائد الباطلة والأفكار الخرافية، والأخلاق الحيوانية القبيحة لأنّ الضمير الإنساني ما دام لم يطهر من الأدران والرواسب لم يمكن إعداده وتهيئته لتعلّم الكتاب الإلهي، والحكمة والعلم الواقعيين، تماماً مثل اللوحة التي لا تقبل الألوان والنقوش الجميلة ما لم تنظف من النقوش القبيحة أولاً.

ولهذا السبب قدمت التزكية في الآية الحاضرة على تعليم الكتاب والحكمة التي يراد بها معارف الإسلام العالمية، ومفاهيمه السامية.

متى تعرف قيمة البعثة النبوية؟

إنّ أهميّة هذه النعمة العظمى (البعثة النبوية) إنّما تتضح تمام الوضوح وتتجلى تمام الجلاء عندما يقاس الوضع الذي آلوا إليه بالوضع الذي كانوا عليه، وملاحظة مدى التفاوت بينهما وهذا هو ما يعنيه قوله: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وكأن القرآن يخاطبهم قائلاً: ارجعوا إلى الوراء وانظروا إلى ما كنتم عليه من سوء الحال قبل الإسلام، كيف كنتم، وكيف صرتم؟؟

إنّ الجدير بالتأمل هو وصف القرآن الكريم للعهد الجاهلي بقوله: ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأنّ للضلال أنواعاً وأصنافاً: فمن الضلال ما لا يمكن معه للإنسان أن يميز بين الحق والباطل، والخطأ والصواب بسهولة، ومن الضلال ما يكون بحيث لو رجع معه الإنسان إلى نفسه أدنى رجوع، وتمتع بأقل قدر من الإدراك والشعور لاهتدى إلى الصواب وأدرك الخطأ فوراً.

ولقد كان الناس وخاصة سكان الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية المباركة، ومجيء الرسول الأكرم ﷺ بالإسلام في ضلال مبين، فقد كان [جوّ] الشقاء والجهل، وغير ذلك من حالات الانحطاط والسقوط والفساد سائداً في كلّ أرجاء المعمورة في ذلك العصر، وهو أمر لم يكن خافياً على أحد.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

التّفسير

دراسة أُخرى لمعركة أحد

هذه الآية تتضمن دراسة أُخرى وتقييماً آخر لمعركة أُحد وتوضيح ذلك: إنّ بعض المسلمين كانوا يعانون من حزن عميق وقلق بالغ لنتائج أُحد، وكانوا لا يكتمون حزنهم وقلقهم هذا بل طالما كرروه وأظهروه على ألسنتهم، فذكَّرهم الله - في هذه الآية - بثلاث نقاط هي:

١ - يجب أن لا تقلقوا لنتائج معركة معيَّنة، بل عليكم أن تحسبوا كلّ قضايا المجابهة مع العدو، وتزنوا المسألة من جميع أطرافها فلو أنّه أصابتكم على أيدي أعدائكم في هذه المعركة مصيبة فإنّكم قد أصبتم أعداءكم ضعفها في معركة أُخرى (معركة بدر) لأنّهم قتلوا من المسلمين في معركة أُحد سبعين ولم يأسروا أحداً بينما قتل المسلمون من المشركين في معركة بدر سبعين وأسروا سبعين ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾.

وعبارة ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ هي في الحقيقة بمثابة إجابة مقدمة على سؤال.

٢ - أنتم تقولون: هذه المصيبة كيف أصابتنا؟ ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ ولكن ﴿قُلۡ﴾ أيّها النّبي: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ أي هو نابع من مواقفكم في تلك المعركة، فابحثوا عن أسباب الهزيمة في أنفسكم.

فأنتم الذين خالفتم أمر الرسول، وتركتم الجبل ذلك الموقع الخطير.

وأنتم الذين لم تحسموا المعركة، ولم تذهبوا إلى نهايتها، بل انصرفتم إلى جمع الغنائم بعد انتصار محدود.

وأنتم الذين تركتم ساحة المعركة وفررتم ولم تصمدوا عندما باغتكم العدو من الخلف، ومن ناحية الجبل الذي تركتم حراسته.

فكلّ هذه العيوب والذنوب، وكلّ هذا الوهن هو الذي سبب تلك الهزيمة النكراء، وأدّى إلى قتل تلك المجموعة الكبيرة من المسلمين.

٣ - يجب أن لا تقلقوا للمستقبل لأنّ الله قادر على كلّ شيء، فإذا أصلحتم أنفسكم، وأزلتم النواقص، وتخلصتم ممّا تعانون منه من نقاط الضعف شملكم تأييده، وأنزل عليكم نصره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

التّفسير

لا بدّ أن تتميز الصفوف

تنوّه الآيتان الحاضرتان بحقيقة هامّة هي أنّ أيّة مصيبة (كتلك التي وقعت في أُحد) مضافاً إلى أنّها لم تكن دون سبب وعلّة، فإنّها خير وسيلة لتمييز صفوف المجاهدين الحقيقيين عن المنافقين أو ضعفاء الإيمان، ولذلك جاء في القسم الأول من الآية الأُولى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي أنّ ما أصابكم يوم تقاتل المسلمون والمشركون فهو بإذن الله ومشيئته وإرادته لأنّ لكلّ ظاهرة في عالم الكون المخلوق لله سبحانه سبباً خاصّاً وعلّة معيّنة.

وأساساً إنّ هذا العالم عالم مقنن يجري وفق قانون الأسباب والمسببات، وهذه حقيقة ثابتة لا تتغير.

وعلى هذا الأساس إذا وهنت جماعة في الحرب، وتعلقت بالدنيا وحطامها، والثروة وجواذبها، وتجاهلت أوامر قائدها المحنك الرؤوف كانت محكومة بالهزيمة والفشل، وهذا هو المقصود من إذن الله، فإذن الله ومشيئته هي تلك القوانين التي أرساها في عالم الكون ودنيا البشر.

ثمّ يقول سبحانه في المقطع التالي من الآية: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾.

إنّه إشارة إلى أثر آخر من آثار هذه الحرب وهو تمييز المؤمنين عن المنافقين، وفرز أقوياء الإيمان عن ضعفاء الإيمان.

وعلى العموم فقد تميز المسلمون - في معركة أُحد - في طوائف ثلاث:

الطائفة الأُولى: وهم قلة، قد ثبتوا أمام العدو في تلك الموقعة حتى آخر لحظة، حتى قضى بعض وجرح بعض وتحمل أشد الآلام.

الطائفة الثانية: هم الذين زلزلوا، ووقعوا فريسة الاضطراب ولم يمكنهم الثبات حتى آخر لحظة، ففروا من الميدان.

الطائفة الثالثة: وهم جماعة المنافقين الذين رجعوا من منتصف الطريق وأحجموا عن المشاركة والإسهام في القتال بحجج وأعذار واهية، وعادوا إلى المدينة، وهم عبد الله ابن أبي سلول، وثلاثمائة شخص من أعوانه وأنصاره وجماعته.

فلو لم تقع حادثة أُحد لما تميزت هذه الصفوف مطلقاً، ولما اتضح الأمر بمثل هذا الاتضاح أبداً، ولما تبين كلّ شخص بقسماته الحقيقية، وملامحه الواقعية وصفاته الخاصة به، وبالتالي كان يمكن أن يتصور الجميع - في مقام الادّعاء - أنّهم مؤمنون واقعيون، وأنّهم الأمثلة الكاملة للصالحين.

وفي الحقيقة - تتضمن الآية الإشارة إلى أمرين:

الأول: العلة الفاعلية للهزيمة.

الثاني: العلة الغائية (والنتيجة النهائية) لها.

على أنّ هناك نقطة يلزم التنويه بها وهي أنّ الآية الحاضرة تقول: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ ولم تقل: «ليعلم المنافقين».

وبتعبير آخر: جاء ذكر النفاق بصيغة الفعل، ولم يأت بصورة (الوصف) وهو - لعلّه - لأجل أنّ النفاق لم يكن قد حصل في الجميع في شكل الصفة الثابتة اللازمة ولهذا نقرأ في التاريخ أنّ بعضهم قد وفق للتوبة وهدي إليها فيما بعد، والتحق بصف المؤمنين الصادقين، ثمّ إنّ القرآن الكريم يستعرض حواراً قد وقع بين بعض المسلمين، والمنافقين قبل المعركة بالشكل التالي: (وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا) فإنّ بعض المسلمين (وهو عبد الله بن عمر بن حزام على ما نقل عن ابن عباس)[1] عندما رأى انسحاب عبد الله بن أبي سلول [ومن معه] وانفصالهم عن الجيش الإسلامي، واعتزامهم العودة إلى المدينة قال: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا عن حريمكم وأنفسكم إن لم تقاتلوا في سبيل الله.

ولكنهم تعللوا، واعتذروا بأعذار واهية إذ قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ أي إنّنا نظن أنّ الأمر ينتهي بلا قتال فلا حاجة لوجودنا معكم.

وبناءً على تفسير آخر قال المنافقون: لو أنّنا كنّا نعتبر هذا قتالاً معقولاً لتعاونا معكم

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٣٧ (والجدير بالذكر ورد في بعض المصادر: «عبد الله بن عمر وحزّام الأنصاري»).

ولاتبعناكم، ولكننا لا نعتبر هذا قتالاً بل نوعاً من الانتحار والمغامرة الانتحارية لعدم التكافؤ بين قوى الكفر وقوى الإسلام، الأمر الذي يعني أنّ قتالهم أمر غير عقلائي، خاصة أنّ الجيش الإسلامي قد استقر في مكان غير مناسب ونقطة غير مؤاتية ولا ملائمة.

وعلى كلّ حال فإنّ هذه كانت مجرّد اعتذارات وتعللات، لأنّ الحرب كانت حتمية الوقوع، ولأنّ المسلمين انتصروا في بداية المعركة، وأمّا ما لحق بهم من الهزيمة والانكسار فلم يكن إلّا بسبب أخطاء ومخالفات ارتكبوها هم أنفسهم بحيث لولاها لما وقعت بهم هزيمة، ولذا يقول الله سبحانه: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (أي إنّهم يكذبون)، هذا مضافاً إلى أنّه يستفاد من هذه الجملة (أي أقرب) أنّ للإيمان والكفر درجات ترتبط باعتقاد الإنسان وأسلوب عمله وسلوكه.

ثمّ علل سبحانه ما ذكره عنهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي إنّهم يظهرون خلاف ما يضمرون، ويبدون من القول خلاف ما يكتمون من الاعتقاد والنّية، فإنّهم لإصرارهم على اقتراحهم القتال داخل أسوار المدينة، أو رهبة من ضربات العدو، أو لعدم حبّهم للإسلام أحجموا عن الإسهام في تلك المعركة، وامتنعوا عن المضي إلى أُحد في صحبة المسلمين، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ فإنّ الله يعلم جيداً ما يخفونه ويضمرونه من النوايا، وسيكشف عن نواياهم للمسلمين في هذه الدنيا، كما سيعاقبهم ويحاسبهم على مواقفهم ونواياهم الشريرة في الآخرة.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

التّفسير

مزاعم المنافقين الباطلة

لم يكتف المنافقون بانصرافهم عن الإسهام مع المؤمنين في القتال، والسعي في إضعاف الروح المعنوية للآخرين، بل عمدوا إلى لوم المقاتلين المجاهدين بعد عودتهم من المعركة، وبعدما لحق بهم ما لحق قائلين: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

فيرد عليهم القرآن الكريم في الآية الحاضرة قائلاً: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

يعني أنّكم بكلامكم هذا تريدون الادعاء بأنّكم مطلعون على عالم الغيب، وأنّكم عارفون بالمستقبل وحوادثه، فإذا كنتم صادقين في ذلك فادفعوا عن أنفسكم الموت، لأنّكم - طبقاً لهذا الادعاء - ينبغي أن تعرفوا علة موتكم، وتقدروا على تجنبها، وتحاشيها، وإبطال مفعولها.

افرضوا أنّكم لم تقتلوا في ساحات الجهاد والشرف، فهل يمكنكم أن تضمنوا لأنفسكم سنّاً طويلاً، وعمراً خالداً؟! هل يمكنكم أن تمنعوا الموت عن أنفسكم أبداً ودائماً؟!

فإذا لم يمكنكم تحاشي الموت - هذه النهاية المحتّمة لكل نفس - فلماذا تموتون في الفراش بذلّ وهوان، ولا تختارون الشهادة والموت بشرف وعز في ساحات الجهاد ضد أعداء الله وأعداء الرسالة؟!

ثمّ إنّ الآية الحاضرة تتضمن نقطة أُخرى يجب الانتباه إليها وهي:

لقد عبّر القرآن عن المؤمنين في هذه الآية بأنّهم إخوان للمنافقين في حين لم يكن المؤمنون إخواناً للمنافقين إطلاقاً، فما هذه الأنواع من الملامة والتوبيخ للمنافقين؟ فيكون المعنى هو: إنّكم أيّها المنافقون كنتم تعتبرون المؤمنين إخواناً لكم فكيف تركتم نصرتهم في هذه اللحظات الخطيرة؟ ولهذا أردف سبحانه هذه الكلمة (لإخوانهم) بكلمة (قعدوا) أي تقاعسوا عن المشاركة في المعركة.

فهل يصحّ أن يدّعي الإنسان أُخوّته لآخر ثمّ يخذله حين يحتاج إلى نصره وتأييده ويقعد عنه حين يحتاج إلى حمايته؟!

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

التّفسير

الحياة الخالدة

يرى بعض المفسرين أنّ الآيات الحاضرة نزلت في شهداء أُحد ويرى آخرون أنّها نزلت في شهداء بدر، ولكن الحقّ هو أنّ ارتباط هذه الآيات بما قبلها من الآيات

يكشف عن أنها نزلت في أعقاب حادثة أُحد، وإن كان محتواها، ومضمونها يعم حتى شهداء بدر الذين كانوا ١٤ شهيداً ولهذا روي عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنه قال: «إنّها تتناول قتلى بدر وأُحد معاً»(١).

وقد روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال اطلع إليهم (أي أرواح شهداء أُحد وهي في الجنّة) ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا. ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنّهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرّة أُخرى فقال تعالى: قد سبق مني أنّهم لا يرجعون قالوا: فتقرىء نبينا السلام وتبلغهم ما نحن فيه من كرامة فلا يحزنوا، فنزلت هذه الآيات(٢).

وعلى كلّ حال فإن الّذي يبدو للنظر هو أنّ بعض ضعاف الإيمان كانوا - في مجالسهم وندواتهم بعد حادثة أُحد - يظهرون الأسف على شهداء أُحد، وكيف أنهم ماتوا وفنوا، وخاصة عندما كانت تتجدد عليهم النعمة فيتأسفون لغياب أُولئك القتلى في تلك المواقع، وكانوا يحدثون أنفسهم قائلين كيف ننعم بهذه النعم والمواهب وإخواننا وأبناؤنا رهن القبور لا يصيبهم ما أصابنا من الخير، ولا يمكنهم أن يحظوا بما حظينا به من النعيم؟؟؟

وقد كانت هذه الكلمات - مضافاً إلى بطلانها ومخالفتها للواقع - تسبب إضعاف الروح المعنوية لدى ذوي الشهداء.

فجاءت الآيات الحاضرة لتفند كلّ هذه التصورات، وتذكّر بمكانة الشهداء السامية، ومقامهم الرفيع وتقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾.

والخطاب - هنا - متوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله خاصة حتى يحسب الآخرون حسابهم.

ثمّ يقول سبحانه معقباً على العبارة السابقة ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

والمقصود من الحياة في الآية هي (الحياة البرزخية) في عالم ما بعد الموت، لا الحياة الجسمانية والمادية، وإن لم تختص الحياة البرزخية بالشهداء فللكثير من الناس حياة برزخية أيضاً(٣) ولكن حيث إنّ حياة الشهداء من النمط الرفيع جدّاً، ومن النحو

---

(١) تفسير العياشي حسبما نقله تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٤٠٩.

(٢) تفسير الدرّ المنثور: ج ٢، ص ٩٥ - ٩٦.

(٣) ينقسم أصحاب الحياة البرزخية - حسبما يذهب إليه بعض المحققين - إلى نوعين الصالحون جداً، والطالحون جداً.

المقرون بأنواع النعم المعنوية، هذا مضافاً إلى أنّها هي محط البحث والحديث في هذا السياق القرآني لذلك خصّوا بالذكر وخصت حياتهم بالإشارة في هذه الآية، دون سواهم ودون غيرها أيضاً.

إنّ حياتهم البرزخية محفوفة بالنعم والمواهب المعنوية العظيمة وكأن حياة الآخرين من البرزخيين بما فيها لا تكاد تكون شيئاً يذكر بالنسبة إليها.

ثمّ إنّ الآية التالية تشير إلى بعض مزايا حياة الشهداء البرزخية، وما يكتنفها ويلازمها من عظيم البركات من خلال الإشارة إلى عظيم ابتهاجهم بما أُوتوا هناك فتقول: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

ثمّ إنّ السبب الآخر لابتهاجهم ومسرتهم هو ما يجدونه ويلقونه من عظيم الثواب ورفيع الدرجات الذي ينتظر إخوانهم المجاهدين الذين لم ينالوا شرف الشهادة في المعركة إذ يقول القرآن: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾.

ثمّ يردف هذا بقوله: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ يعني أنّ الشهداء يحسّون هناك وفي ضوء ما يرونه أنّ إخوانهم المجاهدين لن يكون عليهم أي حزن على ما تركوه في الدنيا، ولا أي خوف من الآخرة ووقائعها الرهيبة.

على أنه من الممكن أن يكون لهذه العبارة تفسير آخر هو أنّ الشهداء بالإضافة إلى سرورهم وفرحهم لما يشاهدونه من الدرجات والمراتب الرفيعة لإخوانهم الذين لم ينالوا شرف الشهادة ولم يلحقوا بهم، لا يشعرون هم أنفسهم بأي خوف من المستقبل ولا أي حزن على الماضي(١).

ثمّ إنّه سبحانه يقول: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ(٢) بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾.

وهذه الآية - في الحقيقة - مزيد تأكيد وتوضيح حول البشائر التي يتلقاها الشهداء بعد قتلهم واستشهادهم، فهم فرحون ومسرورون من ناحيتين:

الأُولى: من جهة النعم والمواهب الإلهية التي يتلقونها، لا بها فقط بل لما يتلقونه من الفضل الإلهي الذي هو التصعيد المتزايد المستمر للنعم الذي يشمل الشهداء أيضاً.

والثانية: من جهة أنّهم يرون أنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المؤمنين... وليس

---

(١) الضمائر في «لاخوف عليهم ولا هم يحزنون» حسب التفسير الأول تعود إلى المجاهدين الباقين على قيد الحياة الذين لم يلحقوا بالشهداء، وعلى التفسير الثاني تعود إلى الشهداء أنفسهم.

(٢) الاستبشار يعني الابتهاج والسرور الحاصل بسبب تلقي بشارة أو مشاهدة نعمة للنفس أو للغير من الأحبّة. وليست بمعنى التبشير والإبشار.

فقط أجر الشهداء الذين نالوا شرف الشهادة، أو المجاهدين الصادقين الذين لم ينالوا ذلك الشرف رغم اشتراكهم في المعركة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أجل، إنّهم يرون بأُم أعينهم ما كانوا يوعدون به ويسمعون بآذانهم.

إنّها فرحة مضاعفة.

شهادة على بقاء الروح

تعد الآيات الحاضرة من جملة الآيات القرآنية ذات الدلالة الصريحة على بقاء الروح.

فهذه الآيات تتحدث عن حياة الشهداء بعد الموت والقتل، وما يحتمله البعض من أنّ المراد بهذه الحياة هو معنى مجازي، وأنّ المقصود هو بقاء اسمهم، وخلود آثارهم، وأعمالهم وجهودهم، بعيد جداً عن معنى الآية، وغير منسجم بالمرّة مع أي واحد من العبارات الواردة في الآيات الحاضرة، سواء تلك التي تصرح بأنّ الشهداء يرزقون، أو التي تتحدث عن سرورهم من نواحٍ مختلفة، هذا مضافاً إلى أنّ الآيات الحاضرة دليل بيّن وبرهان واضح على مسألة (البرزخ) والنعم البرزخية التي سيأتي الحديث عنها وشرحها عند تفسير قوله سبحانه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(١) إن شاء الله.

أجر الشهداء

لقد قيل عن الشهداء ومكانتهم وأهمية مقامهم الكثير الكثير، فكلّ الأمم، وكلّ الشعوب تحترم شهداءها وتقيم لهم وزناً خاصّاً ولكن ما يوليه الإسلام للشهداء في سبيل الله من الاحترام وما يعطيهم من المقام لا مثيل له أصلاً، وهذه حقيقة لا مبالغة فيها، فإنّ الحديث التالي نموذج واضح من هذا الاحترام العظيم، الذي يوليه الإسلام الحنيف للذين استشهدوا في سبيل الله، وفي ظل هذه التعاليم استطاعت تلك الجماعة المحدودة المتخلفة أن تكتسب تلكم القوّة العظيمة الهائلة التي استطاعت بها أن تركّع أمامها أعظم الإمبراطوريات، بل وتحطم أعظم العروش.

وإليك هذا الحديث:

عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن الحسين بن علي عليه السلام قال: بينما أميرالمؤمنين يخطب ويحضهم على الجهاد إذ قام إليه شاب فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن فضل الغزاة في سبيل الله فقال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ناقته العضباء ونحن منقلبون من غزوة ذات السلاسل فسألته عمّا سألتني عنه فقال:

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

الغزاة إذا هموا بالغزو كتب الله لهم براءة من النار.

فإذا تجهزوا لغزوهم باهى الله بهم الملائكة.

فإذا ودعهم أهلوهم بكت عليهم الحيطان والبيوت، ويخرجون من الذنوب... ويكتب له (أي لكلّ شهيد وغازٍ) كلّ يوم عبادة ألف رجل يعبدون الله...

وإذا صاروا بحضرة عدوهم انقطع علم أهل الدنيا عن ثواب الله إياهم.

فإذا برزوا لعدوّهم وأُشرعت الأسنّة وفوّقت السهام، وتقدّم الرجل إلى الرجل حفّتهم الملائكة بأجنحتها يدعون الله بالنصرة والتثبيت فينادي منادٍ: (الجنّة تحت ظلال السيوف) فتكون الطعنة والضربة على الشهيد أهون من شرب الماء البارد في اليوم الصائف.

وإذا زال الشهيد عن فرسه بطعنة أو ضربة لم يصل إلى الأرض حتى يبعث الله إليه زوجته من الحور العين فتبشره بما أعد الله له من الكرامة، فإذا وصل إلى الأرض تقول له الأرض: مرحباً بالروح الطيب الذي خرج من البدن الطيب، أبشر فإن لك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويقول الله: أنا خليفته في أهله من أرضاهم فقد أرضاني ومن أسخطهم فقد أسخطني[١].

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

التّفسير

غزوة حمراء الأسد

قلنا إنّ جيش أبي سفيان المنتصر أسرع بعد انتصاره في معركة أُحد على الجيش

---

(١) هذه قبسات من الرواية التي نقلها المفسر الإسلامي الكبير العلاّمة الطبرسي (رحمه الله) في تفسيره (مجمع البيان) عند تفسير هذه الآيات.

الإسلامي يحثّ السير في طريق العودة إلى مكّة حتى إذا بلغ أرض الروحاء ندم على فعله، وعزم على العودة إلى المدينة للإجهاز على ما تبقى من فلول المسلمين، واستئصال جذور الإسلام حتى لا تبقى له ولهم باقية.

ولما بلغ هذا الخبر إلى النّبي ﷺ أمر مقاتلي أُحد أن يستعدوا للخروج إلى معركة أُخرى مع المشركين، وخصّ بأمره هذا الجرحى والمصابين حيث أمرهم بأن ينضموا إلى الجيش.

يقول رجل من أصحاب النّبي ﷺ كان قد شهد أُحداً: شهدت أُحداً وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلنا: لا تفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ، فوالله ما لنا دابّة نركبها وما منّا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحاً من أخي، فكنت إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة حتى انتهينا مع رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد.

فلما بلغ هذا الخبر أبا سفيان وأدرك صمود المسلمين، والذي تجلّى في اشتراك الجرحى والمصابين خاف وأُرعب، ولعله ظنّ أنّه أدركت المسلمين قوّة جديدة من المقاتلين وأتاهم المدد.

هذا وقد حدثت في هذا الموضع حادثة زادت من إضعاف معنوية المشركين، وألقت مزيداً من الوهن في عزائمهم، وهي أنّه مرّ برسول الله معبد الخزاعي وهو يومئذ مشرك، فلمّا شاهد النّبي وما عليه هو وأصحابه من الحالة تحركت عواطفه وجاشت، فقال للنّبي ﷺ : يا محمّد والله لقد عزّ علينا ما أصابك في قومك وأصحابك، ولوددنا أنّ الله كان أعفاك فيهم، ثمّ خرج من عند رسول الله ﷺ حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالرّوحاء وقد أجمعوا الرّجعة إلى رسول الله ﷺ، فلمّا رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمّد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر قط مثله يتحرقون عليكم تحرقاً، وقد اجتمع عليه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على صنيعهم، وفيه من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويلك ما تقول؟ قال معبد: فأنا والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل.

قال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصلهم.

قال معبد: فأنا والله أنهاك عن ذلك.

فاهتزّ لذلك أبوسفيان ومن معه وقفل راجعاً ومنسحباً إلى مكّة بسرعة، وحتى يتوقف

المسلمون عن طلبه وملاحقته ويجد فرصة كافية للانسحاب قال لجماعة من بني عبد قيس كانوا يمرون من هناك قاصدين المدينة لشراء القمح: (أخبروا محمّداً أنّا قد أجمعنا الكرّة عليه وعلى أصحابه لنستأصل بقيتهم) ثمّ انصرف إلى مكّة.

ولما مرّت هذه الجماعة برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد أخبروه بقول أبي سفيان، فقال رسول الله ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل» وبقي هناك ينتظر المشركين ثلاثة أيّام، فلم ير لهم أثراً فانصرف إلى المدينة بعد الثالثة، والآيات الحاضرة تشير إلى هذه الحادثة وملابساتها[1] يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ويتبيّن من تخصيص جماعة معينة بالأجر العظيم في هذه الآية أنّه كان هناك بينهم من لم يملك الإخلاص الكامل، كما يمكن أن يكون التعبير بـ (منهم) إشارة إلى أنّ بعض المقاتلين في أُحد امتنعوا ببعض الحجج عن تلبية نداء الرّسول والإسهام في هذه المعركة.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يبيّن إحدى العلائم الحيّة لِاستقامتهم وثباتهم إذ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

والمقصود بالناس في قوله: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ هم ركب عبد القيس، أو نعيم بن مسعود الذي جاء بهذا الخبر على رواية أُخرى[2].

ثمّ بعد ذكر هذه الاستقامة الواضحة وهذا الإيمان البارز يذكر القرآن الكريم نتيجة عملهم إذ يقول: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ وأية نعمة وأي فضل أعظم وأعلى من أن ينهزم الأعداء الخطرون أمامهم من دون أي صدام أو لقاء ويعود هؤلاء المقاتلون إلى المدينة سالمين.

يبقى أن نعرف الفرق بين النعمة والفضل، فيمكن أن يكون بأنّ النعمة هي الأجر بقدر الِاستحقاق، والفضل هو النفع الزائد على قدر الِاستحقاق.

وتأكيداً لهذا الأمر يقول القرآن: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ مضافاً إلى أنّهم ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ إنّه فضل عظيم ينتظر المؤمنين الحقيقيين، والمجاهدين الصادقين.

---

(١) تفسير نور الثقلين وتفسير مجمع البيان، وتفسير المنار وكتب أُخرى.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ١٤٧.

التّربية الإلهيّة وعطاؤها السّريع

إنّ مقارنة معنوية المسلمين في معركة بدر بمعنويتهم في حادثة حمراءِ الأسد التي مرّ تفصيلها، أمر يدعو إلى الإعجاب لدى المرء، إذ كيف استطاعت جماعة منكسرة لا تملك المعنوية العالية، ولا العدد البشري الكافي، مع ما يحمل أفرادها من الجراحات الثقيلة والإصابات الفادحة أن تغير ملامحها في مدّة قد لا تزيد على يوم وليلة، فتستعد وعلى درجة عالية من العزم والإرادة لطلب العدو وملاحقته، ومواجهته مرة أُخرى إلى درجة أنّ القرآن الكريم يقول عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ثمّ استقاموا وصمدوا.

هذا هو أثر الإيمان بالهدف، فكلّما ازدادت مصائب الإنسان المؤمن وازدادت مشكلاته ازدادت استقامته، وتضاعف ثباته، وشحذت عزيمته، وفي الحقيقة تهيّأت كل قواه المعنوية والمادية وتعبأت لمواجهة الخطر.

إنّ هذا التغيّر العجيب، وهذا التحوّل السريع والعظيم في مثل هذه المدّة القصيرة يوقف الإنسان على مدى سرعة تأثير التربية القرآنية وعمقها، ومدى فاعلية البيان النبوي الأخّاذ الذي يكاد يكون معجزة.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

التّفسير

هذه الآية تعقيب على الآيات التي نزلت حول غزوة حمراء الأسد، ولفظة (ذلكم) إشارة إلى الذين كانوا يخوّفون المسلمين من قوّة قريش، وبأس جيشهم لإضعاف معنويات المسلمين.

وعلى هذا الأساس يكون معنى هذه الآية هو: إن عمل نعيم بن مسعود، أو ركب عبد القيس من عمل الشيطان لكي يخوفوا به أولياء الشيطان، يعني أن هذه الوساوس إنّما تؤثر في أتباع الشيطان وأوليائه خاصّة، وأمّا المؤمنون الثابتون فلا تزل أقدامهم لهذه الوساوس مطلقاً، ولن يرعبوا ولن يخافوا أبداً، وعلى هذا الأساس فأنتم لستم من أولياء الشيطان، فلا تخافوا هذه الوساوس، ويجب أن لا تزلزلكم أو تزعزع إيمانكم.

إنّ التّعبير عن نعيم بن مسعود أو ركب عبد القيس ووصفهم بـ (الشّيطان) إمّا لكون عملهم ذلك من عمل الشيطان ومستلهم منه ومأخوذ من وحيه، لأنّ القرآن يسمّي كل

عمل قبيح وفعل مخالف للدين عملاً شيطانياً، لأنّه يتمّ بوسوسته، ويصدر عن وحيه إلى أتباعه.

وإمّا أنّ المقصود من الشّيطان هم نفس هؤلاء الأشخاص، فيكون هذا المورد من الموارد التي يطلق فيها اسم الشّيطان على المصداق الإنساني له، لأنّ للشيطان معنىً وسيعاً يشمل كل غاو مضلّ، إنساناً كان أو غير إنسان كما نقرأ في سورة الأنعام الآية١١٢: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾.

ثمّ إنّه سبحانه يقول في ختام الآية: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني أنّ الإيمان بالله والخوف من غيره لا يجتمعان، وهذا كقوله سبحانه في موضع آخر: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾(١).

وعلى هذا الأساس فإن وجد في أحد الخوف من غير الله كان ذلك دليلاً على نقصان إيمانه وتأثّره بالوساوس الشيطانية لأنّنا نعلم أنّه لا ملجأ ولا مؤثر بالذات في هذا الكون العريض سوى الله الذي ليس لأحد قدرة في مقابل قدرته.

وأساساً لو أنّ المؤمنين قارنوا وليّهم (وهو الله سبحانه) بوليّ المشركين والمنافقين (الذي هو الشيطان) لعلموا أنّهم لا يملكون تجاه الله أية قدرة، ولهذا لا يخافونهم قيد شعرة.

وخلاصة هذا الكلام ونتيجته هي أنّ الإيمان أينما كان، كانت معه الشجاعة والشهامة، فهما توأمان لا يفترقان.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

التفسير

مواساة القرآن للنّبي ﷺ

الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ موجه إلى النّبي ﷺ. فالله تعالى يعزّي نبيّه في أعقاب أحداث أُحد المؤلمة قائلاً له: أيّها الرّسول ﴿لَا

(١) سورة الجن، الآية: ١٤.

يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ وكأنّهم يتسابقون إليه ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بل يضرّون بذلك أنفسهم، وأساساً فالمتضرر والمنتفع إنّما هي الموجودات التي لا تملك من عند أنفسها شيئاً حتى وجودها، أمّا الله الأزلي الأبدي سبحانه فهو الغني المطلق، فما الذي يعود به كفر الناس أو إيمانهم عليه سبحانه، وأي أثر يمكن أن يكون لجهودهم ومحاولاتهم بالنّسبة إليه تعالى؟

إنّهم هم المنتفعون بإيمانهم إذ يتكاملون بهذا الإيمان، وهم المتضررون بالكفر أيضاً، إذ يؤدّي هذا الكفر إلى سقوطهم وانحطاطهم.

هذا مضافاً إلى أنّ الله سوف لن ينسى مواقفهم المشينة ولن تفوته مخالفاتهم، وسيصيبهم جزاء ما يعملونه يوم القيامة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وفي الحقيقة فإنّ الآية تقول: إذا كان هؤلاء يتسابقون في الكفر فليس ذلك لأنّ الله لا يقدر على كبح جماحهم، بل لأنّ الله أراد أنْ يكونوا أحراراً في اتّخاذ المواقف وسلوك الطريق الذي يريدون، ولا شك أنّ نتيجة ذلك هو الحرمان الكامل من المواهب الرّبانيّة في العالم الآخر.

وعلى هذا فالآية لا تنفي الجبر فحسب، بل هي من الأدلة والبراهين السّاطعة على حرية الإرادة الإنسانية.

ثمّ يقرّر القرآن هذه الحقائق في الآية الثانية بشكل أكثر تفصيلاً إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ يعني ليس الّذين يتسابقون في طريق الكفر ويسارعون إليه هم وحدهم على هذا الحال، بل كل الّذين يسلكون طريق الكفر بشكل من الأشكال ويشترون الكفر بالإيمان، كل هؤلاء لن يضرّوا الله شيئاً، وإنّما يضرّون أنفسهم.

ويختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا التفاوت في التعبير في خاتمة هذه الآية والآية التي قبلها حيث قال هناك: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقال هنا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إنّما هو لأجل أنّ الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة أسرع في المبادرة والتوجه نحو الكفر.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨)﴾

التّفسير

المثقلون بأوزارهم

بعد تسلية خاطر النّبي ﷺ في الآيات السّابقة وتطمينه تجاه ما يقوم به أعداء الرسالة والحق من محاولات عدائية لا تحصى، توجه سبحانه إلى الأعداء في هذه الآية بالخطاب، وأخذ يحدّثهم عن المصير المشؤوم الذي ينتظرهم، وهذه الآية ترتبط - في الحقيقة - بأحداث معركة أُحد فهي مكملة للأبحاث التي مرّت حول هذه الواقعة، لأنّ الحديث والخطاب تارةً كان موجهاً إلى النّبي ﷺ وأُخرى موجهاً إلى المؤمنين، وها هو هنا موجه إلى الكفار والمشركين.

إنّ الآية الحاضرة التي يقول فيها سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي[1] لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ تحذّر المشركين بأن عليهم أن لا يعتبروا ما أُتيح لهم من إمكانات في العدّة والعدد، وما يكسبونه من انتصارات في بعض الأحيان، وما يمتلكونه من حرّية التصرف، دليلاً على صلاحهم، أو علامة على رضا الله عنهم.

وتوضيح ذلك أنّ المستفاد من الآيات القرآنية هو أنّ الله سبحانه ينبّه العصاة الذين لم يتوغّلوا في الخطيئة ولم يغرقوا في الآثام غرقاً، فهو سبحانه ينبّههم بالنذر تارةً، وبما يتناسب مع أعمالهم من البلاء والجزاء تارة أُخرى، فيعيدهم بذلك إلى جادة الحق والصواب. وهؤلاء هم الذين لم يفقدوا بالمرّة قابلية الهداية، فيشملهم اللّطف الإلهي، فتكون المحن والبلايا نعمة بالنسبة إليهم، لأنّها تكون بمثابة جرس إنذار لهم ينبّههم من غفلتهم، وينتشلهم من غفوتهم كما يقول الله سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

ولكن الذين تمادوا في الذنوب وغرقوا فيها، وبلغ طغيانهم نهايته فإنّ الله يخذلهم، ويكلهم إلى نفوسهم، أي إنّه يملي لهم لتثقل ظهورهم بأوزارهم، ويستحقوا الحدّ الأكثر من العقوبة والعذاب المهين.

هؤلاء هم الذين نسفوا كلّ الجسور، وقطعوا كلّ علاقاتهم مع الله، ولم يتركوا

---

(١) نملي مشتقة من الإملاء، وتعني المساعدة والإعانة وتستعمل في أكثر الموارد في إطالة المدّة والإمهال الذي هو نوع من المساعدة، وقد جاءت في الآية الحاضرة بالمعنى الثاني.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

لأنفسهم طريقاً للعودة إلى ربّهم، وهتكوا كل الحجب، وفقدوا كل قابلية للهداية الإلهيّة، وكل أهلية للّطف الرّباني.

إنّ الآية الحاضرة تؤكد هذا المفهوم وهذا الموضوع إذ تقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

ولقد استدلت بطلة الإسلام زينب الكبرى بنت الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بهذه الآية في خطابها المدوّي والساخن أمام طاغية الشام يزيد بن معاوية الذي كان من أظهر مصاديق العصاة والمجرمين الذين قطعوا جميع جسور العودة على أنفسهم بما ارتكبوه من فظيع الفعال، وما اقترفوه من شنيع الأعمال إذ قالت: (أظننت يا يزيد. . . أنّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوثقة والأُمور متّسقة، وحين صفا لك مُلكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً أنسيت قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

جواب على سؤال

إنّ الآية الحاضرة تجيب ضمناً على سؤال يخالج أذهان كثير من الناس وهو: لماذا يرفل بعض العصاة والمجرمين في مثل هذا النعيم، ولا يلقون جزاءهم العادل على إجرامهم؟

فإنّ القرآن الكريم يردّ على هذا التساؤل الشّائع قائلاً: إنّ هؤلاء فقدوا كل قابلية للتغيير والإصلاح، وهم بالتالي من الّذين تقتضي سُنّة الخلق ومبدأ حرّية الإنسان واختياره أن يتركوا لشأنهم، ويوكلوا إلى أنفسهم ليصلوا إلى مرحلة السقوط الكامل، ويستحقّوا الحدّ الأكثر من العذاب والعقوبة.

هذا مضافاً إلى ما يستفاد من بعض الآيات القرآنية من أنه سبحانه قد يمدّ البعض بالنعم الوافرة وهو بذلك يستدرجهم، أي إنّه يأخذهم فجأة وهم في ذروة التنعم، ويسلبهم كلّ شيء وهم في أوج اللّذة والتمتع، ليكونوا بذلك أشقى من كلّ شقي، ويواجهوا في هذه الدنيا أكبر قدر ممكن من العذاب، لأنّ فقدان هذا النعيم أشدّ وقعاً على النفس، وأكثر مرارة كما نقرأ في الكتاب العزيز: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[2].

---

(١) اللهوف، ص ١٨١؛ وبحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣٣ و ١٥٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

ومثل هؤلاء - في الحقيقة - مثل الذي يتسلق شجرة، فإنّه كلّما ازداد رقيّاً ازداد فرحاً في نفسه، حتى إذا بلغ قمتها فاجأته عاصفة شديدة، فهوى على أثرها من ذلك المرتفع الشاهق إلى الأرض فتحطمت عظامه، فتبدل فرحه البالغ إلى حزن شديد.

لفتة أدبية

يتبيّن ممّا قلناه في تفسير هذه الآية أن (اللام) في قوله سبحانه: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ (لام العاقبة) وليست (لام الغاية).

وتوضيح ذلك أنّ العرب قد تستعمل اللام لبيان أنّ ما بعد اللام مراد للإنسان ومطلوب له كقوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[١].

ومن البديهي أنّ هداية الناس وخروجهم من الظّلمات إلى النّور مراد له سبحانه.

وقد تستعمل العرب (اللام) لا لبيان أنّ هذا هو مراد ومطلوب للشخص، بل لبيان أنّ هذا نتيجة عمل المرء ومآل موقفه كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾[٢] ولا شك أنّهم إنّما أخذوه ليكون لهم سروراً وقرّة عين، ولا يختص هذا الأمر باللغة العربية وآدابها، بل هو مشهور في غيره من اللغات والآداب.

ومن هنا يتضح الجواب على تساؤل آخر يطرح نفسه هنا وهو: لماذا قال سبحانه: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ الذي معناه - بحسب الظاهر - أي نريد أن يزدادوا إثماً.

لأن هذا الإشكال والتساؤل إنّما يكون وارداً إذا كانت اللام هنا لام الإرادة والغاية المبيّنة للعلّة والهدف، لا (لام العاقبة) ليكون معنى قوله ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ هو: لتكون عاقبة أمرهم ازديادهم الإثم.

وعلى هذا يكون معنى الآية: نحن نمهلهم لتكون عاقبة أمرهم ازدياد ذنوبهم وأوزارهم من الإثم، فالآية لا تدلّ على الجبر مطلقاً، بل هي خير دليل على حرية الإنسان واختياره.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١. (٢) سورة القصص، الآية: ٨.

التّفسير

المسلمون في بوتقة الاختبار والفرز

لم تكن قضية (المنافقين) مطروحة بقوّة قبل حادثة معركة أُحد ولهذا لم يكن المسلمون يعرفون عدواً لهم غير الكفّار، ولكن الهزيمة التي أفرزتها أُحد وما دبّ في المسلمين على أثرها من الضعف المؤقت مهّد الأرضية لنشاط المنافقين المندسّين في صفوف المسلمين، وعلى أثر ذلك عرف المسلمون وأدركوا بأنّ لهم عدواً آخر أخطر يجب أن يراقبوا تحركاته ونشاطاته وهو (المنافقون)، وكان هذا أحد أهم معطيات حادثة أُحد ونتائجها الإيجابية.

والآية الحاضرة التي هي آخر الآيات التي تتحدث - هنا - عن معركة أُحد وأحداثها، تبيّن وتستعرض هذه الحقيقة في صورة قانون عام إذ تقول: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فلا بدّ أن تتميز الصفوف، وتتمّ عملية الفرز بين الطيب الطاهر، والخبيث الرجس، وهذا قانون عام وسنّة إلهيّة خالدة وشاملة، فليس كلّ من يدعي الإيمان، ويجد مكاناً في صفوف المسلمين يترك لشأنه، بل ستبلى سرائره، وتنكشف حقيقته في الآخر بعد الاختبارات الإلهية المتتابعة له.

وهنا يمكن أنْ يطرح سؤال (وهو السؤال الذي كان مطروحاً بين المسلمين آنذاك أيضاً حسب بعض الأحاديث والرّوايات) وهو: إذا كان الله عالماً بسريرة كل إنسان وأسراره فلماذا لا يخبر بها الناس - عن طريق العلم بالغيب - ويعرّفهم بالمؤمن والمنافق؟

إنّ المقطع الثّاني من الآية وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ يجيب على هذا السؤال، أي إن الله سبحانه لن يوقفكم على الأسرار، لأنّ الوقوف على الأسرار - على عكس ما يظن كثيرون لا يحلّ مشكلة، ولايفكّ عقدة، بل سيؤدّي إلى الهرج والمرج والفوضى، وإلى تمزق العلاقات الاجتماعية وانهيارها، وانطفاء شعلة الأمل في النفوس وتبددها، وتوقف الناس عن الحركة والنشاط والفعالية.

والأهم من كلّ ذلك هو أنّه لا بدّ أنْ تتضح قيمة الأشخاص من خلال المواقف العملية والسلوكية، وليس عن أي طريق آخر، ومسألة الاختبار الإلهي لاتعني سوى هذا الأمر، ولهذا فإن الطريق الوحيد لمعرفة الأشخاص وتقويمهم هو أعمالهم فقط(١).

---

(١) لقد مرّ طرح هذا السؤال بالتفصيل عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ...﴾ وأجبنا هناك بأنّ الامتحان الإلهي - هو في الحقيقة - نوع من التربية العملية للبشر، ولا يعني الاستخبار والاستعلام، ولمزيد الاطلاع راجع ذلك البحث.

ثمّ إنّ الله سبحانه يستثني الأنبياء من هذا الحكم إذ يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي إنّه يختار في كل عصر من بين أنبيائه من يطلعهم على شيء من تلك الغيوب ويوقفهم على بعض الأسرار بحكم احتياج القيادة الرسالية إلى ذلك، وتبقى الأعمال - مع ذلك كلّه - هي الملاك الوحيد والمعيار الخالد والمسار الأبدي لمعرفة الأشخاص وتمييزهم وتصنيفهم.

ومن هذه العبارة يستفاد أنّ الأنبياء - بحسب ذواتهم - لا يعرفون شيئاً من الغيب، كما ويستفاد منها أنّ ما يعلمونه منه إنّما هو بتعليم الله لهم وإطلاعهم على شيء منه، وعلى هذا الأساس يكون الأنبياء ممن يطلعون على الغيب، كما أن مقدار علمهم بالغيب يتوقف على المشيئة الإلهيّة.

ومن الواضح والمعلوم أنّ المراد من المشيئة الإلهيّة في هذه الآية - كغيرها من الآيات - هو (الإرادة المقرونة بالحكمة) أي إنّ الله سبحانه يطلع على الغيب كلّ من يراه صالحاً لذلك، وتقتضي حكمته سبحانه ذلك.

ثمّ إنه تعالى يذكّرهم في ختام الآية - وهم الآن في بوتقة الحياة، بوتقة الامتحان الكبير، بوتقة التميز بين الصالح والطالح، والطيب والخبيث، والمؤمن والمنافق - بأنّ عليهم أن يجتهدوا لينجحوا في هذا الامتحان ويخرجوا مرفوعي الرؤوس من هذا الاختبار العظيم، إذ يقول: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ثمّ إنّ الملاحظة الملفتة للنظر والجديرة بالتأمل في هذه الآية التعبير عن المؤمن بالطيب، ومن المعلوم أنّ الطيب هو الباقي على أصل خلقته الذي لم تشبه الشّوائب، ولم تدخل في حقيقته الغرائب، ولم تلوثه الكدورات، فالماء الطاهر الطيب، والثوب الطيب الطاهر وما شابه ذلك هو الذي لم تلوثه الكدورات، ويستفاد من هذا أنّ الإيمان هو فطرة الإنسان الأصلية، وهو جبلّته الأُولى.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

التفسير

طوق الأسر الثّقيل

تبيّن الآية الحاضرة مصير البخلاء في يوم القيامة، أُولئك الذين يبذلون غاية الجهد في جمع الثّروة ثمّ يمتنعون عن الإنفاق في سبيل الله، ولصالح عباده.

والآية هذه وإن لم تتعرض صراحة لذكر الزكاة وغيرها من الحقوق والفرائض المالية، إلّا أنّ الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام [(١)]، وكذا أقوال المفسرين خصصت هذه الآية وما وعد به فيها من الوعيد بمانعي الزكاة، ويؤيده التشديد المشهود في الآية، فإنّ أمثال هذا التشديد والتغليظ لا يتناسب مع الإنفاق المندوب المستحب.

تقول الآية أوّلاً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ثمّ تصف مصير هؤلاء في يوم القيامة هكذا: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ستكون تلك الأموال التي بخلوا بها طوقاً في أعناقهم في ذلك اليوم الرهيب.

ومن هذه الجملة يستفاد أنّ الأموال التي لم يدفع صاحبها الحقوق الواجبة فيها، ولم ينتفع بها المجتمع، بل صرفت فقط في سبيل الأهواء الشخصية، وربّما صرفت في ذلك السبيل بشكل جنوني، أو كدّست دون أي مبرر ولم يستفد منها أحد سيكون مصيرها مصير أعمال الإنسان، أي أنّها - طبقاً لقانون تجسم الأعمال البشرية - ستتجسم يوم القيامة وتتمثل في شكل عذاب مؤلم يؤذي صاحبها ويخزيه.

إنّ تجسّم مثل هذه الأموال التي تطوق بها أعناق ذويها إشارة إلى الحقيقة التالية، وهي أنّ كل إنسان يتحمل ثقل مسؤوليتها كاملاً دون أن يكون هو قد انتفع بها.

إنّ الأموال الوفيرة التي تجمع بشكل جنوني وتكنز ولا تصرف في خدمة المجتمع لا تكون سوى أغلال وسجون لأصحابها، لأنّ للاستفادة - كما نعلم - من الأموال والثروة الشخصية حدوداً، فإذا تجاوزها الإنسان عادت عليه نوعاً من الأسر الثقيل، والوزر الضّار، اللّهم إلّا أن يستفيد من آثارها المعنوية وذلك حينما يوظفها في الأعمال الإيجابية الصالحة.

ثمّ إنّ هذه الأموال لا تشكل طوقاً ثقيلاً في أعناق أصحابها في الآخرة فحسب، بل

(١) أصول الكافي، ج ٣، ص ٥٠٢ و ٥٠٤ و ٥٠٥.

تكون كذلك في هذه الدنيا أيضاً، غاية الأمر أنّ هذا المعنى يكون أكثر ظهوراً في الآخرة، بينما يكون في شيء من الخفاء في هذه الحياة، فأيّة حماقة - ترى - أكبر من أن يتحمل المرء مسؤولية جمع الثّروة مضافة إلى مسؤولية الحفاظ عليها وحسابها والدّفاع عنها وما يلازم ذلك من مشاق تثقل كاهله، في حين لا ينتفع بها هو أبداً، وهل الأموال حينئذ إلّا طوق أسر ثقيل لا غير؟

ففي تفسير العياشي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الذي يمنع الزكاة يحول الله ماله يوم القيامة شجاعاً[1] من نار. . . ثمّ يقال له الزمه كما لزمك في الدنيا»[2].

والملفت للنظر التعبير عن المال في هذه الآية بـ (ما آتاهم الله من فضله) الذي يفهم منه أنّ المالك الحقيقي لهذه الأموال ومصادرها هو الله سبحانه، وأن ما أعطاه لأيّ واحد من الناس فإنّما هو من فضله، ولهذا ينبغي أن لا يبخل، بل أن ينفق من تلك الأموال في سبيل صاحبها الحقيقي.

ثمّ إنّ بعض المفسرين يرى أنّ مفهوم هذه العبارة يعم جميع المواهب الإلهيّة ومنها العلم، ولكن هذا الاحتمال لا ينطبق مع ظاهر التعبيرات الواردة في الآية.

ثمّ إنّ الآية تشير إلى نقطة أُخرى إذ تقول: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني أنّ الأموال سواء أُنفقت في سبيل الله أو لم تنفق فإنّها ستنفصل في النهاية عن أصحابها، ويرث الله الأرض والسماء وما فيهما، فالأجدر بهم - والحال هذه - أن ينتفعوا من آثارها المعنوية، لا أن يتحملوا وزرها وعناءها، وحسرتها وتبعتها.

ثمّ تختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي إنّه عليم بأعمالكم، يعلم إذا بخلتم، كما يعلم إذا أنفقتم ما أُوتيتموه من المال في سبيل الصالح العام وخدمة المجتمع الإنساني، ويجازي كلاً على عمله بما يليق به.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

(١) الشّجاع العظيم الخلقة من الحيّات.

(٢) تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٠٨.

سبب النّزول

هذه الآية نزلت ردّاً على مقالة اليهود وتوبيخاً لهم.

فعن ابن عباس أنّه قال: كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى يهود بني قينقاع دعاهم فيه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله (والمراد منه الإنفاق في سبيل الله وإنّما عبّر عنه بالإقراض لتحريك المشاعر وإثارتها لدى الناس قدراً أكبر) فدخل رسول النّبي إلى بيت المدارس (حيث يتلقى اليهود دروساً في دينهم) وسلم كتاب النّبي ﷺ إلى فنحاص وهو من كبار أحبار اليهود فلمّا قرأه قال مستهزئاً: لو كان ماتقولونه حقّاً فإن الله إذن لفقير ونحن أغنياء، ولو كان غنياً لما استقرض منّا (وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[١] هذا مضافاً إلى أن محمّداً يعتقد أنّ الله نهاكم عن أكل الرّبا، وهو يعدكم أن يضاعف لكم إذا أنفقتم أضعافاً مضاعفة، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٢].

ولكنّ فنحاص أنكر أنّه قال شيئاً من هذا في ما بعد فنزلت الآيتان المذكورتان أعلاه[٣].

التّفسير

تقول الآية الأُولى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

أي لو أنّ هؤلاء استطاعوا أنْ يخفوا عن الناس مقالتهم هذه فإنّ الله قد سمعها ويسمعها حرفاً بحرف فلا مجال لإنكارها، فهو يسمع ويدرك حتى ما عجزت أسماع الناس عن سماعه من الأصوات الخفية جدّاً أو الأصوات العالية جداً: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

إذن فلا فائدة ولا جدوى في الإنكار، ثمّ يقول سبحانه: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ أي إنّ ما قالوه لم نسمعه فحسب، بل سنكتبه جميعه.

ومن البديهي أنّ المراد من الكتابة ليس هو ما تعارف بيننا من الكتابة والتدوين، بل المراد هو حفظ آثار العمل التي تبقى خالدة في العالم حسب قانون بقاء (الطاقة - المادة).

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١١؛ والبقرة، الآية: ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.

(٣) أسباب النزول للواقدي، ص ٨٨ و ٩٩ وتفسير روح البيان وتفسير مجمع البيان في تفسير هذه الآية.

بل وحتى كتابة الملائكة الموكّلين من قبل الله بالبشر لضبط تصرفاتهم، هو الآخر نوع من حفظ العمل الذي هو مرتبة أعلى من الكتابة المتعارفة.

ثمّ يقول: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَآءَ﴾ أي إنّنا لا نكتفي بكتابة مقالاتهم الكافرة الباطلة فحسب، بل سنكتب موقفهم المشين جداً وهو قتلهم للأنبياء.

يعني أنّ مجابهة اليهود، ومناهضتهم للأنبياء ليس بأمر جديد، فليست هذه هي المرّة الأُولى التي يستهزىء بها اليهود برسول من الرسل، فإنّ لهم في هذا المجال باعاً طويلاً في التاريخ، وصفحة مليئة بنظائر هذه الجرائم والمخازي، فإنّ جماعة بلغت في الدناءة والشراسة والوقاحة والجرأة أن قتلت جماعة من رسل الله وأنبيائه، فلا مجال للاستغراب من تفوهها بمثل هذه الكلمات الكافرة.

ويمكن أن يقال في هذا المقام: إنّ قتل الأنبياء مسألة لم ترتبط باليهود في عصر الرسالة المحمّدية، فلماذا حمل وزرها عليهم؟ ولكننا نقول - كما أسلفنا أيضاً - إنّ هذه النسبة إنّما صحّت لأنّهم كانوا راضين بما فعله وارتكبه أسلافهم من اليهود، ولهذا أُشركوا في إثمهم ووزرهم وفي مسؤوليتهم عن ذلك العمل الشنيع.

وأمّا تسجيل وكتابة أعمالهم فلم يكن أمراً اعتباطياً غير هادف، بل كان لأجل أن نعرضها عليهم يوم القيامة، ونقول لهم: ها هي نتيجة أعمالكم قد تجسدت في صورة عذاب محرق ونقول: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

إنّ هذا العذاب الأليم الذي تذوقونه ليس سوى نتيجة أعمالكم، فأنتم - أنفسكم - قد ظلمتم أنفسكم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ[1] وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

بل لو أنّكم وأمثالكم من المجرمين لم تنالوا جزاء أعمالكم ولم تروها بأُمّ أعينكم، ووقفتم في عداد الصالحين لكان ذلك غاية في الظلم، ولو أنّ الله سبحانه لم يفعل ذلك لكان ظلّاماً للناس.

ولقد نقل عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة أنّه قال: «وأيم الله ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلّا بذنوب اجترحوها لأن الله ليس بظلام للعبيد»[2].

إنّ هذه الآية تعدّ من الآيات التي تفنّد - من جهة - مقولة الجبريين، وتعمّم - من

---

(١) إنّما أضيفت أعمال الإنسان إلى يده وإن كانت الذنوب تكتسب بجميع الجوارح لأنّ أكثر ما يكسبه الإنسان إنّما يكسبه بيده، ولأن العادة قد جرت بإضافة الأعمال التي يقوم بها الإنسان إلى اليد وإن اكتسبها بجارحة أُخرى.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٨

جهة أخرى - أصل العدالة وتسحبه على كل الأفعال الإلهيّة، فتكون جميعاً مطابقة للعدالة.

وتوضيح ذلك أنّ الآية الحاضرة تصرّح بأنّ كلّ جزاء - من ثواب أو عقاب - ينال الناس من جانب الله سبحانه فإنّما هو جزاء أعمالهم التي ارتكبوها بمحض إرادتهم واختيارهم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وتصرّح من جانب آخر بأن ﴿ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وأنّ قانونه في الجزاء يدور على محور العدل المطلق، وهذا هو نفس ما تعتقد به العدلية (وهم القائلون بالعدل الإلهي، وهم الشيعة وطائفة من أهل السنة المسمّون بالمعتزلة).

غير أنّ هناك في الطرف الآخر جماعة من أهل السنة (وهم الذين يسمّون بالأشاعرة) لهم اعتقاد غريب في هذا المجال فهم يقولون: إنّه تعالى هو المالك في خلقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنّة لم يكن حيفاً، ولو أدخلهم النّار لم يكن جوراً... فلا يتصوّر منه ظلم، ولا ينسب إليه جور(١).

والآية الحاضرة تفند هذا النوع من الآراء والمقالات تفنيداً باتاً ومطلقاً وتقول بصراحة لا غبش فيها ولا غموض: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

على أنّ لفظة (ظلّام) صيغة مبالغة، وتعني من يظلم كثيراً، ولعل اختيار هذه الصيغة في هذا المكان مع أنّ الله سبحانه لا يظلم حتى إذا كان الظلم صغيراً، لأنّه إذا أجبر الناس على الكفر والمعصية، وخلق فيهم دواعي العمل القبيح ودوافعه، ثمّ عاقبهم على ما فعلوه بإجباره وإكراهه لم يكن بذلك قد ارتكب ظلماً صغيراً فحسب، بل كان (ظلّاماً).

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

(١) الملل والنحل للشهرستاني، طبعة بيروت، ج ١، ص ١٠١، تحقيق محمّد الكيلاني.

سبب النّزول

حضر جماعة من أقطاب اليهود عند رسول الله ﷺ وقالوا له: يا محمّد إنّ الله عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن زعمت أنّ الله بعثك إلينا فجئنا به نصدقك، فأنزل الله هاتين الآيتين(١).

التّفسير

مغالطات اليهود وتعللاتهم

كانت اليهود تتحجج وتجادل كثيراً بهدف التملّص من الانضواء تحت راية الإسلام.

ومن مغالطاتهم ما جاء ذكره في هذه الآية الحاضرة التي تقول: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾.

قال المفسرون: إنّ اليهود كانت تزعم أنّه يجب أنْ يكون للأنبياء خصوص هذه المعجزة، وهي أن يقربوا قرباناً فتنزل النّار من السماء وتأكل قربانهم، ففي ذلك دلالة على صدق المقرّب (أي صاحب القربان).

ولو أنّ اليهود كانوا صادقين في هذا الطلب، وكانوا يريدون - حقّاً - مثل هذا الأمر من باب إظهار الإعجاز، وليس من باب العناد واللجاجة والمغالطة لكان من الممكن إعذارهم، ولكن تاريخهم الغابر، وكذا مواقفهم المشينة مع نبيّ الإسلام ﷺ تثبت الحقيقة التالية، وهي أنّهم لم يكونوا أبداً طلاب حقّ وبغاة علم، بل كانوا يأتون كل يوم بمغالطة واقتراح جديد لمواجهة الجو الضاغط عليهم، وما كان يخلقه القرآن من وضع محرج لهم بفضل ما كان يقيمه من براهين ساطعة وقوية، وذلك فراراً من قبول الإسلام، والانضواء تحت رايته، وحتى لو أنّهم حصلوا على مقترحاتهم فإنّهم كانوا يمتنعون عن الإيمان، بدليل أنّهم كانوا قد قرأوا في كتبهم كل علائم نبيّ الإسلام ﷺ، ولكنهم مع ذلك أبوا إلّا رفض الحقّ، وعدم الإذعان له.

يقول القرآن في مقام الردّ عليهم: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؟ وفي ذلك إشارة إلى زكريا ويحيى وطائفة من الأنبياء الذين قتلوا على أيدي بني اسرائيل.

---

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير القرطبي، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ٧٣ و ١٩٢.

هذا ويذهب بعض متأخري المفسرين (مثل كاتب تفسير المنار) إلى احتمال آخر حول مسألة القربان خلاصته أنّ مقصودهم أنه لم يكن على النّبي أن يذبح قرباناً وتنزل من السماء نار بطريقة إعجازية وتحرق ذلك القربان، بل كان مرادهم أنّه كان في تعاليم دينهم نوع من هذا القربان الذي يذبح بطريقة خاصّة وفي مراسيم معينة، ثمّ يحرق بالنّار وهو ما جاء شرحه في الفصل الأوّل من سفر (اللاويين) من التوراة (العهد القديم).

إنّهم كانوا يقولون: إنّ الله عهد إلينا أن يبقي مثل هذا التعليم، ومثل هذا القربان في كل دين سماوي، وحيث إنّنا لا نجد مثل هذا الأمر في التعاليم الإسلامية لذلك فإننا لا نؤمن لك[1].

ولكن هذا الاحتمال بعيد عن تفسير الآية جداً لأنّه:

أوّلاً: إنّ هذه الجملة قد عطفت في الآية الحاضرة على (البيّنات) ويظهر من ذلك أنّ مرادهم كان عملاً إعجازياً، وهو لا ينطبق مع هذا الاحتمال.

وثانياً: إنّ ذبح حيوان ثمّ حرقه بالنار عمل خرافي ولا يمكن أن يكون من تعاليم الأنبياء وشرائعهم السماوية.

ثمّ يعقب سبحانه على الآية السابقة بقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

وفي هذه الآية يسلي الله سبحانه النّبي ﷺ ويقول: إن كذبتك هذه الجماعة فلا تقلق لذلك ولا تحزن، فذلك هو دأبهم مع أنبياء سبقوك حيث كذبوهم، وعارضوا دعوتهم بصلابة وعناد.

ولم يكن هؤلاء الانبياء غير مزوّدين بما يبرهن على صدقهم، بل ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

وهنا لا بدّ من الأنتباه إلى أن (زُبر) وهو جمع (زبور) يعني كتاباً أُحكمت كتابة مواضيعه، لأن الزبر أصلاً من الكتابة، لا مطلق الكتابة، بل الكتابة المتقنة المحكمة.

وأمّا الفرق بين (الزبر) و(الكتاب المنير) مع أنّهما من جنس واحد هو الكتاب، فيمكن أن يكون بسبب أنّ الاوّل إشارة إلى كتب الأنبياء قبل موسى عليه السلام، والثّاني إشارة إلى التوراة والإنجيل، لأنّ القرآن الكريم عبر عنهما في سورة المائدة الآية ٤٤، و٤٦ بالنّور إذ قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ...﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾.

هذا ويحتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من (الزّبور) هو تلك الكتب السماوية

---

(١) تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث.

التي تحتوي على المواعظ والزواجر خاصّة (كما كان عليه الزبور المنسوب إلى داود الذي هو الآن بين الأيدي والذي يحتوي بأسره على المواعظ والزواجر) ولكن (الكتاب المنير) أو الكتاب السماوي فيطلق على ما يحتوي على التشريعات والقوانين والأحكام الفردية والاجتماعية.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

التّفسير

الموت وقانونه العام

تعقيباً على البحث حول عناد المعارضين وغير المؤمنين تشير هذه الآية إلى قانون (الموت) العام وإلى مصير الناس في يوم القيامة، ليكون ذلك تسلية للنّبي ﷺ والمؤمنين، وتحذيراً - كذلك - للمعارضين العصاة.

فهذه الآية تشير - أوّلاً - إلى قانون عام يشمل جميع الأحياء في هذا الكون وتقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾.

والناس، وإن كان أكثرهم يحب أن ينسى مسألة الفناء ويتجاهل الموت، ولكن هذا الأمر حقيقة واقعة إن حاولنا تناسيها والتغافل عنها، فهي لا تنسانا، ولا تتغافل عنّا.

إنّ لهذه الحياة نهاية لا محالة، ولابدّ أن يأتي ذلك اليوم الذي يزور فيه الموت كل أحد، ولا يكون أمامه - حينئذ - إلّا أن يفارق هذه الحياة.

إنّ المراد من (النفس) في هذه الآية هو مجموعة الجسم والروح، وإن كانت النفس في القرآن تطلق أحياناً على خصوص (الرّوح) أيضاً.

والتعبير بالتذوق إشارة إلى الإحساس الكامل، لأنّ المرء قد يرى الطعام بعينيه أو يلمسه بيده، ولكن كل هذا لا يكون - والأحرى لا يحقق الإحساس الكامل بالشيء، نعم إلّا أن يتذوق الطعام بحاسة الذوق فحينئذ يتحقق الإحساس الكامل، وكأن الموت - في نظام الخلقة - نوع من الغذاء للإنسان والأحياء.

ثمّ تقول الآية بعد ذلك ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ أي إنّه ستكون بعد

هذه الحياة مرحلة أُخرى هي مرحلة الثواب والعقاب، وبالتالي الجزاء على الأعمال، فهنا عمل ولا حساب وهناك حساب ولا عمل.

وعبارة (توفون) التي تعني إعطاء الجزاء بالكامل تكشف عن إعطاء الإنسان أجر عمله - يوم القيامة - وافياً وبدون نقيصة، ولهذا لا مانع من أن يشهد الإنسان - في عالم البرزخ المتوسط بين الدنيا والآخرة - بعض نتائج عمله، وينال قسطاً من الثواب أو العقاب، لأنّ هذا الجزاء البرزخي لا يشكل الجزاء الكامل.

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

وكلمة (زحزح) تعني محاولة الإنسان لإخراج نفسه من تحت تأثير شيء، وتخليصها من جاذبيته تدريجاً.

وأمّا كلمة (فاز) فتعني في أصل اللغة (النجاة) من الهلكة، ونيل المحبوب والمطلوب.

والجملة بمجموعها تعني أنّ الذين استطاعوا أن يحرروا أنفسهم من جاذبية النّار ودخلوا الجنّة فقد نجوا من الهلكة، ولقوا ما يحبونه، وكأن النّار تحاول بكلّ طاقتها أن تجذب الآدميين نحو نفسها.. حقّاً إنّ هناك عوامل عديدة تحاول أن تجذب الإنسان إلى نفسها، وهي على درجة كبيرة من الجاذبية.

أليس للشهوات العابرة، واللذات الجنسية الغير المشروعة، والمناصب، والثروات الغير المباحة مثل هذه الجاذبية القوية؟؟

كما يستفاد من هذا التعبير أن الناس ما لم يسعوا ويجتهدوا لتخليص أنفسهم وتحريرها من جاذبية هذه العوامل المغرية الخداعة فإنّها ستجذبهم نحو نفسها تدريجاً، وسيقعون في أسرها في نهاية المطاف.

أمّا إذا حاولوا من خلال تربية أنفسهم وترويضها، وتمرينها على مقاومة هذه الجواذب والمغريات وكبح جماحها، وبلغوا بها إلى مرتبة (النفس المطمئنة) فهم من النّاجين الواقعيين، الذين يشعرون بالأمن والطمأنينة.

ثمّ يقول سبحانه في نهاية هذه الآية: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

وهذه الجملة تكمل البحث السابق وكأنّها تقول: إنّ هذه الحياة مجرّد لهو ومتاع تخدع الإنسان من بعيد، فإذا بلغ إليها الإنسان ونال منها ولمسها عن كثب وجدها - على الأغلب - فراغاً في فراغ وخواء في خواء، وما متاع الغرور إلّا هذا.

هذا مضافاً إلى أنّ اللذائذ المادية تبدو من بعيد وكأنّها خالصة من كل شائبة، وخالية

من كلّ ما يكدّرها، حتى إذا اقترب إليها الإنسان وجدها ممزوجة بكل ألوان العناء والعذاب، وهذا جانب آخر من خداع الحياة المادية.

كما أنّ الإنسان ينسى - في أكثر الأحيان - طبيعته الفانية، ولكنه سرعان ما ينتبه إلى أنّها سريعة الزوال، قابلة للفناء.

إنّ هذه التعابير قد تكررت في القرآن والأحاديث كثيراً، والهدف منها جميعاً شيء واحد هو أن لا يجعل الإنسان هذه الحياة المادية ولذاتها العابرة الفانية الزّائلة هدفه الأخير، ومقصده الوحيد النّهائي الذي تكون نتيجته الغرق والارتطام بشتّى ألوان الجريمة والمعصية، والابتعاد عن الحقيقة وعن التكامل الإنسانى، وأمّا الانتفاع بالحياة المادية ومواهبها كوسيلة للوصول إلى التكامل الإنساني والمعنوي فليس غير مذموم فقط، بل هو ضروري وواجب.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

سبب النّزول

عندما هاجر المسلمون من مكّة إلى المدينة وابتعدوا عن دورهم وديارهم، راحت أيدي المشركين تطال أموالهم وتمتدّ إلى ممتلكاتهم، وتنالها بالتصرف والسيطرة عليها، وإيذاء كلّ من وقعت عليه أيديهم والإيقاع فيه بالهجاء والاستهزاء.

وعندما جاؤوا إلى المدينة، واجهوا أذى اليهود القاطنين في المدينة، خاصّة كعب بن الأشرف الذي كان شاعراً سليط اللسان، فقد كان كعب هذا يهجو النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين ويحرض المشركين عليهم حتى إنّه كان يشبب بنساء المسلمين ويصف محاسنهن ويتغزل بهن.

وقد بلغت وقاحته مبلغاً دفعت بالنّبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن يأمر بقتله، فقتل على أيدي المسلمين غيلة.

والآية الحاضرة - حسب بعض الأحاديث المنقولة عن المفسرين - تشير إلى هذه الأُمور وتحث المسلمين على مواصلة الصمود والمقاومة(١).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير جامع البيان، ج ٤، ص ١٣٣.

التّفسير

لا تتعبكم المقاومة

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أجل إنّ هذه الحياة - أساساً - ساحة اختبار ودار امتحان، فلا بدّ أن يتهيأ الإنسان لمواجهة كل الحوادث والمفاجآت الصعبة العسيرة، وهذا في الحقيقة تنبيه وتحذير لجميع المسلمين بأن لا يظنوا بأنّ الحوادث العسيرة في حياتهم قد انتهت، أو أنّهم قد تخلصوا من أذى الأعداء، وسلاطة لسانهم بمجرد قتلهم لكعب بن الأشرف الشاعر السليط اللسان الذي كان يؤذي المسلمين بلسانه، وشعره.

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾.

إنّ مسألة التعرض لأذى المشركين اللساني وسبّهم وشتمهم وهجائهم وإن كانت من إحدى الابتلاءات التي جاء ذكرها في مطلع الآية، ولكنه ذكر هنا بخصوصه للأهمية الفائقة، لأنّ مثل هذا قلّما يتحمله الشرفاء من الناس لعظيم أثره في أرواحهم ونفوسهم، ومن قديم قال الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

ثمّ إنّه سبحانه عقب على هذا الإنذار والتنبيه بقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وبهذا يبيّن القرآن وظيفة المسلمين وواجبهم في أمثال هذه الحوادث الصعبة والظروف العسيرة، ويدعوهم إلى الصبر والاستقامة والصمود والتزام التقوى في مثل هذه الحوادث معلناً بأن هذه الأُمور من الأُمور الواضحة النتائج، ولذلك يتعين على كل عاقل أن يتخذ موقفه منها.

والعزم في اللغة هو (القرار المحكم) وربّما يطلق على مطلق الأُمور المحكمة، وعلى هذا فإن (عزم الأُمور) يعني الأعمال البيّنة الرشد التي يجب على كل إنسان عاقل العزم عليها أو بمعنى كل أمر محكم يطمأن إليه.

واقتران الصبر بالتقوى في هذه الآية لعله إشارة إلى أنّ بعض الأشخاص قد يصبرون ولكنهم مع ذلك يظهرون الشكوى، ويبدون التبرم بما لقوا، ولكن المؤمنين الصادقين هم الذين يمزجون الصبر بالتقوى دائماً وأبداً ويتجنبون مثل ذلك السلوك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

التّفسير

بعد ذكر جملة من أعمال أهل الكتاب المشينة ومخالفاتهم تشير الآية الحاضرة إلى واحدة أُخرى من تلك الأعمال والمخالفات، ألا وهو كتمان الحقائق فتقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾، أي اذكروا إذ أخذ الله مثل هذا الميثاق منكم.

والملفت للنظر أن عبارة (لتبيّننه) جاءت مع لام القسم، ونون التأكيد الثقيلة، وذلك نهاية في التأكيد.

ثمّ أردفها - مع ذلك - بقوله: (ولا تكتمونه) الذي هو أمر صريح بعدم الكتمان والإخفاء.

ومن كل هذه التعابير يتضح أو يستفاد أنّ الله سبحانه قد أخذ بوساطة الأنبياء السابقين آكد المواثيق والعهود من أهل الكتاب لإظهار الحقائق، وبيانها، ولكنّهم رغم كل ذلك - خانوا تلك العهود وتجاهلوا تلك المواثيق، وأخفوا ما أرادوا إخفاءه من حقائق الكتب السماوية، ولهذا قال سبحانه عنهم ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أنّها كناية رائعة عن عدم العمل بالواجب وتناسيه، لأنّ الإنسان إذا عزم على العمل بشيء وأراد جعله ملاكاً له، فإنه يجعله قدامه، وينظر إليه مرّة بعد أُخرى، ولكنه إذا لم يرد العمل به وأراد تناسيه بالمرّة أزاحه من وجهه، وألقاه خلف ظهره.

ثمّ إنّه سبحانه أشار إلى حرص اليهود وجشعهم وحبّهم المفرط للدنيا إذ يقول: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

إنّ حبّهم الشديد للدنيا الذي بلغ حدّ العبادة، وانحطاطهم الفكري آل بهم إلى أن يكتموا الحقائق لقاء مكاسب مادية، ولكن الآية تقول إنّهم لم يشتروا بذلك ولم يكسبوا إلّا ثمناً قليلاً، وبئس ما يشترون.

ولو أنّهم قد حصلوا لقاء كتمان الحقائق - هذه الجريمة الكبرى - على ثروة عظيمة وطائلة لكان ثمّة مجال لأن يقال: إنّ عظمة المال والثروة قد أعمت أبصارهم

وأسماعهم، ولكن الذي يدعو إلى الدهشة والعجب أنّهم باعوا كلّ ذلك لقاء ثمن بخس ومتاع قليل، (طبعاً المقصود هنا هو علماؤهم الدنيئو الهمة).

العلماء والوظيفة الكبرى

إنّ الآية الحاضرة وإن كانت قد وردت بحق أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) إلّا أنّها في الحقيقة تحذير وإنذار لكل علماء الدين ورجاله بأن عليهم أن يجتهدوا في تبليغ الحقائق وبيان الأحكام الإلهية، وتوضيحها وإظهارها بجلاء، وإن ذلك ممّا كتبه الله عليهم، وأخذ عليه منهم ميثاقاً مؤكداً وغليظاً.

إنّ كلمة (لتبيّننه) وما اشتقت منه في أصل اللغة في هذه الآية تكشف عن أنّ المقصود ليس هو فقط تلاوة آيات الله أو نشر ما احتوت عليه الكتب السماوية من كلمات وعبارات، بل المقصود عرض ما فيها من الحقائق على الناس، وجعلها في متناول الجميع بوضوح ودون غبش ليقف عليها الناس أجمعون من دون إبهام، ويتذوقوها بأرواحهم وأفئدتهم دون أيّة حجب وسدود.

فالذين يتقاعسون أو يقصرون في عرض الحقائق الإلهية وبيانها وتوضيحها للمسلمين لا شك تشملهم هذه الآية، وينالهم نفس المصير الذي ذكره الله فيها لعلماء اليهود وأحبارهم.

فقد روي عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «من كتم علماً عن أهله أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»[(١)].

وعن الحسن بن عمار قال: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت: إن رأيت أن تحدّثني فقال: أوما علمت أنّي تركت الحديث، فقلت: إمّا أن تحدّثني وإمّا أن أُحدثك؟ فقال: حدّثني فقلت: حدّثني الحكم بن عيينة عن نجم الجزار قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلّموا»[(٢)].

قال: فأطرق برأسه ملياً بعد أن سمع قولي ثمّ قال: اسمع لأُحدثك، فحدثني أربعين حديثاً[(٣)].

---

(١) كنز العمال، ج ١٠، ص ١٩١ و ٢١٧؛ وزبدة البيان، ص ٢٠٦.

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٤٧٨.

(٣) تفسير روح الجنان لأبي الفتوح الرازي، وتفسير مجمع البيان عند تفسير هذه الآية، ومتن الحديث العلوي منقول عن نهج البلاغة وبحار الأنوار، ج ٢، ص ٨٠.

هذا وللتعرف - بصورة أكبر - على خيانات أحبار اليهود وعلماء النصارى، راجع الآيات (٧٩ و١٧٤) من سورة البقرة، والآيات (٧١ إلى ٧٧) من سورة آل عمران.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

سبب النّزول

ذكر المحدّثون والمفسرون أسباباً عديدة لنزول هذه الآية، منها أنّ اليهود كانوا يفرحون لما يقومون به من تحريف لآيات الكتب السماوية وكتمان حقائقها ظناً منهم بأنّهم يحصلون من وراء ذلك على نتيجة، وفي الوقت نفسه كانوا يحبّون أن ينسبهم الناس إلى العلم، ويعتبروهم من حماة الدين فنزلت هذه الآية ترد على تصورهم الخاطىء هذا[1].

وقال آخرون إنّها نزلت في شأن المنافقين، لأنهم كانوا يجمعون ويتفقون على التخلف عن الجهاد مع رسول الله ﷺ إذا نشبت حرب من الحروب الإسلامية، متذرّعين لذلك بمختلف المعاذير والحجج، فإذا عاد المجاهدون من القتال اعتذروا وحلفوا لهم بأنّهم كانوا يودّون المشاركة لولا بعض الأعذار، وأحبوا بالتالي أن يقبل منهم العذر ويحمدوا بما ليسوا عليه من الإيمان وبما لم يفعلوه من أفعال المجاهدين الصادقين، فنزلت هذه الآية ترد على هذا التوقع غير المبرر وغير الوجيه[2].

التّفسير

المعجبون بأنفسهم

المرتكبون لقبائح الفعال على نوعين: طائفة تستحي من أفعالها فور انتباهها إلى قبح ما فعلت، وهي لم تفعل ما فعلت من القبيح إلّا لطغيان غرائزها، وهيجان شهواتها، وهذه الطّائفة سهلة النّجاة جداً، لأنّها تندم بعد كل قبيح ترتكبه، وتتعرض لوخز ضميرها وعتب وجدانها باستمرار.

(١) أسباب النزول للواقدي، ص ٩١؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفاسير مجمع البيان والمنار وجامع البيان وتفاسير أخرى، ذيل الآية مورد البحث.

بيد أنّ هناك طائفة أُخرى ليست فقط لا تشعر بالندم والحياء ممّا ارتكبت من الإثم، بل هي على درجة من الغرور والإعجاب بالنفس بحيث تفرح بما فعلت، بل تتبجح به وتتفاخر، بل وفوق ذلك تريد أن يمدحها الناس على ما لم تفعله أبداً من صالح الأعمال وحسن الفعال.

إنّ الآية الحاضرة تقول عن هؤلاء: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي لا تحسبن أنّ هؤلاء يعذرون على موقفهم هذا وينجون من العذاب، إنّما النجاة لمن يستحون - على الأقل - من أعمالهم القبيحة، ويندمون على أنّهم لم يفعلوا شيئاً من الأعمال الصالحة.

إنّ هؤلاء المعجبين بأنفسهم ليسوا فقط ضلّوا طريق النجاة وحُرموا من الخلاص، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ينتظرهم.

ويمكن أن نستفيد من هذه الآية أن ابتهاج الإنسان بما وفّق لفعله وإتيانه من صالح الأعمال ليس مذموماً (إذا كان ذلك لا يتجاوز حد الاعتدال، ولم يكن سبباً للغرور والعجب)، وهكذا الحال في رغبة الانسان في التشجيع والإجلال على الأفعال الحسنة إذا كان - كذلك - في حدود الاعتدال، ولم يكن الإتيان بتلك الأعمال الصالحة بدافع الحصول على ذلك، لأنّ كل ذلك من غريزة الإنسان ومقتضى فطرته. ولكن أولياء الله ومن هم في المستويات العليا من الإيمان بعيدون حتى عن مثل هذا الابتهاج المباح وحبّ التقدير الغير المذموم.

إنّهم يرون أعمالهم دائماً دون المستوى المطلوب، ويشعرون أبداً بالتقصير تجاه ربّهم العظيم، وبالتفريط في جنبه سبحانه وتعالى.

على أنّه ينبغي أن لا نتصور أنّ الآية الحاضرة - مورد البحث - تختص بأهل النفاق في صدر الإسلام أو من شاكلهم - في كل عصر وزمان - وفي جميع الظروف والمجتمعات المختلفة، ممن يفرحون ويبتهجون بأعمالهم القبيحة أو يحركون الآخرين ليحمدوهم على ما لم يفعلوه بالقلم أو اللسان.

إنّ مثل هؤلاء مضافاً إلى العذاب الأليم في الآخرة، سيصيبهم - في هذه الحياة - غضب الناس وسخطهم، وسيؤول أمرهم إلى الانفصال عن الآخرين وإلى غير ذلك من العواقب السيئة.

ثمّ إنّ الله سبحانه يقول في آية لاحقة: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا الكلام يتضمن بشرى للمؤمنين، وتهديداً للكافرين، فهي تقول: إنّه لا داعي

لأن يسلك المؤمنون لإحراز التقدم طرقاً وسبلاً منحرفة، وأن يحمدوا على ما لم يفعلوه، ذلك لأنّهم يقدرون أنْ يواصلوا تقدمهم، ويحرزوا النجاحات بالاستفادة من السبل المشروعة والصحيحة وفي ظل قدرة الله خالق السماوات والأرضين، كما أنّه على المنافقين والعصاة أن لا يتصوروا أنّهم قادرون على إحراز شيء أو على الخلاص والنجاة من عقاب خالق الكون وربّ السماوات والأرضين بسلوك هذه السبل المنحرفة واستخدام هذه الأساليب غير المشروعة!.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ
﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾
رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ
لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا
وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

التفسير

أهمية هذه الآيات

لا شك أنّ جميع الآيات القرآنية تتمتّع بأهميّة كُبرى لأنّها جميعاً كلام الله، وآياته التي نزلت لتربية الإنسان ونجاته وخلاصه، إلّا أنّ هناك آيات تحظى وتتميز على سواها ببريق خاص، ومن هذا الصنف ما نقرأه الآن من الآيات الخمس التي تعد من القمم القرآنية العظيمة التأثير، والتي امتزجت فيها مجموعة من معارف الدين بلحن لطيف وساحر من المناجاة والدعاء، فإذا هي نعمة سماوية تدغدغ المشاعر، وتثير الشعور، وتحرك ما غفا من العقل والضمير.

ولهذا أولتها الأحاديث والأخبار المروية أهميّة خاصّة ومكانة سامية بين غيرها من الآيات.

عن عطاء بن رباح قال: قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ

قالت: وأي شأن لم يكن عجباً، إنّه أتاني ليلة فدخل معي في لحافي ثمّ قال: ذريني أتعبد لربّي، فقام فتوضأ ثمّ قام يصلي، فبكى حتى سالت دموعه على صدره فركع فبكى، ثمّ سجد فبكى، ثمّ رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، ولم لا أفعل وقد أنزل عليّ هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ - إلى قوله - ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ثمّ قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[1] والعبارة الأخيرة التي تأمر الجميع - بتأكيد كبير - بأن يفكروا في هذه الآيات، وقد رويت في روايات عديدة بعبارات مختلفة.

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا قام من اللّيل استاك، ثمّ ينظر إلى السماء ثمّ يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

وورد عن الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام الأمر بقراءة هذه الآيات الخمس وقت القيام بالليل للصلاة[3].

وعن نوف البكالي قال: بت ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام فكان يصلي الليل كلّه، ويخرج ساعة بعد ساعة فينظر إلى السماء ويتلو القرآن - ويردّد هذه الآيات - فمرّ بي بعد هدوء الليل، فقال: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟.

قلت: بل رامق ببصري يا أمير المؤمنين.

قال: يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أُولئك الذين اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن دثاراً، والدعاء شعاراً...[4].

---

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص ١١٠ و ١١١، وتفسير روح الجنان لأبي الفتوح الرازي، ج ٥، ص ٢٠٥.

(٢) تفسير نور الثقلين ومجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

(٣) المصدر السابق.

(٤) سفينة البحار، مادة نوف، ج ٢، ص ٦٢٢. ارشاد القلوب، ج ١، ص ٢٠؛ ونهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٠٤.

التفسير

أوضح السبل لمعرفة الله

آيات القرآن الكريم ليست للقراءة والتلاوة فقط، بل نزلت لكي يفهم الناس مقاصدها ويدركوا معانيها، وما التّلاوة والقراءة إلّا مقدمة لتحقيق هذا الهدف، أي التفكر والتدبر والفهم، ولهذا جاء القرآن في الآية الأُولى من الآيات الحاضرة يشير إلى عظمة خلق السماوات والأرض، ويقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(١)].

وبهذا يحثّ الناس على التفكر في هذا الخلق البديع والعظيم، ليصيب كلّ واحد منهم - بقدر استعداده، وقدرته على الاستيعاب - من هذا البحر العظيم الذي لا يدرك له ساحل ولا قعر، ويرتوي من منهل أسرار الخلق العذب.

حقّاً إنّ هذا الكون العظيم بما فيه من نظام متقن وبديع، ونقوش رائعة، ولوحات خلابة كتاب بالغ العظمة، كتاب في كلّ حرف من حروفه، وكل سطر من أسطره دليل ساطع على وجود الله الخالق المبدع ووحدانيته، وتفرّده[(٢)].

إنّ هذا النقش الساحر الآسر للقلوب، المبثوث في كل ناحية من نواحي هذا الكون العريض يشدّ إلى نفسه فؤاد كلّ لبيب وعقله شدّاً - يجعله يتذكر خالقه، في جميع الحالات، قائماً أو قاعداً، وحين يكون في فراشه نائماً على جنبه، ولهذا يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي إنّهم مستغرقون كامل الاستغراق في التفكير الحيوي حول هذا الكون الرائع ونظامه البديع ومبدعه، ومبدئه.

ولقد أُشير - في هذه الآية - إلى الذكر أوّلاً، ثمّ إلى الفكر ثانياً، ويعني ذلك أن ذكر الله وحده لا يكفي، إنّ الذكر إنّما يعطي ثماره القيّمة إذا كان مقترناً بالفكر، كما أنّ التفكر في خلق السماء والأرض هو الآخر لا يُجدي ولا يوصل إلى النتيجة المتوخاة ما لم تقترن عملية التفكر بعملية التذكر، وبالتالي لا يقرن الفكر بالذكر. فما أكثر العلماء

---

(١) التعبير بأُولي الألباب - في هذه الآية وآيات عديدة أُخرى في الكتاب العزيز - إشارة لطيفة إلى أرباب العقول، لأنّ اللب من كلّ شيء خيره وخالصه، ولا شك أنّ العقل هو خير ما في الإنسان، وهو عصارة وجوده الإنساني.

(٢) لقد بحثنا في الجزء الأوّل من هذا التّفسير في معنى اختلاف الليل والنهار وأسرارهما عند تفسير الآية ١٦٤ من سورة البقرة فراجع.

الذين يقفون - في تحقيقاتهم الفلكية والفضائية - على مظاهر رائعة من النظام الكوني البديع، ولكنّهم حيث لا يتذكرون الله ولا ينظرون إلى كل هذه المظاهر بمنظار الموحد الفاحص، بل ينظرون إليها من الزاوية العلمية المجردة البحتة، فإنّهم لا يقطفون من هذه التحقيقات ما يترتب عليها من النتائج التربوية والآثار الإنسانية، ومثلهم في ذلك مثل من يأكل طعاماً ليقوى به جسمه فلا يكون لما يأكله أي أثر في تقوية فكره وروحه.

إنّ التفكير في أسرار الخليقة، وفي نظام السماء والأرض يعطي للإنسان وعياً خاصّاً ويترك في عقله آثاراً عظيمة، وأوّل تلك الآثار الانتباه إلى هدفية الخلق وعدم العبثية فيه، فالإنسان الذي يلمس الهدفية في أصغر أشياء هذا الكون كيف يمكنه أن يصدق بأنّ الكون العظيم بأسره مخلوق من دون هدف، ومصنوع من دون غاية؟

لو أنّنا نظرنا في تركيبة نبتة معينة للاحظنا أهدافاً واضحة فيها، وهكذا نلاحظ مثل تلك الأهداف في قلب الإنسان وما فيه من حفر، وصمامات، وأبواب وبطون، فكلّ شيء فيه مخلوق لغاية، ومجعول لهدف، وكذا الحال في طبقات العين، بل وحتى الأجفان، والأظافر، كل واحد منها يؤدّي دوراً، ويحقق غاية، فهل يمكن أن يكون لهذه الأجزاء الصغيرة جداً بالنسبة للكون العظيم أهداف واضحة وغايات ملحوظة، ولا يكون للمجموع المتمثل في الظاهرة الكونية الهائلة العظيمة أي هدف مطلقاً؟ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

إنّ العقلاء لا يمكنهم وهم يواجهون هذه الحقيقة الساطعة إلّا أن يقولوا بخشوع هذه الجملة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ أي ربّنا إنّك لم تخلق هذا العالم العظيم، وهذا الكون الذي لا يعرف له حدّ، وهذا النظام المتقن البديع إلّا على أساس الحكمة والمصلحة، ولهدف صحيح، فكل هذا آية وحدانيتك، وكل هذا ينزّهك عن اللّغو والعبث.

إنّ أصحاب العقول السليمة الواعية بعد أن يعترفوا بالهدفية في الخليقة يتذكرون أنفسهم فوراً، وكيف يعقل أن يكونوا - وهم ثمرة هذا الوجود نفسه وهذا الكون بالذات - قد خلقوا سدى، أو جاؤوا إلى هذه الحياة عبثاً، وأنّه ليس هناك من هدف سوى تربيتهم وتكاملهم!!

إنّهم لم يأتوا إلى هذه الحياة لأجل أن يعيشوا فيها أيّاماً سرعان ما تفنى وتنقضي، فذلك أمر لا يستحق كلّ هذا العناء والتعب كما لا يليق بمكانة الإنسان ولا يتناسب مع حكمة الله العليا، بل هناك دار أُخرى تنتظرهم حيث يجدون فيها جزاء أعمالهم، إنْ

خيراً فخير، وإنّ شرّاً فشر، وفي هذه اللحظة ينتبهون إلى مسؤولياتهم، ويسألون الله التوفيق للقيام بها حتى يتجنّبوا عقابه، ولهذا يقول:

﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ثمّ يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ . . .﴾.

ويستفاد من هذه العبارات أنّ العقلاء يخافون من الخزي قبل أن يخافوا من نار جهنم، وهذا هو حال كل من يمتلك شخصية، فإنّه مستعد لأن يتحمل كلّ شيء من الأذى والمحن شريطة أن يحافظ على شخصيته، ولهذا فإنّ أشدّ عقوبات الآخرة على هؤلاء هو الخزي في محضر الله وعند عباده.

على أن النقطة الجديرة بالاهتمام التي تنطوي عليها جملة ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ هي أنّ العقلاء بعد التعرف على الأهداف التربوية المطلوبة للإنسان يقفون على هذه الحقيقة وهي أنّ الوسيلة الوحيدة لنجاح الإنسان ونجاته هي أعماله وممارساته، ولهذا لا يمكن أن يكون للظالمين أيّ أنصار، لأنّهم فقدوا النصير الأصلي وهو العمل الصالح، والتركيز على لفظة (الظلم) إمّا لأجل خطورة هذه المعصية من بين المعاصي الأُخرى، وإمّا لأنّ جميع الذنوب ترجع إلى ظلم الإنسان لنفسه.

على أنّه ليست ثمّة أيّة منافاة بين هذه الآية ومسألة الشفاعة (بمعناها الصحيح) لأنّ الشفاعة (كما قلنا سابقاً في بحث الشفاعة) تحتاج إلى قابلية وأهلية خاصّة في المشفوع له، وهذه الأهلية والصلاحية لشمول الشفاعة تحصل في ضوء بعض الأعمال الصالحة الخيّرة.

ثمّ إنّ أصحاب العقول وذوي الألباب بعد التعرف على هدف الكون والغاية من الخلق ينتبهون إلى هذه النقطة، وهي أنّ هذا الطريق الوعر يجب أن لا يسلكه أحد بدون قيادة الهداة الإلهيين، ولهذا فهم يترصّدون نداء من يدعوهم إلى الإيمان بصدق وإخلاص ويستجيبون لأوّل دعوة يسمعونها منه ويسرعون إليه، ويعتنقونها بعد أن يحققوا فيها، ويتأكدوا من صدقها وصحّتها ويؤمنون بها بكلّ وجودهم، ولهذا يقولون في محضر ربّهم:

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

أي ربّنا الآن وقد آمنا بكل وجودنا وإرادتنا، ولكننا يحيط بنا طوفان الغرائز المختلفة من كلّ جانب، فربّما ننزلق وربّما نزلّ ونرتكب معصية، ربّنا فاغفر لنا زلتنا، واستر عثرتنا، وتوفّنا مع الأبرار الصالحين.

لقد اتصل هؤلاء بالمجتمع الإنساني اتصالاً عجيباً، وتركوا التفرد والأنانية إلى درجة أنّهم يطلبون من الله في دعواتهم أن لا يجعلهم مع الأبرار والصالحين في حياتهم فحسب، بل يجعل مماتهم - سواء كان مماتاً طبيعياً أو بالشهادة في سبيل الله - كممات الأبرار الصالحين أيضاً، أو يحشرهم معهم، لأن الموت مع الأشرار موتة مضاعفة، وعناء مضاعف.

وهنا يطرح سؤال وهو: ماذا يعني الستر على السيئات بعد طلب غفرانها؟

والجواب هو: مع ملاحظة بقية الآيات القرآنية تتضح حقيقة الإجابة على هذا السؤال، فإن الآية ٣١ من سورة النساء تقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ فيستفاد من ذلك أنّ السيئات تطلق على المعاصي الصغيرة، ولهذا فإنّ العقلاء ذوي الألباب يطلبون من الله في أدعيتهم وضراعاتهم أنْ يغفر لهم ذنوبهم الكبيرة، ويستر - عقب ذلك - على ذنوبهم الصغيرة، ويمحو آثارها من الوجود.

ثمّ إن هؤلاء العقلاء يطلبون من ربّهم في نهاية المطاف، وبعد أن يسلكوا طريق الإيمان والتوحيد وإجابة دعوة الأنبياء والقيام بالواجبات الموجهة إليهم، أن يؤتيهم وعدهم على لسان الرسل فيقولون: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي ربّنا لقد وفينا بالتزاماتنا، فأتنا ما وعدتنا عن طريق أنبيائك ورسلك ولا تفضحنا ولا تلحق بنا الخزي يوم القيامة: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

إنّ التركيز على (الخزي) يؤكّد مرّة أُخرى هذه الحقيقة الهامّة، وهي أنّ هؤلاء بسبب ما يرون لشخصيتهم من أهميّة واحترام يعتبرون (الخزي) من أشد ما يلحق بالإنسان من الأذى، ولهذا يركّزون عليه دون سواه من ألوان العقوبات.

وفي مستدرك الوسائل نقلاً عن أبي الفتوح الرّازي في تفسيره، أنّه ﷺ قال: من كان له إلى الله حاجة فليقل خمس مرات (ربّنا) يعطى حاجته، ومصداق ذلك في كلام الله في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ إلى آخر الآيات فيها ربّنا خمس مرّات ثمّ قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾[1].

ومن الواضح أنّ التأثير الواقعي والعميق لهذه الآيات، إنّما يتحقق إذا وافق اللسان في ما يقوله القلب والعمل، وأن يحل مضمون هذه الآيات - الذي يكشف عن طريقة تفكير أُولي الألباب وشدّة حبّهم لله، وإحساسهم بالمسؤوليات الملقاة على عواتقهم،

(١) مستدرك الوسائل، ج ٥، ص ٢١٩؛ وتفسير القرطبي، ج ٤، ص٣١٨.

والقيام بواجباتهم- في فؤاد قارئها وقلبه، فيحصل له نفس ذلك الخضوع والخشوع الحاصل لأولي الألباب عند مناجاتهم لله، وتضرعهم إليه.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

سبب النّزول

هذه الآية تعقيب على الآيات السابقة حول أُولي الألباب والعقول النّيرة ونتيجة أعمالهم، والشروع بفاء التفريع - في هذه الآية - أوضح دليل على هذا الارتباط، ومع ذلك ذكرت أسباب نزول متعددة لها في الأحاديث وأقوال المفسرين، لكنها لا تنافي - في حقيقتها - الارتباط الذي ذكرناه لهذه الآية مع الآيات السابقة.

ومن جملة ذلك ما نقل عن أمّ سلمة (وهي إحدى زوجات النّبي ﷺ) أنّها قالت للنّبي ﷺ: يا رسول الله ما بال الرجال يذكرون في الهجرة دون النساء؟ فأنزل الله هذه الآية(١).

كما نقل أيضاً أنّ عليّاً عليه السلام لما هاجر بالفواطم (وهنّ فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت النّبي ﷺ وفاطمة بنت الزبير) من مكّة إلى المدينة، ولحقت به أُم أيمن - وهي إحدى زوجات النّبي المؤمنات - في أثناء الطريق، نزلت الآية الحاضرة(٢).

والمسألة كما قلناه، فإن الأسباب المذكورة لنزول الآية لا تنافي الارتباط الذي أشرنا إليه بين هذه الآية، والآيات السابقة، كما أنه لا تنافي أيضاً بين هذين السببين المذكورين للآية أيضاً.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ والمستدرك، للحاكم النيشابوري، ج ٢، ص ٣٠٠.

(٢) مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٥٩، والميزان، ج ٤، ص ٩٥ - ٩٦. تفسير الميزان، ج ٤، ص ٩١؛ وبحار الأنوار، ج ١٩، ص ٦٦ و ٦٧.

التّفسير

النّتيجة الطّيبة لموقف أولي الألباب

في الآيات الخمس الآنفة استعرض القرآن الكريم موجزاً من إيمان أُولي الألباب والعقول النّيرة، وبرامجهم العملية، وطلباتهم وأدعيتهم، وفي هذه الآية يقول سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾، والتعبير بلفظة ﴿رَبُّهُمْ﴾ حكاية عن غاية اللّطف، ومنتهى الرحمة الإلهيّة بالنسبة إليهم، ثمّ يضيف قائلاً: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ دفعاً للاشتباه والتوهّم الذي قد يسبق إلى الذهن بأنّه لا ارتباط بين الفوز والنجاة، وبين أعمال الإنسان ومواقفه، ففي هذه العبارة إشارة واضحة إلى أصل (العمل)، وإشارة أيضاً إلى عامله، حتى يتبيّن أنّ الملاك والمحور الأصلي لقبول الدعاء واستجابته هو الأعمال الصالحة الناشئة من الإيمان، وأنّ الأدعية التي تستجاب فوراً هي تلك التي يدعمها العمل الصالح.

ثمّ إنّه سبحانه يقول: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾، وهذا لأجل أن لا يتصور أحد أنّ هذا الوعد الإلهي يختص بطائفة معينة كالذكور دون الإناث مثلاً، فلا فرق في هذا الأمر بين أن يكون العامل ذكراً أو أُنثى، لأنّ الجميع يعودون في أصل الخلقة إلى مصدر واحد ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ أي تولد بعضكم من بعض، النساء من الرجال، والرجال من النساء، فلا تفاوت في هذه المسألة إذن بين الذكر أو الأُنثى، فلماذا يكون تفاوت في الجزاء والثواب؟

ويمكن أن تكون عبارة ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ إشارة إلى أنّكم جميعاً أتباع دين واحد، وروّاد منهج واحد وأنصار حقيقة واحدة، فلا معنى لأن يفرّق الله سبحانه بين جماعة وأُخرى ويميّز بين طائفة وطائفة، وجنس وآخر.

ثمّ إنّه سبحانه يستنتج من ذلك إذ يقول: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، أي إنّ الله سبحانه كتب على نفسه أن يغفر لهؤلاء ذنوبهم، جاعلاً من هذه المشاقّ والمتاعب التي نالتهم كفارة لذنوبهم، ليطهروا من أدرانها تطهيراً.

ثمّ يقول تعالى: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مضافاً إلى غفران ذنوبهم والتكفير عنها.

وهذا هو الثواب الإلهي لهم على ما قاموا به من تضحية وفداء ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ

عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾. . . إنّ لهم أفضل الأجر عند الله وأحسنه، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ إشارة إلى أنّ الأجر الإلهي والمثوبات الإلهيّة ليست قابلة للوصف للناس بشكل كامل في هذه الحياة، بل يكفي أن يعلموا بأنّه أفضل وأعلى من أي ثواب.

هذا ويستفاد - جيداً - من هذه الآية أنّ الإنسان لا بدّ أن يتطهّر من أدران الذنوب في ظلّ العمل الصالح أوّلاً، ثمّ يدخل في رحاب القرب الرّباني والنعيم الإلهي، لأنّه سبحانه قال أوّلاً: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ ثمّ قال: ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾.

وبعبارة أُخرى: إنّ الجنّة مقام المتطهّرين، ولا طريق لمن لم يتطهّر إليها.

القيمة المعنويّة للرّجل والمرأة

إنّ الآية الحاضرة - كبقية الآيات القرآنية الأُخرى - تساوي بين الرجل والمرأة عند الله، وفي مسألة الوصول إلى الدرجات المعنوية، ولا تفرق بينهما بسبب اختلافهما في الجنس، ولا تعتبر الفروق العضوية وما يلحقها من الفروق في المسؤوليات الاجتماعية دليلاً على اختلافهما في إمكانية الحصول على درجات التكامل الإنساني وبلوغ المقامات المعنوية الرفيعة، بل تعتبرهما في مستوى واحد - من هذه الجهة - ولذلك ذكرتهما معاً.

إنّ اختلافهما في التكاليف وتوزيع المسؤوليات يشبه إلى حد كبير الاختلاف الذي تقتضيه مسألة النظام والانضباط حيث يختار شخص كرئيس، وآخر كمعاون ومساعد، فإنّه ينبغي أن يكون الرئيس أكثر حنكة وأوسع علماً، وأكثر تجربة في مجال عمله، ولكن هذا التفاوت والاختلاف في مراتب المسؤولية وسلّم الوظائف لا يكون دليلاً مطلقاً على أنّ شخصية الرئيس وقيمته الوجودية أكثرمن شخصية معاونيه ومساعديه، وقيمتهم الوجودية.

إنّ القرآن الكريم يقول بصراحة: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[1].

ويقول في آية أُخرى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2].

هذه الآيات وغيرها من الآيات القرآنية الأُخرى نزلت في عصر كان المجتمع البشري

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٠. (٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

فيه يشكّ في إنسانية جنس المرأة أساساً، بل ويعتقد أنّها كائن ملعون، وأنّها منبع كل إثم وانحراف وموت وفساد.

لقد كان الكثير من الشعوب الماضية تذهب في نظرتها السلبية تجاه المرأة إلى درجة أنّها تعتقد أحياناً أنّ عبادة المرأة وما تقدمه في سبيل الله لا يُقبل، وكان الكثير من اليونانيين يعتقدون أنّ المرأة كائن نجس وشرير وأنّها من عمل الشّيطان، وكان الرّوم وبعض اليونانيين يعتقدون أنّ المرأة ليست ذات روح إنسانية أساساً، وأنّ الرجل وحده هو الذي يحمل بين جنبيه مثل هذه الروح دون غيره.

والملفت للنظر أنّ العلماء المسيحيين في إسبانيا كانوا يبحثون - حتى إلى الآونة الأخيرة - في أنّ المرأة هل تملك - مثل الرجل - روحاً إنسانية أم لا؟ وأنّ روحها هل تخلد بعد الموت أم لا؟

وقد توصلوا - بعد مداولات طويلة - إلى أنّ للمرأة روحاً برزخية، وهي نوع متوسط بين الروح الإنسانية والروح الحيوانية، وأنّه ليس هناك روح خالدة - بين أرواح النساء - إلّا روح مريم(١).

من هنا يتضح مدى ابتعاد بعض المغفلين عن الحقيقة حيث يتّهمون الإسلام أنّه دين الرجال دون النساء.

إنّ بعض الاختلاف في نوع المسؤوليات الاجتماعية الذي تقتضيه اختلافات في التركيب العضوي والعاطفي لدى الرجل والمرأة لا يضرّ بالمرأة وقيمتها المعنوية أساساً، ولهذا لا يختلف الرجل والمرأة من هذه الجهة، فأبواب السعادة والتكامل الإنساني مفتوحة أمامهما على السواء كما ذكرنا عند البحث في قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۢ﴾.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

---

(١) راجع كتاب وستر مارك، وكتاب «حقوق المرأة في الإسلام» والكتب الباحثة في مذاهب البشر وعقائدهم.

سبب النّزول

كان أكثر مشركي مكّة أهل تجارة، وقد كانوا يحصلون من هذا الطريق على ثروة ضخمة، يتنعّمون بها، وهكذا كان يهود المدينة أهل تجارة، وكانوا يعودون من رحلاتهم التّجارية على الأغلب موفورين، في حين كان المسلمون بسبب أوضاعهم الخاصّة، لا سيما بسبب الهجرة، والحصار الذي كان مشركو مكّة قد فرضوه عليهم، يعانون من وضع اقتصادي صعب جدّاً، وبكلمة واحدة كانوا يعيشون في عسرة شديدة.

فكانت مقارنة هاتين الحالتين تطرح على البعض السّؤال التالي: كيف يتنعّم أعداء الله في العيش الرخي، بينما يقاسي المؤمنون ألم الجوع والفقر المدقع؟ فنزلت الآيات الحاضرة تجيب على هذا التساؤل[١].

التّفسير

سؤال مزعج

السّؤال الذي مرّ ذكره في سبب نزول هذه الآيات والذي كان يطرحه بعض المسلمين في عصر النّبي يعتبر سؤالاً عاماً يطرح نفسه على الناس في كل زمان ومكان.

فإنّهم يرون كيف يتنعم العصاة والطّغاة، والفراعنة والفسّاق، ويرفلون في النعيم، ويعيشون حياة الرفاهية، والرخاء العريض، ويقيسونه - غالباً - بحياة الشدّة والعسرة التي يعيشها جماعة من المؤمنين، ويقولون متسائلين: كيف ينعم أُولئك العصاة - مع ما هم عليه من الإثم والفساد والجريمة - بمثل تلك الحياة الرغيدة، بينما يعيش هؤلاء - مع ما هم عليه من الإيمان والتقوى والصلاح - في مثل هذه الشدّة والعسرة، وربّما أدى هذا الأمر ببعض ضعفاء الإيمان إلى الشك والتّردد؟!

ولو أنّنا درسنا هذا السؤال بصورة دقيقة وجيدة، وحلّلنا عوامل الأمر وأسبابه في كلا الجانبين، لظهرت أجوبة كثيرة على هذا التساؤل، وقد أشارت هذه الآيات إلى بعضها، ويمكننا الوقوف على بعضها الآخر بشيء من التأمل والفحص.

تقول الآية الأُولى من هذه الآيات: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان والمنار والميزان ذيل الآية مورد البحث.

والمخاطب في هذه الآية وإن كان شخص النّبي الكريم ﷺ، إلّا أنه من الواضح البيّن أنّ المراد هو عموم المسلمين.

ثمّ تقول: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي إنّ هذه النّجاحات المادية التي يحرزها المشركون، وهذه الثروات الهائلة التي يحصلون عليها من كل سبيل ليست سوى متاع قليل، ولذّة عابرة.

﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ فالملذات المادية تستعقب عواقب سيئة، فإنّ مسؤولية هذه الأموال والثروات ستجرّهم إلى مصير مشؤوم، ذلك هو الجحيم الذي سيكون محطتهم الأخيرة ومآلهم وبئس المآل.

إنّ هذه الآية تشير - في الحقيقة - إلى نقطتين:

الأولى: إنّ أكثر مظاهر تفوّق هؤلاء العصاة الطّغاة الظالمين محدودة الأبعاد، كما أنّ متاعب أكثر المؤمنين ومشاكلهم ومحنهم كذلك مؤقتة، ومحدودة أيضاً.

وأفضل شاهد على هذا الموضوع هو ما نلاحظه في حياة المسلمين وحياة أعدائهم ومناوئيهم في صدر الإسلام.

فحيث إنّ الحكومة الإسلامية كانت آنذاك في بداية أمرها كنبتة شابّة لا تمتلك كل عناصر القوّة والمنعة لم تكن تملك القدرة الكاملة على الدفاع عن حوزتها وكيانها أمام هجوم أعدائها الألداء الذين كانوا يهاجمونها بشراسة ودونما رحمة، وخاصّة أنّ هجرة المسلمين الذين كانوا جماعة قليلة في مكّة جعلتهم في وضع حرج جدّاً إلى درجة أنّهم فقدوا كل شيء في الهجرة، ولا يختص مثل هذا الوضع بهم، بل يتعرض لمثل هذه المعاناة ومثل هذا الوضع كل من يناصر ثورة تغييرية، ونهضة معنوية وروحية جذرية في مجتمع فاسد يراد تغييره بها.

ولكننا نعلم أنّ هذا الوضع لم يدم طويلاً، فما لثبت الحكومة الإسلامية أن ترسخت جذورها وقويت دعائمها، واشتدّ أمرها، وقويت شوكتها، وانحدرت الأموال إلى مركز الإسلام من كل صوب وحدب، فانعكس الوضع تماماً، إذ عاد المترفون الكافرون والأعداء المتنعمون الذين كانوا يرفلون في النعيم والخير مساكين وفقدوا كل ذلك النعيم، وهذا هو ما يعنيه قوله سبحانه: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾.

الثّانية: إن النّجاحات المادية التي يحرزها بعض العصاة والفاسقين إنّما هي لكونهم لا يتقيّدون في جمع الثّروة بأي قيد أو شرط، فهم يجمعون المال من كل سبيل، سواء كان مشروعاً أو غير مشروع، حراماً كان أو حلالاً، بل إنّهم يجوّزون لأنفسهم اكتناز الثروة حتى على حساب الضعفاء والفقراء وامتصاص دمائهم، في حين يتقيّد المؤمنون

بمبادىء الحق والعدالة في هذا المجال، فلا يسوّغون لأنفسهم بأن يكتسبوا المال من أي طريق كان، وأي سبيل اتفق، ولهذا لا يمكن (أو لا تصح) المقارنة والمقايسة بين هؤلاء وهؤلاء.

هؤلاء يشعرون بالمسؤولية الثّقيلة، وأُولئك لا يشعرون بأيّ مسؤولية، ولا يعترفون بأي ضابطة، وحيث إنّ الحياة الحاضرة حياة الإرادة البشرية الحرّة، وعالم الاختيار الحر، كان طبيعياً أن يترك الله سبحانه كلتا الطائفتين أحراراً ليتصرفوا كيف شاؤوا، ولينتهوا في المآل إلى نتائج أعمالهم التي اكتسبوها بأيديهم، وهو ما يقصده ويعنيه سبحانه، بقوله في ختام هذه الآية: ﴿ثُمَّ مَأْوَنٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

معرفة نقاط الضّعف والقوّة معاً

ثمّ إن هناك سبباً آخر لتقدم ونجاح بعض الكفار والفاسقين، وتأخر بعض المؤمنين، وهو أنّ الطائفة الأُولى رغم خلوّهم من عنصر الإيمان يتحلّون - أحياناً - ببعض نقاط القوّة التي يحققون في ظلّها ما يحققون من المكاسب، ويحرزون ما يحرزون من النجاحات، فيما تعاني الطائفة الثانية من نقاط ضعف توجب تأخرهم وانحطاطهم.

فنحن نعرف أشخاصاً - رغم انقطاعهم عن الله - يتّسمون بالجدّية الكبيرة في أعمالهم، ويتحلّون بالاستقامة والعزم، والتنسيق والتعاون فيما بينهم، والمعرفة بقضايا العصر ومتطلباته، ومقتضياته ومستجداته، ومن الطبيعي أن يحقق هؤلاء مكاسب كبيرة ويحرزوا انتصارات ونجاحات في حياتهم المادية، وما هم في هذا الأمر - في الحقيقة - إلّا مطبّقون لتعاليم الدين وبرامجه من دون إسنادها إلى الدين وإعطائها صفته وصبغته.

وفي المقابل، هناك أشخاص متديّنون أوفياء للعقائد الدينية، لكنهم بسبب غفلتهم عن تعاليم الدين الحيوية يعانون من الجبن والإحجام، ويفتقرون إلى الشهامة والاستقامة ويفقدون عنصر الثبات والاستمرار والاتحاد والتعاون، وطبيعي أن يصاب هذا الصنف من الناس بإخفاقات متلاحقة وهزائم متتابعة، ولكن هذه الهزائم والإخفاقات ليست أبداً بسبب إيمانهم بالله، بل هي بسبب ما بهم من نقاط الضعف، وما بأنفسهم من عوامل الهزيمة، وموجبات السقوط والإخفاق.

إنّهم يتصورون (وبالأحرى يظنون) بأنّهم سينتصرون بمجرّد الصلاة والصوم في جميع المجالات، وينجحون في جميع المواقف، في حين جاء الدين بسلسلة من البرامج والمناهج العملية الحيوية للتقدم والنجاح في الحياة، يستلزم تجاهلها الفشل والسقوط والهزيمة.

إنّ لكلّ شيء سبباً، ولكل نجاح مفتاحه الخاص، ووسيلته الخاصّة، وقد أتى الدِّين بكل ذلك، وبيّنه في تعاليمه وتوصياته، فلا يمكن أن يتحقق نجاح بغير هذه التعاليم وبغير هذه الوسائل.

وخلاصة القول: إنّه لدى كل طائفة من هاتين الطائفتين نقاط ضعف، ونقاط قوّة، ولكل واحدة منها آثارها ونتائجها الطبيعية، غاية ما في الأمر أنّه قد تلتبس هذه الآثار وتشتبه على المرء عند التقييم والمحاسبة.

مثلاً: هناك كافر يتمتع لسعيه وجهاده واستمراره في أعماله بالحياة ويحقق في هذا المجال النجاح تلو النجاح، ولكنّه إذ يفتقد عنصر الإيمان بالله فإنّه يفتقر إلى نعمة الطمأنينة النفسية وفضيلة المشاعر الطاهرة، والأهداف الإنسانية العالية.

يبقى أن نعرف أنّ ما ذكرناه من العوامل الثلاث لتقدم الكفّار ونجاحهم، وتأخر بعض المؤمنين وفشلهم لا تصدق في مكان واحد، بل لكل واحد منها مورده ومجاله الخاص.

ثمّ إنّ الله سبحانه بعد أن بيّن مصير الكفّار في الآية السابقة، بيّن هنا - في الآية التي تلت تلك الآية - مصير المؤمنين، إذ قال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي إنّ الذين اتبعوا موازين الحق والعدل في الوصول إلى المكاسب المادية، أو أنّهم بسبب إيمانهم تعرضوا للحصار الاقتصادي والاجتماعي ولكنهم مع ذلك بقوا ملتزمين بالتقوى، فإنّه تعالى سيعوّضهم عن كل ذلك بجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

و(النّزل) في اللغة هو ما يعدّ للضيف من الكرامة والبر، وقال البعض: إنّه أول ما يقدم للضّيف النازل من شراب أو فاكهة.

وعلى هذا يكون معنى الآية أنّ الجنات المذكورة مع كل ما فيها من المواهب المادية هي أوّل ما يقدَّم يوم القيامة للمؤمنين المتقين، وأمّا الضيافة المهمّة والعليا فهي النعم والمواهب المعنوية التي عبّر عنها سبحانه بقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

سبب النّزول

هذه الآية - حسب ما يذهب إليه أكثر المفسّرين - نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين تركوا العصبية العمياء، والتحقوا بصفوف المسلمين، وكانوا يشكّلون عدداً معتدّاً به من النصارى واليهود.

ولكنّها حسب اعتقاد بعض المفسّرين أنّها نزلت في النّجاشي ملك الحبشة العادل، وإن كان مفهومها أوسع من ذلك المورد.

ففي السنة التاسعة للهجرة وفي شهر رجب بالذات توفي النجاشي، فبلغ خبر وفاته إلى النّبي ﷺ بإلهام إلهي في اليوم الذي مات فيه وقال ﷺ: «اخرجوا فصلّوا على أخ لكم مات بغير أرضكم»، قالوا: ومن؟ قال: النجاشي، فخرج النّبي ﷺ إلى البقيع وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي، وصلى عليه، فقال بعض المنافقين: انظروا إلى هذا يصلّي على علج نصراني حبشي لم يره قطّ وليس على دينه، فأنزل الله هذه الآية ردّاً على مقالتهم[١].

هذا ويستفاد من هذه الرواية أنّ النجاشي اعتنق الإسلام بالكامل وإن لم يظهر ذلك.

التّفسير

أهل الكتاب ليسوا سواء

قلنا - في ما سبق - إنّ القرآن الكريم إذا تطرق إلى أُمور حول اتّباع الشرائع الأُخرى لم ينظر إلى الجميع نظرة سواء، ولم يحسب لهم حساباً واحداً، ولم تتسم أبحاثه حولهم بصفة قومية أو حزبية علائية، بل ينطلق في أحكامه من أسس اعتقادية ومبدئية، ولهذا ينتقد أعمالهم وممارساتهم ولا يحكم عليهم بسبب قومياتهم أو أجناسهم، ولهذا لا ينسى فضل تلك القلّة المؤمنة الصالحة منهم والتي تميّزت عن الأكثرية الساحقة بصلاحها وحسن عملها، ولا يتجاهل قيمتها ومكانتها.

والمقام الذي نحن فيه هو أحد تلك الموارد التي جاء فيها الكلام عن هذه القلّة المؤمنة الصالحة التي استجابت لدعوة الرّسول ﷺ وخضعت للحق.

فالآية الحاضرة بعد أن وبّخت كثيراً من أهل الكتاب على كتمانهم لآيات الله،

(١) أسباب النزول للواقدي، ص ٩٣؛ ومستدرك الوسائل، ج٢، ص ٢٧٥.

وطغيانهم وتمردهم في الآيات السابقة ذكرت هذه القلّة المؤمنة، وبيّنت خمساً من صفاتها الممتازة وهي:

١ - ﴿يُؤْمِنَ بِاللَّهِ﴾ (أي إنّهم يؤمنون بالله عن طواعية وصدق).

٢ - ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ (أي يؤمنون بالقرآن).

٣ - ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي إيمانهم بنبيّ الإسلام نابع في الحقيقة من إيمانهم بكتبهم السّماوية الحقيقية التي بشّرت بهذا النّبي ودعت إلى الإيمان به إذا ظهر، فهم في الحقيقة يؤمنون بكتبهم.

٤ - ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أي إنّهم مسلمون لأمر الله وخاضعون لإرادته، وهذا التسليم والخضوع هو السبب الحقيقي لإيمانهم، وهو الذي فرّق بينهم وبين العصبيات الحمقاء، وحرّرهم من التعنت والاستكبار تجاه منطق الحقّ.

٥ - ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي إنّهم ليسوا مثل بعض أحبار اليهود الذين يحرّفون آيات الله حفاظاً على مراكزهم وإبقاءً على حاكميتهم على أقوامهم وجماعاتهم، وصولاً إلى بعض المكاسب المادية.

والإشارة إلى (الثّمن القليل) في الآية للتلويح بما كان عليه أُولئك الأحبار المحرفون للكلم من تفاهة الهمّة، وضعف الطموح، وقصر النظر، وحقارة النفس.

هذا مضافاً إلى أن كل أجر دون الأجر الإلهي حقير، وكل مكسب يحصل عليه الإنسان عوضاً عن آيات الله فهو مكسب تافه ورخيص.

وسيكون لهذه الطائفة من أهل الكتاب بسبب هذه الصفات الإنسانية العالية و هذا الموقف الواضح الحي، أجرهم عند ربّهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

والتعبير هنا بلفظة (ربّهم) إشارة إلى غاية لطفه سبحانه ومنتهى رحمته بهم، كما أنّه إشارة أيضاً إلى أنّ الله هو الذي يهديهم في هذه المسيرة الخيرة، وهو يتكفّل بمساعدتهم، ويعينهم في هذا الطريق.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فلا يتأخر عن إعطاء الصالحين المؤمنين أجرهم، كما لا يبطىء عن مجازاة المنحرفين والظالمين.

وهذه العبارة بشارة إلى الصالحين المؤمنين، كما هي أيضاً تحذير وتهديد للعصاة والمذنبين[١].

---

(١) للوقوف على تفصيل أكثر حول معنى هذه العبارة راجع، الآية ٢٠٢ من سورة البقرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾

التّفسير

هذه الآية هي آخر الآيات من سورة آل عمران، وتحتوي على برنامج يتكون من أربع نقاط لعامّة المسلمين، وهي لذلك تبدأ بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين إذ تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١ - (اصبروا): إنّ أوّل مادة في هذا البرنامج الذي يكفل عزّة المسلمين وانتصارهم هو الاستقامة والثبات، والصبر في وجه الحوادث الذي هو - في الحقيقة - أصل كلّ نجاح مادي، وعلّة كل انتصار معنوي، وهو الأمر الذي يستحق حديثاً مفصلاً لما له من أثر جدّ مهم في الانتصارات والنجاحات الفردية والاجتماعية، وهو الذي قال عنه الإمام علي عليه السلام في حكمه وكلماته القصار: «إن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد»[(١)].

٢ - (وصابروا) وهي من المصابرة (من باب المفاعلة) بمعنى الصبر والاستقامة والثبات في مقابل صبر الآخرين وثباتهم واستقامتهم.

وعلى هذا فإن القرآن يوصي المؤمنين أوّلاً بالصبر والاستقامة (التي تشمل كل ألوان الجهاد، كجهاد النفس، والاستقامة في مواجهة مشاكل الحياة)، ثمّ يوصي ثانياً بالصبر والثبات والاستقامة أمام الأعداء، وهذا بنفسه يفيد أنّ الأُمّة ما لم تتغلب وتنتصر في جهادها مع النفس، وفي إصلاح ما بها من نقاط الضعف الداخلية يستحيل انتصارها على الأعداء، وهذا يعني أنّ أكثر هزائمها أمام أعدائها إنّما هو بسبب ما لحق بها من هزائم في جبهة الجهاد مع النفس وما أصابها من إخفاقات في إصلاح نقاط الضعف التي تعاني منها.

كما وأنّه يستفاد من هذا التعليم (صابروا) أنّ على المسلمين أن يضاعفوا من صبرهم ومن ثباتهم كلما ضاعف العدو من صبره وثباته ومقاومته وعناده.

٣ - (ورابطوا) وهذه العبارة مشتقة من مادة (الرباط) وتعني ربط شيء في مكان

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٨٢

(كربط الخيل في مكان)، ولهذا يقال لمنزل المسافرين (الرباط)، ويقال أيضاً ربط على قلبه بمعنى أنّه أعطاه السكينة، وملأه بالطمأنينة وكأن قلبه انشدّ إلى مكان، وارتكز على ركن وثيق، و(المرابطة) بمعنى مراقبة الثغور وحراستها لأن فيها يربط الجنود أفراسهم.

وهذه العبارة أمر صريح للمسلمين بأن يكونوا على استعداد دائم لمواجهة الأعداء، وأن يكونوا في حالة تحفّز وتيقظ ومراقبة مستمرة لثغور البلاد الإسلامية وحدودها حتى لا يفاجأوا بهجمات العدوّ المباغتة، كما أنّه حثّ على التأهب الكامل لمواجهة الشيطان، والأهواء الجامحة حتى لا تباغتهم وتأخذهم على حين غرّة وغفلة، ولهذا جاء في بعض الأحاديث عن الإمام علي عليه السلام تفسير المرابطة بانتظار الصلاة بعد الصلاة[١]، لأنّ من حافظ على يقظة روحه وضميره بهذه العبادات المستمرة المتلاحقة، كان كالجندي المتأهب لمواجهة الأعداء على الدّوام.

وخلاصة القول: إنّ للمرابطة معنىً وسيعاً يشمل كل ألوان الدفاع عن النفس والمجتمع.

ثمّ إنّ هناك في الفقه الإسلامي باباً خاصّاً - في كتاب الجهاد - تحت عنوان (المرابطة) بمعنى الاستعداد والتأهب الكامل في الثغور لحراستها وحمايتها وحفظها أمام حملات الأعداء الاحتمالية، وقد ذكرت لها أحكام خاصّة يقف عليها كل من راجع الكتب الفقهية.

هذا وقد أُطلق على العلماء - كما في بعض الأحاديث - صفة المرابط، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته، يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا وعن أن يتسلط عليهم إبليس...»[٢].

وتعتبر نهاية هذا الحديث العلماء، أعلى مكانة من الجنود والقادة الذين يحرسون الثغور ويذبون عنها أعداء الإسلام، وما ذلك إلّا أنّ العلماء حماة الدين وحرّاسه والأمناء المدافعون عن القيم الإسلامية، والجنود حماة الثغور الجغرافيّة، ومن الثابت المسلّم به أنّ الثغور الفكرية والثقافية للأُمّة من الأمم لو تعرّضت لكيد الأعداء، ولم تستطع الذّب عنها بنجاح، فإنّها سرعان ما تصيبها الهزائم العسكرية والسياسية أيضاً.

٤ - ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ وهذا بالتالي آخر التعاليم والأوامر في هذا البرنامج، وهو بمثابة المظلة الواقية لما سبقها من التعاليم، إنّه حثّ على التقوى، ولا بدّ للاستقامة

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ ووسائل الشيعة، ج ٤، ص ١١٧.
(٢) الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص ١٧؛ وبحار الأنوار، ج ٢، ص ٥.

والمصابرة والمرابطة من أن تمتزج بعنصر التقوى، ولا يشوبها شيء من أنانية أو رياء أو أغراض شخصية.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهكذا تختم الآية هذا البرنامج بذكر النّتيجة التي تنتظر كلّ من يطبق هذا البرنامج، إنّه الفلاح والنجاح الذي يمكنكم الوصول إليه عبر الأخذ بهذه التعاليم والأوامر، وإلّا فلن تحصلوا على شيء من النجاح والانتصار.

سؤال:

هناك سؤال يطرح نفسه وهو: لماذا تبدأ بعض العبارات والجمل القرآنية بلفظة (لعل) مثل قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، و﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهي كما نعلم تفيد الترديد الذي لا يليق بالله سبحانه العالم بكل شيء؟

وقد صارت هذه المسألة ذريعة بأيدي بعض أعداء الإسلام الذين انطلقوا يقولون: إنّ الإسلام لا يعطي وعوداً قطعية بالثواب، فوعوده مرددة غير مجزوم بها، لأنّها تبدأ - في أغلبها - بلعلّ.

الجواب:

من حسن الاتفاق أن هذا النمط من التعبير يشكّل جانباً من عظمة هذا الكتاب العزيز، وواقعيته في النظرة إلى الأُمور وفي بيانها، ذلك لأنّ القرآن استخدم هذه اللفظة في كل مقام يتوقّف الاستنتاج فيه على شرائط ومقدمات قد أشار إليها ولوّح بها إجمالاً بلفظة (لعل).

فالسكوت عند الاستماع إلى القرآن والانتباه والتوجه إلى ألفاظ الآيات القرآنية مثلاً لا يكفي - بمجرده - لإحراز الرحمة الإلهيّة، بل لا بدّ من فهم الآيات ودرك معانيها، ومقاصدها، وتطبيق توصياتها، وتعاليمها وأوامرها ونواهيها، ولهذا يعلق سبحانه شمول الرحمة بقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

وعلى هذا الأساس لو كان القرآن يقول إنّكم سترحمون حتماً كان بعيداً عن الواقعية، لأنّ لتحقق هذا الموضوع كما قلنا شرائط أُخرى أيضاً، فيكون التعبير الجازم تجاهلاً لهذه الشرائط، ولكنّه إذا قال (لعلّكم) فإنّه يكون قد أخذ تلك الشرائط بنظر الاعتبار وحسب لها حسابها.

بيد أنّ عدم الالتفات إلى هذه الحقيقة جرّ البعض إلى الاعتراض على مثل هذا التعبير

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

في الآيات القرآنية إلى درجة أنّ بعض علمائنا - أيضاً - ذهب إلى القول بأن (لعل) ليست مستعملة في مثل هذه الموارد في معناها الحقيقي، وهذا كما ترى خلاف للظاهر دونما دليل.

وفي المقام نجد الآية الحاضرة مع أنّها أشارت إلى أربع نقاط من أهم التعاليم الإسلامية، ولكن حتى لا يغفل المسلمون عن بقية البرامج والتعاليم الإسلامية البناءة استخدمت كلمة (لعل) للإيذان بأنّ هناك أيضاً من الظروف والشرائط ما له دخل في تحقق هذه الرحمة ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار.

وعلى كلّ حال لو أن المسلمين اليوم جعلوا الآية الحاضرة شعارهم ومنهجهم في حياتهم اليومية وطبّقوا مفادها لانحل الكثير من مشاكلهم التي يعانون منها الآن بشدّة.

إنّ الضربات الموجعة التي يتلقّاها الإسلام والمسلمون اليوم ليست - في الحقيقة - إلّا بسبب تجاهل هذه التوصيات الإسلامية الأربع أو تناسيها كلّها أو بعضها.

ولو أنّ المسلمين أعادوا إلى نفوسهم روح الثبات والاستقامة، ولو أنّهم ضاعفوا جهودهم في مقابل مضاعفة الأعداء لجهودهم، ولو أنّهم - حسب ما في هذه الآية - شدّدوا من مراقبتهم للثغور الجغرافية والفكرية والاعتقادية وحافظوا على حالة الاستعداد والتأهب الدائمة لمواجهة أي خطر داهم، أو أي عدوّ مباغت، ولو أنّهم - فوق كل هذا - تسلّحوا بسلاح التقوى والورع، أفراداً وجماعات، وطهّروا بيئتهم من أدران الفساد لضمنوا النصر والظفر.

رباه، وفّقنا جميعاً للأخذ بتعاليم كتابك السماوي العزيز في حياتنا، وجُد علينا برحمتك الواسعة، ومنَّ علينا بلطفك، آمين يا أرحم الراحمين ويا ربّ العالمين.

فهرس الجزء الثالث

تتمة سورة البقرة

حرمة الزواج أو العدة ٥
بحوث: ١ - العدة وسيلة للعودة والصلح ٩
٢ - العدة وسيلة لحفظ النسل ٩
٣ - تلازم الحق والوظيفة ١٠
٤ - قصة المرأة في التاريخ وحقوقها المهدورة ١٠
٥ - المرحلة الجديدة في حياة المرأة ١١
٦ - المفهوم الصحيح للمساواة ١٢
إما الحياة الزوجية أو الطلاق بالمعروف ١٤
مسائل مهمة: ١ - لزوم تعدد مجالس الطلاق ١٦
٢ - شيخ الأزهر يأخذ برأي الشيعة ١٦
٣ - الحدود الإلهية ١٧
بحث: المحلل مانع من تكرر الطلاق ١٨
أحكام الرضاع السبعة ٢٥
خرافات تبعث على تعاسة المرأة: ٢٨
كيفية أداء المهر ٣٢
أهمية الصلاة وخاصةً الوسطى ٣٦
بحث: دور الصلاة في تقوية المعنويات ٣٩
قسم آخر من أحكام الطلاق ٤٠
مسألة: هل نسخت هذه الآية؟ ٤٠
كيف ماتوا وكيف عادوا إلى الحياة؟! ٤٤
بحوث: ١ - هل هذه الحادثة التاريخية حقيقية، أم مجرد تمثيل؟ ٤٥
٢ - درس للعبرة ٤٦
٣ - مسألة الرجعة ٤٧
الجهاد بالنفس والمال ٤٨
بحث: لماذا ورد التعبير بالقرض؟ ٤٩
حادثة ذات عبرة ٥٠
من هو طالوت؟ ٥١
طالوت في الحكم ٥٣
دور الأنبياء في حياة البشر ٦٣

مسألة: هل الأديان تسبب الاختلافات؟ ٦٥
الإنفاق من أهم أسباب النجاة يوم القيامة ٦٧
آية الكرسي من أهم آيات القرآن ٦٨
مجموعة من صفات الجمال والجلال ٦٩
مالكية الله المطلقة ٧٢
بحث: الشفاعة ليست محسوبية ٧٣
بحوث: الأول: المراد من العرش والكرسي ٧٦
الثاني: هل أن آية الكرسي هي هذه الآية فحسب؟ ٧٨
الثالث: الدليل على أهمية آية الكرسي ٧٩
الدين ليس إجبارياً ٨٠
بحث: الدين لا يُفرض ٨٢
نور الإيمان وظلمات الكفر ٨٣
محاجة إبراهيم مع طاغوت زمانه ٨٥
قصة «عُزير» العجيبة ٨٩
تجلٍ آخر للمعاد في هذه الدنيا ٩٤
بحوث: ١ - الحادثة الخارقة للعادة ٩٧
٢ - أربعة طيور مختلفة ٩٧
٣ - عدد الجبال ٩٧
٤ - متى وقعت هذه الحادثة؟ ٩٨
٥ - المعاد الجسماني ٩٨
٦ - شبهة الآكل والمأكول ٩٨
الإنفاق وترشيد الشخصية ١٠١
بحث: الإنفاق ومشكلة الفوارق الطبقية ١٠٣
الإنفاق المقبول ١٠٤
الكلمة الطيبة أفضل من الصدقة مع المنة ١٠٦
بحوث: دوافع الإنفاق ونتائجه ١٠٨
مثال رائع آخر ١٠٩
بحوث: مثال آخر للإنفاق الملوث بالرياء والمنة ١١١
بحوث: الأموال التي يمكن إنفاقها ١١٣
مكافحة موانع الإنفاق ١١٥
أفضل النعم الإلهية ١١٧
كيفية الإنفاق ١١٨
بحوث: الإنفاق على غير المسلمين ١٢٢
بحوث: ٣ - أثر الإنفاق في حياة المنفق ١٢٥

٤ - ما معنى (وجه الله)؟ ١٢٥
خير مواضع الإنفاق ١٢٧
بحث: الاستجداء بدون حاجة حرام ١٢٨
الإنفاق محمودٌ بكل أشكاله ١٢٩
الربا في القرآن ١٣٠
منطق المرابين ١٣٣
أضرار الربا ١٣٩
تدوين المعاملات التجارية ١٤١
بحوث: مالك كل شيء ١٤٧
علائم الإيمان وطريقه ١٤٨
عدة حاجات مهمة ١٥٠
العقاب على النسيان والخطأ ١٥١

سورة آل عمران

فضيلة تلاوة هذه السورة ١٥٤
محتوى السورة ١٥٤
تفسير الحروف المقطعة بالعقول الإلكترونية ١٥٧
١ - لا بد من الإبقاء على إملاء القرآن الأصلي ١٦٠
٢ - دليل على عدم تحريف القرآن ١٦٠
٣ - إشارات عميقة المعنى ١٦٠
علم الله وقدرته المطلقة ١٦٥
بحوث: ١ - مراحل تطور الجنين من روائع الخلق ١٦٦
المحكم والمتشابه في القرآن ١٦٨
بحوث: ١ - ما المقصود بالآيات المحكمة والمتشابهة؟ ١٦٩
٢ - لماذا تشابهت بعض آيات القرآن؟ ١٧١
٣ - ما التأويل؟ ١٧٢
٤ - من هم الراسخون في العلم؟ ١٧٣
٥ - الراسخون في العلم يعرفون معنى المتشابهات ١٧٤
٦ - نتيجة الكلام في تفسير الآية ١٧٥
٧ - ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ١٧٦
النجاة من الزيغ ١٧٦
تنبؤ صريح ١٧٩
معركة بدر والتأييد الإلهي ١٨٠
جاذبية المتاع الدنيوي ١٨٢

١ - من الذي جعل الماديات زينة؟ ١٨٣
٢ - ما هي (القناطير المقنطرة) و(الخيل المسومة)؟ ١٨٣
٣ - ما هو المراد بـ (متاع الحياة الدنيا)؟ ١٨٤
هل في الجنة لذائذ مادية أيضاً؟ ١٨٦
بحثان: الجميع يشهد بالوحدانية ١٨٨
بحوث: ١ - كيف يشهد الله على وحدانيته؟ ١٨٨
٢ - ما القيام بالقسط؟ ١٨٩
٣ - أهمية العلماء ١٨٩
روح الدين التسليم للحق ١٩٠
بحث: منشأ الاختلافات الدينية ١٩٢
بحوث: علامات الطغيان ١٩٤
بحوث: بيده كل شيء ٢٠١
الحكومات الصالحة والطالحة ٢٠٢
﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ ...﴾ ٢٠٣
بحث: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ ٢٠٤
﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ ٢٠٥
ليس في الأمر إجبار ٢٠٦
العلاقة مع الأجنبي ٢٠٦
بحثان: ١ - التقية أو الدرع الواقي ٢٠٧
٢ - التقية أو تغيير أُسلوب النضال ٢٠٨
العالم بأسراركم ٢٠٩
حضور الأعمال يوم القيامة ٢١٠
القرآن وتجسُد الأعمال وحضورها ٢١١
رأي العلماء في الثواب والعقاب ٢١٢
العلم وتجسُد الأعمال ٢١٣
الحب الحقيقي ٢١٤
الدين والحب ٢١٦
امتياز الأنبياء ٢١٧
كيفية ولادة مريم ٢٢٠
بحوث: ١ - هل العزوبة فضيلة؟ ٢٢٦
٢ - يحيى وعيسى ٢٢٦
الانتخاب الإلهي لمريم ٢٢٩
كفالة مريم ٢٣١
الاقتراع الحل الأخير ٢٣١

بقية امتيازات المسيح عليه السلام ٢٣٥
بحوث: ١ - أكانت معجزات المسيح عجيبة؟ ٢٣٧
٢ - الولاية التكوينية ٢٣٨
استقامة الحواريين ٢٤٠
بحوث: ١ - من هم الحواريون؟ ٢٤١
٢ - الحواريون في القرآن والإنجيل ٢٤٢
٣ - ما المراد بالمكر الإلهي؟ ٢٤٢
بحث: هل الديانتان اليهودية والمسيحية باقيتان؟ ٢٤٥
عاقبة أنصار وأعداء المسيح عليه السلام ٢٤٥
نفي ألوهية المسيح ٢٤٧
بحوث: ١ - المباهلة دليل قاطع على أحقية نبي الإسلام ٢٤٩
٢ - أحد أدلة عظمة أهل البيت عليهم السلام ٢٥٠
٣ - اعتراض وجوابه ٢٥٣
٥ - هل المباهلة تشريع عام؟ ٢٥٥
الدعوة إلى الاتحاد ٢٥٧
بحث: رسائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى رؤساء العالم ٢٥٩
١ - رسالة إلى المقوقس ٢٥٩
٢ - رسالة إلى قيصر الروم ٢٦١

فهرس الجزء الرابع

كيف كان إبراهيم مسلماً؟ ٢٦٤
بحث: الارتباط الديني أوثق الروابط ٢٦٥
كتمان الحق لماذا؟ ٢٦٧
مؤامرة خطيرة ٢٦٩
خطط قديمة ٢٧١
بحث: اعتراض ٢٧٤
المحرفون للحقائق ٢٧٥
بحث: في سبب نزول هذه الآية روايتان ٢٧٨
الدعوة إلى عبادة غير الله مستحيلة ٢٧٨
بحث: منع عبادة البشر ٢٨٠
الميثاق المقدس ٢٨١
الإسلام أفضل الأديان الإلهية ٢٨٤
هل تقبل توبة المرتد؟ ٢٨٩

التوبة الباطلة ٢٩١
من علائم الإيمان ٢٩٣
ماذا يعني (البر) في الآية؟ ٢٩٣
تأثير القرآن في قلوب المسلمين ٢٩٤
التوراة الرائجة وتحريم بعض اللحوم ٢٩٧
أول بيت وضع للناس ٢٩٨
ما المراد من (بكة)؟ ٣٠٠
بحث تاريخي: توسيع المسجد الحرام ٣٠٠
مزايا الكعبة وفضائلها ٣٠٢
أهمية الحج ٣٠٥
مفرقو الصفوف ومثيرو الخلاف ٣٠٨
الدعوة إلى التقوى ٣١١
الدعوة إلى الإتحاد ٣١٣
أعداء الأمس وإخوان اليوم ٣١٤
اعتراف العلماء والمؤرخين ٣١٤
دور الاتحاد في بقاء الأمم ٣١٦
الدعوة إلى الحق ومكافحة الفساد ٣١٧
بحوث: ١ - ما هو (المعروف) وما هو (المنكر)؟ ٣١٩
٢ - هل الأمر بالمعروف واجب عقلي أو تعبدي؟ ٣٢٠
٣ - أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٢٠
٤ - هل الأمر بالمعروف يوجب سلب الحريات؟ ٣٢٢
٥ - ألا يلازم الأمر بالمعروف الفوضى الاجتماعية؟ ٣٢٢
٦ - الأمر بالمعروف غير العنف ٣٢٣
الفرقة بعد الاتحاد من شيم النصارى واليهود ٣٢٤
الوجوه المبيضة والوجوه المسودة ٣٢٦
مكافحة الفساد والدعوة إلى الحق أيضاً ٣٢٨
اليهود والمصير الخطير ٣٣١
اليهود والمسكنة الدائمة ٣٣٢
مصير اليهود المظلم ٣٣٣
الإسلام وخصيصة البحث عن الحق ٣٣٤
إنفاق الكفار ٣٣٦
لا تتخذوا الأعداء بطانة ٣٣٩
البغض في مقابل الحب ٣٤٠
تحذير للمسلمين ٣٤١

بحث: سبب غزوة أُحد ٣٤٣
العباس يرفع تقريراً إلى النبي ٣٤٤
النبي يشاور المسلمين ٣٤٤
المسلمون يتهيأون للدفاع ٣٤٥
بدء القتال ٣٤٦
من الصائح: قتل محمد؟ ٣٤٧
المرحلة الخطيرة من الحرب ٣٤٩
تصحيح خطأ ٣٥٢
حول الارتباط بين الآيات القرآنية ٣٥٤
تحريم الربا في مراحل ٣٥٥
التحريم في الآية الحاضرة ٣٥٦
السباق في مضمار السعادة ٣٥٧
هل الجنة والنار موجودتان الآن؟ ٣٥٩
أين تقع الجنة والنار؟ ٣٥٩
سيماء المتقين ٣٦١
النظر في تاريخ الماضين وآثارهم ٣٦٥
السياحة والسير في الأرض ٣٦٦
دراسة نتائج غزوة أُحد ٣٧٠
الحوادث المرة ميدان تربية ٣٧٢
مزاعم جوفاء ٣٧٤
دراسة سريعة لعلل الهزيمة في أُحد ٣٧٤
لا لعبادة الشخصية وتقديس الفرد ٣٧٦
المجاهدون السابقون ٣٧٩
وقفات أُخرى عند هذه الآيات ٣٨٠
تحذيرات مكررة ٣٨١
الانتصار بعامل الرعب ٣٨٤
الهزيمة بعد الانتصار ٣٨٥
وساوس الجاهلية ٣٨٨
الذنب ينتج ذنباً آخر ٣٩٠
استغلال المنافقين ٣٩١
الأمر بالعفو العام ٣٩٣
الأمر بالمشاورة ٣٩٥
أهمية المشاورة في نظر الإسلام ٣٩٦
من تشاور؟ ٣٩٧

وظيفة المشير ٣٩٨
شورى عمر بن الخطاب ٣٩٨
مرحلة القرار الأخير! ٣٩٩
نتيجة التوكل وثمرته ٤٠١
الخيانة ممنوعة مطلقاً ٤٠١
المتخلفون عن الجهاد ٤٠٤
مع أُسلوب تربوي قرآني مؤثر ٤٠٥
النعمة الإلهية الكبرى ٤٠٦
متى تعرف قيمة البعثة النبوية؟ ٤٠٨
دراسة أُخرى لمعركة أُحد ٤٠٩
لا بد أن تتميز الصفوف ٤١٠
مزاعم المنافقين الباطلة ٤١٢
الحياة الخالدة ٤١٣
شهادة على بقاء الروح ٤١٦
أجر الشهداء ٤١٦
غزوة حمراء الأسد ٤١٧
التربية الإلهية وعطاؤها السريع ٤٢٠
مواساة القرآن للنبي ﷺ ٤٢١
المثقلون بأوزارهم ٤٢٣
لفتة أدبية ٤٢٥
المسلمون في بوتقة الاختبار والفرز ٤٢٦
طوق الأسر الثقيل ٤٢٨
مغالطات اليهود وتعللاتهم ٤٣٣
الموت وقانونه العام ٤٣٥
لا تتعبكم المقاومة ٤٣٨
العلماء والوظيفة الكبرى ٤٤٠
المعجبون بأنفسهم ٤٤١
أهمية هذه الآيات ٤٤٣
أوضح السبل لمعرفة الله ٤٤٥
النتيجة الطيبة لموقف أُولي الألباب ٤٥٠
القيمة المعنوية للرجل والمرأة ٤٥١
سؤال مزعج ٤٥٣
معرفة نقاط الضعف والقوة معاً ٤٥٥
أهل الكتاب ليسوا سواء ٤٥٧